ستيفن رانسيمان
تاريخ
الحملات الصليبية
٢- مملكة القدس
جمة
ين خليل
الجزء الثاني

تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجى

١١٠٠ - ١١٨٧م

ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية
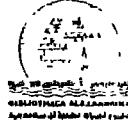
٢- مملكة القدس والشرق الفرنجى

١١٠٠ - ١١٨٧م

ترجمة

نور الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الباب الرابع: تحول المد

الباب الخامس : انتصار الإسلام

المرفقات:

الخرائط:

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من "تاريخ الحملات الصليبية"، للمؤرخ ستيفن رانسيمان الذى نقلنا إلى العربية من قبل جزءه الأول وقدمنا له. ولابد لنا من أن نستهل هذه المقدمة بفقرة من مقدمة الجزء الأول: "إن للإسلام حضارة عربية المهد عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية فى تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه فى سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوجب على المسلمين أن "يؤرخوا لأنفسهم"، وألا يتركوا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم الهوى والمصلحة مذاهب شتى، فلا ينكرون دور الحضارة الإسلامية فى قديم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفا يجنح إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وآذنت بانقضائه فيما مضى، وتؤذن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقدر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغى أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفى كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناءوا مع الأيام عن الجادّة التى أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيه، فآل

أمرهم إلى غيرهم، وقصرت أداتهم وضاقت آفاقهم فأصبحوا يعوّلون على من لا يبغون إلا مضرتهم وإذلالهم" وإنما نعيد ذكر هذه الفقرة ونحن نتوسع ، بعض الشئ ، فى بيان مدى حاجتنا إلى مدرسة تأريخ عربية قادرة على أن تعين المسلمين على أن يصححوا صور الإسلام التى تبدو مشوهة فى مرآة الغرب، والتى جاوزت - فى زمن الهيمنة - نطاق حدود الغرب الفكرية إلى غير نطاق كان ينبغى أن تأتلق فيه قدرة العرب والمسلمين على أن يعنوا هم أنفسهم بتقديم حضارتهم وتراثها.

تاريخ وتواريخ

وثمة فارق هام بين تاريخ الإسلام والتأريخ له وغيره من تواريخ الأديان الأخرى والتأريخ لها . ذلك أن حضارة الإسلام جاءت إلى الوجود بعد أن واتت الإنسان - ونعنى به الإنسان المسلم - القدرة على تسجيل تاريخه؛ فى حين أن المسيحية - التى ترجع بداياتها إلى القرن الأول الميلادى - لم يتح أن تتخذ لها مكانا فى العالم إلا فى القرن الرابع، فأتت بنمط من التأريخ يغاير ، من حيث الواقع والمنهج ، أنماط التأريخ عند الإغريق والرومان. ذلك أنه كان لابد للمسيحية من أن تجد لنفسها أصولا فى اليهودية.

واليهود هم أول شعب فى العالم القديم فرضت عليه عقيدته واجبا دينيا يقضى بأن يتذكر أبناؤه ماضيهم ، لأن العبرة فيما توارثوه من تواريخ تتمثل فى ذكر ما فعله الرب لشعبه المختار. وذلك على نقيض الحال عند الإغريق الذين لم تأمرهم آلهتهم بأن يتذكروا شيئا من هذا القبيل . فكان يتعين على كل يهودى أن يكون على دراية بالكتابات اليهودية المقدسة ، التى جُمع من بينها فى نهاية المطاف ما أصبح يعرف فيما بعد بـ"العهد القديم". فكُتّاب أسفار العهد القديم انتقوا من بين تلك الكتابات ، التى يُفترض أن كل يهودى يعرفها ، ما رأوا أنه يفسر "قصد الرب" . زد على ذلك أن لليهود تراثا غير مكتوب ، يقول عنه يوسيفوس Josephus ، المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى : "إن ما لم يدون منه بقى فى الذاكرة الجمعية لشعب إسرائيل وكهانه خاصة".

ثم جاء المسيحيون فأخذوا بالعهد القديم وأضافوا إليه كماً جديداً من "التاريخ المقدس". فكّتاب الأناجيل الأربعة ، التى يضمها العهد الجديد ، جاءوا بذكر ما رأوا أنه حقائق ينبغى على المؤمنين أن يعرفوها ؛ غير أن المؤرخين يرون أنه ليس ثمة سبيل مقنع

يعين على الوصول إلى حقائق تاريخية مما جاء به العهد الجديد ، باستثناء ما يُروى بسفر "أعمال الرسل". فالعهد الجديد على إجماله لا يمثل سوى مختارات من الكتابات المسيحية الأولى ، ولا يتضمن إلا ما اتفق مع عقيدة الكنيسة ، عندما أتيح لتلك العقيدة بآخرة أن تتخذ شكلا واحدا . وثمة فراغ تام بين سفر "أعمال الرسل"، الذى يرجع فيما يحتمل إلى أواخر القرن الأول الميلادى، وبين كتاب "التاريخ الكنسى" Ecclesiastical History الذى ألفه يوسيبيوس بامفيلوس Eusebius Pamphili of Caesarea (الذى توفى حوالى سنة ٣٤٠ ميلادية) وكتابات معاصريه فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى.

ووجد الكتاب المسيحيون أن قصة السيد المسيح ، كما ترويها الأناجيل ، يتمثل فيها تحقيق النبوات التى ذكرت فى غير مكان من العهد القديم ، وبذلك أضاف الجزء اليهودى من الكتاب المقدس إلى المسيحية بعدا قديما . وتحول التاريخ الذى ورد فى عهدى الكتاب المقدس ، اللذين أمسيا وثيقى الارتباط ، إلى ثبت وحيد يتمثل فيه وحى الرب ويتضاءل بجانبه غيره مما كتبه الناس والجماعات الدينية على اختلافها.

تاريخ عام

لم يكن مفهوم "التاريخ العام" مجهولا عند الوثنيين؛ ثم جاء المسيحيون وحاولوا أن يستفيدوا منه . ذلك أنه كان عليهم أن يحيلوا "التاريخ المسيحى المقدس" إلى "تاريخ عام" يصطبغ بالعراقة . ويرى الدارسون أن ما توخاه المسيحيون فى ذلك يتصف بمغالاة تفوق تلك التى يتصف بها ما جاء به اليهود .

واضطر المسيحيون الأولون ، فى دفاعهم عن دينهم ، إلى أن يوفقوا بين بعض ما جاء فى التاريخ الوثنى وما جاء فى "تاريخهم العام". فكان المؤرخ المسيحى يحاول بلوغ ذلك بالتوفيق بين التاريخ المقدس والترتيب الزمنى العام منذ بدء الخليقة وحتى الزمن الذى كان يعيش فيه ، فجاءت أحداث التاريخ المسيحي اليهودى متزامنة مع الأحداث البارزة فى التاريخ الوثنى بما فيه من أساطير وخرافات . وكان سيكستوس يوليوس الإفريقى Sextus Julius Africanus أول كاتب مسيحى حاول ذلك التوفيق فى القرن الثالث ، فقال - فيما قال - إن وجود البشرية بدأ منذ ستة آلاف عام وأن السيد المسيح ولد بعد مضى خمسة آلاف وخمسمائة عام على خلق العالم. وتمثل فيما كتبه سيكستوس نموذج تأثره يوسيبيوس Eusebius فى مدونته التأريخية "التاريخ الكنسى"

التى غدت أساسا توالت بعده تواريخ ألفها الكتاب البيزنطيون فى لغتهم اليونانية. وقد نقل القديس جيروم St. Jerome (الذى توفى سنة ٤١٩ أو ٤٢٠) هذا العمل إلى اللغة اللاتينية وظل تأثيره بالغا، فى غرب أوروبا ، لما يجاوز ألف عام . ويقول إدموند فرايد Edmund B. Fryde فى تناوله لهذا الموضوع: "إن الدارس المحدث يعجب ببراعة يوسيبيوس، ومن أتوا بعده، ويتملكه اليأس من سخف الكثير مما انتهوا إليه". ولنا أن نلاحظ أن الأخذ بمولد السيد المسيح على أنه بداية التقويم الميلادى استحدثه ديونيسيوس إكسيجيوس Dionysius Exiguus فى روما فى أوائل القرن السادس ، ولكن هذا التقويم لم يرج إلا عندما استخدمه اللاهوتى والمؤرخ الإنجليزى بيد Bede فى القرن الثامن.

و لم يُعن مسيحيو القرنين الرابع والخامس بكتابة تاريخ عصرهم ، وإن عنّ لهم أحيانا أن يفعلوا ذلك، فلم يكن هذا إلا من قبيل الدفاع عن دينهم فى مواجهة العالم الوثنى أو الجماعات الدينية المسيحية المعارضة التى كانت توصم بالهرطقة. وكل هذه التواريخ التى كتبها "المدافعون عن الدين" يعتورها بالضرورة قدر كبير من التحريف المتمثل فى انتقائهم ما يرون أنه يجب إبداؤه وما يرون أنه ينبغى إخفاؤه. وغالبا ما كان هؤلاء المدافعون يشتطون فى إجحافهم بحق من يناهضونهم وبحق غير المسيحيين. و لم تخلُ أعمال المؤرخين الكلاسيكيين من مثل تلك المثالب بطبيعة الحال، بيد أن المسيحيين تجاوزوا فى اقتناعهم بأنهم لابد أن يكونوا - دون غيرهم - أهل صواب. وعند المقارنة بين المؤرخين المسيحيين وواحد من الكتاب الوثنيين المبرزين مثل أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus (النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى) يتبين تميزه بأنه لا يتوانى فى إبداء إعجابه بمن يستحق الإعجاب من المسيحيين، وأنهم - على النقيض منه - يتصفون بضيق النظرة والتصلب.

التأريخ للتاريخ

ذلك ما كان عليه التأريخ الغربى على إجماله. ومن الغريب أن تلك الحال بقيت على ماكانت عليه حتى القرن التاسع عشر. وما تناولناه إن هو إلا الصورة التى تظهرها مرآة البحث الحديث، والتى وقفنا منها عند ما يقتضيه السياق. وهى صورة مركبة يتمثل فى قسماتها واقع ما انتهى إليه الباحثون، وهى قسمات تجنح بالضرورة إلى إبداء ما لا يكاد "عَطّار" الإنحياز يفلح فى إصلاح قبحه بمحاولة إخفائه. ومن شأن مثل هذا

التأريخ أن ينتج تاريخا أو تواريخ لا تسوغها فلسفة التاريخ بمنظوريها التأملي والتحليلي النقدى. ويحق لنا هنا أن نقول: أوليس غريبا أن يكون للإنسان تاريخان أو أكثر، تاريخ يتمثل فيه ما تتابع بالفعل من أحداث، ولا يكاد يلم الإنسان به إلمام الموقن، وتاريخ أو تواريخ كلها من نتاج "تأريخ" لا يكاد الإنسان فى محاولة توخى الحيدة فيه أن يبلغ بعض شأو!

وأول ما نُعنى به فى هذا السياق هو أن نلتفت إلى حقيقة جلية مؤداها أن التواريخ اليهودية المسيحية، فى أصلها تواريخ دينية انتهى بها المطاف إلى أن تصبح، على أيدى أصحاب العقائد، تاريخا دينيا موحَّداً يقوم على الانتقاء وعلى الإبداء والإخفاء ؛ ثم حاول أصحابُه أن يحيلوه إلى تاريخ عام، فتخلطت الحقائق بالأساطير والأوهام، ذلك أن أسفار الكتاب المقدس ، بعهديه القديم والجديد تقوم، فى إجمالها، على سرد يرى أصحابه أنه تواريخ أو تاريخ أو أساس للتأريخ. وهذا على النقيض من تاريخ الإسلام فالقرآن الكريم لا يعنى بالتأريخ أو بأى سرد للتاريخ أو بتحديد تواريخ، وما جاء به من قصص لم يكن إلا من قبيل ذكر المثال للتدبر والاعتبار. كما أن تاريخ محمد ﷺ لم يتناوله القرآن الكريم من قريب أو من بعيد، وإنما تناوله المؤرخون وما يزالون. وثمة فارق بيِّن بين تواريخ كتبت، على نحو أسلفناه، وانتهى البحث الحديث فيها إلى ما انتهى إليه، وتاريخ بدأ واتخذ مسيرته بعد أن أتيح للعيون والعقول أن تبصر فى نور الحقيقة والحق وإعمال العقل.

الانتماء والتأريخ

ويضطرنا ضيق النطاق ، ونحن بصدد بيان مدى حاجتنا إلى تأريخ عربى إسلامى معاصر جديد ، أن نتجاوز الحائل إلى الماثل فنلقى نظرة غير مستأنية على واقع التأريخ الحديث والمعاصر، ومدى تأثره بما انتهى إليه فكر الإنسان فى عصره الأخير. فنقول إن فروع العلم المختلفة تؤدى أدوارا بالغة الخطورة فى صياغة أوجه الفكر المختلفة على المستويات المحلية والعالمية فى مجابهة الإيديولوجيات بعضها بعضا. وإذا شئنا أن نمثل لذلك، فإننا نقول إنه يتعين على المرء أن يلقى نظرة على تاريخ العالم، أو على تاريخ أمة بعينها، من خلال الكتابات التاريخية التى قام بها كتاب ينتمون إلى أيديولوجيات مختلفة، فإنه واجد ولا شك أن هذا التاريخ - سواء أكان تاريخ العالم أم تاريخ أمة معينة - يصطبغ بشئ من طابع الفكر الذى ينتمى إليه كاتب التاريخ. ويتجلى ذلك فى

أوضح صورة إذا ما قرأنا التواريخ التي يصدرها العالم العربي والتواريخ التي كان يصدرها الشق الماركسي من العالم، كما أسلفنا في مقدمة الجزء الأول.

وليس ذلك وحسب ، فإن نعرات التراث القومية أحدثت أثرها في فوارق نلحظها في التواريخ التي يكتبها أناس ينتمون إلى حضارة واحدة كما هي الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون وغيرهم.

وإذا شئنا أن نسوق مثلا يعبر عن هذه الحقيقة في واحد من جوانبها، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى في معالجته لأحداث الواقع ، وإن كان حديثا أو معاصرا ، نرجع إلى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية عندما استقر الأمر لهتلر في بولندا بإخضاعها في أوائل عام ١٩٤٠، ثم قفزت قواته بغتة من شرق أوروبا لتجتاح غربها، ووجهت ضرباتها والعالم لا يكاد يفيق من ذهوله إلى دولتين محايدتين هما الدنمارك والنرويج. وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر، واستبسل النرويجيون دفاعا عن وطنهم بعد أن تجاوزوا وقع المباغتة. وفي تلك الآونة اندفعت القوات البريطانية لتعين النرويجيين على التصدى للهجوم الألماني؛ وبدى عندئذ أن نجاح الغزوة الألمانية أمر مشكوك فيه، ولكن الألمان أثبتوا في نهاية الأمر أن البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أندادا لهم. وأكرهت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار إلى بريطانيا، وسقطت النرويج في أيدى الألمان، الذين أتاح لهم غزو الدنمارك والنرويج الاستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة في بحر الشمال، والتي تقع في مواجهة الساحل البريطاني، مما دعم مركز هتلر في قتاله مع بريطانيا. ومضى هتلر في توجيه ضرباته ، فغزت القوات الألمانية فجأة دولتين محايدتين أخريين، وهما بلجيكا وهولندا، وقضت في وقت قصير على قواتهما. واندفعت قوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الحليفتين الجديدتين، ولكنها عجزت عن إيقاف الضربات القاصمة والسريعة التي وجهتها فرق البانزر The Panzer divisions، وأسراب كبيرة من الطائرات القاذفة. وتهاوت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة.

ويصف المؤرخ الأمريكي "سوثورث" ما حدث بعد ذلك قائلا: "إن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا، وقد عجز عن أن يهضم أن تذبح قواته، أمر كل الجنود البلجيكيين أن يلقوا بأسلحتهم".

"King Leopold III of Belgium, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms."

وهذه العبارة على بساطتها تبين أن خطوة "ليوبولد الثالث" كانت نتيجة حتمية ترتبت على ما سبقها من أحداث. ولكننا نجد أن للمؤرخ البريطانى "هربرت جورج ويلز"، رأيا آخر فى ذلك، إذ يقول: "وخطر للملك ليوبولد، الذى كان قد لجأ إلى فرنسا وبريطانيا ليعيناه عند غزو بلاده، أن الوقت كان مواتيا عندئذ لعمل من أعمال الجبن والخيانة الفائقين".

"It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance when his country was invaded, that the time was now opportune for an act of supreme cowardice and treachery."

هذا ما يقوله ويلز، بالرغم من أنه ينعى على الفرنسيين فى الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماجينو إلى ما وراء الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء للتحرك العسكرى من ناحية اليسار المكشوفة كان يعتورها نقص شديد...

"The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete."

ونحن نقدر تفهم "سوثورث" لموقف الملك ليوبولد الثالث، ونعرف فى الوقت نفسه دوافع "ويلز" فى موقفه منه. وإذا كان للنظرة أن تختلف إزاء حدث له مثل ما أسلفنا من مقدمات، فماذا يمكن أن تكون عليه الحال إذا تعلق الأمر بالمعتقدات والأيديولوجيات وما بينهما من صراعات وسياسات!

وهذا المثال يظهر جانبا واحدا من جوانب المسألة، التى تتعقد أيما تعقد إذا حاولنا أن نعدد أمثالها على امتداد تاريخ الإنسان فى عجزه القديم الجديد عن بلوغ الحيدة الموضوعية.

وإذا كان الباحثون فى فروع العلم المختلفة يتأثرون، على وعى منهم أو على غير وعى، بانتمائهم الفكرى أو العقدى أو الأيديولوجى على نحو يحيل الحيدة الموضوعية إلى ضالة يعسر الوقوع عليها، فإن أدوات البحث العلمى ووسائله كالموسوعات والمعاجم - والدور الذى تلعبه فى هذه المجالات جد خطير - تتأثر تبعا لذلك بكل هذه العوامل. وإذا ما أردنا أن نتعرف على شئ مما يشوبها يكفى أن نلقى نظرة على دائرة المعارف الإسلامية التى صنفها المستشرقون فى عصر غفلة ما تزال تهيمن على عقولنا وتتغلغل

فيما ننتهى إليه، وليذهب من شاء إليها ليرى بنفسه ولنفسه ما آلت إليه حال حضارتنا في كتابات الغرب.

وأما عن المعاجم العام منها والنوعى فحدث ولا حرج، ويكفى أن نشير إلى ما ارتبط بألفاظ: "عربى" و"محمد"، وغيرهما فى معاجم الغرب لنتبين بعدا آخر من أبعاد السعار الذى تتناول أنيابه كل ما يمت إلى الإسلام والمسلمين بصلة.

ولعله يحق لنا أن نذكر في هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينة فى المواقف التى يتخذها الغرب وتفصح عنها أحيانا أداة البحث العلمى؛ فإننا إذا ما نظرنا إلى تعريف كلمة "يهودى Jew" فى قاموس أكسفورد فى طبعتيه الرابعة والخامسة على التوالى، نرى فارقا فى التعريف لا تحتاج دوافعه إلى تعقيب، ويكفى أن نسوق التعريفين كما هما:

تعريف الطبعة الرابعة: يهودى، (اسم) شخص من الجنس العبرانى؛ مرابى مبتز (معنى دارج)، عاقد الصفقات المجحفة، غنى كيهودى (تركيب)؛ يهودى لا يؤمن = شخص لا يصدق؛ قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصديق أية رواية) ... ، تصيد اليهود = اضطهاد اليهود.

يهودى، (فعل) يغش، يحتال (دارج).

Jew (l), n. Person of Hebrew race: (transf., colloq.) extortionate usurer, driver of hard bargains; *rich as a ~; unbelieving~*, incredulous person; *tell that* (an unlikely tale) *to the~s; ~baiting,* persecution of ~s.

Jew (2), v.t. (colloq) Cheat, overreach

تعريف الطبعة الخامسة: يهودى، (اسم) شخص من الشعب العبرانى أو اليهودى، أو شخص يعتنق اليهودية؛ مرابى (معنى مهين ومبتذل)، التاجر الذى يعقد الصفقات المجحفة؛ تصيد اليهود = اضطهاد اليهود.

Jew, n. One of the Hebrew or Jewish people, or one who professes Judaism; (transf., derog., vulg.) usurer, trader who drives hard bargains; *~-baiting*, persecution of ~s.

ونحسب أننا لسنا فى حاجة إلى بيان أوجه التغيير التى أدخلت على المعانى من حيث التعديل والإضافة والحذف ولياقة استخدام الكلمة، كما نلاحظ أن استخدام "الفعل Jew" بمعنى "يغش أو يحتال" قد أسقط نهائيا من الطبعة الخامسة رغم وروده ككلمة مستقلة فى الطبعة الرابعة.

فإذا كان لنا أن نقول أن المعجم أداة بحث هامة، فإن الموسوعة تمثل وسيلة لا يستغنى عنها باحث، وهى لا تسلم فى الوقت الحاضر مما يفرضه الصراع الأيديولوجى بين مختلف الثقافات. فدائرة المعارف البريطانية، على سبيل المثال، أداة بحث حظيت وتحظى بثقة الباحثين عبر العالم كله لما عرفت به من حيدة، وإن كانت حيدتها فى نطاق انتماء حضارى معين، ويبقى الإنسان إنسانا! غير أننا لاحظنا، ونحن ننقل النظر فى طبعتها الصادرة منذ عشرين عاما وطبعاتها الأخيرة أن ما شابها نتيجة لما يقتضيه الإنتماء بالضرورة تحول إلى مثالب فرضتها الهيمنة التى تفرض نفسها فى الوقت الحاضر. ولا تتسع مقدمة كهذه لذكر مزيد من الأمثلة، ولكننا نذكر هذه الحقيقة لنلفت الأذهان إلى واجب أغفلناه أيما إغفال يفرض علينا أن نعد لأنفسنا أدوات بحث تعين باحثينا على أن يتعرفوا على حقيقة تراثنا وحضارتنا.

ولكم يعانى المرء عندما يجد أن باحثا مصريا يقول فى تاريخه عن الإسلام، عند تناوله لصفات على بن أبى طالب ﷺ : "وكان على – كما يقول نيكلسون – يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ... ". ونحب أن نتساءل هنا: ألم يكن من الأجدر بمؤرخنا أن يعود إلى المراجع العربية والإسلامية وهو يحاول التأريخ لعلى ﷺ؟ فما معنى أن ننقل عمن نقلوا عن مراجعنا، أإلى هذا الحد يمكن أن يبلغ تعويلنا على ثقافة غريبة عنا فندور فى حلقة رذيلة خادعة، دون أن نعمل ملكاتنا النقدية فنقع فى حبائل من يتنقّصون الإسلام ومثله العليا المتمثلة فى أعلامه ورجاله ويذهبون فى عدائهم له وهم كل مذهب! عن عمد يمليه الهوى أو عن جهل يفرضه قصور الأداة.

وهذا القصور فى أداة الغرب البحثية فى الفروع التى تتصدى للتأريخ للشرق، يقر به الباحثون الغربيون أنفسُهم. وحسبنا هنا أن نذكر القليل مما كتبه برنارد لويس الأستاذ بجامعة برنستون حول هذا الموضوع فى مقاله عن "الإسلام" فى كتاب "الاستشراق والتاريخ" Oriantalism and History : **"يلاحظ أن تاريخ العرب غالبا ما يكتبه فى أوروبا مؤرخون يجهلون العربية أو مستعربون يجهلون التاريخ. وفى هذا القول سخرية شديدة غير أن لها ما يبررها".**

"It has been remarked that the history of the Arabs has been written in Europe chiefly by historians who know no Arabic, or by Arabists who know no history. The gibe is sharp, but not wholly unjustified."

ثم يستطرد برنارد لويس مبينا أنه: "فى معظم الجامعات الغربية تنفصل الدراسات التاريخية عن الدراسات الشرقية فى فروع مستقلة يشتغل بها أساتذة ودارسون تختلف أهدافهم ومناهج بحثهم فى غالب الأمر. ومن قبيل المبالغة بلا ريب أن نقول إن الإثنين لا يلتقيان على الإطلاق غير أنه ليس من الإجحاف أن نقول إن كلا منهما يجاوز الآخر على الطريق محييا إياه فى برود وفى غير مبالاة بل وفى إعراض أحيانا .... إن التعامل مع المصادر التاريخية الإسلامية يقتضى من الباحث أن يبذل فى دراسة فقه اللغة جهدا عسيرا يكاد يستغرق كل وقته، فلا يتأتى له أن يكتسب دُرْبَة المؤرخ. وإذا ما واتت المؤرخ الغربى الجرأة على أن يدرس لغة شرقية فإنه لا يكاد يبلغ فى ذلك بعض غاية. فليس ثمة "لغة عمل" فى أى من اللغات الشرقية، وتعلم واحدة منها يعنى دراسة جادة ممتدة، وعندما يحاول المؤرخ أن يرجع إلى المصادر الشرقية فإن خطر تعذر الفهم والتفسير ربما جاوز فى جسامته خطر اعتماده على الترجمات التى أعدها المستشرقون ـــ برغم أن لنا أن نقول إن هذه الترجمات لا تبرأ بأية حال من الخطأ". ولا نحسب أننا فى حاجة إلى أن نعقب على ما كتبه برنارد لويس الذى استعرض فيما لم ننقله عنه العديد من المثالب المعقدة التى تتصف بها فروع التأريخ فى الغرب.

وينبغى أن نلتفت هنا إلى الأهمية الخاصة التى يجب أن نوليها لأدوات البحث ووسائله. ذلك أنه لابد للباحث كى يعد عملا علميا من أن يتعامل مع هذه الأدوات والوسائل ليقدم لنا فى نهاية الأمر بحثا يتحول بذاته إلى "مصدر" يعتمد عليه غيره من الباحثين فيما بعد، أى أنه يصبح "مرجعاً" يستعان به. وهذا يعنى بطبيعة الحال أن الأخطاء التى ترد فى أدوات البحث ووسائله الأولية تتواتر ثم تتواتر، وهذا التواتر فى حد ذاته ربما يضفى على الخطأ "قناعا" يوحى بصحته، أو يحول دون تبين حقيقته. وهذا التصور على إجماله يبين مدى الزيف الذى يمكن أن يصطبغ به نتاج الفكر. وتلك مأساة تلحق بجهد الإنسان كثيرا من التخلط والهوان.

ولنا أن نخلص من هذا كله إلى أنه يجب علينا أن ننظر فيما كتبناه من تواريخ تأثرنا فيها خطى المدرسة الغربية وأخذنا بمناهجها واعتمدنا على أدوات بحثها ، حتى نتخلص مما اعتورها من أخطاء تواترت عندهم ثم عندنا مما أفسح المجال للأباطيل والأوهام أن تتراءى فى ظل المسرح الأكاديمية وكأن لها بعض صلة بواقع أو حقيقة. ونرجو أن يتيح ذلك لنا أن نصحح ما ينبغى تصحيحه وأن نكمل ما اعتوره النقصان وأن نؤرخ لما لم يؤرخ له. ولا تتسع هذه المقدمة - بطبيعة الحال - لمعالجة النهج الذى يجب علينا أن نتخذه كى نبلغ هذه الغاية بيانا لمسيرة حضارتنا والتزاما بأصالتنا، وتقويما لثقافتنا.

وأسأل الله أن يعيننا ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

نور الدين خليل

جنيف ١٩٩٦

مقدمة المؤلف

أجتهد فى هذا المجلد أن أعرض قصة الدويلات وراء البحار (أوتريميه) ، بدءا من اعتلاء الملك بالدوين العرش وإلى أن استعاد صلاح الدين القدس . وهى قصة سبق أن رواها كتاب أوروبيون ؛ إذ أبرزها (روهريخت) فى شمول ألمانى ، وأضفى عليها (رينيه جروسيه) من فرنسية الأناقة والأصالة ، وعرضها (ى. ب. ستينس) فى إيجاز إنجليزى بالغ . ولقد سرت على نفس الدرب ، واستعنت بذات مصادرهم ؛ على أننى جازفت بأن أضفت إلى الدليل تفسيرا يختلف أحيانا عن تفسير من سبقونى . وليست القصة يسيرة دائما ، لاسيما وأن سياسات العالم الإسلامى فى باكورة القرن الثانى عشر تتحدى أى تحليل مباشر ، وإنما يلزم فهمها إذا أردنا أن نفهم قيام الدويلات الصليبية وأسباب استرجاع الإسلام لقوته فيما بعد.

و لم يشهد القرن الثانى عشر أيا من الهجرات العنصرية الضخمة التى صبغت القرن الحادى عشر ، والتى كان لها أن تتكرر فى القرن الثالث عشر ، وبذا تتعقد قصة الحملات الصليبية اللاحقة واضمحلال وسقوط الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوتريميه) . ونستطيع الآن أن نركز اهتمامنا أساسا فى (أوتريميه) ذاتها ، على أنه ينبغى

لنا دائما أن نستحضر خلفية أشمل تتسع لسياسات أوروبا الغربية ، والحروب الدينية التى أشعلها حكام أسبانيا وصقلية ، وانشغال بيزنطة ، والخلافة الشرقية . إن تبشير القديس برنار ، ووصول الأسطول الإنجليزى إلى لشبونة ، ودسائس القصور فى القسطنطينية وبغداد ، كلها أحداث مترابطة تلعب أدوارها فى المسرحية ، برغم بلوغها الذروة على تلٍ عارٍ فى الجليل .

والحرب هى جوهر هذا المجلد . وفى عرضى المسهب للكثير من الحملات والغارات سرت على درب المؤرخين القدامى الذين أتقنوا أعمالهم ؛ فما الحرب إلاّ الخلفية الأساسية للحياة فى الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوتريميه) التى غالبا ما يتوقف مصيرها على المخاطر التى يزخر بها ميدان القتال . على أننى خصصت فى هذا المجلد فصلا عن الحياة فى الشرق الفرنجى ونظامها؛ وأرجو أن أكتب فى مجلدى التالى عن تطوراته الفنية والاقتصادية ، فكلاهما جانبا الحركة الصليبية اللذان بلغا ذروة الأهمية فى القرن الثالث عشر .

ولقد ذكرت فى مجلدى الأول بعض عظام المؤرخين ممن ساعدتنى كتاباتهم . وفى هذا المجلد لابد لى من تسجيل تقديرى الخاص لأعمال (جون لامونت) ، الذى كان موته المبكر بمثابة ضربة قاسية للتأريخ الصليبى ، ونحن مدينون له قبل الآخرين جميعا بمعلوماتنا المتخصصة المتصلة بالنظام الحكومى فى الشرق الفرنجى . وأود كذلك أن أعترف بالعرفان للبروفيسور (كلود كوهين) من ستراسبورج ، الذى تعدّ رسالته العظيمة عن شمال سوريا، ومقالاته المختلفة، على جانب عظيم من الأهمية للموضوع الذى نتناوله .

كما أننى مدين لأصدقائى الكثيرين الذين ساعدونى فى رحلاتى إلى الشرق ، خاصة إدارة الآثار القديمة فى كل من الأردن ولبنان ، وشركة بترول العراق .

ومرة أخرى أعرب عن شكرى لموظفى مطبعة جامعة كمبردج لما أبدوه من عطف وصبر .

ستيفن رانسيمان

لندن ١٩٥٢

الباب الأول:

إنشاء المملكة

الفصل الأول:

مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) وجيرانها

٢٩

مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) وجيرانها

"أنتِ أكالةُ النّاس ومُثكِلةُ شعُوبكِ"

(حزقيال : ٣٦ ـ ١٢)

دخلت الجيوش الفرنجية مدينة القدس ، وبذا حققت الحملة الصليبية الأولى هدفها. على أنه إذا أراد المسيحيون أن تبقى القدس فى أيديهم ، وأن يتيسر على الحجاج بلوغها، فلا بد لهم من إقامة حكومة راسخة ، ذات دفاعات منيعة ، تربطها بأوروبا مواصلات آمنة؛ إذ أن الصليبيين الذين تمكنوا من الاستقرار فى الشرق كانوا مدركين جيدا لاحتياجاتهم . وقد شهدت الفترة القصيرة من حكم الدوق جودفرى مولد المملكة المسيحية؛ لكنه كان ضعيف أحمق برغم طيبته ؛ إذ دفعته الغيرة إلى أن يشاحر مع رفاقه ، وبوازع من ورع دفين وهب الكنيسة سلطات ضخمة ، وبموته وتولّى أخيه بالدوين أنقذت المملكة الوليدة. وكان بالدوين يتصف بالحكمة والبصيرة وصرامة رجل الدولة ؛ غير أن مسؤوليات هائلة كانت فى انتظاره ، وليس لديه سوى القليل ممن يستطيع الاعتماد عليهم بعد رحيل أهم محاربى الحملة الصليبية الأولى إلى الشمال أو

إلى أوطانهم ، و لم يتخلف من بين أبرز عناصر تلك الحركة سوى أضعفهم - بطرس الناسك - الذى لا نعرف شيئا عن حياته الغامضة هناك ، وقد عاد هو نفسه إلى أوروبا عام ١١٠١م[١] واصطحب الأمراء معهم جيوشهم فى طريق عودتهم ، و لم يكن بالدوين قد أحضر إلى الشرق أى أتباع ، فهو الإبن الأصغر المفلس ، وإنما استدان الرجال من إخوته ، وها هو الآن يعتمد على حفنة من المحاربين الورعين الذين سبق أن أخذوا العهد على أنفسهم قبل مغادرتهم أوروبا بالبقاء فى الأراضى المقدسة ، وعلى مغامرين يعلقون الآمال على امتلاك الممتلكات التى ترفعهم درجات تصل بهم إلى مصاف الأثرياء ، وكان أغلبهم - كشأنه - من أصغر الأبناء المفلسين.

أرض فلسطين

وكانت سيطرة الفرنج على أغلب الأراضي الفلسطينية ضعيفة واهية عندما تولى بالدوين شؤون المملكة . وكانت أكثرها أمنا تلك المنطقة الممتدة عبر السلسلة الجبلية من بيت لحم شمالا إلى سهل جزريل[٢] وكان المسيحيون المحليون يسكنون الكثير من القرى بعد أن هجرها أغلب المسلمين بمجىء الجيوش الفرنجية ، بل هجروا مدينتهم المفضلة نابلس التى كانوا يطلقون عليها دمشق الصغيرة . وكان الدفاع عن هذه المنطقة يسيرا ؛ إذ يوفر لها وادى الأردن الحماية من الشرق ، وليست بالنهر مخاضة بين أريحا وبيسان ، كما لا يوجد من الممرات سوى ممر واحد يصعد من الوادى إلى داخل الجبال ، كما كان من العسير دخول المنطقة من الغرب ، وإلى الشمال تقع إمارة الجليل التى استولى عليها تانكريد وضمها إلى العالم المسيحى ، والتى تشتمل على سهل إزدراليون مرج بنى عامر والتلال الواقعة بين الناصرة وبحيرة الحولة . وحدود هذه الإمارة أكثر تعرضا للإختراق ؛ إذ يمكن اختراقها من عكا على ساحل البحر المتوسط ، ومن الشرق عبر الطرق الواقعة شمال وجنوب بحر الجليل . غير أن الكثير من المسلمين هاجروا من هناك أيضا ، و لم يبق سوى المسيحيين وجماعات قليلة من اليهود فى بعض المدن ، خاصة مدينة صفد وهى الوطن الرئيسى للتقاليد التلمودية منذ أمد بعيد ؛ لكن

---

(١) Hagenmeye, Pierre l'Hermite, pp. 330-44. (ibid p. 347) مات بطرس الناسك في سن متقدمة عام ١١١٥م.

(٢) سهل جزريل : شمال فلسطين المحتلة ، ويفصل تلال الجليل شمالا عن السامرة جنوبا . وهو مذكور في العهد القديم باسم "وادي برزعيل" (أنظر سفر يشوع : ١٧ - ١٦).

أغلب اليهود آثروا اللحاق بالمسلمين فى المنفى بعد المذابح التى حصدت أبناء دينهم فى القدس وطبرية وبعد مقاومتهم للمسيحيين فى حيفا[٣] . وكانت سلسلة الجبال المركزية وطبرية بمثابة قلب المملكة . وانتشرت مواقع الاستطلاع واتسعت فى المناطق الإسلامية المحيطة ، وحصلت إمارة الجليل مؤخرا على منفذ إلى البحر فى حيفا ، وسيطرت حامية فرنجية على النقب جنوبا فى الخليل ، أما قلعة القديس أبرام ، وهي تسمية أطلقها الفرنج على الخليل ، فكانت أكثر قليلا من كونها جزيرة فى محيط إسلامى[٤]. و لم يكن للفرنج سيطرة على الطرق الآتية من شبه الجزيرة العربية حول الطرف الجنوبى للبحر الميت بطول الطريق البيزنطى القديم المسمى بطريق التوابل . وكان البدو يستخدمونه للتسلل داخل النقب والاتصال بالحاميات المصرية فى غزة وعسقلان على الساحل. وكان للقدس نفسها منفذ على البحر عبر ممر يمضى خلال اللد والرملة إلى يافا ، لكن الطريق لم يكن مأمونا بغير مواكبة عسكرية ؛ إذ كانت الجماعات المغيرة المنطلقة من المدن المصرية، واللاجئون المسلمون فى الهضاب المرتفعة وبدو الصحراء، يطوفون المنطقة ويتعرضون للمسافرين في غفلة منهم. ويروى (سايولف) - وهو من الحجاج الشماليين - مشاعر الهلع والمخاطر عندما حج إلى القدس عام ١١٠٢م[٥]. وكان أميرا المدينتين الإسلاميتين أرسوف وقيسارية ، الواقعتين بين يافا وحيفا ، قد أعلنا أنهما من أتباع جودفرى ، لكنهما بقيا على اتصال بمصر عن طريق البحر ؛ إذ كان الساحل شمالى حيفا ، الممتد مسافة مائتى ميل تقريبا، يخضع للسيطرة الإسلامية حتى مشارف اللاذقية حيث كانت الكونتيسة زوجة ريموند (كونت تولوز) تقيم مع حاشية زوجها فى حماية الحاكم البيزنطى[٦].

وكانت فلسطين بلدا فقيرا بعد أن كان مزدهرا فى العصور الرومانية . على أن ذلك الازدهار لم يصمد للغزوات الفارسية ؛ ثم شهدت البلاد مولد ازدهار آخر فى ظل الخلافة العربية ، لكن الحروب المتواصلة منذ مجيء الأتراك قضت على ذلك الازدهار فى مهده . والآن تنتشر الغابات أكثر من ذى قبل ، فما تزال هناك غابات عظيمة فى الجليل وعلى امتداد جبل الكرمل وحول السامرة ، وكذلك غابة الصنوبر

---

(٣) عن اليهود، أنظر صفحة ٣٤٤.

(٤) أنظر أعلاه ، الجزء الأول ، الصفحتين ٢٦٣ و ٣٧٦

(٥) *Pilgrimage of Saewulf* (in P. P. T. S. vol. IV).

(٦) أنظر أعلاه ، الجزء الأول الصفحتين ٣٧٨ و ٣٧٩.

الساحلية جنوب قيسارية ؛ مما أدى إلى وجود رطوبة في بلد تفتقر بطبيعته إلى الماء . وقد بقيت تلك الغابات والحدائق كلها برغم ما أحدثه الفرس من خراب مرات ومرات ، وبرغم ما تسبب فيه أبناء البلاد والماعز من خراب بطيء . وازدهرت حقول الحبوب في وادى ازدراليون (مرج بنى عامر)، وأينعت ثمار الموز وغيرها من ثمار الفاكهة المستجلبة إلى وادى الأردن ذي المناخ المداري ؛ ولولا الحروب الأخيرة لازدهر السهل الساحلى كذلك بمحاصيله وحدائقه التى تنمو فيها الخضروات والبرتقال اللاذع؛ وكانت بساتين الزيتون وأشجار الفاكهة تحيط بقرى جبلية كثيرة . على أن البلاد فى أغلبها كانت مجدبة والتربة خفيفة ضعيفة خاصة حول القدس ، وقد خلت مدنها من أية صناعة كبيرة . وحتى عندما بلغت المملكة أوج عظمتها لم يكن ملوكها فى مصاف كبار الأثرياء مثل كونت طرابلس أو أمراء أنطاكية[٧]؛ إذ كانت الضرائب هى المصدر الرئيسى للثروة . أما الأراضى الخصبة فى مؤاب والجولان عبر الأردن فكان منفذها الطبيعى عن طريق موانى الساحل الفلسطينى ؛ إذ كانت البضائع المنقولة من سوريا إلى مصر تسلك الطرق الفلسطينية ، وكانت القوافل المحملة بالتوابل الآتية من جنوبى شبه الجزيرة تجتاز النقب إلى البحر المتوسط على مر العصور. على أنه كان لابد من إغلاق المنافذ الأخرى كلها لتأمين هذا المصدر ، وهو الرسوم ؛ وكذا كان على الفرنج أن يسيطروا على كل الحدود الممتدة من خليج العقبة جنوبا إلى جبل الشيخ[٨] ، بل ومن لبنان إلى الفرات .

وفضلا عن ذلك ، لم تكن فلسطين بلادا صحية ، باستثناء القدس ذات الهواء الجبلى والمرافق الصحية الرومانية ، فهى مدينة صحية بما فيه الكفاية ، فيما عدا ما تجلبه رياح الخماسين من الجنوب من حرارة شديدة وأتربة . على أن السهول الدافئة التى جذبت الغزاة بخصوبتها كانت مرتعا خصبا للأمراض بما فيها من مياه راكدة وبعوض وذباب ، فتفشت أمراض الملاريا والتيفود والدوسنتاريا ، وسرعان ما انتشرت أوبئة الكوليرا والطاعون وغيرها فى القرى المزدحمة الخالية من المرافق الصحية ، وكثرت حالات الجزام. وسقط فرسان الغرب وجنوده فريسة لتلك الأمراض بملابسهم التي لا تلائم المناخ ، وبشهيتهم القوية ، وجهلهم بقواعد الصحة الشخصية ، وبات معدل

---

(٧) يرد موجز جيد عن فلسطين فى *Munro, The Kingdome of the Crusaders, pp. 3-9*.

(٨) جبل الشيخ أو حرمون أو سنير : اسم الجزء الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية على الحدود السورية.

الوفيات أعلى بين الأطفال. ودائما ما تمزح الطبيعة مزاحا لا يخلو من قسوة ، فتجعل مواليد الإناث أقدر على المقاومة من الذكور، مما أثار مشكلة سياسية متواصلة لدى الأجيال اللاحقة لمملكة الفرنج . على أن المستعمرين تعلموا فيما بعد ممارسة العادات الصحية ، فتهيأت الفرص لحياة أطول؛ لكن معدل وفيات الأطفال ظل في مستواه الرهيب ، وسرعان ما اتضح بجلاء ضرورة استمرار تدفق الهجرة بأعداد كبيرة من أوروبا كي يتوفر لفرنج فلسطين ما يكفي للسيطرة على البلاد .

الإحتياج إلى ميناء بحرى

كانت أولى مهام الملك بالدوين هى تأمين الدفاع عن مملكته . ولما كان ذلك ينطوى على أعمال هجومية ، فكان لزاما عليه الاستيلاء على أرسوف وقيسارية وابتلاع أراضيهما، ولابد من الاستيلاء على عسقلان التى فشل المسيحيون في غزوها عام ١٠٩٩م بسبب غيرة جودفرى من الكونت ريموند[٩] ، ودفع الحدود المصرية جنوبا كي يسلم الطريق من القدس إلى الساحل . ويجب إنشاء نقاط مراقبة متقدمة عبر الأردن وجنوب البحر الميت ، وينبغى له أن يحاول ربط مملكته بالدويلات المسيحية فى الشمال لفتح طريق الحجاج ولمزيد من المهاجرين ؛ وعليه التقدم بطول الساحل قدر الاستطاعة وتشجيع إقامة دويلات مسيحية أخرى فى سوريا . كما ينبغى له أن يوفر للمملكة ميناءً بحريا أفضل من يافا أو حيفا ؛ إذ أن ميناء يافا قريب جدا من الشاطئ ومفتوح ومياهه ضحلة للغاية فلا تستطيع السفن الكبيرة الإقتراب من الشاطئ ، ومن أجل النزول إلى الشاطئ يتعين استخدام قوارب صغيرة تتعرض لأخطار شديدة إذا ما نشطت الرياح ، أما إذا قويت الريح تعرضت السفن ذاتها للخطر . ويخبرنا الحاج (سايولف) أنه فى اليوم التالى لنزوله إلى البر هناك عام ١١٠٢م شاهد حطام أكثر من عشرين سفينة من سفن الأسطول الذى أبحر معه، كما شاهد أكثر من ألف حاج وهم يغرقون[١٠]. وأما شاطئ الرسو فى حيفا فهو أعمق وتحميه منطقة جبل الكرمل من الرياح الجنوبية والغربية ، لكن الأخطار تحدق به فى مهب الرياح الشمالية . والميناء

---

(٩) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٥٤ .

(١٠) *Pilgrimage of Saewulf, pp. 6-8*

الوحيد الآمن على الساحل الفلسطيني فى جميع الأحوال المناخية هو ميناء عكا. ولأسباب اقتصادية ، فضلا عن مبررات استراتيجية ، ينبغى غزو عكا .

أما عن الحكومة الداخلية ، فكان بالدوين فى حاجة ماسة إلى الرجال والمال . فليس فى مأموله بناء المملكة بغير ما يكفى من الثراء والقوة اللازمين للسيطرة على أتباعه . ولا سبيل إلى الحصول على الرجال سوى الترحيب بالهجرة واستمالة المسيحيين المحليين للفوز بتعاونهم . وبمقدوره توفير الأموال بتشجيع التجارة مع البلدان المجاورة ، واغتنام فرصة التبرعات من الورعين الأوروبيين الراغبين فى تشييد الكنائس فى الأراضى المقدسة ووقف الأموال عليها؛ على أن هؤلاء الورعين سيرسلون أموالهم إلى الكنيسة ، فعليه إذن أن يصبح سيد الكنيسة لضمان الإفادة من تلك الأموال لصالح المملكة كلها .

إن أعظم مصدر لقوة الفرنج هو تشتت العالم الإسلامى . وما كان للحملة الصليبية الأولى أن تحقق هدفها لولا الغيرة التى تسلطت على القادة المسلمين ونبذ التعاون مع بعضهم البعض ؛ فأما مسلمو الشيعة وعلى رأسهم الخليفة الفاطمى فى مصر، فكانوا يحملون للأتراك السنيين والخليفة العباسى فى بغداد ما يحملونه للمسيحيين من كراهية ؛ وأما الأتراك ، فقد غاصوا في التنافس بين بعضهم البعض : بين السلاجقة والدانشمنديين ، وبين الأراتقة وآل تتش ، وبين ولدى تتش ذاتهما ، دقاق ورضوان ؛ وأما الأتابج من أمثال كربوقا ، فقد تسببوا فى زيادة الإضطراب سوء على سوء لما كان يراود كل منهم من طموحات شخصية ؛ وأما الأسر المالكة الأصغر ، مثل بنى عمار فى طرابلس وبنى منقذ فى شيزر ، فقد انتهزت تلك الفوضى العارمة ونالت استقلالا واهيا ؛ ولم يكن هناك من أثر ترتب على نجاح الحملة الصليبية سوى تفاقم تلك الفوضى العقيمة ، فدب اليأس فى نفوس الأمراء المسلمين ، وراحوا يتبادلون الاتهامات، مما جعل التعاون مع بعضهم البعض يزداد صعوبة على صعوبة(١١).

وانتهز المسيحيون ارتباك الإسلام . فراحت عبقرية الإمبراطور ألكسيوس المرنة تعمل عملها فى تسيير دفة الأمور ؛ فأفاد من الحملة الصليبية واستعاد السيطرة على غربى آسيا الصغرى ، واسترد الأسطول البيزنطى مؤخرا كامل الخط الساحلى لشبه الجزيرة فصار تحت سلطة الإمبراطور ، بل عاد ميناء اللاذقية السورى إلى ممتلكات

---

(١١) للإطلاع على مقال رائع موجز حول العالم الإسلامى آنذاك ، أنظر مقدمة *Gibb's The Damascus Chronicles* (إبن القلانيسى - تاريخ دمشق)

الإمبراطور بمساعدة ريموند (كونت تولوز)[١٢] . وباتت الإمارات الأرمينية آمنة بعد أن كان الأتراك يتهددونها بالفناء؛ وأسفرت الحملة الصليبية عن مولد إمارتين فرنجيتين كانتا بمثابة إسفين فى العالم الإسلامى.

إمارة أنطاكية

كانت إمارة أنطاكية أغنى الإمارتين وأكثرهما أمانا . وقد أنشأها بوهيموند النورماندى على الرغم من معارضة رفيقه ريموند (كونت تولوز) ، وبرغم ما أقسم عليه من تعهدات للإمبراطور ألكسيوس . ولم تكن أنطاكية واسعة المساحة ، وإنما تتألف من وادى نهر الأرند (العاصى) وسهل أنطاكية وسلسلة جبال أمانوس وميناءي الإسكندرونة والسويدية . على أن مدينة أنطاكية ذاتها كانت غنية برغم التقلبات التى مرت بها مؤخرا؛ فكانت مصانعها تنتج الملابس الحريرية والسجاد والزجاج والفخار والصابون ، وكانت القوافل الآتية من حلب وما بين النهرين تتجاهل الحروب بين المسلمين والمسيحيين وتعبر بوابات المدينة فى طريقها إلى البحر . وأما سكان الإمارة فكانوا كلهم تقريبا من المسيحيين الذين يتألفون من اليونانيين ، والسريان الأرثوذكس، والسريان اليعاقبة ، والأرمن ، وقليل من النساطرة ؛ وكل طائفة منهم تنهشها الغيرة من الطائفة الأخرى ، بحيث بات من اليسير أن يسيطر عليهم النورمانديون[١٣] . أما أهم خطر خارجي تعرضت له أنطاكية فكان يتمثل فى بيزنطة أكثر مما يتمثل في المسلمين ؛ إذ أدرك الإمبراطور البيزنطي خديعته فى المسألة الأنطاكية، لكنه يسيطر الآن على موانى كيليكيا واللاذقية ، ولديه قاعدة بحرية فى قبرص ، فراح يتحين الفرصة لإستعادة حقوقه المسلوبة فى أنطاكية ، خاصة وأن الأرثوذكس كانوا تواقين للحكم البيزنطى ، لكن النورمانديين أفلحوا فى ضربهم بالأرمن واليعاقبة.

وفى صيف عام ١١٠٠م تعرضت أنطاكية لضربة قاسية ، عندما انطلق بوهيموند على رأس حملة لملاقاة أمير الدانشمند ، فانهزم وتحطم جيشه ووقع هو نفسه أسيرا . على أن الكارثة لم تتسبب في أضرار دائمة فى الإمارة عدا خسائر الرجال ؛ إذ أن الملك بالدوين، الذى كان آنذاك كونت الرها ، تصرف على الفور بحيث كان حائلا بين

---

(١٢) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٧٩ .

(١٣) بالنسبة لأنطاكية أنظر *Cahen, La Syrie du Nord, pp. 127 ff.*

الأتراك وبين متابعة انتصارهم ، وبعد أشهر قليلة أتى تانكريد من فلسطين لتولى مهام الوصاية على أنطاكية أثناء سجن خاله بوهيموند ، ووجد النورماندیون فی تانكريد قائدا لا يختلف عن خاله فى كثرة تحركه وتجرده من المبادىء الخلقية[١٤].

إمارة الرها

وكانت الإمارة الفرنجية الثانية هي كونتية الرها ، أو أورفا ، وكانت دويلة حاجزة توفر الحماية لأنطاكية من المسلمين . والآن يحكمها ابن عم الملك بالدوين وسميه، بالدوين (كونت لوبورج). وكانت الكونتية أكبر مساحة من إمارة أنطاكية ، وتمتد على جانبي الفرات من رواندان وعينتاب إلى حدود غير واضحة في أراضى الجزيرة إلى الشرق من مدينة الرها . وكانت تفتقر إلى الحدود الطبيعية وتجانس السكان ؛ إذ كانوا مسيحيين فى أغلبهم من اليعاقبة والسيريان والأرمن ، ولكن كانت هناك مدن إسلامية كذلك مثل سروق . ولم يكن بمقدور الفرنج إقامة حكومة مركزية ، وإنما كانوا يحكمون من خلال حاميات فى القليل من الحصون القوية التى كانت تفرض الضرائب والإتاوات على القرى المحيطة ، وتنطلق منها الغارات عبر الحدود فتعود محملة بالغنائم . ودائما ما كانت المنطقة كلها بلدا حدوديا ومسرحا للأعمال الحربية التى لا نهاية لها . وكانت زاخرة بالأراضى الخصبة والمدن المزدهرة . على أن الملك بالدوين الآن أقل ثراء مما كان عليه أيام أن كان هو كونت الرها، عندما كان يجبى الضرائب من أهل الرها فضلا عن إغاراته هناك[١٥] .

وكانت الدويلتان فى مسيس الحاجة إلى الرجال . بل كانت القدس ذاتها في أمس الحاجة إلى الرجال ؛ فمنذ أن فتح المسلمون فلسطين بادىء الأمر ، حرموا سكانها المسيحيين من حمل السلاح ، لذا لم يجد الحكام الجدد الصليبيون من يُعتمد عليه من الجنود المحليين . أما أنطاكية والرها فكانتا تقعان داخل الحدود البيزنطية السابقة ، وفيهما الكثير من المسيحيين من ذوى التقاليد العريقة فى الشجاعة العسكرية ، ولا سيما الأرمن ؛ وبذا كان بمقدور أى أمير فرنجى إنشاء جيش كامل العدة إذا ما تعاون معه الأرمن . وقد حاول بوهيموند ثم تانكريد فى أنطاكية ، وبالدوين الأول ثم

---

(١٤) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٨٠ ، وأدناه ، الفصل الثالث .

(١٥) Cahen, op. cit. pp. 110 ff.

بالدوين الثانى فى الرها، استمالة الأرمن بادىء الأمر ؛ على أنه ثبت من التجارب أنهم قوم تجرى الخيانة فى عروقهم ، فامتنع الإعتماد عليهم ، ولم يجرؤ حكام أنطاكية والرها على وضعهم مواضع الثقة ، ولم يكن هناك من بد لحكام هاتين الدويلتين من الإستعانة بفرسان ولدوا وتربوا فى الغرب لقيادة كتائبهم وإدارة حصونهم ، ومن الإستعانة كذلك برجال الدين الذين نشأوا فى الغرب لتسيير حكوماتهم .بيد أنه بينما كانت أنطاكية تتيح للمهاجرين حياة وادعة ناعمة، لم تجتذب الرها سوى المغامرين المعتادين على حياة السلب والنهب .

المدن الإسلامية الساحلية

أما القدس ، فكانت بينها وبين الدويلتين الفرنجيتين الشماليتين مناطق فسيحة شاسعة يحكمها عدد من عواهل المسلمين الغيورين . وكانت منطقة الساحل شمالى المملكة مباشرة تحت سيطرة الموانى الأربعة عكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها تدين بالولاء لمصر بحيث يقوى ذلك الولاء باقتراب الأسطول المصرى ويضعف بابتعاده[١٦] . وكان بنو عمار مستقلين بإمارتهم الواقعة شمالى بيروت ويحكمونها من عاصمتهم طرابلس ؛ وقد انتهز أميرها رحيل الصليبيين جنوبا فراح يوسع رقعة حكمه مؤخرا حتى طرطوس[١٧] . وبين طرطوس واللاذقية كان القاضى ابن صليحة يحكم إمارة جبلة ، على أنه فى صيف عام ١٠٠١م سلمها إلى طغتكين – أتابج دقاق الدمشقى – الذى سلمها بدوره إلى بنى عمار[١٨] . وفى جبال النصيرية الواقعة وراء طرطوس وجبلة كان بنو محرز يحكمون إمارتى المرقب وقدموس الصغيرتين ، بينما كانت إمارة الكهف تحت حكم بنى عمرون[١٩] . وأما الوادى الأعلى لنهر العاصى فكان مقسما بين خلف بن ملاعب فى أمافيا ، وهو مغامر شيعى اعترف بالولاء للسيادة الفاطمية ، وبنى منقذ أمراء شيزر – الأمراء الأهم من تلك الأسر الحاكمة الصغيرة – وجناح الدولة فى حمص ، وهو أتابج سابق لرضوان الحلبى الذى استقل بحمص بعد أن وقع في خلاف مع

(١٦) *Gibb, op. cit. pp. 15-18; Le Strange, Palestine under the Moslems, pp. 342-52*

(١٧) للمزيد حول بنى عمار أنظر مقال *Sobernheim* "إبن عمار" فى دائرة المعارف الإسلامية.

(١٨) إبن القلانيسى ، تاريخ دمشق ، *The Damascus Chronicle, pp. 51-2*

(١٩) *Cahen, op. cit. p. 180*

سيده[٢٠] . وكانت حلب ما تزال فى قبضة رضوان الذى كان يحمل لقب ملك لكونه من الأسرة السلجوقية الحاكمة . وكان بنو أرتق يحكمون الجزيرة التي تقع إلى الشرق من حلب بعد انسحابهم إليها من القدس التى احتلها الفاطميون عام ١٠٩٧م . وكان بنو أرتق أنفسهم من أتباع دقاق أمير دمشق ، الذى خلع على نفسه لقب ملك كأخيه رضوان[٢١].

وتفاقم اضطراب هذه الإنقسامات السياسية بسبب اختلاف عناصر السكان في سوريا؛ إذ كان الأتراك يشكلون أرسطقراطية إقطاعية صغيرة متناثرة ؛ وكان الأمراء الأقل كلهم تقريبا من العرب ؛ وأما سكان المدن فى شمالى سوريا ومناطق دمشق ، فكانوا مسيحيين فى أغلبهم ، من السريان المنتمين إلى الكنيسة اليعقوبية ، والنساطرة فى المناطق الشرقية ، ومن الأرمن المتسللين من الشمال، وكان أغلب السكان فى أراضى بنى عمار من المارونيين أتباع مذهب "المونوثيلية"[٢٢]. وفى جبال النصيرية استقرت قبيلة النصيرية ، وهى طائفة شيعية يستمد منها خلف بن ملاعب قوته ، وكان الدروز - وهم فئة شيعية تؤله الحاكم بأمر الله - يقيمون في منحدرات جنوب لبنان، ويكرهون جيرانهم المسلمين ، لكنهم كانوا أشد كراهية للمسيحيين. وازداد تعقد الأمور بهجرة العرب المطردة من الصحراء ، وتدفق الأكراد من الجبال الشمالية إلى الأراضى الخصيبة ، وكذلك بوجود جماعات التركمان التى كانت على استعداد لأن تضع نفسها تحت إمرة أى زعيم محارب يدفع لها[٢٣].

الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية

كان حكام مصر الفاطميون أقوى جيران سوريا من المسلمين؛ إذ كان وادى النيل والدلتا فى عالم العصور الوسطى أكثر المناطق كثافة بالسكان ، وكانت مصانع القاهرة والإسكندرية العظيمتين تنتج الزجاج والفخار والأدوات المعدنية ، فضلا عن الكتان

---

(٢٠) أنظر مقال *Honigman* "شيزر" ، ومقال *Sobernheim* "حمص" ، فى دائرة المعارف الإسلامية ، وكذلك *introduction to Hitti, An Arab-Syrian Gentleman, pp.5-6*

(٢١) أنظر Gibb, *op. cit. pp. 22-4*

(٢٢) (المترجم) *Monotheletism* معتقد لاهوتى مفاده أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٢٣) أنظر Gibb, *op. cit.* pp. 27-9

والمنسوجات المزركشة ، وكانت المحاصيل الوفيرة من الحبوب تنمو فى المناطق المزروعة، والدلتا زاخرة بمزارع قصب السكر . كما كانت مصر تسيطر على تجارة السودان الرائجة بما تشمله من ذهب وصمغ عربي وريش نعام وعاج ، وتنقل تجارة الشرق الأقصى المبحرة عن طريق البحر الأحمر عبر الموانى المصرية إلى البحر المتوسط . وبرغم ما كان يشاع من إفتقاد المصريين للشهرة العسكرية ، كان بمقدور الحكومة المصرية أن تدفع بالجيوش الجرارة إلى الميدان ، كما كان باستطاعتها استخدام المرتزقة أيا كان عددهم ؛ وفضلا عن ذلك ، فهي القوة الوحيدة التي تنفرد بامتلاك أسطول بحرى ضخم . ولذا كان من الطبيعي للحاكم الشيعي في مصر أن يوفر الحماية للشيعة في سوريا ، بل وللعرب السنيين الذين يخشون السيطرة التركية ، ومن ثم كانوا على استعداد للإعتراف بسيادته لما كان يتحلى به دائما من تسامح ؛ على أن الغزوات التركية دأبت على تقليص الإمبراطورية الفاطمية في سوريا، كما أن استيلاء الفرنج على القدس وتغلبهم على التعزيزات المصرية في عسقلان ، أضر بمكانة الخلافة الفاطمية. بيد أنه كان بمقدور مصر تعويض جيش فقدته في معركة ، فلم يكن هناك مفر فى أن يسرع الوزير الأفضل قدر استطاعته في الانتقام من الهزيمة واسترجاع فلسطين ، لاسيما وأنه هو نفسه أرميني مولود في عكا ويحكم مصر باسم الخليفة الفاطمي الصغير (الآمر) ؛ وهكذا ظل الأسطول المصرى على اتصال بالمدن الإسلامية الساحلية فى فلسطين[٢٤] .

أما الخليفة العباسي الشاب المستظهر بالله العباسي ، والذي يعتبر ندا لنظيره الفاطمي، فكان قابعا فى الظل في بغداد لا ينفذ له أمر من الأمور إلا بعد موافقة السلطان السلجوقي بركيارق أكبر أبناء ملك شاه العظيم ، وإن كان دون أبيه قوة واقتدارا ؛ ودائما ما كان إخوة السلطان السلجوقي يتمردون عليه ، فاضطروه إلى أن يهب أخاه الأصغر سنقر ، مقاطعة خراسان ، وظل منذ عام ١٠٩٩م في حرب دائرة مع أخيه محمد الذى تمكن أخيرا من الفوز بمقاطعة العراق . وهكذا بقى بركيارق في انشغال دائم يحول بينه وبين أن يكون حليفا نافعا في الكفاح ضد المسيحيين .

وكان زعيم أصغر فرع فى الأسرة الحاكمة السلجوقية ، وهو قلج أرسلان الأناضولي، والذى خلع على نفسه لقب سلطان ، فى وضع أفضل قليلا من ابن عمه فى

---

(٢٤) أنظر Wiet, *L'Egypte Musulman*, pp. 260 ff.

العراق آنذاك. وكانت الحملة الصليبية الأولى قد انتزعت منه عاصمته نيقية مع جُل ثروته في معركة دوريليوم ؛ كما استردت بيزنطة أغلب الأراضي التي كان يسيطر عليها ؛ وكان على خلاف مع سلاجقة الشرق إذ رفض الإعتراف بسيادتهم . على أن المهاجرين التركمان الوافدين إلى الأناضول وفروا له الوسيلة التي أعاد بها بناء جيشه ، وأصبحوا شعبه الذى يفوق عدد المسيحيين[٢٥]. على أن الإمارة الأكثر نشاطا فى شمال شرق الأناضول كانت إمارة الدانشمند فى سيواس وعلى رأسها الأمير أنوشتكين الذى أطبقت شهرته الآفاق لإيقاعه بوهيموند فى الأسر ، وكان أول قائد مسلم يحرز النصر على جيش من فرسان الفرنج ، وما فتئت قوته تتزايد بمجيء المهاجرين التركمان[٢٦] .

وكانت هناك عدة إمارات أرمينية تفصل بين أتراك الأناضول والدويلتين الفرنجيتين فى شمال سوريا؛ فكان أوشين يسيطر على أواسط جبال طوروس ، وأمراء بيت روبين يسيطرون على المنطقة الواقعة إلى الشرق منه ، وكواسيل فى جبال طوروس المقابلة ، وثاتول فى مرعش ، وجبرائيل فى ملطية . وكان كل من ثاتول وجبرائيل من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية ، ومن ثم اتجهت ميولهما إلى بيزنطة ، وكان كلاهما يرتكز من الناحية القانونية على ما خلعه الإمبراطور على كل منهما من ألقاب . وأما أمراء بيت روبين ، الذين انفردوا بنجاحهم فى إنشاء دويلة كتب لها الدوام ، فكانوا على عدائهم التقليدي لكل من بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية[٢٧].

بيــزنطة

كانت بيزنطة أكثر القوى المسيحية الخارجية اهتماما بشؤون سوريا . وكان الإمبراطور الكسيوس معتليا عرش الإمبراطورية لما يقرب من عشرين سنة . وقد تسلم الإمبراطورية بادىء الأمر وهي فى أشد حالات تدهورها ، فراح يعيد بناءها على دعائم

---

(٢٥) أنظر مقالى "السلاجقة" و "قلج أرسلان" فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢٦) *For the Danishmends, see Mukrimin Halil, article 'Danishmend', in Islam Ansiklopedisi*

(٢٧) لمزيد من الإطلاع على الخلفية الأرمينية أنظر: *Tournebize, Histoire Politiqueet Religieuse d'Armeniepp. 168-70.* ؛ وانظر أيضا أعلاه ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٥ وما بعدها.

راسخة بما عرف عنه من دبلوماسية وإدارة إقتصادية ماهرة ومعاملة حسنة لرعاياه ، بل ولأنداده داخل وخارج الإمبراطورية على السواء ؛ فاستغل الحركة الصليبية لإسترجاع غربى آسيا الصغرى من الأتراك ، وأعاد تنظيم أسطوله فسيطر به على السواحل . وكان لبيزنطة مكانتها التقليدية العظيمة فى أرجاء الشرق حتى وهى فى أشد درجات تدهورها ؛ فهى الإمبراطورية الرومانية بتاريخها الذى تحمله وراءها بألف سنة ؛ والجميع يعترف بالإمبراطور رئيسا للعالم المسيحى مهما بلغت كراهية رفاقه المسيحيين لسياسته أو حتى لجشعه ؛ والقسطنطينية أكثر مدن العالم أخذا بالألباب لكثرة سكانها ونشاطهم ، ولضخامة ثروتها، وتحصيناتها المنيعة . وكانت القوات البيزنطية المسلحة تنفرد بأنها الأحسن تجهيزا فى زمانها ؛ كما تنفرد عملة الصلدوس الذهبية ، (هيبربيرون Hyperpyron) التى تسمى بيزانت بأنها العملة الوحيدة المضمونة فى احتساب المبادلات الدولية لوقت طويل ، وكان قسطنطين العظيم هو الذى ثبّت قيمتها . وكان لبيزنطة أن تلعب دورا مسيطرا فى السياسات الشرقية لما يقرب من قرن من الزمان أمامها . على أن ما حققته بيزنطة من شتى ضروب النجاح كان يرجع فى حقيقة الأمر إلى ما كان يتصف به رجالاتها من ذكاء متقد، وإلى اسمها الرومانى ، أكثر مما يرجع إلى قوتها الحقيقية ؛ فقد دمرت الغزوات التركية نظام الأناضول الإقتصادى والإجتماعى الذى كانت الإمبراطورية تعتمد عليه جُل اعتمادها لتلبية احتياجاتها من الجنود والغذاء ؛ وبرغم إمكان استرداد الأرض ، يكاد يستحيل إسترجاع النظام السابق . والآن أصبح الجيش كله تقريبا من المرتزقة ، ولذا فهو باهظ التكاليف وليس فى الإمكان كذلك الإعتماد عليه ؛ فإذا كان من الجائز الإطمئنان إلى استئجار المرتزقة الأتراك من البنجاك للتصدى للفرنج أو للسلافيين ، فليس فى الإمكان وضعهم موضع الثقة أمام أتراك آسيا؛ كما أن المرتزقة من الفرنج لن يحاربوا رفاقهم الفرنج طواعية . وكان الكسيوس قد لجأ فى مستهل حكمه لجوء المضطر إلى شراء المساعدة من البنادقة على أن يمنحهم امتيازات تجارية برغم ما لحق رعاياه من أضرار ؛ ثم أتبع ذلك بمنح امتيازات للمدينتين البحريتين جنوا وبيزا ، ومن ثمّ بدأت تجارة الإمبراطورية تنتقل إلى الغرباء . وبعد ذلك بقليل إضطرته حاجته إلى السيولة المالية إلى التلاعب فى العملة ، فأمر بضرب قطع من العملات الذهبية التى يقل محتواها الذهبى عمّا كان عليه من قبل ، فاختلت الثقة فى البيزانت ، وفى الحال أصر عملاء الإمبراطورية على أن يتقاضوا مستحقاتهم بعملة "الميخائيليات" التى ضربت فى عهد الإمبراطور ميخائيل السابع ، وكانت آخر العملات التى اشتهرت بأنها الجديرة بالثقة .

وكانت أول اهتمامات الإمبراطور توفير الرفاهية لإمبراطوريته . ولقد رحب بالحملة الصليبية الأولى ، وكان مهيأ للتعاون مع زعمائها ؛ لكن طموحات بوهيموند وخيانته فى أنطاكية صدمته وأغضبته ، وباتت أولى رغباته إسترجاع أنطاكية والسيطرة على الطرق المؤدية إليها عبر آسيا الصغرى . وكان تعاونه مع الصليبيين قد وصل إلى نهايته بانتقالهم جنوبا إلى فلسطين . وأما السياسة البيزنطية التقليدية طوال القرن السابق فكانت التحالف مع الفاطميين فى مصر ضد السنيين العباسيين والأتراك ؛ فكانت معاملة الفاطميين للمسيحيين الشرقيين تتميز بالرفق والعطف ، عدا فترة حكم الخليفة الحاكم المجنون ؛ ولذا لم يكن هناك ما يدعو ألكسيوس إلى افتراض أن حكم الفرنج للمسيحيين الشرقيين سيكون أفضل من حكم الفاطميين ، وبذا نأى بنفسه عن المسيرة الفرنجية التى تستهدف القدس . بيد أنه لم يكن بوسعه ، وهو باعتباره راعيا للأرثوذوكس ، أن يتجاهل مصير القدس . وإذا كان مقدرا للمملكة الفرنجية البقاء ، فيكون لزاما عليه أن يتخذ من الخطوات ما يكفل له تأكيد حقوقه ؛ وهو على استعداد لأن يُظهر للفرنج فى فلسطين ما يدل على حسن نواياه، لكن مساعداته الإيجابية سوف تقتصر على مساعدتهم فى فتح الطرق العابرة لآسيا الصغرى. وأما مشاعره حيال النورمانديين فى أنطاكية فكانت العداء لا غير ، وقد اتضح فيما بعد أنه عدوهم الخطر. ولا يبدو أنه كان يمنى النفس باستعادة الرها، وربما تحقق من فائدة الكونتية الفرنجية بوضعها كمخفر متقدم فى مواجهة العالم الإسلامى[٢٨].

مشاكل بالدوين

ولقد برز عنصر جديد فى السياسات الشرقية بتدخل المدن التجارية الإيطالية التى تخلفت عن الإنضمام إلى الحملة الصليبية إلى أن أيقنت من أنها تبشر بالنجاح ؛ فعندئذ راحت بيزا والبندقية وجنوا ترسل الأساطيل إلى الشرق ، واعدة بتقديم المساعدة للصليبيين نظير حصولها على منشآت فى أية مدينة تشارك فى غزوها . ورحب الصليبيون بذلك ؛ فيكاد يستحيل إخضاع المدن الساحلية الإسلامية بغير القوة البحرية، فضلا عن أن السفن ستؤمن لهم سرعة الإتصال بأوروبا الغربية بدلا من الرحلة الطويلة

(٢٨) للإطلاع على وضع بيزنطة وسياسة ألكسيوس ، أنظر المجلد الأول فى أماكنها المختلفة .

على اليابسة . على أن ما كانت تطلبه تلك المدن من امتيازات وتحصل عليه لم يكن يعنى سوى أن تفقد حكومات الفرنج فى الشرق الكثير من الإيرادات العامة[٢٩] .

و لم تكن تعقدات الوضع الدولى من حول الملك بالدوين تبشره بالتفاؤل . فإما أن حلفاءه تعوزهم الحماسة أو أنهم مجبولون على الجشع ، فلا تشغلهم سوى الأنانية . فكان يستعين بتشتت أعدائه ؛ ولو أن العالم الإسلامى وجد زعيما يجمع شمله ، لتضاءلت فرصة البقاء أمام الدويلات الفرنجية فى الشرق . وفى ذات الوقت لم يكن مع بالدوين سوى قلة قليلة من الأنصار فى أرض مناخها مميت ، كانت على مر القرون ساحة للإقتتال بين الأمم. ولقد استبشر لما علم بأن هناك حملات صليبية جديدة انطلقت فعلا من الغرب .

---

(٢٩) يرد أحسن موجز للدور الذى لعبه الإيطاليون فى: Heyd, *Histoire du Commerce du Levant* vol. I, pp. 131 ff

الفصل الثانى:

الحملات الصليبية

سنة ١١٠١م

٤٧

الحملات الصليبية سنة ١١٠١م

"فقالوا لا نصغى"

(إرميا: ٦. ١٧)

وصل نبأ استعادة المسيحيين لبيت المقدس إلى أوروبا الغربية فى أواخر صيف ١٠٩٩ م ؛ فأثار فى القلوب الحماس والبهجة . وتوقف المؤرخون فى أرجاء أوروبا عن تناول الأحداث المحلية ليسجلوا تلك الرحمة العظيمة التى أنزلها الرب بهم. وكان البابا إيربان قد مات قبل أن يعلم بذلك النبأ ؛ لكن أصدقاءه ومساعديه فى جميع الكنائس راحوا يمجدون الرب لنجاح سياسته . وعاد كثير من زعماء الصليبيين خلال الشتاء التالى إلى أوطانهم ومعهم رحالهم . ولا شك فى أن الجنود - كدأبهم - بالغوا فى وصف ما اعترضهم من مصاعب و تصوير روعة الأراضى التى احتازوها ، واختلقوا الكثير من معجزات السماء ليشدوا من أزرهم . على أنهم جميعا أعلنوا عن أن الحالة فى الشرق تحتاج إلى محاربين و مستعمرين لمواصلة "عمل الرب" ، وأن الثروات والضياع الضخمة تنتظر من يفوز بها من المغامرين . وراحوا يشجعون حملة صليبية جديدة

يمنحها دعاة الكنيسة بركاتهم[١].

على أن الحملة التالية لم تشرع فى الرحيل إلا فى بداية خريف ١١٠٠ م ، فلم يكن السفر مناسبا فى أشهر الشتاء، وكان الحصاد ينتظر من يجمعه . وفى سبتمبر عام ١١٠٠ م غادرت الحملة الصليبية اللومباردية إيطاليا إلى الشرق ، وعلى رأسها أبرز الشخصيات اللومباردية أنسلم (كونت بُويه) رئيس أساقفة ميلانو وبصحبته ألبرت كونت بياندرات، وجيبرت كونت بارما ، وهيو كونت مونتبيللو . ولم يكن لأبناء لومبارديا فى الحملة الصليبية الأولى دور بارز ؛ فخلال الأشهر الأولى من تلك الحملة رحل الكثير منهم شرقا وانضموا إلى بطرس الناسك ، لكنهم أسهموا فى دمار حملته لتآمرهم مع رفاقه الألمان ضد الفرنسيين ، ومن بقى منهم على قيد الحياة انضم الى بوهيموند ، الذى علا نجمه فوق زعماء الصليبيين جميعا نتيجة لذلك. وكانت الحملة الراهنة أكثر تنظيما بقليل. وكان فيها قلة قليلة من الجنود المدربين ، وتتألف أساسا من رعاع جاءوا من الأحياء الفقيرة فى المدن اللومباردية ، بعد أن اضطربت معيشتهم لانتشار الصناعة فى المقاطعة ولم يكن لهم محلا فيها . وصحبتهم أعداد كبيرة من رجال الدين والنساء والأطفال . وكانت حملة ضخمة الحشود يقدر المؤرخ ألبرت كونت آيكس عدد أفرادها بمائتى ألف شخص ، إلا أنه ينبغى أن نقسم هذا العدد على عشرة على الأقل . ولم يكن هناك سبيل لأن يسيطر أحد على هذا الحشد ، سواء أكان رئيس الأساقفة ، أم كونت بياندرات الذى كان يعتبر القائد العسكرى للحملة[٢].

١١٠٠م اللومبارديون يتجمعون

وفى خريف ١١٠٠ م ، شرع اللومبارديون فى مسيرتهم متمهلين ، عبر كارنيولا أسفل وادى نهر ساف وخلال أراضى ملك هنجاريا ، ودخلوا الامبراطورية البيزنطية عند بلجراد ؛ وكان الكسيوس مهيأ للتعامل معهم . فسار جنود حراسته معهم عبر البلقان . وكانوا كثرة يتعذر توزيع الإمدادات عليهم ومراقبتهم وهم فى معسكر واحد؛

---

(١) أنظر مثلا، خطاب البابا باسكال الوارد فى Migne, Patrologia Latina, vol. CLXIII, cols. 42 ff. وكان يعتقد فى الشرق أنه إذا لم تصل تعزيزات فقد يتعين إخلاء الأراضى المفتوحة *De Translatione S. Nicolai in R. H. C. Occ. vol. v,p. 271*.

(٢) Albert of Aix, VIII, I, p.559, Anna Comnena, XI, viii, I, vol. III, p. 36, وتسميهم أنا كومنينا "نورمانديين تحت قيادة أخوين باسم (Phlantras).

فتقرر تقسيم الحملة إلى ثلاث مجموعات : الأولى تمضى الشتاء فى معسكر خارج مدينة فيلوبوبوليس ، والثانية خارج أدريانوبل (أدرنة) ، والثالثة على مشارف مدينة رودوستو. وحتى مع هذه التجزئة استحالت السيطرة عليهم لما كانوا عليه من فوضى عارمة ؛ إذ راحت كل مجموعة تغير على المناطق المحيطة بمعسكرها ، تنهب القرى وتقتحم مخازن الغلال ، وتسرق الكنائس . وفى نهاية الأمر جمعهم الامبراطور فى شهر مارس فى معسكر واحد خارج أسوار القسطنطينية منتويا نقلهم إلى آسيا بغاية السرعة؛ لكنهم علموا بخروج صليبيين آخرين للحاق بهم ، فرفضوا عبور مضيق البوسفور إلى آسيا إلى أن تصل تلك التعزيزات . فقطعت عنهم السلطات الامبراطورية المؤن لإجبارهم على التحرك ، فما كان منهم إلا أن بادروا بمهاجمة أسوار المدينة وشقوا طريقهم إلى فناء قصر (بلاشيرنا) الامبراطورى حيث قتلوا أسدا أليفا من أسود الامبراطور وحاولوا فتح بوابات القصر . وكان رئيس أساقفة ميلانو وكونت بياندرات فى ضيافة الامبراطور الكريمة ، فارتاعا لما حدث ، واندفعا خارجين إلى وسط الحشود المشاغبة ونجحا أخيرا فى إقناعها بالعودة إلى المعسكر ؛ ثم كان عليهما أن يراجها مهمة تهدئة الامبراطور(٣).

غير أن الذى تأتى له أن يصنع السلام هو ريموند (كونت تولوز) الذى كان يمضى فصل الشتاء فى ضيافة الامبراطور ، بعد أن فاز بثقته الكاملة . وكان ذا شهرة عظيمة لأنه أقدم أمراء الصليبيين جميعا ، وكان صديقا للبابا إيربان والأسقف أدهمار ، فأصغى له اللومبارديون ووافقوا على الأخذ بنصيحته والإنتقال إلى آسيا. وبنهاية شهر أبريل كانوا قد استقروا فى معسكر بالقرب من نيكوميديا انتظارا لوصول الصليبيين الجدد من الغرب(٤).

١١٠١م : اللومبارديون والفرنسيون فى القسطنطينية

ولم يطو النسيان أبدا فرار ستيفن كونت (بلوا) من أنطاكية ، لأنه لم يفِ بقسمه

---

(٣) Albert of Aix, VIII, 2-5, pp. 559-62; Orderic Vitalis, x, 19, vol. IV, P. 120, يخلط ألبرت القصة قائلا إن الإمبراطور استخدم أسوده ضد الصليبيين.

(٤) Albert of Aix, VIII, 7, p.563; Anna Comnena, XI, viii, 2 vol. III, pp. 36-7. وقيل إن ريموند كان بحوزته ما يسمى (الرمح المقدس) أنظر Runciman, *'The Holy Lance found at Antioch'*, in Analecta Bollandiana, vol. LXVIII, pp. 205-6.

الصليبى، وأظهر الجبن فى وجه الأعداء . ولذا كانت زوجته الكونتيسة أديلا، إبنة وليم الغازى ، تعتصرها مرارة الخجل منه . فلم تكن تكف ، حتى حينما ينفردا معا فى مخدعهما ، عن توبيخه كى يذهب لإسترداد سمعته . و لم يكن بوسعه التذرع بأن الكونتية فى احتياج اليه . إذ أن زوجته كانت دائما الحاكم الفعلى للكونتية . ونال منه الضجر وتملكته الهواجس الشريرة ، فانطلق إلى الأراضى المقدسة مرة أخرى فى ربيع ١١٠١م(٥).

وانتشر نبأ اعتزامه الخروج، وبدأ فرسان كثيرون يعدون العدة لمصاحبته إلى أن خرجوا معه تحت قيادة ستيفن كونت برجاندى ، وهيو كونت بروى ، وبالدوين كونت جراندبريه ، وهير كونت بيرفوند (أسقف سواسن) . وارتحلوا جنوبا خلال إيطاليا ثم عبروا البحر الأدرياتيكى ، ووصلوا القسطنطينية فى أوائل مايو تقريبا. وفى مكان ما أثناء الرحلة أدركتهم فرقة ألمانية صغيرة يرأسها كونراد الذى كان كونستابل الامبراطور هنرى الرابع(٦).

وابتهج الصليبيون الفرنسيون لرؤية ريموند فى القسطنطينية ، وزادت بهجتهم بعد أن استقبلهم الامبراطور . وربما بإيعاء من الكسيوس ، قرروا تنصيب ريموند قائدا للحملة كلها؛ و لم يكن بوسع اللومبارد ين سوى الإذعان . وفى الأيام الأخيرة من شهر مايو تحرك الجيش كله من نيكوميديا فى طريقه الى دوريليوم ، و كان يتألف من فرنسيين ، وألمان ، ولومبارديين ، وبعض البيزنطيين بقيادة تسيتاس ، الذى كان معه خمسمائة من المرتزقة الأتراك - وربما كانوا من البتشنج.

واستهدفت الحملة الوصول إلى الأراضى المقدسة وأن تعيد ، فى طريقها ، فتح الطرق التى تخترق آسيا الصغرى فى ، وهو هدف ثانوي أيده الامبراطور تأييدا تاما . ولذا أوصى ستيفن (كونت بلوا) أن تسلك الحملة طريق الحملة الصليبية الأولى من خلال دوريليوم وقونية . ووافق ريموند على نصيحته لأنها تتفق والتعليمات التى تلقاها من الامبراطور. لكن النورمانديين الذين يشكلون أغلب الجيش كان لهم رأى آخر، فبوهيموند هو بطلهم ، وليس هناك غيره ممن يثقون فى قدرته على قيادتهم إلى النصر ؛ لكنه أسير لدى أمير الدانشمند فى قلعة نقصار الواقعة على مسافة بعيدة إلى الشمال الشرقى من الأناضول ، فأصروا على أن تكون مهمتهم الأولى هى إنقاذ بوهيموند ، و لم

(٥) Orderic Vitalis, x, 19, vol.iv, p. 119.

(٦) Albert of Aix, VIII, 6, pp. 256-3; Orderic Vitalis, loc.cit.

تجد اعتراضات ريموند وستيفن أذنا صاغية ؛ فما يشعر به ريموند من غيرة حيال بوهيموند كان معروفا جيدا ، كما أن ريموند - برغم مزاياه - لم يظهر أبدا بمظهر القائد الذى يأمر فيطاع . وأما ستيفن ، فقد تسبب جبنه السابق فى أنطاكية فى القضاء على ما تبقى له من نفوذ . وهكذا انتصر رأى اللومبارديين بعدما أيدهم كونت بياندرات ورئيس اساقفة ميلانو[٧]. وانحرف الجيش شرقا من نيكوميديا ويمم وجهه شطر أنقرة . وكانت البلاد فى أغلبها تحت السيطرة البيزنطية ، ولذا لم يجد الصليبيون صعوبة فى الحصول على الغذاء من أى مكان، فيما عدا أنقرة نفسها التى تتبع الآن السلطان السلجوقى قلج أرسلان . وعندما وصلوها يوم ٢٣ يونية وجدوا تحصيناتها ضعيفة فهاجموها واستولوا عليها ، وسلموها لممثل الامبراطور ، فكان ذلك تصرفا حكيماً.

١١٠١م : معركة مرسيفان

غادر الصليبيون أنقرة باتجاه الشمال الشرقى عبر الطريق الذاهب إلى جنجرة الواقعة إلى الجنوب من بفلاجونيا كى يصلوا إلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى أماسيا ونيقصار . على أن متاعبهم بدأت ولمّا يصلوا إلى جنجرة ، إذ كان قلج أرسلان يتقهقر أمامهم مخربا البلاد ليمنع عنهم الطعام . وفى ذات الوقت شعر الملك غازى الدانشمند بالخطر فبادر بتحديد تحالفه مع قلج أرسلان ، وأرسل إلى رضوان الحلبى يستحثه على إرسال التعزيزات . وفى أوائل يوليه وصل الصليبيون إلى جنجرة حيث كان السلاجقة ينتظرونهم بأعداد ضخمة فى الحصن المنيع ، واضطر الصليبيون إلى الرحيل بعد أن نهبوا البلاد واستولوا على ما فيها من طعام ، ثم نال منهم الجوع والتعب ، وهم الذين لا قِبل لهم بحرارة يولية المحرقة فى هضبة الأناضول . وبين مشاعر اليأس وخيبة الأمل أخذوا بنصيحة الكونت ريموند بأن لا سبيل إلى إنقاذ الجيش من كارثة محققة إلا بالسير شمالا باتجاه كستمونى ، ومنها إلى أية مدينة بيزنطية على ساحل البحر الأسود . ولم يساور ريموند شك فى أن الامبراطور سيغفر له مخالفته لتعليماته بعد أن استعاد له القلعتين العظيمتين : أنقرة وكستمونى ، لاسيما أن الأخيرة (كاسترا كومنون - أى قلعة كومنين) هى موطن الأسرة الامبراطورية من قبل.

(٧) Albert of Aix, VIII, 7, pp. 563-4 يقول إن قرار السير شرقا هو قرار اللومبارديين.

ومضت الرحلة إلى كستمونى بطيئة مؤلمة . فالماء فى تناقص ، والأتراك يدمرون المحاصيل أثناء تحركهم السريع فى صفوف متوازية ، يناوشون طليعة الصليبين تارة ومؤخرتهم تارة اخرى . ولم يمض وقت طويل حتى هاجم الأتراك فجأة حرس الطليعة الذى كان يتألف من سبعمائة فارس من اللومبارديين فضلا عن المشاة فلاذ الفرسان اللومبارديون بالفرار تاركين المشاة للقتل والتنكيل . وبجهد جهيد تمكن ستيفن (كونت برجندى) من جمع شتات الطليعة لصد هجوم الأعداء . وخلال الأيام التى تلت تكرر اشتباك ريموند فى المؤخرة مع الأتراك ، مما أجبر الجيش كله على أن يتحرك فى حشد واحد ، فامتنع إرسال الكشافين أو فرق البحث عن المؤن . وبوصول الجيش إلى كستمون بدا واضحا للقادة أن فرصة النجاة الوحيدة هى الإندفاع مباشرة بقدر الإمكان فى اتجاه الساحل، على أن النورمانديين رفضوا مرة أخرى الاستجابة لنداء العقل ، ولعلهم ألقوا باللوم كله على ريموند لإختياره طريق كستمونى بما فيه من مصاعب ، وربما ظنوا أن الأمور ستسير على ما يرام بخروجهم من أراضى السلاجقة إلى أراضى الدانشمند ، وانتهى بهم الأمر إلى إصرار أحمق على التوجه إلى الشرق مرة أخرى ، ولم يكن للأمراء من حيلة سوى الرضوخ لإصرارهم ؛ إذ أن انفصالهم بفرقهم الصغيرة عن الجيش الرئيسى يعنى ضياعا محققا . وتحركت الحملة الصليبية وعبرت نهر هاليس فصارت فى أراضى الدانشمند . وفى الطريق تلبّسهم شيطان النهب والسلب ، فنهبوا قرية مسيحية قبل وصولهم إلى مدينة مرسيفان الواقعة فى منتصف الطريق بين النهر وأماسيا ، وهناك وقع الكونستابل كونراد فى كمين ففقد عدة مئات من جنوده الألمان وبات جليًا الآن أن الدانشمند وحلفاءهم يتجمعون فى حشود ضخمة استعدادا لهجوم حاد ، فراح ريموند ينظم صفوف الجيش المسيحى استعدادا للمعركة(٨).

وبدأ الأتراك أسلوبهم المفضل فى الحرب : ينقض الرماة ويطلقون سهامهم وينسحبون بسرعة ليظهر رماة أخرون من اتجاه آخر . ولم تتهيأ للصليبيين فرصة نزال رجل لرجل بحيث تظهر ميزات قوتهم البدنية الأكبر وأسلحتهم الأفضل . وسرعان ما

---

(٨) Albert of Aix, VIII, 8-14, PP. 564-7. يقول ألبرت إن ريموند أخذ رشوة من الأتراك ليقود الجيش إلى كستمونى وليس هذا مقنعا. Anna, loc. cit. تذكر أنا كومنينا نهب القرية المسيحية Grousset, Histoire des Croisades, vol. II, p. 326 N. 2, من الواضح أنه على حق فى رفض ما حدده Tomaschak من أن "Maresch" التى ذكرها Albert هى (Amasea Topographie von kleinasien,p.88) وأن يعكس ما حدده Michaud على أنه Merzifun or Mersivan. ويستطيع أى فرنسى جاهل أن يغير بسهولة Mersivan إلى Maresiam or Marescan والأخيرة هى الشكل الفرنسى لـ Marash ولكن من الصعب أن نرى كيف يمكن وضع حرف الراء `r` فى Amasya، وهى الإسم التركى لـ Amasea أو Masa العربية.

انهار اللومبارديون ، ودب الرعب فى قلوبهم وهم يولون الأدبار يسبقهم قائدهم كونت بياندرات تاركين وراءهم نساءهم وقساوستهم ، وفى الحال لحق بهم المرتزقة من البتشنج الذين لم يجدوا أى مبرر لانتظار موت محقق . وصار ريموند وحيدا بعد أن هجره رفاقه ، فتقهقر مع حرسه الخاص إلى تل صخرى صغير وراح يقاوم إلى أن تمكن ستيفن كونت بلوا وستيفن كونت برجاندى من إنقاذه . وارتد الفرسان الفرنسيون وكونراد الألمانى إلى المعسكر حيث قاوموا بشجاعة طوال النصف الثانى من النهار . وبحلول الليل وجد ريموند أن لا طاقة له بمزيد من القتال ، فهرب متخفيا تحت جنح الظلام مع حرسه الخاص (البروفانس) والحرس البيزنطى ، ويمم وجهه شطر الساحل . ولما علم رفاقه بفراره كفوا عن القتال ؛ وشهد انبلاج الصباح تسابق من نجا من الجيش تاركين المعسكر يستولى عليه الأتراك بمن فيه من غير المحاربين.

وتمهل الأتراك فى المعسكر ليقتلوا الرجال والمسنين ، ثم انطلقوا يتعقبون الفارين وقد أخذ الحماس منهم كل مأخذ ، ولم يفلت من سيوفهم سوى الفرسان على خيولهم، ولم يبق من اللومبارديين المعاندين الذين تسببوا فى الكارثة سوى قادتهم . وهكذا فقد الجيش أربعة أخماسه ، وفاز الأتراك بكثير الكثير من نفيس الثروة والأسلحة ، وامتلأت أجنحة الحريم وأسواق الرقيق فى الشرق يومئذ بالأسرى من الصبايا والأطفال(٩).

وأفلح ريموند وحرسه فى الوصول إلى ميناء بافرة البيزنطى الصغير على مصب نهر هاليس حيث وجدوا سفينة أبحرت بهم إلى القسطنطينية ؛ وأما الفرسان الآخرون فقد شقوا طريق عودتهم عبر النهر حتى الساحل عند سينوب على البحر الأسود ، حيث واصلوا سيرهم البطئ على الطريق الساحلى وسط الأراضى البيزنطية وحتى البوسفور ثم تجمعوا مرة أخرى فى القسطنطينية فى باكورة الخريف(١٠).

١١٠١م نتائج معركة مرسيفان

حاول الرأى العام الصليبى أن يجد كبش فداء يلقى عليه بمسؤولية الكارثة ، فوجده فى بيزنطة ؛ إذ قيل إن ريموند بقيادته للجيش فى غير طريقه ، ليهلك فى كمين

(٩) Albert of Aix, VIII, 14-23, pp. 567-73, وتتفق روايه ألبرت مع الرواية المقتضبة التى روتها أنا كومنينا فى Anna Comnena, xi, viii, 3, vol. iii, pp. 37-8.

(١٠) Albert of Aix, viii, 24, p. 274.

متفق عليه سلفا ، إنما كان ينفذ تعليمات الامبراطور . لكن الحقيقة هي أن الامبراطور غاضب الآن على ريموند ورفاقه برغم استقباله لهم بأدب يشوبه بسرود لا يخفى إمتعاضه[١١] ، وكان حريا به أن يغفر لهم لو أن الحملة الصليبية استردت له كستمونى والجزء الداخلى من بفلاجونيا ؛ فقد كان متلهفا على طريق مباشر مأمون إلى سوريا ، وراغبا في تأمين معاودة غزواته في جنوب غرب آسيا الصغرى ، وساعيا إلى التدخل في شؤون سوريا ، فضلا عن عزوفه عن التورط فى حرب مع الأمير الدانشمندى ، لاسيما أن المفاوضات جارية الآن لشراء بوهيموند ؛ وهكذا فشلت مخططاته بسبب حماقة اللومبارديين ليس إلا . على أن الكارثة كانت لها آثارها الأخطر ؛ فالحملة الصليبية الأولى جردت الأتراك من شهرتهم ومن ثقتهم بأنفسهم كذلك ، ولكن الأتراك الآن استعادوا الشهرة والثقة بالنفس على السواء ، وتمكن السلطان السلجوقى من بسط سيطرته على أواسط الأناضول ، وسرعان ما أقام عاصمة ملكه فى قونية الواقعة فى قلب الطريق الرئيسى من القسطنطينية إلى سوريا ، بينما واصل الملك غازى الدانشمندى غزواته في وادى الفرات وحتى مشارف كونتية الرها[١٢] . وهكذا بات الطريق البرى من أوروبا إلى سوريا مغلقا فى وجه البيزنطيين ، فضلا عن الصليبيين . وعلاوة على ذلك ، ساءت العلاقات بين الصليبيين وبيزنطة لإصرار الصليبيين على أن صانع بلاياهم هو الامبراطور ، بينما شعر البيزنطيون بالصدمه والغضب لغباء الصليبيين وجحودهم وخداعهم.

١١٠١م : الحملة الصليبية النفرسية

لم يمض وقت طويل حتى اتضحت نتائج الكارثة . فبعد أيام قليلة من انطلاق اللورمبارديين من نيكوميديا ، كان جيش فرنسى قد وصل القسطنطينية وعلى رأسه وليم الثانى، كونت نفرس . وكان قد خرج من وطنه فى فبراير ١١٠١ م ، مرتحلا عبر إيطاليا ثم عبر البحر الأدرياتيكى من برنديزى إلى أفلونا. وترك جيشه انطباعا رائعا أثناء مسيرته عبر مقدونيا لما أبداه من انضباط، واستقبل الامبراطور الكونت استقبالا حسنا، ولكن الكونت قرر عدم البقاء فى القسطنطينية ؛ وربما توقع أن ينضم فى القسطنطينية إلى قوات كونت برجندى - وهو جاره فى الوطن - ولذا أسرع فى الرحيل قدر

(١١) Ibid., loc. cit يقول إن ريموند راح يهدىء من حفيظة الإمبراطور.

(١٢) Cahen, La Syrie du Nord, p.232; Michael the Syrian, iii, pp.189-191.

استطاعته آملا اللحاق به . وبوصوله نيكوميديا ، علم أن الصليبيين ذهبوا إلى أنقرة ، فوصلها فى نهاية يوليه تقريبا . على أنه لم يكن هناك من يعرف مكان الجيش الفرنسى اللومباردى ؛ ولذلك عاد وليم متخذا الطريق الذاهب إلى قونية . وبرغم ما لقيه الجيش فى رحلته من مشاق فى بلد لم يبرأ من الخراب منذ الحملة الصليبية الأولى ، فقد تقدم الجيش فى نظام تام . وكانت قونية آنذاك فى قبضة حامية سلجوقية قوية ، وباءت بالفشل محاولات وليم فى الهجوم على المدينة للاستيلاء عليها. وتحقق من أن التأخير هناك يخلو من الحكمة ، فواصل مسيرته . بيد أنه فى تلك الأثناء علم قلج أرسلان والملك غازى بظهور هذا العدو الجديد. وكان حماس الانتصار على اللومبارديين ما يزال مشتعلا ، فأسرعا جنوبا ربما خلال (قيصرية مزاكا) و(نيجده) ، فوصلا هرقلة قبل وليم. وكان الجنود النفرسيون يسيرون ببطء باتجاه الشرق من قونية ، وقد نفد الطعام ، والآبار الموجودة على الطريق قد سدها الأتراك . ولدى اقترابهم من هرقلة ، وهم فى حالة من شدة التعب والضعف ، وقعوا فى كمين وأحاط بهم الجيش التركى الذى كان يفوقهم بأعداده الغفيرة . وانهارت مقاومتهم بعد قتال قصير . وسقطت القوة الفرنسية بكاملها فى ميدان المعركة ، عدا الكونت وليم نفسه والقليل من الفرسان الراكبين الذين تمكنوا من اختراق خطوط الأتراك ، وبعد أن هاموا على وجوههم عدة أيام فى جبال طوروس وصلوا قلعة جيرمانيكوبوليس البيزنطية ، الواقعة شمال غرب سلوقية الإيزورية . ويبدو ان الحاكم البيزنطى هناك أمدهم بقوة من اثنى عشر جنديا مرتزقا من البتشنج لمرافقتهم حتى الحدود السورية . وبعد ذلك بأسابيع قليلة دخل الكونت وليم ورفاقه أنطاكية ، نصف عرايا وبلا سلاح، قائلين إن البتشنج استلبوهم وتركوهم فى الصحراء التى كانوا يعبرونها ؛ غير أن ما حدث فى حقيقة الأمر لا يعلمه أحد(١٣).

١١٠١م : الحملة الصليبية الأكيتانية

لم يكد كونت نفرس يعبر البوسفور فى طريقه إلى الأراضى المقدسة حتى وصل القسطنطينية جيش آخر أكبر يتألف من فرنسيين وألمان . وكانت الفصيلة الفرنسية بقيادة وليم التاسع ، دوق أكيتان ، الذى كان أشهر الشعراء الغنائيين فى عصره (Troubadour)، والذى كان من الناحية السياسية غريما مريرا لريموند التولوزى ؛ إذ أن زوجته ، الدوقة فيليبا ، هى إبنة الأخ الأكبر لريموند ، وكان لها أن ترث كونتيته. وجاء

(١٣) Albert of Aix, viii, 25/33, pp. 576/8.

مع وليم التاسع هيو (كونت فيرمندوا) الذى كان قد تخلى عن الحملة الصليبية الأولى بعد الإستيلاء على أنطاكية ، وكان متلهفا على الوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . وانطلق الجيش الأكيتانى من فرنسا فى شهر مارس فى الطريق البرى الذى يخترق جنوب ألمانيا وهنجاريا. وفي الطريق إنضم إليه الدوق ويلف دوق بافاريا الذى أمضى حياة حافلة فى ألمانيا، ثم أزمع أن يمضى مابقى له من سنوات الشيخوخة في الحرب من أجل الصليب في فلسطين . وأحضر معه جيشا مجهزا تجهيزا جيدا يتألف من فرسان وراجلين ؛ وكان بصحبته ثيمو ، رئيس أساقفة سالزبرج ، ومرجرافين إيدا النمساوية ، وكانت إحدى أجمل نساء عصرها؛ لكنها الآن وقد ولى شبابها سعت إلى مافى الحملة الصليبية من إثارة يشوبها الورع . وسار الجيشان المتحدان معا أسفل نهر الدانوب إلى بلجراد ثم سلكا الطريق الذى يخترق البلقان . وكان حشدا جامحا يغلب علي سلوكه العبث الذى بلغ مداه بوصولهم ادريانوبل ؛ فأرسلت السلطات البيزنطية جنود البتشنج و الأتراك الروس (البولوفتسيان) لوقف أى تقدم آخر لهم . وبدأت معركة عادية ؛ ولم يسمح لهم بالتقدم إلا بعد أن تدخل الدوق وليم ومعه ويلف شخصيا وتعهدا بانضباط سلوك الجند . ورافقهم حرس قوى حتى القسطنطينية ، حيث استقبل ألكسيوس الكونت وليم ، وويلف ، ومارجرافين ، استقبالا حسنا، وكان قد أعد العدة لنقل رحالهم بأسرع ما يمكن عبر البوسفور . واستقل بعض الحجاج المدنيين سفينه أخذتهم مباشرة إلى فلسطين التى وصلوها بعد رحلة استغرقت ستة أسابيع، وكان بينهم المؤرخ إيكارد (كونت أورا) Ekkehard of Aura.

وكان بمقدور الدوقين اللحاق بوليم الثانى كونت (نفرس) وتقوية جيشيهما بالانضمام الى قواته. لكن كونت نفرس كان يرغب في الإنضمام الى كونت برجندى ، وليس من المتوقع أن ينضم الدوق وليم الى جيش يقوده عدوه القديم ريموند كونت تولوز . أما ويلف البافارى ، الذى كان عدوا قديما للإمبراطور هنرى الرابع ، فربما كانت المودة منعدمه بينه وبين كونراد ، الذى كان يعمل فى خدمة هنرى الرابع (كونستابل) . وأسرع كونت نفرس متقدما إلى أنقره ، بينما تريث الجيش الأكيتانى البافارى على ضفاف البوسفور خمسة أسابيع ، ثم تحرك متمهلا على طول الطريق الرئيسى الذاهب إلى دوريليوم وقونية . ووصل دوريليوم بعد أن غادرها الجيش النفرسى بأيام قليلة وابتعد كثيرا فى طريق عودته باتجاه قونية . ومما زاد من صعوبات الأكيتانيين والبافاريين مرور جيش آخر على نفس الطريق قبل ذلك بأيام قليلة ، مستوليا على

القدر الضئيل الذى كان متاحا من إمدادات الطعام ، فألقى الصليبيون باللوم على البيزنطيين خاصة . وكشأن النفرسيين ، وجدوا الآبار جافة أو مسدودة فنهبوا مدينة فيلوميليوم بعد أن هجرها أهلها . وكانت الحامية التركية ، التى صدت الجيش النفرسى فى قونية ، قد هجرت المدينة قبل وصول هذا الجيش الأكبر آخذة معها كل شئ يؤكل، ونزعت الثمار والفواكه من البساتين والحدائق جميعا ، فلم يجد الصليبيون ما يجددون به حيويتهم . وفى نفس تلك اللحظة تقريبا كان قلج أرسلان وملك غازى أمامهم على مسافة مائة ميل تقريبا يذبحون رجال نفرس.

١١٠١م : معركة هرقلة

راح الصليبيون يكدحون فى شق طريقهم من قونية خلال الصحراء نحو هرقلة وقد نال منهم الجوع والعطش . وظهر فرسان الأتراك من يمينهم ويسارهم ، يرشقونهم بسهامهم ، ويتصيدون فرق البحث عن الطعام والجماعات الشاردة . وفى أوائل سبتمبر دخلوا هرقلة فوجدوها مهجورة مثل قونية . وكان النهر يتدفق بمياهه وراء المدينة ، وهو أحد الأنهار القليلة ذات المياه الوفيرة طوال الصيف فى الأناضول.

واندفع المحاربون المسيحيون نحو المياه التى بدت لهم مرحّبة تاركين صفوفهم وقد أوشكوا على الجنون من قسوة الظمأ ، ولكن الجيش التركى كان مختبئا فى الآجام الكثيفة على جانبى النهر . وبينما كان الصليبيون فى صخبهم الفوضوى ، انقضّ عليهم الجيش التركى وأحاط بهم، ولا وقت هناك لإصلاح الصفوف ، فدبّ الذعر فى الجيش المسيحى واختلط الفرسان والمشاة فى فرارهم مذعورين ، وأثناء تعثرهم فى محاولة الفرار راح العدو يعمل فيهم السيف . وتمكن دوق أكيتان من شق طريقه على فرسه إلى الجبال يتبعه سائس الخيل ، وبقى هكذا هائما على وجهه أياما عدة إلى أن عثر على طريق طرسوس . وجرح هيو (كونت فيرمندوا) جرحا بليغا فى المعركة ؛ وتمكن بعض رجاله من إنقاذه وتمكن هو الآخر من الوصول إلى طرسوس ، لكنه كان رجلا ميتا ، إذ وافته المنية يوم ١٨ أكتوبر ودفن هناك فى كتدرائية القديس بطرس ، ولم يف هذا بعهده الذى قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . ولم يفلح ويلف البافارى فى النجاة إلا بعدما ألقى بدروعه كلها ، وبعد عدة أسابيع وصل إلى أنطاكية مع اثنين أو ثلاثة من خدمه . وأسير رئيس أساقفة ثيمو ، واستشهد فى سبيل عقيدته .وأما مصير مارجرافين النمساوية ولا يعلمه أحد . وتقول الأساطير المتأخرة إنها أنهت أيامها سيرة فى

حريم بعيد حيث ولدت البطل المسلم زنكى ، والراجح أنها سقطت من فوق محفتها أثناء الذعر وداستها الأقدام حتى ماتت(١٤).

انتهت كل حملة من الحملات الصليبية الثلاث عام ١١٠١ م بكارثة ، مما كان له أثره فى قصة الحركة الصليبية برمتها. فقد انتقم الأتراك لهزيمتهم فى دوريليوم ، وفضلا عن ذلك ، ليسوا هم الذين يطردون من الأناضول . وظل الطريق عبر شبه الجزيرة محفوفا بالمخاطر للجيوش المسيحية ، فرنجية كانت أو بيزنطية . وفيما بعد عندما رغب البيزنطيون فى التدخل فى سوريا ، كان عليهم تعزيز مواقعهم فى نهاية خطوط المواصلات التى كانت طويلة وضعيفة جدا ؛ بينما كان المهاجرون الفرنج يخشون الرحيل برا عن طريق القسطنطينية ، إلا إذا كانوا فى صحبة جيوش جرارة ، وليس أمامهم سوى ركوب البحر ، وهو أمر لا يتوفر إلاّ للقليل من ذوى القدرة المالية . وبدلا من وصول آلاف المستعمرين الذين تستفيد منهم سوريا وفلسطين فى ذلك العام، لم يصل إلى الدويلات الفرنجية سوى عدد ضئيل من القادة المشاغبين الذين فقدوا جيوشهم شهرتهم ، حيث يوجد بالفعل ما يكفى من القادة المشاغبين.

ومع ذلك ، لم يشعرالمسيحيون كلهم بالأسف لكوارث عام ١١٠١ م . إذ وجدت المدن البحرية الإيطالية أن الفشل فى تأمين الطريق البرى عبر آسيا الصغرى يعنى زيادة نفوذها وثروتها؛ فهى تملك السفن التى توفر البديل لخطوط مواصلات الدويلات الفرنجية فى الشرق ، وأصبح التعاون معها أمرا لازما لازبا ، وأصرّوا على أن يكون الدفع فى شكل امتيازات تجارية . وأما الأرمن فى جبال طوروس ، خاصة الأمراء الروبيون ، فقد رحبوا بالظروف التى حالت دون معاودة بيزنطة إنشاء امبراطوريتها فى المناطق التى يعيشون فيها ؛ رغم أن الأرمن الأقرب إلى الشرق كانوا أقل ابتهاجا لتلك الظروف ، إذ أن عدوهم الرئيسى هو الأمير الدانشمندى ، الذى سرعان ما دفعه حماس انتصاره إلى مهاجمتهم . أما النورمانيديون فى أنطاكية ، كشأن

---

(١٤) Albert of Aix, VIII, 34-40, pp.579-82 (وهو المصدر الوحيد الكامل) ؛Ekkehard, XXIV XXVI, pp.30-2، ذهب بحرا من القسطنطينية ، ويشوّش الحملات الأرضية كما يفعل Fulcher of Charters, VII,xvi, 1-3, pp. 428-33. وهناك ثلاثة Passiones S. Thiemonis يصف استشهاد رئيس الأساقفة ولكن ليس هناك تفصيلات عن الحملة . وأما مصير إيدا الحدسى فيرد فى Historia Welforum Weingartensis, in M.G.H.Ss.vol. XXI, p. 462. ويقول إكهارد إنها قتلت لا غير. وهناك عدة مؤرخين غربيين يشيرون إلى هذه الحملة بجرد المناسبة . ويحدد Hagenmeyer(op.cit. p. 457) تاريخ نهب فيلوميليوم بحوالى ١٠ أغسطس ، وتاريخ المعركة حوالى ٥ سبتمبر.

الروبيين يخشون بيزنطة أكثر مما يخشون الأتراك، فقد أتيحت لهم فسحة من الوقت نافعة ؛ فما زال بوهيموند في الأسرالمضني ، وانتهز تنكريد - الوصي على أنطاكية - الفرصة بكاملها وراح يقوى الإمارة على حساب الامبراطور . وسرعان ما وضعت الأقدار في يده ورقة رابحة.

١١٠٢م اعتقال الكونت ريموند

كان دوق أكيتان ، وكونت بافاريا ، وكونت نفرس ، قد وصلوا فعلا مع القليلين الباقين على قيد الحياة إلى أنطاكية بحلول خريف ١١٠١ م . أما قادة الحملة الصليبية الفرانكولومباردية فكانوا لا يزالون فى القسطنطينية . وكان من الصعب أن يغفر لهم ألكسيوس حماقاتهم . حتى ريموند الذى كان يعلق عليه الآمال العراض خيب آماله هو الآخر . وفى نهاية العام قرر الأمراء الغربيون مواصلة رحلة الحج ؛ وطلب ريموند الإذن ليلحق بزوجته وجيشه فى اللاذقية ، فأذن لهم الامبراطور وأمدهم بسفن أبحرت بهم إلى سوريا. وفى بداية العام تقريبا هبط إلى البر فى ميناء السويدية ستيفن (كونت بلوا) ، وستيفن (كونت برجندى) ، والكونستابل كونراد ، وألبرت (كونت بياندرات) ، وأسرعوا إلى اللاذقية حيث رحب بهم تنكريد ترحيبا حارا أما سفينة الكونت ريموند فقد انفصلت عن باقى السفن واضطرت إلى الرسو فى ميناء طرسوس . وما أن وطئت قدمه البر حتى تقدم منه فارس يدعى برنار الغريب وألقى القبض عليه لخيانته العالم المسيحى بفراره من ميدان القتال فى مرسفان . ولم يكن بمقدور حرس ريموند الخاص أن يفعل شيئا لقلة عدده ، فلم يتمكن من إنقاذه . واقتيد ريموند تحت الحراسة وسُلّم لتنكريد[١٥].

---

(١٥) Albert of Aix, viii, 42, pp. 582-3 ، كان برنار الغريب هو الآمر فى طرسوس فى سبتمبر ١١٠١م (انظر ادناه ص ٦٤) . وكما يفترض رادولف (Radulph of Caen) cxlv, p.708, (followed by Cahen) La Syrie du Nord,p 232,n.10 من المحتمل ان يكون ريموند قد هبط الى الساحل فى لونجنيادا ، او ميناء طرسوس ، وليس فى السويدية مع الصليبيين الآخرين كما يفترض ألبرت . أما ماثيو الأورفى Matthew of Edessa, clxxii, p. 242 فيقول إن ريموند قد سُجن فى (ساروانتاهى) ، أى سارفينتيكار فى جبال طوروس . وليس ذلك محتملا.

الفصل الثالث:

أمراء أنطاكية
النورمانديون

٦٣

أمراء أنطاكية النورمانديون

"وهؤلاء كلّهم يَعْمَلُون ضدّ أحكام قيصر"
(أعمال الرسل : ١٧ - ٧)

وبرغم انزعاج أمراء الفرنج ، على ما بدا آنذاك ، لهزيمة بوهيموند ووقوعه أسيرا لدى الملك غازي الدانشمندي، إلا أن ذلك لم يكن يخلو من أحداث وجدوا فيها بعض عِوض ؛ فأنطاكية في حاجة إلى وصي عليها في غيبة بوهمند ، وكان تنكريد هو المرشح لمباشرة مهام الإمارة بدلا من خاله الأسير، وبذا تمكن الملك بلدوين من التخلص من أخطر أتباعه في فلسطين ، بينما أقبل تنكريد على أنطاكية تسبقه مشاعر البهجة ، ففيها الخلاص من وضع لا يخلو من حرج ، يفتقر فيه إلى الأمان ، وفيها أحوال جديدة يتسع فيها المجال ويتحقق الإستقلال . وعندما رحل عن فلسطين في شهر مارس ١١٠١م لم يكن لديه سوى شرط واحد : أن يستعيد إقطاعية الجليل التى سبق أن استولى عليها، في حالة أطلاق سراح خاله من الأسر خلال ثلاث سنوات وإذا لم تعد

أنطاكية فى احتياج إليه . وهكذا بات بلدوين وتنكريد كلاهما حريصا على بقاء بوهيموند أسيرا أطول فترة ممكنة ، ولم يبذلا أية محاولة للتفاوض مع آسره[1] .

وتوخى تنكريد الاستقامة في وصايته على أنطاكية . فلم يتخذ لنفسه لقب أمير أنطاكية وبرغم أنه سكّ عملة – كما تقول الأسطورة فى لغة يونانية رديئة – فلم تحمل هذه العملة سوى عبارة (خادم الرب). وكان أحيانا يطلق على نفسه (الأمير الأكبر) ، ولو أن طموحاته أغرته بأكثر من ذلك لوجد معارضة من الرأي العام فى أنطاكية على الأرجح، فما زال النورمانديون يعتبرون بوهمند قائدهم ، كما كان هناك صديق مخلص لبوهمند هو البطريق اللاتينى "برنار الفالنسى" الذي عينه قبل الأسر مباشرة والذى من أجله طرد البطريق اليونانى "جون الأوكزيتى" . وسار تنكريد على نفس السياسة التى كان يسير عليها بوهمند ، فراح يعزز الجوانب الداخلية فى إدارة الإمارة ، ويضفى الصبغة اللاتينية على الكنيسة؛ وفى الشؤون الخارجية دأب على تحقيق الثراء على حساب البيزنطيين وأمراء المسلمين من جيرانه . على أن طموحاته المحلية فاقت طموحات خاله، على عكس طموحاته العالمية التي كانت أقل من طموحات خاله[2].

١١٠١م تنكريد وبيزنطة

وكان أول شاغل لتنكريد هو توفير الحماية من أى هجوم بيزنطى . وقد ساعده ما منى به الصليبيون من كوارث عام ١١٠١ م ؛ فلا يستطيع الامبراطور – بعد النهضة القوية لأتراك الأناضول – أن يسير جيشا يجتاز شبه الجزيرة ويمضى مباشرة إلى الجنوب الشرقى البعيد . وكان تنكريد يرى أن الهجوم هو أفضل سبل الدفاع ، ولذا بعث فى صيف ذلك العام – وربما فور أن سمع بأنباء مرسيفان – بالجنود إلى كيليكيا لإستعادة مامسترا وأضنة وطرسوس التى كان البيزنطيون قد استردوها قبل ذلك بثلاث سنوات . ولم تكن القوات البيزنطية المحلية من القوة بحيث تصمد لمقاومة قواته ، فكان له ما أراد.

---

(١) Fulcher of Charteres, I, vii, I, pp. 390-3; Albert of Aix, VII, 44-5, pp. 537-8.

(٢) Schlumberger, *Les Principautes franques du Levant, pp. 14-15,* يناقش عملات تانكريد التى تظهره فى أردية امبراطورية ، ومع ذلك توجد "كوفية" على رأسه . ومنقوش على العملة باللغة الإغريقية : "تانكريد ، خادم الله" ، وعلى الوجه الآخر : IC XP NIKA (مثل العملات البيزنطية) . وطبقا لما ورد فى *Historia Belli Sacri, p. 228,* لم يتأكد منصبه كحاكم إلى أن أقسم قسم الولاء لبوهيموند وخلع عليه الوصاية المندوب البابوى موريس أوف بورتو *Maurice* of Porto.

وعندما لجأ وليم كونت أكيتان وهيو كونت فيرمندوا إلى طرسوس في نهاية سبتمبر كان برنار الغريب التابع لتنكريد حاكما على المدينة[٣] .

وبعد ذلك تحول اهتمام تنكريد إلى ميناء اللاذقية البيزنطى الذى كان النورمانديون يشتهونه منذ زمن طويل . وكان ميناء هائلا ، خاصة بعد مجيء جنود ريموند البروفانسيين من مقاطعة بروفانس الفرنسية مما أضاف قوة جديدة للميناء ، فضلا عن الأسطول البيزنطى الذى يوفر له الحماية بحرا، فلم يجرؤ تنكريد على مهاجمة اللاذقية قبل أن يتفاوض مع مدينة جنوا الإيطالية ضمانا لمساعدة سفنها[٤] . فراح يحتل البلاد الداخلية ويحاول الإستيلاء على جبلة فى الجنوب . ولقد سبق أن حاول بوهمند الإستيلاء على جبلة في صيف ١١٠٠م بحملة صغيرة أسر فيها "الكونستابل" التابع له وباءت تلك الحملة بالفشل ؛ وكذلك فشل تنكريد فى الإستيلاء على جبلة فى صيف ١١٠١م . على أن حملة تنكريد هذه الفاشلة دفعت قاضيها ابن صليحة إلى تسليم المدينة لأتابج دمشق ، وتقاعد هو نفسه في دمشق ليمضى شيخوخة هادئة . وأرسل أتابج دمشق ، طغتكين ، ابنه بورى ليتولى حكم جبلة . لكنه كان مكروها ، فخلعه أبناء جبلة بعد أشهر قليلة ووضعوا أنفسهم تحت حماية بنى عمار فى طرابلس ، وسحب تنكريد جنوده من المنطقة[٥] .

وقد مكّنه اعتقاله لريموند وحجزه فى أنطاكية من معاودة خطته للإستيلاء على اللاذقية . على أن تصرفه حيال ريموند كان بمثابة صدمة للبطريق برنار ولرفاقه الصليبيين . ونزولا على رغبتهم أطلق سراح ريموند ؛ على أنه كان لزاما أن يقسم ريموند أولا على عدم التدخل مطلقا فى شؤون سوريا الشمالية[٦] . وانطلق ريموند لغزو طرطوس ، وفى طريقه الذى يمر باللاذقية التزم بقسمه وأمر جنوده بإخلاء المدينة والإنضمام إليه ومعهم زوجته الكونتيسة ، وهكذا ترك الحامية البيزنطية وحيدة دون مساعدة البروفانس الفرنسيين . وفى ربيع ١١٠٢م زحف تنكريد على اللاذقية ، لكن أسوارها المنيعة استعصت عليه وصدته حاميتها ببسالة ، بينما كانت وحدات البحرية

---

(٣) Radulph of Caen, cxliii, p. 706; Albert of Aix, VIII, 40, p. 582; Orderic Vitlais, XXIII, p. 140

(٤) Caffaro, Liberatio, p. 59; Ughelli, *Italia Sacra*, IV, pp. 847-8.

(٥) Ibn al-Qalanisi, Damascus, pp. 51-2.

(٦) Albert of Aix (VIII,42, pp. 582-3) يقول إن ريموند أقسم ألا يغزو سوريا شمال عكا، وحيث لا اعتراض على هجومه على طرطوس فربما اقتصر قسمه على البلاد الواقعة إلى الشمال من اللاذقية .

البيزنطية تزود الحامية بالمؤن ، واستمر الحصار لما يقرب من عام . وفى الأسابيع الأولى من ١١٠٣م ، وبينما كان تنكريد ينتظر سفن جنوا التى استأجرها لقطع المواصلات بين اللاذقية وقبرص ، تدبر خدعة حربية لرجال الحامية خارج أسوار المدينة، وانقض عليهم وأوقعهم فى الأسر ، فاستسلمت له المدينة(٧) .

١١٠٢م ضغينة الأسقف مناس

ولم يكن الامبراطور ألكسيوس ليرضى عن تلك التصرفات ؛ إذ أغضبه إبعاد بطريق أنطاكية اليونانى جون الأوكسيتى ، وطرد رجال الدين اليونانيين واستبدالهم بآخرين من اللاتينيين . وكان قد تسلم رسالة فى باكورة ١١٠٢م من الملك بلدوين يرجوه فيها بذل ما لديه من جهد لمساعدة أية حملة صليبية تالية ، وذلك بعد أن سمع شائعة تقول إن البيزنطيين ساعدوا فى تحطيم الحملات الصليبية سنة ١١٠١م بامتناعهم عن التعاون معها.وحمل رسالة بلدوين أسقف يدعى مناس كان قد ذهب إلى فلسطين مع إكارد فى ١١٠١م وكان عائدا لتوه من القدس . ويبدو أن العبارات الرقيقة كانت تغلب على أسلوب الرسالة ، فضلا عما حمله الأسقف من هدايا بالدوين، فتأثر الامبراطور ألكسيوس وظن أن بمقدوره مصارحة الأسقف بما يداخله من أحزان ، لكنه أخطأ الحكم على الرجل ؛ إذ كان الأسقف لاتينيا أكثر منه مسيحيا ، ولا تعاطف لديه إزاء اليونانيين ، ورجاه الامبراطور أن يذهب إلى إيطاليا ويبلغ البابا بما صارحه به ، ففعل الأسقف وإنما بطريقة أثارت غضب البابا على بيزنطة . ولو كان البابا إيربان الثانى على قيد الحياة ما وقع الضرر لما كان يتصف به من سعة الأفق وعزوف عن الدخول فى خلافات مع العالم المسيحي الشرقى؛ أما خلفه البابا باسكال الثانى فكان ضئيلا بجانب سلفه ، منعدم البصيرة ، سهل الإنقياد . وسرعان ما وافق على وجهة النظر الفرنجية المبتذلة من أن الامبراطور يناصبهم العداء . ولم يجد الامبراطور سبيلا للإنتصاف .

ثم حاول تنكريد التدخل فى شؤون مملكة القدس . ففى ١١٠١م نفى الملك بلدوين البطريق ديامبرت ، فرحب به تنكريد على الفور فى أنطاكية حيث وضع كنيسة القديس جورج تحت تصرفه . وبعد أشهر قليلة انهزم الملك بلدوين أمام العرب فى

---

(٧) Radulph of Caen, cxliv, pp. 708-9, Anna Comnena, IX, vii, 7, vol. III, p. 36.

الرملة ، فاستنجد بأمراء الشمال ، لكن تنكريد رفض تقديم المساعدة مالم يرجع البطريق ديامبرت إلى القدس ويسترد بطرقيته ، فاضطر بلدوين إلى الموافقة ، وبهذا ارتفعت شهرة تنكريد ، غير أنها خبت عندما أدين ديامبرت فى أحد المجالس الكنسية وتقرر طرده مرة أخرى ، فرحب به تنكريد مرة ثانية ، لكنه لم يواصل الدفاع عن قضيته .

١١٠٢م بلدوين الثاني يرهن لحيته

ولم تلق تصرفات تنكريد استحسانا قط من جاره فى الرها بلدوين أوف ليبورج. وأبو بلدوين، وهو هيو الأول كونت ريثيل، هو ابن أميرة من بولونيا، وهى عمة جودفرى كونت لورين والملك بلدوين . ولأن بلدوين الثانى هذا ابن هيو الأصغر ، ومن ثم مفلس ، فقد جاء إلى الشرق مع أبناء عمومته ، لكنه بقى مع بوهمند فى أنطاكية وقت أن نصب بلدوين الأول نفسه فى الرها، وكان يقوم بدور الوساطة والاتصال بين الأميرين ، فلما وقع بوهمند فى الأسر تولى حكومة أنطاكية إلى أن استدعى بلدوين من الرها وأصبح ملك القدس ، وعندئذ خلع الملك بلدوين على ابن عمه ، بلدوين كونت ليبورج ، إقطاعية الرها ليحكمها حكما ذاتيا تحت سيادة القدس. ولم يكن وضعه هذا الذى ورثه فى الرها وضعا سهلا ؛ فليست لإمارة الرها حدود طبيعية ، وهى معرضة للغزو دائما ، ولا يستقيم له حكم إلا بتعزيز المدن الرئيسية والحصون بالحاميات ، وإذن كان فى احتياج إلى من يثق فيهم من القائمين على خدمته ومن رفاقه ، لكنه يفتقر إلى رجال من أبناء جلدته ، فراح يعمل على توثيق عرى الود مع المسيحيين من أهل البلد . وكان أول عمل يقدم عليه حيال ذلك هو زواجه – بصفته كونت الرها – من أميرة محلية هى الأميرة "مورفيا" ابنة جبرائيل القديم صاحب ملطية ذى العرق الأرمينى، ولكن من أتباع الكنيسة الأرثوذوكسية . وفى ذات الوقت راح يتودد للأرمن من أتباع الكنيسة الغريغورية المنفصلة وفاز بمؤازرتهم ، ومن بينهم مؤرخهم الكبير ماثيو الأورفى (أوف إيديسا) الذى كان يثنى عليه غاية الثناء لما يتحلى به من طباع ودودة ومسلك لا تشوبه شائبة برغم تندمه على طموحاته وبخله . وعلى الرغم من المحاباة التى كان بلدوين يظهرها للأرمن بوجه خاص كى ينتفع بهم فى حروبه ، فقد كان يظهر العطف كذلك على رعاياه من السيريان اليعاقبة ، وأفلح فى رأب صدع حدث فى كنيستهم . ولم يكن هناك ما يعيب بلدوين سوى الجشع ؛ فكان

فى احتياج لا ينقطع إلى المال ، يبذل ما فى وسعه للحصول عليه . على أن مساعيه فى الحصول على المال كانت أقل تعسفا من مساعى بلدوين الأول ، بل تجاوزها لطفا ومرحا ، وكثيرا ما كان فرسانه يمرحون من مساعيه تلك ، لاسيما عندما يفكر فى انتزاع ثلاثين ألف بيزنت من حميه ، فيعلن أنه مدين لرجاله بهذا المبلغ ويقسم لهم أنه سوف يحلق لحيته إن لم يوفهم حقوقهم ، وكان يعلم مدى أهمية اللحية لكرامة الرجولة - كشأن اليونانيين - بين الأرمن الذين أصيبوا بالذهول عندما شاهدوا الصليبيين بادىء الأمر بلحاهم الحليقة ، كما كان يعلم جيدا رأى حميه من أن صهرا بلا لحية يحط من هيبته . وعندما كان رجال بلدوين يشاركون فى هذه الملهاة مؤكدين قسم سيدهم ، كان جبرائيل يسارع بتقديم المال المطلوب للحيلولة دون تلك المهانة الشنيعة ، ويفرض على زوج ابنته قسما جديدا بالا يرهن لحيته مرة أخرى(٨) .

واضطر بلدوين الثانى فى بداية حكمه إلى التصدى للأمير سقمان الأرتقى صاحب ماردين فى هجوم الأخير على مدينة سروق الإسلامية التى سبق أن استولى عليها بلدوين الأول وعهد بحكمها إلى فولشر أوف تشارتر . لكن بلدوين الثانى الذى خف لنجدة فولشر انهزم أمام سقمان ولقى فولشر مصرعه ، واستولى المسلمون على المدينة عدا القلعة الصامدة بقيادة بنديكت رئيس الأساقفة اللاتينى فى الرها ؛ فأسرع بلدوين الثانى إلى أنطاكية لاستئجار الجنود لتعويض خسائره . وابتسم له الحظ لدى عودته ؛ إذ اندحر سقمان خارج المدينة بخسائر كبيرة ، فراح بلدوين الثانى يقتل كل من تعاون مع الأراتقة من السكان ، وامتلأت السجون ، واضطر السجناء إلى افتداء أنفسهم مما زاده ثراء بهذه الأموال الجديدة(٩) .

وسرعان ما وجد بلدوين نائبا مفيدا فى شخص ابن عمته جوزلين (أوف كورتناى) ، وهو المفلس أصغر أبناء لورد كورتناى ، ويبدو أنه أتى إلى الشرق فى صحبة جاره الحميم كونت (نفرس) ، ووهبه بلدوين كل أراضى الكونتية الواقعة غربى نهر الفرات ، واتخذ تل بشير مقرا رئيسيا له . وأثبت أنه الصديق الوفى لبلدوين ، على أن ولاءه هذا حامت حوله الشكوك فيما بعد(١٠) .

---

(٨) وليم الصورى William of Tyre, x, 24, pp. 437-8, XI, II, pp. 469-72 ، يروى قصة زواج بالدوين ولحيته . ويتحدث ماثيو الأورفى Matthew of Eddessa, ccxxv, p. 296 عنه باحترام ولكن بدون تعاطف معه.

(٩) Al Azimi, p. 494; Ibn al-Qalanisi, p.50-1; Matthew of Edessa, clxviii, pp. 232-3.

(١٠) William of Tyre, x, 24, pp. 437.

١١٠٣م إطلاق سراح بوهيموند

ويبدو أن مشاعر الريبة من طموحات تنكريد تزايدت على مر الأيام لدى بلدوين، الذى كان يرغب فـى إعـادة بوهمنـد إلى أنطاكيـة ، فشرع ومعـه البطريـق برنـار فـى مفاوضة الأمير الدانشـمندى على إطلاق سراحه ، و لم يشـاركهما تنكريـد فـى تلـك الصفقة . وكان الامبراطور الكسيوس قد سبق وأن عرض على الأمير ستين ومائتى ألف بيزانت فدية لإطلاق سـراح بوهمنـد ، وكـان الأمـير على استعداد للموافقـة لـولا أن السلطان قلج أرسلان بلغته تلك الأنباء ، وكان قد طلب نصف أية فديـة قـد يتسـلمها الدانشمند بصفته السيد الأعلى الرسمـى لأتـراك الأنـاضول . وأدى الخـلاف بين الأمـير والسلطان إلى منع الأول من سرعة قبول عرض الامبراطور ؛ لكنه كان عرضا نافعا ، إذ أحدث صدعا بين الأميرين . وكان بوهمنـد فـى أسـره علـى علـم بتلـك المفاوضـات ، وكان ما يزال وسيما فاتنا يلفت انتباه سيدات بيت الأمير ؛ وربما تمكن بمساعدتهن مـن الإيحاء لآسره بأن الأفضل من صفقة الامبراطور التى ينوى السلاجقة دس أنوفهم فيها ، إجراء ترتيب خاص مع فرنج سـوريا والوعـد بمحـالفتهم . ووافـق الأمـير علـى إطـلاق سراح بوهمند لقاء مائة ألف بيزانت(١١) .

وهاجم جيش الدانشمند ملطيـة أثنـاء المفازضـات، ولابـد وأن استنجد حـاكمهـا جبرائيل بزوج ابنته بلدوين الذى لم يتحرك لمساعدته لعزوفه عن الإساءة إلى الأمـير فـى تلك المرحلة الحرجة . وكـان جـبرائيل مكروهـا مـن رعايـاه لعقيدتـه الأرثوذكسـية ، خاصة وأن السريان لم يغفروا له أبـدا إعـدام أحـد أسـاقفتهم بتهمـة الخيانـة ؛ فاستولى الدانشمند على عاصمته وأسروه ، عدا إحدى قلاعه التى ظلت صامدة أمام المهـاجمين ؛ فطلب منه آسروه أن يأمر باستسـلامها ، ولمـا رفضـت الحاميـة أوامـره ، أعدمـوه أمـام أسوارها(١٢) .

---

(١١) يذكر Albert of Aix, IX, 33-6, pp. 610-12; Orderic Vitalis, x, 23 vol. IV, P. 144 قصـة حب بوهيموند مع ابنة الدانشمند ، بينما يجعل *Miracula S. Leonardi* (Aa. Ss., Nov., vol. III, PP. 160-8, 179-82) صديقته زوجة مسيحية للأمير. ويقول Matthew of Edessa (Clxxviii, p. 252) إن أليكسيوس دفع فدية ؛ ولكن ريتشارد كان في سوريا بالفعل قبل إطلاق سـراح بوهيمونـد ويقـول Radulph of Caen إن بلدوين كـان يتصـرف مـن منطلـق كراهيتـه لتنكريـد. ويـورد إبـن القلانيسي الشجار بين الحاكمين السلجوقى والدانشمندى.

(١٢) Michael the Syrian, III, pp. 185-9.

وبعد أشهر قليلة ، وفى ربيع ١١٠٣م ، جرى تسليم بوهمند إلى فرنج ملطية ، وتولى بلدوين والبطريق برنار جمع مبلغ الفدية يساعدهم أمير من صغار أمراء الأرمن يدعى كواسيل ، وأقارب بوهمند فى إيطاليا . و لم يشاركهم تنكريد فى جهودهم . وعلى الفور اتجه بوهمند إلى أنطاكية حيث استعاد سلطانه ، وأعرب عن شكره لتنكريد على الملأ لتوليه شؤون الإمارة أثناء غيابه . غير أنهما كانا على شيء من الخلاف ؛ إذ لم يجد تنكريد ما يدفعه إلى تسليم الأراضى التى غزاها هو نفسه أثناء وصايته ، لكن الرأى العام أجبره على التراجع ، وكوفىء بإقطاعية صغيرة داخل الإمارة . وكان بمقدوره أن يطالب قانونا باستعادة الجليل من بلدوين الأول ، لكنه رأى أن الأمر لا يستحق العناء(١٣).

واحتفل الفرنج بعودة بوهمند بهجوم على جيرانهم . ففى صيف ١١٠٣م أغار بوهمند ومعه جوسلين أوف كورتناى على أراضى حلب واستوليا على مدينة المسلمية شمالى حلب وانتزعا إتاوة كبيرة من مسلمى المنطقة استخدمت فى سداد الدين المستحق للفرنج على بلدوين والبطريق للفدية(١٤) . ثم تحول الفرنج للإغارة على الأراضى البيزنطية؛ فبعد أن كتب ألكسيوس إلى بوهمند مطالبا استعادة مدن كيليكيا، عزز رسالته بإرسال قائده بوتوميتس لاستردادها؛ لكن القوة البيزنطية لا يعتمد عليها، ولذا ، وبعدما دخل كيليكيا فى خريف ١١٠٣م ، سرعان ما قرر أن المهمة فوق طاقته ، وإثر أنباء تفيد بأن الفرنج يخططون للتوسع شمالا ومهاجمة مرعش سارع إليها، وكان يحكمها ثاتول باسم الامبراطور . وربما كان بوسعه وقتئذ إنقاذ ثاتول بذهابه إليها ، لكنه تسلم أمر استدعاء من القسطنطينية . وفى وقت مبكر من الربيع التالى اتجه بوهمند وجوسلين إلى مرعش . وشعر ثاتول بأنه فاقد الحيلة ؛ فالجيش البيزنطى بعيد جدا، وأصبح الأتراك الدانشمند على علاقة طيبة الآن بالفرنج ؛ فلم يجد بديلا عن تسليم المدينة لجوسلين الذى سمح له بالعودة إلى القسطنطينية ، بينما استولى بوهمند على مدينة البستان الواقعة شمال مرعش(١٥).

---

(١٣) أنظر أعلاه ، يقول Fulcher (II, xxiii, I, p. 460) إن تنكريد قد كوفئ على اقتداره ، ولكن رادولف يقول إنه لم يعط سوى مدينتين صغيرتين.

(١٤) Ibn al-Athir (Kamil at-Tawarikh, p212); Kemak ad-Dim p. 591 يقول إن بوهيموند اغتصب أموالا من قنسرين.

(١٥) Anna Comnena, XI, ix, 1-4, vol. III, pp.40-1 ويخطئ Matthew of Edessa, clxxxvi, p. 257 فى إيراد الاستيلاء على مرعش بعد معركة حران، Radulph of Caen, cxlviii-cl, pp. 710-2.

١١٠٤م أهمية حَرّان

وأصبح الفرنج الآن فى مأمن من أى هجوم يأتيهم من الأناضول ؛ وإذن بإمكانهم أن يتحولوا لمهاجمة مسلمى الشرق . وفى شهر مارس عاود بوهمند غزو أراضى رضوان الحلبى واستولى على مدينة بصرفوت الواقعة على الطريق بين أنطاكية وحلب ، لكن محاولته الإستيلاء على مدينة كفر لاثا الواقعة إلى الجنوب من حلب لم تكلل بالنجاح لما أبدته قبيلة بنى عليم من مقاومة باسلة . وفى تلك الأثناء قطع جوسلين طريق المواصلات بين حلب والفرات . على أنه إذا كان من المطلوب عزل مسلمى سوريا عزلا فعليا عن مسلمى العراق وفارس ، فلا بد للمسيحيين من الإستيلاء على قلعة حَرّان العظيمة الواقعة بين الرها والفرات شمالى الجزيرة ، بل إنهم يستطيعون ، والحال كذلك ، تجريد حملة على الموصل وإلى قلب ما بين النهرين . وبدت الظروف مناسبة فى ربيع ١١٠٤ م ؛ إذ كانت الحرب الأهلية، خلال ١١٠٣م، بين السلطان السلجوقى بركياروق وأخيه محمد تمزق الشرق الإسلامى كله ، وفى يناير ١١٠٤م إتفقا على السلام على أن يحتفظ السلطان ببغداد والهضبة الإيرانية الغربية – وكان أخوه الثالث سنقر قد سبق وحصل على خراسان وإيران الشرقية – وحصل محمد ، وفقا للإتفاق على شمال العراق والجزيرة وحقوق سيادية على دياربكر وكل سوريا. لكنه كان اتفاقا غير يسير ، إذ كان الأخوان كلاهما يترقبان إفساد هذا الإتفاق، وفى ذات الوقت راح كل منهما يكيد المكائد للفوز بحلفاء من أمراء الترك والعرب جميعا؛ ففى الجزيرة نشبت الحرب الأهلية بموت كربوقا ، أتابج الموصل ، الذى هزمه الفرنج فى أنطاكية ؛ إذ لم يتمكن سقمان الأرتقى أمير ماردين من استخلاف مرشحه ، ودارت الحرب بينه وبين الأتابج الجديد جكرمش الذى عيّنه السلطان السلجوقى محمد ، أما حران نفسها فكانت خاضعة للقائد التركى قراجة الذى كان من مماليك ملكشاه ، لكن سلوكه الشرس دفع أهلها إلى التمرد عليه ، فسلموا الحكم لمحمد صاحب أصفهان ، الذى قتل بدوره على يد غلام سابق لقراجة يدعى جوالى بعد أن توثقت عرى الصداقة معه . على أن سلطة جوالى كانت غير مأمونة بدرجة كبيرة ، بينما كانت حران ذاتها

تعانى معاناة شديدة من غارات فرنج الرها الذين خربوا حقولها واعترضوا تجارتها ، وقد اتضحت نيتهم فى سرعة المضى قدما[١٦].

داهمت مشاعر الخطر كلا من سقمان فى ماردين وجكرمش فى الموصل ، مما دفعهما إلى نسيان خلافهما والاتحاد معا فى حملة لمهاجمة الرها قبل أن تهاجمهما ، وتوجها إليها معا فى أوائل مارس ١١٠٤ م، وكان مع سقمان قوة كبيرة من فرسان التركمان الذين يتصفون بخفة الحركة ، ومع جكرمش قوة أصغر قليلا تتألف من السلاجقة والأتراك والأكراد والعرب . وعلم بلدوين الثانى بتجمعهما فى رأس العين الواقعة على بعد سبعين ميلا تقريبا من عاصمته؛ فاستنجد بجوسلين وبوهمند مقترحا عليهما تحويل الهجوم بالإغارة على حران . وبعد أن ترك حامية صغيرة فى الرها، اتجه إلى حران ومعه فرقة صغيرة من الفرسان ومشاة الأرمن ، وصحبه بندكت رئيس أساقفة الرها. وعلى مقربة من حران انضم إليه جوسلين وجنوده ، وكذلك جيش أنطاكية بقيادة بوهمند ، وتنكريد والبطريق برنار ، ودايمبرت البطريق السابق للقدس . وبلغ عدد الجيش الفرنجى كله ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس وربما ثلاثة أضعاف عددهم من المشاة ، وهو القوة الفرنجية الضاربة كلها فى شمال سوريا ، عدا حاميات الحصون.

١١٠٤م كارثة حـران

تجمع الجيش أمام حران بينما الأميران المسلمان ما يزالان على مسافة ما إلى الشمال الشرقى فى طريقهما إلى الرها . ولو أن الفرنج حاولوا الإنقضاض على الحصن لاستولوا على حران ؛ لكنهم كانوا عازفين عن تحطيم التحصينات على أمل أن ينتفعوا بها هم انفسهم فيما بعد، ظانين أن الخوف سيدفع الحامية إلى الاستسلام . وكان تفكيرا لا يخلو من حكمة ؛ إذ كان المسلمون داخل المدينة لا حول لهم ولا قوة ، فبادروا بمفاوضتهم من فورهم . وعلى إثر ذلك اختلف بلدوين وبوهمند ؛ أىّ من رايتيهما يرتفع أولا على الأسوار؟ وانتهى الأمر بأن قضى عليهما تأخرهما ؛ إذ مال الجيش التركى جنوبا وأصبح فوقهما قبل تسوية الخلاف .

---

(١٦) للاطلاع على خلفية الحملة على حران، أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 236-7 مع المراجع ويركز نيكلسون في مقالته عن تكريد أن الحملة لم تكن جزءا من سياسة عامة للتوسع، وإنما استجابة لتهديد من المسلمين. ولكن يقينا كانت حران هدفا نهائيا للفرنج.

ودارت المعركة على ضفاف نهر البليخ ، بالقرب من ساحة معركة (كارها) القديمة، حيث سبق منذ قرون أن أباد (البارثيون) الفيالق الرومانية وفيالق (كراسوس). وكانت استراتيجية الفرنج تقضي بأن يشتبك جيش الرها في الميسرة مع قوة العدو الرئيسية ، بينما يختبئ الجيش الأنطاكي خلف تل منخفض يبعد نحو ميل إلى اليمين استعدادا للتدخل في اللحظة الحاسمة . لكن المسلمين وضعوا خططا مماثلة ؛ فهاجم جزء من جيشهم ميسرة الفرنج ثم استدار هاربا ؛ فظن جنود الرها أنهم فازوا بنصر يسير ، واندفعوا يتعقبونهم ، مما أفقدهم الإتصال بزملائهم في الميمنة ، وبعبورهم النهر وقعوا مباشرة في كمين أعده الجيش الإسلامي الرئيسي ، ولقى الكثير منهم حتفه على الفور، واستدار الباقون ولاذوا بالفرار . وعندما تجهز بوهمند - الذى دحر كتيبة صغيرة أمامه - للإشتراك في المعركة لم يجد سوى سيل متدفق من الهاربين على مبعدة يتزاحمون عائدين عبر النهر حيث هبطت عليهم فصيلة تركية جديدة . وأدرك أنه خسر كل شئ؛ فأسرع بالفرار مع عدد ضئيل من جنود الرها. وأثناء مرور الهاربين أسفل أسوار حران انقضت عليهم الحامية ، وفي فوضى حماسها قتلت مع الفرنج عددا من المسلمين المتعقبين ، وهرب جيش أنطاكية دون خسائر جسيمة . أما جنود الرها فقد أسروا أو قتلوا جميعهم تقريبا . وكان البطريق برنار في قمة الفزع بحيث قطع أثناء فراره ذيل حصانه خشية أن يلحق به الترك ويمسكونه من الذيل ، رغم أنه لم ير أحدا من الإعداء وقتئذ .

وكان بندكت رئيس الأساقفة من بين أول من وقعوا في الأسر . لكنه لم يلبث أن أطلق سراحه ، إمّا لتواطؤ حارسه - وهو مسيحي مرتد - أو بسبب هجوم أنطاكي مضاد . وهرب بلدوين وجوسلين معا على صهوة جواد ، لكن البعض أدركهما في مجرى النهر واقتادوهما أسيرين إلى خيمة سقمان .

وأسرع بوهمند وتنكريد إلى الرها وهما يخشيان - بحق - أن يهاجمها الترك كخطوة تالية ، وراحا يعملان على تنظيم دفاعاتها . ومرة أخرى تنقلب مصائب بلدوين عند تنكريد فوائد ؛ إذ أن من تبقى من الفرسان في الرها وعلى رأسهم رئيس الأساقفة توسلوا إلى تنكريد أن يتولى الوصاية على الرها إلى حين إطلاق بلدوين من الأسر؛ فقبل تنكريد هذا العرض مرحبا، وساورت بوهمند - كشأن بلدوين الأول منذ أربع سنوات - مشاعر الإرتياح لإبتعاد تنكريد عنه . وبقى تنكريد في الرها مع بقايا

جيشه وما استطاع بوهمند الإستغناء عنه من جنود ، بينما رجع بوهمند إلى أنطاكية حيث كان جيرانه يعدون العدة للإفادة من الكارثة التى حلت بالفرنج(١٧).

وتعد معركة حران تتمة للحملات الصليبية فى ١١٠١م؛ إذ أن تلك الحملات جميعها حطمت أسطورة القوة الفرنجية التى لا تقهر . ذلك أن هزائم ١١٠١م تعنى حرمان شمال سوريا من تعزيزات الغرب التى يطلبها الفرنج لتوطيد سيادتهم هناك ؛ وأما كارثة حران فتعنى ، على المدى الطويل ، الحكم بهلاك كونتية الرها، وأن الفرنج لن يستولوا أبدا على حلب. إن الإسفين الذى كان فى نية الفرنج دقّه بين المراكز الإسلامية الثلاثة: الأناضول ، والعراق ، وسوريا ، قد تم دقّه دون مراعاة لاعتبارات الأمن . ولم يكن المسلمون هم وحدهم المستفيدين ؛ إذ كان الامبراطور يرقب الأحداث من بيزنطة بعين الغضب ، ولم يأسف للخزى الذى لحق بالفرنج .

١١٠٤م بوهمند وتنكريد يتركان بلدوين أسيرا

لم تكن النتائج العاجلة لكارثة حران مهلكة كما كان يُخشى ؛ إذ لم يستمر التحالف طويلا بين سقمان وجكرمش بعد انتصارهما ؛ فقد استحوذ جنود الأول على أغلب الأسرى والغنائم ، مما أثار غيرة الأخير ، فهاجمت كتيبته السلجوقية خيمة سقمان واختطفت بلدوين ، الأمر الذى أثار حنق التركمان ، لكن سقمان مارس من ضبط النفس ما يكفى لمنعهم من الهجوم المضاد ، وروّض نفسه على قبول خسارة سجينه ذى القيمة العالية . وقام بإخضاع بعض الحصون المسيحية الصغيرة على الحدود بخدعة بسيطة وهى إرتداء جنوده ملابس ضحاياهم الفرنج ، ثم إنه رجع إلى ماردين ولم يشترك فى الحرب أكثر من ذلك(١٨) . أما جكرمش فواصل القتال ؛ بادئا بتأمين نفسه من سقمان بأن سحق الحصون الفرنجية فى شبختان شرقى الرها ثم واصل سيره إلى العاصمة . إن تأخر الفرنج قد أنقذ حران للإسلام ، والآن أدى تأخر المسلمين فى الإبقاء على الرها للعالم المسيحى؛ إذ توفر لتنكريد الوقت الضرورى لترميم دفاعات المدينة. ويُعزى نجاحه فى مقاومة هجوم جكرمش الأول بدرجة كبيرة إلى ولاء الأرمن

---

(١٧) Radulph of Caen, cxlviii, p. 712; Albert of Aix, loc. cit.; Matthew of Edessa, clxxxiii, p. 256.

(١٨) Ibn al-Athir, loc cit. ، المأثور عن سقمان أنه قال : "أفضل أن أفقد غنائمى على أن يعيبنا المسيحيون بالحماقة".

المحليين وبسالتهم ، لكن شدّة الهجوم دفعته إلى طلب النجدة العاجلة من بوهمند الذى كانت لديه بعض المشكلات ، غير أن تهديد الرها لا تعلوه أولوية ، فسار فى الحال لنجدة ابن أخته ، لكن وعورة الطريق تسببت في تأخره . وفى غمرة اليأس أمر تنكريد حاميته بالخروج قبل الفجر ، وانقض رجاله فى ظلمة الليل على الأتراك فى نومهم المطمئن ، واكتمل النصر بوصول بوهمند؛ وهرب جكرمش مذعورا تاركا كنوزه فى المعسكر . وهكذا تم الإنتقام لحّران وبقيت الرها[١٩] .

ومن بين الذين أسرهم تنكريد أميرة سلجوقية كريمة الأصل كانت فى معيّة الأمير، وكانت أثيرة لدى جكرمش بحيث عرض أن يفتديها فى الحال إمّا بخمسة عشر ألف بيزانت أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه . ووصلت أنباء هذا العرض إلى القدس ، فسارع الملك بلدوين بمكاتبة بوهمند راجيا ألاّ تضيع هذه الفرصة لإطلاق سراح الكونت بلدوين؛ لكن بوهمند وتنكريد فضّلا سد حاجتهما من المال ، فضلا عن أن عودة بلدوين تعني تنحية تنكريد من منصبه الراهن ليصبح بين يدى خاله ؛ وكان ردهما أن التلهف على قبول العرض يخلو من الدبلوماسية ، وربما يؤدي التردد إلى أن يرفع جكرمش من قيمة الفدية ؛ وفى الوقت ذاته كانا يعدان الترتيبات لإستلام الفدية . وبقى بلدوين أسيرا.

وبعد أن نال بوهمند وتنكريد من الثراء بالتضحية بزميلهما ، تحولا لمجابهة الأعداء من حولهما الذين دأبوا على ممارسة الضغوط عليهما. و لم يحاول جكرمش مهاجمة الرها مرة أخرى ، وتمكن تنكريد من ترميم دفاعات المدينة؛ أمّا بوهمند فكان عليه أن يسرع لمجابهة غزو رضوان الحلبى للمناطق الشرقية من إمارته . وفى شهر يونية تخلى سكان أرتاح الأرمن عن مدينتهم للمسلمين وقد شملتهم البهجة لتخلصهم من الطغيان الأنطاكي ، وحذت حذوهم المدن الحدودية: المعرة ومسرين وسرمين ، ممّا عزل الحاميات الفرنجية الصغيرة فى معرة النعمان والبارة وكفر طاب فانسحبت إلى أنطاكية. وفى تلك الأثناء أغار رضوان على الإمارة إلى أن بلغ الجسر الحديدي ؛ وعلى البعد فى شمال الإمارة تمكنت حامية بوهمند من البقاء بعد أن سجنت أبرز زعماء الأرمن المحليين الذين كانوا يخططون للتآمر مع الأتراك . وكاد الخطر أن يحدق بدويلة بوهمند كلها

(١٩) Albert of Aix, IX, 43, pp. 617-18; Ibm al-Athir, p. 223; Ibn al-Qalanisi, pp. 69. 69 . 70.

لولا أن مات دقاق الدمشقى فى أواخر يونية ١١٠٤ م ، فتحول اهتمام رضوان إلى الصراع بين ابنىّ الدقاق - بورى وأرتاش - على خلافة أبيهما[٢٠].

وكان انشغال بوهمند بالشؤون البيزنطية من أسباب فشله فى مواجهة هجوم رضوان . فالامبراطور ألكسيوس على علاقة طيبة بالدويلات الفرنجية الواقعة إلى الجنوب، وريموند كونت تولوز لايزال صديقه الحميم ، وفاز الامبراطور بثقة الملك بلدوين بعد أن افتدى بماله كثيرا من وجهاء الفرنج الأسرى فى مصر ، لقد كان كرمه هذا تسبقه الحكمة بالمقارنة المذهلة بما أقدم عليه بوهمند وتنكريد من التخلى عن بلدوين الرها فى الأسر . إن افتداء الامبراطور للأسرى ذكّر الفرنج بما له من نفوذ ومهابة تحظيان باحترام الفاطميين ؛ ولذلك ، وعندما تصرف الامبراطور ضد أنطاكية ، لم يتلق أميرها أية مساعدة من أقرانه . وكان ألكسيوس قد قام بالفعل بتحصين كوريكوس وسليوكية الواقعتين على ساحل كيليكيا لمنع ما قد تقدم عليه أنطاكية من عدوان على غرب كيليكيا . وفى صيف ١١٠٤ م استرد الجيش البيزنطى بقيادة موناستراس دونما صعوبة مدن كيليكيا الشرقية: طرسوس وأضنة والمصيصة؛ وفى ذات الوقت قام أسطول بيزنطى صغير يقوده الأدميرال كنتاكوزينوس - وكان فى قبرص يطارد أسطولا مغيرا من جنوا - باستغلال موقف بوهمند ، فأبحر إلى اللاذقية حيث استولى بحارته على المرفأ وأسفل المدينة : وسارع بوهمند بجمع ما أمكنه من جنود الفرنج لتعزيز الحامية فى القلعة واستبدال قائدها الذى ما عاد يوليه ثقته ، لكنه لم يحاول طرد البيزنطيين من مراكزهم لافتقاره إلى القوة البحرية .

١١٠٤م بوهمند يرحل إلى الغرب

وبحلول الخريف داخلت بوهمند مشاعر اليأس ؛ فعقد مجلسا فى سبتمبر ضم أتباعه فى أنطاكية واستدعى تنكريد كذلك ، وصارحهم بالأخطار المحدقة بالإمارة قائلا إن المخرج الوحيد هو تأكيد إرسال التعزيزات من أوروبا ، وأنه سيذهب بنفسه إلى فرنسا لممارسة نفوذه الشخصى فى استجلاب الرجال المطلوبين . ومن باب الواجب عرض تنكريد القيام بهذه المهمة ، لكن خاله أجاب بأنه لا يتمتع بما يكفى من نفوذ فى

---

(٢٠) Radulph of Caen, loc. cit.; Kemal ad-Din, pp. 592-3; Sibt ibn al-Djauzi, p. 529; ibn al-Qalanisi, pp. 62-5. ويلاحظ أن رانسيمان أورد اسم أحد ابنى الدقاق بلفظ (التاش). فى حين أن ابن القلانيسي ذكره بلفظ (ارتاش) وهو عم بورى وليس ابنه. (المترجم)

الغرب، وأنه ينبغي أن يبقى وصيا على أنطاكية. وسرعان ما تمت ترتيبات رحيل بوهمند، وأبحر في أواخر الخريف من ميناء السويدية مصطحبا معه ما كان متاحا من الذهب والفضة والجوهرات والأشياء الثمينة ونسخا من "إنجازات الفرنج" ، وهو تاريخ مجهول للحملة الصليبية الأولى من وجهة النظر النورماندية ، وأدخل بوهمند في تلك النسخ فقرة توحي بأن الامبراطور وعده لوردية أنطاكية[٢١].

وتولى تنكريد حكومة أنطاكية، وأقسم في ذات الوقت أن يحافظ على الرها لبلدوين وأن يسلمها له فور إطلاق سراحه من الأسر؛ ولأنه لا يستطيع أن يحكم الرها من أنطاكية بصورة جيدة، فقد عهد بحكومتها لابن عمه وصهره ريتشارد كونت ساليرنو، نائبا عنه عبر الفرات[٢٢] .

وفي وقت مبكر من العام الجديد وصل بوهمند إلى أملاكه في أبوليا حيث بقي هناك حتى سبتمبر التالي يدبر شؤونه الخاصة ويشرف عليها بعد غيبة تسع سنوات ، وينظم فرق النورمانديين ليلحقوا بزملائهم في الشرق . ثم ذهب إلى روما لمقابلة البابا باسكال وأكّد له أن الامبراطور ألكسيوس هو عدو اللاتينيين اللدود في الشرق ، وكان باسكال قد انحاز فعلا ضد ألكسيوس بتأثير من الأسقف مناس ، وسرعان ما وافق على وجهة نظر بوهمند. وعندما ذهب بوهمند إلى فرنسا كان بصحبته ممثل البابا ، برونو ، حاملا معه توصيات من البابا بالتبشير بحرب مقدسة ضد بيزنطة . وكانت هذه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية . وباتت السياسة النورماندية – وهدفها كسر شوكة الامبراطورية الشرقية – هي السياسة الصليبية الرسمية . وتقرر التضحية بمصالح العالم المسيحي كله من أجل المغامرين الفرنج . وفيما بعد ندم البابا على ما أقدم عليه من طيش ، ولكن بعد أن نفذ سهم الضرر . وما كان يشعر به فرسان الغرب وجماهيره من ازدراء لغطرسة الامبراطور ، وغيرة من ثروته ، وريبة في طقوس مسيحية لا يفهمونها ،

---

(٢١) تذكر بعض المصادر الموثوقة أن "إنجازات الفرنج" Gesta Francorum كتبه فولشر أوف تشارتر Fulcher of Charteres (حوالي ١٠٥٩ – حوالي١١٢٧) القس والمؤرخ الفرنسي الذي صاحب الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها . وهو عبارة عن سرد ينبض بالحياة مكتوب على ثلاث مراحل : الحملة الصليبية الأولى (١١٠١) ، ورحلة بلدوين إلى القدس (١١٠٦) ، ومملكة القدس (١١٢٤ – ١١٢٧) (المترجم).

(٢٢) Matthew of Edessa, clxxxix, p. 260; Michael the Syrian, III, p. 195; Ibn-alAthir, pp 262-3. ومن هذا الوقت فصاعدا يطلق تنكريد على نفسه في وثائقه الرسمية "تانكريد دوكس إيه برنسيبس أنتيوكينوس" (تانكريد دوق وأمير أنطاكية). وأثناء فترة وصايته الأولى كان يسمى في الوثائق الرسمية (أمير) دون تحديد أماكن. كان ما يزال يحمل لقب أمير الجليل.

لقى كل ذلك تأييدا رسميا من الكنيسة . ومنذ ذلك الوقت قدما، كانوا يشعرون بأن لديهم المبررات التى تسوّغ كل عمل عدائى يستهدف بيزنطة، حتى ولو عدّل البابا من آرائه . إن الحملات الصليبية ، والبابا على رأسها ، لم تكن حركة تبذل العون للعالم المسيحى ، وإنما كانت أداة للإستعمار الغربى العارى من الخلق . وترتب على هذا الإتفاق التعس بين برهمند والبابا باسكال آثار أبعد شأوا بكثير من كل الخلافات بين الكاردينال همبرت وميخائيل سريولاريوس التى أكّدت الفصل بين الكنيستين الشرقية والغربية .

وقوبل بوهمند بحرارة فى فرنسا حيث أمضى بعض الوقت فى بلاط الملك فيليب الذى أذن له بتجنيد الرجال فى أنحاء المملكة ، ولقي تشجيعا فعّالا من كونتيسة بلوا، الكونتيسة أديلا وهى صليبية متحمّسة بالإنابة ؛ فزيادة على تقديمها بوهمند لأخيها هنرى الأول الإنجليزى ، الذى سبق أن قابله فى نورماندى فى عيد الفصح عام ١١٠٦م ووعد بتشجيعه ، رتبت له زواج تحالف مثير من ابنة الملك فيليب، كونستانس ، وهى كونتيسة شامبانيا المطلقة، وتم الزواج فى وقت متأخر من ربيع ١١٠٦م ؛ وفى ذات الوقت وافق الملك فيليب على منح يد ابنته الصغرى ، سيشيليا ، وهي وليدة السفاح من علاقة الزنا مع برترادا أوف مونتفورت ، لتنكريد . ولم تذهب كونستانس إلى الشرق أبدا ، وإنما قضت حياتها الزوجية وفترة ترملها فى إيطاليا؛ أمّا سيشيليا فقد أبحرت إلى أنطاكية فى نهاية العام تقريبا . وقد عززت هذه العلاقات الملكية من مكانة الأمراء النورمانيين(٢٣) .

---

(٢٣) Orderic Vitalis, XI, vol. IV, pp. 210-13; Suger, Vita Ludovici, pp. 29-30; Chronicon S. Maxentii, p. 423; Chronicon Vindocinnnense, pp. 161-2; William of Tyre, XI, I, p. 450; Anna Comnena, XII, i, I, vol. III, p. 53. وقد تم الزواج بين كونستانس وبوهيموند – استنادا إلى Luchaire, Louis VI le Gros, p. 22 – فى إبريل أو مايو ١١٠٦م . ويحتمل أن تكون سيشيليا قد انطلقت إلى الشرق بعد هذا التاريخ . ولذلك يحتمل أن يكون زواجها قد حدث في وقت لاحق من عام ١١٠٦م . ويعتقد مائيو الأورفي أن بوهيموند كان مجبرا على الزواج من سيدة ثرية ، يطلق عليها زوجة سيفن بول (وواضح أنه يخلط بين Hugh of Champagne مع الصليبي Hugh of Saint Pol الذي كان صديقا لبوهيموند). وقد أمرت بسجنه حتى رضي في النهاية. وكان يفضل العودة إلى الشرق.

١١٠٧ م بوهمند يغزو الامبراطورية

بقى بوهمند فى فرنسا حتى وقت متأخر من عام ١١٠٦ م ، ثم عاد إلى أبوليا حيث خطط لحملته الصليبية الجديدة التى تقرر أن تبدأ بهجوم لا هوادة فيه على الامبراطورية البيزنطية ؛ وتمهّل فى حملته إذ عرف من الأنباء أن أنطاكية لا تعانى من أخطار عاجلة في ظل حكم تنكريد . وفى أول أكتوبر ١١٠٧ م هبط بجيشه على ساحل إبيوس الامبراطورى فى أفلونا ، وبعد أربعة أيام ظهر أمام قلعة درهاكيوم العظيمة التى تعدّ مفتاح شبه جزيرة البلقان ، وهى التى طالما سال لها لعاب النورمانديين منذ احتلالها قبل ذلك بربع قرن . على أن ألكسيوس هو الآخر قد توفر له الوقت لوضع ترتيباته ؛ فكان على استعداد للتضحية بحدوده الجنوبية الشرقية لإنقاذ درهاكيوم ؛ فسالم السلطان السلجوقى قلج أرسلان الذى أمده بالمرتزقة . وجد بوهمند القلعة منيعة وحاميتها شديدة البأس بحيث تعذر الإنقضاض عليها فحاصرها . لكنه يفتقر إلى القوة البحرية كشأنه فى حروبه الأولى ضد بيزنطة ، فبات الدمار مصيره ؛ ذلك أن البحرية البيزنطية قطعت خطوط مواصلاته مع إيطاليا في الحال تقريبا وسدّت الساحل. ثم حاصره الجيش البيزنطى الرئيسى فى وقت مبكر من الربيع التالى ؛ وبحلول الصيف تفشت فى جيش بوهمند الدوسنطاريا والملاريا، ونالت منهم المجاعة ، بينما حطّم ألكسيوس معنوياتهم بإطلاق الشائعات وتزييف الرسائل لزعمائهم ، وهى وسائل وصفتها ابنته أنّا كومنينا بإعجاب شديد . وبحلول سبتمبر أيقن بوهمند من الهزيمة فاستسلم للإمبراطور . لقد كان نصرا مؤزراً لبيزنطة ؛ إذ كان بوهمند آنذاك أشهر محارب فى العالم المسيحى ، وكان مشهد هذا البطل المرعب بقامته الطويلة التى تعلو الامبراطور ، ومع ذلك بدت متضرّعة مطيعة لما يمليه عليها ، شاهدا على ما للامبراطور من مهابة طاغية لا تنسى .

١١٠٨ معاهدة ديفول

استقبل ألكسيوس بوهمند فى معسكره الذى ضربه فى مدخل الوديان الضيّقة حيث يجري نهر ديفول . وعامله بكياسة يعلوها البرود ؛ ولم يضيّع وقتا ، وإنما بسط أمامه معاهدة السلام التى لابد له من التوقيع عليها. وتردد بوهمند بادئ الأمر ، لكن (نسفورس برنيوس) ، زوج أنّا كومنينا، الذي كان يقف بين يدي حميه الامبراطور ، حثّه على التوقيع الذى لا مفر منه .

وترد صيغة المعاهدة بكاملها فى صفحات أنـا كومنينـا. وبموجبهـا يعـرب بوهمنـد أولا عن أسفه العميق لحنثه بقسمه الأول للإمبراطور ؛ ثم يقسم بكل الوقـار أن يصبـح التابع والمولى المخلص للإمبراطور ووريثه جون "كريم النسب"[٢٤]؛ ويفرض علـى كـل رجالـه أن يحـذوا حـذوه ؛ ولا ينبغى أن يكـون هنـاك غمـوض فـى المصطلـح اللاتينـى "مولى"، فـأحصيت واجبـات التـابع ؛ وأن يظـل أميرا لأنطاكيـة يحكمهـا تحـت سيادة الامبراطور ؛ وتشمل أنطاكية ذاتها وميناءها السويدية ومنـاطق الشـمال الشـرقى حتـى مرعـش مـع الأراضـى التـى يغزوهـا وينتزعهـا مـن أمـراء حلـب المسـلمين وغيرهـا مـن الدويلات السورية الداخلية ؛ وتبقى مدن كيليكيا والسحل المحيط بأنطاكية تحت الحكم المباشر من الامبراطور ؛ ولا مساس بأراضى الأمراء الروبيين . وأضيف ملحق بالمعـاهدة يضم قائمة المدن التى يمارس بوهمند سلطاته عليها وقد اختيرت بعناية . ويتولى بوهمنـد فى إطـار سـلطاته ، ممارسـة السـلطة المدنيـة ؛ ويسـتعيض عـن البطريـق اللاتينـى بـآخر يونانى. وتوجد نصوص خاصة تقضى بأنه فى حالة رفض تنكريـد أو غـيره مـن رجـال بوهمند الإمتثال لشروط المعاهدة ، يتولى بوهمند إجباره على الطاعة قسرا.

وتعتبر معاهدة ديفول مثيرة للإهتمام ؛ إذ تكشف عمّا كان يتراءى لألكسيوس من حل المسألة الصليبية . فهو على استعداد لأن تصبح مناطق الحدود ، بل وأنطاكية ذاتها، تحت الحكم الذاتى لأمـير لاتينـى ، طالمـا يلـتزم هـذا الأمـير بالتبعيـة لـه وفقـا للأعـراف اللاتينية ، وطالما تحتفظ بيزنطة بسيطرة غير مباشرة من خلال الكنيسة ؛ فضـلا عـن أن ألكسيوس يعتبر نفسه مسؤولا عن المسيحيين الشرقيين ، بل يريد تـأكيد حقـوق أتباعـه الأرمن الروبيين المتذمرين . ولقد بقيت المعـاهدة مجـرد قصاصـة ورق . لكنهـا كسـرت بوهمند ؛ فلم يجرؤ على الظهور فى الشرق مرة أخرى البتة ، وتقاعد مخذولا مخزيـا فـى أراضيه فى أبوليا حيث مات عام ١١١١م ، واحدا من صغـار أمـراء إيطاليـا المغمورين تاركا طفلين من زوجته الفرنسية ليرثا حقوقه فى أنطاكية . كان جنديا شجاعا، وقائدا مقداما ماكرا، وبدا فى أعين أتباعه بطلا ؛ وهو الوحيد الذى طغت شخصيته على جميع رفاقه فى الحملة الصليبية الأولى ؛ لكن طموحاتـه العريضـة العاريـة مـن الخلـق كـانت هاويته . ولم يأت الوقت بعد كى يدمر الصليبيون درع العالم المسيحى الشرقى .

وكما تحقق ألكسـيوس جيدا ، كـانت معـاهدة ديفـول تتطلـب تعـاون تنكريـد . وتنكريد ، الذى لم يأسف لإزالة خاله من الشؤون الشرقية ، لم يكن على اسـتعداد لأن

---

(٢٤) المعنى الحرفى : الابن المولود للإمبراطور بعد إعتلائه العرش "Porphyrogennete".(المترجم)

يصبح تابعا للإمبراطور . وكان أقل طموحا من بوهمند ، إذ لا مطمع له سوى إنشاء إمارة قوية مستقلة . على أن توقعاته لم تكن تبشر بالآمال ؛ إذ لم يترك له بوهمند سوى القليل من الرجال ، ولم يترك له أية أموال جاهزة . ورغم ذلك قرر المبادرة بالهجوم ، فانتزع قرضا من أثرياء تجار أنطاكية أنعش خزائنه ومكّنه من استئجار مرتزقة محليين ؛ واستدعى من الفرسان والخيالة ما أمكن الإستغناء عنهم فى الرها وتل بشير وكذلك الأراضى الأنطاكية . وفى ربيع ١١٠٥ م انطلق لإسترداد أرتاح. وكان رضوان الحلبى يتهيأ للرحيل جنوبا لمساعدة بنى عمار فى كفاحهم ضد الفرنج ؛ لكنه تحول للدفاع عن أرتاح لدى وصول الأنباء بتقدم تنكريد . وتقابل الجيشان يوم ٢٠ إبريل فى قرية تيزين القريبة من أرتاح فى سهل منعزل تكسوه الصخور . وفزع تنكريد من ضخامة العدو التركى ، فاقترح على رضوان التفاوض . وكان رضوان حريّا بالموافقة لولا أن حثّه قائد خيالته صباو على الهجوم دون تأخير . وتسببت الصخور فى الحيلولة دون أن يستخدم الأتراك تكتيكهم المعتاد ؛ وبعدما اندحر الأتراك من أول هجوم الفرنج ، ارتدوا ليتربصوا بالعدو ، لكنهم لم يتمكنوا من إعادة ترتيب صفوفهم للهجوم التالى ؛ وفى تلك الأثناء قام فرسان الفرنج بتعجيز مشاتهم . وتسبب فشل خططهم فى إصابتهم بالذعر ، فانطلق رضوان هاربا إلى حلب مع حرسه الخاص ، وتبعه أغلب فرسانه ، وقتل من بقى من الراجلين فى ميدان القتال .

واستعاد تنكريد بنصره كل الأراضى التى فقدها قبل ذلك بعام ؛ إذ تخلت الحامية التركية عن أرتاح وسلمته المدينة ، بينما طارد جنوده الهاربين حتى أسوار حلب ، وانتهبوا كثيرا من سكانها أثناء فرارهم فى رعبهم . وطلب رضوان السلام بأن عرض تسليم كل أراضيه فى وادى العاصى ودفع إتاوة منتظمة لتنكريد . وبنهاية عام ١١٠٥م كانت سيطرة تنكريد قد اتسعت مرة أخرى جنوبا حتى البارة ومعرة النعمان .

١١٠٦ م الإستيلاء على أفاميا

وفى فبراير ١١٠٦ م أغتيل أمير أفاميا ، خلف بن ملاعب ، على يد متعصبين من حلب لأنه لم يكن مناهضا للفرنج ، ثم اختلف القتلة مع حليفهم الرئيسى داخل المدينة، أبو الفتح ، الذى تولى حكومتها، فطلب مساعدة رضوان . ودعا الأرمن المحليون تنكريد الذى رأى الظروف مناسبة للتدخل ، فسار جنوبا وبدأ حصار أفاميا . وتمكن أبو الفتح من المحافظة على النظام ؛ وتلقى من أميرى شيزر وحماة وعودا بالمساعدة .

واضطر تنكريد إلى التراجع بعد حصار ثلاثة أسابيع بدعوى ضرورة مساعدة حامية اللاذقية التى تواجه المجاعة من حصار البيزنطيين طوال ثمانية عشر شهرا . وزودها بالمؤن ثم عاد إلى أنطاكية . وبعد ذلك بأشهر قليلة ظهر فى أنطاكية أحد أبناء خلف، مصبح بن ملاعب ، مع مائة من أتباعه ، وقد نجا من المصير الذى لقيه أبوه ، وراح يحرض تنكريد على معاودة الهجوم على أفاميا؛ فحاصر تنكريد المدينة مرة أخرى بمساعدة مصبح ، وحفر خندقا حولها لمنع الدخول أو الخروج . ولم يهب أحد من الجيران الأمراء لمساعدة أبي الفتح ؛ وبعد أسابيع قليلة ، فى ١٤ سبتمبر ١١٠٦ م استسلم المسلمون بعد أن وافق تنكريد على شرط الإبقاء على حياتهم . وبعد أن دخل تنكريد المدينة أراد أن يدخل البهجة على قلب مصبح ، فقتل أبو الفتح وثلاثة من رفاقه . واقتيد نبلاء أفاميا إلى أنطاكية وبقوا فيها إلى أن رتب رضوان فديتهم . وتم تنصيب حاكم فرنجى فى أفاميا ، بينما منح مصبح إقطاعية فى الجوار. وسرعان ما استعاد الفرنج كفر طاب وعهد بها إلى فارس يدعى ثيوفيلوس الذى مالبث أن جعل من نفسه مصدر رعب لمسلمي شيزر .

أصبح تنكريد آمنا على حدوده الشرقية والجنوبية ؛ ومن ثم يستطيع أن يتحول إلى العدو الذى يبغضه البغض كله ـــ بيزنطة . وفى صيف ١١٠٧ م ، وفى الوقت الذى كان يتهيأ فيه بوهمند لمهاجمة المقاطعات الأوروبية ، اضطر ألكسيوس إلى نقل جنوده من الحدود السورية للتصدي لما يعتبره تهديدا أخطر ، فاستدعى كنتاكوزينوس من اللاذقية مع كثير من رجاله ، وموناستراس من كيليكيا التى عهد بإدارتها إلى الأمير الأرمينى سبارابيد أوشين أوف لامبرون . وفى شتاء ١١٠٨ م ، أو أوائل ١١٠٩ م ، وبعد خذلان بوهمند فى إبيروس ، هاجم تنكريد كيليكيا. ولقد أخطأ الامبراطور الحكم على الرجال ؛ ذلك أن أوشين ينحدر من أسرة عريقة النسب، وكان مشهورا فى شبابه بالشجاعة ، لكنه بات الآن مترفا كسولا ؛ وكان حصن المصيصة الواقع على نهر جيهان هو الباب المؤدى إلى كيليكيا. وعندما تقدمت قوات تنكريد برا عبر جبال الأمانوس ، وبحرا أعلى النهر لمحاصرة المدينة ، تقاعس أوشين فى التصدى له ، فسقطت المصيصة بعد حصار قصير . ويبدو أن تنكريد نصّب نفسه خلال الأشهر التالية حاكما على أضنة وطرسوس برغم بقاء غربى كيليكيا فى أيدى الامبراطورية . ورجع أوشين نفسه إلى أراضيه فى طورروس .

١١٠٩ م تنكريد في ذروة قوته

كانت اللاذقية قد استرجعت بالفعل . وحتى آنذاك ، كانت حركة النورمانديين مقيدة لغياب القوة البحرية ؛ لكن البحرية البيزنطية تركزت الآن بعيدا فى البحر الأدرياتيكى ، فتمكن تنكريد من شراء مساعدة أسطول مدينة بيزا ، التى طلبت أن يكون لمن مساعدتها أحد شوارع أنطاكية ، وحيًا من أحياء اللاذقية مع كنيسة ومستودع بضائع . وكان بتزياس – الذى خلف كنتاكوزينوس كقائد بيزنطى هناك – يفتقر إلى القوة اللازمة للمقاومة ؛ وفى ربيع ١١٠٨ م ضُمت اللاذقية أخيرا إلى الإمارة الأنطاكية. وفى العام التالى توسع تنكريد جنوبا منتزعا جبلة وبولونياس وقلعة المرقب من سيادة بنى عمار التى أفل نجمها .

وهكذا ، وعندما كان بوهموند يستسلم للامبراطور ويوقع على تنازله عن استقلاله ، كان تنكريد فى ذروة قوته ، ولم يكن على استعداد بأى حال لأن يطيع المرسوم الامبراطورى ؛ فسلطانه الرئيسى يمتد من طوروس إلى الجزيرة ووسط سوريا ، وكان حاكم أنطاكية والرها، رغم أنه كان مجرد الوصى عليهما في الواقع؛ لكن الأمير بوهمند يعيش الآن فى إيطاليا مخزيا ولن يعود إلى الشرق أبدا؛ والكونت بلدوين يعانى الوهن فى الأسرالتركى ، ولن يبذل تنكريد أى جهد لإنقاذه من الأسر ؛ وأمير حلب تابعه بالفعل؛ ولن يجرؤ أحد من جيرانه على مهاجمته . لقد انتصر فى تحديه لوريث القياصرة فى القسطنطينية . وعندما استقبل سفراء الامبراطور فى أنطاكية الذين وفدوا لتذكيره بالتزامات خاله ، طردهم فى عجرفة . وكان – كما قال عن نفسه – نينوس الآشورى العظيم ، عملاق لا يقدر إنسان على مقاومته .

على أن للعجرفة حدودها . فبرغم ذكائه ، كان بغيضا غير مأمون الجانب . وكان زملاؤه الصليبيون هم الذين تحدوا قوته وقضوا عليها.

الفصل الرابع:

تولوز وطرابلس

٨٧

تولوز وطرابلس

"جدُ لُبنانَ إليكِ يأتي"
(اشعياء ٦٠: ١٣)

كان ريموند كونت تولوز الأكثر ثراء وتميزا من بين جميع الأمراء الذين انطلقوا في الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦ م ، وقد توقع الكثيرون تعيينه قائدا للحركة. وبعد مضى خمس سنوات كان من أقل الصليبيين اعتبارا ، إذ كانت مشاكله من صنع يده . إذ على الرغم من أنه لم يكن أكثر جشعا ولا أبعد طموحا من أغلب رفاقه ، إلا أن خيلاءه جعل أخطاءه واضحة جليّة . وكانت سياسة ولائه للإمبراطور ترتكز على الشعور بالشرف والتبصر بفنون إدارة شؤون الحكم ، لكن ولاءه بدا لرفاقه حيلة خادعة ، ولم يجن من ولائه ثمارا كثيرة إذ سرعان ما اكتشف الإمبراطور أنه صديق عاجز . وكان أتباعه يحترمون ما كان عليه من ورع ، ولكنه لم يكن له سلطان عليهم، إذ أجبروه على الإسراع في رحيل مبكر أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ كما أظهرت كوارث ١١٠١ م مدى ضعف كفاءته في توجيه حملة عسكرية ، و انحدر إلى أدنى

درجات المهانة عندما اعتقله زميله الصغير تنكريد . وعلى الرغم من حفيظة الرأى العام إزاء تصرف تنكريد ، إذ يعدّ خرقا لقواعد الضيافة والشرف ، لم يحصل ريموند على حريته إلا بتوقيع تنازله عن أية مطالب فى شمال سوريا ، ناسفا دون قصد أساس اتفاقه مع الإمبراطور[١] على أنه كان يتميز بالعزيمة ؛ إذ أخذ على نفسه عهدا بالبقاء فى الشرق، وسيفى بعهده ، ولسوف ينحت لنفسه فى الصخور إمارة.

بنو عمار أصحاب طرابلس

وكانت هناك منطقة لا مفر للمسيحيين من الإستيلاء عليها كى تستديم إقامتهم فى الشرق . إذ تفصل بين فرنج أنطاكية والرها وبين اخوانهم فى القدس من ناحية أخرى، مجموعة من الإمارات الإسلامية ، أهمها إمارة بنى عمار فى طرابلس وعلى رأسها زعيم العائلة المسالم القاضى فخر الملك أبو على الذى كان يحكم منطقة غنية برغم ضآلة جيشه . وكانت سياسته الماهرة مع جيرانه هى سياسة الإسترضاء إزاءهم جميعا حتى وإن تعارضت مع مبادئه ، فاستطاع الحفاظ على استقلال هش يرتكز – كملاذ أخير – على قوة عاصمته المحصّنة فى شبه جزيرة الميناء . وكان كلما اقترب الفرنج من أراضيه يظهر لهم الكثير من المودة ، وزود الحملة الصليبية الأولى بالمؤن ، ولم يعارض قادتها عندما حاصروا مدينته أرقا ، وقدم لبلدوين البولونى مساعدات قيّمة أثناء رحلته الشائكة لتسلم تاج القدس . وعندما انسحب الصليبيون من مدينتى طرطوس وبرزية إلى مسافة بعيدة استولى عليهما بهدوء . وهكذا كان يتحكم فى الطريق الساحلى كله من اللاذقية وجبلة حتى محمية بيروت الفاطمية[٢].

وكان الطريق البديل الذى يربط بين شمال سوريا وفلسطين يمضى أعلى وادى العاصى مرورا بمدينة شيزر الخاضعة لبني منقذ ، ومدينة حماه التى تدين بالولاء لرضوان، وحمص حيث يحكم جناح الدولة زوج أم رضوان ، ثم يتشعب الطريق من هناك ؛ فيمضى فرع منه خلال البقاع إلى طرابلس والساحل ، وهو طريق ريموند الذى سلكه فى الحملة الصليبية الأولى ؛ ويمضى الفرع الثانى مباشرة وراء محمية بعلبك الدمشقية إلى

---

(١) أنظر أعلاه ص (٦٥).

(٢) أنظر أعلاه ص (٣٧) ، وكذلك مقال "Sobernheim إبن عمار Ibn Ammar" فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopaedia of Islam.* وقد أعطى الشيخ المحلى فى جبلة مدينته هذه لبورى – إبن دقاق – لكن فخر الملك أوقف هذه العطية.

منابع نهر الأردن.

وراح ريموند – الذى لم تكن طموحاته متواضعة أبدا – يتأمل فى إنشاء إمارة تتحكم فى كل من الطريق الساحلى ووادى العاصى تكون عاصمتها حمص التى يطلق عليها الفرنج لاشاميل La Chamelle ، على أن هدفه الأول كان مدن الساحل، والأرجح أنه قرر ذلك فى وجود سفن جنوا التى قد تساعده . وبعد أن أطلق تنكريد سراحه فى الأيام الأخيرة من عام ١١٠١ م انطلق من أنطاكية مع من تبقى على قيد الحياة من أمراء الحملات الصليبية فى عام ١١٠١ م ، وهم : ستيفن أوف بلوا ، ووليم الأكيتانى، وويلف البافارى ، ورفاقهم ؛ وكانوا يتلهفون على إتمام رحلة الحج إلى القدس . وفى اللاذقية اجتمع الشمل مرة أخرى مع زوجته وجنوده، وساروا جميعا إلى طرطوس . وبوصوله خارج أسوار المدينة ، شاهد أسطول جنوا الصغير راسيا قبالة الشاطئ، وكان يعقد الآمال على مساعدته. وكان حاكم المدينة قد أبدى مقاومة ضعيفة قبل هذا التهديد المزدوج من البر والبحر ، وفى منتصف فبراير تقريبا دخل ريموند طرطوس مع من رافقه من المرتحلين ، الذين وافقوا دون نقاش على أن تكون المدينة مدينته . وظنوه سيصحبهم بعد ذلك إلى القدس ؛ لكن رفضه أغضبهم ، ونعتوه بعوت الكفر حسب ما ذكره المؤرخ فولشر أوف تشارتر؛ لكنه قرر أن تكون طرطوس نواة أملاكه، فاستأذنوه وواصلوا رحلتهم جنوبا[٣].

ولم يحاول ريموند إخفاء مخططاته ، مما جعل ناقوس الخطر يدق فى العالم الإسلامى؛ وأرسل فخر الملك إلى أمير حمص وإلى دقاق الدمشقى يحذرهما. وعندما ظهر ريموند أمام أسوار طرابلس اتضح أن جيشه يزيد قليلا على ثلاثمائة رجل ، وظن المسلمون أن اللحظة قد حانت لتدميره، وسارع الدقاق بتقديم ألفى فارس، وقدم جناح الدولة مثلهم وأكثر، واستنفر بنو عمار جيشهم كله؛ وعندما تجمع الحشد الإسلامى فى السهل المطل على المدينة كان واضحا أنه يفوق جيش ريموند بعشرين ضعفا.

١١٠٢م إنتصار ريموند أمام طرابلس

لم نجد فيما كتبه مؤرخو الصليبيين عن أعمال ريموند سوى النذر اليسير، وإنما نعلم

(٣) Fulcher of Chartres, II, xvii, 1-2, pp. 433-5; Albert of Aix, VIII, 43, p. 583, Caffaro, *Liberation, p. 69* يقول إن أسطولا من جنوا قدم المساعدة.

عن هذه المعركة غير العادية التى تلت من المؤرخ العربى إبن الأثير . فقـد وضـع ريموند مائة من رجاله في مواجهة الدمشقيين ، ومائة فـى مواجهـة بنـى عمـار ، وخمسين فـى مواجهة رجال حمص، والخمسين الباقين لحرسه الخاص . وبـدأ جنـود حمـص الهجـوم ؛ لكنهم فشلوا فأصابهم الذعر فجأة ، وانتشر الذعر بين الدمشقيين . وأما جنود طرابلس فكانوا يحرزون تقدما؛ وعندما وجد ريموند أن أعداءه الآخرين يلوذون بالفرار تحول إلى جند طرابلس بجيشه كله ؛ فكانت صدمة مفاجئة فاقت احتمالهم ، فاستداروا هم أيضـا ولاذوا بالفرار . واندفع فرسان الفرنج فى ساحة القتال يجهزون على كل المسـلمين ممـن لم يتمكن من الهرب . ويقدّر المؤرخ العربى عدد الهالكين من إخوانه فـى الديـن بسبعة آلاف رجـل.

لم يسترجع النصر سمعة ريموند وحسب ، بل ضمن كذلك بقـاء مملكتـه اللبنانيـة . ولم يجرؤ المسلمون على مهاجمته مرة أخـرى البتـة . علـى أن قواتـه كـانت مـن الضآلـة بحيث لم يتمكن من الإستيلاء على طرابلس ذاتهـا بتحصيناتهـا الماثلـة فـى شـبه جزيـرة الميناء. وبعد أن فرض إتاوة باهظة من المال والجياد عاد إلى طرطـوس للتخطيـط لحملتـه التالية[٤].

وبعد أن أمضى الأشهر التالية فى توطيد مواقعه فـى جـوار طرطـوس ، انطلـق فـى ربيـع ١١٠٣م لغزو البقاع ، وهى غزوة ضرورية لعزل طرابلس وللتوسـع باتجـاه وادى العاصى. وفشلت محاولته فى مباغتة قلعـة طوبـان الواقعـة فـى مدخـل الـوادى الشـمالى الشرقى، لكنه حط رحاله غير هيـاب وحـاصر قلعـة الحصـن الماثلـة التـى تسيطر على الوادى كله ، والتـى سبق أن احتلها جنـوده لمـدة أسبوع عـام ١٠٩٩ م ؛ والقلعتـان تابعتـان لجنـاح الدولـة الحمصـى الـذى لم يكـن بوسـعه أن يفقدهمـا ؛ فجـرّد جيشـا لإنقاذهما. بيد أنه أثناء خروجه من الجامع الكبير فى حمص بعد صلاة الدعاء بالنصر ، قتله ثلاثة من الحشاشين مما أشاع الإضطراب والفوضى فى المدينـة . وعلـى الفـور رفـع ريموند الحصار عن قلعة الحصن وسار شرقا ليتهـز هـذه النهـزة . وينسـب الـرأى العـام تلك الجريمة إلى عملاء رضوان الذى لم يغفر لجناح الدولة مطلقا هجوم الأخير عليه قبل ذلك بثلاث سنوات بينما كان يقاتل الفرنج فى أنطاكية . وفزعت أرملة جناح – وهى أم رضوان – من اقتراب ريموند؛ فأرسلت إلى حلـب تعرض المدينـة علـى رضـوان. ولم

---

(٤) Ibn al-Athir, pp. 211-12; Sibt ibn al-Djauzi (p.525) يذكر أن مكان المعركة خارج طرطوس وكذلك يذكر Radulph of Caen, cxlv, p. 707 Caffaro, *Liberatio, loc. cit.* .

يوافقها مستشارو جناح فى ذلك ، وإنما استدعوا دقاق الدمشقى لإنقاذهم بدلا من رضوان ؛ فأتى دقاق بنفسه على عجل وبصحبته أتابجه طغتكن الذى عهد إليه بحكومة حمص، ولم يكن ريموند فى وضع يستطيع فيه محاربته ، فانسحب إلى الساحل(٥).

ولدى عودته إلى طرطوس علم بوصول أسطول صغير من جنوا يتألف من أربعين سفينة ألقت مراسيها فى اللاذقية ، فاستأجاره من فوره لمساعدته فى الهجوم على طرابلس ؛ لكن الهجوم باء بالفشل ، فرحل الحليفان جنوبا واستوليا على ميناء جبيل ، أو جبيل، الذى كان القدماء يطلقون عليه إسم بيبلوس؛ وكوفىء أبناء جنوا بثلث المدينة(٦) لكن ريموند كان قد عقد العزم على غزو طرابلس نفسها ؛ وفى الأشهر الأخيرة من عام ١١٠٣ م ضرب معسكره فى ضواحى المدينة وشرع فى تشييد قلعة ضخمة فوق سلسلة من التلال فى الداخل تبعد حوالى ثلاثة أميال عن المدينة . وقبل ذلك بفترة وجيزة حاول إقناع تنكريد بالتحول عن اللاذقية ، إرضاء لبيزنطة ، فكافأته بيزنطة بأن أمدته من قبرص بمواد البناء والبنّائين المهرة . وبحلول ربيع عام ١١٠٤ م اكتمل بناء القلعة وحل بها ريموند وأسماها جبل الحاج ، وهى التى يسميها العرب قلعة سنجيل ، أى قلعة سان جيل(٧).

١١٠٥م: موت ريموند

باتت طرابلس الآن فى حالة حصار دائم ، لكنها ظلت منيعة ؛ إذ كان ريموند يسيطر على المداخل البرية لكنه لا يملك القوة البحرية الدائمة . وكان بنو عمار لا يزالون يحتفظون بأسطول تجارى كبير ، ولديهم الكثير من الثروة المكدسة ، فاستمروا فى إحضار المؤن من الموانى المصرية فى الجنوب لكن قلعة ريموند كانت تهدد حريتهم ؛ فخرجوا فى أواخر الصيف وحرقوا الضواحى حتى أسوارها، وأصيب ريموند نفسه عندما وقع عليه سقف محروق . وفى أوائل الربيع التالى أمكن إغراء فخر الملك بترتيب عقد

---

(٥) Ibn al-athir, p. 213 والتاريخ الذى ذكره غامض. Kemal ad-Din, pp. 590-1.

(٦) Albert of Aix, IX, 26, pp.605-6; Caffaro, Liberatio, p. 71

(٧) Anna Comnena, XI, viii, 5, vol. III, p. 380; Albert of Aix, ix, IX, 32, P. 510; Caffaro, iberatio, p.70; RadulphofCaen, loc.cit.; William of Tyre, X, 17, p. 441; Ibn al-Athir, pp. 217-18; Abu'l Mehasin,p.275.

هدنة مع المسيحيين تخلى لهم بموجبها عن الضواحي .وما أن تمت المفاوضات حتى مرض ريموند مرض الوفاة و لم يكن قد شفى تماما من جراحاته التي أصابته قبل ذلك بستة أشهر ، ومات في جبل الحاج يوم ٢٨ فبراير عام ١١٠٥ م ، وبقيت له شهرته لما أقدم عليه من مغامرات تغلب عليها الشجاعة في سنواته الأخيرة . ونعاه عارفوه على أنه فارس مسيحى عظيم فضّل شدائد الحرب على متع الوطن كلها(٨).

وكان جديرا بما نسب إليه . فعلى خلاف زملائه الصليبيين - المستقرين الآن في الشرق بعد أن كانوا فقراء لا شأن لهم يذكر في أوطانهم - كان لدى ريموند ميراث ضخم في أوروبا ؛ وبرغم قسمه بعدم العودة إلى ميراثه أبدا ، كان مع ذلك يحتفظ بنوع ما من السيطرة على أملاكه هناك . وبموته برزت مشكلة استخلافه في تولوز فضلا عن لبنان . فقد ترك تولوز يحكمها برتراند أكبر أبنائه ، الذى حامت الشكوك حول حقه في وراثة الكونتية ، ربما لأنه كان ابن سفاح . ولقد مات جميع أبناء ريموند من الكونتيسة ألفيرا فيما عدا ولد صغيره ، ألفونسو جوردون ، الذي ولد قبل أشهر قليلة في قلعة جبل الحاج ، ولا يستطيع طفل أن يحكم دويلة عسكرية لها وضعها الشائك في لبنان ، وربما لم يكن وجوده نفسه معروفا بعد في تولوز . واستمر برتراند يباشر إدارة أراضى أبيه الأوروبية . وفي الشرق إختار جنود ريموند - وربما توافق إختيارهم مع آخر رغبات ريموند - إبن عمه وليم جوردون ، كونت سردانيا (الواقعة على جبال البرانس) ، والذى وصل إلى الشرق مؤخرا، وكانت جدته لأمه هي خالة ريموند . وقد اعتبر نفسه وصيا على إبن عمه الطفل ألفونسو ، وأبى أن يأخذ أية أملاك من أراضيه في الشرق . بيد أنه طالما بقى ألفونسو جوردن على قيد الحياة ، فلن يتوفرالأمن في حكومة وليم جوردن ولا في حكومة برتراند(٩).

---

(٨) Albert of Aix, loc.cit.; Carraro, *Liberatio,* p. 72; Bartolf of Nangis, LXVIII, p. 539.

(٩) Albert of Aix, IX, 50,pp.123-4. وطبقا لما ذكره Vaissette في تاريخه Histoire de Languedoc, ed. Molinier, vol.IV, I, pp. 195-9, ولد برتراند إبن ريموند من زوجته الأولى إبنة مركيز بروفانس . وأبطل هذا الزواج فيما بعد على أساس القرابة الوثيقة التي تحظره . ولا يترتب على هذا الإبطال دائما إعتبار ثمرته أولاد سفاح . ولكن من الواضح أنه على الرغم من أن ريموند اعتبر برتراند وريثه في تولوز حينما رحل إلى الشرق بصحبة أولاده من ألفيرا (وهم غير معروفين من ناحية الذكورة والأنوثة)، فإن مطالب برتراند تعتبر أدنى من مطالب ألفونسو جوردن الشرعية الثابته في تولوز وفيما بعد تسببت مطالب ألفونسو جوردن حول طرابلس في إنزعاج حفيد برتراند ، ريموند الثاني (أنظر أدناه، الباب الثالث ، الفصل الثالث) أما William of Malmesbury ، الذى لا يتوخى الدقة دائما، فيسمى برتراند إبن ريموند العشيق (II,9. 456) ويسميه الكاتب المعاصر Caffaro (Liberatio, p.72) إبن الحرام.

وسار وليم جوردن على سياسة سلفه ، مضيّقا الحصار ومحتفظا بالتحالف مع بيزنطة . وأرسل له حاكم قبرص ، إيوماثيوس فيلوكاليس ، بناء على تعليمات الإمبراطور ، سفيرا لتلقي تعابير الإحترام ، وإزاء ذلك أعطاه الهدايا القيّمة . ونتيجة لإمتثال وليم جوردن لبيزنطة ، دأبت قبرص على إرسال إمدادات منتظمة للفرنج الموجودين أمام طرابلس . ومن حين لآخر كان جنود بيزنطة يساعدون في حصار المدينة . وتدفق الطعام على المعسكر الفرنجي في الوقت الذي هددت فيه المجاعة سكان طرابلس ؛ إذ تعذر وصول الطعام برا ، ولم يعد يكفي هذا العدد الكبير من السكان ما تنقله السفن من الموانى الفاطمية ، فضلا عن الطعام الذى كان يتسلل عن طريق أراضي تنكريد التي تخترق الحصار؛ وارتفعت أسعار المواد الغذائية إرتفاعا خياليا ، بحيث أصبح سعر رطل التمر قطعة ذهبية ؛ وهاجر كل قادر على الهرب من المدينة ، ولم يبق داخل الأسوار سوى البؤس والمرض ، اللذين حاول فخر الملك تخفيفهما بتوزيع الطعام على الجنود والمرضى وتسديد أثمانها من ضرائب خاصة . وهرب بعض نبلاء المدينة إلى معسكر الفرنج ، وكشف اثنان منهم للمحاصرين الممرات التي لا تزال الأطعمة تهرّب عن طريقها إلى داخل المدينة . وعرض فخر الملك على وليم جوردن مبالغ طائلة لقاء تسليمه هذين الخائنين؛ وعندما رفض الكونت تسليمهما وجدا مقتولين في المعسكر المسيحي[١٠].

١١٠٨م فخر الملك يزور الخليفة

لم يجد فخر الملك من يلجأ إليه طلبا للعون ؛ فعندما طلبه من الفاطميين أصروا على ضم دويلته إليهم؛ ولسبب أو لآخر لم يكن على علاقة طيبة مع طغتكين صاحب حمص، وهو أقرب الحلفاء إليه ، وقد تولى حكم دمشق بعد موت الدقاق في ١١٠٤م ، وقد دأب هو نفسه على محاربة وليم جوردن . وبدا له أن أقاصي الحلفاء هم الأكثر حرصا عليه ، فأرسل في سنة ١١٠٥م نداء عاجلا إلى سقمان الأرتقي حاكم ماردين الذى لم يكن عزوفا عن معاودة الدخول في ساحة الصراع في الساحل السوري ، فانطلق مع جيش كبير عبر الصحراء . غير أنه مات فجأة لدى وصله البتراء ، وأسرع

(١٠) Anna Comnena, loc. cit.; ويقول إبن الأثير (Ibn al-Athir, p. 236) إن المدينة تلقت إمدادات جيدة من الإعريق في اللاذقية.

قواده بالعودة إلى الجزيرة ليختلفوا حول استخلافه(١١).

وتمكن فخر المالك طوال عامى ١١٠٦ و١١٠٧ م من تدبر أمره فى طرابلس وسط البؤس المتزايد بفضل ما كان له من ثروة وما اتصف به من دبلوماسية ؛ فتحسنت علاقته بطغتكين الذى استطاع مساعدته بعد أن استعاد رفنيّة من الفرنج سنة ١١٠٥ م محوّلا بذلك إنتباههم عن طرابلس(١٢)؛ على أن أقدام الفرنج باتت راسخة الآن على الساحل اللبنانى ، وليس هناك من الجيران المسلمين من يتوفر لديه الإستعداد ، أو الاقتدار ، لطردهم . وفى ربيع ١١٠٨ م ، قرر فخر الملك وهو فى غمرة اليأس أن يلتمس المساعدة بنفسه من الخليفة العباسي فى بغداد ، ومن أكبر عاهل هناك وهو السلطان محمد السلجوقى.

وانطلق من طرابلس فى شهر مارس بعد أن عهد إلى إبن عمه أبو المناقب بن عمار بتصريف شؤون الحكم ، وبعد أن أمر بمنح جميع الجنود راتب ستة أشهر مقدما. وكان قد أطلع طغتكين على نيّته ، ويبدو أنه حصل على إذن من وليم جوردون بالمرور من الأراضى التى يسيطر عليها الفرنج ؛ واصطحب معه حرسا خاصا يتألف من خمسمائة رجل ، كما حمل العديد من الهدايا للسلطان . وبوصوله إلى دمشق إستقبله طغتكين بمظاهر الاحترام اللائق، وأمطره أمراء دمشق البارزون بالهدايا، برغم توخيه الحيطة ونزوله خارج أسوار المدينة . وعندما شرع فى مواصلة الرحلة انضم إلى حرسه ابن طغتكين ، تاج الملك بورى . وعلى مشارف بغداد استقبل بأسمى آيات التشريف ؛ إذ أرسل إليه السلطان زورقه الخاص ليعبر به نهر الفرات ، وأجلسه على الوسادة التى تتشرف عادة بجلوس السلطان نفسه عليها . ورغم أن فخر الملك ليس له من لقب قط سوى لقب القاضى ، فقد دخل بغداد بالتشريفات التى لاتجرى الا لعاهل أمير . وأظهر كل من الخليفة و السلطان مشاعر تعاطفهم الأخوية ، وأثنيا على ما قدمه للدين من خدمات . على أنه حينما بدأت المناقشة الجدّية سقط القناع عن خواء تلك المجاملات ؛ إذ وعده السلطان بإرسال جيش سلجوقى كبير لتخليص طرابلس ، ولكن هناك أولا بعض المهام الصغيرة التى يتعيّن إنجازهابالقرب من بغداد، فمثلا ينبغى تأديب جاولى أمير الموصل حتى يظهر من الطاعة أكثر مما هو عليه . وأدرك فخر الملك حقيقة أن محمدا عزوف عن التدخل في مسألة طرابلس . وبعد مرور أربعة أشهر عقيمة ومترفة فى بلاط

---

(١١) Ibn al-Athir, pp. 226-7.

(١٢) Ibn al-Qalanisi, op.cit. p. 60; Ibn al-Athir, p. 230.

السلطان شرع فى رحلة العودة إلى وطنه ليكتشف أنه لم يعد له وطن[١٣].

ذلك أن أبا المناقب ووجهاء طرابلس كانوا واقعيين ؛ وتحققوا من أن القوة الإسلامية الوحيدة القادرة على مساعدتهم هى القوة الفاطمية التى مازالت تسيطر على البحار ، فتوجهوا إلى الوزير المصرى الأفضل ملتمسين إرسال حاكم يتولى شؤون المدينة، وإستجابة لرغبتهم أرسل شرف الدولة الذى وصل طرابلس فى صيف ١١٠٨م حاملا معه الحبوب للسكان ؛ و لم يجد صعوبة فى إحكام سيطرته على المدينة؛ إذ اعتقل أنصار فخر الملك وأرسلهم بحرا إلى مصر . وكان فخر الملك قد وصل في طريق عودته إلى دمشق قبل أن يعلم بهذه الثورة ، وكان لا يزال يمتلك جبلة الواقعة إلى الشمال من طرطوس ، فولى وجهه شطرها، لكن حكمه هناك لم يدم طويلا ؛ فقد ظهر تنكريد الأنطاكى فى شهر مايو ١١٠٩ م بكامل قوته أمام المدينة ، فاستسلم فخر الملك بعد أن اشترط الإحتفاظ بالمدينة كإقطاعية من تنكريد ؛ لكن هذا الأخير خان وعده ، فاضطر فخر الملك إلى الرحيل إلى دمشق دون أن يتحرش به تنكريد ليتقاعد فيها، وقضى ما بقى من حياته يتقاضى معاش تقاعده من طغتكين[١٤].

١١٠٨م : برتراند التولوزى يرحل إلى الشرق

مع أن فخر الملك فقد طرابلس ، لم يستطع المصريون الإحتفاظ بها ، كما لم يتمكن وليم جوردن من الفوز بها؛ إذ أنه بموت ريموند وافق بارونات تولوز على إستخلاف برتراند، فقد حكمهم بالفعل لما يقرب من عشر سنوات ، فضلا عن أنهم لم يعلموا بعد بوجود إبن شرعى لريموند. على أنهم بعدما علموا بوجود ألفونسو جوردن الصغير ، أرسلوا إليه يستدعونه لتسلم حقه في الميراث ، ولا تلام الكونتيسة ألفيرا على إيثارها الأراضى الخصبة فى جنوب فرنساعلى لوردية وضعها شائك فى الشرق . فوصلت مع ابنها إلى تولوز سنة ١١٠٨م.

وبوصولهما ، كان لزاما على برتراند أن ينظر فى مستقبله . والراجح أنه قد تم إعداد إتفاق عائلى ، يتخلى برتراند بموجبه عن مطالباته فى أراضى أبيه الأوروبية ، مقابل تخلى ألفونسو جوردن له عن ميراثه فى لبنان وبذا يتخلص منه نهائيا فى تولوز .

---

(١٣) .Ibn al-Qalanisi, op.cit pp. 83-6; Ibn al-Athir, pp. 255-7..

(١٤) Ibn al-Qalanisi, pp 86-90; Ibn al-Athir, p 274; Sibt ibn ak-Djauzi, p 536

وفى صيف ١١٠٨م رحل برتراند إلى الشرق وقد عقد العزم على غزو طرابلس ليكون هذا الغزو بمثابة تتويج لإمارته التى تنتظره. وربما توقع بعض الصعوبات مع وليم جوردن ، ولذا اصطحب معه جيشا من أربعة آلاف فارس وراجل ، وأسطولا من أربعين قادسا[١٥] أمدته بها موانى بروفانس ، واصطحب معه إبنه الصغير بونز . وكان ميناء جنوا أول مكان توقف فيه للزيارة آملا الحصول على المساعدة البحرية اللازمة للإستيلاء على طرابلس . وحاول وليم جوردن هو الآخر ترتيب تحالف مع أبناء جنوا، لكن سفارته وجدت أنهم قد قبلوا برتراند بالفعل حليفا للجمهورية . ووعدت جنوا بمساعدة برتراند على استلامه الأراضى التى غزاها أبوه فى الشرق وتتويجها بالإستيلاء على طرابلس التى سيحصلون فيها على مناطق تجارية مفضلة ؛ وفى الخريف أبحر أسطول من جنوا مع برتراند بإتجاه الشرق[١٦].

ورتّب برتراند أن تكون خطوته التالية هى زيارة القسطنطينية كى يضمن موازرة الإمبراطور ، صديق أبيه . ودفعت العواصف بأسطوله إلى خليج فولو ، وإلى مرفأ ألميرو حيث ترك رجاله إنطباعا رائعا بإحجامهم عما إعتاد عليه الغرب من نهب الريف . وترتب على ذلك أن استقبله ألكسيوس فى القسطنطينية بمشاعر التعاطف وعامله كإبنه، وأغدق عليه من الهدايا القيّمة ، ووعده بميزات إمبراطورية ؛ وفى مقابل ذلك أقسم على الولاء للإمبراطور[١٧].

وأبحر برتراند من القسطنطينية مع حلفائه أبناء جنوا إلى ميناء السويدية الأنطاكى، وأرسل مبعوثا إلى تنكريد كى يحضر لمقابلته ، فجاء تنكريد فى الحال . لكن المناقشة التى دارت بينهما لم تتخذ مسارا سلسا هيّنا؛ إذ طلب برتراند بأسلوب متعجرف أن يسلمه تنكريد الأجزاء من مدينة أنطاكية التى كانت فى حوزة أبيه ذات مرة ، ورد تنكريد بأنه على استعداد للنظر فى طلبه إذا ما ساعده فى حملته المرتقبه ضد المصيصة ومدن كيليكيا البيزنطية . ولم يلق هذا الإقتراح قبولا لدى برتراند الذى أقسم لتوه قسم الولاء للإمبراطور ألكسيوس ، لاسيما وأنه أدخل فى حسبانه المساعدات البيزنطية .

---

(١٥) (المترجم) القادس : سفينة شراعية مجدافية كبيرة.

(١٦) يقول ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, XI, 3, p.664) إن برتراند زار بيزا وهو يعنى جنوا؛ .Caffaro, *Liberatio*, p. 72.

(١٧) تقول آنا كومنينا (Anna Comnena, XIV, ii, 6, vol. III, p. 149) إن برتراند أقسم قسم الولاء لألكسيوس عندما كان بالفعل فى طرابلس . ولكن ألبرت أوف آيكس (المرجع السابق) يذكر زيارته عن طريق هالميروس Halmyrus إلى القسطنطينية.

وبدلا من ذلك عرض على تنكريد أن يغزو له مدينة جبلة التى لاذ بها فخر الملك ، ولكن تنكريد أصرّ على التعاون معه فى حملة كيليكيا . وبرفض برتراند ومصارحته بالقسم الذى أقسمه للإمبراطور ، أمره تنكريد بمغادرة الإمارة ، وأصدر أوامره لرعاياه ألاّ يبيعوه شيئا من المؤن ؛ فاضطر برتراند إلى الرحيل مبحرا جنوبا إلى ميناء طرطوس[١٨].

١١٠٩م برتراند ووليم جوردن

كان أحد نواب وليم جوردون حاكما على طرطوس . وسارع باستقبال برتراند فى المدينة ، وزوده بكل ما كان فى حاجة إليه من المؤن . وفى اليوم التالى أرسل برتراند مبعوثا إلى مقر وليم جوردن الرئيسى فى جبل الحاج طالبا تسليم كل تركة أبيه فى أراضى لاشاميل La Chamelle ، أى إمارة حمص ، التى كان ريموند يأمل فى إنشائها . لكن وليم جوردن كان قد حقق مؤخرا نجاحا ملحوظا . إذ عندما تولى المصريون حكم طرابلس قام أهالى مدينة أرقا - التى كانت تحت قيادة واحد من غلمان فخر الملك المفضلين - بوضع المدينة تحت حماية طغتكين الدمشقى الذى خرج بنفسه لتفقد محميته الجديدة ؛ و لكن أمطار الشتاء أخّرت تقدمه فى البقاع ؛ وأثناء إنتظاره تحسن الجو هاجم بعض الحصون التى بناها المسيحيون بالقرب من الحدود ؛ فزحف وليم جوردن مع ثلاثمائة من الخيالة ومائتين من المشاة المحليين فوق كتف جبل لبنان وباغته بالإنقضاض عليه بالقرب من قرية الأكمة ، فهرب طغتكين مع جيشه الدمشقى مذعورا إلى حمص والفرنج فى أعقابه يطاردونه ، لكنهم آثروا عدم المغامرة بمهاجمة المدينة وإنما تحولوا شمالا للإغارة على أراضى شيزر . وعلم أميرا شيزر مرشد وسلطان ، وهما من المنقذين ، بأن جيش الفرنج صغير ، فخرجا وهما على ثقة من هزيمته بيسر ، لكن الفرنج بادروا بهجوم ضار كسر رجال شيزر فلاذوا بالفرار وعاد وليم جوردن إلى أرقا التى استسلمت له بعد حصار لا يزيد على ثلاثة أسابيع[١٩].

وانتشى وليم جوردن بانتصاراته ، و لم يكن فى حالة تسمح له بالتنازل عما يطلبه برتراند، ورد عليه قائلا إنه يمتلك أراضى ريموند بحق الوراثة ، فضلا عن أنه دافع عنها

---

(١٨) Albert of Aix, XI, 5-7, PP. 665-7.

(١٩) Usama, ed. Hitti, p. 78; Ibn al-Athir, pp. 226-7.

ووسع من رقعتهـا . على أنه استشعر الخطر من ضخامـة أسطول برتراند ؛ فاستنجد بأنطاكية ملتمسا تدخل تنكريد لصالحه بعد أن وعد بأن يصبح تابعا لتنكريد . واضطـر برتراند إلى إتخاذ إجراء مناظر، فأرسل مبعوثا إلى القدس يعرض قضيته على الملك بلدوين ويناشده التدخل بصفته الحكم الأعلى لفرنج الشرق ، ومن ثمّ يعترف بسيادته عليه[٢٠].

واستجاب بلدوين من فوره للنداء . ذلك أن حنكته السياسية ترى ضرورة تعاون فرنج الشرق، وصوّر له طموحه أنه قائدهم . وكان غاضبا أشد الغضب على تنكريد من موقفه إزاء بلدوين الرها وجوسلين أوف كورتناى . وتحرك برتراند جنوبا إلى طرابلس حيث كان الجيش يقوم بمهمة مزدوجة : مواصلة حصار المدينة الإسلامية ، ومحاصرة أعوان وليم جوردن فى جبل الحاج . وفى ذات الوقت كان وليم جوردن قد غادر جبل الحاج واحتل طرطوس مرة أخرى ، ولبث فيها ينتظر تنكريد . وما أن وصل حتى جاء مبعوثان من الملك بلدوين ؛ هما إيوستاس جارنييه وباجان أوف حيفا ، وأمراهما بالمثول فى بلاط الملك أمام طرابلس لتسوية مسألة ميراث ريموند، وإعادة الرها وتل بشير إلى أصحابهما الشرعيين. وود وليم جوردن لو أن تنكريد يرفض هذا الإستدعاء ، لكن تنكريد تحقق من عدم جدوى التحدى.

وفى شهر يونية تجمع أمراء فرنج الشرق جميعا خارج أسوار طرابلس ؛ فحضر برتراند مع جيشه ، وجاء الملك بلدوين من الجنوب وبصحبته خمسمائة فارس ومثلهم من المشاة ، وأحضر تنكريد سبعمائة من أقدر فرسانه ، ووصل بلدوين الرها وجوسلين مع الحرس . وانعقدت جلسة وقورة فى قلعة جبل الحاج أسفرت عن مصالحة رسمية بين تنكريد وبلدوين الرهاوجوسلين ، بينما تقرر تقسيم الميراث التولوزى بأن يحتفظ وليم جوردن بطرطوس وما غنمه غزوا - أى أرقا ؛ ويحصل برتراند على جبيل وطرابلس فور الإستيلاء عليها . وأقسم الأول قسم الولاء لتنكريد ، وأقسم الثانى قسم الولاء للملك بلدوين. ويقضى الإتفاق بأنه فى حالة وفاة أى منهما يرث الآخر أراضيه[٢١].

---

(٢٠) Fulcher of Chartres, II, xi, I, pp. 526-30; Albert of Aix, XI, 1-2, 8, pp. 663-4, 666.

(٢١) Fulcher of Chartres, II, xli, I, p. 531, Albert of Aix, XI, 9-12, pp. 666-8.

١١٠٩م استسلام طرابلس

وحل السلام بين القادة ، وشرع الجيش الفرنجي حادا في الإستيلاء على طرابلس . وكان الحاكم المصرى شرف الدولة لا يزال يلح يائسا في طلب المساعدة من السلطات المصرية التي شغلتها مكائد قادتها وخلافاتهم ، فتأخر ما جهزته في موانى الدلتا من أسطول ضخم وسفن من ناقلات الجنود وقوارب محملة بالإمدادات . وكانت الشهور تمضي والوزير يحاول تهدئة الخلافات بمحاولات منقوصة ، إلى أن صدرت الأوامر أخيرا بالإبحار . غير أن الرياح الشمالية هبت واشتدت مما عرقل إبحار السفن من الميناء، وعندما أبحرت في نهاية الأمر وقد نقص عددها ، كان السيف قد سبق العذل(٢٢).

وتلفتت حامية طرابلس فوجدت أساطيل جنوا وبروفانس تعزلها بحرا ، وآلات الفرنج تقصف أسوارها فتعجزها برا ؛ فنفضت عن نفسها فكرة المقاومة ، وأرسل شرف الدولة إلى الملك بلدوين يعرض تسليم المدينة بشرط السماح للمواطنين الراغبين في الهجرة بالرحيل آمنين ومعهم منقولاتهم، وأن يسرى على المواطنين الراغبين فيالبقاء ما يسرى على رعايا الفرنج ، وأن يحتفظوا بممتلكاتهم ، وإنما يدفعون ضريبة سنوية معينة، وأن يسمح له هو نفسه بالرحيل مع جنوده إلى دمشق . فوافق بلدوين ودخل المسيحيون طرابلس يوم ٢١ يولية ١١٠٩م.

وأمّا بلدوين ، فقد احترم إتفاقه ولم يحدث في المناطق التي كان يباشرها نهب أو تخريب ، وأمّا بحارة جنوا فقد اقتحموا المدينة العارية من أى دفاع ، وراحو ينهبون المنازل ويحرقونها ، وأخذوا يقتلون كل مسلم يقابلهم ؛ ولم تتمكن السلطات من كبح جماحهم إلاّ بعد فترة من الوقت ، وأثناء النهب والشغب أحرقوا مكتبة بني عمار العظيمة عن آخرها وهلكت كل محتوياتها. وكانت أروع مكتبة في العالم الإسلامي(٢٣).

وبعد الإستيلاء على كامل المدينة وفرض النظام تم تنصيب برتراند حاكما لها ومُنح لقب كونت طرابلس ، وأعاد تأكيد تبعيّته لمملكة القدس . وضرب بتعهداته للإمبراطور ألكسيوس عرض الحائط . وكوفئ أبناء جنوا بحى من أحياء طرابلس ، وقلعة تعرف

---

(٢٢) Ibn al-Athir, p. 274; Ibn al-Qalanisi, p. 89

(٢٣) Fulcher of Charters, II, xli, 2-4, pp. 531-3; Albert of Aix, XI, 13, p. 668; Ibn al-Qalanisi, pp. 89-90; Ibn al-Athir, loc. cit.; Abu'l Mahasin, p 489; Ibn Hmdun, p. 455; Sibt ibn al-Djauzi, p. 536.

بقلعة الكونستابل تبعد عشرة أميال إلى الجنوب من طرابلس، وبالثلثين الباقيين من مدينة جبيل بعد منحها للأدميرال هيو أمبرياكو، وقد حوّلتها ذريته إلى إقطاعية وراثية(٢٤).

و لم ينتظر برتراند طويلا ليستحوذ على ميراث أبيـه كلـه فـى الشـرق ، إذ أصيـب وليم جوردن بسهم أثناء تواجد الجيش الفرنجى فى طرابلس ، وبقيـت ملابسـات مقتلـه غامضة. ويبدو أنه اندفع لفض شجار شب بين إثنين من سائسى الخيل ، وأثناء محاولتـه الفصل بين الرجلين أطلق البعض عليه سهما. ويقينا حـامت الشـبهات حـول برترانـد ، ولكن دون بيّنة . وعلى الفور تسلم برتراند جميع أراضى وليم جوردن ، التى أصبحـت إذن تدين بالولاء للملك بلدوين . ولقد راهن تنكريد على الحصان الخاسر(٢٥).

وهكذا تحققت طموحات ريمونـد فـى تأسيس دويلـة فـى الشـرق أقامهـا ولـده . ولكنها كانت إمارة تقل عمّا كان يراود خيالـه ، و لم تكـن أراضـى "لا شـاميل" جـزءا منها قط ، وبدلا من الاعتراف بسيادة الإمبراطور البعيـد فـى القسـطنطينية ، أصبـح لهـا سيد أعلى على مقربة فى القـدس . علـى أنـه كـان ميراثـا غنيـا مزدهـرا . وكـان لهـذه الإمارة، بما لها من ثروة وموقع يربط فرنج شمال سوريا بفرنج فلسطين ، دورا حيويا فى تاريخ الحروب الصليبية.

---

(٢٤) Caffaro, *Libertio*, pp 72-3 See Rey, 'Les Seigneurs de Gibelet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol III, pp. 399-403.

(٢٥) Fulcher of Charters, loc. cit.; Albert of Aix, XI, 15, pp. 669-70.

الفصل الخامس:

الملك بالدوين الأول

الملك بلدوين الأول

"قلبه صُلب كالحجر وقاسٍ كالرحى"
(أيوب ٤١ - ٢٤)

اتضح بجلاء من تدخل الملك بلدوين فى طرابلس سنة ١١٠٩ م أنه عاهل فرنج الشرق بلا منازع.وقد حظى بتلك المكانة بما كان له من دأب شاق صبور ومن جسارة المغامرة . وعندما وصل القدس بعد موت جودفرى ، برغم معارضة البطريق ديامبرت وحليفه أمير انطاكية (بوهيموند)، كان ما ورثه عبارة عن خزانة خاوية وممتلكات مبعثرة تتألف من سلسلة الجبال الوسطى فى فلسطين وسهل ازدراليون ، وحصون نائية قليلة شيّدت فى أراض معادية ، وجيش بالغ الضآلة مؤلف من فرسان متعجرفين لا سلطة للقانون عليهم، ومرتزقة من أهل البلاد لاثقة فيهم . ولم يكن فى المملكة أية هيئة واحدة منظمة عدا الكنيسة التى تضم شيعتين : شيعة ديامبرت ، وشيعة أرنولف . وكانت أسرة جودفرى هى التى تتولى تصريف الإدارة المركزية ، وهى أسرة صغيرة غير جديرة بتولى حكومة بلد. وأما النبلاء الذين أوكلت إليهم الحصون الحدودية ، فكانوا

يحكمون أراضيهم بما تمليه عليهم أهواؤم.

ورأى بلدوين أن أخطر ما يتهدد مملكته هجوم إسلامى قبل أن تنتظم أمورها. وإعتقادا منه بأن أفضل سبل الدفاع هى الهجوم ، انطلق فى حملة يرهب بها الكفرة قبل أن يجد حلا لمشكلة علاقته مع ديامبرت ، وقبل أن يوضع التاج على رأسه وهي مشكلة يرى أنها ملحة. وكان لأعماله الجريئة فى الرها وإنتصاره فى نهر الكلب ما أصفى عليه سمعة مرعبة راح ينتفع بها. فلم يكد يمر أسبوع على وصوله إلى القدس حتى انطلق جنوبا إلى عسقلان وسار أمام أسوارها مستعرضا ؛ بيد أن قلعة عسقلان كانت من القوة بحيث لا يستطيع جيشه الهزيل مهاجمتها ، فاتجه شرقا إلى الخليل ، فجنوبا داخل النقب ، إلى زُغر فى الأرض المالحة فى الطرف الجنوبى للبحر الميت ، وراح يشعل الحرائق فى القرى التى يقابلها فى طريقه . وواصل مسيرته خلال قفار إيدوم (الشراه) إلى جبل هارون حيث دير القديس هارون القديم بالقرب من البتراء. ورغم أنه لم يبق طويلا فى تلك المنطقة ، فقد كان لمسيرته أثرها المروّع على العرب ، فأحجموا عن التسلل إلى أراضيه فى السنوات القليلة التى تلت(١).

وعاد إلى القدس قبيل عيد الميلاد بقليل، وتوفر للبطريق ديامبرت الوقت الكافى ليتدبر أمره ، فاختار أن ينحنى لعاصفة قدره المحتوم . وفى عيد الميلاد من عام ١١٠٠م وضع تاج الملك على رأس بلدوين معلنا تتويجه ملكا على القدس ، وفى المقابل آلت إليه البطريارقية.

وفى بدايات ربيع ١١٠١م علم بلدوين بأن قبيلة عربية ثريّة تعبر وادى الأردن، فسارع إليها على رأس كتيبة عبر النهر وانقضّ عليها بليل، وأجهز على أغلب الرجال وهم فى خيامهم، وسبى النساء والأطفال واستلب الكثير من الثمين والمال، ولم يتمكن من الهرب إلا القليل. ومن بين السبايا كانت زوجة أحد شيوخ القبيلة تتهيأ لتضع حملها، فأمر بلدوين بإطلاق سراحها مع خادمتها وناقتين وكثير من الطعام والشراب. ووضعت طفلها على جانب الطريق حيث وجدها زوجها. ومسّت كياسة بلدوين شغاف قلبه فأسرع إليه يوفيه حقه من الشكر والعرفان، واعدا برد الجميل يوما ما(٢).

---

(١) صاحب فولشر أوف تشارتر هذه الحملة (Fulcher of Charters,, II, iv, i-5, ii, pp. 370-83) ؛ Albert of Aix, VII, 28-42, pp. 533-6. كان هناك دير إعريقى فى جبل هارون حاليا، وُنزل للرهبان حول الضريح النبطى الكبير الذى يعرف الآن باسم الدير.

(٢) William of Tyre, X, II, p. 415.

وزادته هذه العارة شهرة على شهرة ، فوفدت السفارات فى مارس إلى القدس من مدن الساحل أرسوف وقيسارية وعكا وصور تحمل الهدايا الثمينة ، كما أرسل دقاق الدمشقى يعرض خمسين ألف بيزنت فدية أسرى معركة نهر الكلب ؛ وإذن وجدت أعقد المشاكل المالية طريقها إلى الحل(٣).

١١٠١م : الإستيلاء على أرسوف وقيسارية

أمّا هدايا أرسوف وقيسارية ، فلم تغن عنهما شيئا ؛ إذ ظهر أسطول جنوا فى مارس أمام حيفا ، وألقى مراسيه في يافا يوم ١٥ أبريل ، وكان من بين ركابه الأسقف موريس كاردينال بورتو الذى بعثه البابا باسكال ممثلا شخصيا له . وحتى آنذاك ، كان بلدوين يعتمد على أسطول بيزا الصغير الذى حمل عدوه دايمبرت ، رئيس أساقفة بيزا ، إلى الشرق . وأملت المصلحة على بلدوين تفضيل التحالف مع أبناء جنوا ، إذ أنهم أنداد بيزا الشداد ، فانطلق جنوبا إلى حيفا للتحية ولإستقبال ممثل البابا. ودعا قادة الأسطول لقضاء عيد الفصح فى القدس حيث إتفقوا على تقديم خدماتهم البحرية طوال موسم كامل نظير ثلث الأسلاب المستلبة ، المال والمنقول سواء بسواء ، وشارع فى حى السوق من كل مدينة يتم الاستيلاء عليها . وحالما وقعوا الإتفاق ، انطلقوا يريدون أرسوف ، بلدوين برا وأهل جنوا بحرا . وسرعان ما انهارت المقاومة وعرضت سلطات المدينة التسليم شريطة السماح للسكان بالهجرة المأمونة مع ذويهم ومنقولاتهم الى أرض إسلامية ، وقبل بلدوين فرحلوا فى حراسة جنوده إلى عسقلان . وعزز بلدوين الحامية برجاله بعد أن أعطى أبناء جنوا حقهم المتفق عليه(٤).

ورحل الحلفاء من أرسوف إلى قيسارية حيث بدأوا حصارها يوم ٢ مايو . وأبت الحامية أن تستسلم المدينة اعتمادا على أسوارها البيزنطية القديمة . على أن المدينة سقطت إثر هجوم عام يوم ١٧ مايو . وأطلق القادة المنتصرون جنودهم لينهبوا المدينة كما يحلو لهم ؛ وبلغت الشراسة حدا أذهل حتى القادة أنفسهم ؛ ووقعت أفظع المذابح في الجامع الكبير ، الذى كان ذات مرة معبد هيرود أجريبا(٥)، حيث لاذ به الكثيرون

---

(٣) Albert of Aix, VII, 52, pp. 541-2.

(٤) Fulcher of Charters, II, viii, 1-7, pp. 393-400; Albert of Aix, VII, 54, pp. 452-3

(٥) (المترجم) : هيرود أجريبا: من ملوك بنى إسرائيل (١٠ ق م ـ ٤٤ م) استغل صداقته بالأسرة الإمبراطورية وأصبح ملكا . اضطهد المسيحيين ، وسجن بطرس الرسول ، وقتل الحوارى يعقوب بن

الذين توسلوا طالبين الرحمة ، لكنهم ذبحوا رجالا ونساء سواء بسواء ، إلى أن استحالت أرضية الجامع بحيرة دماء . ولم يخرج من الجامع أحد على قدمية سوى عدد قليل من البنات والأطفال الرضع ، إلى جانب كبير القضاة وقائد الحامية بعد أن أنقذهما بلدوين نفسه طمعا فى فدية ثمينة . وقد أمر بلدوين بتلك الوحشية متعمدا ، حتى يظهر أنه عند كلمته مع كل من يعقد معه اتفاقا ، وإلا فإنه لا يرحم(٦).

وما أن أنهى بلدوين توزيع الغنائم بحسب الإتفاق ، ووضع جنود الحامية ، حتى جاءته الأنباء بأن جيشا مصريا قد دخل فلسطين.

ذلك أن الوزير الأفضل كان متلهفا على الثأر من كارثة عسقلان التى وقعت قبل عامين ، فجهز حملة يقودها المملوك سعد الدولة الجواشي ، وصلت عسقلان فى منتصف مايو ، وواصلت تقدمها حتى الرملة ، وربما على أمل التوغل إلى القدس بينما كان بلدوين منهمكا فى قيسارية ؛ وأسرع بلدوين بقواته إلى الرملة ، فعاد سعد إلى عسقلان انتظارا للتعزيزات . وبعد أن قام بلدوين بتعزيز تحصينات الرملة اتخذ من يافا مقرا لقيادته كى يتمكن من مراقبة تحركات المصريين ، وفى ذات الوقت يبقى على اتصاله بالمواصلات البحرية ، ولبث فى يافا طوال الصيف عدا زيارة قصيرة للقدس لأغراض إدارية ، كما أنه علم من رسالة اكتشفت مع حاملها بوصول قوات مصرية جديدة إستعدادا للزحف على القدس.

١١٠١ م معركة الرملة الأولى

فى ٤ سبتمبر تحرك سعد بجنوده تحركا بطيئا حتى مشارف الرملة . وفى مجلس الحرب الذى عقده بلدوين قبل يومين تقرر المبادرة بالهجوم فجرا دون إنتظار هجوم الأعداء . وكانت عدة الفرنج مائتين وستين فارسا وتسعمائة راجل ، تسليحهم جيد وخبرتهم بالحرب حسنة . أما المصريون فكانت عدتهم أحد عشر ألف فارس وواحد

زبدى بقطع رأسه فى القدس عام ٤٤ م.

(٦) Fulcher of Charters, IX, 1-9, pp. 400-4; Albert of Aix, VII, 55-6, pp.453- 4, William of Tyre, X, 16, p.423, يذكر أن أبناء جنوا أخذوا – كجزء من الغنائم – كأسا أخضر إعتقدوا أنه مصنوع من الزمرد الخالص . ولا يزال موجودا فى خزانة كتدرائية القديس لوريزو فى جنوا، وإعتبر فيما بعد الكأس المقدسة (التى شرب منها المسيح فى العشاء المقدس) (أنظر Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, I, p. 137.)

وعشرين ألف راجل ، تسليحهم سيئ وكذلك تدريبهم على الحرب . وقسّم بلدوين رجاله إلى خمس فرق : الأولى يقودها فارس يقال له برفولد، والثانية يقودها جلدمار كارنبل – لورد حيفا ، والثالثة يقودها هيو (أوف سانت أومبر) الذى خلف تنكريد أميرا للجليل ، والفرقتان الرابعة والخامسة يقودهما بلدوين نفسه . وسار الفرنج إلى الرملة يستلهمون حماسهم من الصليب الحقيقى ، ومن الصلاة التى أقامها أرنولف أوف روس ، وما أعلنه الكاردينال ممثل البابا من غفران خاص لهم . ومع أشعة الشمس الأولى إنقضوا على المصريين بالقرب من يبنة إلى الجنوب الغربى من المدينة.

وسحق المصريون هجوم الفرقة الأولى بقيادة برفولد وسقط هو نفسه صريعا؛ وإندفع جلدمار بفرقته الثانية لمعاونته ، ليهلك هو الآخر مع رجاله كلهم . وجاءت فرقة الجليل على الأثر ، ولم تفعل شيئا فى حشود المصريين . وتمكن هيو (أوف سانت أومير) بعد خسائر فادحة من سحب رجاله ولاذ بالفرار قاصدا يافا ووراءه ميسرة المصريين تطارده . وبدا أن الفرنج قد خسروا كل شئ . على أن الملك بلدوين ، بعد أن اعترف بذنوبه علانية أمام الصليب الحقيقى ، وبعد أن ألقى على رفاقه خطبة رنّانة ، اعتلى فرسه العربى الشجاع "الغزال" واندفع أمام فرسانه فى قلب العدو ؛ فبوغت المصريون الواثقون من النصر ، وبعد سجال قصير استدار جنود الوسط وهربوا ، وامتد الذعر إلى ميمنتهم ، ومنع بلدوين رجاله من التوقف لنهب الجثث أو سلب المعسكر ، وطاردهم حتى أسوار عسقلان . ثم جمع شتات رجاله وراحوا يقتسمون الأسلاب التى فازوا بها فى ساحة القتال(٧).

وفى تلك الأثناء، وصل هيو (أوف سانت أومير) إلى يافا، وأبلغ الملكة والبلاط بالهزيمة. وظنا منهم أن الملك قد قتل فى هذه الكارثة، سارعوا بطلب المساعدة من الرجل الذى ظنوه الوحيد القادر على العون ـــ تنكريد فى أنطاكية. وفى الصباح التالى شاهدوا فى الأفق جيشا ظنوا أنه جيش المصريين؛ لكن النشوة تملكتهم عندما ميّزوا رايات الفرنج وتعرفوا على الملك. فأرسلوا إلى أنطاكية ثانية بأن الأمور تسيرعلى مايرام ولا حاجة لأن يأتى تنكريد. غير ان تنكريد كان قد تجهز – بشئ من البهجة – للإنطلاق جنوبا(٨).

ولقد مال الخطر عن الفرنج مؤقتا ؛ وأصيب المصريون بخسائر كبيرة ، ولم يتمكنوا

---

(٧) Fulcher of Chartres, II, xı, I-xiii, 5, pp. 407-20; Albert of Aix, VII, 66-70, pp 550-3

(٨) Fulcher of Chartres, II, xiv, I-8, pp. 420-4

من معاودة إرسال حملة في ذلك الفصل من السنة. غير أن مصر زاخرة بمواردها ، فلم يجد الأفضل صعوبة في تجهيز جيش آخر في العام التالي لمواصلة الكفاح . وفي ذلك الوقت وفد على بلدوين من نجا من أمراء الحملات الصليبية في الأناضول عام ١١٠١م ، وكانوا قد وصلوا إلى مشارف بيروت في أوائل ربيع ١١٠٢م وعلى رأسهم وليم الأكيتاني ، وستيفن أوف بلوا ، وستيفن أوف برجندي ، والكونستابل كونراد ، وبصحبتهم نبلاء شتى من الأراضي الواطئة، وإيكارد أوف أورا، وأسقف مناس، وأكثرهم جاء إلى أنطاكية بطريق البحر. وأرسل بلدوين حرسا لاستقبالهم وحراستهم حتى القدس خوفا عليهم من الأعداء . وبعد أن احتفل القادة بعيد الفصح في الأماكن المقدسة ، تهيأوا للعودة إلى بلادهم ؛ فأبحر وليم الأكيتاني في أمان من ميناء السويدية في نهاية إبريل ؛ بيد أن العواصف قذفت بالسفينة التي تقل ستيفن أوف بلوا وستيفن البرجندي وآخرين إلى يافا . وقبل العثور على سفينة أخرى تقلهم جاءت الأنباء بمسير جيش إسلامي جديد من مصر . ولسوء حظهم لبثوا للمساعدة في الصراع الوشيك[٩].

١١٠٢م معركة الرملة الثانية

في منتصف مايو ١١٠٢م تجمع الجيش المصري في عسقلان ثم انطلق باتجاه الرملة. وكان قوامه نحو عشرين ألفا من العرب والسودانيين يقودهم شرف المعالي، ابن الوزير. وكان بلدوين قد أعد عدته بجيش من عدة آلاف مسيحي ينتظر في يافا، وحاميات الجليل على أهبة الإستعداد لإرسال الكتائب إذا ما دعت الحاجة . لكن جواسيس بلدوين ضللوه ، فظن المصريين جماعة صغيرة من المغيرين ، فقرر القضاء عليهم بنفسه دون إستدعاء قواته الإحتياطية . وكان معه في القدس أصدقاؤه من الغرب ، ستيفن أوف بلوا ، وستيفن البرجندي ، والكونستابل كونراد ، وهيو كونت لوسينان ، وغيرهم من فرسان البلجيك . واقترح عليهم الإنطلاق مع الفرسان لإنهاء هذه المهمة . وغامر ستيفن أوف بلوا بالقول بأن هذا تصرف يتصف بالتهور ، وأن من الأفضل إجراء إستطلاع جيّد ؛ لكنه لم يجد أذنا صاغية ، وإنما تذكّروا جبنه في أنطاكية، فصحبهم دون أن يزيد على ما قال.

وفي ١٧ مايو انطلق بلدوين من القدس على رأس نحو خمسمائة فارس ، يغلب

(٩) Fulcher of Chartres, II, XV, I-6, pp. 424-8.

عليهم الكثير من المرح والقليل من النظام . وساعة أن خرجوا إلى السهل بوغتوا بالجيش المصرى الضخم ، وتحقق بلدوين من خطئه ، ولا سبيل الآن إلى التراجع فقد شاهدهم المصريون الذين بادرت خيالتهم الخفيفة بقطع طرق تقهقرهم ، وبذا أصبحت الفرصة الوحيدة أمام الفرنج هي الإندفاع مباشرة إلى قلب العدو . وظن المصريون بادىء الأمر أن هؤلاء لابد وأن يكونوا طليعة الجيش الفرنجي الكبير ، وفقدوا الأمل من وصول قوات أخرى في أثرهم قبل الإلتحام ، فجمعوا شملهم وأطبقوا على الفرنج ، فانكسرت صفوف بلدوين . وتمكن فرسان قليلون يقودهم روجر أوف روزوى ، وهيو أوف لى بورج ، إبن عم بلدوين ، من شق طريقهم بين المصريين والوصول سالمين إلى يافا . وسقط الكثير من فرسان الفرنج صرعى، منهم جيرار أوف أفيزن ، والياور الأسبق لجودفرى ، ستابيلون . وتمكن بلدوين نفسه ورفاقه القادة من شق طريقهم إلى حصن الرملة القريب . وبات الجيش المصرى بهم محيط.

ولولا هبوط الظلام لانقض عليهم المصريون . لكن دفاعات الرملة كانت بالغة السوء، وربما يصمد برج واحد كان بلدوين قد شيّده قبل ذلك بعام ، فتزاحموا بداخله . وفى منتصف الليل جاء أحد الأعراب إلى البوابة طالبا مقابلة الملك فأجيب إلى طلبه ؛ وكشف عن شخصيته قائلا إنه زوج السيدة التى تعطف عليها بلدوين أثناء غارة الأردن . وعرفانا منه بالجميل جاء يحذر بلدوين من هجوم مصرى فى الفجر ونصحه بالهرب فى التو واللحظة . وأخذ بلدوين بنصيحته . وآيا ما قد تكون مشاعر أسفه لتخليه عن زملائه - وليس هو بالرجل الذى يعتني كثيرا بالشرف - ارتأى له أن بقاء المملكة يتوقف على بقاء شخصه، فتسلل مع ثلاثة من رفاقه وأحد غلمانه خلال خطوط العدو تملأه الثقة فى فرسه "الغزال" الذى سيحمله سالما إلى مأمنه . وفى تلك الليلة تمكن فيكونت يافا ليثار أوف كامبارى ، وجوثمان أوف بروكسل من الهرب كل على حده . وتمكن جوثمان، رغم جراحاته البالغة من الوصول إلى القدس معلنا أخبار الكارثة ، وناصحا بالمقاومة اعتقادا منه أن بلدوين ما يزال على قيد الحياة.

وفى باكورة اليوم التالى تسلق المصريون أسوار الرملة بأعداد غفيرة ووضعوا حزم الحطب حول البرج الذى لاذ به الفرسان . فآثر الفرسان وعلى رأسهم كونراد الاندفاع إلى الأعداء بدلا من الهلاك فى النيران . على أنه لم يكن هناك مهرب ، وفي لحظات قتّلوا جميعا وأسر البعض منهم . وتركت شجاعة كونراد إنطباعها على المصريين فأبقوا على حياته وأرسلوه مع أكثر من مائة من زملائه أسرى إلى مصر . ومن بين من صُرعوا من القادة ستيفن البرجندى، وهيو أوف لوسينان ، وجيوفرى أوف فندوم ، وقُتل معهم

ستيفن أوف بلوا وبذا استعاد سمعته بموته المجيد ، وإذن تستطيع زوجته الكونتيسة أديلا أن تنام ملء جفنيها(١٠).

١١٠٢م : الملك بلدوين في يافا

وكانت الملكة والبلاط ، مرة أخرى ، في يافا حيث أخبرهم روجر أوف روزوى ومن معه من الهاربين بالهزيمة النكراء . وداهمهم الجزع من سقوط الملك مع كل فرسانه، وراحو يعدون خطط الهرب بحرا، فلا يزال في الوقت متسع . لكن الجيش المصرى وصل إلى أسوار المدينة يوم ٢٠ مايو ، كما اقترب الأسطول المصرى في الأفق الجنوبي . وتحققت أسوأ المخاوف عندما رفع جندى مصرى أمامهم رأسا بدت وكأنها رأس الملك ، لكنها كانت في حقيقتها رأس جيربود اوف وينثينك الذى كان شديد الشبه بالملك . وفي تلك اللحظة ، وكما لو كان في الأمر معجزة ، شوهدت سفينة صغيرة مبحرة من ناحية الشمال وعليها راية الملك الخاصة به في قمة الصارى.

كان بلدوين قد هرب من الرملة ويمم وجهه شطر الساحل محاولا اللحاق بالجيش في يافا. لكن الجنود المصريين كانوا يجوبون البلاد ، فاضطر بلدوين إلى تمضية ليلتين ويومين متجولا خلال سفوح التلال شمال الرملة ، ثم أسرع بعبور سهل شارون إلى أرسوف التى وصلها مساء التاسع عشر ، فكانت مفاجأة سارة لحاكمها روجر أوف حيفا . وفي ذات الليلة لحق به في أرسوف جنود الجليل وعددهم ثمانون فارسا جمعهم وقادهم هيو أوف سانت أومير ، وكانوا قد أسرعوا جنوبا بمقدم أنباء تقدم المصريين . وفي الصباح التالى اتجه هيو برجاله جنوبا في محاولة لشق طريقه إلى يافا ، بينما أفلح بلدوين في إقناع مغامر إنجليزى بالابحار بسفينته وإختراق الحصار المصرى . ورفع بلدوين رايته ليدخل البهجة على بلاطه ، وما لبث المصريون أن شاهدوها فأرسلوا

---

(١٠) Fulcher of Chartres, II, xviii, I-xix,5, pp. 436-44; Ekkehard of Aura, *Hierosolymita* ‹pp 33-5; Albert of Aix, IX, 2-6, pp. 591-4; Bartolf of Nangis, pp. 533-5; ويذكر وليم الصورى (William of Tyre, X, 20-1, pp. 429-32) تدخل الشيخ البدوى ؛ ورواية إبن الأثير (Ibn al-Athir, pp. 213-16) رواية مضطربة لأنها تقوم على أساس روايتين مختلفتين . وأنا أقبل التاريخ الذى أورده(Hagenmeyer (op. cit. pp. 162-6 ، رغم أن the *Chronicon S. Maxentii, p. 421* تقول ٢٧ مايو ، وألبرت أوف آيكس "حوالى عيد العنصرة" أى حوالى ٢٥ مايو؛ وحول موت ستيفن أوف بلوا ، وطبقا لرواية Guibert of Nogent, p.245 ، فليس هناك شيء معروف بصورة قطعية ؛ ويرد تاريخ وفاته في *Cartulaire* de Notre Dame de *Chartres, III, p. 115* وهو ١٩ مايو.

السفن من فورهم لاعتراض سفينة بلدوين ، غير أن رياحا شمالية قوية أعاقت المصريين عن اللحاق بها، ودفعت سفينة بلدوين إلى داخل المرفأ بسرعة.

وشرع بلدوين من فوره فى إعادة تنظيم قواته . وقبل أن يتمكن المصريون من إحكام الحصار حول المدينة ، شق لنفسه طريقا وخرج لمقابلة هيو ومجموعة الجليل وأخذهم إلى داخل الأسوار . ثم أرسل إلى القدس إستدعاء جميع من يمكن الإستغناء عنه من هناك ومن الخليل . وتطوع راهب محلى بحمل الرسالة وتسلل بها من يافا عبر خطوط العدو تحت طيات الظلام ، لكنه وصل القدس بعد ثلاثة أيام . وبتأكيده بقاء الملك على قيد الحياة عمّت الفرحة، وأمكن جمع تسعين فارسا تقريبا وعددا أكبر من الخيالة ، وتحرزوا جميعا بقطعة من الصليب الحقيقى ، وأسرعوا جنوبا إلى يافا . أما الفرسان ، فقد تمكنوا من شق طريقهم إلى داخل المدينة لما كانوا عليه من تسليح جيد وعدّة ، وأما الخيالة فقد حرفوا إلى البحر فتركوا خيولهم وسبحوا إلى داخل المرفأ . وفى تلك الأثناء كتب بلدوين إلى تنكريد وبلدوين الرها بخسائره الجسيمة طالبا إرسال التعزيزات.

وقبل إنطلاق فرسان الشمال ، هبطت على يافا نجدة لم تكن فى الحسبان ؛ إذ دفعت الرياح إلى يافا أسطولا من مائتى سفينة أغلبها سفن انجليزية محملة بالجنود والحجاج القادمين من إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وتمكن هذا الأسطول من تخطى الحصار المصرى . وبذا توفر لبلدوين المزيد مما كان يحتاجه من الرجال . وفى ٢٧ مايو خرج على رأس الجيش لملاقاة العدو . وليست لدينا تفصيلات المعركة، ويبدو أن المصريين حاولوا إستدراجه والإحاطة به دون جدوى، وأخيرا اندفع عدد كثيف من الفرسان نحو العدو فشتتوا صفوفه فاستدار المصريون وهربوا. وبعد ساعات قليلة كانت القوة المصرية كلها تسرع الخطى إلى عسقلان، تاركة معسكرها بما فيه من غنيمة للمسيحيين[١١].

ونجا بلدوين ومملكته بسلسلة من المصادفات رأى فيها المسيحيون يد الرب تمتد إليهم، وليس ذلك شيئا غير طبيعى ، وليست استراتيجية المصريين العاجزة أقل تلك الأحداث ؛ إذ كان بمقدور كتيبة مصرية صغيرة أن تستولى على القدس بعد معركة الرملة مباشرة دون أن يضعف تطويق يافا ؛ لولا أن قبضة الوزير الأفضل على الأمور كانت تتراخى ، وكان ولده الأشرف ضعيفا لا طاعة له ، فأصاب الشلل حركته لما

(١١) Fulcher of Chartres, II, xx, I-xxi, 18, pp.444-55; Ekkehard of Aura, loc. cit.; Albert of Aix, IX, 7012, pp. 595-7; Ibn al-Athir, loc cit

ساد بين قواده من صراع . وفى الصيف التالى أرسل والده حملة جديدة بحرا وبرا . على أنه أثناء إبحار الأسطول شمالا إلى يافا رفضت القوات البرية التقدم وراء عسقلان لما كان يشعر به قائدها المملوك تاج العجم من غيرة من أمير البحار القاضى ابن قادوس . وترتب على ذلك حبس تاج العجم لانعدام الولاء ، لكن السهم كان قد نفذ وضاعت أفضل فرصة لإسترداد فلسطين(١٢).

ولما علم تنكريد وبلدوين أوف لي بورج بمأزق القدس ، راحا يعدان العدة للإنطلاق جنوبا بغاية السرعة . وكان معهما وليم الأكيتانى الذى كان فى أنطاكية وقت وصول رسالة الملك بلدوين . وارتحلوا جميعا أعلى وادى العاصى مرورا بحمص ثم هبوطا خلال الأردن الأعلى . وبدت قواتهم كبيرة بحيث تجنبت السلطات الإسلامية المحلية إيقاف مرورهم . ووصلوا يهودا فى أواخر سبتمبر . وآنذاك ، لم يعد بلدوين فى حاجة عاجلة لمساعدتهما ، لكن وجودهما أغراه بمهاجمة الجيش المصرى فى عسقلان . ورجّحت المناوشات كفّة المسيحيين ، لكنهم لم يغامروا بالهجوم على تلك القلعة(١٣).

١١٠١م بلدوين وديامبرت

وكان تجمع حكام الفرنج مفيدا لبلدوين لأسباب أخرى ؛ إذ كان تنكريد ينوى المساعدة بشروطه ، لكنه فى الواقع مكّن بلدوين من التغلب على أعضل مشاكله الداخلية . فقد سبق للبطريق ديامبرت أن توّج بلدوين يوم عيد الميلاد من سنة ١١٠٠م، لكنه فعل ذلك على مضض دون أن تخفى مشاعره على بلدوين . وشعر بلدوين بضرورة السيطرة على الكنيسة ، فهى جيدة التنظيم وهى - لا السلطة العلمانية - التى تتلقى من أتقياء المتعاطفين فى الغرب الهبات وتركات المواريث المذكورة فى الوصايا. وقد حامت الشكوك حول ترقية ديامبرت من الناحية القانونية ، خاصة وأن هناك شكاوى أرسلت إلى روما بشأنه ، أدت فى نهاية الأمر إلى أن أرسل البابا باسكال ممثله موريس ، أسقف وكاردينال بورتو، فى مهمة لتقصّى الحقائق، فوصل فى عيد الفصح من سنة ١١٠١م. وفى الحال اتهم بلدوين ديامبرت، فى حضوره، بتهمة

---

(١٢) Ibn al-Athir, loc.cit.

(١٣) Albert of Aix, IX, 15, p 599; Ibn Moyessar, p. 464 ؛ ويقول إبن الأثير Ibn al-Athir p. 213 إن أمراء الشمال أصروا على الإنسحاب.

الخيانة، وأظهر الخطاب الذى ارسله ديامبرت إلى بوهمند بعد موت جودفرى محرضا على معارضة استخلاف بلدوين ولو أدى الأمر إلى إستخدام القوة. وفضلا عن ذلك أعلن أن ديامبرت حاول إغتياله أثناء رحلته جنوبا. ومهما يكن الأمر بشأن إحتمال تزوير الخطاب، فلا جدال في وجود الخطاب نفسه. فما كان من موريس إلاّ أن منع ديامبرت من المشاركة في احتفالات عيد الفصح وقام بها بمفرده. وأمّا ديامبرت، الذى أخذ منه الخوف على مستقبله فقد سعى إلى مقابلة بلدوين، وركع أمامه يزرف دموعه متوسلا المغفرة. لكن بلدوين رجل صعب المراس لا تلين له قناة، فأصرّ على موقفه إلى أن تمتم ديامبرت بأنه يدخر ثلاثمائة بيزانت. وعندئذ لانت قناة بلدوين، فهو دائم الاحتياج إلى المال، فقبل الهدية سرا ثم قصد إلى ممثل البابا وأعلن فى شهامة غفرانه لديامبرت. وأشرقت أسارير موريس، وهو الرجل المسالم، لنجاحه فى التوفيق بينهما[١٤].

وبعد بضعة أشهر احتاج بلدوين مرة أخرى إلى المال ، فطلبه من ديامبرت الذى أعطاه مائتى مارك مدعيا أن ذلك المبلغ هو كل ما كانت تحويه خزانة البطرياركية . على أن رجال الدين المشايعين لأرنولف همسوا فى أذن الملك بأن ديامبرت يخفى مبالغ طائلة في الواقع . وحدث بعد أيام قلائل أن أقام ديامبرت مأدبة سخيّة على شرف ممثل البابا ، فقد دأب على استثمار مؤازرته . واقتحم بلدوين عليهما خلوتهما وألقى عليهما محاضرة استنكر فيها ما يتمتعان به من ترف المعيشة بينما قوات العالم المسيحى تتضور جوعا . فثارت ثائرة ديامبرت ورد عليه قائلا ان للكنيسة أن تنفق أموالها كما يحلو لها ولا سلطة للملك عليها ، بينما حاول موريس تهدئة الموقف وقد بدا عليه القلق. ولم يكن هناك من سبيل لإسكات بلدوين الذى ساعده تدريبه القديم على أعمال القساوسة فى الإستشهاد بالقانون الكنسى ، وكان فى لسانه فصاحة فعلت فعلها فى موريس الذى أقنع ديامبرت بأن يتكفّل بكتيبة من الفرسان . ومع ذلك ، لم يدفع ديامبرت المال أبدا برغم طلبات بلدوين المستمرة . وفى خريف ١١٠١م وصل مبعوث من الأمير روجر أوف أبوليا حاملا منحة قدرها ألف بيزانت للبطريق على أن يخصص ثلثها لكنيسة القبر المقدس، وثلثها الثانى للمستشفى ، وثلثها الأخير للملك للإنفاق على

---

(١٤) كتب ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, VII, 46-51, pp. 538-41) رواية معادية لديامبرت . وكان وليم الصورى (William of Tyre (x, 26-7, pp.438-40) مدافعا على طول الخط عن حجة ديامبرت فى مصالح استقلال الكنيسة ، وبطريقة المحتالين لم يذكر شيئا عن تحقيقات موريس Maurice. ريان Riant, *Inventaire,* pp.218-19.

الجيش. وتهور ديامبرت واحتفظ بالمنحة كلها، رغم أن شروطها لم تكن خافية. وعندما اشتكى بلدوين لم يعد فى وسع ممثل البابا المضى فى موازرة ديامبرت، وأعلن تنحيته عن البطريارقية. فعاد ديامبرت إلى يافا حيث أمضى الشتاء ، ثم ارتحل فى مارس إلى أنطاكية. وتلقاه صديقه القديم تنكريد مرحاب ، وعهد إليه بكنيسة القديس جورج، وهى واحدة من أغنى كنائس المدينة . وفى ذات الوقت ، ترك بلدوين منصب البطريق شاغرا بدعوى ضرورة إخطار روما. واقتحم إثنان من أتباعه خزانة البطريارقية فوجدا أن ديامبرت قد أخفى عشرين ألف بيزانت . أمّا موريس ، الذى كان يباشر أعمال البطريارقية بصفة مؤقتة ، فقد تلفت تلك الفضائح صحته، فمات فى ربيع ١١٠٢م[١٥].

١١٠٢م : خلع ديامبرت

عندما جاء تنكريد فى الخريف لإنقاذ بلدوين أعلن أنه يشترط إعادة تنصيب ديامبرت الذى كان بصحبته . وآنذاك كان بلدوين ليّن العريكة إلى أقصى الحدود . غير أنه فى تلك الآونة وصل ممثل جديد للبابا - روبرت كاردينال باريس . فأصر الملك على عقد مجمع كنسى برئاسة روبرت لوضع الأمور فى نصابها، فأسقط فى يد تكريد وديامبرت ولم يجرؤا على الرفض . وتقرر فى إحدى الجلسات إعادة تنصيب ديامبرت مؤقتا إلى حين إجراء تحقيق شامل . وبعد ذلك ألحق تنكريد جنوده بجنود الملك فى الحملة على عسقلان .وسرعان ما عقد المجمع الكنسى فى كنيسة القبر المقدس برئاسة ممثل البابا وبمساعدة أسقفى لاوون وبياتشنزا الزائرين ، وحضر المجمع الكنسى أساقفة ورهبان فلسطين كلهم ، وكذلك أسقف المصيصة من أراضى تنكريد . وبإيحاء من أرنولف أوف روه ، قام أساقفة قيسارية وبيت لحم والرملة بتوجيه الإتهامات إلى ديامبرت معلنين أنه أثناء رحلته إلى فلسطين عام ١٠٩٩م ، ترأس أهل بيزا وهاجموا رفاقا مسيحيين فى جزيرة أيونيا؛ وسعى إلى إشعال حرب أهلية بين الملك بلدوين والأمير بوهمند ، واستولى على أموال أودعت لديه لرعاية الحجاج فى المستشفى فضلا عن جنود المسيح . وكانت التهم حقيقية لا سبيل إلى إنكارها ، فلم يجد الكاردينال ممثل البابا مندوحة من إعلان عدم جدارة ديامبرت لمنصبه وأمر بخلعه . ولم يجد تنكريد ما يعترض به على هذا الإجراء الكنسى فاضطر إلى قبول الهزيمة . وصحبه ديامبرت فى

---

(١٥) Albert of Aix, VII, 58-64, pp. 545-9.

رحلة العودة إلى أنطاكية وأعيد تنصيبه فى كنيسة القديس جورج إلى أن تتاح له فرصة الذهاب إلى روما . لقد صنع لنفسه صورة رجل هرم فاسد جشع، وغادر فلسطين لم يأس لحاله أحد . لقد كان تعيينه ممثلا رسوليا خطأ فادحا ارتكبه البابا إيربان الثانى(١٦).

أمّا أرنولف أوف روه ، الذى أعان بلدوين فى الأمر كله من تلقاء نفسه ، فقد بلغ من المكر مابلغه بحيث لم يحاول أن يحل محل ديامبرت فى منصبه. وبدلا من ذلك ، وحينما طلب ممثل البابا مرشحا للبطريارقية، اقترح الأساقفة الفلسطينيون قسّا هرما يدعى إيفرمار ، جاء من ثيروان إلى الشرق مع الحملة الصليبية الأولى ، وكان يشتهر بورعه وإحسانه . ورغم أنه وأرنولف من نفس البلد، إلاّ أنه لم يشاركه مكائده، وفاز باحترام الجميع . وابتهج ممثل البابا وهو يقوم برسم هذا القس الذى لا تشوبه شائبة؛ كما أحس بلدوين بمشاعر الرضا لأن إيفرمار شيخ كبير لا يخشى جانبه، ومحال أن يغامر بدس أنفه فى السياسة، وفى ذات الوقت يستطيع أرنولف مواصلة وضع مخططاته دونما عائق.

على أن اليأس لم يداخل ديامبرت. فحينما ذهب بوهموند - الذى كان يوفر له الحماية - إلى إيطاليا عام ١١٠٥م صحبه إلى روما ليبث أحزانه للبابا باسكال الذى كان حذرا أول الأمر، لكنه بعد أن تريث قليلا منحه مؤازرته، وربما كان مرد ذلك إلى نفوذ بوهمند الذى لا يقاوم. وأرسل البابا يطلب من بلدوين ردا على ما اتهمه به ديامبرت، لكن الملك لم يعر الأمر انتباها، ربما لعلمه أن البابا دائما يستمع لبوهمند. فألغى باسكال قرار خلع ديامبرت قائلا إن هذا الخلع كان نتيجة لتدخل سلطات مدنية. ولحسن الطالع إمتدت يد الرب لتصلح من حمق البابا! فبينما كان ديامبرت يتهيأ للعودة منتصرا لإستعادة عرشه البطريقى مرض ومات فى ميسينا يوم ١٥ يونية ١١٠٧م(١٧).

١١٠٢م : انتخاب أرنولف بطريقا

ولم تنته مشاكل البطريارقية . وتزايد شعور بلدوين بعدم الرضا عن إيفرمار، وربما كان يدرك ما للكنيسة من أهمية فائقة بحيث لا يصح أن تترك ، لمن لا كيان له ، وإنما

(١٦) Albert of Aix, IX, 14, 16-17, pp. 598-600; William of Tyre, loc. cit

(١٧) William of Tyre, XI, I, pp. 450-I

يلزم أن يرأسها، حليف له يتصف بالكفاءة وعندما علم إيفرمار بإعادة تنصيب ديامبرت رسميا، شد الرحال إلى روما ، ليجد غريمه ديامبرت ميتا مع شكاواه من السلطة المدنية . وعندما وردت أنباء موت ديامبرت إلى فلسطين ، سارع أرنولف إلى روما كي يبذل جهوده لمؤازرة الملك . وكان البابا باسكال آنداك يميل إلى إيفرمار ، غير أنه أدرك أن القضية أشد تعقيدا مما كان يظن ؛ فعهد بها إلى رئيس أساقفة آرل ، جيبلين أوف سابران ، وهو شيخ طاعن في السن واسع الخبرة ووصل فلسطين في ربيع ١١٠٨م ، وقد سبقه إليها إيفرمار وأرنولف. واستقر رأيه على أن إيفرمار ليس أهلا للمنصب ، وليس هناك من يرغب في عودته ، ولذا أعلن أن كرسي البطريارقية شاغرا وعقد مجلسا كنسيا لتعيين خلفا له. واقترح بلدوين ترشيح جيبلين ، فقبل بمشاعر الغبطة المشوبة بالحرج، وتم تعيين إيفرمار رئيسا لأساقفة قيسارية الذى كان شاغرا لحسن الحظ، وذلك من قبيل التعويض.

وترددت شائعات بأن أرنولف حرّض الملك على إختيار جيبلين لتقدمه في السن وبذا سرعان ما ستصبح البطريارقية شاغرة مرة ثانية . وهذا ما حدث في الواقع، إذ لم يعش جيبلين سوى أربع سنوات، وبموته انتخب أرنولف أخيرا ليعتلي عرش البطريارقية دون معارضة من أحد[١٨].

وكان بلدوين يرى أن أرنولف بطريق مثالي ؛ وقد تمكن من الإحتفاظ بمنصبه برغم نفور أتباعه وبرغم ما نشأ لاحقا من مشاكل حول زواج بلدوين الثاني. ولقد كان أرنولف فاسدا بلا شك . فعندما تزوجت إبنة أخته إيما من بابوستاس جارنيه وهو زوج حاز رضاه، وهبها إقطاعية ثمينة في أريحا تابعة لكنيسة القبر المقدس لكنه كان نشطا وكفؤا وكرّس نفسه للملك الذي يرجع إليه الفضل في التخلي نهائيا عن فكرة أن تخضع القدس لحكومة دينية ثيوقراطية بعاهل يكون مجرد وزير للدفاع ، وهي فكرة غير عملية كان يتصورها أغلب المشتركين في الحملة الصليبية الأولى ؛ كما تدبر إشراك كنائس فلسطين كلها معه في الرأى ، حتى في خلع رجال الدين التابعين لكنيسة القبر المقدس ممن لا يثق في ولائهم ، والذين عيّنهم جودفرى أوف لورين . وباتساع المملكة غزوا ، كافح بلا هوادة في سبيل إتحاد السلطتين الدينية والمدنية ضد البابا باسكال الذى كان يدافع عن الحقوق التاريخية غير العملية للكرسي الرسولى الأنطاكى ، مدفوعا

(١٨) Albert of Aix, x, 589,pp.650-9,xii, 24,p.704;William of Tyre,loc. cit.and XI,4, pp. 455-6.

بتحيزه المشؤوم لمناصرة أمراء أنطاكية النورمانديين . ولم يكن أرنولف جديرا بالإحترام، وإنما كان خادما أمينا لمملكة القدس . وقد شجب المؤرخ وليم الصورى ذكراه ولطخ سمعته دون وجه حق، لأنه بذل الكثير لتعزيز الحملة الصليبية الأولى(١٩).

كما يرجع الفضل إلى أرنولف سيده الملك بلدوين في تحسن علاقة الهرمية اللاتينية بالمسيحيين المحليين . ففى بداية الأمر ، عندما كان أرنولف على رأس البطريارقية سنة ١٠٩٩م ، نهب الطوائف الشرقية وطردها من كنيسة القبر المقدس . على أن ديامبرت كان عدوا أسوأ للطوائف الشرقية ، فلم تقتصر سياسته على طردهم من الكنيسة وحسب ، وإنما أيضا من أديرتهم ومنشآتهم فى القدس ، سواء كانوا أرثوذوكس كاليونانيين أو الجورجيين ، أو هراطقة كالأرمن واليعاقبة والنساطرة . كما لوث آداب المجتمع التقليدية بالسماح للنساء بالخدمة فى الأماكن المقدسة . ونتيجة لتلك الأفعال الشائنة انطفأت مصابيح كنيسة القبر المقدس عشية عيد الفصح ، ولم تهبط النار المقدسة من السماء لإضاء تهامرة أخرى إلى أن تشترك الطوائف الخمس المحرومة فى صلاة ضراعة أن يغفر الرب للفرنج . ووعى بلدوين الدرس، وأصر على إنصاف الوطنيين ، وأن يحتفظ اليونانيون بمفاتيح كنيسة القبر المقدس ذاتها ؛ ويبدو أن جميع المسيحيين فى فلسطين آزروه منذ آنذاك .واقتصر تعيين كبار رجال الدين على الفرنج برغم وجود قساوسة يونانيين فى الكنيسة، ولقى ذلك الوضع قبولا من الأرثوذوكس المحليين الذين سبق لكاهنهم الأعلىأن غادر البلاد خلال سنوات الإضطراب قبل الحملة الصليبية مباشرة . وبرغم ما كانت تحمله الأديرة الأرثوذوكسية من نفور شديد من الهرمية اللاتينية فقد مارست نشاطها دون عائق ، ولم يجد الحجاج الأرثوذوكس ولا الوطنيين مبررا للشكوى من السلطة المدنية ، ويبدو أن كنائس الهراطقة كانت راضية كذلك . لكن الوضع إختلف تماما فى الدويلات الفرنجية شمال سوريا حيث ساد الإستياء من ظلم الفرنج(٢٠).

---

(١٩) .William of Tyre,XI,15,p.479 وليم الصورى يستهجن انتهازية أرنولف.

(٢٠) أنظر أدناه الصفحات ٣٦٩-٣٧٢ . توجد رواية طويلة حول القداس فى مخطوطة فولشر أوف تشارتر، وهى مطبوعة فى طبعة *Recueil des Historiens des Croisades.* ويلاحظ هاجنماير Hagenmeyer، فى طبعته عن فولشر ، أنها تظهر فى مخطوطة واحدة فقط (لاتينية) ، ويرفضها كلها فيما عدا كلمات المقدمة "conturbati sunt omnes propter ignem quem die sabbati non habuimus ad Sepulcrum Domini" (II, viii, 2, p. 396). See his note 5, pp. 395-6 للإطلاع على كامل المناقشة. وفى ملحق خاص (ibid. pp. 831-7) حشر نصا ، مع النصوص التى وجدت فى .Bartolf of Nangis and Guibert of Nogent ونظرا إلى أن فولشر أوف تشارتر هو القس الخاص لبالدوين ، فلا بد وأنه قد حضر هذا القداس . ويورد دانيال الموحوميسى Daniel the

١١٠٣ م : حصار عكا

لم تفتر عزيمة الوزير الأفضل لهزيمة يافا عام ١١٠٢ م ، ولا لإخفاق حملة الربيع من العام التالى ١١٠٣م ، غير أنه استغرق وقتا أطول فى إعداد جيش آخر . أمّا بلدوين ، فقد أرخى قبضته على الساحل الفلسطينى . وبرغم سيطرته على المدن الساحلية من يافا إلى حيفا ، واصل المغيرون المسلمون هجومهم على الطرق التي تربط بينهما ، وخاصة منحدرات جبل الكرمل ؛ بل إن الطريق من يافا إلى القدس لم يسلم من الإغارة كما ذكر الحاج سايولف[٢١]. كما كان القراصنة يتسللون من مينائى صور وعكا الخاضعين للسيطرة المصرية للإغارة على التجارة المسيحية . وفى أواخر خريف ١١٠٢م قذفت العواصف بسفن الحجاج العائدين إلى أوطانهم - وهم الذين أنقذوا بلدوين فى يافا فى شهر مايو - إلى شتى شواطىء الساحل ، بعضها بالقرب من عسقلان ، والبعض الآخر بين صور وصيدا ؛ ولم يسلم أحد من الركاب ، فمات من مات ، ومن لم يمت بيع فى أسواق الرقيق المصرية وفى ربيع ١١٠٣م حاصر بلدوين عكا بمساعدة بعض السفن الإنجليزية التى كانت لاتزال معه . وأوشكت الحامية على الإستسلام لولا وصول إثنى عشر قادسا فاطميا وعدد كبير من سفن النقل القادمة من صور وصيدا تحمل الرجال وآلات إطلاق النيران الإغريقية، فلم يجد بلدوين مفرا من رفع الحصار[٢٢]. وحاول فى الصيف التالى تطهير منطقة جبل الكرمل من قطاع الطرق، فلم يصب نجاحا يذكر، وأصيب فى أحد الإشتباكات بجرح خطير فى كليتيه وأشرف على الهلاك. وبينما هو راقد فى فراش المرض فى القدس جاءت انباء الحملة المصرية المزدوجة بقيادة تاج العجم وابن قادوس. على أن امتناع تاج العجم عن التقدم وراء عسقلان أجبر ابن قادوس على محاولة حصار يافا بمفرده ، وبذل جهوده ببعض الحماس وليس كله . وبعد أن شفى بلدوين بالقدر الذي يسمح له بقيادة الجيش إلى الساحل أقلع الأسطول المصرى[٢٣].

وفى مايو التالى وصل إلى حيفا من جنوا أسطول حربي سق وأن ساعد ريموند التولوزى فى الإستيلاء على جبيل . وقابل بلدوين قادته وضمن تحالفهم لإخضاع عكا

رواية القداس فى عام ١١٠٧ Higumene (ed de Khitrowo, pp. 75-83) ويتضح من هذه الروايات أن الإعريق قد منحوا مسؤولية كنيسة القيامة نفسها.

(٢١) Albert of Aix, IX, 18, pp. 600-1.

(٢٢) Albert of Aix,IXh,15,p 59;Ibn l-Athir,p.213 ،ذكر ابن الأثير عاما مختلفا ٤٩٥ هـ بدلا من ٤٩٦.

(٢٣) Fulcher of Chartres, II, xxiv, I, pp. 460-1, Albert of Aix, IX, 22-3, pp.103-4.

بعد أن وعدهم بما اعتادوا عليه من قبل ، وهو ثلث الغنائم وامتيازات تجارية وأحد الأحياء فى السوق؛ وبدأ الحلفاء حصار عكا يوم ٦ مايو . وقاومهم القائد الفاطمى المملوك ظهر الدولة الجيوشى مقاومة عنيدة ؛ لكن مصر لم ترسل إليه أية مساعدة ، فاضطر بعد عشرين يوما إلى أن يعرض التسليم بشروط مماثلة لشروط استسلام أرسوف ، وهى السماح بالمرور الآمن للمواطنين الراغبين فى الرحيل مع منقولاتهم ، ومعاملة الباقين كرعايا للملك الفرنجى . وقبل بلدوين الشروط والتزم بها، بل وأمر بالإبقاء على مسجد لرعاياه المسلمين . أما بحارة إيطاليا فقد أبوا أن يتركوا تلك الثروة الهائلة تفلت من أيديهم فانقضوا على المهاجرين وقتلوا منهم خلقا كثيرا ونهبوهم جميعا ، مما أغضب بلدوين وهمّ بمهاجمة أبناء جنوا لمعاقبتهم ، لولا أن وصل البطريق إيفرمار وأفلح فى تهدئته ومصالحته بهم[٢٤].

وبسقوط عكا ، نال بلدوين ما كان يصبو إليه من مرفأ آمن فى شتى الأحواء المناخية . وبرغم بعد الشقة عن القدس بما يزيد على مائة ميل ، سرعان ما أصبحت عكا الميناء الرئيسى للمملكة بدلا من يافا بممراتها المائية المفتوحة . وفضلا عن ذلك ، كانت عكا هى الميناء الرئيسى الذى تشحن منه بضائع دمشق إلى الغرب ، ولم يتوقف هذا الطريق التجارى بعد الغزو الفرنجى ، وإنما شجعه مسلمو عكا المقيمون بها[٢٥].

١١٠٥م : معركة الرملة الثالثة

وفى صيف ١١٠٥م شرع الوزير الأفضل فى آخر محاولة لإسترجاع فلسطين ؛ ففى أوائل أغسطس حشد فى عسقلان جيشا مجهزا تجهيزا حسنا قوامه خمسة آلاف جندى من العرب الخيالة والمشاة السودانيين ، يقوده ابنه سناء الملك حسين . وتعلم المصريون مما فشلوا فيه من دروس سابقة ؛ فطلبوا مساعدة حكام دمشق الأتراك . ولو أن دمشق ساهمت بمساعدتها فى عامى ١١٠٢ و ١١٠٣م لكانت مساعدة لها قيمتها . على أن دقاق الدمشقى مات فى يونية ١١٠٤م، ونشأ الخلاف بين أسرته وأتابكه طغتكن ، بل جاء رضوان الحلبى سعيا وراء نصيبه فى الإرث.

---

(٢٤) Fulcher of Chartres, II, xxv, I-3, pp.462-4; Albert of Aix, IX, 27-9, pp.606-8, Caffaro, *Liberatio, pp.71-2;* Charter of Baldwin in *Liber* Jrium Reipublicae Genuensis, vol. I, pp. 16-17.

(٢٥) أنظر أدناه ص (٣٦٧). كانت التجارة ماتزال مستمرة فى زمن ابن جبير (١١٨٣).

وبدأ طغتكن بتنصيب ابن الدقاق ، تتش ، على العرش ولما تجاوز من العمر عاما واحدا ؛ ثم إستبدله بأخى الدقاق ، أرتاش ، البالغ من العمر إثنى عشر عاما. وسرعان ما ارتاب أرتاش فى نوايا الوصى طغتكن ، فهرب إلى حوران حيث أجاره أتكين أمير بُصرى ، ومنها استغاث بالملك بلدوين الذى دعاه إلى القدس . وفى تلك الملابسات إغتبط طغتكن بطلب المساعدة من المصريين ، بيد أنه آثر عدم المغامرة بإرسال قوة كبيرة ، وإنما أرسل قائده صباوو على رأس ألف وثلاثمائة من الرماة الراكبين(٢٦) وفى أغسطس دخل الجيش المصرى فلسطين حيث إنضم إليه جنود دمشق بعد هبوطهم خلال الأردن وعبر النقب . وكان بلدوين منتظرا فى يافا ، لكنه بعد أن شاهد الأسطول المصرى فى الأفق اختار الانتقال إلى موقع الرملة الذى لابد أن تدور فيه المعركة ، وعهد بيافا إلى ليثار (أوف كمبارى) مع ثلاثمائة جندى . وكان بصحبته أرتاش الدمشقى الصغير المطالب بالعرش ، وكل من بقى من جند الفرنج فى فلسطين ، وحاميات الجليل وحيفا والخليل ، وكذلك الجيش الرئيسى المؤلف من خمسمائة فارس وألفين من المشاة . كما استدعى بلدوين البطريق إيفرمار من القدس ، فجاءه مع مائة وخمسين رجلا جمعهم من هناك ومعهم الصليب الحقيقي.

وبدأت المعركة يوم الأحد ٢٧ أغسطس . ومع انبلاج الصبح اعتلى البطريق فرسه وسار فى غدو ورواح أمام صفوف الفرنج بكامل أرديته والصليب فى يده ، مانحا بركته وغفرانه ، وبعد ذلك هجم الفرنج ؛ لكن هجوما مضادا من الأتراك الدمشقيين كاد أن يكسر صفوف الفرنج لولا أن حمل بلدوين رايته فى يده وقاد هجوما بعثرهم . وحارب المصريون بشجاعة غير عادية، لكن ميسرتهم كانت قد ذهبت فى محاولة فاشلة لمفاجأة حيفا، وعادت بعد فوات الوقت . وبحلول المساء هزم المسلمون ؛ فاستدار صباوو ورجاله عائدين إلى بلادهم ، وانسحب المصريون إلى عسقلان ، ومنها أسرع قائدهم سناء الملك عائدا إلى القاهرة . وكانت الخسائر جسيمة ، إذ قتل حاكم عسقلان وأسر حاكما عكا وأرسوف السابقان وافتديا فيما بعد بفدية كبيرة. وأعرب المؤرخ فولشر أوف تشارتر عن مشاعر الأسى من هرب سناء الملك لضياع الفدية السخية التى كان سيحصل الفرنج عليها. غير أن خسائر الفرنج كانت كبيرة أيضا. وبعد سلب المعسكر، لم يطارد بلدوين المصريين ، وكف عن مساندته للأمير الصغير أرتاش الذى عاد إلى الرحبة فى الفرات كسير القلب . وعاد الأسطول المصرى إلى مصر

(٢٦) Ibn al-Qalanisi, p. 71; Ibn al-Athir, p 229.

ولم يحقق شيئا سوى هلاك بعض السفن فى عاصفة[٢٧].

وكانت معركة الرملة الثالثة خاتمة المحاولات الكبيرة التى بذلها الفاطميون لإستعادة فلسطين ؛ لكنهم ظلوا خطرا جاثما يتهدد الفرنج . ففى خريف ١١٠٦م أوشكت غارة صغيرة أن تنجح حيث فشلت الجيوش الكبيرة ؛ ففى أكتوبر من ذلك العام كان بلدوين مشغولا على الحدود فى الجليل ، وهاجم بضعة آلاف من فرسان المصريين معسكر حجاج بين يافا وأرسوف وقتلوا من كان فيه . وخرج لهم حاكم يافا ، روجر أوف روزوى ، لكنه وقع فى كمين نصبوه له، ولم ينقذه سوى فرسه الذي سابق به الريح عائدا إلى يافا . واشتعل حماس المصريين فى المطاردة ، حتى أنهم أدركوا أربعين من جنوده المشاة خارج البوابات وقتلوهم . وبعد ذلك توجه المصريون شمالا باتجاه القدس، وهاجموا حصنا صغيرا يطلق عليه كاستيل آرنو لم يكن بلدوين قد أستكمل بناءه ، وكان مخصصا لحراسة الطريق . واستسلم العمال ، لكنهم قتلوا عدا قائدهم جيوفرى ، آمر قلعة برج داوود ، الذي أسروه للحصول على الفدية . وعندئذ سمع بلدوين بالغارة فسار جنوبا فى قواته ، فلم يجد المصريون مفرا من الإنسحاب إلى عسقلان[٢٨].

١١٠٦ – ١١٠٨م : هجمات على المدن الإسلامية الساحلية

وفى العام التالى كادت حملة مصرية أن تستولى على الخليل ، لكن بلدوين دحرها بنفسه . وفى عام ١١١٠ م توغل المصريون حتى أسوار القدس ، إلا أنهم سرعان ما تراجعوا[٢٩] وتكررت غارات مماثلة من حين لآخر على نطاق أصغر خلال السنوات العشر التالية ، الأمر الذي حرم المسيحيين من الأمان فى السهل الساحلى والنقب مستوطنين وحجاجا سواء بسواء ؛ على أن تلك الغارات كانت أكثر قليلا من كونها غارات إنتقامية لما أقدم عليه بلدوين من غارات على الأراضى الإسلامية .

وهكذا أطلق بلدوين يده فى محاولته لتوسيع المملكة . وكانت أهم أهدافه المدن الساحلية عسقلان جنوبا ، وصور وصيدا وبيروت شمالا . لكن عسقلان وصور كلاهما

---

(٢٧) -Albert of Aix,IX,48-50, pp 621-4, Fulcher of Chartres, II,XXXI, I-xxxııı,3,pp 489 503,Ibn al-Athır,pp 228-9, Ibn Moyessar, p 466

(٢٨) Albert of Aix, x, 10-14, pp 635-8

(٢٩) Ibıd x, 33, pp 646-7, XI, 28, p 676

قلعة قوية بحامية كبيرة متواجدة بصورة مستديمة، ولابد لإخضاعهما من إعداد العدة بعناية. وفي ربيع ١١٠٦م جاء إلى الأراضي المقدسة حشد كبير من الحجاج الإنجليز والفلمنكيين والدانمركيين ، مما أغرى بلدوين بالتخطيط لحملة على صيدا ، التي ما أن علم حاكمها بذلك حتى أرسل إلى الملك مبلغا ضخما من المال . وقبل بلدوين الهدية ، فحاجته إلى المال لا نهاية لها . وبقيت صيدا آمنة لعامين آخرين(٣٠).

وفي أغسطس ١١٠٨م ، سار بلدوين مرة أخرى إلى صيدا يساعده أسطول صغير يتألف من بحارة مغامرين من شتى المدن الإيطالية ، وعلى الفور استأجر حاكم صيدا مساعدة أتراك دمشق لقاء ثلاثين ألف بيزانت ، بينما أبحر أسطول مصري من مصر وهزم الإيطاليين في معركة بحرية خارج الميناء ، فاضطر بلدوين إلى رفع الحصار . وعلى الأثر رفض أهالي صيدا - ببعض المبررات - دخول الأتراك مدينتهم ، خشية أن يكون لطغتكين أطماع فيها ، بل رفض الحاكم دفع المبلغ المتفق عليه ، فهدد الأتراك باستدعاء بلدوين ؛ فأبدى الحاكم استعداده للعدول عن رفضه ، فوافقوا على تسعة آلاف بيزانت على سبيل التعويض ثم انصرفوا(٣١).

وفي الصيف التالي تلقى برتراند التولوزي مساعدة من بلدوين في الإستيلاء على طرابلس ؛ وفي المقابل أرسل برتراند في أوائل ١١١٠م الجنود لمساعدة بلدوين في الهجوم على بيروت . وكانت سفن جنوا وبيزا جاهزة لحصار المدينة ، خاصة وأن طرابلس تعتبر قاعدة بحرية مناسبة . وحاولت السفن الفاطمية الآتية من صور وصيدا كسر الحصار ، لكنها لم تفلح . واستمر الحصار من فبراير إلى مايو . وداخل الحاكم اليأس من وصول المساعدة ، فهرب بليل مخترقا الأسطول الإيطالي إلى قبرص حيث سلم نفسه للحاكم البيزنطي . وفي ١٣ مايو استولى الحلفاء على المدينة التي تخلى عنها حاكمها بهجوم ارتكب فيه الإيطاليون مذبحة عامة قتل فيها الكثير من السكان قبل ان يتمكن بلدوين من المحافظة على النظام(٣٢).

---

(٣٠) *Ibid. x, 4-7, pp. 632-4*

(٣١) *Ibid. x, 48-51, pp. 653-5; Ibn al-Qalanisi, p. 87.*

(٣٢) Fulcher of Chartres, II, xlii, 1-3, p. 536، ويذكر فولشر التاريخ ١٣ مايو في أشعار فلكية؛ ويورد Albert of Aix في صفحة (٦١١) التاريخ ٢٧ مايو ؛ Ibn al-Qalanisi pp. 99-101 التاريخ ١٣ مايو.

١١٠١ م : الاستيلاء على صيدا

وأثناء ذلك الصيف تلقى بلدوين من الغرب مزيدا من التعزيزات البحرية . ففى سنة ١١٠٧م أبحر أسطول من ميناء برجين النرويجى يقوده سيجورد ، الذى كان يشارك أخويه فى عرش النرويج ، وعبر بحر الشمال ، متوقفا في إنجلترا فى الطريق إلى جبل طارق ، ثم قشتالة ، فالبرتغال ، فجزر باليار ، فصقلية ، وأخيرا عكا التى وصلها وقت أن كان بلدوين عائدا من إستيلائه على بيروت . وكان سيجورد أول رئيس متوّج يزور المملكة ، ولذا استقبله بلدوين بأسمى آيات التشريف ، ورافقه شخصيا إلى القدس . ووافق سيجورد على مساعدة الفرنج فى حصار صيدا ، وبدأ الحلفاء الحصار فى أكتوبر . لكن تحصينات صيدا كانت شديدة القوة ، وبوصول أسطول فاطمى قوى من صور كادت السفن النرويجية أن تتبعثر ولم ينقذها سوى وصول أسطول من البندقية وعلى رأسه كبير القضاه فى جمهورية البندقية بنفسه ، أورديلافو فاليرى . وفى تلك الأثناء خطط حاكم صيدا لإغتيال بلدوين ؛ إذ وافق مرتد مسلم من العاملين فى خدمة بلدوين الشخصية على تنفيذ الاغتيال لقاء مبلغ كبير من المال ، على أن المسيحيين المحليين فى صيدا علموا بالمؤامرة ، فأطلقوا سهما يحمل رسالة إلى معسكر الفرنج يحذرون فيها الملك . وأخيرا استسلمت صيدا يوم ٤ يناير بنفس شروط عكا . ورحل وجهاء المدينة إلى دمشق مع منقولاتهم ، وأمسى الفقراء رعايا للملك الفرنجى الذى انتزع منهم جباية مقدارها عشرين ألف بيزانت ذهبى . وكوفئ البنادقة بهدية تتألف من كنيسة وبعض الممتلكات فى عكا. وعُهد بصيدا - باعتبارها بارونية - إلى إيوستاس جارنييه الذى كان بالفعل حاكما لقيسارية ، وقد عزز من - كزه بعد ذلك مباشرة بزواج سياسى من إيما، إبنة أخت البطريق أرنولف(٣٣).

وسيطر الفرنج على الساحل السورى كله ، باستثناء قلعتين: عسقلان فى الطرف الجنوبى وصور فى الوسط . وكان حاكم صور عصبيا ، فأرسل فى خريف ١١١١م إلى طغتكين فى دمشق يستأجر منه فيلقا من خمسمائة من الرماة لقاء عشرين ألف بيزانت ، وفي ذات الوقت طلب السماح له ولوجهاء المدينة بإرسال ممتلكاتهم الثمينة

---

(٣٣) Fulcher of Chartres, II, xliv, 1-7, pp. 543-8; Albert of Aix, XI, 26, 30-4, pp ٥75, ،677; ويذكر وليم المسيحيين المحليين ؛ William of Tyre, XI, 14, pp. 476-9, *Sigurdar Saga*
Agrip of Noregs Konungasogum, passim; Sigurdar, Saga Jorsalafara ok Broedraى Hans, pp. 75 ff. Ibn al-Qalanisi, pp. 106-8, Ibn al-Athir, p. 275, Dandolo in Muraton, Ss. R.I. vol. XII, p. 264; Tafer and Thomas, I, 86, 91, 145; Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, chap IV, passim.

إلى دمشق للحفاظ عليها؛ ووافق طغتكين ، وانطلقت من الساحل قافلة غنية فيها الأموال والممتلكات . وكان من الضرورى أن تعبر القافلة بلادا يسيطر عليها الفرنج ، فتدبر الحاكم الصورى عز الملك رشوة فارس فرنجى يدعى رينفريد ليرشد القافلة ويضمن سلامتها ، فقبل الفارس الرشوة لكنه سارع بإبلاغ بلدوين ، الذى إنقض على وجهاء صور على حين غرة وسلبهم ثروتهم كلها . ووجد بلدوين فى تلك الثروة التى هبطت عليه فجأة تشجيعا للإستيلاء على صور ، فقاد جيشه كله فى نهاية نوفمبر لمهاجمة أسوار صور .بيد أنه كان يفتقر إلى أسطول بحرى لمساعدته ، برغم وجود اثنتى عشرة سفينة بيزنطية بقيادة السفير البيزنطى بوتوميت ؛ غير أن البيزنطيين غير راغبين في القيام بعمل عدائى ضد الفاطميين الذين تربطهم بهم علاقات طيبة ، إلاّ فى حالة واحدة وهى أن يساعدهم بلدوين على استرداد المدن التى استولى عليها أمراء أنطاكية . وبينما تردد بلدوين فى الالتزام بشرطهم ، لم يفعل البيزنطيون أكثر من إمداد الجيش الفرنجى بالمؤن . واستمر حصار صور حتى إبريل التالى . وحارب أبناء صور بشجاعة ، وأشعلوا النيران فى برج الحصار الخشبى الهائل الذى شيده بلدوين . لكن الحرب أضعفتهم ، على الأقل ، بحيث سعوا إلى طلب مساعدة طغتكين ، وقبل أن يطلب عز الملك هذه المساعدة كتب إلى البلاط المصرى مبررا تصرفه . وفشلت الاتصالات الأولى التى حاولها طغتكين ؛ إذ اعترض أحد الأعراب العاملين فى خدمة الفرنج حمامة زاجلة ، وأظهر زميله الفرنجى رغبته فى ترك الحمامة تواصل طيرانها، لكن الأعرابى أخذها إلى بلدوين . وتنكر بعض الرجال لاستقبال سفراء دمشق واعتقلوهم ثم قتلوهم. ورغم ذلك ، تقدم طغتكين إلى صور وباغت فرقة فرنجية تبحث عن الأعلاف ، وحاصر الفرنج فى معسكرهم بينما أغار على القرى . واضطر بلدوين إلى رفع الحصار، ولم يعد إلى عكا إلاّ بشق طريقه قتالا(٣٤).

كما فشل بلدوين فى حملته على عسقلان بنفس القدر . إذ توجه إليها بعد استيلائه على صيدا مباشرة . لكن حاكمها شمس الخلافة ضاق ذرعا بكل هذا القتال ، فألهمته عقليته التجارية شراء هدنة حاول جباية ثمنها من سكان مدينة صور التي كانت ضمن نطاق سلطته . وعلمت مصر بتلك التصرفات ، فما كان من الأفضل إلا أن بعث بجنود مخلصين أمرهم بخلعه . وارتاب شمس الخلافة فى حقيقة نواياهم ، فرفض استقبالهم، بل طرد من جنوده من يرتاب فى تعاطفهم مع الفاطميين ، واستعان بمرتزقة

---

(٣٤) Albert of Aix, XII, 3-7, pp. 690-3; Ibn al-Athir, p. 257; Ibn Moyessar, p.467.

من الأرض مكانهم . ثم ذهب بنفسه إلى القدس ليضع نفسه ومدينته تحت حماية بلدوين، وعاد ومعه ثلاثمائة جندى فرنجى عيّنهم فى القلعة . وصُدم أهل عسقلان من تلك الخيانة ، فدبروا تمردا فى يوليه ١١١١م بمساعدة من مصر اغتالوا فيه شمس الخلافة وقتلوا الفرنج . وسارع بلدوين جنوبا لإنقاذ رجاله ، إلا أنه وصل بعد نفاد السهم . وبقيت عسقلان شوكة فى حلق الفرنج لأربعين سنة أخرى(٣٥).

كما فشل بلدوين فى محاولة مماثلة فى ربيع ١١١٠م لإنشاء محمية فى بعلبك بتواطؤ من حاكمها الخصى جمشتكين التاجى ؛ إذ علم طغتكين بالمؤامرة فاستعاض عن جمشتكين بابنه تاج الملك بورى(٣٦).

١١٠٥م : تشييد الحصون فى الجليل

بات شاغل بلدوين الأكبر أن يوفر للمملكة خطا ساحليا ملائما ؛ كما كان مهتما بمنحها تخوما ملائمة على النحو الذي يحقق لها أكبر فائدة من قرب المملكة من طرق التجارة العربية الكبيرة الآتية من العراق والجزيرة العربية إلى البحر المتوسط ومصر. وعندما غادر تنكريد فلسطين إلى أنطاكية ، كان بلدوين قد عهد بإمارة الجليل - التى ظلت تحتفظ بالإسم الطنّان الذى أطلقه عليها تنكريد - إلى جاره السابق فى فرنسا ، هيو (أوف سانت أومير) الذى لقى تشجيعا على انتهاج سياسة عدوانية ضد المسلمين ؛ فبدأ بتشييد حصن طورون - المعروف اليوم بإسم تبنين - فى الجبال على الطريق الذى يربط بين صور وبانياس ودمشق . ثم بنى حصنا آخر على التلال الواقعة جنوب غربى بحيرة طبرية كان العرب يسمونه علعال ، لاستخدامه بصورة أفضل فى الإغارة على الأراضى الخصبة الواقعة إلى الشرق من البحيرة ، وقد استكمل تشييد الحصنين فى خريف ١١٠٥م. على أن الحصن الثانى لم يبق طويلا فى أيدى المسيحيين؛ إذ لم يكن طغتكين الدمشقى ليسمح بتهديد أراضيه على هذا النحو . ولذا، وبينما كان هيو عائدا فى نهاية العام إلى علعال محملا بغنائم وفيرة بعد غارة ناجحة ، انقض عليه الجيش الدمشقى وجرح جرحا مميتا فى المعركة وتبعثر رجاله ، واستولى طغتكين على الحصن دون صعوبة . وكان أخو هيو ، جيرار (أوف سانت أومير) ، مريضا آنذاك وفارق

---

(٣٥) Albert of Aix, XI, 36-7, pp. 680-1, Ibn al-Qalanisi, pp 108-10

(٣٦) Ibn al-Qalanisi, op cit. p 106, Sibt ibn al Djauzi, p 537

الحياة بعد أخيه بفترة وجيزة ، فاضطر بلدوين إلى منح إقطاعية الجليل للفارس الفرنسي جرفاس (أوف باسوش)(٣٧).

وتواصلت أعمال حرب العصابات . ففي عام ١١٠٦م أغار أبناء صور على طورون في ذات الوقت الذى أغار فيه الدمشقيون على طبرية ، و لم يُكتب النجاح لأى من الغارتين . وباقتراب بلدوين أرسل الدمشقيون إليه في معسكره رسولين يعرضان الإعداد لهدنة قصيرة . فاستقبلهما بمظاهر الإحترام والسخاء ، مما زاده شهرة على شهرة بين المسلمين ؛ غير أنها كانت هدنة قصيرة(٣٨)؛ إذ أغار طغتكين على الجليل مرة أخرى في ربيع ١١٠٨م ، واستطاع في إحدى المعارك خارج طبرية أن يأسر جرفاس (أوف باسوش) وأغلب رجاله ، وأرسل إلى بلدوين يخبره بأن ثمن إطلاق سراحهم هو مدن طبرية وعكا وحيفا الثلاث.ولّما رفض بلدوين العرض قُتل جرفاس ووضعت فروة رأسه بخصلاتها البيضاء المتماوجة على قائم أمام الجيش الإسلامى المنتصر(٣٩) فأعاد بلدوين إلى تنكريد لقب أمير الجليل، والأرجح أن الإمارة كانت تدار من القدس . وفي ١١١٣م ، وهو العام الذى مات فيه تنكريد ، أمر بلدوين الرهاوي بنفي جوسلين (أوف كورتناى) ، فخلع الملك بلدوين عليه إمارة الجليل على سبيل التعويض(٤٠).

١١٠٨م : هدنة مع دمشق

في أواخر ١١٠٨م كان لكل من بلدوين وطغتكين مصالح رئيسية في أماكن أخرى، فاتفقا على عقد هدنة لعشر سنوات تقضي بتقسيم عوائد منطقتي السواد وجبل عوف، أى شمال الأردن ، على أن يأخذ بلدوين ثلثها، وطغتكين ثلثها الثاني ، ويبقى الثلث الأخير للسلطات المحلية(٤١). وربما ترجع أسباب تلك الهدنة إلى دوافع تجارية ؛ فالغارات تقضى على ما ينقل عبر البلاد من تجارة تعود بالنفع على الجميع . ولقد

---

(٣٧) William of Tyre, XI, 5, pp. 459-60; Ibn al-Qalanisi, pp. 72, 75; Ibn al-Athir, pp. 229-30; Albert of Aix, X, 8, pp 635-6.

(٣٨) Albert of Aix, X, 25-6, pp. 642-3; Ibn al-Qalanisi, p. 75.

(٣٩) Albert of Aix, X, 57, p. 658; Ibn al-Qalanisi, pp 86-7; Ibn al-Athir, pp. 268-9. ويطلق ابن الأثير على جيرفاس : إبن أخت بالدوين.

(٤٠) Albert of Aix, XI, 12, p. 668; William of Tyre, XI, 22, p. 492.

(٤١) Ibn al-Qalanisi, p. 92; Ibn al-Athir, p. 269.

كانت هدنة تجارية خالصة ؛ إذ لم تمنع طغتكين من أن يهب لمساعدة المدن الساحلية الإسلامية ، كما لم تقيّد بلدوين في محاولته تحويل بعلبك إلى مدينة تابعة له . لكن المؤرخين العرب يذكرون بمشاعر الإمتنان ما أسفرت عنه تلك الهدنة من الحيلولة دون أن يغزو بلدوين الأراضي الدمشقية عندماسنحت له الفرصة لهزيمة طغتكين على يد وليم جوردن في أرقا(٤٢)، وربما نبعت رغبة بلدوين في الهدنة نتيجة لهزيمة جيرفاس وما ترتب عليها من خطر الغارات المنطلقة من الأردن على الجليل . وبالمثل رغب فيها المسلمون بعد غارتين حدثتا مؤخرا . إذ قام وليم كليتون ، إبن روبرت النورمندى ، الذى حلّ مؤخرا بفلسطين للحج ، بمهاجمة أميرة عربية ثريّة كانت مرتحلة مع كل ممتلكاتها من شبه الجزيرة العربية إلى دمشق ، والغارة الثانية على قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مصر . وغنم الفرنج في الغارة الأولى أربعة آلاف جمل ، وغنموا في الثانية جميع بضائع القافلة التي قتل فيها كل من بقى على قيد الحياة فيما بعد على يد البدو(٤٣). وفي ١١١٣م خرق بلدوين المعاهدة بمهاجمته للأراضي الدمشقية.

وبعد أن أخفق بلدوين أمام صور في ١١١١م، انشغل حينا من الزمن ببعض الأمور شمالي سوريا. فقد سبق أن أوضح بجلاء في طرابلس في ١١٠٩م عزمه على أن يصبح سيدا لجميع فرنج الشرق . وأتاحت له أحداث أنطاكية والرها تأكيد دعواه كما استطاع أن يلفت الانتباه مرة أخرى إلى تضخيم سلطانة الشخصى . ذلك أنه كان مدركا لحقيقة أن فلسطين بلاد مفتوحة للغزو والتسلل من الجنوب الشرقى خلال النقب ، فمن الضرورى إذن السيطرة على المنطقة الممتدة من البحر الميت وحتى خليج العقبة لعزل مصر عن العالم الإسلامى الشرقى . وفي ١١٠٧م أرسل طغتكين جيشا دمشقيا إلى أدوم (العرابة) تلبية لنداء البدو المحليين هناك ، وذلك لإنشاء قاعدة للإغارة على يهودا . وكان في برارى العرابة هذه عدة أديرة يونانية ، فأرسل الراهب ثيودور يحث بلدوين على التدخل ؛ فسار بلدوين جنوبا إلى أن اقترب من المعسكر التركى في وادى موسى بالقرب من البتراء ، لكنه لم يكن راغبا في قتال الترك ، فعرض الراهب ثيودور أن يذهب إلى القائد التركى كما لو كان هاربا ويحذره من اقتراب الجيش الفرنجى الضخم . فاستشعر الأتراك الخطر وانسحبوا بغاية السرعة عائدين إلى دمشق . وعاقب بلدوين البدو بإشعال النيران في كهوفهم فدمرها واستولى على قطعانهم. وفي

---

(٤٢) Ibn al-Athir, pp. 269-70

(٤٣) Albert of Aix, x, 45, p. 653, Ibn al-Athir, p. 272

طريق عودته شمالا اصطحب معه الكثير من المسيحيين الذين كانوا يخشون انتقام البدو(٤٤).

وفى ١١١٥م عاد بلدوين إلى منطقة العرابة وقد عقد العزم على الإستيلاء عليها بصفة دائمة ؛ فهبط من الخليل ودار حول الطرف الجنوبي للبحر الميت ، وعبر وادى العرابة المقفر الذى يمتد من البحر الميت وحتى مشارف خليج العقبة ، ووصل إلى بقعة من البقاع الخصبة القليلة فى تلك المنطقة الجرداء ، وهى البقعة المعروفة بالشوبك ، فى رقعة شجراء بين المنخفض والصحراء العربية. وفى ذلك المكان الذى يبعد مائة ميل تقريبا من أقرب مستوطنة فرنجية ، شيّد حصنا ضخما وترك فيه حامية وأسلحة جيدة ، وأطلق عليه إسم الجبل الملكى . وفى العام التالى قاد جيشه ومعه قافلة طويلة من البغال المحملة بالمؤن ، واندفع فى تهور إلى أماكن بعيدة غير معروفة من شبه الجزيرة العربية . وزار الجبل الملكى مرة أخرى ، ثم سار جنوبا إلى أن وصل أخيرا برجاله الذين نال منهم التعب إلى شواطىء البحر الأحمر فى العقبة ، حيث استمتعوا بالإستحمام فى البحر مع خيولهم ، وراحوا يصيدون الأسماك التى تشتهر بها تلك المياه. وانزعج السكان المحليون وأصابهم الذعر فلاذوا بالفرار فى قواربهم ؛ واحتل بلدوين العقبة التى أطلق عليها الفرنج إيليا أو إيلين ، وحصنها بتشييد قلعة فيها ، ثم أبحر إلى جزيرة فرعون الصغيرة التى أطلق عليها الفرنج جراى حيث بنى حصنا ثانيا ، وترك حامية فى كل حصن منهما . وبفضلهما أصبح الفرنج يسيطرون الآن على الطرق التى تربط بين دمشق وشبه الجزيرة العربية ومصر ، وبإمكانهم الإغارة على القوافل بيسر يسير ، وبات من الصعب على أى جيش إسلامى أن يصل إلى مصر من الشرق(٤٥).

١١١٨ م : بلدوين يغزو مصر

وبعد عودة بلدوين من شواطىء البحر الأحمر ، سار ثانية إلى صور لكنه اكتفى بفرض حصار برى صارم على المدينة ببناء حصن فى سكاندلون حيث يبدأ الطريق الساحلى فى الصعود بمحاذاة الجرف إلى الممر المعروف باسم سلم صور(٤٦).

(٤٤) Albert of Aix, x, 28-9, pp. 644-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 81-2.

(٤٥) Albert of Aix, XII, 21-2, pp. 702-3; William of Tyre, XI, 29, p. 505. For Aila, see Musil, article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam.*

(٤٦) Fulcher of Chartres, II, lxii, I, pp. 605-6; William of Tyre, XI,30,p.507

وشجع بلدوين بما حققه من إنجازات ، فشرع في١١١٨م في حملة أكثر جسارة. إذ أن الجيوش الفاطمية قامت مؤخرا بغارتين ساحقتين على أراضيه ؛ فبينما كان منشغلا في الشمال مع الأتراك ١١١٣م . تمكنت الجيوش الفاطمية من التقدم حتى أسوار القدس وهي تنهب البلاد في طريقها وفي ١١١٥م أوشكت على النجاح في مباغتة يافا والآن يأتي رد بلدوين على ذلك بغزو مصر نفسها؛ فبعد مفاوضات حذرة مع شيوخ القبائل في الصحراء ، قام في وقت مبكر من شهر مارس بقيادة جيش صغير قوامه ستين ومائتي فارس وأربعمائة راجل ، وروده جيدا بالمؤن وسار به من الخليل عابرا شبه جزيرة سيناء إلى ساحل البحر المتوسط في العريش (الفرما) الواقعة في عمق الحدود المصرية بالقرب من فرع النيل البيلوزي وتهيأ للهجوم على المدينة ، غير أن الحامية هربت في الفزع ؛ وواصل مسيرته إلى النيل نفسه . وفغر رجاله أفواههم لرؤية النيل الشهير غير أن بلدوين أصيب بمرض مميت ، وعاد باتجاه فلسطين وهو يحتضر (٤٧)

تمكن الملك بلدوين ، بحملاته التي لا تعرف الكلل ، وبانتهازه لكل نهزة ، من أن يرتقي بدويلته التي ورثها لتصبح دولة موحدة تحوي مقاطعة فلسطين التاريخية كلها . وباستثناء صور وعسقلان ، سيطر على البلاد الممتدة من بيروت شمالا إلى بئر سبع جنوبا وحدود الأردن شرقا ونقاط حدودية في أقصى الجنوب الشرقي تتحكم في المداخل من شبه الجزيرة العربية واعترف رفاقه المسيحيون في الشرق الفرنجي بسيادته عليهم ؛ وفاز باحترام المسلمين وكان ما حققه من إنجازات بمثابة ضمان لعدم إمكان تدمير مملكة القدس بسهولة.

وليس لدينا سوى القليل جدا من الشواهد التي تدلنا على إدارته الداخلية للمملكة. وإذا تحدثنا بصورة عامة نقول إنها كانت مملكة إقطاعية . لكنه احتفظ بأغلب البلد في يديه هو شخصيا، يعين النبلاء من طبقة الفيكونت نوابا له ، بل إن أكبر الإقطاعيات بقيت لبضع سنوات بلا عاهل ، ولم تكن الإقطاعيات تورث بعد . إذ عندما قتل هيو (أوف سانت أومير) ، ساد الظن بأن أخاه جيرار سيخلفه في الإمارة لو سمحت صحته بذلك . لكن حقه لم يكن حقا مطلقا وقد طور بلدوين مشروع دستور للمملكة ، وحكم هو نفسه من خلال بيت ملكي كبير كان حجمه آخذا في الاتساع . وكان لكل من أصحاب الإقطاعيات التابعين له بيته الكبير الخاص به . كما تعزى إليه

---

(٤٧) Albert of Aix XII, 25, p 705, Ibn al-Athir p 314

الترتيبات التى أعدها مع الإيطاليين فى الموانى البحرية، وبرغم أنهم لم يُجبروا على مساعدة الحملات الصليبية إلا أنهم كانوا مضطرين للاشتراك بقواتهم البحرية فى الدفاع عن الأحياء التى يحصلون عليها(٤٨).

وقد أظهر بلدوين بجلاء نيّته فى السيطرة على الكنيسة . ولما أيقّن من مؤازرتها عاملها بسخاء ومنحطها طواعية بعض الأراضى التى استولى عليها من الكفرة . لكنه كان فى سخائه هذا على شيء من الخطأ؛ فالكنيسة غير ملتزمة بتزويده بالجنود. إلا أنه كان يتوقع من الناحية الأخرى أن تزوده بالمال.

وأظهرت أحداث كثيرة مدى ما كان بالدوين يتمتع به من شهرة بين المسيحيين المحليين . فمنذ تلك الحادثة التى حدث فى عيد الفصح من عام ١١٠١م، كان حريصا على احترام مشاعرهم . فكان يسمح لهم فيما يعقده من محاكمه بالحديث بلغاتهم الخاصة ، والتصرف بحسب عاداتهم الخاصة بهم ؛ ولم يكن من المسموح للكنيسة بالتدخل فى ممارساتهم الدينية. وفى السنوات الأخيرة من حكمه شجّع هجرة المسيحيين، الهراطقة والأرثوذوكس على السواء من البلدان المجاورة الخاضعة للحكم الإسلامى . فكان فى احتياج لفلاحين كادحين يحتلون الأراضى التى باتت شاغرة فى الخليل بعدما رحل المسلمون . وكان يشجع زواج الفرنج من الوطنيات ، وضرب هو نفسه المثل على ذلك . وقليل جدا من أصحاب لقب البارون تزوجوا من محليات ؛ بيد أن الممارسة أصبحت شائعة بين جنود الفرنج والمستوطنين الأفقر. وفيما بعد ، كان الأطفال المهجنون هم الذين يوفرون للمملكة أغلب احتياجاتها من الجنود.

وأظهر بالدوين شيئا مماثلا من الود إزاء المسلمين واليهود الذين باتوا من رعاياه ؛ فسمح بالقليل من المساجد والمعابد اليهودية. وفى المحاكم القانونية أصبح بإمكان المسلمين أن يقسموا بالقرآن واليهود بالتوراة ؛ وبذا غدا بإمكان المتخاصمين من الكفرة التطلع إلى العدالة . وسمح بالتزاوج مع المسلمين . وفى عام ١١١٤م تلقى البطريق أرنولف توبيخا شديدا من البابا باسكال لعقده زواج بين مسيحى وسيدة مسلمة(٤٩).

وفى تلك المسألة اتضح سوء فهم البابا باسكال للشرق مرة أخرى .فإذا أراد

(٤٨) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 228-30

(٤٩) Rohricht, *Regesta*, n. 83, p. 19.

فرنج الشرق البقاء بصورة دائمة، فلا ينبغي لهم أن يظلوا أقلية مغتربة ، وإنما يتعين أن يصبحوا جزءا من العالم المحلي . وأما فولشر أوف تشارتر ، وهو قسيس بالدوين ، فقد أورد في تاريخه فصلا حماسيا منظوما عمّا لاحظه من معجزة الرب في تحويل الغربيين إلى شرقيين ، وبدا له أن امتزاج العرقين الشرقي والغربي يثير الإعجاب ، ورأى فيه الخطوة الأولى على طريق اتحاد الأمم . وعلى مدى تواجد الدويلات الصليبية نجد القصة نفسها : افرنجي حكيم محنّك في الشرق يتبع تقاليد بالدوين فيتبنى العادات المحلية ، وينشئ صداقات وتحالفات محلية ، بينما الوافدون الجدد من الغرب لا يجلبون معهم سوى الأفكار المتعصبة المتسلطة التي لا تجلب على البلاد سوى الكوارث.

وقد أساء بلدوين إلى البابا عندما استولى على مدينتي صيدا وبيروت الساحليتين وأخضع كنائسها لبطريارقية القدس ، ظنا منه أن الإدارة السليمة للملكة تستدعي ذلك، وهي التي كانت طوال تاريخها تابعة لبطريق أنطاكية. واعترض بطريق انطاكية - برتراند - لدى البابا من هذا التصرف غير الكنسي . وكان البابا قد أخطر القدس في ١١١٠م بإمكان تجاهل الأوضاع التاريخية للكنائس نظرا للظروف المتغيرة . على أن البابا ، وبضعفه المعهود ، غيّر في عام ١١١٢م من موقفه هذا وأيد مطالب أنطاكية ؛ وبهدوء تجاهل بالدوين هذا القرار الجديد للبابا .وعلى الرغم مما أبداه البابا باسكال من توبيخ لاذع، بقيت الأسقفيات خاضعة لبطريارقية القدس(٥٠).

١١١٣م زواج بالدوين من أديللا

وأما عن زواج بالدوين ، فقد ارتكب خطأ جسيما . ذلك أنه منذ اليوم الذى هرب فيه حموه مذعورا من وحشية زوج ابنته ودون أن يعطي لبالدوين مهر ابنته المتفق، لم يعد بالدوين يهتم كثيرا بعروسه الأرمينية . وكان بالدوين شغوفا بالمغامرات الغرامية، لكنه كان يتوخى التعقل ، ومنعه وجود مليكته معه فى البلاط من الإنغماس فى شهواته. وقد كان للملكة هى الأخرى سمعة الملكة الطروب حتى أنها ، كما قيل ، وهبت حظوتها لقراصنة مسلمين أثناء رحلتها من أنطاكية جنوبا إلى حيث ينتظرها عرشها . ولم يثمر زواجهما أطفالا يوثّقون عرى الرابطة الزوجية بينهما؛ وبعد سنوات قليلة ، وبعد ما تحقق بالدوين من انتفاء أية فائدة سياسية لزواجه هذا، طردها من

---

(٥٠) William of Tyre, XI, 28, pp. 502-5

البلاط بدعوى ارتكابها الزنا وأجبرها على دخول دير القديسة آن فى القدس ، وراح يغدق على الدير الهبات بسخاء ، مداهنة لضميره . على أن الملكة لم تكن تشعر بنداء دفين لحياة الرهبنة ، وسرعان ما التمست الإذن بالإعتزال فى القسطنطينية حيث يقيم والداها منذ أن طردهما الفرنج من مرعش ، وأجيب مطلبها. وفى القسطنطينية نضت عن نفسها رداء الرهبنة ، وراحت تتذوق كل ما تقدمه المدينة العظيمة من ملذات[٥١] وفى ذات الوقت أبهج بالدوين أن يجد نفسه قادرا على العودة إلى حياة العزوبة مرة أخرى . على أنه كان لايزال فى حاجة إلى المال . وفى شتاء عام ١١١٢م علم بوجود أرملة مناسبة للغاية فى أوروبا تبحث عن زوج : إذ أن أديلايدى السالونية - كونتيسة صقلية الأرملة - قد تركت لتوها الوصاية على كونتيتها لبلوغ ابنها الصغير ، روجر الثانى ، سن الرشد . وكانت فائقة الثراء . واجتذبها اللقب الملكى . و لم يكن بالدوين يرغبها لما سيحصل عليه من بائنة وحسب ، وإنما أيضا لما تتمتع به من نفوذ على نورمانديى صقلية ، فسوف يساعد التحالف معهم فى إمداده بالقوة البحرية، فضلا عن أن ذلك التحالف سيكون بمثابة توازن مضاد إزاء النورمانديين فى أنطاكية . فأرسل طالبا يدها . وقبلت الكونتيسة ولكن بشروطها . إذ أن بالدوين أبتر بلا ولد بعد أن مات أبناؤه من زوجته الأولى فى الأناضول أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ و لم تلد له مليكته الأرمينية . فأصرّت أديلايدى على أنه مالم يثمر زواجهمامن بالدوين بولد - وعمر كل من العريس والعروس لا يبشر كثيرا بولد - فلا بد أن ينتقل تاج القدس إلى ابنها الكونت روجر.

وتم عقد الزواج. وفى صيف ١١١٣م أبحرت الكونتيسة من صقلية تحوطها أبهة لم يشهدها البحر المتوسط منذ أن أبحرت كليوباترة قاصدة سيدنوس Cydnus للقاء مارك أنطونيو . كانت متكئة على بساط خيوطه من ذهب فى سفينتها التى كانت مقدمتها مزدانة بصفائح من الذهب والفضة . وكانت هناك سفينتان أخريان بصحبتها، على جانبى كل سفينة ثلاثة صفوف من المجاديف ، مقدمتاهما مزدانتان بنفس زينة سفينتها، وتقلان حرسها العسكرى ، وقد تألق من بينهم الجنود العرب من حرس إبنها الشخصى، تلمع وجوههم السمراء فوق أرديتهم ذات البياض الناصع . وفى أثرالمياه الذى تركته السفن وراءها كانت هناك سبع سفن أخرى امتلأت عنابرها بكنوزها الخاصة بها . وهبطت إلى الشاطئ فى عكا فى شهر أغسطس ، حيث كان الملك

---

(٥١) Guibert of Nogent, p. 259، الذى يذكر حياتها الخليعة . ويفترض William of Tyre, XI, PP. 451-2 أنها انساقت فى الشرور بعد طلاقها.

بالدوين في استقبالها بكل الروعة التى تستطيع مملكته إظهارها ، وكانت الأردية الحريرية الفاخرة تكسوه وتكسو بلاطه كله ؛ وكانت خيولهم وبغالهم مزدانة بالأكسية الأرجوانية والذهب . وبُسطت الشوارع بالبسط الفاخرة ، ورفرفت الرايات الأرجوانية من النوافذ والشرفات . وعلى طول الطريق إلى القدس بدت المدن والقرى كما لو كانت فى ملابس مبهرجة . كانت البلاد كلها فى بهجة، ولكنها ليست البهجة الكبيرة لمقدم السيدة الجديدة التى تخطو إلى شيخوختها بقدر ماكانت بهجة لما جلبته فى بطانتها من ثروة(٥٢).

وبرغم تلك البداية الباهرة لم يحقق الزواج نجاحا. إذ تسلم بالدوين على الفور بائنته من الملكة ، وأنفقها فى تسديد أجور الجنود المتأخرة ، وفى الإنفاق على أعمال التحصينات ؛ وأسفر تداول هذه الأموال عن انتعاش اقتصاد البلاد . ولكن سرعان ما خبت الجذوة ؛ وانجلت مساوىء الزواج . ويتذكر أصحاب الورع أن زوجة بالدوين السابقة لم تطلّق أبدا طلاقا قانونيا . وصدمهم قيام البطريق أرنولف بكل طواعية بإنجاز ما كان فى حقيقته احتفالا بالجمع بين زوجتين؛ وسارع أعداء أرنولف فى استغلال تصرفه ذاك الشاذ . وزادت حدة الهجوم عليه عندما أغضب رعية بالدوين كلها اكتشاف أنه اقترح التخلص من ولاية عرش المملكة دون استشارة مجلسه . وانهمرت على روما الشكاوى ضد أرنولف. وبعد عام على الزواج الملكى ، وصل إلى القدس المندوب البابوى بيرينجار أسقف أورانج . وفضلا عن إتهام أرنولف ببيع المقدسات والمناصب الكنسية ، تأكد لدى المندوب البابوى أنه قد غض النظر عن علاقة زنا، بل وباركها ؛ فجمع أساقفة ورهبان البطريارقية فى مجمع كنسى وأعلن خلع أرنولف. على أن أرنولف لا يخلع بهذه السهولة . فتدبرعدم تعيين خليفة له وانطلق هو نفسه إلى روما فى شتاء ١١١٥م، حيث مارس كل ما لديه من سحر إغوائى على البابا والكرادلة الذين قويت مشاعر العطف عليه لما أهداهم من هدايا اختارها لهم بعناية . ووقع البابا باسكال تحت نفوذه ، وأنكر قرار مندوبه البابوى . ووافق أرنولف على تقديم تنازل واحد : لقد وعد بأن يأمر الملك بطرد الملكة الصقلية . وعلى الأثر لم يكتف البابا بإعلان بطلان خلع أرنولف ، وإنماقام هو نفسه وقدم له الطّيلسان ليرتديه ، وهكذا أيد

---

(٥٢) Albert of Aix, XII, 13-14, pp. 696-8; William of Tyre, XI, 21, pp. 487-9; Fulcher of Chartres, II, li, pp. 575-7. كانت أدعلايدى إبنة المركيز مانفريد ، وإبنة أخت صاحب حانة سالونا، وقد تزوجت روجر الأول الصقلى كزوجته الثالثة عام ١٠٨٩ ولمعرفة نسبها أنظر Chalandon, *Histoire .de la Domination Normande en Italie*, II, p. 391, n. 5.

بقاءه فى منصبه بما لا يدع مجالا لأية ريبة . وفي صيف ١١١٦م عاد أرنولف منتصرا إلى القدس[٥٣].

وقد أقدم أرنولف على هذا التنازل بلا تردد ؛ إذ كان يعرف ان بالدوين الآن ، وبعد أن أنفق البائنة - أصبح شبه آسف على زواجه ، كما لم تجد أديلايدى هى الأخرى أنها معجبة بمعبد سليمان فى القدس الذي تفتقر فيه إلى أسباب الراحة ، وهى التي اعتادت على الحياة الفاخرة فى قصر باليرمو . على أن بالدوين تردد ؛ فهو كاره لأن يخسر مزايا التحالف الصقلى ؛ فقاوم طلبات أرنولف إلى أن أصيب بمرض شديد فى شهر مارس١١١٧م؛ وأنصت ، وهو بين يدى الموت، إلى كهنة الأعتراف الذين قالوا له إنه يموت وهو فى حالة من الإثم . وعليه أن يطرد أديلايدى ، وأن يستدعى زوجته السابقة لتكون إلى جانبه . ولم يستطع أن يلبى كل رغباتهم ؛ إذ أن الملكة السابقة لم تكن مهيأة لمغادرة القسطنطينية والتخلىعما كانت غارقة فيه من ملذاتها الرائعة. على أنه عندما شفى من مرضه أعلن إلغاء زواجه من أديلايدى ، التى نال منها الغضب ، وقد جُردت من ثروتها ، فأبحرت عائدة إلى صقلية فى رحلة تكاد أن تكون بلا حراسة. وكان ذلك إهانة لم ينسها البلاط الصقلى أبدا . ومضى وقت طويل قبل أن تتسلم مملكة القدس أية مساعدة أو تعاطف من صقلية[٥٤].

١١١٨م موت أمراء

خسف القمر يوم ١٦ يونية ١١١٧م، ومرة ثانية يوم ١١ ديسمبر ، وبعد ذلك بخمس ليال حدثت الظاهرة النادرة فتلألأ الشفق القطبى الشمالى فى سماء فلسطين ، فكانت نذيرا مرعبا يتنبأ بموت أمراء[٥٥] . ولم يكذب النذير . ففى ٢١ يناير ١١١٨م مات البابا باسكال فى روما[٥٦] ، وفى ١٦ إبريل أنهت الملكة السابقة أديلايدى بموتها

---

(٥٣) خطاب باسكال الثانى المؤرخ فى ١٥ يولية ١١١٦، M. P. L. vol. CLXIII, cols. 408-9; Albert of Aix, XII, 24, p. 704; William of Tyre, XI, 24, pp. 499-500 .

(٥٤) Albert of Aix, *loc. cit.;* William of Tyre, *loc.cit.;* Fulcher of Chartres, II, lix, 3, p.601.

(٥٥) Fulcher of Chartres, II, lxi, 1-3, lxiii, 1-4, pp. 604-5, 607-8. وتناقش الملاحظات عند Hagenmeyer تاريخ وقوع الظاهرة . ويذكر Fulcher موت باسكال ,بالدوين وأديلايدى وأرنولف وألكسيوس.

(٥٦) *Annales Romani, M.G.H.Ss., vol. v.p.477;* William of Tyre, XII, 5, p. 518.

وجودها الذليل في صقلية(٥٧) ، ولم يعش صديقها الزائف البطريق أرنولد سوى اثني‌عشر يوما بعدها ، وشهد يوم ٥ إبريل موت السلطان محمود في إيران ، وفي ٦ أغسطس مات الخليفة المستظهر في بغداد(٥٨) . وفي ١٥ أغسطس ، وبعد مرض طويل مؤلم ، مات في القسطنطينية أعظم عواهل الشرق ، الإمبراطور ألكسيوس(٥٩) ، وفي بداية الربيع عاد الملك بالدوين من مصر وقد ضربته الحمى . ولم يبق في بدنه المرهق المتعب أية مقاومة. وقد حمله جنوده عائدين به إلى قلعة العريش الحدودية الصغيرة ، وهو محتضرا. وهناك، وبدقة عبر حدود المملكة التي تدين له بوجودها، مات يوم ٢ إبريل بين ذراعي أسقف الرملة . وجيء بجثته إلى القدس ، وفي يوم أحد السّعف ، ٧ إبريل ، رقد ليستريح في كنيسة القبر المقدس ، بجانب أخيه جودفري(٦٠).

وصاحب موكب الجنازة نواح الفرنج والمسيحيين المحليين على السواء ؛ بل إن العرب الزائرين كانوا متأثرين . كان ملكا عظيما ، قاسيا و مجردا من المبادىء الخلقية ، لم يكن محبوبا ، ولكن حظي باحترام عميق لما أبداه من نشاط وبصيره ونظام وعدالة في حكمه . لقد ورث مملكة ضعيفة غير مستقرة ، لكن قوته الحربية ، وحدة ذهنه الدبلوماسية ، وتسامحه الحكيم ، أوجد لها مكانا راسخا بين ممالك الشرق.

(٥٧) *Necrologia Panormitana, in Forschungen zur deutschen Geschichte,* vol. XVIII, PP. 472; William of Tyre, XII, 5, P. 518 .

(٥٨) Ibn al-Athir, pp.310-11; Matthew of Edessa, ccxxvi, p. 297.

(٥٩) Zonaras, p. 759; William of Tyre, XII, 5, p. 517; Ibn al-Qalanisi, p. 157 ، ويذكر موته أيضا Matthew of Edessa , ccxxviii, pp. 300-1.

(٦٠) Fulcher of Chartres, II, xiv, 1-5, pp. 609-13; Albert of Aix, XII, 26-9, pp. 706-9; William of Tyre, XI, 31, pp. 508-0; Ibn al-Qalanisi, loc. cit..

الفصل السادس:

توازن فى الشمال

توازن فى الشمال

"فَيُحارِبُونَ كُلُّ وَاحِدٍ أَخاهُ وكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ"
(أشعياء : ١٩ - ٢)

كان الملك بالدوين الأول ، قبل وفاته ببضع سنين ، قد أعلن نفسه زعيما دون منازع لفرنج الشرق . ولم يكن ذلك إنجازا يسيرا ، وقد أفلح فيه بالدوين بمهارته فى استخدام الظروف.

وغدا تنكريد بلا غريم بين فرنج شمال سوريا بعد أن وقع فى الأسر فى حران كل من بالدوين (أوف لو بورج) وجوسلين (أوف كورتناى) ، وبعد رحيل بوهيموند إلى الغرب؛ ونتيجة للشقاق الذى كان محتدما بين المسلمين تمكن من انتهاز كل نهزة أمامه انتهازا كاملا. وكانت الامبراطورية السلجوقية تتداعى قطعة قطعة لأسباب تعزى فى أهميتها إلى ما ساد من خلافات بين أمرائها بصورة أكبر من عزوها إلى ما كانت تواجهه من ضغوط خارجية. وارتفع نجم جكرمش - أتابج الموصل - بنصره فى حران إلى مركز الصدارة بين عواهل الأتراك فى شمال سوريا والجزيرة، برغم فشله الذريع فى

متابعة الهجوم ضد الفرنج. وكان حليفه السابق ونده ، سقمان الأرتقى صاحب ماردين، قد مات فى باكورة ١١٠٥م ، وهو فى طريقه لمساعدة طرابلس المحاصرة ، وتنازع على الميراث أخوه ايلغازى، وابنه ابراهيم[1] وكان أيلغازى فيما مضى تحت إمرة رضوان الحلبى ، ولذا كان الأخير يأمل الآن فى أن يمنحه ايلغازى - بعد الانتصار - نفوذا فى الجزيرة ؛ لكن ايلغازى نسى الولاء القديم ، وكان رضوان نفسه غارقا فى محاربة الفرنج لتأكيد زعامته العليا القديمة[2] وفى ١١٠٦م مات الأمير الدانشمندى العظيم الملك غازى جوموشتكين تاركا وراءه مملكة مقسمة ؛ فأصبحت سيواس وأراضى الأناضول من نصيب ابنه الأكبر غازى ؛ وأمست ملطية وأراضى سورية من نصيب ابنه الأصغر سنقر ، وهو شاب لا خبرة له ، مما أغرى قلج أرسلان - الذى تعاقد مع بيزنطة على السلام مؤخرا - بالتحول شرقا ومهاجمة ملطية والاستيلاء عليها فى خريف ١١٠٦م[3] . ثم إنه خلع على نفسه لقب سلطان وحاول الحصول على الاعتراف بلقبه هذا فى أنحاء العالم التركى، وكان على استعداد لمصادقة من يعامله بهذه الصفة[4].

ولم ينعم جكرمش بمركز الصدارة طويلا ، إذ كان له حتما أن يتورط فى النزاعات الدائرة فى السلطنة السلجوقية الشرقية . وعندما اضطر السلطان بارقياروق إلى اقتسام أملاكه مع أخيه محمد فى ١١٠٤م ، تقرر ضم الموصل إلى أملاك الأخير . وحاول جكرمش أن يستقل بنفسه فأعلن أنه يدين بالولاء لبارقياروق فقط ، وتحدى جنود محمد؛ غير أن بارقياروق مات فى يناير ١١٠٥م وورث محمد أملاكه كلها ؛ فلم يجد جكرمش ذريعة للإستقلال عن محمد ، وأسرع إليه معلنا خضوعه إليه . وأظهر محمد الصداقة إلى حين، وعاد شرقا دون أن يغامر بدخول الموصل دخول المنتصرين[5].

---

(١) إبن الفرات ، اقتبسه Cahen, La Syrie du Nord, p. 248, n. 26 ؛ ويقول إبن الأثير Ibn al-Athir, pp. 226-7، إن ايلغازى أخذ ماردين من إبراهيم فى ١١٠٧ . وللإطلاع على التاريخ المعقد لأمراء المسلمين أنظر Cahen, op. cit. pp. 246-9.

(٢) Ibn al-Athir, loc. cit..

(٣) ميخائيل السورى Michael the Syrian, III, p. 192

(٤) أنظر مقال 'Kilij Arslan' فى دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam. أما ابن القلانيسى ، وابن الأثير، وغيرهما من المؤرخين العرب فيتوخون جانب الحذر ولا يطلقون عليه سوى مالك . ويسميه ماثيو الأورفى Matthew of Edessa وميخائيل السورى Michael the Syrian سلطان.

(٥) Ibn al-Athir, pp. 224-5.

خريطة رقم (١) شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي
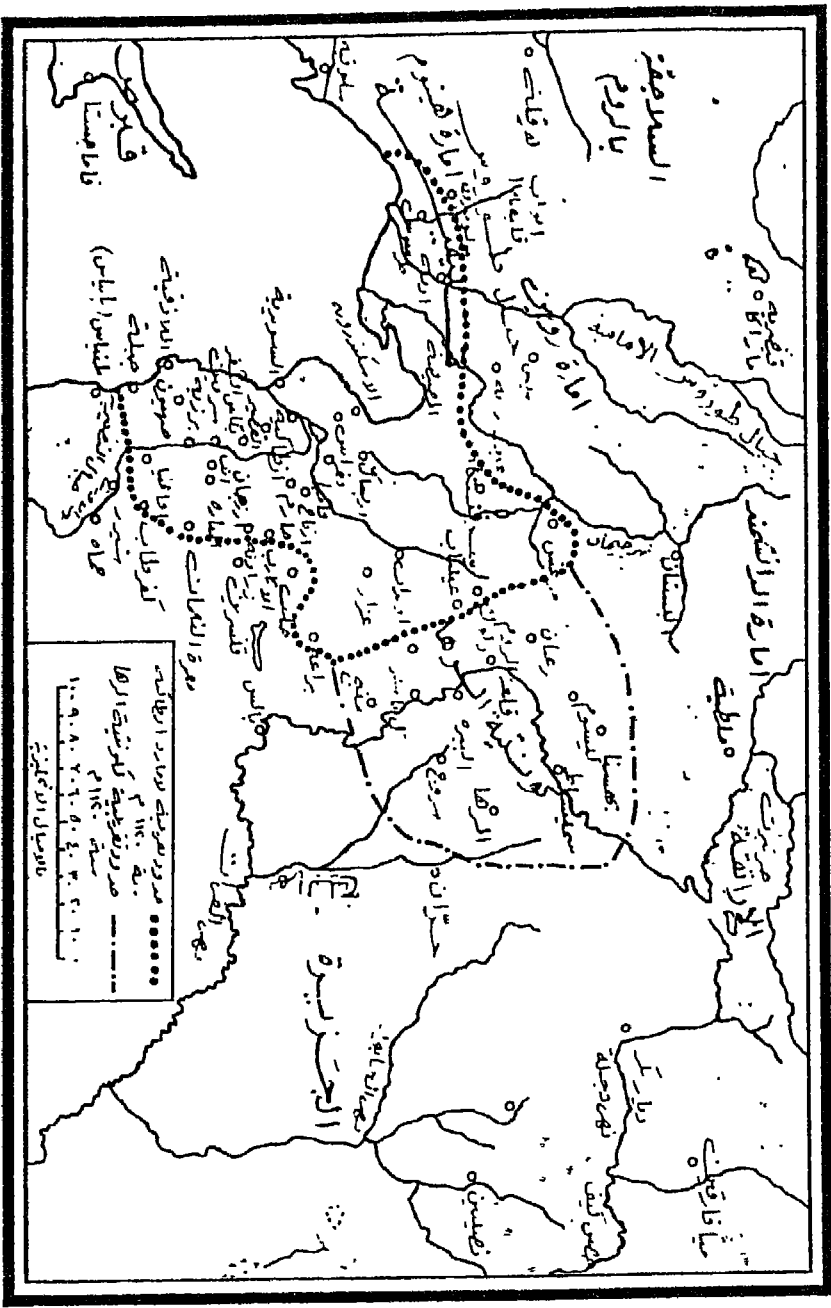
خريطة رقم (١) شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي
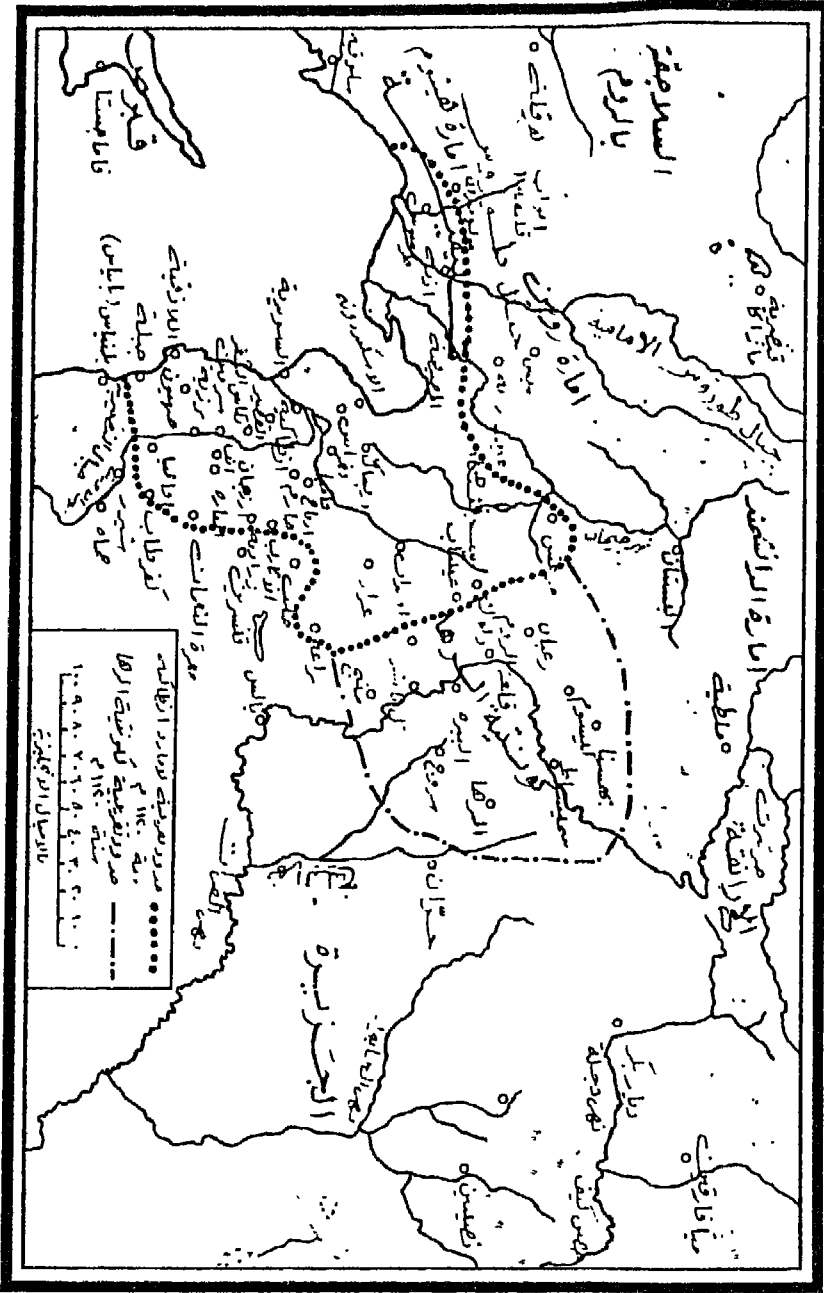
ثم شرع جكرمش فى تنظيم حملة جديدة ضد الفرنج ، وربما كان ذلك بناء على طلب محمد ، فتحالف مع رضوان الحلبى وصباو، القائد العسكرى لرضوان ، وايلغازى الأرتقى ، وزوج ابنته ألبو ابن أرسلانتاش صاحب سنقار. واقترح الحلفاء على رضوان إدخال البهجة على السلطان محمد بالهجوم على جكرمش ، ففى ذلك حنكة سياسية ومنفعة ؛ فساروا معا إلى مدينته الثانية نصيبين . غير أن عملاءه هناك أفلحوا فى الوقيعة بين رضوان وايلغازى؛ فخطف الأول الثانى فى مأدبة أقامها أمام أسوار نصيبين ، وكبّله بالسلاسل ؛ فقام العساكر الأراتقة بمهاجمة رضوان وأجبروه على العودة إلى حلب. وهكذا نجا جكرمش وسار بنفسه وهاجم الرها؛ على أنه بعد أن أفلح فى هزيمة فرقة خرجت للتصدي له من جنود ريتشارد حاكم الإمارة، عاد إلى بلده ليواجه مشاكل جديدة(٦).

وفى تلك الأثناء حاول قلج أرسلان بدوره الهجوم على الرها - وكان قد استولى لتوه على ملطية - لكنه وجد دفاعاتها قوية ، فتحول إلى حران التى كانت حاميتها تابعة لجكرمش ، وقد سلمته الحامية المدينة . وكان من الواضح أن سلاجقة الروم يسعون إلى توسيع رقعة سلطانهم فى العالم الإسلامى على حساب أبناء عمومتهم سلاجقة الفرس(٧).

ولم يغفر السلطان محمد أبدا ما راود جكرمش من نزعات استقلالية ، وكان يرتاب فى أنه متواطئ مع قلج أرسلان . وفى شتاء ١١٠٦م حرمه رسميا من الموصل ووهبها مع حكم الجزيرة وديار بكر لمغامر تركى يدعى جوالى سقاوه . فقاد جوالى جيشا ضد جكرمش الذى تقدم هو الآخر لقتاله ، لكن جكرمش هزم خارج المدينة مباشرة ووقع هو نفسه أسيرا ؛ وعلى الفور نصّب أبناء الموصل ابن جكرمش ، زنكى ، أتابجا لما كان لجكرمش من شعبية بينهم ، بينما أرسل الأصدقاء خارج المدينة إلى قلج أرسلان طالبين مساعدته . وكان فى مأمول جوالى أن يستخدم جكرمش كورقة للمقايضة عليها ، غير أنه بعد أن مات جكرمش بغتة فى أسره ، رأى الحكمة فى الإنسحاب . وفتحت الموصل أبوابها لقلج أرسلان الذى وعد باحترام حريتها.

ورسخ جوالى دعائم سلطانه فى وادى الفرات ، ومن هناك تفاوض مع رضوان الحلبى واتفقا على خلع قلج أرسلان أولا ثم يتقدمان معا لمهاجمة انطاكية . وفى يونية

---

(٦) Matthew of Edessa, clxxxix, pp. 260-1.

(٧) Ibn al-Athir, p. 239.

١١٠٧م توجه الإثنان على رأس أربعة آلاف رجل وهاجما الموصل . وكان قلج أرسلان بعيدا وجيشه أصغر ، لكنه مع ذلك خف لمجابهة الحليفين على ضفاف نهر خيبر . وبرغم ما اتصف به من شجاعة ، فقد هزم هزيمة ماحقة وهلك هونفسه وهو يعبر النهر هاربا[٨] .

وتركت نهاية قلج أرسلان أثرها على العالم الشرقي كله . إذ انزاح عن بيزنطة خطر هائل فى لحظة حاسمة كان فيها بوهيموند على وشك مهاجمة البلقان ؛ وتمكنت السلطنة السلجوقية الفارسية من أن يطول أجلها لقرابة قـرن مـن الزمـان ؛ وكـانت بمثابة أول مـرحلة خطرة فى انفصال أتراك الأناضول عن إخوانهم فى الشرق الأبعد . وحرمت سوريا – لوقتها – من قوة خليقة بأن تحقق لها وحدتها.

وأصبح بإمكان جوالى دخول الموصل. وسرعان ما صنع من نفسه حاكما بغيضا بأفعاله الوحشية فى حكمه؛ و لم يظهر لسيده السلطان محمد احتراما أكثر مما أظهره حكرمش من قبله. وبعد عام، خطط محمد لاستبداله، وأرسل إليه جيشا بقيادة المملوك مودود الذى أصبح النصير الرئيسى للإسلام خلال السنوات القليلة التى تلت[٩].

١١٠٧م : إطلاق سـراح جوسلـين

وأثناء كل هذا الإضطراب كان بالدوين (أوف لوبورج) أسيرا فى الموصل ، بينما انتقل ابن خالته جوسلين (أوف كورتناى) بعد موت سقمان إلى ايلغازى الذى كان يخطط لطرد ابن اخيه ابراهيم من ماردين ؛ على أن ايلغازى كان فى حاجة إلى المال والحلفاء ؛ ولذا وافق على اطلاق سراح جوسلين مقابل عشرين ألف دينار ووعد بمساعدة عسكرية . وتعهد رعايا جوسلين فى تل بشير طواعية بمبلغ الفدية ، واطلق سراحه فى وقت ما من عام ١١٠٧م[١٠] . وتمكن ايلغازى ، بالترتيبات التى أعدها ،

---

(٨) المرجع السابق الصفحتان ٢٤٦ - ٢٤٧ . ويعتبر ماثيو الأورفى Matthew of Edessa,cxcvi,p.264 أن موت قلج أرسلان بمثابة كارثة للعالم المسيحى كله ، أى الأرمن.

(٩) Ibn al-Athir, pp. 259-61; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 241.

(١٠) يقول ميخائيل السورى Michael the Syrian, III, pp. 195-6 إن مواطنى طرابزون سلموا أنفسهم كرهائن الى أن يتم جمع المال ، ثم تراجعوا ، بحيث لم يدفع شىء فى الواقع ، على أن جوسلين عاد الى الأسر كرهينة لبالدوين ، وترك انطباعا رائعا على سلطان الموصل الذى طلب رؤيته خصيصا. ويفترض ابن الأثير Ibn al-Athir, p. 261 أن الفدية قد دفعت على النحو الواجب.

من الإستيلاء على ماردين . ثم سعى جوسلين إلى تخليص بالدوين الذى كان فى قبضة جوالى مع كل متعلقات حكرمش . ولقد اختيرت اللحظة اختيارا حسنا ؛ إذ كان جوالى فى حاجة إلى مساعدة لصد هجوم مودود القادم ؛ فطلب ستين ألف دينار، واطلاق سراح الأسرى المسلمين المحتجزين فى الرها ، وتحالفا عسكريا . وبينما كانت المفاوضات دائرة ، تخلى أهالى الموصل عن جوالى وفتحوا بوابات مدينتهم لمودود، ووجد جوالى نفسه وقد طرد من الموصل، فوطد دعائم ملكه فى الجزيرة آخذا معه بالدوين(١١).

وتمكن جوسلين من تجهيز ثلاثين الف دينار بلا صعوبة كبيرة . وأحضر المال بنفسه إلى قلعة الجبّار فى الفرات حيث يعيش جوالى الآن ؛ وعرض أن يبقى هو نفسه رهينة بدلا من بلدوين الذى سيتولى احضار باقى الفدية . وتحركت مشاعر جوالى بهذه الحركة وأثارته بسالة الأمير الفرنجى ، وقبل جوسلين بدلا من بلدوين . وبعد أشهر قليلة أطلق سراح جوسلين واضعا ثقته فى كلمته التى وعدها بتسديد باقي الفدية، وكان لثقته ما يبررها(١٢) . ولقد أقدم على هذه الحركة بوازع الفروسية من ناحية، وبدافع المصلحة الذاتية من الناحية الأخرى - إذ كان شديد الرغبة فى التحالف الفرنجي.

١١٠٨ م: مسيحيون ومسلمون ضد مسيحيين ومسلمين

مضى على تانكريد الآن أربع سنوات وهو سيد الرها التى يحكمها باسمه ابن عمه ريتشارد (أوف برنسيبات) ؛ وكان تانكريد عزوفا عن تسليم الرها لبلدوين . وعندما ظهر بلدوين فى الرها وافق تانكريد على دفع ثلاثين ألف دينار ، لكنه رفض إعادة المدينة لبلدوين إلا بعد أن يقسم قسم الولاء له . ولم يكن بوسع بلدوين الموافقة باعتباره تابعا الملك القدس ، فذهب إلى تل بشير مغاضبا حيث لحق به جوسلين ، وأرسلا إلى جوالى يطلبان مساعدته . وسار تانكريد إلى تل بشير حيث وقعت مناوشات طفيفة اجتمع بعدها المتحاربون فى حلسة معقدة لمناقشة المسألة مرة أخرى ، ولكن دون جدوى . وأطلق بلدوين سراح مائة وستين أسيرا مسلما وأرسلهم هدية إلى

(١١) Ibn al-Athir, p. 260 P Bar-Hebraeus, loc. cit.

(١٢) Michael the Syrian, *loc. cit.; Chron. Anon. Syr.* pp.81-2; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 243; Ibn al-Athir, p. 261.

جوالي بعد أن أعاد تجهيزهم ثم سار شمالا يبحث عن حلفاء آخرين. وكان حكم ريتشارد في الرها مكروها من الأرمن خاصة لقسوته وابتزازه ، ولذا ذهب بلدوين لزيارة كبير أمراء الأرمن في الجوار - كواسيل أمير كيسوم - الذى عزز مكانته مؤخرا باستمالة كاثوليكوس الأرميني وأقنعه بالعيش في كنفه . واستقبل كواسيل بلدوين في مدينة رعبان ووعده بالمساعدة ، بينما أبهج أوشين الأرميني ، الذى كان يحكم كيليكيا باسم بيزنطة ، أن يخطو أية خطوة ضد تنكريد ، ومن ثمّ أرسل ثلاثمائة من المرتزقة البتشنج . وعاد بلدوين بهذا الحشد المحالف إلى تل بشير . ولم يكن تنكريد مستعدا للإساءة إلى العالم الأرميني كله ، لاسيما وأن برنارد - بطريق انطاكية - انحاز بنفوذه إلى جانب بلدوين ، فاصطر تنكريد على مضض إلى سحب ريتشارد أوف برينسيبات من الرها التى استقبلت بلدوين بمشاعر البهجة(١٣).

ولم تكن سوى هدنة مؤقتة . وكان بلدوين مخلصا في صداقته مع جوالي ، فأعاد له الكثير من الأسرى المسلمين ، وسمح بإعادة بناء المساجد في مدينة سروج التى كان أغلب سكانها من المسلمين ، وأمر بإعدام كبير قضاتها بعد خذلانه إذ لم يكن مقبولا من السكان لارتداده عن الإسلام . واستشعر رضوان الحلبي الخطر من هذا التحالف ، إذ راح جوالي يهدد ممتلكاته في الفرات ، فرد بالإغارة على قافلة بضائع تضم بعض فدية بلدوين المرسلة من تل بشير إلى بلاط جوالي . وفي سبتمبر ١١٠٨م استولى جوالي على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات ، والتى لا تبعد عن حلب سوى خمسين ميلا، وصلب أبرز المؤيدين لرضوان في المدينة . وعلى الفور استنجد رضوان بتنكريد . وفي أوائل أكتوبر وصل بلدوين وجوسلين إلى منبج بين حلب والفرات مع بضع مئات من فرسانهما وانضما إلى جيش جوالي الذى كان يتألف من نحو خمسمائة تركي وعدد أكبر من البدو برئاسة ابن صدقة أمير بني مزيد ، وبذا بلغ قوام الجيش المتحد قرابة ألفي رجل . وكان مع رضوان نحو ستمائة رجل لمواجهة الجيش المتحد ، لكن تنكريد جاء بقوة قوامها ألف وخمسمائة رجل . وحمي وطيس معركة يقاتل فيها مسيحيون ومسلمون مسيحيين ومسلمين . وبينما كان جنود جوالي يدفعون فرنج أنطاكية إلى الوراء شيئا فشيئا منزلين بهم خسائر جسيمة ، كان البدو قد لاحظوا الخيول التى كان فرسان بلدوين يحتفظون بها بصورة احتياطية ، فتعذر عليهم مقاومة اغراء الخيول ، فتخلوا عن القتال وسرقوها وانطلقوا بها ، وإذ رآهم أتراك جوالي يذهبون استداروا

(١٣) Fulcher of Charters, II, xxviii, 1-5, pp.477-81; Albert of Aix, x,37, p.648; Matthew of Edessa, CXCIX, p 266,

ولاذوا بالفرار . ونظر بلدوين وجوسلين فوجدا أنهما وحيدان أو يكادان ، فاضطرا إلى الفرار هما أيضا مع بقايا جنودهما، وقد كادا أن يقعا فى الأسر كلاهما. وقيل إن خسائر المسيحيين بلغت نحو ألفين(١٤).

وانسحب جوسلين إلى تل بشير وعاد بلدوين إلى دلوك شمال رواندان حيث حاول تنكريد محاصرته، لكنها كانت مجرد محاولة كفّ عنها عندما سمع بشائعة اقتراب جاول. وفى نهاية الأمر استعاد بلدوين وجوسلين الرها فوجدا أهلها فى حالة من الذعر . إذ أنهم ، خشية من أن يكون بلدوين قد مات ، ومن ثم يخضعون لحكم ريتشارد الممقوت، اجتمعوا فى كنيسة القديس يوحنا حيث قام الأرمن منهم بتوجيه الدعوة إلى الأسقف اللاتينى للمشاركة فى انشاء حكومة مؤقتة إلى أن ينجلى الموقف . وعندما جاء بلدوين بعد ذلك بيومين ارتاب فى أن الأرمن كانوا يدبرون خيانة لاستعادة استقلالهم . فضرب بسرعة وبقسوة . فاعتقل الكثير من الأرمن وفقأ أعينهم . ولم تسلم عينا الأسقف الأرمينى إلا بغرامة باهظة تبرعت بها رعيته ، وأعقب ذلك طرد الأرمن قسرا من المدينة . وما حدث فى واقع الأمر غير معروف، غير أنه من الواضح أن بلدوين لا بد وأن شعر بخطر جسيم بحيث عكس اتجاه سياسته الأرمينية بصورة مفرطة(١٥).

١١٠٩م : المصالحة بين أمراء الفرنج

وبرغم انتصار تنكريد ، وبرغم مصالحة جوالى بعد أشهر قليلة مع سيده السلطان الذى خلع عليه إمارة بعيدة فى فارس ، لم يُقدِم تنكريد على أية محاولة لاخراج بلدوين من الرها، وبدلا من ذلك قاد حملة فى خريف ١١٠٨م ضد شيزر حيث قتل بصعوبة جماعة صغيرة من الأعداء فاجأها فى كهف ، ثم ارتضى الرحيل عن شيزر مقابل جواد أصيل قُدّم له هدية(١٦).

وفى الربيع التالى تورط فى النزاع الذى نشأ بين وليم جوردون وبرتراند التولوزى على ملكية الأراضى الفرنجية فى لبنان . وقوبلت موافقته على أن يصبح وليم جوردن

---

(١٤) Matthew of Edessa, CXCIX, pp. 266-7; Ibn al-Athir, pp. 265-7; Kemal ad-Din, p. 595; Ibn al- Fourat, quoted in Cahen, *op. cit.* p. 250 n. 34.

(١٥) Matthew of Edessa, CXCIV, pp. 267-8.

(١٦) Usama, ed. Hitti, pp 99-100.

من أتباعه بتدخل سريع من الملك بلدوين باعتباره سيدا أعلى لجميع فرنج الشرق . وعندما استدعاه الملك للحضور مع غيره من قادة الفرنج لقبول تحكيمه في المعسكر المقام أمام طرابلس ، لم يجرؤ على الرفض . وفي حضور الأمراء المجتمعين قام الملك بلدوين بتقسيم الميراث التولوزى ، ليس هذا وحسب ، بل أجبر تنكريد وبلدوين وجوسلين على التصالح والتعاون ضد الكفرة . وقد قبل تنكريد حق الملك في التحكيم، ومن ثمّ اعترف بسيادته ، وإزاء ذلك سُمح له بأن يحتفظ بوليم جوردون كواحد من أتباعه ، وأعيد له لقب أمير الجليل وملكية المعبد في القدس ، وحصل على وعد باستئناف ادارة الإقطاعية في حالة عودة بوهمند إلى انطاكية. وقلّت تلك المزايا بعدما قتل وليم جوردون وانتقلت أراضيه إلى برتراند الذى اعترف بالملك بلدوين وحده سيداً له. على أن تنكريد تشجع على مهاجمة جبلة ، وهي آخر ممتلكات بنى عمار ، فاستولى عليها في شهر يولية ١١٠٩م ، وبذا باتت حدوده تتاخم حدود برتراند جنوبا(١٧).

وقد كان أمرا ضروريا أن تتم هذه المصالحة بين أمراء الفرنج تحت الملك بلدوين . ففي أوائل ١١١٠م أعد مودود ، أتابج الموصل ، حملة ضد الفرنج تنفيذا لتعليمات سيده السلطان ، وفي ابريل توجه إلى الرها يساعده ايلغازى الأرتقي مع جنوده التركمان ، وسقمان القطبي أمير ميافارقين ، الذى كان يشتهر بأنه شاه أرمينيا. وبوصول أنباء تلك الحشود الإسلامية ، قام بلدوين (أوف لو بورج) بإيفاد جوسلين إلى القدس متوسلا إلى الملك بلدوين ارسال تعزيزات عاجلة ، ومعربا عن ريبته في تشجيع تنكريد للأعداء. وأغار أصدقاء تنكريد ، من جانبهم ، بهجوم مماثل على بلدوين ، وان كان أقل خطورة. وكان الملك بلدوين مشغولا في حصار بيروت ، ولم يكن ليتحرك إلا بعد الاستيلاء عليها. غير انه سارع بالانطلاق شمالا متجنبا انطاكية ، اقتصادا في الوقت من ناحية ولأنه لايثق في تنكريد من ناحية اخرى ، ووصل أمام الرها في نهاية شهر يونية. وبينما كان يقترب من المدينة لحقت به القوات الأرمينية التي أرسلها كواسيل وأمير البيرة وأبو الغريب ، زعيم البهلوان . وكان مودود يحاصر الرها منذ شهرين . وعندما لاحت في الأفق رايات فرسان القدس وبريق دروعهم تعكسه أشعة الشمس ، تراجع إلى حران وفي مأموله أن ينصب لهم كمينا ويهاجمهم هجوما خاطفا(١٨).

---

(١٧) Albert of Aix, xI, 3-13, pp. 664-8, 685-6; Ibn al-Athir, p.274.

(١٨) -Albert of Aix, xI, 16-18, pp. 670-2, Matthew of Edessa, cciv, pp. 270-3;Ibn al Qalanisi,p.103

وأطل بلدوين أوف لى بورج من قلعته منبسط الأسارير لمقابلة ابـن عمـه وسـيده . ثم انه سرعان ما اشتكى تنكريد . فأرسل الملك مبعوثا إلى انطاكية يستدعى تنكريد فى قواته لينضم إلى الائتلاف المسيحى ولكى يرد على الاتهامات . وتردد تنكريد . على أن مجلسه الكبير أصر على الامتثال للاستدعاء . وفور وصوله وجّه اتهامـات مضادة إلى بلدوين اوف لى بورج قائلا إن مقاطعة أسروين التى تقع فيها الرها كانت دائما تعتمد على انطاكية طوال تاريخها، وانه سيدها الشرعى . فرد عليه الملك بلدوين في صرامة بأنه بصفته الملك المختار، ولكونه رئيسا للعالم المسيحى الشرقى ، يطلب من تنكريد أن يتصالح مع بلدوين (اوف لو بورج) ، وفـى حالـة رفـض تنكريـد واستمراره فـى كيـد المكائد مع الأتراك، فليس هو بأمير مسيحي وسيلقى حربا لا هوادة فيـها باعتباره عـدوا لهم . وأيّد الفرسان المجتمعون ما قاله الملك ، فاضطر تنكريد إلى التصالح(١٩).

١١١٠ م : إخلاء الريف الرهاوى

وانطلق الجيش الفرنجى المتحد يطارد مودود الذى واصل تقهقره ليستدرج الفرنـج إلى أرض معادية منتويا الالتفـاف حولـه بـانحراف مفـاجئ إلى الشـمال . وأنـذر الملـك بلدوين فى الوقت المناسب ، فتوقف لمحاصرة قلعة شناو الواقعة إلى الشـمال الغربـى مـن حران . وهناك تبعثر الإئتلاف . إذ سمع تنكريد شائعات تقول إن رضـوان الحلبـى يعـد العدة للهجوم على أنطاكية ، وجاء رسل مـن فلسـطين يخبرون الملـك بتحـرك مصـرى يهدد القدس . فتقرر التخلـى عـن حملـة الجزيـرة ، وعـاد تنكريـد إلى سميسـاط ، وقـرر بلدوين (أوف لو بورج) - بناء على نصيحة الملك - عدم جدوى محاولة حماية الكونتية شرقى الفرات ، وتساقطت عبراته وهو يشاهد ما أحدثه مودود من خراب أثناء محـاصرة الرها ، وخطط عدم الاحتفاظ بحاميات إلا فى القلعتين الكبـيرتين أورفـا وسـروج وفـى بعض الحصون القليلية الأصغر ، والتوقف عنـد أيـة محاولـة لحراسـة الحـدود بعـد الآن . ونصح السكان المسيحيين بالارتحال إلى الأراضى الأكثر أمانا على الضفـة اليمنـى للنهـر الكبير ، فأخذوا بنصيحته . إذ جمع مسيحيو الريف ، وأغلبهم من الأرمـن ، متعلقـاتهم وتحركوا تحركا بطيئا باتجاه الغرب. على أن جواسيس مـودود أخـبروه بمـا كـان يجـرى تدبيره ، فأسرع فى آثارهم . وعندما وصل إلى نهر الفرات كان القادة الفرنج قد عبروا

---

(١٩) Albert of Aix, xi, 20-4, pp.672-4; Fulcher of Charters, ii, xliii, 1-6, pp. 532-41; Ibn al-Qalanisi, p.102

النهر فعلا ، ولكن القاربين الكبيرين كانا محملين فوق الطاقة بالجنود ، فغرقا قبل أن يعبر المدنيون . فانقض عليهم وهم على حالهم دون سلاح ، ولم يفلت من القتل رجل أو امرأة أو طفل إلا فيما ندر . وكانت هذه الإبادة الرهيبة للفلاحين الأرمن بمثابة ضربة لم تبرأ منها المقاطعة تماما قط . فبرغم انهم لا يعوّل عليهم سياسيا ، إلا انهم كانوا أثرياء ويقومون بالأعمال الشاقة . وربما يستمر أمراء الفرنج في حكم الرها نفسها لسنوات قليلة تالية ، ومع ذلك ثبت أن مصير السيادة الفرنجية عبر الفرات هو الفشل المحتوم ، ومن ثمّ دمار رعاياهم التعساء من المسيحيين الوطنيين الخاضعين لهم[٢٠].

وفى سَورة الغضب عاد بلدوين (اوف لو بورج) على رأس كتيبة عبر النهر للانتقام من مودود . لكن رجاله كانوا فاقدى الحيلة أمام عدوهم الذى يفوقهم عددا ، وهم هالكون لا محالة ، لولا أن اسرع الملك بلدوين لنجدتهم ومعه تنكريد الذى جاء على مضض[٢١].

وعاد الملك بلدوين جنوبا . ورجع تنكريد لمعاقبة رضوان على خيانته بالإغارة على أراضيه . فهاجم حصن النقرة الواقع عبر الحدود مباشرة واستولى عليه ، ثم اتجه إلى مدينة الأثارب التى تبعد عن حلب بنحو عشرين ميلا . ولم يخف أيٌّ من زملاء رضوان المسلمين لنجدته ، فحاول أن يعرض على تنكريد ثمنا لرحيله ، لكن الثمن كان باهظا للغاية . وتوقفت المفاوضات بفرار خازن رضوان إلى معسكر تنكريد ومعه جزء من ثروة سيده . وفى نهاية الأمر سحقت آلات تنكريد أسوار مدينة الأثارب ، فاستسلمت المدينة فى شهر اكتوبر ١١١٠م . وكان ثمن السلام الذى تكلفه رضوان هو مدينة الأثارب ، وزردنا الواقعة قليلا إلى الجنوب، وعشرين ألف دينار ، وعشرة من أجود الخيول العربية الأصيلة[٢٢] ثم سار تنكريد لمهاجمة شيزر وحماه.واشترى أمير شيزر من بني منقذ فترة هدنة لشهور قليلة بأربعة آلاف دينار وجواد آخر . على أنه عندما انتهت الهدنة فى ربيع ١١١١م عاد تنكريد وبنى حصنا قويا على تل يجاور فى ابن معشر يستطيع منه مراقبة كل تحرك من المدينة أو إليها. ثم استولى على حصن بسكرائيل الواقع على الطريق من شيزر إلى اللاذقية . ودفع أمير حمص ألفي دينار كي يُترك فى

(٢٠) Albert of Aix, *loc. cit.*; William of Tyre, XI, 7, p. 464; Matthew of Edessa, cclv, p. 273; Ibn al-Qalanisi, p. 103-4.

(٢١) Albert of Aix, XI, 25, p. 675

(٢٢) Matthew of Edessa, cciv, p. 274; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 243;

سلام(٢٣).

وكان هناك عاملان اثنان أسهما فى نجاح تنكريد . الأول أن البيزنطيين كانوا غير مهيأين لهجوم مضاد . وقد تسبب موت قلج أرسلان سنة ١١٠٧م فى أن بات الموقف فى الأناضول مائعا، إذ أُسير ابنه الأكبر ملكشاه فى موقعة الخابور ، وهو الآن فى قبضة السلطان محمد . واستولت أرملته على ملطية والمقاطعات الشرقية لابنها الأصغر طغرل. وكان ابنه الآخر مسعود يعيش فى بلاط الدانشمند . بينما استولى ابن رابع ، وهو عربى ، على قونية فيما يبدو . وكان السلطان محمد يخشى أن يستولى مسعود أو طغرل على الميراث كله ، فأطلق سراح ملكشاه الذى وطّد نفسه فى قونية واتخذ لنفسه لقب سلطان فى حدود للعرفان(٢٤) ولم يكن انهيار الحكومة المركزية السلجوقية مفيدا تماما لبيزنطة ، إذ راح السلاجقة يغيرون إغارات عديدة لامسؤولة على الأراضى البيزنطية؛ غير أن الامبراطور الكسيوس تمكن من احتلال مختلف القلاع الحدودية، ومع ذلك كان عازفا عن المخاطرة بحملة على كيليكيا أو سوريا(٢٥) وكان لسلبيته تلك المفروضة عليه أن عادت بالفائدة لا على تنكريد فقط ، وانما ايضا على كواسيل الارمينى الذى أقدم على تقوية امارته فى جبال طوروس الشرقية ، وربما بموافقة الامبراطور ، ومن ثم أفلح فى صد الهجمات التركية. وأما الأمراء الروبيون فى طوروس، وهم الأكثر تعرضا للعدوان السلجوقى ، فلم يتمكنوا من زيادة قوتهم ، ومنعهم تنكريد من التوسع فى كيليكيا ، وهكذا غدا كواسيل سيدا بلا غريم فى العالم الأرميني(٢٦).

انتشار الحشاشين

ولقد ظهرت طائفة جديدة ومدمرة فى العالم الاسلامى أضافت مزيدا من الفائدة لتنكريد وفواجع أكثر لأية قوة اسلامية مضادة للصليبيين . فخلال العقود الأخيرة من القرن الحادى عشر أسس حسن الصباح فى فارس هيئة دينية ، عرفت فيما بعد بطائفة الحشاشين ، ونظمها تنظيما جيدا . وكان حسن قد تحول إلى المذهب الاسماعيلى الذي

---

(٢٣) Albert of Aix, XI, 43-6, pp. 684-6; Usama, ed. Hitti, pp. 95-6;.

(٢٤) See Cahen, *op. cit.* pp. 253-4.Michael the Syrian, III, pp. 194-5; Ibn al-Qalanisi, p. 81 (a vague story)

(٢٥) Anna Comnena, XIV, i, v-vi, pp. 141-6, 166-72. See Chalandon, *op.cit.* pp.254-6.

(٢٦) عن كواسيل انظر: Matthew of Edessa, clxxxvii, pp 258-9; ccx, pp.281-2.

يرعاه الخلفاء الفاطميون ، وغدا خبيرا بالباطنية وخباياها الخفية ، وطور تعاليمه على نفس اللاهوت الصوفى المجازى الاسماعيلى ، لكنها تعاليم غامضة ، على أن انجازه البارز يعتبر عمليا بصورة اكبر ، وهو انشاء نظام تتمثل وحدته فى الطاعة العمياء لأوامره باعتباره السيد الأعظم ، واستخدم هذا النظام فى اغراض سياسية موجهة ضد الخلفاء العباسيين فى بغداد الذين تحدى شرعيتهم ، وبصورة أخص ضد أعوانهم من الأسياد السلاجقة الذين ساعدت قوتهم على بقاء الخلافة العباسية . وكان سلاحه السياسى الرئيسى هو الاغتيال[٢٧] Assassination . وكانت الطوائف المبتدعة فى الاسلام دائما ما تمارس الاغتيال فى سبيل العقيدة ، على أن حسن الصباح افلح فى الارتفاع به إلى مستوى عاليا من الكفاءة . إذ أن ما كان أتباعه عليه من تكريس لا مساءلة فيه واستعدادهم للارتحال إلى اماكن قاصية والمخاطرة بأرواحهم تنفيذا لأوامره ، قد مكنه من أن يضرب أى خصم له فى أى مكان فى العالم الاسلامى . وفى سنة ١٠٩٠م اتخذ حسن مقره فى القلعة المنيعة (ألموت) ، أى عش النسر ، فى خراسان . وفى سنة ١٠٩٢م قام بأول اغتيال قتل فيه الوزير الأكبر نظام الملك الذى كان على جانب من الاقتدار بحيث يعد بمثابة الدعامة الرئيسية للأسرة الحاكمة السلجوقية فى إيران . وتتردد أسطورة متأخرة تضيف إلى هول هذا العمل ، تقول إن نظام وحسن ، ومعهما الشاعر عمر الخيام ، كانوا من يتلقون العلم معا من أستاذهم العالم موفق النيسابورى . وأقسموا جميعا على أن يساعد كل منهم زميليه مدى الحياة . وكان سلاطين السلاجقة مدركين تماما للخطر الذى استحدثه الحشاشون ، لكن محاولاتهم للقضاء على قلعة عش النسر باءت كلها بالفشل. وبعد منعطف القرن مباشرة ، سرعان ما أنشئ مقر للحشاشين فى سوريا احتضنه رضوان الحلبى الذى كان دائما على علاقة سيئة ببنى عمومته السلاجقة ، وربما كان عميق التأثر بمذهب الحشاشين ، فضلا عما كان لزعيمهم أبى طاهر ، الصائغ الفارسى ، من نفوذ كبير على رضوان . وكانت كراهية الحشاشين للسنيين تجاوز كراهيتهم للمسيحيين وربما كان استعداد رضوان للتعاون مع تنكريد يعزى بدرجة كبيرة إلى تعاطفه مع معتقدهم . وكان اغتيال جناح الدولة أمير حمص عام ١١٠٣م أول أنجاز للحشاشين فى سوريا، وبعد ثلاث سنوات اغتالوا خلف ابن ملاعب أمير أمافيا، على أنه لم يستفد من موته سوى فرنج انطاكية . وعلى الرغم

---

(٢٧) (المترجم) كلمة assassinate ، ومشتقاتها فى سائر اللغات الاوربية ، بمعنى الاغتيال ، مأخوذة من الكلمة العربية "حشاشين" نظرا لما كان أتباع حسن الصباح يقدمون عليه من جسارة فائقة فى زمن الحملات الصليبية

من أن الحشاشين لم يكشفوا عن سياستهم ، حتى ذلك الوقت ، إلاّ باغتيالات متفرقة، فقد كانوا بمثابة عنصر من عناصر السياسة الاسلامية ، دفع حتى المسيحيين إلى أن يحترموه[٢٨].

١١١١م : ائتلاف إسلامي جديد

وفي سنة ١١١١م شرع مودود ، حاكم الموصل ، في اعداد العدة مرة اخرى لتسيير جيش لمهاجمة الفرنج ، تنفيذا لأوامر سيده السلطان . وفي أوائل تلك السنة كان أهالي حلب حانقين على حاكمهم لما كان عليه من خروج على الدين وخضوع لتنكريد ، فأرسلوا وفدا إلى بلاط الخليفة في بغداد للحث على اعلان الجهاد الذى يخلصهم من تهديد الفرنج . على أن الوفد لم يجد سوى وعود خاوية، فاستثار أهالي بغداد فحدثت أعمال شغب أمام مسجد القصر. وفي تلك الآونة استقبل الخليفة سفارة من الامبراطور جاءته من القسطنطينية ، وكانت مثل هذه السفارات شيئا عاديا ، إذ كانت لكل من القسطنطينية وبغداد مصالح مشتركة في معاداة الأسرة الحاكمة السلجوقية . بيد أنه يبدو أن الامبراطور الكسيوس اعطى تعليماته لمبعوثيه هذه المرة لمناقشة السلطات الاسلامية في امكانية القيام بعمل مشترك ضد تنكريد[٢٩] ؛ وقد أسهمت تلك المفاوضات في أن أعلن المشاغبون أن الخليفة المسلم أسوأ من الامبراطور المسيحي . واستشعر الخليفة المستظهر الخطر من هذا الحماس ، لاسيما وان الاضطرابات أعاقته عن استقبال زوجته على النحو الذى يليق بها لدى عودتها من زيارة ابيها السلطان محمد في اصبهان[٣٠] ، فما كان من الخليفة الا أن أرسل إلى حميه الذى اصدر من فوره تعليماته لمودود بإنشاء تحالف جديد تحت قيادة ابنه الصغير مسعود . ووضع مودود في قائمة التحالف المساعدة التى سيقدمها سقمان صاحب ميافارقين ، واياز بن

---

(٢٨) عن الحشاشين ، انظر von Hammaer في *Histoire de l'Order des Assassins;* ، وانظر كذلك مقالي "الحشاشين Assassins" و "الاسماعيلية Ismaili" في دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam* Brown; *Literary History of Persia,* vol. II, pp. 193 ff.

(٢٩) Ibn al-Qalanisi, *op. cit.* pp. 112-13، يقول ابن القلانسي إن الامبراطور (الذى يطلق عليه لقب المتملك ، بمعنى "المغتصب 'userper'") أرسل يحذر المسلمين من مخططات الفرنج ، ويقول ضمنا إن السفارة زارت دمشق . وربما لم يقترح الكسيوس سوى عمل موجه ضد تنكريد ، إذ لم يجد تأييدا من أيّ من زعماء الفرنج في محاولته حمل تنكريد على تنفيذ معاهدة ديفول (انظر Ibn al-Athir, pp. 279-80)، يورد ابن الأثير وصول السفارة الى بغداد نقلا عن ابن حمدون.Ibn Hamdun

(٣٠) Ibn al-Athir, *loc. cit.*.

ايلغازى ، والأميرين الكرديين أحمديل صاحب مراغة وأبو الهيجا صاحب أربل ، وبعض نبلاء الفرس بزعامة برسق بن برسق صاحب همدان . وفى يولية أصبح الحلفاء على اهبة الاستعداد ، فانطلقوا فى سرعة خاطفة عبر الجزيرة لمحاصرة قلعة جوسلين فى تل بشير . ولدى انتشار النبأ أرسل اليهم (سلطان) أمير شيزر يستحثهم على الاسراع لنجدته . ورأى رضوان أن من السياسة أن يرسل اليهم للاسراع اليه ، إذ لا يستطيع الصمود طويلا ضد تنكريد . وتأثر مودود بما طرأ على وجدان رضوان من تغيير ، وعملا باقتراح أحمديل - الذى كان على علاقة سرية بجوسلين - رفع مودود الحصار عن تل بشير وسار بالجيش قاصدا حلب . غير أن رسالة رضوان كانت تخلو من الاخلاص ، فما أن اقترب الحلفاء المسلمون حتى اغلق رضوان البوابات دونهم واتخذ جانب الحيطة باعتقال الكثير من وجهاء المواطنين والقى بهم فى السجن رهائن منعا لأعمال الشغب . فأسقط فى يد مودود . فما كان منه الاّ أن خرّب البلاد حول حلب ثم سار جنوبا إلى شيزر حيث انضم اليه طغتكين الدمشقى الذى جاءه طلبا لمساعدته على استعادة طرابلس(٣١).

أما تنكريد ، الذى كان معسكرا أمام شيزر ، فقد انسحب إلى افاميا وارسل إلى الملك بلدوين مستنجدا ، فاستجاب الملك واستنفر جميع فرسان الفرنج فى الشرق . فجاء معه البطريق جبلين وتابعاه الرئيسيان فى المملكة وهما إيوستاس جارنييه حاكم صيدا وولتر حاكم الجليل ، وصحبهم برتراند حاكم طرابلس فى الطريق . ومن الشمال جاء بلدوين من الرها مصطحبا تابعيه الكبيرين جوسلين حاكم تل بشير وباجان حاكم سروج . واستدعى تنكريد تابعيه من النواحى المحيطة بالإمارة الانطاكية ، فأحضر جوى - الملقب بالجدى - من طرسوس وريتشارد حاكم مرعش ، وجوى - الملقب خشب الزان - أمير حارم ، وروبرت حاكم السويدية ، ولونز حاكم تل مناس ، ومارتان حاكم اللاذقية ، وبونابلوس حاكم سرمد، وروجر حاكم هاب ، وانجراند حاكم افامية، وأرسل كل من كواسيل والروبيون كتيبة أرمينية ، حتى اوشين حاكم لامبرون أرسل القليل من الرجال ربما كان دورهم يقتصر على التجسس نيابة عن الامبراطور . وبذا خلا الشمال من الجنود ، فكانت فرصة سانحة لطغرل ارسلان صاحب ملطية، فقام على الفور بانتزاع البستان من الحامية الفرنجية الصغيرة واستولى على الجوار المحيط

---

(٣١) Ibn al-Qalanisi, pp. 114-15; Kemal ad-Din, pp. 600-1; Ibn al-Athir, p 282, Albert of Aix, xi, 38, p 681

بها، ثم قام بغارة داخل كيليكيا[٣٢].

١١١١م : فشل مودود

وإزاء هذا التركيز الفرنجي الذي بلغ قوامه ستة عشر ألف رجل ، انسحب مودود بحذر داخل اسوار شيزر رافضا استدراجه في معركة تم الإعداد لها بعناية ، لاسيما وان الامور لم تكن على مايرام في جيشه . فأما طغتكين فقد رفض المساعدة ما لم ينتقل مودود باتجاه الجنوب ، وفي ذلك مجازفة بالغة من الناحية الاستراتيجية ، وأما برسق الكردي فكان مريضا ورغب في العودة إلى بلاده ، وأما سقمان فقد مات فجأة وانسحب جنوده شمالا مع جثته ، وأما أحمديل فسرعان ما تخلى كي يحاول انتزاع شيئا من الميراث ، وبقي اياز الأرتقي ، غير أن اباه ايلغازي هاجم الركب المصاحب لنعش سقمان في محاولة لم يكتب لها النجاح للاستيلاء على كنزه . ومع تقلص قوات مودود شيئا فشيئا ، لم يتمكن من المبادرة بالهجوم ، فضلا عن انه كان عازفا عن تمضية الشتاء وهو على هذا البعد البعيد من قاعدته ، فعاد إلى الموصل في الخريف[٣٣].

وأظهر الفشل عدم استطاعة المسلمين رد الهجوم على الفرنج طالما بقي الفرنج متحدين ، وما هذه الوحدة إلا ما أجبرهم عليه الملك بلدوين ، وبذا استطاع أن ينقذ ما أرسى الفرنج دعائمة في تلك المرحلة . وفي الصيف التالي أغار مودود على أراضي الرها ، وكان لغارته ثمارها لكنها لم تكن غارة حاسمة ، هذا في الوقت الذي أقدم فيه طغتكين على عقد تحالف مهلهل مع رضوان ، متكرما عليه نوعا ما، إذ حاول رضوان حث أصدقائه الحشاشين على قتله[٣٤] على أن الخطر الاسلامي تبدد في تلك المرحلة. وكان حتما أن يعاود المسيحيون الشجار فيما بينهم مرة اخرى . فأولا ، قرر الفرنج مهاجمة كواسيل الذي أدت قوته الصاعدة إلى اثارة مشاعر الغيرة لدى بلدوين الأورفي وتنكريد ، فأغار تنكريد على أراضيه واستولى على رعبان وراح

---

(٣٢) Albert of Aix, xi, 39-40, pp.682-3، ويورد ألبرت قائمة الحلفاء؛ Matthew of Edessa,ccvi,p.275، ويذكر ميخائيل السوري الاستيلاء على البستان، Michael the Syrian, iii, p. 205.

(٣٣) Fulcher of Charters, ii, xlv, 1-9, pp. 549-57; Albert of Aix, xi, 41-3, pp. 683-4.

(٣٤) Kemal ad-Din, pp.601-2; Albert of Aix (xi, 43, p. 684)، ويذكر ألبرت الاستيلاء على عزاز في ذلك الوقت تقريبا، غير ان عزاز كانت ما تزال في حوزة المسلمين عام ١١١٨م (انظر ادناه ص ١٦٤).

بعد العدة لمحاصرة كيسوم قبل احلال السلام بينهما[٣٥] ؛ وبعد ذلك تحول بلدوين كونت الرها فجأة ضد ابن عمته جوسلين . فقد حدث فى صيف ١١١٢م ، عندما كان مودود يهاجم الرها ، أن اكتشف جوسلين مؤامرة ارمينية تستهدف تسليم المدينة للمسلمين ، فأخطر بلدوين وبذا انقذه واشترك معه فى معاقبة الخونة . غير أن بلدوين سمع فى الشتاء التالى شائعات تقول أن جوسلين تحدث عن خلعه ليحل محله ، إذ كانت اقطاعية تل بشير إقطاعية غنية بينما تعانى أراضى الرها بقسوة من الغارات واضطرار السكان إلى الهجرة . وكان الأرمن يحبون جوسلين بينما يحملون الكراهية لبلدوين الآن . ولم يكن فى تصرفات جوسلين ما يؤكد ريبة بلدوين التى ربما كانت قائمة على اساس الغيرة . وفى نهاية العام استدعى بلدوين جوسلين بدعوى المرض وضرورة مناقشة مسألة استخلافه . وعندما وصل جوسلين ، دون أن تخامره أدنى ريبة ، فوجئ باتهامه بالتقاعس عن امداد الرها بما يكفى من الأطعمة من أراضيه ، والقى به فى غيابة السجن. ولم يطلق سراحه الا بعد أن وعد بالتنازل عن الاقطاعية . وفى بداية العام التالى تقريبا رحل جنوبا إلى القدس حيث أقطعه الملك بلدوين إمارة الجليل[٣٦].

١١١٢م : موت تنكريد

شهد شمال سوريا تغيرات أخرى كثيرة فى سنة ١١٢١م . إذ مات كواسيل يوم ٢١ أكتوبر ، فسارعت ارملته إلى اغداق تنكريد بالهدايا كى تضمن مساعدته فى استخلاف ابنها بالتبنى واسيل دغا، فأرسلت ضمن ما ارسلت تاجها المرصّع بالجواهر المخصص للأميرة سيشيليا ، غير أن تنكريد كان يشتهى الميراث لنفسه[٣٧] . ومن بين امراء الفرنج ، كان ريتشارد (اوف برنسيبات) قد مات فى وقت ما من الربيع[٣٨]، ومات برتراند كونت طرابلس فى يناير أو فبراير ، ولم يكن ابن برتراند الصغير وولى العهد (بونز) يشارك أباه حبه للبيزنطيين ولا كراهته لتنكريد ، وربما كان بجلسه يعتقد

---

(٣٥) Matthew of Edessa, ccix, pp 280-1

(٣٦) William of Tyre, xi, 22, pp.489-92; Matthew of Edessa, ccviii, p 280)، ويُلمح المؤرخ متيو الأُرروفي الى وجود مؤامرة ضد الفرنج أثناء حصار مودود؛ Chron. Anon. Syr., p.86, Ibn al-Qalanisi, op. cit. p 133

(٣٧) Matthew of Edessa, ccx, pp 281-2

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 127، يقول إن نبأ وفاة برتراند وصل دمشق يوم ٣ فبراير.

أن حسن نوايا تنكريد ضرورية كي يوطد الكونت الشاب مكانته ، ومن ثم جرت مصالحة بين بلاطي طرابلس وانطاكية مما ضخّم من نفوذ تنكريد[٣٩] . وتأكدت سيادة تنكريد ، إذ بات جوسلين مخزيا ، وهذا كونت طرابلس صديقه، ولقى أمير الأرمن العظيم حتفه، فراح يعد العدة لحملة يقهر بها كواسيل ويضم اراضيه ، لولا أن سقط مريضا فجأة . وترددت الهمسات حتما عن السم ، على أن الراجح هو مرض التيفود . وإذ أيقن من عدم شفائه من مرضه ، سمّى ابن اخيه روجر (اوف ساليرنو) ، وهو ابن روجر (اوف برنسبات)، وريثا له . على أنه أجبر روجر على أن يقسم على تسليم السلطة لإبن بوهمند الصغير لو جاء الصبي إلى الشرق ، وفي ذات الوقت طلب من بونز أن يتزوج من أرملته الفرنسية التي لم يبن بها - سيشيليا الفرنسية . ومات يوم ٢١ ديسمبر عام ١١١٢م ولم يجاوز السادسة والثلاثين[٤٠] .

وليست شخصية تنكريد ساطعة بوضوح بين طيات ضباب التاريخ . كان بالغ النشاط والقدرة ، وكان دبلوماسيا حصيفا ، وجنديا بارزا ، وكان له حكمة تتزايد كلما تقدم به العمر . لكنه كان يفتقر إلى السحر الذى كان يحيط بخاله بوهمند . ولا يبدو أنه كان محبوبا بين رجاله ، بخلاف كاتب سيرته المتملق - رادولف (اوف كاين). وكان رجلا صعبا ، دائم الاهتمام بنفسه ، متجردا من المبادئ الخلقية . وكان منضبطا مع بوهمند ، ومع ذلك تصرف حياله بالغدر ، كما كان غادرا مع رفيقه بلدوين كونت الرها . ولولا تدخل الملك بلدوين ، الذى لا يقل عنه عنادا وإنما يفوقه في سعة الأفق ، لتسببت طموحاته في أن يمضى إلى غاية المدى في تحطيم فرنج الشرق، إذ كان يتطلع إلى ترسيخ امارة انطاكية وتضخيمها ، وقد اصاب في ذلك نجاحا بالغا، ولولاه لتداعى ما أسسه بوهمند . وما تاريخ أمراء انطاكية الطويل إلا ثمرة نشاطه . ولم يكن من بين جميع أمراء الحملة الصليبية الاولى سوى الملك بلدوين ، وهو المغامر المفلس كشأنه ، الذى تركت حياته أثرها هناك . ومع ذلك ، وبينما كان محمولا ليدفن في رواق كتدرائية القديس بطرس ، لم يجد المؤرخون ما يؤرخونه من مشاهد الحزن عليه سوى القليل . وكان المؤرخ الوحيد الذى كتب عنه بحرارة وتفجع لموته هو ماثيو الأورفي الأرمينى Matthew of Edessa[٤١] .

(٣٩) يبدو ان (بونز) قد التحق لبعض الوقت بعائلة تنكريد ، وتلقى منه لقب فروسيته.

(٤٠) Fulcher of Charters, ii, xlvii, i, pp 562-3 (12 December); Albert of Aix, xii, 8, p.693 (about Advent);

(٤١) Matthew of Edessa, loc. cit.، وصفه بأنه "أعظم المخلصين أجمعين".

وتحقق الوفاق بين الفرنج بتـولى روجـر امـارة انطاكيـة - وقـد اتخـذ لنفسـه لقـب الإمارة على الرغم من اعترافه بحق ابن بوهمند فـى المطالبـة بهـا. وتـزوج مـن سيشـيليا اخت بلدوين كونت الرها[٤٢] وبرغم ما اشتهر به من انه زوج غير مخلص ، كان دائمـا على علاقة طيبة بأخي زوجته . وأصبحت اخته ، ماريا، الزوجة الثانية لجوسـلين (اوف كورتناي)[٤٣] وتزوج بونز امير طرابس من أرملة تنكريد ، سيشـيليا الفرنسـية ، نـزولا على رغبة تنكريد ، وغدا صديقا دائما لروجر[٤٤]، ووحد بـين الامـراء الثلاثـة اتفـاقهم على اعتبار الملك بلدوين سيدهم الأعلى . ونتيجة لهذا التضامن النادر الحدوث ، وتجـدد النزاعات فيما بين المسلمين في الوقت ذاته ، ارتفعت السيادة الفرنجية فـى شمـال سـوريا إلى اقصى ذروتها.

١١١٣م : موت مردود ورضوان

وشرع الملك بلدوين عام ١١١٣م في حملة ضد طغتكن صاحب دمشق الذى أفلح اخيرا في الحصول على مساعدة مـودود وأيـاز الأرتقـى . واستدرج الخلفـاء المسـلمون الملك بلدوين إلى الأراضي الدمشقية حتى جسر الصنبرة أعلى نهر الأردن . ونسى الملك بلدوين هذه المرة ما اعتاد عليه من توخـى جـانب الحـذر ، فلحقته هزيمـة منكـرة[٤٥] ، فاستنجد بالأميرين بونز وروجـر لمسـاعدته . ولـولا وصولهمـا مـع جميـع فرسـانهما لمـا استطاع الملك أن ينجو بنفسه . وتقدم المسلمون حتى وصلوا إلى حوار طبرية ، لكنهم لم يغامروا بمواجهة الجيش الفرنجـى كلـه . وبعـد اسـابيع قليلـة مـن الـتردد عـاد مـودود

---

(٤٢) William of Tyre, xi, 9, p. 523، يطلق على روجر زوج اخت بلدوين ، وكذلك يفعـل Walter the Chancellor, ii, 16, p. 131. ويرد اسـم سيشـيليا فـى ميثـاق عـام ١١٢٦م (Rhrich, *Regesta, Additamenta*, p. 9)، ويعطى Orderic Vitalis, x,23,iv,p.158 لروجر زوجة تركيـة اسمها ميلاز، وهى ابنة امير الدانشمند التى - بناء على روايته - ضمنت اطلاق سراح بوهمند . انظـر اعلاه.

(٤٣) لم تكن ماريـا لتعـرف لـولا شجـار نشـأ لاحقـا بسـبب بائنتـها. انظـر ادنـاه الصفحتـين ١٦١ و١٨١ . ويرد فى تاريخ مجهـول *Chron. Anon. Syr.* أن جوسلين تزوجهاعـام ١١٢١م (ص ٨٩) ، غير انه من الواضح ان الزواج تم ترتيبه فى حياة روجر. واعتبرت ابنتهما (ستيفانى) عجوزا فى عـام ١١٦١م - انظر ادناه ص ٣٦٢ ، الملحوظة ١

(٤٤) استنادا الى رواية Albert of Aix (xii, 19, p. 701) ، لم يتم الزواج حتـى عـام ١١١٥م . علـى انـه يبدو أن ابن بونز (ريموند الثانى) كان يبلغ من العمر ٢٢ سنة عام ١١٣٦م.

(٤٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 132-6

وطغتكين إلى دمشق . وهناك ، وفى آخر يوم من شـهر سـبتمبر ، وبينمـا كـان مـودود يخطو إلى داخل المسجد الكبير مع مضيفه، انقض عليه أحد الحشاشين وطعنه فى مقتل . وفى الحال قتل طغتكين القاتل ليبرئ نفسـه مـن الجريمة. ورغـم أن الـرأى العـام اعتـبره مذنبـا، الا انـه التمـس لـه العـذر تأسيسـا علـى أن مـودود كـانت لـه مخططاتـه حيـال دمشق[٤٦].

وتحرر الفرنج بموت مودود من عدو مرعب . وبعد مرور شهرين ، مـات رضـوان صاحب حلب فى ١٠ يناير ١١١٣م[٤٧] ، وكانت علاقاته الباردة مـع رفاقـه المسـلمين ذات عون كبير فى توطيد الفرنج فى سوريا ، على أن الإسـلام لم يستفد كثـيرا بغيابـة عن الساحة ، إذ خلفه ابنه ألب ارسلان الذى كان صبيا فى السادسة عشرة من عمره ، وكان ضعيفا فاسدا به قسوة وخاضعا خضوعا تاما لخصيّه المفضل لولو. أما الحشاشون، الذين كانوا فى حماية رضوان قبل موته ، فقد عاملهم الحكم الجديد بجفـاء ، بنـاء علـى الأوامر الصريحة من السلطان محمد . الذى أرسل مبعوثه ابن بديع الفارسى وأجـبر ألـب ارسلان على اصدار أمر بقتل أبى طاهر وغيره من قادة الطائفة . وانطلق سـكان حلـب النافرين من الحشاشين منذ وقت طويل يقتلـون مـن تنالـه ايديهـم . وجـاهدت الطائفـة تدافع عن نفسها ، فحاولت الاستيلاء علـى القلعـة بينمـا كـان رضـوان يحتضـر، لكـن المحاولة باءت بالفشل[٤٨] . ثم حاول افراد الطائفة مباغتـة قلعـة شـيزر أثنـاء أن كـانت أسرة الأمير تشاهد احتفال المسيحيين بعيد الفصح ، غير أن أهل المدينـة شـاركو الأمـير فى مقاومتهم ، وكان نجاحهم الوحيد هو الاستيلاء على حصن قلّية القريب مـن بـالس حيث يقترب طريق حلب بغداد من الفرات ، وبخلاف ذلك تحولوا إلى السريّة أو لاذوا بحماية الفرنج ، غير انهم كانوا لا يزالون اقوياء وبـدأوا يحولـون انتبـاههم إلى لبنـان[٤٩] ولم يدم عهد الب ارسلان طويلا . وعندما ذهـب فـى زيـارة وديـة إلى دمشـق استقبله طغتكين استقبال الملوك . على أنه حدث فى سبتمبر ١١١٤م أن ارتاع الخصّى لولو مـن تصرفاته الوحشية حتى أنه كان يخشى على حياته، فدبر قتله في فراشـه ونصّـب مكانـه على العرش أخاه سلطانشاه البالغ من العمر ست سنوات . وخلال السنوات القليلة التى

(٤٦) *Ibid.* pp. 137-42

(٤٧) *Ibid*, p. 144; Kemal ad-Din, p. 602.

(٤٨) Ibn al-Qalanisi, pp 145-6; Kemal ad-Din, pp 603-4. See Cahen, op. cit pp 267-8.

(٤٩) (Ibn al-Qalanisi, pp 146-8;Usama, ed. Hitti, pp.146,153) ولم يذكر أسـامة تاريخـا للمحاولة فى شيزر.

تلت كان لؤلؤ وضابطه شمس الخواص يسيطران على القلعة ويتحكمان في جيش حلب، وان كان وجهاء المدينة هم الذين يمسكون بزمام السلطة الحقيقة ، ولم يكن لؤلؤ ليجرؤ على اهمال رغباتهم. ونتيجة لغياب أمير قوى عن حلب، فضلا عن ضآلة جيشها، باتت عاجزة لاتقدر على أكثر من الدفاع عن أسوارها . وبرغم إبعاد الحشاشين ، اعتبر جيرانها أن هناك ميول شيعية خطرة لدى السلطة الجديدة بسبب النفوذ الفارسى فى المدينة ، مما أوجد لدى لؤلؤ الاستعداد لمواصلة السير على الدرب الذى سار عليه رضوان باقامة صداقة خانعة مع فرنج انطاكية[٥٠].

وفى أعقاب موت مودود أمر السلطان بأن يوكل حكم الموصل إلى ممثله لدى بلاط الخليفة ، أقسنقر البرسقى ، وهو جندى تركى ابتسم له الحظ كسلفه . وكان من بين واجباته ادارة العمليات ضد الفرنج . ففى شهر مايو ١١١٤م قاد جيشا قوامه خمسة عشر الف رجل لمهاجمة الرها ، وبصحبته ابن السلطان مسعود تميراك امير سنقار، وتركى صغير يدعى عماد الدين زنكى ، وهو ابن آقسنقر الأسبق الذى كان حاكما لحلب وحماه فى السنوات السابقة على الحملة الصليبية . واستدعى ايلغازى حاكم ماردين للانضمام للحملة، لكنه رفض ، فكانت الخطوة الاولى هى السير إلى ماردين الأمر الذى اضطر ايلغازى إلى الرضوخ فأرسل ابنه أياز على رأس كتيبة من جنود التركمان . وحاصر المسلمون الرها طوال شهرين ، غير أن حاميتها كانت قوية ولدى المدينة الكثير من المؤن ، بينما لم يكن الريف المنهوب صالحا لإطعام القوات المحاصرة ، ومن ثمّ اضطر البرسقى إلى رفع الحصار واكتفى بنهب الريف إلى أن أتاح له الأرمن مجالا جديدا للعمل[٥١].

١١١٦م : سقوط واسيل دغا

بعد مؤامرة الأرمن عام ١١١٢م لتسليم الرها لمودود ، حُبكت مؤامرة ثانية وقت أن كان غزو مودود للأراضى الفرنجية وشيكا ، وبينما كان بلدوين فى تل بشير يتسلم اقطاعية جوسلين . واكتشفت المؤامرة فى الوقت المناسب . وفي صرامة طرد بلدوين السكان الأرمن جميعا من عاصمته فانتقلوا إلى سميساط . وفى بدايات سنة ١١١٤م ،

---

(٥٠) Ibn al-Qalanisi, pp. 148-9; Kemal ad-Din, pp 605-6

(٥١) Matthew of Edessa,ccxii,pp 282-3;ccxvi,p 287; Chron Anon.Syr p 86,Ibn al-Athir, pp 292-3

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد أن لقّنهم الدرس سمح لهم بـالعودة ، غير أن البعض كـان قـد ذهـب إلى أراضـي واسيل دغا – وريث كواسيل – الذى استشعر الخطر بطريقـة مـا مـن محـاولات فرنجيـة تستهدف ميراثه . والآن قام هو وأمه التي تبنّته بدعوة البرسقى لتخليصهما من الفرنج ، فأرسل البرسقى أحد ضباطه – سنقر الطويل – للتفاوض مع واسيل دغا فـي كيسـوم . وسمع الفرنج بذلك ، وهاجموا سقر والأرمن ، ولكن دون جـدوى . على أنـه قبـل أن ينتهز المسلمون هذا التحالف الجديد دب خلاف بـين البرسقى وأياز الأرتقـى فسـجن الأول الثاني . وما أن سمـع ايلغـازى – وهـو أبـو أيـاز – بذلـك حتـى استنفر عشيرته وسحب جنوده التركمان وهاجم البرسقى وهزمه شر هزيمة وأجبره على الانسحاب إلى الموصل . ومرة اخرى تنتهى الحملة الاسلامية المضادة للصليبية بالإخفاق التام(٥٢).

ودفع الأرمن الثمن . إذ تقدم الفرنج لمعاقبة واسيل دغا ، و لم يتمكنـوا مـن اقتحـام عاصمته المنيعة رعبان . على انه رأى من الحكمة التحالف مع الأمـير الأرمينـى تـوروس الذى دعاه إلى الحضـور لمناقشـة زواج تحـالف ، لكنـه اعتقلـه وسـجنه وباعـه لبلدويـن كونت الرها . و لم يطلق سراح واسيل دغـا الاّ بعـد وعـد بـالتخلي عـن أراضيـه كلهـا لبلدوين كونت الرها ، وسُمح له بالذهـاب إلى القسـطنطينية للتقـاعد . وبعـد أن ضـم بلدوين رعبان وكيسوم سنة ١١١٦م قرر اخضاع الامارات الأرمينية المتبقيـة فـى وادى الفرات . وبدأ فى سنة ١١١٧م بخلع أبى الغريب حـاكم البـيرة ، وهـو الـذى سبق أن ساعده بلدوين ابّان الحملة الصليبية الاولى فى تنصيب نفسه ، وأعطى مدينة البيرة لابـن خالته – واليران أوف لي بويسيه – الذى تزوج ابنة أبى الغريب . وبعد ذلك أغار علـى باجرات – شقيق واسـيل فـازيل – فـى لورديتـه الصغيرة فـى خـوروس الواقعـة غربـى الفرات ، وهو العدو السابق والصديق اللاحق لبلدوين الأول . وأخـيرا اكتسـح أراضـي حليف آخر من حلفاء بلدوين ، هو الأمير قسطنطين الجارجارى ، الذى اعتقله وسجنه في سميساط حيث وقع فيها زلزال أهلك هذه الضحية التعسة . وسرعان ما وجد الأمـير الأرمينى نفسه العاهل الوحيد الأرمينى المستقل الباقى ، مما جعله يشعر بالرضـا . علـى أن الشعب الأرمينى – باستثناء الروبيين – كان قد فقد الثقة فى الفرنج(٥٣).

وكان تقلص الخطر من الشرق أحد العوامل التى ساعدت بلدوين كونت الرها فى

---

(٥٢) -Matthew of Edessa, ccxii, pp. 282-4, Michael the Syrian, iii, pp. 216-17; Ibn al Athir, pp. 292-3.

(٥٣) Matthew of Edessa, ccxiii-ccxiv, pp. 293-5. *Chron. Anon. Syr.* p. 86. وربما كان واليران شقيقا لهيو (أوف لى بواسيه) الذى كانت أمه Alice خالة بلدوين الثاني وابنة عم تنكريد.

غزواته الأرمينية . وكان العام الذى سبقه زاخرا بالأحداث المثيرة ، ففى نوفمبر ١١١٤م حدث زلزال عنيف تسبب فى خراب الأراضى الفرنجية من انطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها . وعلى أثر ما أشيع من أن السلطان محمد يعد العدة لحملة جديدة ، سارع روجر امير انطاكية فى جولة تفقد فيها حصونه الرئيسية(٥٤).

١١١٥م : حملة برسق بن برسق

كان السلطان محمد آخر السلاطين السلاجقة العظام . فقد تسلم من اخيه بركياروق دولة متفسخة ، لكنه استطاع فرض النظام فى العراق وايران ، والسيطرة على العرب المتمردين فى الصحراء الشرقية عام ١١٠٨م ، وتمكن من كبح جماح الحشاشين ، وانصاع له الخليفة المستظهر الذى كان كسولا فى قصره يكتب اشعار الحب . غير أن محاولاته فى تنظيم الحملات لطرد الفرنج من سوريا باءت بالفشل الواحدة تلو الأخرى . وأيقن من أن النجاح لا يتأتى الا بفرض سلطته على الأمراء المسلمين هناك الذين تسببت غيرتهم وعصيانهم فى خيبة مساعيه . فبدأ بارسال ابنه مسعود لمباشرة حكومة الموصل ومن ثمّ ضمن ولاءها . وفى فبراير ١١١٥م سيّر جيشا كبيرا باتجاه الغرب يقوده أمير همدان ، برسق بن برسق ، وفى صحبته أمير الموصل السابق ، جيوش بك ، وكذلك أمير سنجر ، تيمرك ، لمساعدته.

وشعر امراء سوريا المسلمون بالخطر كالفرنج . ولم يكن باستطاعة السلطان محمد أن يعتمد على احد فى سوريا سوى بنى منقذ فى شيزر وابن قراجا أمير حمص . وبانتشار انباء الحملة سارع ايلغازى الأرتقي إلى دمشق لتأكيد تحالفه مع طغتكين ، غير انه فى طريق عودته وقع فى كمين اعده له أمير حمص واعتقله . ونتيجة لتهديد من طغتكين ، أطلق امير حمص سراح ايلغازى شريطة احتجاز ابنه مكانه. وتمكن ايلغازى من العودة إلى مردين وجمع جنوده ثم اتجه غربا مرة اخرى كى ينضم إلى طغتكين ووعد الخصى لؤلؤ بمساعدة الجانبين كليهما. غير انه رأى أن انتصار السلطان ليس فى صالحه، فانضم إلى طغتكين وايلغازى . وفى تلك الأثناء جمع روجر امير انطاكية قواته واتخذ لنفسه موضعا بجانب الجسر الحديدى عبر نهر العاصى ، حيث عقد معاهدة مع طغتكين وحلفائه – ولا نعرف بمبادرة من – وطلب انضمام جيشهم إلى جيشه امام اسوار افامية

(٥٤) Fulcher of Charters, II,Iii,1-5,pp.578-80, Water the Chancellor, I,pp.83-4; Matthew of Edessa, ccxvii, pp 287-9; Ibn al-Qalanisi, p. 149; Kemal ad-Din, p. 607.

الذى يعد مكانا رائعا لمراقبة تحركات برسق عندما يضطر إلى عبور نهر الفرات والتقدم نحو اصدقائه فى شيزر . وقدم الفرنج نحو ألفى فارس وراجل ، وقدم حلفاؤهم المسلمون نحو خمسة آلاف.

ولم يلق برسق أية مقاومة أثناء مروره بجيشه الضخم عبر الجزيرة . وكان فى مأموله اتخاذ حلب مقرا لقيادته ، لكنه عندما علم بانضمام لؤلؤ إلى اعدائه ، وعلى رأسهم طغتكين ، تحول جنوبا لمهاجمة هذا الأخير . وتمكن بمساعدة أمير حمص تمكن من شن هجوم مفاجئ على حماه التى كانت تابعة لطغتكين وفيها الكثير من امتعة الجيش ، وسقطت المدينة وانتهبت مما اثار حنق المسلمين المحليين ، ثم إنه اتجه بعد ذلك إلى حصن كفرطاب الفرنجى . وأراد روجر القيام بهجوم مضلّل ، غير أن طغتكين أقنعه بخطورة ما يريده ، وبدلا من ذلك طلب الحلفاء مساعدة الملك بلدوين وبونز امير طرابلس فأسرعا شمالا ، الأول يقود خمسمائة فارس وألف راجل ومع الثانى مائتى فارس والفى راجل ، ودخلا المعسكر فى أفاميا على نفير الأبواق . أما برسق ، وهو الآن فى قاعدته فى شيزر ، فقد أملت عليه الحكمة الانسحاب نحو الجزيرة . ولقد كان لخدعته فعلها . إذ اعتبر بلدوين وبونز أن سُحُب الخطر قد انقشعت وعادا أدراجهما ، وانفض جيش الحلفاء . واندفع برسق فجأة عائدا إلى كفرطاب واستولى على القلعة بعد مقاومة ضئيلة وسلمها إلى بنى منقذ . وعلى الفور كاتبه لؤلؤ من حلب - إما بوازع الخيانة أو بدافع الجبن - معتذرا عمّا سبق من خطاياه وطالبا ارسال كتيبة لاحتلال حلب . فأرسل برسق اليه جيوش بك على رأس فيلقه ، وبذا ضعفت قوته . ولم يكن روجر قد سرح جيشه ، وليس بامكانه انتظار وصول العون من الملك بلدوين ولا من بونز ولا حتى من طغتكين ، وبعد أن استنجد ببلدوين كونت الرها ، رجا البطريق برنارد أن يبارك جنوده وأن يسمح بارسال قطعة من الصليب الحقيقى يأخذونها معهم ، ثم غادر انطاكية يوم ١٢ سبتمبر وسار جنوبا أعلى وادى العاصى إلى شاسيل روج ، بينما سار برسق شمال بطول خط مواز فى داخل البلاد . ولم يعلم أيٌ من الجيشين بموقع الآخر ، إلى أن اندفع داخل المعسكر فى (شاسيل روج) فارس يدعى ثيودور برنفيل كان فى حملة استكشافيه ، وقال إنه شاهد جيش السلطان يتحرك فى الغابه باتجاه تل دانيث بالقرب من مدينة سرميد . وفى صباح الرابع عشر من سبتمبر زحف الجيش الفرنجى فوق منطقة جبلية معترضة ، وانقض على برسق بينما كان الجنود يسيرون فى غير عناية وامامهم الحيوانات حاملة الأمتعة ، وكانت بعض الكتائب قد توقفت بالفعل لنصب الخيام للاستراحة فترة الظهيرة ، بينما كان بعض أمراء الجيش قد ذهبوا إلى المزارع

المجاورة طلبا للمؤن ، وذهب البعض الآخر لاحتلال بزاعه . وحينما بدأت المعركة كان برسق وحيدا غاب عنه أكفأ قواده.

١١١٥م : انتصار الفرنج في تل دانيت

ولم يكن هجوم الفرنج متوقعا قط . إذ ظهروا فجأة من بين الأشجار واندفعوا بسرعة نحو المعسكر الذى لم يكن مستعدا تماما ، وسرعان ما عمت الفوضى الجيش الاسلامى كله ، وتعذر على برسق لم شمل رجاله ، وكاد هو نفسه أن يقع فى الأسر ، لكنه تمكن من التقهقر مع بضع مئات من الفرسان إلى تل ناتئ بالقرب من تل دانيت حيث دحر الأعداء لفترة ، وبذل غاية جهده كي يسقط قتيلا بدلا من أن يواجه عار الهزيمة ، غير أن حراسه أقنعوه في نهاية الأمر بعدم جدوى مواصلة القتال فانسحب باتجاه الشرق . وكان تميراك ، أمير سنجار ، أكثر نجاحا بادئ الأمر ودحر ميمنة الفرنج ، لكن جوى فرسنل ، أمير هارنس ، أحضر جنودا آخرين وتمكن من أن يحيط برجال سنجار ، ولم يسلم من الفرسان سوى أسرعهم . وبحلول المساء كانت بقايا الجيش الاسلامى تسرع فى غير نظام نحو الجزيرة(٥٥).

كان انتصار الفرنج فى تل دانيت نهاية محاولات سلاطين ايران السلاجقة لاستعادة سوريا. ومات برسق بعد المعركة بأشهر قليلة من فرط الخزى والمهانة ، ولم يكن السلطان محمد على استعداد للمخاطرة بحملة جديدة . والآن ، أصبح الخطر الوحيد الذى يتهدد الفرنج من الشرق هو الأمراء شبه المستقلين الذين كانوا غير متحدين وفى حالة من الإحباط . وغدت مكانة روجر امير انطاكية فى أعلى درجاتها ، وسرعان ما استرد رجاله كفرطاب التى كان برسق قد سلمها لبنى منقذ(٥٦) . وشعر أميرا حلب ودمشق بالخطر الحقيقى ، فسارع الأخير ، طغتكين ، إلى عقد سلام مع السلطان محمد الذى غفر له لكنه لم يقدم له معونة مادية(٥٧) . وفى حلب قبع الخصي لؤلؤ يرقب

---

(٥٥) Fulcher of Charters, II, Iiv, 1-6, pp.586-90; Albert of Aix, XII, 19, p. 701; Walter the Chancellor, I, 6-7, pp.92-6 (the fullest account); al-Azimi, p.509; Ibn Hamdun in Ibn al-Athir, pp.295-8; Usama, ed. Hitti, pp.102-6; Michael the Syrian, III, p. 217; *Chron. Anon. Syr.*p.86.

(٥٦) Usama, ed. Hitti, p. 106.

(٥٧) Ibn al-Qalanisi, pp. 151-2، الذى يقول ان المبادأة جاءت من جانب السلطان Ibn Hamdun, *loc. cit.*

الأحداث وهو فاقد الحيلة ، بينما عزز الفرنج مراكزهم من حوله ، فسعى إلى عقد تحالف أقوى مع طغتكين، غير انه كان سيئ السمعة على اجماله . وفى شهر مايو ١١١٧م اغتاله أتراك من حاميته وخلفه زميل خصي كذلك ، هو الأرمينى المرتد ياروقتاش ، الذى بادر بطلب مساندة الفرنج ، مانحا روجر حصن القبة الواقع على الطريق بين حلب ودمشق الذى يسلكه الحجاج إلى مكة ، كما منحه حق جباية رسوم الحج(٥٨) . ولم تنفعه تلك التنازلات.إذ بدأ قتلة لؤلؤ يتصرفون باسم الإبن الأصغر لرضوان ، سلطانشاه ، الذى لم يعترف به ، فالتمس ياروقتاش العون من ايلغازى الأرتقى . بيد انه عندما وصل جنود ايلغازى إلى حلب وجدوا أن ياروقتاش قد سقط وأن وزير سلطانشاه ، ابن الملحى الدمشقى ، يتولى ادارة الحكومة ، فانسحب ايلغازى تاركا ابنه ، كزل تمرتاش ، ممثلا له فى حلب بعد أن استولى على قلعة بالس على الفرات ، وقد مُنحت له نظير مساعدته فيما لو حاول البرسقي - الذى يحكم الآن فى الرحبة - الاستيلاء على حلب التي زعم أن السلطان عهد بها اليه . على أن ابن الملحى أيقن من أن ايلغازى ليس هو الحليف الذي يعتمد عليه تماما ، فقام بتسليم حلب ، وكذلك كزل ابن ايلغازى ، إلى أمير حمص - خيرخان - وأعد العدة لاستعادة بالس بمساعدة الفرنج . بيد أن تحالف ايلغازى مع طغتكين ثبتت جديته . فبينما سار طغتكين إلى حمص وأجبر خيرخان على التقاعد ، حرر ايلغازى بالس ودخل حلب فى صيف ١١١٨م . وكان ابن الملحى قد سبق وان استبدل بخصيٍّ اسود يدعى ابن قراجا ، فاعتقله ايلغازى وحبسه ومعه ابن الملحى والأمير سلطانشاه(٥٩) ، وأثناء هذه التحركات والمكائد ، كانت الأطراف جميعا كل بدوره تسعى إلى تدخل الفرنج. ورغم أن روجر لم يكن قط سيدا لحلب نفسها، إلا انه استطاع احتلال الأراضى الواقعة شمالها، فاحتل عزاز سنة ١١١٨م ، وبزاعة فى أوائل سنة ١١١٩م ، وبذا عزل حلب عن الفرات فى الشرق(٦٠).

وفى ذات الوقت على وجه التقريب، كان روجر يعزز حدوده الجنوبية، فاستولى على قلعة المرقب الواقعة على تل مرتفع يشرف على البحر من وراء بلنياس (بانياس - البلانة)(٦١).

---

(٥٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 155-6.

(٥٩) Ibn al-Qalalnisi, *loc. cit.* Kemal ad-Din, pp. 610-15; Ibn al-Athir, pp. 308-9.

(٦٠) Matthew of Edessa, ccxxvii, pp. 297-8; Kemal ad-Din, pp. 614-15.

(٦١) للاطلاع على المصادر العربية ، انظر المناقشة فى Cahen, op. cit.p.279 n. 16. ، ويبدو ان بونز أمير

وهكذا ، وبنهاية سنة ١١١٨م ، أصبح هناك توازن فى شمال سوريا . إذ غدا الفرنج جانبا مقبولا في نمط البلاد . وكانوا لا يزالون بعيدين عن الكثرة العددية ، غير أن تسليحهم كان جيدا ، وراحوا يشيدون القلاع ويتعلمون كيف يكيّفون انفسهم مع نمط الحياة المحلى . فضلا عن أنهم كانوا آنذاك متحدين ، وكان روجر أمير انطاكية أعظم امراء المسيحيين فى الشمال إلى حد بعيد ، ولم يسبب تعاظمه امتعاضا من جانب بلدوين كونت الرها ولا من بونز أمير طرابلس ، ولم يحاول من جانبه أن يتسيد عليهما وانما شاركهماالإعتراف بسيادة ملك القدس . على أن الأمراء المسلمين كانوا أقوى نفيرا، لكن الفرقة سادتهم والغيرة غلبتهم ، ولم يجنبهم الفوضى سوى التحالف بين طغتكين والأراتقة ، ومن ثمّ كان التوازن يميل بصورة طفيفة لصالح الفرنج . ولم تكن هناك قوة خارجية فى وضع يمكنها من الإخلال بهذا التوازن . إذ ليس بمقدور الملك بلدوين التدخل دائما فى الشمال خشية تهديد الفاطميين فى مؤخرته ، كما أن سلطان ايران السلجوقى كفّ بعد كارثة تل دانيت عن أية محاولة فعلية يؤكد بها سلطته فى سوريا . كما كانت القوتان الرئيسيتان فى الأناضول ، بيزنطة وسلاجقة الروم ، فى وضع متوازن وقتئذ.

١١١٨م : صدع فى الكنيسة اليعقوبية

بل كان المسيحيون الوطنيون فى حالة توازن كذلك . ذلك أن الرعايا الأرمن فى الرها وأنطاكية كانوا بعيدين عن الأوهام وكان بهم غدر ، وكانت الدويلة الأرمينية الوحيدة الحرة الباقية ، وهى امارة الروبيين فى جبال طوروس، على استعداد للتنسيق مع الفرنج. فقد سبق أن أحضر أميرها (ليو) كتيبة لمساعدة روجر أمير انطاكية فى حصار عزاز[٦٢] ، وحدث صدع فى الكنيسة اليعقوبية أدى إلى انقسامها ، ففى سنة ١١١٨م تقريبا تشاجر رئيسها البطريق أثاناسيوس ، الذى كان مقيما فى انطاكية ، مع مطرانه فى الرها، بار صابونى ، حول ملكية بعض الكتب المقدسة ، وأصدر قرارا بحرمانه من المهام الكنسية . وإثارة منه للمشاكل ، لجأ المطران بار صابونى إلى بطريق

طرابلس ساعد روجر بعد خلاف طفيف حول باثنة زوجة بونز ، وهى أرملة تنكريد ، سيشيليا ، التى كانت تطالب بمنحها جبلة ، غير أنها رضيت أخيرا بشاسيل روج وأرزغان (William of Tyre, xiv, 5, p. 612).

(٦٢) Matthew of Edessa, *loc. cit.*، وعن تاريخ الروبيين انظر Tournebize, *op.cit.*pp.168 ff.

انطاكية اللاتيني ، برنار ، الذى استدعى أثاناسيوس لمناقشة المسألة فى مجلس كنسى يعقد فى الكتدرائية اللاتينية . فجاء أثاناسيوس معترضا . ونتيجة لعجز المترجم فهم برنار أن الخلاف يدور حول دَيْن خاص بين الأسقفين ، فأصدر حكمه على أثاناسيوس متهما إيّاه بارتكابه السيمونية(٦٣) ، لأنه لم يغفر للمَدين . فاهتاج اثاناسيوس لهذا الحكم ولم يعترف بصحته ولم يفهم معناه ، وأعرب عن احتجاجه بألفاظ فظّة ، فما كان من البطريق برنار الاّ أن أمر بجلده . وكان هناك صديق أرثوذوكسى للبطريق أثاناسيوس ، هو الفيلسوف عبد المسيح ، الذى أشار باللجوء إلى روجر أمير انطاكية ، الذى كان بعيدا آنذاك ، للإنتصاف . وغضب روجر على البطريق برنار ووبخه لتدخله فى امر لا يخصه ، وسمح لأثاناسيوس بالرحيل من انطاكية عائدا إلى وطنه الأول ، دير مار بارسوما ، حيث أصبح اثاناسيوس فى اراضى الأراتقة الذين منحوه حمايتهم . وأصدر حكما على بار صابون بالطرد من الكنسى ، وأخضع الكنيسة اليعقوبية فى الرها تحت حكم الحرمان الكنسى ، مما دفع بالكثير من اليعاقبة واهالى الرها ، وقد حرموا من ممارسة طقوسهم الكنسية ، إلى تغيير مذهبهم والتحول إلى المذهب اللاتينى . وأطاع البعض البطريق . ولم يتحقق السلام طوال اعوام كثيرة ، وحتى بعد موت اثناسيوس(٦٤).

وكانت المجامع الأرثوذوكسية فى انطاكية والرها مستاءة من الحكم اللاتينى ، على أنه لم يكن هناك ما يغويها مطلقا للتآمر مع المسلمين ، غير خلاف الأرمن واليعاقبة، وانما كانت تتنهد فى حسرة تلهفا على عودة بيزنطة . على أن ما كان يوحّد بين الأرمن واليعاقبة من اشمئزاز إزاء الأرثوذوكس كان بمثابة كابح لقوتهم.

١١١١م - ١١١٣م : مفاوضات بيزنطة مع الغرب

ومع ذلك ، وبرغم خشية فرنج الرها - بحق - من امكان ظهور خطر جديد فى الشرق ، ظلت بيزنطة العدو الرئيسى فى نظر فرنج انطاكية . ذلك أن الامبراطور الكسيوس لم ينس قط مطالبته بأنطاكية . وكان على استعداد للإعتراف بمملكة لاتينية فى القدس ، فقد اظهر حسن نواياه ببذل فدية سخيّة لإطلاق أسرى الفرنج لدى

---

(٦٣) (المترجم) السيمونية : شراء أو بيع المناصب الكهنوتية.

(٦٤) Michael the Syrian, III, pp. 193-4, 207-10.

الفاطميين من الرملة عام ١١٠٢م ، وبوجود سفنه فى حصار عكا عام ١١١١م الذى لم يكن فعالا . أما الملك بلدوين فكان من ناحيته دائم الكياسة والانضباط فى تصرفه حيال الامبراطور ، غير انه رفض ممارسة اى ضغط على تنكريد لتنفيذ بنود معاهدة ديفول[٦٥] . ومنذ ايام الحملة الصليبية عام ١١٠١م ، والعلاقات الفرنجية البيزنطية تلفها غيوم الريبة ، بينما لم تغفر القسطنطينية مطلقا تدخل البابا باسكال نيابة عن بوهمند عام ١١٠٦م . وكان الكسيوس سياسيا لَيِّن العريكة بصورة فائقة بحيث لم يدع للإستياء مجالا فى ساسته . وكان خلال عامى ١١١١م و١١١٢م يجرى سلسلة من المفاوضات مع البابا ، من خلال وسيطه رئيس دير مونت كاسينو . واستمال السلطات الرومانية بأن وعدها بتسوية الخلافت المعلقة بين الكنيستين الرومانية واليونانية ، وذلك لكى تقدم له أو لإبنه تاج الغرب الامبراطورى ، واقترح أن يذهب بنفسه لزيارة روما . وكان البابا باسكال يعانى آنذاك من مصاعب جسيمة مع الإمبراطور هنرى الخامس ، ولذا كان على استعداد لدفع ثمن غال لقاء مساندة بيزنطة ، على أن الحروب التركية واعتلال صحة الكسيوس حالت دون المضى فى مشروعه[٦٦] . وأسفرت المفاوضات عن لاشئ . وفى عام ١١١٣م ، قام رئيس اساقفة ميلانو ، بطرس كريسولان ، بزيارة القسطنطينية لمناقشة بعض الأمور الكنسية[٦٧] غير أن جدله اللاهوتى مع اسقف نيقية ، ايوستراسيوس ، لم تساعد على بقاء العلاقات طيبة بين الكنيستين . والراجح أن الكسيوس نفسه لم يأخذ مخططه الايطالى الطموح مأخذا جادا. وانما كانت للصداقة البابوية قيمتها لديه كوسيلة لكبح الطموحات النورمانديين ولتعزيز سلطته على اللاتينيين فى الشرق.

وفى ذات الوقت لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا شيئا لاستعادة انطاكية. فقد ظلت معاهدة الإمبراطور مع بوهمند خطابا لا حياة فيه ، و لم يغض عنها تنكريد نظره فحسب ، وانما أضاف إلى اراضيه المزيد مما اغتصبه من البيزنطيين ، وسار روجر على نفس الدرب الذى سار عليه تنكريد. وكان الكسيوس يعلق الآمال على أن يصبح أمراء طرابلس عملاءه فى سوريا، وقدم أموالا تُحفظ فى طرابلس لتمويل المشاريع البيزنطية

---

(٦٥) Anna Comnena, XIV, ii, 12-13, pp. 152-3.

(٦٦) انظر Chalandon, *op.cit.* pp. 260-3 with full references.

(٦٧) Landolph, in Muratori, Ss. R I. vol. v, p. 487; Chrysolan's speeches in M.P.L. vol. cxxvii, col. 911-19; Eustratius's speeches in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. 1, p. 15.

الطرابلسية المشتركة . على انه بموت برتراند ، اختار ابنه بونز التعاون مع الأنطاكيين ، ولذا قام بوتوميتيس ، السفير البيزنطي فوق العادة لدى الدويلات اللاتينية ، بالمطالبة باسترداد تلك الأموال ، لكنه لم يحصل عليها الا بعد أن هدد بقطع المؤن التي تصل طرابلس من قبرص ، ثم رأى من حصافة الرأى إعادة الذهب والجواهر الثمينة إلى بونز لأنها كانت ممنوحة لبرتراند شخصيا ، وفي مقابل ذلك اقسم بونز يمين الولاء للإمبراطور ، وربما كان ذلك هو قسم عدم الإضرار الذى سبق أن أقسمه جده ريموند . واستخدمت بيزنطة الأموال التى استردتها في شراء الخيول للجيش البيزنطي من دمشق والرها والجزيرة العربية(٦٨).

١١١٢م – ١١١٥م: حروب سلجوقية ضد بيزنطة

كان من الواضح عدم امكان اغواء بونز كي يعمل ضد انطاكية ، بينما حال النشاط التركي دون تدخل الامبراطور بصورة مباشرة في سوريا . ومنذ أن مات الملك غازى انوشتكين الدانشمندى عام ١١٠٦م ، وقلج أرسلان السلجوقي عام ١١٠٧م ، لم يعد في الأناضول عاهل تركي عظيم . وكان بامكان الكسيوس الحفاظ على سلطته شيئا فشيئا في مناطق الأناضول الغربية وبطول الساحل الجنوبي، مالم ينصرف انتباهه إلى النورمانديين . وآنذاك ، حاول الأمير البارز حسن أمير كبادوكيا الإغارة على الأراضى البيزنطية عام ١١١٠م ، وتقدم حتى فيلادلفيا مستهدفا أزمير . وقد عهد الكسيوس مؤخرا إلى إيوستاثيوس فيلوكان ادارة الأراضى الواقعة غربي الأناضول وكلّفه بتطهير المقاطعة من الأتراك . فتمكن بقواته القليلة من ملاحقة جيش حسن الذى كان منقسما إلى فرق شتى مغيرة هزمها الواحدة تلو الأخرى ، وتقهقر حسن بسرعة ، فباتت سواحل بحر إيجة آمنة من الغارات . على انه في نفس ذلك العام ، أُطلق سراح ملكشاه – أكبر أبناء قلج أرسلان – من الأسر الفارسي ، فاتخذ من قونية عاصمة له ، وسرعان ما سيطر على أغلب ميراثه بعدما هزم حسن وضم أراضيه . وأخذ العبرة من مصير أبيه فتجنب التورط في الشرق . لكنه سرعان ما شعر بأن لديه مايكفي من القوة، فانطلق يستعيد الأراضى التى فقدها قلج أرسلان في زمن الحملة الصليبية الأولى. وشرع في الأشهر الأولى من سنة ١١١٢م في الإغارة داخل الامبراطورية متجها إلى فيلادلفيا حيث صدّه القائد البيزنطي جابراس، فتفاوض على هدنة . غير انه أغار مرة

(٦٨) Anna Comnena, XIV, ii, 14, pp. 153-4.

اخرى عام ١١١٣م ، وسيَّر حملة عاجلة انطلقت خلال بيثينيا ووصلت أسوار نيقية ذاتها ، بينما توغل قائده محمد إلى بومامنيوم الأبعد إلى الغرب حيث هزم القائد البيزنطى وأسره ، وأغار قائده الآخر منالوك على أبيدوس الواقعة على الدردنيل ذات الإيرادات الكثيرة من الجمارك ، وهاجم ملكشاه نفسه برجاموم واستولى عليها . وانطلق الامبراطور لملاقاة المغيرين ، لكنه آثر الانتظار والامساك بهم فى طريق عودتهم محملين بالأسلاب الكثيرة . وانقض عليهم اثناء مرورهم من دوريليوم بالقرب من كوتيايوم وظفر بهم تماما واستعاد كل ماكان بحوزتهم من أسلاب وأسرى . وفى عام ١١١٥م ترددت أنباء بأن ملكشاه يعد العدة لمعاودة الاغارة ، فأمضى الكسيوس وقتا طويلا من العام يطوف تلال بيثينيا ، وفى العام التالى ، وبرغم اشتداد مرضه ، قرر أخذ زمام المجوم بنفسه ، فسار جنوبا باتجاه قونية والتقى بالجيش التركى بالقرب من فيلوميليوم ، وانتصر مرة اخرى وأجبر ملكشاه على التوقيع على معاهدة سلام تعهد فيها باحترام حدود الامبراطورية التى كانت تسيطر آنذاك على كل الساحل من طرابزون إلى سلوقية فى كيليكيا وغرب أنقره الداخلى ، والصحراء المالحة وفيلوميليوم . وفشلت محاولات ملكشاه فى معاودة الغزو . وبعد أشهر قليلة خلعه أخوه مسعود عن عرشه وقتله بعد أن تحالف مع الدانشمند . غير أن الأتراك ظلوا متحصنين بصورة راسخة فى قلب الأناضول . وباتت بيزنطة عاجزة عن أخذ زمام المجوم فى سوريا . وكان أهم المستفيدين من هذه الحروب الأرمن فى جبال طوروس وأمير انطاكية الفرنجى (٦٩).

(٦٩) Anna Comnena, xiv, v-vi, xv, i-ii, iv-vi, pp. 164-72, 187-72, 187-94, 199-213. See Chalandon, op. cit, pp. 265-71.

الباب الثانى:

الـــــذروة

الفصل الأول:

الملك بالدوين الثانى

١٧٥

الملك بلدوين الثانى

"لا يُعدَمُ لكَ رَجُلٌ عَن كُرسي إسرائيل"
(الملوك الأول ٩ : ٥)

أهمل الملك بلدوين آخر واجبات الملوك . فلم يوصِ بمن يخلفه على العرش . وانعقد مجلس المملكة على عجل . وبدا لبعض النبلاء أن خروج التاج من بيت آل بولونيا أمر غير وارد . فقد خلف بلدوين الأول أخاه جودفرى ، ومازال هناك أخ ثالث هو إيوستاس ، كونت بولونيا ، أكبر الثلاثة . فأُرسل الرسل على عجل بطريق البحر لإبلاغ الكونت بوفاة أخيه والتماس حضوره لتسلم الميراث . بيد أن إيوستاس كان عازفا عن مغادرة بلده الملئ بالمسرات والرحيل إلى الشرق بما فيه من مخاطر ، لكنهم أخبروه أن ذلك واجب ينبغى له القيام به . فانطلق إلى القدس ، لكنه عندما وصل أبوليا قابل رسلا آخرين حاملين الأنباء بأنه قد قضى الأمر ، واستُخلف غيره . ورفض اقتراحا بأن يواصل رحلته ويحارب دون حقوقه ، فعاد على الأثر إلى بولونيا وهو غير

كاره[١].

وما حدث في واقع الأمر أن القلة من أعضاء المجلس هي فقط التي أيدت استخلافه. ولقد كان بعيدا ، الأمر الذى يعنى بقاء العرش خاليا لأشهر كثيرة . وكان أكثر أعضاء المجلس نفوذا هو جوسلين (اوف كروتناى) أمير الجليل ، الذى طلب منح العرش لبلدوين (اوف لو بورج) ، كونت الرها . و قد اتخذ جانب الحذر وهو يذكّر أعضاء المجلس بأنه ليس هناك ما يجعل بلدوين محبوبا لديه هو شخصيا ، إذ سبق أن اتهمه بلدوين بالخيانة زورا وبهتانا ، وأمر بنفيه من أراضيه في الشمال . غير أن بلدوين رجل اقتدار وشجاعة ، وهو ابن عم الملك الراحل ، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة من فرسان الحملة الصليبية الأولى العظام . وفضلا عن ذلك ، كان في تقدير جوسلين أنه إذا غادر بلدوين الرها إلى القدس، فإن أقل ما يفعله لابن عمه الذى كافأه بسخاء على الإساءة أن يعهد اليه بكونتية الرها . ولقى اقتراح جوسلين تأييدا من البطريق أرنولف ، وراحا معا يستحثان المجلس على الموافقة . وفى نفس اليوم الذى شُيّعت فيه جنازة الملك ، وكما لو كان الأمر حسما لمناقشة المجلس ، ظهر بلدوين (اوف لو بورج) فجأة في القدس . وربما سمع بمرض الملك فى العام الذى قبله ، ولذا رأى من المناسب القيام بحج الفصح إلى الأراضى المقدسة . واستقبل بمشاعر البهجة ، وانتخبه المجلس ملكا بالإجماع . وفي يوم أحد الفصح ، ١٤ ابريل ١١١٤م ، وضع البطريق أرنولف التاج على رأسه[٢].

وكان بلدوين الثاني كرجل يختلف عن سلفه اختلافا كبيرا . فبرغم ما كان عليه من وسامة ، بلحيته الطويلة الشقراء ، غابت عنه الهيبة التي كان يتصف بها بلدوين الأول . كان أيسر لقاءً ، أنيسا، مغرما بخفة الظل ، لكنه كان فى ذات الوقت حاد الذهن ، ماكرا ، اقل انفتاحا ، واقل طيشا، وأكثر ضبطا للنفس . كان ذا مقدرة على الإتيان باللفتات الضخمة ، لكنه على الجملة كان وضيعا خاليا من الكرم. وبرغم تعسفه في الشؤون الكنسية ، كان عظيم الورع ، وكانت ركبتاه متورمتين من كثرة الصلاة . وعلى خلاف بلدوين الأول ، لم يكن هناك ما يعيب حياته الخاصة ، إذ ضرب هو وزوجته مورفيا الأرمينية مثلا رائعا على السعادة الزوجية المثالية ، وهو أمر

---

(١) William of Tyre, XII, 3, pp. 513-16 ولا نعلم على وجه اليقين الترتيبات التى أعدها لبولونيا . وقد ماتت زوجته ، مارى الاسكتلندية عام ١١١٦ م .

(٢) Fulcher of Charters, III, i, I, pp. 615-16; Albert of Aix, XII, 30, pp.70710; William of Tyre, XII, 4, p.517.
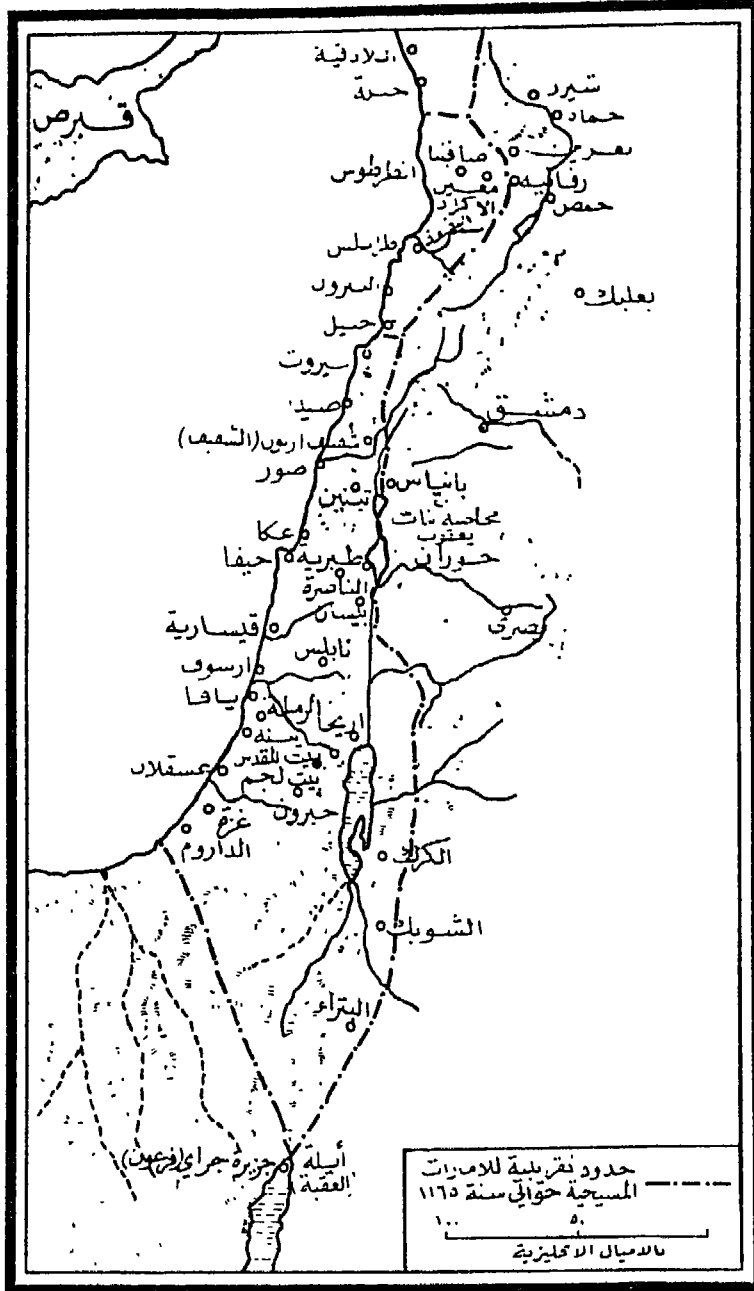
خريطة رقم (٢) جنوب الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى

كان نادرا فى الشرق الفرنجى(٣).

وكوفئ جوسلين كما توقع بكونتية الرها باعتباره تابعا للملك بلدوين ، تماما كما كان بلدوين نفسه تابعا لبلدوين الأول . كما اعترف كل من روجر امير انطاكية ، وهو صهر الملك ، وبونز أمير طرابس ، بالملك الجديد سيدا أعلى ، إذ كان مقررا أن يبقى الشرق الفرنجى موحدا تحت تاج القدس(٤). وبعد أسبوعين من تتويج بلدوين مات البطريق أرنولف . وكان فى خدمته للدولة مخلصا ذا كفاءة إلا انه ، وبرغم براعته التبشيرية ، تورط فى عدد ضخم من الفضائح تحول دون احترامه كرجل كنيسة ، ومن المشكوك فيه ما إذا كان بلدوين قد تأسى لموته . وحرص على أن يُنتخب مكانه قس بيكاردى(٥) هو جورمون البيكوينى الذى لا نعرف شيئا عن سابق حياته . وكان اختيارا موفقا ، إذ كان جورمون يشترك مع أرنولف فى خصائص عملية تعلوها طبيعة القداسة ، ولقى الإحترام من الكافة . وجاء تعيينه فى اعقاب موت البابا باسكال مؤخرا ، وبذا بقيت العلاقات طيبة بين القدس وروما(٦).

١١١٩م : غارات فى شرق الأردن

لم يكد بلدوين يستقر على العرش حتى سمع الأنباء المشؤومة عن تحالف مصر ودمشق. إذ كان الوزير الفاطمى الأفضل متلهفا على معاقبة بلدوين الأول على ما اقدم عليه من غزو متعجرف لمصر، بينما شعر طغتكين فى دمشق بالخطر من تعاظم قوة الفرنج . فسارع بلدوين بارسال سفارة إلى طغتكين الذى ، طلب من الفرنج التخلى عن كافة الأراضى الواقعة شرق نهر الأردن مدفوعا بثقته من مساعدة مصر. وكان جيش مصرى ضخم قد تجمع خلال الصيف على الحدود متخذا موضعه خارج مدينة اشدود ، ووجّهت الدعوة لتغطكين كى يتولى قيادته . واستنفر بلدوين مليشيات انطاكية وطرابلس لتعزيز جنود القدس ، وسار جنوبا لملاقاة العدو . وظل الجيشان يواجهان بعضهما البعض طوال ثلاثة أشهر ، لا يجرؤ أيّ منهما على التحرك ، إذ كان

---

(٣) William of Tyre, XII, 2, pp.512-13، (انظر أعلاه ص ٦٧).

(٤) استدعى بلدوين بعد توليه العرش مباشرة كلا من روجر وبونز لقتال المصريين تحت قيادته . (انظر أدناه ص.١٤٦).

(٥) (المترجم) نسبة الى اقليم بيكاردى التاريخى الواقع شمال فرنسا.

(٦) Albert of Aix, *loc. cit.*; William of Tyre, XII, 6, p.519

كل فرد - كما جاء على لسان المؤرخ فولشر (اوف تشارتر) - يفضل الحياة على الموت . وفى نهاية الأمر تفرق الجنود فى كل من الجانبين عائدين إلى بلادهم(٧).

وفى تلك الأثناء تأخر رحيل جوسلين . إذ كان وجوده في الجليل اكثر الحاحا من وجوده شمال البلاد ، حيث يبدو أن الملكة مورفيا كانت ما تزال هناك ، وحيث كان واليران ، لورد البيرة يتولى الحكومة(٨) . وكان على جوسلين الدفاع عن الجليل ، باعتباره أميرها ، من غارات دمشق . وفى الخريف شاركه بلدوين فى غارة على اذرعات في حوران ، وهى بمثابة مخزن حبوب دمشق . وخرج بورى ، ابن طغتكين ، لملاقاتهم ، لكنه هزم لتهوره . وبعد هذه الواقعة حول طغتكين انتباهه إلى الشمال مرة أخرى(٩).

وفى ربيع ١١١٩م علم جوسلين بأن قبيلة بدوية غنية ترعى قطعانها شرقى نهر الأردن على نهر اليرموك . فانطلق لينهبها يصحبه اثنان من بارونات الجليل ، هما الأخوان جودفرى ووليم (اوف بور) ، ونحو مائة وعشرون من الخيالة . وانقسمت الجماعة لمحاصرة رجال القبيلة . لكن الأمور سارت مسارا سيئا ، إذ علم رئيس القبيلة والتزم جانب الحذر ، وضل جوسلين طريقه فى التلال . وأما جودفرى ووليم فقد سقطا فى كمين أعد لهما، وقتل جودفرى ووقع أغلب رفاقه في الأسر . وعاد جوسلين تعيسا إلى طبرية وارسل من يخبر الملك ، الذى سار شمالا وأدخل الخوف فى قلوب البدو فأعادوا الأسرى ودفعوا تعويضا ، وسمح لهم بتمضية الصيف فى سلام(١٠) .

وأثناء وجود بلدوين فى طبرية للراحة فى طريق عودته من هذه الحملة القصيرة ، جاءه الرسل من أنطاكية متوسلين أن يسرع شمالا مع جيشه ، بغاية ما يستطيعه من سرعة.

ذلك أنه منذ انتصار روجر أمير انطاكية فى تل دانيت ، باتت مدينة حلب التعسة لا حول لها ولا قوة فى منع العدوان الفرنجى ، وقد أمضّها أن تضع نفسها تحت حماية ايلغازى الأرتقي ، وبعد استيلاء روجر على البزاعة عام ١١١٩م أمست محاصرة من

(٧) Fulcher of Charters, III, ii, 1-3, pp. 617-19; William of 19 Tyre, XII, 6, pp. 518.

(٨) *Chron. Anon. Syr.*, p. 86.

(٩) Ibn al-Athir, pp. 315-16.

(١٠) pp.325-6. *Ibid.*

ثلاث جهات . وكانت خسارة البزاعة فوق ما يتحمله ايلغارى الذى لم يكن منذ آنذاك ، ولا حليفه الدائم طغتكين صاحب دمشق ، على استعداد للمخاطرة بكامل القوات فى معركة ضد الفرنج ، إذ كانا يخشيان سلاطين الشرق السلاجقة ، بل ويحملان لهم مقتا يفوق الخشية . على أن السلطان محمد قد مات فى ابريل ١١١٨م ، ومن ثمّ انطلقت طموحات الحكام وصغار الأمراء فى سائر أنحاء امبراطوريته . وحاول ابنه الشاب ووريثه محمود جاهدا توطيد سلطته إلى أن اضطر أخيرا فى أغسطس ١١١٩م إلى تسليم السلطة العليا لعمه سنجر ، ملك خراسان ، وأمضى ما تبقى له من حياة قصيرة فى التمتع بمتع الصيد والقنص . وأما سنجر ، الذى كان آخر حكام اسرته على كل الاراضى السلجوقية الشرقية ، فكان مقتدرا بما فيه الكفاية ، غير أن مصالحه تركزت فى الشرق ، ولم يشغل نفسه قط بسوريا ، وكذلك كان شأن ابناء عمومته من سلاجقة الروم ، الذين صرفتهم الخلافات فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الدانشمند، والحروب مع بيزنطة ، عن امكان تدخلهم فى الشؤون السورية[١١] . وأخيرا اتيحت الفرصة لأكثر الأمراء المحليين عنادا ، ألا وهو ايلغازى ، الذى لم تكن رغبته فى القضاء على الدويلات الفرنجية تفوق رغبته فى الحصول على حلب لنفسه ، على أن هذه الرغبة الأخيرة تحمل فى طياتها الرغبة الأولى.

١١١٩م : معركة بحر الدم

وخلال ربيع ١١١٩م راح ايلغازى يجول فى املاكه ، يجمع جنود التركمان ، ويرتب لاستجلاب الكتائب من الأكراد ومن القبائل العربية فى الصحراء السورية . ومن باب الشكليات المحضة طلب المساعدة من السلطان محمود ولم يصله رد . ووافق حليفه طغتكين على المجئ من دمشق، ووعد بنو منقذ فى شيزر بأن يشغلوا روجر إلى الجنوب من اراضيه[١٢] . وفى شهر مايو انطلق الجيش الأرتقى الذى قيل أن قوامه بلغ أربعين الف رجل . وتلقى روجر النبأ رابط الجأش، غير أن البطريق برنار حثّه على طلب المساعدة من الملك بلدوين ومن بونز امير طرابلس . وأرسل الملك بلدوين من طبرية من يقول إنه سيحضر بغاية السرعة التى يستطيعها وسيُحضر معه جنود طرابلس،

---

(١١) Ibn al-Athir, pp. 318-23. وانظر مقالى "سنجر Sandjur" و "السلاجقة Seldjuks" فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopaedia of Islam.*

(١٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 157-7; Kemal ad-Din, pp. 615-16.

وأنه ينبغى لروجر أن ينتظر متخذا زمام الدفاع . ثم جمع بلدوين جيش القدس وحصّنه بقطعة من الصليب الحقيقى الذى كان تحت رعاية إيفرمار ، رئيس اساقفة قيسارية(١٣).

وفى الوقت الذى أغار فيه بنو منقذ على افاميا ، أرسل ايلغازى فصائل التركمان ناحية الجنوب الغربى كى يصنع اتصالا يصله بهم وبالجيش الصاعد من دمشق . وأغار هو نفسه على اراضى الرها ، لكنه لم يبذل اية محاولة للإغارة على عاصمتها الحصينة . وفى منتصف يونية عبر نهر الفرات عند بالس وتقدم ليضرب معسكره فى قنسرين التى تبعد نحو خمسة عشر ميلا جنوب حلب انتظارا لطغتكين . و لم يكن روجر على ما يكفى من الصبر ، إذ انه قرر ملاقاة العدو فى الحال ، على الرغم من رسالة الملك، وبرغم التحذير الصارم من البطريق برنارد ، وبرغم كل التجارب السابقة التى خاضها امراء الفرنج . فقاد جيش انطاكية كله يوم ٢٠ يونية ، وكان مؤلفا من سبعمائة من الخيالة وأربعة آلاف من المشاه ، وعبر به الجسر الحديدى ، وضرب معسكره امام حصن تل عفرين الصغير ، الواقع على الحافة الشرقية لسهل سرمدا، حيث توفر الأراضى القاحلة دفاعا طبيعيا جيدا . وبرغم ضآلة حجم قواته بكثير عن قوات العدو ، كان يأمل فى امكان الانتظار لحين وصول بلدوين.

وفى قنسرين ، علم ايلغازى تمام العلم بتحركات روجر كلها، إذ أن عيونه تنكروا فى هيئة تجار وأمعنوا فى فحص معسكر الفرنج ثم أبلغوا ايلغازى بما عليه الجيش الفرنجى من ضآلة العدد . وبرغم أن ايلغازى كان يفضل انتظار وصول طغتكين ، فقد ألح عليه امراؤه التركمان كى يبادر بالهجوم على معسكر الفرنج . وفى يوم ٢٧ يونية تحرك جزء من جيشه لمهاجمة حصن الأتارب الذى كان فى حوزةالفرنج ، وتوفر الوقت لروجر كى يدفع ببعض رجاله إلى هناك تحت قيادة روبرت (اوف فييه بون)، ثم أقلقه أن يجد العدو على مثل هذه المسافة القريبة ، وبهبوط الظلام أرسل كل ما كان لدى الجيش من أموال إلى حصن أرتاح الواقع على الطريق إلى أنطاكية .

وظل روجر طوال الليل قلقا يترقب أخبار تحركات المسلمين ، وهب الجنود من راحتهم على صوت رجل يسير فى نومه ، يجرى فى انحاء المعسكر صائحا إن كارثة قد حلّت بهم . وفى فجر يوم ٢٨ يونية اعلن الكشافون للأمير أن المعسكر محاصَر . وهبت من الجنوب رياح الخماسين الجافة التى تبعث الوهن فى الأبدان ، ولم يكن فى المعسكر نفسه سوى القليل من الطعام والماء ، ورأى روجر الإندفاع خلال صفوف العدو أو

---

(١٣) Walter the Chancellor, II, I, pp. 100-1.

الهلاك . وكان بطرس رئيس اساقفة افاميا ومن قبل رئيس اساقفة ... ، مع الجيش، وهو أول أسقف فرنجي في الشرق . قام بجمع الجنود في حشد واحد والقى فيهم موعظة واخذ اعترافاتهم جميعا ، واخذ اعتراف روجر في خيمته ، ، منحه الغفران للكثير من آثام بدنه . ثم إن روجر أعلن في ثبات انه ذاهب للصيد إلا أنه أرسل أولا فرقة أخرى من الكشافين وقعت في كمين ، وهرول قليل من أفرادها ممن نجوا من الكمين عائدين إلى المعسكر معلنين أن لا سبيل لاختراق الحصار وقسم روجر الجيش إلى أربعة اقسام وقسم خامس احتياطي ، وعلى الأثر باركهم رئيس الأساقفة مرة اخرى وانطلقوا في كامل النظام في هجومهم على الأعداء .

على أنه كان هجوما يائسا من بدايته . ولم يكن هناك مهرب من جحافل الخيالة والرماة التركمان . فكان أول من أصيب بالذعر من بين الفرنج ، المشاة الجنديين من السريان والأرمن ، لكن لم يكن هناك ملجأ يهربون اليه ، فتزاحموا فيما بين الفرسان ، وبذا أعاقوا الجياد ، وتحولت الرياح فجأة شمالا وزاد هبوبها حاملة معها سحب الأتربة تلقى بها في وجوه الفرنج . وفي مستهل المعركة تمكن عدد يقل عن مئة من فرسان الفرنج من اختراق صفوف التركمان ، وانضموا إلى روبرت (اوف فيه بون) الذى كان عائدا من الأثارب للاشتراك في القتال ، ولكن بعد فوات الأوان ، وهربوا جميعا إلى انطاكية . وبعد ذلك بقليل ، تمكن رينالد مازوار وفرسان قليلون من الهرب والوصول إلى مدينة سرمدا الصغيرة في السهل . ولم يبق على قيد الحياة أحد غير هؤلاء من جيش انطاكية. وسقط روجر نفسه قتيلا عند قاعدة صليبه الضخم المرصع بالجوهرات، وسقط حوله فرسانه عدا القليل الذين كانوا أقل حظا، إذ أخذوا أسرى. وبانتصاف النهار كان كل شئ قد انتهى. ويطلق الفرنج على هذه المعركة Ager Sanguinis، بحر الدم(١٤)

١١١٩م : ايلغازى ضيّع انتصاره

وفي حلب ، التي تبعد مسافة خمسة عشر ميلا ، لبث المسلمون يترقبون الأنباء في

(١٤) (Walter the Chancellor, II, 2-6, pp. 101-11 الذى يورد أكثر الروايات اكتمالا ؛ William of Tyre. II 9-10, pp 523-6; Fulcher of Charters, III, iii, 24, pp. 621-3) يورد وصفا قصيرا يقول فيه ان الكارثة سببها غضب الرب مما اعتاده روجر من ارتكاب الزنـ (Matthew of Edessa. CCXXVI pp 276-7; Michael the Syrian, III, p. 204; Ibn al-Qalanisi, pp. 159-61. Kemal ad-Din. pp 61618; Usama, ed. Hitti, pp.148-9; Ibn al-Athir, pp. 324-5. ، يقول فولشر إن خسائر الفرنج بلغت سبعة آلاف وخسائر الأتراك ... عشرين

قلق . وفي وقت الظهر تقريبا جاءت شائعة بأن نصرا مؤزرا قد تحقـق للإسلام ، وفـي لحظة الأذان لصلاة العصر شوهد أول المنتصرين وهم يقتربون . ولم يمكث ايلغـازى فـى أرض المعركة الاّ لتوزيع الغنائم على رجاله، ثم سار إلى سرمدا حيث استسلم له رينـالد مازوار . وتأثر ايلغازى من هيئة رينالد التى بدت رابطـة الجنـان، فـأبقى علـى حياتـه . وسحب المنتصرون الأسرى الفرنج وراءهـم عـبر الـوادى ، وراح التركمـان يعذبونهـم ويقتلونهم فى حدائق الكروم إلى أن أمر ايلغازى ، الذى كان يفاوض رينـالد فـى تلـك الأثناء ، بالكف عن ذلك، لأنه لم يشأ حرمان سكان حلب من مشهد الأسرى . وسيق من تبقى إلى حلب التي دخلها ايلغـازى المنتصـر وقـت الغـروب ، وهنـاك عذّبوا حتـى الموت فى الشوارع[١٥].

وفى الوقت الذى كـان ايلغـازي يحتفـل فيـه بانتصـاره ، وصلـت انطاكيـة الأنبـاء المرعبـة عـن المعركة ، وتوقع الجميع وصول التركمان لمهاجمـة المدينـة التـى خلـت ممـن يدافع عنها من الجنود . وفى خضم الأزمة تولى البطريق برنارد القيادة . وأول مـا كـان يخشاه خيانة المسيحيين المحليين الذين ذاقوا من أفعاله بهـم الأمريـن فبـاتوا مغـتربين بـين أهل انطاكية ، فأرسل فى الحال من يجردونهم مـن السـلاح وفـرض عليهـم أمـرا بحظـر التجول . ثم قام بتوزيع ما جمعه من سلاح على رجال الدين الفرنج والتجار ووضعهـم على الأسوار للمراقبة . وظلوا فى حالة تأهب ليـلا ونهـارا ، بعدمـا ارسـلوا رسـولا إلى الملك بلدوين كى يسرع الخطى[١٦].

على أن ايلغازى لم يتابع انتصاره . وانما كتب إلى عواهل العالم الاسـلامى يخبرهم بنصره ، ورد عليه الخليفة بأن أهداه رداء الشـرف ولقـب نجـم الديـن[١٧] . وفـى تلـك الأثناء سار إلى ارتاح حيث كان أحد الأساقفة قائدا لأحد أبراجها ، فقـام بتسـليمه إلى ايلغازى مقابل رحيله إلى انطاكية سالما . غير أن رجلا معينايدعى يوسـف ، ربمـا كـان من الأرمن، ومسؤولا عن القلعة التى تحوى ثروة روجـر ، اقنـع ايلغـازى بتعاطفـه مـع المسلمين لولا أن ابنه محتجز فـى انطاكيـة كرهينـة . فتـأثر ايلغـازى بالقصـة وعهـد إلى يوسف هذا بالمدينة واكتفى بإرسال احد أمرائه للإقامة كممثل له فى المدينة[١٨] . وعاد

(١٥) Kemal ad-Din, *loc. cit.;* Walter the Chancellor, II, 7, pp. 111-13.

(١٦) Walter the Chancellor, II, 8, pp. 114-15.

(١٧) Ibn al-Athir, p. 332.

(١٨) Walter the Chancellor, II, 8, p. 114.

من ارتاح إلى حلب حيث توالت عليه سلسلة من الاحتفالات إلى أن ساءت صحته وبدأت معاناته . وأرسل جنود التركمان للإغارة على ضواحى انطاكية ونهب ميناء السويدية ، لكن التقارير أفادت وجود حاميات قوية فى المدينة . وهكذا ضيّع المسلمون ما فازوا به من ثمار معركة بحر الدم(١٩).

ومع ذلك كان الموقف حسيما للفرنج . فقد وصل بلدوين اللاذقية ، وبونز وراءه على مقربة ، قبل أن يعلم النبأ . فغذ السير و لم يتوقف حتى لمهاجمة معسكر للتركمان بلا حماية بالقرب من الطريق ، ووصل انطاكية دون حادثة فى الأيام الأولى من أغسطس . وكان ايلغازى قد أرسل بعض جنوده لاعتراض الجيش المنقذ ، واضطر بونز الذى كان خلف بلدوين بمسيرة يوم إلى تفادى هجومهم و لم يتأخر كثيرا.واستقبل الملك استقبالا ساراً من اخته الأميرة سيشيليا الأرملة ، ومن البطريق ، ومن كل الناس. وأقيم قداس شكر للرب فى كتدرائية القديس بطرس . وبدأ بتطهير الضواحى من المغيرين ، ثم قابل وجهاء المدينة لمناقشة حكومتها فى المستقبل . وكان الأمير الشرعى ، بوهمند الثانى ، الذى كان روجر دائم الاعتراف بحقوقه ، صبيا فى العاشرة من عمره يعيش مع امه فى ايطاليا ، وليس هناك من بقى لتمثيل البيت النورماندى فى الشرق ، إذ هلك الفرسان النورمانديون جميعا فى معركة بحر الدم . فتقرر أن يتولى بلدوين نفسه، باعتباره السيد الأعلى للشرق الفرنجى ، حكومة أنطاكية إلى أن يبلغ بوهمند سن الرشد ، وأن يتزوج بوهمند واحدة من بنات الملك . ثم قام الملك بإعادة توزيع إقطاعيات الإمارة التى تركتها الكارثة بلا أصحاب . وتقرر ، بقدر الإمكان ، أن تتزوج المترملات اللاتى سقط أزواجهن فى المعركة من فرسان يناسبهن من جيش بلدوين أو من الوافدين الجدد من الغرب . ونجد الأرملتين الأميرتين أرملة تنكريد ، التى أصبحت كونتيسة طرابلس ، وأرملة روجر ، وقد أصبحتا زوجتين لتابعين جديدين للملك على أراضيهما التى هى بمثابة المهر لكل واحدة منهما . وفى ذات الوقت ، يرجح أن بلدوين أعاد ترتيب إقطاعيات كونتية الرها ، وتقرر رسميا تعيين جوسلين ، الذى تبع الملك من فلسطين ، كونت الرها . وبعد أن اطمأن بلدوين لإدارة البلاد ، تقدم موكبا من حفاة الأقدام إلى الكتدرائية، ثم قاد جيشا مؤلفا من نحو سبعمائة فارس وبضعة آلاف من المشاة لملاقاة المسلمين(٢٠).

---

(١٩) Usama, ed. Hitti, pp. 148-9; Ibn al-Athir, pp. 332-3. واستنادا الى ما قرره أسامة ، فان ايلغازى اذا ما شرب الخمر يظل يشعر بأنه مخمور مدة عشرين يوما.

(٢٠) Walter the Chancellor, II, 9-10, pp. 115-18; Fulcher of Charters, III, vii, 13, pp. 633-

١١١٩م : معركة مُحكمة في هاب

والآن انضم طغتكين إلى ايلغازى ، وانطلق الزعيمان يوم ١١ أغسطس للاستيلاء على الحصون الفرنجية الواقعة شرقي نهر العاصى ، بدءا بالأثارب التى استسلمت حاميتها فى الحال مقابل المرور الآمن إلى أنطاكية . وفى اليوم التالى واصل الأميران الزحف على زردنة التى سبق أن غادرها أميرها ، روبرت المجزوم ، إلى انطاكية ، ومرة اخرى استسلمت الحامية فى مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ، لكن التركمان قتلوهم فور خروجهم من البوابات . وكان بلدوين يأمل فى انقاذ الأثارب ، لكنه ما أن عبر الجسر الحديدى حتى قابل حاميتها . فانطلق جنوبا وسمع بحصار زردنة ، لكنه ارتاب فى أن المسلمين ينوون التحرك جنوبا لتطهير الحصون المحيطة بمعرة النعمان وأفاميا ، فسارع بالانطلاق قُدما وضرب معسكره فى الثالث عشر فى تل دانيت ، فى نفس مسرح انتصار روجر عام ١١١٥م . وعلم فى الصباح التالى أن زردنة قد سقطت ورأى من الحكمة التقهقر قليلا ناحية انطاكية . وفى تلك الأثناء جاء ايلغازى وفى مأموله مباغتة الفرنج وهم نيام بالقرب من قرية هاب . غير أن بلدوين كان مستعدا . إذ أدلى باعترافه، وألقى رئيس اساقفة قيسارية موعظة فى الجنود ثم رفع الصليب الحقيقى ليباركهم ، واصبح الجيش على استعداد للقتال.

وساد الاضطراب المعركة . إذ ادّعى كل من الجانبين الانتصار ، على أن الفرنج هم الذين فازوا فى الواقع . فقد دحر طغتكين بونز امير طرابلس فى ميمنة الفرنج ، لكن جنود طرابلس حافظوا على صفوفهم . وإلى جانبه هاجم روجر المجزوم كتيبة حمص وقد عقد العزم على استعادة زردنة ، لكنه وقع فى كمين وبات أسيرا . وصمدت ميسرة الفرنج وقلبه ، وفى اللحظة الحاسمة تمكن بلدوين من رمى الأعداء بجنود جدد ، فاستدار عدد من التركمان وهربوا . على أن أغلب جيش ايلغازى غادر ساحة القتال فى نظام جيد . وعاد ايلغازى وطغتكين باتجاه حلب ومعهما صفوف ضخمة من الأسرى ، واستطاعا أن يخبرا العالم الاسلامى أن النصر كان حليفهما . ومرة اخرى أبهج سكان حلب مشاهدة مجزرة للمسيحيين بالجملة ، إلى أن أبدى أيلغازى امتعاضه ، لخسارة الفدية التى كانت بمثل هذا المال الكثير بعد أن اوقف القتل ريثما يجّرب جواداً

5; Orderic Vitalis (XI, 25, vol. IV, p. 245)، يذكر أوردريك فيتاليس أن سيشيليا ، كونتيسة طرابلس ، كانت تستثمر الفرسان بالإقطاع. واستثمرت أرملة روجر بالاقطاع فرسانا فى عام ١١٢٦م.(Rhrich, *Regesta, Additamenta*, p.9) وربما انتقلت في ذلك الوقت مرعش من سيادة انطاكية الى سيادة الرها.

حديداً. وسُئل روبرت المجزوم عن ثمن فديته فرد قائلا انهـا عشـرة آلاف قطعـة ذهبيـة ، فأرسله ايلغازى إلى طغتكين أملا فى رفع السعر ، لكن طغتكين لم يكن قـد روى بعـد ظمأه من الدماء . ورغم أن روبرت كان صديقا قديما لطغتكين منذ أيـام ١١٥١م ، الاّ أن هذا الأخير أطاح رأسه بنفسه ، مما تسبب فى امتعاض ايلغازى الذى كان يريد مبلغ الفدية تسديدا لرواتب جنده[٢١].

ووصل إلى انطاكية من فر من جيـش بونـز حـاملين معهـم أنبـاء الهزيمـة ، لـولا أن وصل رسول أرسلته الأميرة سيشيليا ومعه خاتم الملك برهانـا علـى نجاحـه . ولم يحـاول بلدوين نفسه ملاحقة جيش المسلمين ، وانما اتجه جنوبا إلى معـرة النعمـان و إلى الـروج التى استولى عليها بنو منقذ . فأخرجهم منها لكنه ابرم معهم معـاهدة يعفيهـم فيهـا مـن دفع الجباية السنوية التى سبق أن طلبها روجر . واسترد ما اسـتولى عليـه المسـلمون مـن حصون فيما عدا البيرة والأثارب وزردنة ، ثم رجع بلدويـن إلى انطاكيـة فـى موكـب المنتصرين ، وأرسل الصليب المقدس جنوبا ليصل القدس فى الوقت المناسب لعيد ظهـور الصليب يوم ١٤ سبتمبر[٢٢] وأمضى هو نفسه الخريف فى انطاكيـة يسـتكمل مـا بـدأه قبل المعركة من ترتيبات . وفى ديسمبر عاد إلى القـدس تاركـا البطريـق برنـارد لمباشـرة حكومة انطاكية نيابة عنه ، بعد أن نصّب جوسلين فـى الرهـا[٢٣] واصطحـب معـه إلى الجنوب زوجته وبناته الصغيرات اللاتى حضرن من الرها . وفى احتفـالات عيـد الميـلاد فى بيت لحم توّجت زوجته مورفيا ملكة[٢٤].

١١١٩م : فشل حملة الأراتقة

و لم يجازف ايلغازى بمهاجمة الفرنج مرة اخرى ، إذ كان جيشه يتقلص شيئا فشيئا. فقد جاء جنود التركمان من اجل الأسلاب فى المقام الأول ، وبعـد معركـة تـل دانيـت بقوا بلا عمل وقد نال منهم الضجر ورواتبهم تأخر سـدادها ، فشـرعوا فـى العـودة إلى

---

(٢١) Walter the Chancellor, II, 10-15, pp. 118-28; William of Tyre, XII, 1112, pp. 527-30; Kemal ad-Din, pp. 620-2; Usama, ed.Hitti, pp. 14950.

(٢٢) (المترجم) عيد ظهور الصليب Exaltation of the Cross ، عيـد يحتفـل فيـه بذكـرى مـا اشـتُهر مـن ظهور الصليب للامبراطور قسطنطين ، واسترداده فيما بعد من الفرس.

(٢٣) Walter the Chancellor, II, 16, pp. 129-31; William of Tyre, XII, 12, p. 530.

(٢٤) Fulcher of Charters, III, vii, 4, p. 635; William of Tyre, XII, 12, p.531

بلادهم ومعهم زعماء العرب من أبناء الجزيرة ، ولم يكن بوسع ايلغازى منعهم من العودة ، إذ سقط هو نفسه مريضا مرة اخرى وظل يتأرجح بين الحياة والموت لأسبوعين ، وعندما برأ من مرضه كانت فرصة إعادة جمع الجيش قد ولّت ، فغادر حلب عائدا إلى عاصمته الشرقية فى ماردين ، وعاد طغتكين إلى دمشق[٢٥].

وهكذا أخفقت الحملة الأرتقية الضخمة ولم تحقق شيئا ملموسا للمسلمين ، فيما عدا حصون حدودية قليلة وتخفيف الضغط الفرنجى على حلب . بيد أنها كانت نصرا معنويا عظيما للاسلام . ولم يكن صدهم فى معركة تل دانيت تعويضا يوازن الإنتصار الرائع فى معركة بحر الدم . ولو كان ايلغازى أكثر قدرة ويقظة لفاز بأنطاكية . إذ أن ما حدث من قتل الفرسان النورمانديين وأميرهم على رأسهم ، قد شجّع أمراء الجزيرة وشمالى العراق على تجديد هجماتهم ، ولاسيما وانهم قد تحرروا مما كان سيدهم الأعلى السلجوقى فى فارس يمارسه عليهم من وصاية إسمية . وسرعان ما كان مقدّرا أن يظهر رجل أعظم من أيلغازى . وأما الفرنج ، فكانت أسوأ نتائج الحملة هى خسارتهم الفادحة من الرجال . فليس من اليسير تعويض من سقطوا فى معركة بحر الدم من الفرسان ، والأكثر من المشاه . على أن الفرنج لقنوا الدرس جيدا الآن وهو أن فرنج الشرق ينبغى لهم أن يتعاونوا دائما وأن يعملوا معا متحدين . فقد أنقذ الملك بلدوين أنطاكية بتدخله الفورى ، وتحقق ما أملته ظروف الساعة من استعداد الفرنج كافة لقبول الملك على أنه السيد الأعلى النشط . لقد أحدثت الكارثة رتقا فيما أقامه الفرنج فى سوريا.

وبعد أن عاد بلدوين إلى القدس راح يشغل نفسه بإدارة مملكته . فاستخلف على إمارة الجليل وليم (اوف بور) وبقيت الإمارة فى أسرته . وفى يناير ١٢٠١م استدعى الملك رجال الكنيسة وكبار حائزى الأراضى فى المملكة لحضور مجلس عقد فى نابلس لمناقشة النهوض بأخلاقيات رعاياه ، وربما كان ذلك محاولة منه لكبح ما كان يميل اليه المستعمرون اللاتينيون فى الشرق مما وجدوه من اعتياد التراخى واليسر ، كما كان مهتما فى الوقت ذاته برفاهيتهم المادية . إذ انه فى ظل بلدوين الأول وجد عدد متزايد من اللاتينيين تشجيعا على الاستقرار فى القدس ، فبدأ ظهور طبقة بورجوازية لاتينية آخذة فى التضخم شيئا فشيئا إلى جانب المحاربين ورجال الدين فى المملكة ، والآن حصلت هذه الطبقة البورجوازية على كامل حرية التجارة من وإلى المدينة ، وفى الوقت

---

(٢٥) Walter of Chancellor, *loc. cit.*; Ibn al-Qalanisi, p. 161; Kemal ad-Din, pp. 624-5.

ذاته ، ولضمان الامدادات الكاملة من الطعام ، سُمح للمسيحيين الوطنيين ، بل للتجارالعرب استجلاب الخضروات والحبوب معفاة من الرسوم الجمركية(٢٦).

١١١٨-١١٢٠م: بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان الفرسان

كان أهم حدث داخلى فى تلك السنوات هو إرساء القواعد لأنظمة دينية عسكرية للرهبان الفرسان . ففى عام ١٠٧٠م قام بعض المواطنين الأتقياء من مدينة أمالفى بانشاء نُزُل فى القدس لإيواء الفقراء من الحجاج ، وقد سمح الحاكم المصرى آنذاك للقنصل الأمالفى باختيار موقع مناسب ، وكرّست المنشأة للقديس يوحنا المتصدّق Saint John the Almsgiver ، وهو بطريق الاسكندرية الخيّر فى القرن السابع . وكان موظفو النُزُل من أبناء أمالفى أصلاً ، وكانوا قد أخذوا على أنفسهم العهود الرهبانية ، ويخضعون لتوجيهات "السيد" الذى كان يخضع بدوره للسلطات البِندكتية فى فلسطين(٢٧) . وفى وقت استيلاء الصليبيين على القدس كان "السيد" رجلًا يدعى جيرارد Gerard ، وربما كان من أبناء أمالفى . وقبل بدء حصار القدس نفاه حاكم القدس المسلم من المدينة هو ورفاقه فى الدين ، فأفاد الصليبيون من معلوماته القيمة عن الأحوال الداخلية فى المدينة . وقد حث الحكومة الفرنجية الجديدة على منح الهبات للمستشفى ، وانضم الكثير من الحجاج إلى موظفيه الذين سرعان ما تحرروا من إطاعة تعليمات البِنديكتيين ، وراحوا يجمعون الأموال كى يستقل النظام بنفسه تحت اسم "أصحاب المستشفى" the Hospitallers ، ويدينون بالطاعة للبابا مباشرة . وخُلعت عليه المزيد من الأراضى ، وقدم له أغلب كبار رجال الدين فى المملكة عشور ايراداتهم . ومات جيرارد حوالى عام ١١١٨م وخلفه الفرنسي ريموند اوف لو بوى Raymond of Le Puy، الذى كانت لديه أفكار أكبر . فاستقر رأيه على أنه لا يكفى لنظامه مجرد إرشاد الحجاج واستضافتهم ، وإنما ينبغى للنظام أن يحارب كى تظل طرق الحج مفتوحة . وكان النظام يضم إخوة كانت واجباتهم سلمية محضة ، بيد أن واجباتهم تحولت الآن إلى رعاية مؤسسة من الفرسان الملتزمين بعهود دينية تلزمهم بالبقاء فى حالة

---

(٢٦) Rohricht, *Regesta,* p. 20; Mansi, *Concilia,* vol. XXI, pp. 262-6; William of Tyre, XII, xiii, p.531.

(٢٧) (المترجم) التسمية مشتقة من اسم الراهب الإيطالى القديس بِنديكت (٤٨٠ - ٥٤٣م). وهو مؤسس النظام البنديكتى ويوم احياء ذكراه ١١ يولية. ويسمى أيضا القديس بندكت النورسيانى St. Benedict of Nursia

من الفقر الشخصي والعفّة والطاعة ، وتكريس حياتهم لقتال الكفرة . وفي ذات الوقت على وجه التقريب ، وكما لو كان الأمر إعلانا للمركز الأكبر "للمستشفى" ، ودون أن يلحظ أحد ، استعيض عن اسم القديس "يوحنا" المتصدّق المعلن عنه قديسا راعيا للنظام ، بالحوارى "يوحنا" الرسولى . وتميز فرسان المستشفى بعلامة صليب أبيض يضعونها على أرديتهم الكهنوتية فوق لباسهم الحربي.

وساعد على هذا التحول إنشاء فرسان المعبد فى ذات الوقت . وفى واقع الأمر ، فإن فكرة وجود نظام يجمع بين الجانبين الدينى والعسكرى ربما تكون قد نبعت فى ذهن فارس من مقاطعة شامبانيا يدعى هيو اوف باين Hugh of Payens كان قد حث الملك بلدوين الأول عام ١١١٨م على السماح له بأن يستقر مع بعض رفاقه فى جناح القصر الملكى ، المسجد الأقصى سابقا ، فى منطقة المعبد . وكشأن فرسان المستشفى ، اتبع فرسان المعبد بادئ الأمر النظام البنديكتى ، غير أنهم رسّخوا أنفسهم فى الحال تقريبا كنظام مستقل ، بثلاث طبقات : الفرسان ، على أن يجرى فى عروقهم جميعا دم النبلاء ؛ وضباط النظام، الآتين جميعا من الطبقة البورجوازية ، وكانوا هم سائسى الخيول والخدم المشرفين لمجتمع النظام ؛ ورجال الدين ، الذين كانوا القسس الرعاة المسؤولين عن المهام غير العسكرية . وكانت العلامة التى تميز أعضاء المعبد هى صليب أحمر يوضع على رداء أبيض بالنسبة للفرسان ، وعلى رداء أسود بالنسبة لضباط النظام. وكان أول واجب أُخذ عليه القسم لهذا النظام هو الحفاظ على الطريق من الساحل حتى القدس نظيفا من قطّاع الطرق ، لكنهم سرعان ما أصبحوا يشتركون فى أية حملة حربية تشترك فيها المملكة . وأمضى هيو نفسه الكثير من وقته فى أوروبا الغربية يجنّد المجندين لنظامه.

ومنح الملك بلدوين النظامين العسكريين كامل مساندته . وكانا مستقلين عن سلطته ولا يدينون بالولاء إلاّ للبابا . وحتى الإقطاعيات الضخمة التى بدأ يخلعها عليهما هو وأتباعه لم تكن تنطوى على أى التزام بالحرب فى جيش الملك ، غير أن أجيال قد مضت قبل أن يصيب النظامان من الثراء ما يكفيهما لتحدى السلطة الملكية. وفى الوقت ذاته ، كانا يزودان المملكة بما كانت فى حاجة ماسة اليه ، الا وهو جيش نظامى بجنود مدربين ، مكفول وجوده المستديم . وفى الاقطاعيات الدنيوية ، إذا مات فجأة صاحب الاقطاعية ، فقد يترتب على إنتقال الإقطاعية إلى إمرأة أو إلى طفل ، أن يحدث توقف فى إمداد الجنود ويتكرر تورط الملك فى أعمال مضطربة ومصالح مختلة. كما لا يستطيع الاعتماد على تعويض من مات من اللوردات، بغيرهم من الوافدين

الجدد من الغرب كلما احتاج اليهم . لكن الأنظمة العسكرية ، بتنظيمها ذى الكفاءة ، وما لها من فتنة ومهابة تتخلل العالم المسيحى الغربى ، تستطيع أن تضمن إمدادا منتظما من المقاتلين المكرسين ، الذين لن تلهيهم أطماع أو مكاسب شخصية[٢٨].

وفى عام ١١٢٠م عاد بلدوين إلى انطاكية . إذ أن بلاق والى ايلغازى على أثارب، بدأ يغير على الأراضى الانطاكية بينما زحف ايلغازى نفسه على الرها . وصُدّت الغارتان كلاهما، على أن ايلغازى اقترب من حوار انطاكية ، فتوترت أعصاب البطريق برنار وارسل إلى القدس ، إلى الملك بلدوين . وفى يونية شرع بلدوين فى مسيرته شمالا ، حاملا معه مرة اخرى الصليب الحقيقى ، مما سبب الأسى لكنيسة القدس التى كانت نافرة من أن ترى مثل هذا الأثر الثمين يتعرض لمخاطر الحرب . ورحل البطريق جورموند نفسه مع الجيش ليكون مسؤولا عن هذا الأثر . وعندما وصل بلدوين إلى الشمال وجد أن ايلغازى ، الذى اضعفه انصراف جنوده التركمان ، قد انسحب فعلا ، وشعر المسلمون بالخطر حتى انهم استدعوا طغتكين إلى حلب . واثناء الحملة التى تلت تبادل كل من الطرفين الكر والفر حتى أنهك المسلمون فى نهاية الأمر وانسحب طغتكين إلى دمشق ، وعقد ايلغازى هدنة مع بلدوين . وتحدد خط حدود يفصل منطقة نفوذ كل منهما ، فقطع هذا الخط فى مكان ما (طاحونة) إلى نصفين ، وفى مكان آخر قسم الخط حصنا إلى نصفين ، وهدمت المبانى برضاء الطرفين ، واما زردنا التى بقيت جيبا اسلاميا فقد جردت من تجهيزاتها العسكرية[٢٩] . وفى وقت مبكر من الربيع التالى عاد بلدوين إلى القدس بعد أن فاز بنصر معنوى لم تسفك فيه الدماء . وكان مطلوبا فى الجنوب ، إذ اعتقد طغتكين أنه فى كامل انشغاله فى الشمال ، فأغار بغارات مكثفة فى الجليل . وفى شهر يولية ١١٢١م ، انتقم بلدوين بعبوره نهر الأردن وانتهب الجولان ، واحتل حصنا ثم دمّره ، وكان طغتكن قد بناه فى

---

(٢٨) عن الأنظمة العسكرية انظر (William of Tyre, xii, 7, pp. 520-1) (فرسان المعبد) و(xviii, 4, pp. 822-3) (فرسان المستشفى) . وللاطلاع على مقالات عصرية جيدة انظر Delaville Le Roulx, *Les* Hospitaliers en Terre Sainte; Curzon, *La Règle du Temple*; Melville, *La Vie* des Templiers. ويورد ميخائيل السورى مقالا كاملا عن فرسان المعبد وسميهم (الإخوة الفرنج III, pp. 201-3) انظر ايضا La Moute, *Feudal Monarchy, pp. 217-25.*

(٢٩) Fulcher of Charters, III, ix, 1-7, pp. 638-42; Walter the Chancellor, II. 16, p.131; Matthew of Edessa, ccxxx, pp. 302-3; Michael the Syrian, III, pp. 205-6; Kemal ad-Din, p/627; Ibn al-Qalanisi, p. 162; Grousset, *op.cit.* I, p.574، ويتبع المؤرخ Grosset ما يذكره ميخائيل السورى، فيخلط بين بلاق وبلك ابن اخى ايلغازى، الذى كان آنذاك فى حملة ابعد الى الشمال (ابن القلانيسى، المرجع السابق).

حيرانى ٣٠ وفى تلك الأثناء كان جوسلين يجنى ثمار غزوة ناجحة فى أراضى ايلغازى فى الجزيرة.[٣١]

١١٢١م الحملة الصليبية الجورجية

ظهر خلال صيف ١١٢١م ظهر عامل جديد ترك بصماته على السياسات الشرقية فعلى مسافة بعيدة إلى الشمال ، عند سفوح الجبال القوقازية ، فرض ملوك جورجيا (الكرج) البجراتيون سلطانهم على الشعوب المسيحية التى كانت ما تزال مستقلة عن السيادة الإسلامية ، ووسع الملك داود الثانى سلطته إلى جنوب وادى الرّس حيث أصبح فى نزاع مع الأمير السلجوقى طغرل ، أمير أرّان . وبعد هزيمة طغرل من قوات داود ، وجّه طغرل الدعوة إلى ايلغازى كى يشترك معه فى حرب مقدسة ضد الملك المسيحى قليل الأدب . وكانت الحملة التى تلت بمثابة كارثة للمسلمين ، وفى اغسطس ١١٢١م ، كاد الجورجيون أن يجتثوا شأفة الجيش المتحد بين طغرل وايلغازى ، ونجا ايلغازى نفسه بشق الأنفس وهو يهرب عائدا إلى ماردين . وتمكن الملك داود من ترسيخ دعائم ملكه فى العاصمة الجورجية القديمة تفليس ، وبحلول عام ١١٢٤م استولى على شمال أرمينيا والحاضرة آنى ، وهى موطن اسرته القديم . ومنذ آنذاك والعالم التركى كله يدرك إدراك اليائس للخطر الماثل عليه من جورجيا بموقعها الاستراتيجى الرائع بل أن هذا الخطر لم تخف حدته بموت داود الثانى عام ١١٢٥م[٣٢]، إذ ورث خلفاؤه شدته وكانت شجاعتهم، التى أبقت المسلمين فى حالة عصبية دائمة إزاء جبهتهم الشمالية ، ذات قيمة عظيمة للفرنج على الرغم مما يبدو من عدم وجود اتصال مباشر بين القوتين المسيحيتين ، إذ كان الجورجيون مرتبطين ببيزنطة بروابط الدين والتقاليد ، ولا شعور بالود لديهم نحو الفرنج ، فضلا عن أن ما لقيته مؤسساتهم فى القدس من برود المعاملة لم تكن لتدخل السرور على مثل هذا

---

(٣٠) Fulcher of Charters, III, x .1-6, pp.643-6

(٣١) Ibn al-Qalanisi, *op cit.* p 163; Kemal ad-Din, pp 623-6

(٣٢) *Georgian Chronicle* (in Georgian), pp. 209-10 215, Matthew of Edessa ccxxxi-ii, ccxxxix, ccxliii, pp. 303-5, 310-1 313-14; Ibn al- Qalanisi, p 164. Ibn al-Athir pp 330-2; Kemal ad-Din, pp 628-9: Walter the Chancellor 16 p 130, يعزو والتر ... .Michael the Syrian, III, p 206

الشعب المتكبر(٣٣).

ومع ذلك ، وجد بلدوين أن مصير ايلغازي بات تحت رحمة الجورجيين ، وفي ذلك فرصة لم يدعها تفلت منه . ذلك أن ايلغازى عين ابنه سليمان مؤخرا واليا على حلب ، لكن هذا الابن الطائش انتهز هزيمة والده واعلن استقلاله ، ولما وجد نفسه عاجزاً عن التصدى للهجوم الذى شنه عليه بلدوين على الفور، تصالح مع الفرنج متنازلا لهم عن زردنه وأتارب ، وهما ثمرة انتصار أبيه ايلغازى . فسارع ايلغازى إلى معاقبة ولده العاق، ولكنه ارتأى من الحكمة تأييد المعاهدة مع بلدوين ، الذى عاد إلى القدس وقد نال منه السرور بحصاد ذلك العام(٣٤).

وفي وقت مبكر من عام ١١٢٢م ، خلع بونز ، كونت طرابلس ، فجأة ولاءه للملك . ولسنا نعرف سبب هذا العصيان ، فيصعب أن نفهم ما هى المساعدة التى كان ينتظرها لكي يحتفظ بولائه للملك . وقد حنق بلدوين واستدعى أتباعه على الفور للحضور ومعاقبة العاصي . وسار الجيش الملكى من عكا، وباقترابه من بونز استسلم وغفر له(٣٥) . بيد أن استسلامه كان مؤقتا ، إذ أن ايلغازى كان على شفا الحرب مرة أخرى بعد أن حرّضه ابن أخيه بلك ، الذى كان أميرا على سروج والآن حاكم خانزيت . وعندما علم بلدوين بتلك الأنباء رفض أن تصديقها، فقد وقع معاهدة مع ايلغازى وهو يعتقد أن السيد المهذب - ويستخدم المؤرخ العربى كلمة "شيخ" - يحافظ على كلمته، لكن ايلغازى لم يكن سيدا مهذبا ، وقد وعده طغتكين بالمساعدة . فحاصر زردنا التى سبق أن أعاد الفرنج تشييدها ، وكان قد استولى على جزء من التحصينات عندما اقترب بلدوين . وتلى ذلك حملة بدون معركة ، إذ لم يشأ بلدوين أن يستدرج إلى كمين بما اعتاده الترك من التظاهر بالهرب كخدعة عسكرية . ومرة اخرى، كان المسلمون هم أول من سأم الكر والفر ، فعادوا إلى بلدهم . وأرسل بلدوين الصليب الحقيقى إلى القدس وهو مرتاح البال ، وذهب هو نفسه إلى

---

(٣٣) عن المؤسسات الجورجية فى القدس ، انظر Georgian Chronicle, pp. 222-3 and Brosset, Additions et Eclaircissements, x, pp. 197-205. ، وترد ملاحظات موجزة فى Rey, Les Colonies Franques, pp. 93-4، ومن الجائز ان يكون التهديد الجورجى المستمر للأراتقة والسلاجقة في بيرسارمينيا، قد ساعد بصورة غير مباشرة فى تعاظم قوة زنكي.

(٣٤) Kemal ad-Din, p.629; Ibn al-Athir, pp. 340-50.

(٣٥) of Charters, III, xi, pp.647-8; William of Tyre, XII, 17, pp. 536-7.

انطاكية(٣٦).

١١٢٢م : الكونت جوسلين يقع أسيراً

قبل وصول الصليب الحقيقى إلى القدس ، وصلت من الرها أنباء سيئة . ففى ١٣ سبتمبر ١١٢٢م، كان الكونت جوسلين وواليران أمير البيرة على جواديهما مع قوة صغيرة من الفرسان بالقرب من سروج عندما وجدوا انفسهم فجأة امام جيش بلك . فهاجموا الجيش ، لكن الأمطار الغزيرة أحالت السهل إلى بحيرة من الطمى ، فانزلقت الجياد وتعثرت ، ولم يجد التركمان خفيفو التسليح صعوبة في الاحاطة بالفرنج . وأسر جوسلين وواليران وستون من رفاقهما . وعلى الفور عرض بلك اطلاق سراحهم مقابل التخلى عن الرها . وبرفض جوسلين الاستماع إلى هذه الشروط ، اقتاد بلك الأسرى إلى قلعته فى خرتبرت(٣٧).

ولم يكن لأسر جوسلين كبير أثر في القوة البشرية للدويلات الصليبية . فنجد فى الشهر التالى فرسان الرها يغيرون بنجاح على الأراضى الاسلامية . غير أنه كان لطمة للمهابة الفرنجية أجبرت بلدوين على أن يضيف إلى مشاغله عملا آخر بأن تولى مرة اخرى إدارة الرها . ولحسن الحظ مات ايلغازى فى شهر نوفمبر في ميافارقين ، وقسّم أبناؤه وأبناء اخوته الميراث الأرتقى . فكانت ميافارقين من نصيب سليمان أكبر أبنائه ، وحصل أصغر ابنائه تمرتاش على ماردين ، أمّا بلك فقد زاد من املاكه فى الشمال وأخذ حران فى الجنوب ، وذهبت حلب إلى ابن اخيه بدر الدولة سليمان(٣٨).

وكان المسلمون قد استردوا اثارب مؤخرا، وفى إبريل من العام التالى استغل بلدوين ما ساد من اضطراب وحاول اجبار حاكم حلب الجديد الضعيف على تسليمها إلى الأبد . وبعد أن استعاد الملك مدينة البيرة شرع فى الرحلة إلى الرها كى يرتب

---

(٣٦) -Fulcher of Charters, III, xi, 3-7, pp. 648-51; Kemal ad-Din, pp. 632-3; Ibn al Qalanisi, p.166.

(٣٧) Fulcher of Charters, III, xii, I, pp. 651-2; Matthew of Edessa, ccxxxiv, pp. 306-7; Kemal ad-Din, p. 634; *Anon.* Chron. Syr. p. 90، ويقول تاريخ سوريا المجهول ان جوسلين كان يحضر زوجته الى البيت ، أخت روجر . ولكن لا توجد اشارة عن اعتقالها، وحيث ان روجر قد وهب اخته المبات ، فلا بد وان يكون الزواج قد حدث قبل موت روجر.

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 166; Ibn Hamdun, p. 516; Kemal ad-Din, pp. 6324; Matthew of Edessa, *loc. cit.* (يورد ماثيو مقالا يدل على جهل بالاستخلاف الأرتقى).

حكومتها. فوضع جيوفرى الراهب ، وهو لورد مرعش، على رأس ادارتها ، ثـم مضى مع قـوة صغيرة باتجاه الشمال الشرقى كى يستطلع الموضع الـذى أسر فيـه جوسـلين . وفى ١٨ ابريل ضرب معسكره على مسافة غير بعيدة مـن كركـر علـى نهـر الفـرات . وبينما كان يتهيأ للاستمتاع برياضة الصباح مع صقره ، غافلاً عن اقترابه من التركمان، انقض بلك على المعسكر.وقتل أغلـب الجيـش، وأسـر الملـك نفسـه ، وعومـل باحـترام وأرسل تحت الحراسة لينضم إلى جوسلين فى قلعة خرتبرت(٣٩).

١١٢٣م : بلدوين وجوسلين يحاولان الهرب من الأسر

ومرة أخرى اجتمع بلدوين وجوسلين فى الأسر . لكن الأمر هذه المرة أخطـر ممـا كان عليه عام ١١٠٤م ، إذ أن بلدوين الآن هو الملك ، أي بؤرة الهيكل الفرنجى كلـه . وقد برهنت مقدرته الإدارية على بقاء الهيكل قائما ، إذ واصل جيوفـرى الراهـب تدبير حكومة الرها ، وعندما وصلت الانباء أنطاكية، عاد البطريـق برنـارد فجعـل مـن نفسـه السلطة المسؤولة مرة أخرى . وفى القدس ، أشـيع أولا أن الملـك قُتـل ، فقـام البطريـق جورموند باستدعاء مجلس المملكة للانعقاد فى عكا . وعندما حان وقت انعقاده انجلـت حقيقة وقوعه فى الأسر . وانتخب المجلس أيوستاس جارنييـه ، لـورد قيسـارية وصيـدا، كي يعمل نائبا ووكيلا عن المملكة إلى حين تخليص الملك . وسارت الحياة الاداريـة فـى الأراضى الثلاث دونما عائق(٤٠).

واكتسب الأمير بلك مكانة علية ، غير انه لم يستغلها فى توجيه ضربـة قاضيـة إلى الفرنج، وانما استخدمها فى ترسيخ نفسه فى حلب . وكان ذلك عملا أصعب ممـا كـان يتوقع لأنه لم يكن محبوبا هناك . وأصبح سيدها فى يونية ، ثم هاجم الممتلكات الفرنجية الواقعة أكثر إلى الجنوب ، وما أن استولى على البارة فى شهر اغسطس حتى اضطـر إلى التوجه شمالا مرة أخرى إثر أنباء جاءته من خرتبرت(٤١).

---

(٣٩) Fulcher of Charters, III, xvi, I, pp. 658-9; William of Tyre, XII, II, p. 537; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 247; Matthew of Edessa, CCXXV, pp. 307-8; Ibn al-Qalanisi, p. 167; Ibn al-Athir, p.352.

(٤٠) Fulcher of Chartres, III, xvi, 1-3, pp. 659-61; William of Tyre, XII, 17, p. 538.

(٤١) Keman ad-Din, pp. 636-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 167-8، وللاطـلاع علـى مختلـف مـا كُتب عـن استيـلاء بلـك علـى حلـب انظر..Cahen, op.cit. p. 296 n.35

ذلك أن جوسلين كان محبوبا دائما من الأرمن . وبعد وصوله إلى الشرق سرعان ما حذا حذو بلدوين الأول وبلدوين الثانى وتزوج من فتاة أرمينية هى اخت ثوروس الروبينى، و لم تكن أرثوذوكسية المولد - مثل ملكتي القدس - ولكنها كانت من أتباع الكنيسة الأرمينية المستقلة ، ومن ثم كان أغلب أبناء بلدها يتعاطفون معها تعاطفا عظيما . وقد ماتت الآن ، وتزوج جوسلين مرة اخرى ، على أن علاقته الحميمة بالارمن استمرت ، و لم يُظهر لهم قط ما أظهره سلفه بلدوين الثانى من قسوة . وكانت قلعة خرتبرت واقعة فى الاراضى الأرمينية ، ووافق فلاح أرمينى على توصيل رسالة إلى أصدقاء جوسلين الأرمن . وجاء خمسون منهم متنكرين إلى قلعة خرتبرت ، وحصلوا على اذن الدخول كي يعرضوا على الحاكم مظلمة لهم باعتبارهم من رهبان وتجار المنطقة . وما أن دخلوا القلعة حتى أخرجوا أسلحتهم من طيات أرديتهم وتكاثروا على رجال الحامية . ووجد بلدوين وجوسلين فجأة أنهما اصبحا سيدين فى سجنهما . وبعد تشاور وجيز تقرر أن يغادر جوسلين القلعة ويطلب العون قبل أن يأتى الجيش الأرتقى، بينما يحاول بلدوين الحفاظ على القلعة . وتسلل جوسلين مع ثلاثة من رفاقه الارمن ، وبعدما أفلح فى التسلل خلال القوات التركية المتجمعة ، أرسل أحد رجاله عائدا ليطمئن الملك . وانطلق هو نفسه خلال ارض العدو الخطرة ، يختبئ نهارا ويتخبط ليلا فى ضجر على قدميه . واخيرا وصل الهاربون إلى نهر الفرات ، ولكن جوسلين لا يعرف السباحة ، بيد أنه كان يحمل معه قربتين من قرب النبيذ كان يحمل فيهما الماء ، فنفخ فيهما من فمه واستخدمهما كطوافتين ، وتمكن رفيقاه ، وهما من السباحين الأقوياء ، من دفعه عبر النهر فى الظلام . وفى اليوم التالى وجدهما أحد الفلاحين الذى تعرف على الكونت ورحب به مبتهجا ، إذ سبق وأن أعطاه جوسلين بعض الصدقة . وبمساعدة الفلاح وأسرته واصل جوسلين ارتحاله الحذِر إلى تل بشير حيث كشف عن نفسه لزوجته وللبلاط . و لم يتوقف هناك وإنما أسرع إلى أنطاكية لجمع الجنود لانقاذ الملك. لكن جيش أنطاكية كان صغيرا، وكان البطريق برنارد عصبيا. وبناء على اقتراحه أسرع جوسلين على جواد يسابق الريح إلى القدس. وكان أول ما فعله أن قدم قيوده قربانا على مذبح كالفارى (موضع صلب المسيح). ثم استدعى مجلس الفرسان وقص عليهم قصته. وتحمس البطريق جورمون والوكيل ايوستاس فى جمع الجنود الذين انطلقوا تحت قيادة البطريق جورمون والصليب الحقيقى فى المقدمة، باتجاه تل بشير. على أنهم بوصولهم هناك سمعوا انهم قد وصلوا بعد فوات الأوان.

ذلك أن بلك ، الذى سمع بأنباء الثـورة فـى خرتـبرت، صعـد بجيشـه مـن الجنـوب بسرعة أذهلت معاصريه . ولدى وصوله عرض على بلدوين مرورا مأمونا إلى بلده لقـاء تسليم القلعة . ورفض بلدوين إما لعدم ثقته في الأمير أو لأنه لم يشأ التخلي عن رفاقه. على أن القلعة كانت أقل مناعة مما كان يظن، إذ سرعان ما نسف مهندسو بَلَك جـدارا اقتحمه الجيش الأرتقي . و لم يظهر بلك الآن أي رحمة ، خاصة بوجود حريمه في القلعة وقد انتهكت حرمتهن . وجئ بكل من كان يدافع عن القلعة ، فرنجى أو أرمينـى وكـل امراة ساعدتهم – والراجح أن كانت هناك إماء من الأرمينيات في الحريم – وألقى بهم من فوق أسوار القلعة ليلقوا حتفهم . و لم يسلم سوى الملك وابـن أخ لـه ، ووالـيرين . فأقتيدوا إلى قلعة حرّان حيث المزيد من الأمان(٤٢).

١١٢٤م : مـوت بَلَكْ

و لم يجازف جوسلين بالهجوم على حرّان . وبعد أن استغل جيشه في غارة ناجحـة في جوار حلب، تخلى عنها وعاد إلى تل بشير . وكـان بلـك عـاجزا بنفـس القـدر عـن الافادة من الموقف . فـلا يستطيع واليـه على حلـب إلاّ أن يرد علـى الفرنـج بتحويـل كنائس حلب إلى مساجد ، مما أثار ثائرة المسيحيين المحليـين ، لكنهـم لم يلحقـوا ضـرراً قط باللاتين. وجاء بلك بنفسه إلى حلب لاعداد العدة لحملة جديدة . غير أنه في أوائل ١١٢٤م تمرد عليه أمير منبج ، لكن تمرتاش الأرتقـى اعتقلـه وسـحق التمـرد بنـاء علـى تعليمات بلك ، على أن شقيق المتمرد ، ويدعى عيسـى ، كـان يحتـل القلعـة واسـتنجد بجوسلين . ولقى بلك جيش جوسلين وهزمه ، وقتل جيوفرى الراهـب ، ثـم انطلـق إلى منبج ، وهو متلهف على حفظ النظام هناك ، بعدما تسلم استدعاءً عاجلا من الجنـوب، من عكا . غير أن سهما طائشا أصابه من قلعة منبج أنهى حياتـه يـوم ٦ مـايو . ومـات

---

(٤٢) Fulcher of Chartres, III, xxiii-xxvi, 6, pp. 676-93; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. pp. 248-10.، يقول فيتاليس إن الملكة مورفيا الأرمينية المولد ساعدت في تجنيـد المواطنين لانقـاذ الملـك . ويضيف ان السجناء أرسلوا الى فارس لكنهم اطلق سراحهم لاحقا William of Tyre, XII, 18-20, (ولسـوء pp. 538-41; Matthew of Edessa, ccxxxvi, pp. 308-10: Ibn al-Qalanisi, p.169; الحظ توجد فجوة في نص ابن القلانيسى (Kemal ad-Din, p. 637; Michael the Syrian, III, p.211. وربما كان ابن اخت بلدوين هو أخو Manasses of Hierges ، ابن اخته هوديرنا (انظر ادناه ص ٢٣٣). ويقول لنا ميخائيل، الذى يسميه بار نول (Arnulf?) انـه كـان ابـن احـدى الأخـوات . ويبدو ان اخت بلدوين الاخرى ، ماهالدا ، سيدة فيترى ، كان لديها ابنا واحدا ، تزوج ابنـة عـم لـه وريثة وتولى امارة Rethel ؛ William of Tyre XII, I, pp. 511-12, .

وهو يتمتم قائلاً إن موته بمثابة ضربة مميته لكفاح الإسلام . وكـان علـى حـق، إذ كـان هو الوحيد ، من بين جميع القادة الأتراك الذيـن حـاربهم الفرنـج ، الـذى أظهـر أقصـى درجات النشاط والحكمة . و لم تستمر قوة الأراتقة طويلا بعده(٤٣).

وفى مملكة القدس نفسها لم يترتب على غياب بلدون فى الأسر أي أثر ضار ، وإنما أغوت المصريين بغزو البلاد مرة اخرى . وفى مايو ١١٢٣م تحرك جيش مصـرى كبـير خارجا من عسقلان إلى يافا. وعلى الفور قاد ايوستاس جارنييه جيش القـدس للتصـدى له ، وذهب معه الصليب الحقيقى ، بينما سار مواطنـو القـدس المسـيحيون وهـم حفـاة الاقدام فى مواكب زيّاحية إلى الكنائس . وكانت جوانب الاحتياط المتصفة بالورع هذه مطلوبة ، إذ عندما واجه الفرنج المصريين عنـد يبنـه يـوم ٢٩ مـايو ، اسـتدار المصريـون هاربين برغم تفوقهم العددى ، تاركين معسكرهم نهبا للمسيحيين(٤٤) وكان ذلك آخر انجازات ايوستاس الذى مات يوم ١٥ مايو . وجريا على العادة السـائدة فـى المملكـة ، اتخذت أرملته من فورها، وهي ايما ابنة أخت البطريق أرنولف الغنيـة ، زوجـا آخـر هـو كونت يافا ، هيو (اوف لو بواسيه) ، كي لا تحرم أرضهـا مـن مسـتأجر نشـط . وأمـر مجلس المملكـة بنقـل منصـب وكيـل المملكـة (كونسـتابل) إلى وليـم (اوف بـور) أمـير الجليل(٤٥).

١١٢٣م : وصول أسطول بندقـى إلى عكا

فى عام ١١١٩م ، وبعد معركة بحرالدم مباشرة ، كتب الملك بلدوين إلى جمهورية البندقية ملتمسا مساعدتها، فبرغم أن المصريين لا يمثلون خطراً جسيماً على البر ، إلا أن اسطولهم ما يزال يسيطر على غرب فلسطين . وقد عرض على البندقية فى المقابل مزايـا تجارية ، وعزز البابا هـذا الطلـب ، وقـرر الـدوج (رئيـس قضـاة البندقيـة)، دومينيوكـو ميشيلى ، تلبية هذا الالتماس . ومرت حوإلى ثلاث سنوات قبل أن تجهز حملة البندقية .

---

(٤٣) Fulcher of Chartres, III, xxxi, 1-10, pp. 721-7; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 260; William of Tyre, XIII, II, pp. 570-1; Matthew of Edessa, ccxl, pp. 311-12; -Kemal ad-Din, pp. 641-2; Usama, ed. Hitti, pp. 63, 76, 130; Ibn al-Qalanisi, pp. 168 9 (ولا يذكر ابن القلانيسى موت بلك).

(٤٤) Fulcher of Chartres, III, xvi, 3-xix, I, pp. 661-8; William of Tyre, XII, I, pp.543-5.

(٤٥) Fulcher of Chartres, III, xxii, pp. 674-5; William of Tyre, *loc. cit.*، وبالنسبة لـهيو (اوف بواتيه) انظر ادناه ص ١٩١ . تزوج ايما قبل ابريل ١١٢٤م (Rohrich, *Regesta*, p.25).

وفى ٨ اغسطس ١١٢٢م ، أبحر من فينيسيا ما يزيد كثيرا على مئة سفينة حربية تحمل الرجال والخيول وأدوات الحصار . على أن هذا الاسطول لم يبحر مباشرة إلى فلسطين ، إذ تشاجرت فينيسيا مؤخرا مع بيزنطة بسبب محاولة من الامبراطور جون كومنينوس لتقليل مزاياها التجارية ؛ ولذا توقف البنادقة لمهاجمة جزيرة كورفو البيزنطية. وطوال نحو ستة اشهر من شتاء ١١٢٢-١١٢٣م ، ضرب الدوج حصارا عقيما على مدينة كورفو . وفى نهاية ابريل ، جاءتهم سفينة مبحرة على عجل من فلسطين لتخبر البنادقة بكارثة الملك . فرفع الدوج الحصار على مضض ، واخذ معه اسطوله الذى لا يقهر شرقا ، ولم يكن يوقفه الا مهاجمة اية سفينة بيزنطية تقابله . ووصل ميناء عكا فى نهاية مايو وسمع أن أسطولا مصريا يبحر في شواطئ عسقلان . فأبحر جنوبا لمقابلته ، وأرسل في المقدمة سفنه ذات أسلحة خفيفة كي يوقع الأسطول المصرى فى كمين . ووقع المصريون فى الفخ ، إذ ظنوا أنهم سيحصلون على نصر يسير فأبحروا خارج الميناء ، ليجدوا انفسهم وقد حوصروا بين أسطولين للبنادقة يفوقانهم عدداً ، ولم تفلت بالكاد من الكارثة أيه سفينة مصرية ، فالبعض غرق ، والبعض الآخر استولى عليه البنادقة ، ثم استولوا في طريق عودتهم على اسطول تجارى قابلهم يتألف من عشر سفن مملوءة عن آخرها[٤٦] ، وبذا تعاظم نصرهم.

وكان وجود الاسطول البندقى فرصة ثمينة ينبغي انتهازها. ودارت مناقشة حول ما إذا كان يتعين استغلال الاسطول فى الاستيلاء على عسقلان أو صور ، وهما القلعتان الاسلاميتان الباقيتان على الساحل . وأيد نبلاء يهودا مهاجمة عسقلان ، وأيد نبلاء الجليل مهاجمة صور.وأخيرا قرر البنادقة مهاجمة صور ؛ إذ أن ميناءها هو الأفضل على طول الساحل ، وهو الآن ميناء الأراضى الدمشقية الغنية ، وهو مركز تجارى أكثر أهمية بكثير من عسقلان ، ففيه مكان رسو مفتوح للسفن ، ومن حوله البلاد الداخلية الفقيرة . على أنهم أصرّوا على الثمن الذى يطلبونه . وتطاولت المفاوضات حول الشروط طوال الخريف . وفى عيد الميلاد من عام ١١٢٣م ، استمتع القادة البنادقة بما اغدقه الصليبيون عليهم من متع القدس ، وحضروا الصلوات فى بيت لحم . وفى وقت مبكر من السنة الجديدة تم توقيع معاهدة فى عكا بين ممثلى جمهورية البندقية من ناحية ، وبين البطريق جورمون ، والوكيل وليم والمستشار باجان باسم الملك الأسير، من ناحية اخرى . وتقضى المعاهدة بأن يتسلم البنادقة شارعا بكنيسة ، وحمامات ومخبزا ، معفاة

---

(٤٦) Fulcher of Chartres, III, xx, 1-8, pp. 669-72; William of Tyre, XII, 23, pp. 546-7; *Historia Ducum Veneticorum, M. G. H. Ss.* vol. xiv, p. 73

جميعا من كل الإلتزامات المألوفة ، وذلك فى كل مدينة من مدن المملكة . ولهم مطلق الحرية فى استخدام الأوزان والمقاييس الخاصة بهم فى كافة تعاملاتهم ، وليس فقط فيما بينهم ، وأن يعفوا من كافة المكوس والرسوم الجمركية فى سائر انحاء المملكة . ولهم أن يتسلموا بيوتا اضافية من عكا ، وثلث كل من صور وعسقلان إذا ساعدوا فى الاستيلاء عليهما. وفضلا عن كل ذلك، يُدفع لهم مبلغ سنوى مقداره ثلاثمائة بيزانت عربى (ساراسانى) يضاف إلى العوائد الملكية فى عكا. وفى المقابل وافقوا على استمرارهم المعتاد فى تسديد ثلث أجور سفر الحجاج للخزانة الملكية. بل طالب البنادقة بأنه لا ينبغى للمملكة أن تخفض الرسوم الجمركية المفروضة على الرعايا الآخرين دون موافقة البنادقة. وأقسم البطريق جورمون على الإنجيل بأن الملك بلدوين سوف يؤيد المعاهدة عندما يطلق سراحه، وهو ما حدث فى الواقع بعد سنتين ، رغم أن بلدوين رفض قبول الشرط الأخير، الذى يعنى أن تصبح تجارة المملكة كلها خاضعة لمصالح البندقية(٤٧). وبعد توقيع المعاهدة تحرك الجيش الفرنجى أعلى الساحل إلى صور ، وأبحر الاسطول البندقى فى خط مواز له. وبدأ حصار صور يوم ١٥ فبراير ١١٢٤م(٤٨).

١١٢٤م : حصار صور

كانت صور ما تزال تابعة للخلافة الفاطمية . وكان مواطنوها فى عام ١١١٢م قد صُدموا من ضآلة المساعدة التى تلقوها من مصر أثناء حصار المدينة فى العام الذى قبله ١١١١م ، مما دفعهم إلى السماح لطغتكين بأن يولّى عليها واليا من عنده ، فأرسل واحدا من أقدر قواده ، الأمير مسعود، لكى يباشر أمور المدينة . وفى الوقت ذاته ، كانت سيادة مصر معترفا بها ، وكان الأئمة فى المساجد يدعون على المنابر للخليفة الفاطمى ، الذى كان مطلوباً منه إرسال مساعدة بحرية منتظمة إلى المدينة(٤٩). وسارت الحكومة الثانية سيرا سلسا لعشر سنوات ، ويعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى حرص الوزير الأفضل على حسن العلاقات مع طغتكين ، فهو فى حاجة إلى صداقته ضد الفرنج . لكن أحد الحشاشين اغتال الأفضل فى ديسمبر ١١٢١م فى أحد شوارع القاهرة .

---

(٤٧) Tafel and Thomas, I, pp. 84-9; Rhricht, *Regesta*, pp. 23-5; William of Tyre, XII, 4-5, pp. 547-53; Fulcher of Chartres, III, xxvii, 1-3, pp. 693 5.

(٤٨) Fulcher of Chartres, III, xviii, *I*, pp. 695-6.

(٤٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 128-30, 142.

فرغب الخليفة الآمر ، الذى اصبح سيد نفسه أخيرا، فى استعادة السيطرة علـى صـور . فأرسل اليها اسطولا عام ١١٢٢م ، كما لو كان يقصد تعزيز الدفاع عن المدينة ، وقـام أمير البحر بتوجيه الدعوة إلى حاكم المدينة مسعود ليتفقد السفن ، وعندمـا صعد ظهر السفينة اختطفه وأخذه إلى القـاهرة . واستقبل استقبالا حسنا هنـاك ، وأرسل بكل مظاهر التشريف إلى طغتكين ، الـذى لم يشأ أن يثير نزاعاً حـول استعادة الفـاطميين للمدينة . على انه باقتراب الفرنج من المدينـة ، أعلـن الخليفـة الآمـر عـدم استطاعته أن يفعل شيئا لانقاذ المدينة بعد تدمير أسطوله ولذا أسلم دفاعاتها إلى طغتكـين الـذى دفع اليها لتوه سبعمائة جندى تركى ومؤن لمواجهة الحصار(٥٠).

ولم يكن يربط صور بالبر الرئيسى للبلاد سوى برزخ ضيق كان الاسكندر الاكـبر قد شيده ، وكانت تحصيناتها فى حالة جيدة . على انه كان يعيبها نقطة ضعف واحدة؛ إذ كانت مياه الشرب تأتى خلال قناة من داخـل البـلاد ، لعدم وجـود آبـار فـى شبه الجزيرة . وقطع الفرنج هذه القناة فى اليـوم التـالى لمجيئهـم، لكـن أمطـار الشتـاء مـلأت صهاريج المدينة ، ومضى بعض الوقـت قبـل أن يشـعر السـكان بنقـص الميـاه . واستقر الفرنج فى معسكر بين الحدائق والبساتين حيث يلتقـى البـرزخ بالـبر الرئيسـى للبـلاد . وأرسى البنادقة سفنهم بمحاذاتهم ، لكنهم دائما ما كـانوا يحتفظـون بقـادس فـى البحـر لاعتراض أية سفينة قد تحاول الابحار للدخول إلى الميناء . وكان القـائد الاعلـى للجيـش هو البطريق جورمون ، وكان يثير الانطباع بأن لديه من السلطة أكثر مما لـدى الوكيـل (الكونستابل) . وكـان كونـت طرابلـس ، عندمـا جـاء بجيشـه للانضمـام إلى القـوات المحاصرة ، قد أبدى استعداده لأن يطيع البطريق فى كل شئ ، وهذا تنازل ربمـا لم يكـن يمنحه لوليم (اوف بور)(٥١).

وتواصل الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف . ودأب الفرنـج علـى قصـف منتظـم للأسوار عبر البرزخ من آلات أحضر البنادقة مواد صنعها . وكان المدافعون عـن المدينـة من جانبهم مجهزين جيدا براجمات الحجارة والنيران الاغريقية التى كانوا يطلقونهـا علـى مهاجميهم. وحاربوا حربا رائعة ، غير أن أعدادهم الضئيلة لم تكن تسمح لهم بمحاولات الخروج . وخشية أن يجـبرهم الجـوع والعطـش ونقـص الرجـال علـى التسـليم ، تسـلل

---

(٥٠) *Ibid.* pp.165-6, 170-1; Ibn al-Athir, pp. 356-8.

(٥١) Fulcher of Chartres, III, xxviii, I-xxx, 13, pp. 695-720) وقـد أورد اسـتطرادا طويـلا حـول تاريخ صـور)؛ William of Tyre, III, 7, p. 565

رسلهم خارج المدينة لحث طغتكين والمصريين على الاسراع لنجدتهم . فقام جيش مصرى بهجوم مضلل على القدس نفسها ، ووصل إلى ضواحى المدينة المقدسة . غير أن مواطنيها وتجارها ورجال الدين والقساوسة أسرعوا إلى أعلى أسوارها الضخمة ، ولم يجازف القائد المصرى بمهاجمتها . وسرعان ما قام جيش مصرى آخر بنهب المدينة الصغيرة بلين أو (ماهومرى La Mahomerie) ، على مبعدة أميال قليلة شمال القدس ، وقتل سكانها . على أن هذه الغارات المنفردة لا تنقذ صور . بل كان طغتكين أقل حماساً فى مساعدتها ، وعندما بدأ الحصار تحرك بجيشه إلى بانياس عند منبع نهر الأردن منتظرا أخبار وصول أسطول مصرى يستطيع أن ينسق معه هجومه على المعسكر الفرنجى ، ولكن لم يبحر أسطول مصرى أعلى الساحل ، إذ لم يستطع الخليفة أن يجمع أسطولا . وكان الفرنج يخشون هذا التلاقى بين القوات البحرية والبرية المعادية ، ولذا بقى الاسطول البندقى لعدة أسابيع خارج صور ليعترض المصريين ، وأرسل البطريق جيشا كبيرا على رأسه بونز أمير طرابلس ووليم (اوف بور) لمقابلة طغتكين . وعندما وصلوا بانياس ، قرر طغتكين عدم المجازفة بمعركة وانسحب إلى دمشق . والآن بات الأمل الوحيد للمحاصَرين فى صور هو بلك الأرتقى ، الذى اشتهر بانه آسر الملك وأزمع بلك أن يخف لنجدتهم ، لكنه قتل فى منبج فى شهر مايو.

وبنهاية شهر يونية أصبح الوضع داخل صور باعثا على اليأس . إذ أخذ الطعام والشراب فى التناقص وسقط الكثير من رجال الحامية . وأيقن طغتكين من أن المدينة سوف تستسلم لا محالة ، فأرسل إلى معسكر الفرنج يعرض استسلام المدينة بالشروط المعتادة ، بأن يُسمح للسكان الراغبين فى مغادرة المدينة بالرحيل الآمن مع منقولاتهم ، ويحتفظ من يرغب فى البقاء بحقوق المواطنة . وقبل القادة الفرنج والبنادقة هذا العرض ، برغم ما بدا على الجنود والبحارة من غيظ شديد لدى سماعهم بأنه لن يكون هناك سلب ونهب ، وهددوا بالتمرد .وفى ٧ يولية فتحت البوابات واستولى الجيش الفرنجى على المدينة، ورفعت راية الملك على البوابة الرئيسية ، ورايتا كونت طرابلس والدوج البندقى على البرجين الواقعين يمين ويسار البوابة الرئيسية . والتزم القادة بكلمتهم ، فلم يحدث سلب ، ومر موكب طويل من المسلمين فى سلام خلال المعسكر الصليبى . وهكذا انتقلت آخر مدينة اسلامية ساحلية واقعة شمال عسقلان إلى المسيحيين ، وعاد جيشهم مبتهجا إلى القدس ، وأبحر البنادقة عائدين إلى فينيسيا بعدما حصلوا على رطل

اللحم[٥٢] الخاص بهم[٥٣].

١١٢٤م : فدية الملك بلدوين

وصلت الأنباء السارة الملك بلدوين فى شيزر . فبعد موت بلك ، انتقلت مسؤولية حبس الملك إلى تمرتاش بن ايلغازى ، الذى لم ترُقْه المسؤولية وفضّل فكرة الحصول على فدية سخية . فطلب من أمير شيزر الدخول فى مفاوضات مع الفرنج . ورحلت الملكة مورفيا إلى الشمال لتكون أقرب ما يمكن من زوجها ، وقامت هى والكونت جوسلين بترتيب الشروط مع الأمير . وكانت الفدية المطلوبة باهظة. فكان على الملك أن يسدد لتمرتاش ثمانين الف دينار ، وكان عليه التخلى عن مدن أتارب ، وزردنا وعزاز وكفرطاب والجزْر ، لتصبح مدنا تابعة لحلب - حيث خلف تمرتاش سلطة بلك ، وعليه أيضا مساعدة تمرتاش فى اخضاع زعيم البدو دوبيس بن صدقة ، الذى استقر فى الجزيرة . وينبغى له أن يدفع عشرين الف دينار مقدما ، ويتم الاحتفاظ برهائن فى شيزر لحين دفع المبلغ المتبقى ، وما أن يتسلم المسلمون المبلغ يطلق سراح بلدوين . وعن الرهائن ، طلب تمرتاش أصغر أطفال الملك ، الأميرة جوفيتا ذات السنوات الأربع ، وابن جوسلين ووريثه ، صبى فى الحادية عشرة من عمره ، وعشرة من ابناء النبلاء . ولكى يظهر الأمير سلطان شيزر حسن نواياه ، أرسل بعض افراد اسرته إلى حلب . وفى نهاية يونية ١١٢٤م ، غادر بلدوين حران على جواده الصوّال الخاص به الذى كان تمرتاش قد احتفظ له به ، ومعه هدايا كثيرة ثمينة . وذهب إلى شيزر ، حيث أكرم أميرها وفادته لاعفائه قبل ذلك بخمس سنوات من الأموال المستحقة على شيزر لأنطاكية ، وقابل ابنته ورفاقها الرهائن . وبوصولهم سُمح له بالانطلاق إلى انطاكية التى وصلها فى الأيام الأخيرة من شهر اغسطس[٥٤].

---

(٥٢) (المترجم) اشارة الى مسرحية شكسبير " تاجر البندقية " فليرجع اليها من شاء.

(٥٣) Fulcher of Chartres, III, xxxii, I-xxxiv, 13, pp. 728-39، يحدد فولشر تاريخ الاستيلاء على المدينة (ويوجه اللوم ظلما الى أبناء انطاكية لعدم تعاونهم)؛ William of Tyre, XIII, 13-14, pp. 573-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 170-2 giving the date; Ibn al-Athir, pp. 358-9 يعطى التاريخ ٩ يولية Abu'lFeda, pp.15-16 يحدد التاريخ ٥ يولية؛ Matthew of Edessa, ccxliv, p.314.

(٥٤) Usama, ed. Hitti, pp. 133, 150; Kemal ad-Din, pp. 643-4; Matthew of Edessa, ccxli, pp. 312-13 ويذكر ماتيو الأروفى ان جوسلين والملكة قاما بترتيب الفدية ، واضاف ان تيمورتاش قتل واليران وابن اخ الملك - والراجح ان سبب ذلك ان الملك خان شروط فديته (Michael the Syrian, III, pp. 212-225. وفى المواثيق سُمّيت جوفيتا Joveta بأسماء مختلفة Yvette, Ivetta or Juditta.

والآن ، وبعد أن نال بلدوين حريته ، خان الشروط التى قبلها . فقد أكّد له البطريق برنارد انه ليس سوى الوصى على انطاكية وسيدها، وليس من حقه التنازل عن اراضيها التى تنتمى إلى الشاب بوهمند الثانى . واقتنع بلدوين عن طيب خاطر بالحجة وأرسل يخبر تمرتاش بعميق الاعتذارات انه لسوء حظه البالغ لايستطيع عصيان البطريق . وكان تمرتاش مهتماً بتسلم المال أكثر من اهتمامه بالأرض ، فغفر الاساءة خشية ضياع باقى الفدية . ولما وجد بلدوين أن تمرتاش على هذا القدر من الاذعان ، لم يحترم شرطه الآخر الذى بموجبه وعد بمساعدته ضد الأمير البدوى دبيس بن صدقة ، وبدلا من ذلك استقبل سفارة من دبيس للتخطيط لعمل مشترك ضد حلب. وولد التحالف بينهما . وفى اكتوبر انضم جيشا انطاكية والرها إلى رجال دبيس الأعراب أمام أسوار حلب . وسرعان ما تعزز هذا التحالف بمقدم المطالب بعرش حلب إلى معسكرهم ، سلطانشاه (بن رضوان) ، الذى هرب مؤخرا من سجن الاراتقة ، مع ابن عمه طغرل ارسلان ، اخى سلطان سلاجقة الروم ، وكان الدانشمند قد أخرجوه مؤخرا من ملطية فراح يبحث عن حلفاء.

ولم يبذل تمرتاش أية محاولة للدفاع عن حلب . إذ كان أخوه سليمان صاحب ميافارقين يقضى آخر أيامه ، وأراد تمرتاش أن يستوثق من الميراث ، فمكث فى ماردين تاركا وجهاء حلب يقاومون قدر استطاعتهم ، فقاوموا لثلاثة اشهر كان الرسل خلالها يأتونه فيسئ استقبالهم ، إذ لا رغبة لديه فى أن يسببوا له مزيدا من المضايقة ، فتوجهوا إلى الموصل وأثاروا اهتمام أتابكها ، آقسنقر البرسقى ، الذى سبق وأن قاد جيوش السلطان ضد الفرنج عام ١١١٤م . وكان البرسقى يكره الأراتقة ، فأرسل قادة من عنده لاستلام قلعة حلب بينما انطلق هو نفسه مع الجيش ، برغم مرضه ، تشيعه بركات السلطان . وعندما اقترب من حلب أمر خيرخان صاحب حمص ، وطغتكين صاحب دمشق بالانضمام اليه، فأرسل كلاهماالكتائب . وقبل استعراض القوة هذا ، كان التحالف الفرنجى - البدوى قد تفكك . إذ رحل دبيس مع قبيلته باتجاه الشرق ، بينما انسحب بلدوين إلى قلعة الأثارب . وفى نهاية يناير دخل البرسقى حلب، لكنه لم يحاول مطاردة الفرنج فعاد الملك إلى انطاكية ومنها إلى القدس التى وصلها فى ابريل ١١٢٥م بعد غيبة عامين[٥٥].

(٥٥) Fulcher of Chartres, III, xxxviii-xxxix, 9, 2, pp. 751-6; William of Tyre, XIII, 15, pp. 576-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 172-3; Kemal ad-Din, pp. 645-50; Usama, ed. Hitti, p. 133; Matthew of Edessa, ccxlv, pp. 314-15.

١١٢٥م : معركة عزاز

ولم ينتظر الملك طويلا في القدس . إذ كان البرسقى أكثر رعبا للفرنج من الأراتقة. فقد تمكن من توحيد مسلمي شمال سوريا تحت سلطته لكونه سيد الموصل وحلب ، ويحظى بمؤازرة السلطان ، وخضع طغتكين وأمير حمص لزعامته . في شهر مارس قام بزيارة شيزر ، التي كان أميرها ، سلطان بن منقذ ، تواقا دائما لمصادقة ذوى الشأن ، فسلّمه الرهائن الفرنج ، الأميرة يوفيتا وجوسلين الصغير ورفاقهما . وفي شهر مايو ، قاد تحالفا اسلاميا جديدا وهاجم القلعة الفرنجية كفرطاب واستولى عليها، وحاصر زردنا . فأسرع بلدوين شمالا لانقاذ زردنا ، وقاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها فبلغ قوامها ألف ومائة فارس وألفين من جنود المشاة . وانطلق المسلمون إلى عزاز حيث جرت في نهاية شهر مايو واحدة من اكثر المعارك تعطشا للدماء في تاريخ الحملات الصليبية . فحاول المسلمون النزال رجل لرجل، معتمدين على تفوقهم العددى غير أن تفوق لباس الحرب وضخامة ابدان الفرنج كان فوق طاقة المسلمين ، فهزموا هزيمة حاسمة . ومن الغنائم الكثيرة تمكن بلدوين من جمع مبلغ ثمانين الف دينار المطلوبة لفدية الرهائن ، إذ تخلى كل فارس عن جزء من نصيبه لانقاذ ابنة الملك . ورغم أن المال كان من حق تمرتاش في الواقع ، إلا أن البرسقى قبله وأعاد الرهائن . وأُرسل مبلغ آخر إلى شيزر لافتداء السجناء والرهائن الذين كانوا ما يزالون هناك. وفور اطلاق سراحهم هاجمهم امير حمص ، غير أن بني منقذ سارعوا لانقاذهم وارسلوهم إلى حيث يتخذون طريقهم.

وبعد المعركة ابرم المتقاتلون هدنة . فاحتفظ المسلمون بكفرطاب التي أعطيت لأمير حمص، ولم تكن هناك تغييرات أخرى على الأرض . وبعد أن ترك البرسقى حامية في حلب عاد إلى الموصل . وحل السلام على الشمال طوال ثمانية عشر شهرا[٥٦].

وعاد بلدوين إلى فلسطين ، حيث قام في خريف ١١٢٥م بغارة على الأراضي الدمشقية ، ومظاهرة عسكرية لاستعراض القوة أمام عسقلان . وفي يناير ١١٢٦م قرر قيادة حملة جادة ضد دمشق، وغزا حوران . فجاءه طغتكين لملاقاته ، وتلاقى الجيشان عند تل الشقب ، حوالي عشرين ميلا جنوب غرب دمشق . ومال ميزان الحرب لصالح

---

(٥٦) -Fulcher of Chartres, III, xlii, I-xliv, 4, pp. 761-71; William of Tyre, XIII, II, pp. 578-80; Sigebert of Gembloux, M.G.H.Ss. vol. VI, p. 380; Kemal ad-Din, p 651; *Bustan*, p. 519; Usama, loc. cit.; Matthew of Edessa, ccxlvii, pp. 315-18, Michael the Syrian, III, p.221.

المسلمين أول الامر ، وتمكنت فصيلة التركمان التابعة لطغتكين من التوغل حتى المعسكر الملكى . لكن بلدوين فاز فى النهاية وطارد الأعداء حوالى نصف المسافة باتجاه دمشق ، غير أنه نظرا لخسائره الجسيمة رأى الحكمة فى التخلى عن الحملة وانسحب إلى القدس محملا بالغنائم(٥٧).

وفى مارس ١١٢٦م هاجم بونز أمير طرابلس القلعة الاسلامية رافنية التى تتحكم فى مدخل البقاع من وادى نهر العاصى . وهى هدف فرنجى منذ وقت طويل ، منذ أن استولى عليها طغتكين عام ١١٠٥م . وبينما استنجد حاكمها بطغتكين والبرسقى ، طلب بونز مساعدة الملك بلدوين . وسارع الأميران المسيحيان بالسير إلى القلعة ، قبل أن يتهيأ المسلمون للمجئ لانقاذها بوقت طويل . فاستسلمت لهما بعد حصار دام ثمانية عشر يوما . وكان الاستيلاء عليها ذا قيمة عظيمة للفرنج ، فزيادة على أنها بمثابة حماية لطرابلس نفسها ، اصبحت تؤمّن طرق المواصلات بين القدس وانطاكية(٥٨).

وفى تلك الأثناء أعاد المصريون بناء اسطولهم . وفى خريف ١١٢٦م أبحر الاسطول من الاسكندرية لمهاجمة الساحل المسيحى . ولمّا سمع البرسقى بذلك راح يخطط لهجوم متزامن فى الشمال فحاصر الأثارب . وكان بلدوين على حق عندما قرر أن الهجوم الأخير هو الأخطر فأسرع إلى أنطاكية.وما حدث فى واقع الأمر أن المصريين قاموا بغارات على ضواحى بيروت ثم وجدوا المدن الساحلية محصنة جيدا بالحاميات حتى انهم سرعان ما عادوا إلى النيل(٥٩). وفى الشمال ، انضم جوسلين إلى بلدوين وأجبرا المسلمين على الانسحاب من الأثارب ولم يجازف أيّ من الجانبين بالدخول فى معركة. وسرعان ما أعيد ابرام الهدنة . وعاد البرسقى إلى الموصل بعد أن نصّب ابنه عز الدين مسعود حاكما على حلب . وفى نفس يوم وصوله ، ٢٦ نوفمبر ، طعنه أحد الحشاشين طعنات قاتلة(٦٠).

---

(٥٧) -Fulcher of Chartres, III, xlvi, 1-7, l, 1-15, pp. 772-4, 784-93; William of Tyr, XIII, 17 18, pp. 581-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 574-7.

(٥٨) Fulcher of Chartres, III, li, 4, lii, I, pp. 795-7, 798-9; William of Tyre, XIII, 19, pp. 585-6; Ibn al-Qalanisi, p. 180; Kemal ad-Din, p. 652.

(٥٩) Fulcher of Chartres, III, lvi, 1-5, pp. 803-5; William of Tyre, XIII, 20, pp. 587-8.

(٦٠) Fulcher of Chartres, III, lv, 5, pp. 802-3; Ibn al-Qalanisi, pp. 177-8; Kemal ad-Din, pp. 653-4.

وتسبب موت البرسقى فى فوضى عارمة بين المسلمين ، زادت سوءً بموت ابنه مسعود بعده بأشهر قليلة ، ربما بالسم ، خاصة وانه قد تشاجر مع طغتكين . وأما حلب فتجاذبتها أيدى كثيرة . إذ كانت تتأرجح بين طومان ، الذى عيّنه مسعود ، وضلع أبه ، وهو مملوك ارسله السلطان ، وبدر الدولة سليمان الأرتقى ، وابن رضوان ابراهيم السلجوقى(٦١).

١١٢٦م : وصول بوهمند الثانى

وفى نفس الوقت على وجه التقريب تنفس بلدوين الصعداء بعد أن استراح من وصايته على انطاكية . ذلك أن بوهمند الثانى الصغير بلغ من العمر الآن ثمانية عشر عاما ، وها هو قد أتى ليتسلم ميراثه ، بعد أن تخلى عن اراضيه فى ايطاليا لابن عمه روجر الثانى الصقلى . وقد أبحر من أوترانتو فى شهر سبتمبر ١١٢٦م مع أسطول صغير يتألف من أربع وعشرين سفينة تحمل عددا من الجنود والجياد . ونزل إلى شاطئ السويدية فى وقت مبكر من اكتوبر ، وسار مباشرة إلى انطاكية حيث رحب به الملك بلدوين بكل مظاهر التشريف ، وقد ترك انطباعا رائعا ، إذ كان له مظهر ابيه الفخيم ، بهيئته الطويلة وشعره الأشقر ووسامته ، واظهر جواً من التنشئة الرفيعة اكتسبه من أمه كونستانس ابنة الملك فيليب الأول الفرنسى . وفى الحال سلمه الملك بلدوين الامارة بكل ممتلكاتها ، وبكل ما كان يتصف به من دقة وأمانة ، وقد تأثر سفير شيزر عميق التأثر عندما رأى الملك منذآنذاك يدفع للأمير ما كانت تستهلكه جياد جيش القدس. وكان بصحبة الملك ابنته الثانية ، الاميرة أليس ، وتنسيقاً للخطة المرسومة سلفا تزوجها بوهمند الثانى . وبدأ بوهمند عهده بداية لامعة ، بهجوم على كفرطاب فاستعادها من أمير حمص ، وسرعان مانسمع بعد ذلك بشجاعته فى مناوشات مع جيش شيزر(٦٢).

واستطاع الملك بلدوين أخيراً العودة جنوبا وهو يشعر أن موت البرسقى ومجئ

---

(٦١) Ibn al-Qalanisi, pp. 181-2; Kemal ad-Din, p. 654; Michael the Syrian, III, p. 225.

(٦٢) (Fulcher of Chartres, III, lvii, 1-4, lxi, 1-5, pp. 805-9, 819-22) وتتحدث الفصول التى تتوسط تاريخ فولشر عن مخاطر البحر المتوسط وانواع الثعابين التى توجد على شواطئه. وبعد فصل آخر حول طاعون الفئران عام ١١٢٧م ، ينتهى تأريخ فولشر) (William of Tyre, XIII, 21, pp. 588-9; Orderic Vitalis, XI, 9, vol. IV, p. 266; Matthew of Edessa, ccl. p.319) ويقول ماثيو الأورفى ان بلدوين وعد بوهمند باستخلافه على عرش القدس؛ Michael the Syrian, III, p.224; Usama, ed. Hitti, p.159.

بوهمند سوف يتيح له حرية تدبر مملكته . فأمضى سنة ١١٢٧م فـى سـلام دائـم حتـى اننا لا نعرف شيئا عن تحركاته ، باسـتثناء حملـة قصـيرة شـرقى البحـر الميـت فـى شـهر اغسطس(٦٣) . وفى باكورة ١١٢٨م مات صديقه المخلص البطريق جورمون . وخلفـه قس فرنسى آخر هـو ستيفن (اوف لا فيرتيه) رئيس دير القديس جون إنفاليـه فـى تشارترز ، وهو نبيل المولد ، تربطه قرابة بالملك بلدوين . وكـان بلدوين يـأمل فـى أن تؤدى روابـط القرابـة إلى التعـاون بـروح الـود ، لكنـه سـرعان مـا أكتشـف انـه كـان واهما.ذلك أن البطريق الجديد جدد فى الحـال مسـألة الاتفـاق الـذى سـبق وأن عقـده جودفرى مع البطريق دايمبرت . فطالب بأن تكون يافا ملكية ذاتية للبطريارقية ، وذكّر الملك بأنه فور أن يتم الاستيلاء على عسقلان ، فلا بـد أن تسـلم اليـه القـدس نفسـها. ورفـض بلدويـن الانصـات لتلـك الطلبـات ، لكنـه لم يـدر كيـف يعالجهـا . وسـاءت العلاقات بين البلاط الملكى والبطريارقية طوال عـام ١١٢٩م . وفـى أوائـل ١١٣٠م ، اوشكت الأزمة أن تصبح علنية، لولا أن مات ستيفن بعد فترة مرض قصيرة . وارتـاب أصدقاؤه فى السم . إذ عندما جاء الملك لزيارة البطريق المحتضر والاستفسار عن صحتـه علق هذا الأخير بمرارة : "سيدى ، ها أنا مفارق كرغبتـك" . وحقـا، كـان موتـه شـيئاً مرغوبا . وتدبر بلدوين انتخاب خلفه وليم (اوف ميسينا) رئيس دير القبر المقدس، وهو رجل شديد الورع والطيبة ، برغـم شـئ مـن البسـاطة وسـوء التعليـم . و لم تكـن لديـه طموحات سياسية، وكانت سعادته فى إنفاذ مشيئة الملك . ونتيجـة لذلـك غـدا محبوبـا من الجميع(٦٤).

١١٢٨م : الإستخلاف على العرش

كان الأمر الثانى الهام أن يرتب بلدوين خلافة العرش . إذ لم تلد له الملكـة مورفيـا ذكورا ، وانما كان هناك أربع بنات : ميليسند ، وأليـس ، وهوديرنـا ، ويوفيتـا . والآن اصبحت أليس أميرة انطاكية ، واما هوديرنا ويوفيتـا فكانتـا طفلتـين . وتقـرر أن تخلفـه ميليسند بعد اقترانها بزوج مناسب . وفى ١١٢٨م ، وبعد أن استشـار مجلسـه ، ارسـل وليم (اوف بور) ، ومعه لورد بيروت ، جـوى بريسـبار إلى فرنسـا ملتمسـا مـن ملـك

(٦٣) Ibn al-Qalanisi, p. 182.

(٦٤) William of Tyre, XIII, 25-6, pp. 594-5, 598; أحيانا كان يسمى الراهب وليم (اوف مـاليتز of Malines.) وأما ميسينا Messines فهى تقع فى غرب فلاندرز.

فرنسا لويس السادس أن يختار من بين النبلاء الفرنسيين رجلا مناسبا لهذا المقام الرفيع . ورشح الملك كونت أنجو ، فولك الخامس ، الذى كان فى الأربعين من عمره ، وهو ابن فولك الرابع ، ريشين ، ومن زوجته برترادا (اوف مونت فورت)، والتى اشتهرت بعلاقة الزنا مع الملك فيليب الأول ملك فرنسا. وكان فولك رئيس عائلة عظيمة قامت خلال العقدين الماضيين ببناء واحدة من أغنى الثروات الاقطاعية الماثلة فى فرنسا ، وأضاف اليها هو نفسه اضافات كثيرة عن طريق الحرب ، والزواج ، والدسائس . وفى نفس ذلك العام حقق نصرا عائليا بتزويج ابنه الصغير ووريثه ، جيوفرى ، من الامبراطورة الأرملة ماتيلدا، وهى الابنة الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة من هنرى الأول الإنجليزى ووريثة انجلترا ونورماندى. وفولك الآن أرمل ، وقد قرر أن يتخلى عن اراضى العائلة لابنه ، ويكرّس نفسه لخدمة الصليب . وقد سبق وان ذهب إلى القدس حاجا عام١٢٠١م، ولذلك كان بلدوين يعرفه معرفة شخصية . ولمّا كان مرشحا مرموقا هكذا ، ويحظى بتأييد ملك فرنسا، ومؤازرة البابا هونوريوس الثانى، فقد قبله الملك بلدوين بمشاعر الغبطة، وكان تواقا لأن تحوز ترتيبات الاستخلاف استلطاف النبلاء فى مملكته، فمن المستحيل على أيّ من هؤلاء النبلاء أن يجادل في مزايا هذا الأمير المحارب ، الذى يتمير بهذه الرفعة ، وزوج كبرى كريمات الملك.

غادر فولك فرنسا فى اوائل الربيع من عام ١١٢٩م ، يصحبه وليم (اوف بور) وجوى بريسبار . ونزلوا إلى البر فى عكا فى شهر مايو وتوجهوا إلى القدس . وهناك ، وفى اواخر الشهر ، تزوج فولك وميليسند فى حفول عظيمة مبهجة . وقد حاز هذا الترتيب قبول البلد بأسره ، ربما باستثناء واحد . إذ أنه لم يحرك ساكنا لدى الاميرة ميليسند نفسها ، بقامته القصيرة ، ونحافته ، وشعره الأحمر ، وعمره الوسط ، والذى فرضته عليها فرضا مزاياه السياسية (٦٥).

---

(٦٥) William of Tyre, xiii, 24, p. 593, xiv, 2, p. 608; Halphen et Poupardin, *Chroniques des Comtes d'Anjou, Gesta Ambaziencium Dominorum*, p. 115 and *Gesta Consulum Andegavorum*, pp. 69-70 كان فولك قد تزوج Arenburga أو Guiberga ، وريثة Maine حوالى عام ١١٠٩م ، وواصل الحرب ضد هنرى الأول الانجليزى بسبب ميراثها.وقد انتهت المشكلة بزواج ابنه جيوفرى (١٧ يونية ١١٢٨م) من الإمبراطورة ماتيلدا وكانت ابنته سيبيللا قد تزوجت من Thierry اوف الزاس، كونت فلاندرز. وقد حج بالفعل الى القدس عام ١١٢٠ (وليم الصورى ص. ٦٠٨). ويرد خطاب البابا هونوريوس الثانى الى بلدوين الذى يطريه فيه ، فى Rozière, *Cartulaire du Saint Sèpulcre*, pp. 17'18.

١١٢٦م : الحشاشون فى بانياس

شرع بلدوين فى عام ١١٢٩م بمساعده فولك فى اضخم مشاريع عهده كله ، ألا وهو غزو دمشق. فقد مات طغتكين صاحب دمشق يوم ١٢ فبراير ١١٢٨م ، وكان لسنوات كثيرة سيد المدينة بكل مافى السيادة من معنى ، واكثر شخصيات المسلمين احتراما فى غربى سوريا(٦٦). وقبل ذلك ببضع سنوات تمكن أحد زعماء الحشاشين ، وهو باهرام من استرأباد ، من الهرب من فارس وذهب إلى حلب ، ورسخ نفسه قائدا للحركة الاسماعيلية السرية فى شمال سوريا. ورغم ما كان يلقاه من مساندة ايلغازى ، كان ابناء حلب يمقتون هذه الطائفة ، وأجبر باهرام على النزوح من حلب ، قادما إلى دمشق وهو يعوّل على التوصية التى منحها اياه ايلغازى ، فاستقبله طغتكين استقبالا حسنا . واستقر هناك ، واخذ يجمع المناصرين من حوله شيئا فشيئا ، وفاز بتعاطف المزدقانى وزير طغتكين . وتعاظمت قوة الطائفة مع انكار أهل دمشق السنّيين ، ولذا طلب باهران الحماية من المزدقانى . ونزولا على طلب الوزير ، قام طغتكين فى نوفمبر ١١٢٦م بتسليم الطائفة القلعة الحدودية بانياس – الواقعة تحت تهديد الفرنج – وبذا باتت الآمال تراود طغتكين فى استغلال نشاطات الطائفة . وأعاد باهرام تحصين القلعة وجمع حوله كل اتباعه ، وسرعان ما بدأوا يرهبون الجوار . أما طغتكين ، الذى كان ما يزال يوفر لهم الحماية من الناحية الرسمية ، فقد أزمع القضاء عليهم، لكن المنية عاجلته قبل أن تسنح له الفرصة . وبعد ذلك بأشهر قليلة قتل باهرام فى صدام مع قبيلة عربية بالقرب من بعلبك كان باهرام قد قتل شيخها. وتولى من بعده فارسى آخر يدعى اسماعيل(٦٧).

وخلف طغتكين ، كأتابج دمشق ، ابنه تاج الملك بورى ، الذى عقد العزم على أن يخلص نفسه من الحشاشين . واتخذ خطوته الاولى فى سبتمبر ١١٢٩م ، بأن قتل فجأة راعى الطائفة ، الوزير المزدغانى، بينما كان حاضرا المجلس فى الايوان الوردى فى دمشق . وفى التو اندلعت فى دمشق أعمال الشغب ، التى كانت من دبير بورى ، وقُتل كل من وقعت عليه الايدى من الحشاشين . وفى بانياس ، شعر اسماعيل بالخطر، فبدأ مفاوضات مع الفرنج لكى ينقذ شيعته.

وكانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها الملك بلدوين . إذ انه لدى سماعه بموت

---

(٦٦) Ibn al-Qalanisi, pp.183-6; Ibn al-Athir, pp.317-18

(٦٧) Ibn al-Qalanisi, pp. 179-80, 187-91; Ibn al-Athir, pp 382-4.

طغتكين ، أرسل هيو (اوف باين) ، وهو السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إلى اوروبا لتجنيد الجنود هناك معلنا أن دمشق باتت الهدف . وعندما جاءته رسل اسماعيل ، شرع جنود الفرنج فى استلام بانياس من الحشاشين ، وبدأوا يعدون العدة كى يستقر بها اسماعيل وطائفته فى داخل الاراضى الفرنجية . وهناك مرض اسماعيل بالدوسنتاريا ، ومات بعد ذلك بأشهر قليلة وتفرق أتباعه(٦٨) ، وجاء بلدوين نفسه إلى بانياس فى أوائل نوفمبر على رأس جيش القدس كله الذى زاد ضخامة بوصول الوافدين الجدد من الغرب . وتقدم دون مقاومة جادة وعسكر عند الجسر الخشبى ، الذى يبعد نحو ستة أميال جنوب غرب دمشق . وحشد بورى جيشه قبالتهم والمدينة من خلفه . ولم يتحرك أيّ من الجيشين لعدة ايام ، وفى تلك الأثناء أرسل بلدوين فصائل تتألف أساسا من الوافدين الجدد ، تحت قيادة وليم (اوف بور) لجمع الطعام والمواد قبل أن يجازف بمحاصرة المدينة . على أن وليم لم يستطع السيطرة على رجاله الذين كان اهتمامهم منصبا على السلب والنهب أكثر من اهتمامهم بجمع المؤن بطريقة منظمة . وعلم بورى بذلك . وفى باكورة احد الأيام المتأخرة من نوفمبر ، انقض فرسانه التركمان على وليم وهو على بعد عشرين ميلا جنوب المعسكر الفرنجى . وحارب الفرنج بشدة ، لكنهم غُلبوا ، ولم يسلم منهم سوى وليم نفسه وخمسة وأربعين من رفاقه بقوا على قيد الحياة ليخبروا الملك بما حدث(٦٩).

وقرر بلدوين السير فى التو لملاقاة الاعداء وهم يحتفلون بنصرهم ، وأعطى الأمر بالتقدم . وفى تلك اللحظة بدأت الأمطار تهطل بغزارة السيول الجارفة ، واستحال السهل إلى بحر من الطمى ، ونشأت أنهار عميقة قطعت الطرق بعرضها . وفى مثل هذه الظروف يكون الهجوم مستحيلا . وأصيب الملك بخيبة أمل مريرة ، فتخلى عن أية فكرة لمواصلة الحصار . وانسحب الجيش الفرنجى انسحابا بطيئا وانما فى نظام مثالى إلى بانياس ، ومنها إلى داخل فلسطين ، حيث تفرق الجيش(٧٠).

---

(٦٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 191-5; Ibn al-Athir, pp. 384-6.

(٦٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 195-8.

(٧٠) William of Tyre, XIII, 26, pp. 595-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 198-200.

١١٢٧م : نزاع بين بوهمند الثاني وجوسلين

أسهمت أحداث الشمال فى اشتداد قسوة الشعور بخيبة الأمل . إذ كان بلدوين يأمل فى أن ينتهز بوهمند الثانى وجوسلين ما عمّ حلب من فوضى ويستوليا اخيرا على المدينة الاسلامية العظيمة . على انه بالرغم من نجاح غارات كل منهما على اراضى حلب في خريف ١١٢٧م ، كان التعاون بينهما بعيداً ، فكل منهما غيور من صاحبه . وكان جوسلين بهدنة مع البرسقى ، قد حصل على مقاطعات كانت أنطاكية تحتلها لفترة من الزمن . وما هو أسوأ ، أن ماريا زوجة جوسلين الثانية ، أخت روجر امير انطاكية ، كانت قد حصلت على وعد بان يكون مهرها مدينة عزاز ، بينما اعتبر بوهمند أن روجر لم يكن سوى الوصي باسمه ولا حق له فى أن يهب أرضا أنطاكية . ورفض الاتفاق ، مما دفع جوسلين إلى توجيه جنوده بمساعدة المرتزقة الأتراك للاغارة على القرى الأنطاكية القريبة من الحدود . وأطلق البطريق برنارد حرمانا من شركة المؤمنين ضد امارة الرها كلها ، لكن ذلك لم يردع جوسلين . وأحيط الملك علما بأنباء النزاع ، فتملكه الحنق ، واسرع باتجاه الشمال فى اوائل ١١٢٨م ، وأجبر الأميرين على التصالح مع بعضهما . ولحسن الحظ أصيب جوسلين ، الذى كان أكثر شراسة ، بمرض فجائى ارتأى فيه عقوبة من السماء ، ووافق على أن يعيد إلى بوهمند الأسلاب التى أخذها ، والظاهر انه تخلى عن مطالبته بمدينة عزاز . غير أن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان . إذ ضاعت فرصة ذهبية في العام التالى فى دمشق ولن تتكرر قط . إذ وجد الاسلام بطلا جديدا بالغ القوة(٧١) .

ذلك أن الخليفة العباسى المسترشد ، الذى خلف الشاعر الودود المستظهر عام ١١١٨م، فكّر خلال الأشهر الأخيرة من عام ١١٢٦م ، فى استغلال النزاعات العائلية بين سلاطين السلاجقة كى يتحرر من سيطرتهم ، مما اضطر السلطان محمود ، وكانت بغداد واقعة ضمن مناطق نفوذه ، إلى أن يتوقف عن الصيد لارسال جيش إلى هناك ، وأمّر عليه قائده عماد الدين زنكى . وقد ذاعت شهرة زنكى فى الحروب ضد الفرنج، وكان أبوه آقسنقر حاكما لحلب قبل فترة الحملات الصليبية . وبعد حملة يسيرة، تمكن زنكى من الايقاع بقوات الخليفة في (منطقة واسط) ، وأجبر الخليفة على الطاعة . وسُرّ الخليفة المسترشد مما أبداه زنكى من تصرف فيه الحذق واللباقة بعد انتصاره ، وعند تعيين اتابج جديد للموصل بعد موت البرسقى ، جاء بذهن السلطان محمود تعيين

---

(٧١) William of Tyre, XIII, 22,p.590; Michael the Syrian, III, p 224; Kemal ad-Din, p. 665.

شيخ القبيلة البدوى دوبيس ، غير انه وافق الخليفة على أن زنكى مرشح افضل . وتم تنصيب ابن السلطان ، ألب ارسلان الشاب، أميراً للموصل مع زنكى كأتابجه . وأمضى زنكى شتاء عام ١١٢٧م فى الموصل ينظّم حكومته هناك . وفى ربيع عام ١١٢٨م سار إلى حلب مدعيا أنها جزء من أراضى البرسقى . وكان سكان حلب قد اجهدهم ما عانوه من الفوضى ، فاستقبلوه بمشاعر البهجة ، ودخل المدينة فى موكب حافل يوم ٢٨ يونية(٧٢).

ورأى زنكى فى نفسه بطل الإسلام ضد الفرنج ، لكنه لم يشأ أن يضرب الاّ عندما يعد للأمر عدته. فأبرم هدنة مع جوسلين تستمر أربع سنوات ، راح اثناءها يعزز من قوته فى سوريا . وسارع اميرا شيزر وحمص إلى الاعتراف بسيادته عليهما . ولم يكن يخشى الأول ، أما الثانى فقد حثه على مساعدته فى حملة ضد حماه التابعة للاملاك الدمشقية ، مع الوعد بمنحه حق ولايتها . على انه ما أن تم الاستيلاء على حماة حتى استبقاها زنكى لنفسه وسجن خيركان أمير حمص ، رغم عدم تمكنه من الاستيلاء على حمص ذاتها. وكان بورى أتابج دمشق ، الذى وعد بالانضمام اليه فى الجهاد ضد المسيحيين ، مشغولا للغاية فى حروبه ضد القدس بحيث لم يعترض بصورة ايجابية على ما اقدم عليه زنكى . وبنهاية عام ١١٣٠م كان زنكى سيد سوريا دون منازع حتى حمص جنوبا(٧٣).

١١٣٠م : مصرع بوهمند الثانى

وفى نفس ذلك العام أصيب الفرنج بكارثة جسيمة . إذ كان بوهمند الثانى يطمح فى أن يضم إلى امارته كافة الاراضى التى كانت تضمها من قبل . كانت القوة الانطاكية تتدهور فى كيليكيا ، وكانت طرسوس وأدنة ماتزالان فى أيدى الفرنج ، ويبدو انهما كانتا بمثابة مهر أرملة روجر ، سيشيليا أخت الملك بلدوين ، وقد بقيت الحامية الفرنجية فى المصيصة . أما فى داخل البلاد الأبعد ، فقد كانت (عين زربة) فى قبضة الأمير الأرمينى ثوروس الروبينى الذى اتخذ عاصمته فى سيس القريبة . وقد مات ثوروس عام ١١٢٩م ، ومات ابنه قنسطنطين بعده بأشهر قليلة فى احداث مكيدة فى

(٧٢) عن تاريخ زنكى حتى عام ١١٢٨م انظر Cahen, op.cit. pp.306-7, and nn. 12 and 13 (with references).

(٧٣) Ibn al-Qalanisi, pp. 200-2; Kemal ad-Din, p. 658; Matthew of Edessa, cclii, p. 320.

القصر . وكان الأمير التالى هو ليو الأول ، شقيق ثوروس(٧٤) وظن بوهمند أن اللحظة قد حانت لاسترداد (عين زربة) . وفى فبراير ١١٣٠م زحف بقوة صغيرة اعلى نهر جيحان نحو غايته . وشعر ليو بالخطر وطلب المساعدة من الأمير غازى، الدانشمندى ، الذى تصل اراضيه الآن إلى جبال طوروس . ولم يعلم بوهمند بهذا التحالف، وبينما كان يتقدم أعلى النهر بلا اكتراث لما كان يقابله من مقاومة طفيفة ، انقض عليه الأتراك الدانشمند وقتلوا رجال جيشه كلهم . وقيل إن الأتراك لو تعرفوا على الأمير نفسه لأبقوا على حياته طمعا فيما كان سيدفع من فدية. لكن الذى حدث أن الأمير الدانشمندى أخذ رأسه وحنّطها وجعلها شعارا أرسله هدية إلى الخليفة(٧٥).

وتسبب تدخل بيزنطة فى عرقلة الأتراك عن متابعة انتصارهم ، وبقيت عين زربة فى حوزة الأرمن(٧٦) . غير أن موت بوهمند كان بمثابة الكارثة لأنطاكية ، فقد تولى بوهمند امارة انطاكية بحق الوراثة ، وتقضى العواطف بأن تنتقل حقوقه إلى وريثه . غير أن زواجه من أليس لم ينجب سوى طفلة واحدة فى الثانية من عمرها تدعى كونستانس . وكان ينبغى أن يقوم الملك ، مستخدما حقه بصفته السيد الأعلى ، بتعيين وصىّ لها . لكن أليس ، ودون انتظار تلك الخطوة من أبيها ، تولت الوصاية لتوها. لكنها كانت طموحة . وسرعان ما انتشرت الشائعات فى انطاكية انها تريد أن تحكم لا كوصية ، وانما باعتبارها السيد الحاكم . وكان من المقرر أن تودع الطفلة كونستانس داخل اسوار الدير ، أو عندما تصل البلوغ ، تتزوج من زوج حقير . وهكذا فقدت الأم الشاذة شعبيتها فى الامارة ، التى يشعر فيها الكثير من الرجال بأن هذه الأوقات تستدعى وصيًا محاربا . وعندما سمعت أليس أن الملك فى طريقه اليها من القدس، شعرت بأن القوة تنزلق من قبضتها، فاتخذت خطوة يائسة . إذ كان هناك رسول فوق صهوة جواد تحيطه الزينة ومحلّى بأزهى الأغطية المزركشة ، يسرع العدو إلى حلب ، إلى أتابكها زنكى ، تعلن له انها على استعداد للاعتراف بسيادته إذا ضمن لها امتلاك انطاكية.

---

(٧٤) Vahram, *Armenian Rhymed Chronicle*, p. 500.

(٧٥) William of Tyre, XIII, 27, pp.598-9; Orderic Vitalis, XI, 10, vol.IV, pp. 267-8; Romuald, M.G.H.Ss. vol. XIV, p.420; Michael the Syrian, III, p. 227; *Chron. Anon. Syr.* pp.98-9; Ibn al-Athir, p. 468.

(٧٦) Michael the Syrian,(III, p.230)، يقول ميخائيل إن جون كومنينوس بدأ فى الحال هجوما على الأتراك . (انظر ادناه ص ٢٤٦).

وكان الملك بلدوين قد اسرع إلى الشمال مع زوج ابنتـه فولـك، علـى اثـر سماعـه بموت بوهمند ، ليتولى الوصاية على الوريث ويعيّن الوصي . وباقترابه من المدينة ، القت قواته القبض على مبعوث أليس إلى زنكي . فشنقه الملك فى الحال . وعندما ظهـر امـام انطاكية وجـد ابنتـه قـد أغلقـت البوابـات فـي وجهـه . فاستدعى جوسـلين لمساعدته وعسكر امام المدينة . و فى داخل المدينة فازت أليس بتأييد مؤقت بعدما اغرقت الجنـود والناس بالمال من خزانة الإمارة . وربما كانت الدماء الأرمينية التى تجرى فـى عروقهـا جعلتها محبوبة بين المسيحيين الوطنيين . غير أن النبـلاء الفرنـج لـن يـؤازروا امـرأة ضـد سيدهم. وبعد ايام قليلة قام فارس نورماندى ، وليـم (اوف افـرس) ، والراهـب بطـرس اللاتينى ، بفتح بوابة الدوق لجوسلين ، وبوابة القديس بولس لفولك . وفى اليوم التـالى دخل الملك . وحجزت أليس نفسها فى برج من الأبراج، و لم تظهر الاّ عندما ضمن لهـا وجهاء المدينة حياتها وتلى ذلك مقابلـة مؤلمة بـين بلدويـن وابنتـه التـى ركعـت أمامـه مرعوبة فى عارها . وأراد الملك تجنب الفضيحة ، ولا شك فـى أن قلـب الأب بداخلـه قد خفق لابنته ، فغفر لها ، لكنه أبعدها عن الوصاية ونفاها إلى اللاذقية وجبلـة ، وهـى الأراضى التى منحها لها بوهمند الثانى مهرا. وباشر هـو نفسـه الوصايـة ، وحصـل مـن كل لـموردات انطاكيـة علـى القسـم لـه ولحفيدتـه معـا ، وبعـد أن عهـد إلى جوسـلين بمسـؤولية الوصايـة علـى انطاكيـة وأميرتهـا الطفلـة ، عـاد إلى القـدس فـى صيـف ١١٣٠م[٧٧].

١١٣١م : موت بلدوين الثانى وجوسلين الأول

وكانت تلك آخر رحلاته . إذ أضنته حياة طويلة حافلة بنشاط لا ينتهى لم يقطعها سوى فترتين بئيستين قضاهما فى الأسر . وبدأت صحته تنهـار فـى ١١٣١م ، وبحلـول أغسطـس ، بدا جليـا انـه يحتضـر . وأبدى رغبته فى أن ينقل من القصر فى القـدس إلى مكان اقامة البطريق الملحق بمبانى كنيسة القبر المقدس ، حتى يموت أقرب ما يمكـن مـن الجمجمة[٧٨]. وعندما شارف على النهاية استدعى نبلاء المملكـة إلى حجرتـه ، ومعهـم ابنته ميليسيند وزوجها فولك وابنهما وسميّه بلدوين البالغ من العمر سنة واحـدة. ومنـح

(٧٧) William of Tyre, XIII, 27, pp. 599-601; Micael the Syrian, III, p. 230; Kemal ad-Din, pp. 660-1.

(٧٨) (المترجم) الجمجمة Calvary، أو الموضع الدى صلب فيه المسيح خارج اورشليم.

فولك وميليسند بركاته ودعا الجميع إلى قبولهما على انهما سيدا المملكة . وكان هو نفسه مرتديا رداء كاهن تحت رسامته كاهنا من كهنة كنيسة القبر المقدس . وتمت رسامته بالكاد قبل أن يموت يوم الجمعة ٢١ اغسطس ١١٣١م ، ودفن في كنيسة القبر المقدس ، وسط نواح يستحقه ملك عظيم(٧٩).

ولم يعش ابن عمه ورفيقه القديم جوسلين كونت الرها فترة طويلة بعده . وفي الوقت الذى كان فيه الملك يموت تقريبا ، راح جوسلين يحاصر قلعة صغيرة شمال شرق حلب ، وبينما كان يتفقد رجاله انهار من تحته أحد الأنفاق كان رجاله قد حفروه . وكانت جراحاته بالغة وتبددت الآمال في شفائه . وبينا هو راقد يحتضر ، جاءت الأنباء بأن الأمير الدانشمندى غازى قد زحف على مدينة كيسوم ، وهي القلعة العظيمة التي نصّب فيها جوسلين مؤخرا بطريق انطاكية اليعقوبي . وشدد الأتراك ضغطهم على كيسوم، وأمر جوسلين ابنه بالذهاب لانقاذها . غير أن جوسلين الصغير اجاب بأن جيش الرها ضئيل للغاية بحيث تنتفى صلاحيته .فما كان من الكونت المسن الاّ أن نهض من فراشه ، وحملوه في محفّة على رأس جيشه ليحارب الأتراك . وجفل غازى من انباء قدومه ، إذ كان يظنه قد مات فعلا ، وفي حالة القلق التي راودته رفع الحصار عن كيسوم . وجاء من المدينة رسول يعدو ليخبر جوسلين الذى أمر بأن توضع محفته على الأرض حتى يتمكن من توجيه الشكر إلى الرب . وكان الجهد والانفعال فوق احتماله ، فمات هناك على حافة الطريق(٨٠).

وبموت بلدوين وجوسلين ، يأتي الجيل القديم من الرواد الصليبيين إلى نهايته . وفي السنوات التي سوف تلي ، نجد انماطا جديدة من النزاعات بين صليبيي الجيل الثاني. رجال ونساء من أمثال جوسلين الثاني والأميرة أليس ، أو من مثل بيت طرابلس، المهيّأ لأن ينتظم في نمط الحياة الشرقية ، ولا يعبأ إلا بالحفاظ على ما في

---

(٧٩) William of Tyre, XIII, 28, pp. 601-2; Orderic Vitalis, XII, 23, vol. iv, p. 500 , Ibn al-Qalanisi, pp 207-8 يذكر ابن القلانيسي تاريخ الوفاة يوم الخميس ٢٥ رمضان ، لكنه يخطئ العام ويذكر (٥٢٦ هجرية).

(٨٠) William of Tyre, XIV, 3, pp. 609-11; Michael the Syrian, III, 232; *Chron. Anon Syr* pp 99-100

حوزته من ممتلكات، والوافديـن الجـدد الآتـين مـن الغـرب شـيمتهم العدوانيـة ، غـير المصقولين ، الذين يستعصى عليهم الفهم ، من أمثال فولك ، أو ريموند (اوف بواتييـه)، أو رينالد (اوف شاتيلون) المشئوم[٨١].

(٨١) Ibn al-Athir, pp. 389-90، يتحقق ابن الأثير من الظروف المتغيرة باختفاء رواد الصليبيين من ناحية، وبداية الوحدة الإسلامية تحت راية زنكى من ناحية اخرى

الفصل الثانى:

الجيل الثانى

الجيل الثانى

"لأنهم ولدوا أولادا أجنبيين"

(هوشع ٥ : ٧)

فى ١٤ سبتمبر ١١٣١م ، وبعد ثلاثة أسابيع من رقود الملك بلدوين الثانى ساجيا ليستريح فى كنيسة القبر المقدس ، شهدت الكنيسة ذاتها تتويج الملك فولك والملكة ميليسند . وأقيمت الحفول البهيجة فى مناسبة استخلاف العاهل الجديد(١).

على أنه بينما قبل بارونات مملكة القدس الملك فولك دون تردد ، كان أمراء الشمال الفرنج أقل استعدادا لقبوله كسيد أعلى . إذ سبق وأن كان كل من بلدوين الأول وبلدوين الثانى سيدا أعلى لجميع الدويلات الفرنجية لأن لكل منهما من القوة والشخصية ما يمكنه من ذلك . غير أن الوضع القانونى لم يكن واضحا بأى حال من الأحوال ، ففى حالة الرها ، اعترف جوسلين الأول - كبلدوين الثانى من قبله -

(١) William of Tyre, XIV pp. 608-9, 2.

بسيادة سلفه عندما غدا سلفه هـذا ملكـا للقـدس وورّثـه الإقطاعيـة . فهـل يعـني ذلـك الترتيب أن يصبح ورثة جوسلين أتباعا لورثة بلدوين الثاني؟ فى طرابلس خضع الكونت برتراند لسيادة بلدوين الأول كي يوفر الحماية لنفسه من عدوان تنكريـد ، غـير أن ابنـه بونز حاول فعلا انكار حقوق بلدوين الثاني ، ولم يعترف بتلـك الحقـوق الا لأنـه كـان يفتقر إلى ما يكفى من القوة لتحدى قوات الملك . وفى انطاكية ، اعتـبر بوهمنـد الأول نفسه أميرا ذا سيادة . وأما تنكريد ، وبرغم انـه كـان وصيّـا فقـط وليـس أميرا ، فقـد رفض أن يعتبر نفسه تابعا للملك إلا فيما يتصل بامارته للجليل . وعلـى الرغـم مـن أن روجر وبوهمند الثاني قد اعترفا ببلدوين الثاني سيدا أعلى ، فمن الجـائز الجـدل بأنهمـا كانا مخطئين فى ذلك . وكان الوضع معقدا بما كان الامبراطور البيزنطى يطالب بـه مـن حق مشروع فى الحصول على انطاكية والرهـا ، بموجـب المعـاهدة المبرمـة بـين الامـراء والامبراطور فى القسطنطينية أثناء الحملة الصليبية الأولى ، والحصول أيضا على طرابلس بسبب ما اعترف به الكونت برتراند من سيادة للامبراطور.

وأدت خلافة فولك إلى إثارة المسألة برمتها.فتولت أليس ، شقيقة زوجته ، زعامـة موجة المعارضة لسيادته العليا ، وقد خضعت لأبيها الملك بلدوين وهى فى خزى شديد، لكنها الآن أعادت تأكيد مطالبتها بأن تكون وصيـة علـى ابنتهـا الصغيرة . ففـى حالـة إمكان التوصل إلى أن ملك القدس ليس السيد الأعلى لأنطاكية فلن تكون مطالبتها هذه بلا أساس تستند إليه ، إذ أنه من المعتاد فى كل من بيزنطـة والغـرب منـح الوصايـة لأم الطفل الأمير . وقد كان موت جوسلين الأول ، بعد شهر تقريبـا مـن مـوت بلدويـن ، فرصة أتيحت لها ؛ إذ أن جوسلين كان وصيا على الأميرة الصغـيرة كونسـتانس ، ولـن يلجأ بارونات انطاكية إلى تعيين ابنه جوسلين الثاني وصيـا مكـان أبيـه. وكـان كونـت الرها الجديد ينصت إلى ما كانت أليس تتملقه به من إطـراء وهـو فـى حالـة مـن خيبـة الأمل ، فلا شك فى انه هو الآخر غير مستعد لقبول فولـك سـيدا اعلـى لـه . وأيدهـا بونز امير طرابلس أيضا ، وكـانت زوجتـه سيشـيليا قـد حصلـت مـن زوجهـا الأول ، تنكريد ، على أراضى قلعة اليحمـور (روج) وأرزغـان مهـرا لهـا، ومـن ثـمّ أصبـح مـن خلالها أحد عظام بارونات الإمارة الأنطاكية . وأيقن من أن تحرر انطاكيـة مـن القـدس سوف يمكّن طرابلس من أن تسير على نفس الدرب. وقد فازت أليس فعلاً بتأييد أرفـع البارونات شأنا فى جنوب الامارة وهم: الأخوان وليم وغارينتون فى زَردَنا، ولـوردات صهيون، وهى القلعة العظيمة التى شيدها البيزنطيون على التلال الواقعة خلف اللاذقيـة؛ وكان لديها أنصارها فى أنطاكية نفسها. غير أن أغلب لوردات انطاكية كانوا يخشـون
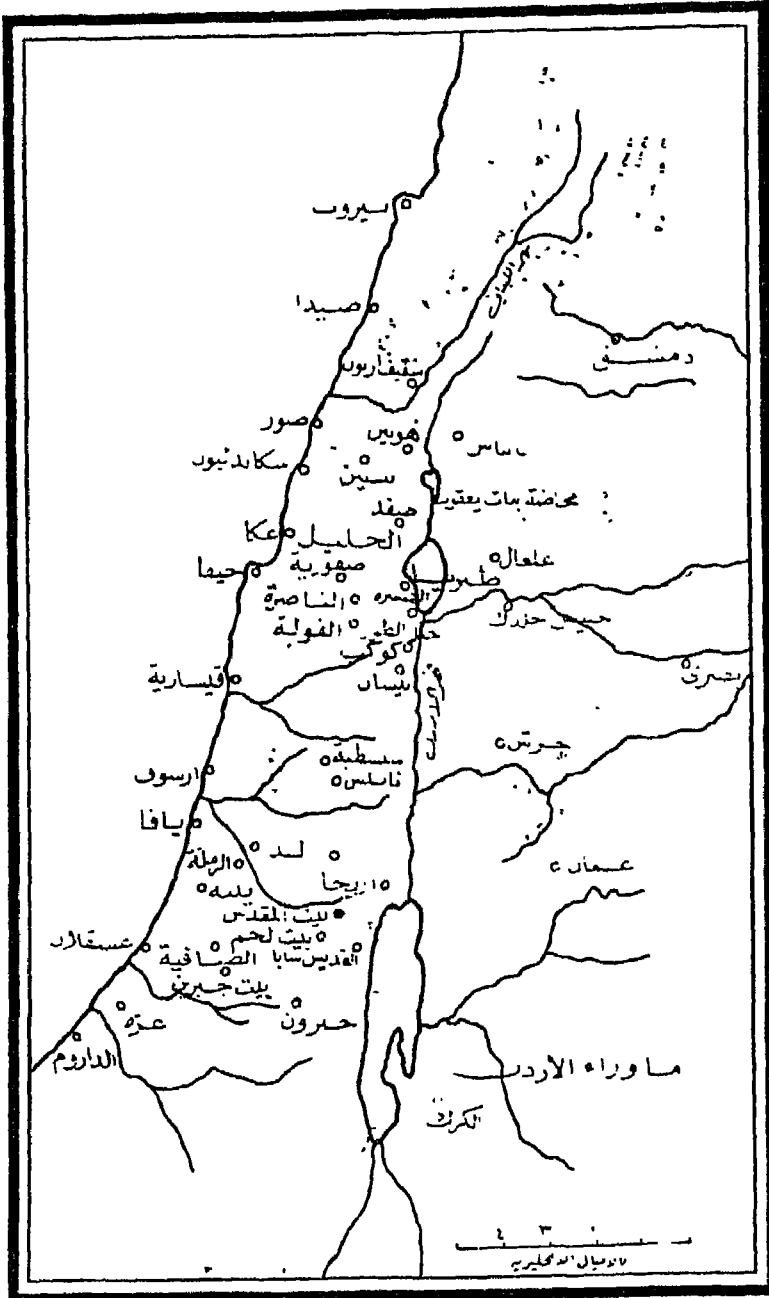
خريطة رقم (٣) مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

من أن تحكمهم امرأة. وعندما سمعوا شائعات بما تدبره أليس أرسلوا مبعوثا إلى القدس لاستدعاء الملك فولك.

وفي الحال انطلق فولك من القدس مع جيش كان الأمر محدبا ليس بوسعه تجاهله . وعندما وصل إلى حدود طرابلس رفض بونز أن يدعه يمر وكانت الكونتيسة سيشيليا أخت غير شقيقة لفولك ، ولم تفلح مناشدته لها باسم حقوق القرابة . وكان على جيش القدس أن يتقدم بحرا من بيروت إلى السويدية . وما أن هبط في الأراضي الأنطاكية حتى زحف الملك جنوبا وهزم الحلفاء المتمردين في شاستيل روج (اليحمور). لكنه لم يكن على ما يكفي من القوة لمعاقبة أعدائه . إذ اعتذر له بونز وتصالحا . وبقيت أليس دون أن يلحقها أذى في اللاذقية ، في اراضيها التي اخذتها على سبيل المهر . وغفر للأخوين وليم وجارينتون (أميرا صهيون) ، وكذلك جوسلين كونت الرها الذى لم يكن حاضرا فى المعركة . ومن المشكوك فيه ما اذا كان فولك قد حصل على قسم الولاء من أيٍّ من بونز أو جوسلين ، ومن مواضع الشك كذلك مدى نجاحه في تحطيم الحزب الذى تحزب لأليس . وبعد شهور قليلة قتل وليم (أمير صهيون) في غارة اسلامية صغيرة على زردنا ، وعلى الفور تزوج جوسلين أرملته بياتريس التى ربما منحته زردنا باعتبارها بائنتها . على أن السلام تحقق في ذات الوقت. واحتفظ فولك نفسه بالوصاية على انطاكية ، وعهد بادارتها إلى وكيل الامارة (الكونستابل)، رينالد مازوار لورد مرقب . وعاد هو نفسه إلى القدس ليشترك في مأساة مرعبة في البلاط[٢].

١١٣٢م : هيو (اوف لو بواسيه) والملكة ميليسند

كان من بين النبلاء شاب وسيم يدعى هيو (اوف لو بواسيه) لورد يافا . وكان أبوه ، هيو الأول (اوف لو بواسيه) الأورليانزى ، وهو ابن عم مباشر للملك بلدوين الثانى ، زعيما للمعارضة البارونية للملك لويس السادس ملك فرنسا ، ودمر فى عام ١١١٨م قلعة (لو بواسيه) وحرمه من اقطاعيته . وكان شقيقا هيو ، جيلدوان ،

---

(٢) William of Tyre, xiv,.4-5,.pp 611-14; Michael the Syrian,.III,.p. 233; Kemal ad-Din, p. 664, ، ويقول كمال الدين إن وليم صاحب رردنا قتل فى الحرب الأهلية ولكن ابن القلانيسى (p.125) يقول إن وليم قد قتل فى وقت مبكر من عام ١٠٣٣م والراجح ان يعود تاريخ تمرد أليس الى وقت مبكر من عام ١١٣٢م.

راهب دير القديسة مارى حوزافات ، ووالبران امير البيرة ، قد ذهبا بالفعل إلى الشرق. وعندما أصبح بلدوين مؤخرا ملكا للقدس ، قرر هيو اللحاق بهم ومعه زوجته مابيللا[٣]. وانطلقا مع ابنهما الصغير هيو وأثناء مرورهم فى أبوليا سقط الولد مريضا ، فتركاه هناك فى بلاط بوهمند الثانى وهو ابن عم مابيللا المباشر . ولدى وصولهما فلسطين منحهم بلدوين لوردية يافا . ومات هيو الأول بعد ذلك مباشرة ، وعلى اثر ذلك انتقلت مابيللا واقطاعيتها إلى فارس ولّونى[٤] هو ألبرت (اوف نامور). وسرعان ما سار كل من مابيللا والبرت على نفس دربه الذى انتهى بهما إلى القبر . وأما هيو الثانى ، وهو الآن فى نحو السادسة عشرة من عمره ، فقد أبحر من ابوليا للمطالبة بميراثه . واستقبله بلدوين استقبالا حسنا وسلمه اقطاعية والديه ، وأبقاه فى البلاط الملكى حيث كان أهم رفاقه ابنة عمه الأميرة الصغيرة ميليسيند . وفى نحو عام ١١٢١ م تزوج إمّا، ابنة اخت البطريق ارنولف وأرملة أيوستاس حارنييه ، وهى سيدة فى سن ناضجة غير أن أملاكها كانت شاسعة . وفتنها زوجها الطويل الوسيم ، غير أن ابنيها التوأمين ايوستاس الثانى وريث صيدا ، ووالتر وريث قيسارية ، كانا يكرهان زوج امهما الذى كان يكبرهما بقليل[٥] وفى أثناء ذلك تزوجت ميسيلند من فولك ، ولم تحفل به مطلقا برغم حبه الكبير لها . وبعد تولي العرش استمرت فى ألفتها مع هيو، وشاع فى البلاط القيل والقال ، فتمكنت الغيرة من فولك . وهناك اعداء كثيرون يعادون هيو بزعامة ابنى زوجته ، فأشعلوا شكوك فولك ، واخيرا ، جمع هيو حوله –

---

(٣) كانت أم هيو الأول (اوف لو بواسيه) واسمها أليس (اوف مونتلهيرى)، أخت أم بلدوين الثانى ميليسند (خالته). وهذا وارد فى Cuissard, *Les Seigneurs du Puiset*., p. 89.. ومن الواضح ان الراهب جيلدوان (اوف سانت مارى حوزافات) ، ووالبران صاحب البيرة ، كانا أخويه . ومابيللا هى ابنة هيو كونت روسى وامها هى سيبيللا ابنة روبرت جيسكارد ، كونت روسى . أنظر ادناه المرفق الثالث للاطلاع على شجرة النسب الأولى ، ١ و ٢. ويخطئ وليم الصورى (انظر المرجع ادناه ص. ١٩٣، ملحوظة ١) بافتراضه ان هيو الثانى ولد فى أبوليا ، وفى هذه الحالة يكون قد تزوج فى السادسة من عمره !.

(٤) المترجم : نسبة الى والّون ، أى المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من بلجيكا وما حولها من مناطق فرنسية.

(٥) اسما ابني ايوستاس حارنييه ليسا يقينيين . ويظهر وولتر كلورد قيسارية وصيدا فى وثيقة رسمية مؤرخة فى ١٢ سبتمبر ١١٣١م (Rohrich, *Regesta*, p.35)؛ وكان ايوستاس الثانى لورد صيدا عام ١١٢٦م Rohrich, *Regesta Additamenta*, p.8، ويظهر ايوستاس ووالتر كابني ايوستاس الأول فى وثيقة رسمية فى نفس العام Rohricht, *Regesta*, p.28. ولكن *Lignages* يسمى الابنين جيرارد ووالتر ، كما ان جيرار Gerard يسمى جوى Guy فى *Assises*. انظر La Monte, The Lords of Sidon' in *Byzantion*, vol XVII, pp.188-90 الذى يجعل جيرارابن أيوستاس الثانى، ويجعل موت الأخير قبل عام ١١٣١ عندما اصبح وولتر وصيا لجيرار.

دفاعا عن النفس - مجموعة من خاصته كان أبرز اعضائها رومان (اوف بوى) لورد منطقة الأردن. وسرعان ما تحزب نبلاء المملكة كلهابين الملك والكونت الذى اشتهر عنه التعاطف مع الملكة . وسادت مشاعر التوتر طوال أشهر الصيف من عام ١١٣٢م . وفي يوم ما في اواخر الصيف، عندما كان القصر زاخرا بالوجهاء من ذوى الجاذبية في المملكة، وقف ولتر جارنييه واتهم زوج أمه ، هيو ، صراحة بأنه يتآمر على حياة الملك، ودعاه متحديا إلى منازلته كي يبرئ ساحته . وأنكر هيو التهمة وقبل التحدى . وحددت المحكمة العليا تاريخ النزال، وعاد هيو إلى يافا ووالتر إلى قيسارية، لكى يجهّز كل منهما نفسه للنزال.

وعندما أزف يوم النزال ، جاء والتر إلى مكان النزال المحدد وهو فى أهبة الاستعداد، ولكن هيو لم يظهر . وربما شعرت الملكة بالخطر ، إذ مضت الأمور شأوا بعيدا، فتوسلت إليه أن يتغيب ، أو ربما كانت الكونتيسة إنّما هى التى ارتاعت عندما تصورت أنها لابد وأن تفقد إما الزوج أو الابن ، أو ربما كان هيو هو نفسه ، الذي كان مدركا لما ارتكبه من اثم ، خائفا من انتقام الرب . ومهما يكن السبب ، فقد كان جبنه دليلا ناصعا على خيانته . و لم يعد بوسع اصدقائه تأييده أكثر من ذلك .وأعلن مجلس الملك غيابيا أنه مذنب، مما جعل هيو يعيش فى ذعر دائم ، فهرب إلى عسقلان ملتمسا الحماية من الحامية المصرية . فأعادته فصيلة مصرية إلى يافا وبدأت تنتهب سهل شارون ، فصارت خيانة هيو الآن صريحة . وانقلب عليه أهم اتباعه ، باليان ، لورد يبنه ووكيل يافا ، وعندما جاء جيش ملكى على عجل من القدس إلى يافا ، استسلمت له يافا في الحال . حتى المصريين ، وجدوا فى هيو حليفا عقيما فتخلوا عنه.فلم يكن له من بد سوى أن يسلم نفسه للملك .

و لم يكن عقابه قاسيا ، إذ كانت الملكة صديقته ، كما نصح البطريق وليم (اوف ميسين) بالرحمة . وكان الملك نفسه راغبا في تهدئة الامور ، إذ أطلت أخطار الحرب الأهلية برأسها . فضلا عن أنه في ١١ ديسمبر ، وعندما استُنفر الجيش للزحف على يافا ، كان أتابج دمشق قد فاجأ قلعة بانياس واستعادها للاسلام . وتقرر نفى هيو ثلاث سنوات ، يجوز له بعدها أن يعود إلى أراضيه وقد أعفى من العقوبة.

١١٣٢م : محاولة قتل هيو

أثناء أن كان هيو ينتظر سفينة تقله إلى ايطاليا ، ذهب إلى القدس فى وقت مبكر

من العام الجديد لتوديع اصدقائه . وبينا هو يلعب النرد فى احدى الامسيات عند باب أحد حوانيت الفراء ، تسلل فارس بريتونى(٦) من ورائه وطعنه فى رأسه وفى بدنه ، فحملوه وهو ينزف نزيف الموت ، وفى التو حامت الشبهات حول الملك ، غير أن فولك تصرف فورا تصرفا لا يخلو من حصافة ، وسُلّم الفارس إلى المحكمة العليا لمحاكمته، واعترف بأنه قد تصرف بمحض رغبته ، آملا بذلك أن يفوز بعطف الملك ، وحكم عليه بالاعدام عن طريق بتر أوصاله قطعة قطعة . ونُفّذ حكم الاعدام علنا . وبعد أن بترت ذراعا الضحية ورجلاه ، ولكن مازالت رأسه كما هى ، أجبر على إعادة النطق بالاعتراف . وبذا أنقذت سمعة الملك ، غير أن الملكة لم تكن راضية . وبلغ بها الغضب من أعداء هيو أن ظلوا لشهور عديدة يخشون الاغتيال ، و لم يجرؤ زعيمهم، راؤوت أمير نابلس ، على المشى فى الشوارع بدون حراسة . بل يقال أن الملك فولك كان خائفا على حياته . على أن رغبته الوحيدة كانت الفوز بحظوة زوجته ، فكان يوافقها على كل شئ ؛ أما هى ، وقد أحبطت فى الحب ، فسرعان ما وجدت العزاء فى التمتع بالسيطرة(٧).

وقد نجا هيو من محاولة قتله ، ولكن ليس لفترة طويلة . وتقاعد فى بلاط ابن عمه، الملك روجر الثانى الصقلى ، الذى منحه اقطاعية جارجانو حيث مات فيها بعد فترة قصيرة(٨).

ولاشك فى أن فولك قد وجد الراحة فى توجيه انتباهه إلى الشمال مرة أخرى ، إذ كان الوضع هناك نذير سوء للفرنج أكثر مما كان عليه الوضع فى أيام بلدوين الثانى. فليس فى أنطاكيه أمير قوى ؛ وجوسلين الثانى فى الرها يفتقر إلى نشاط أبيه وحسه السياسى ، كان شخصا بلا جاذبية ، اذ كان قصيرا بدينا داكن الشعر والجلد ، تتناثر فى وجهه البثور ويبرز الأنف الهائل وتجحظ عيناه البارزتان . وكان حريا بأن يأتى بلفتات كريمة ، لكنه كان كسولا مترفا فاسقا ولا يصلح قط لقيادة أهم ثغور العالم المسيحى الفرنجى(٩).

---

(٦) (المترجم) نسبة الى مقاطعة بريتون Breton الواقعة شمال غربى فرنسا.

(٧) ترد القصة مطوّلة لدى وليم الصورى William of Tyre, xiv,.15-17,.pp. 627-33 ويذكر ابن القلانيسى (ص ٢١٥) باقتضاب وجود نزاع فيما بين الفرنج - 'غير مألوف لديهم'

(٨) William of Tyre, xiv, 17, p.633.

(٩) William of Tyre, xiv, 3, p. 610 . واستنادا لما جاء فى p. 35 (*Crhron. Anon. Syr*). ولد جوسلين الثانى عام ١١١٣م

وكانت ندرة القيادة بين الفرنج شديدة الخطر ، إذ أن المسلمين لديهم زنكى الآن، وهو الرجل القادر على جمع قوات الإسلام . وكان حتى الآن يتحين الفرصة ، إذ كان غارقا فى احداث العراق بحيث لم يتمكن من استغلال الوضع الذى ساد فيما بين الفرنج. فقد مات السلطان محمود بن محمد عام ١١٣١م ، تاركا ممتلكاته فى العراق وجنوب فارس لابنه داود . غير أن سنجر ، وهو المهيمن فى الاسرة ، قرر أن يؤول الميراث إلى أخى محمود ، طغرل صاحب قزوين وشقيق محمود، مما دفع أخوى محمود الآخرين - مسعود صاحب فارس وسلجوق شاه صاحب اذربيجان - إلى التقدم بمطالب لهما . وسرعان ما تنازل داود الذى لم يؤيده الخليفة المسترشد ولا رعاياه. ولفترة من الزمن أعلن فى بغداد عن قبول طغرل ، إذ كان نفوذ سنجر فى جعبته ، وأجبر سنجر مسعود على التخلى . على أن سنجر نفسه سرعان ما انطفأت جذوة اهتمامه بهذا الأمر ، وعلى الاثر جاء سلجوق شاه إلى بغداد وفاز بتأييد الخليفة . فاتجه مسعود إلى زنكى يناشده المساعدة ، فزحف زنكى على بغداد ، لكن قوات الخليفة وسلجوق شاه هزمته بالقرب من تكريت . ولولا أن حاكم تكريت الكردى ، نجم الدين أيوب ، نقله عبر نهر دجلة ، لكان معتقلا أو مقتولا . ووجد الخليفة فى هزيمة زنكى تشجيعا له على تحقيق حلمه فى بعث ما كان لآل بيته من قوة . وشعر حتى سنجر بالخطر ، فعاود زنكى - وهو نائبه - الهجوم مرة اخرى على بغداد فى يونية ١١٣٢م ، وهذه المرة متحالفا مع الزعيم البدوى دوبيس المتقلب الأهواء . وكان زنكى منتصرا فى بداية المعركة ، لكن الخليفة تدخل بنفسه ، وهزم دبيس هزيمة منكرة ثم تحول منتصرا إلى زنكى الذى اضطر إلى الانسحاب إلى الموصل. وفى الربيع التالى وصل المسترشد إلى هناك على رأس جيش ضخم ، وبدا كما لو أن العباسيين سوف سيترجعون أمجادهم الخوالى ، إذ كان سلطان العراق السلجوقى أكثر قليلا من كونه تابعا للخليفة . غير أن زنكى كان قد انسحب من الموصل وبدأ مناوشاته مع معسكر الخليفة بلا هوادة وقطع عنه الامدادات . وبعد ثلاثة اشهر انسحب المسترشد(١٠) وانتكست محاولة البعث العباسى . وخلال العام التالى أزاغ الأمير السلجوقى مسعود تدريجيا غيره من المتطلعين إلى سلطنة العراق ، برغم محاولات المسترشد الفاشلة فى منعه. ففى معركة جرت رحاها فى دايمرج فى يونية ١١٣٥م ، هزم جيش الخليفة

---

(١٠) Ibn al-Athir, pp. 398-9 و Atabegs of Mosul, pp.78-85 ; انظر المقالات Mas'ud ibn Mohammaed', 'Tughril I',and Sanjar' فى دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam.*

هزيمة نكراء اوقعها به مسعود وألقى القبض على الخليفة نفسه ، ونقاه إلى ازربيجان حيث قتله الحشاشون ، وربما كان مسعود متواطئا معهم . ونُصّب في الخلافة ابنه رشيد الذى استنجد بالمتطلعين إلى سلطنة العراق داود السلجوقي وزنكي ولكن بلا طائل . وتدبر مسعود خلع رشيد من الخلافة عن طريق القضاة في بغداد، وتمكن خليفته المقتفي من إبعاد زنكي عن رشيد وداود بما وعده من وعود سخية . وهكذا ، وبعد أن نال زنكي التأييد بألقاب تشريف جديدة من المقتفي ومن مسعود ، وجد نفسه قادرا ابتداء من عام ١١٣٥م قُدُما على تحويل انتباهه نحو الغرب[١١].

١١٣٣م : فولك ينقذ بونز أمير طرابلس

بينما كان زنكي منشغلا في العراق ، كان واليه على حلب (سوار) الذى عينه يدير شئون سوريا نيابة عنه ، ولم يكن بوسع زنكي أن يرسل إليه الكثير من الجنود ، غير انه نتيجة لإغراءات سوار التحقت مختلف جماعات قطاع الطرق التركمان بخدمته ، وتجهز بهم في ربيع ١١٣٣م لمهاجمة انطاكية . واستنجد الأنطاكيون الخائفون بالملك فولك كي يأتي لانقاذهم . وأثناء ترحاله شمالا مع جيشه قابلته في صيدا كونتيسة طرابلس وأخبرته بأن زوجها بونز وقع في كمين نصبته عصبة من التركمان في جبال النصيرية وهربوا إلى قلعة بعرين على حافة وادى العاصي . ونزولا على رغبتها سار فولك مباشرة إلى بعرين، وباقترابه انسحب التركمان . وأعادت تلك الحادثة ماكان بين فولك وبونز من علاقة ودودة. وسرعان ماتزوج بعد ذلك ابن بونز ووريثه - ريموند - من اخت ملكة القدس هوديرنا، بينما تزوجت ابنته - آجنس - من ابن وكيل فولك في انطاكية - الكونستابل ريموند مازوار أمير المرقب[١٢].

وبعد أن أنقذ فولك كونت طرابلس ، واصل تحركه إلى انطاكية ، حيث علم أن ساور قد أفلح في الاغارة على مدينة تل بشير الواقعة في اراضي الرها ، وانه حشد جيشا ليستخدمه ضد انطاكية . فتأخر فولك بضعة أيام متخذا جانب الحذر ثم تقدم نحو معسكر المسلمين في قنسرين وباغته ليلا بهجوم مفاجئ فاضطر سوار إلى التقهقر

(١١) Abul' Feda, pp. 21-3; Ibn al-Athir, *Atabegs of Mosul*, pp. 88-91; Ibn at- Tiqtaqa, *AlFakhiri*, pp. 297-8.

(١٢) William of Tyre, XIV, 6, pp 614-15; Ibn al-Qalanisi, pp. 221-2; Ibn al - Athir, pp. 399-400.

والتخلي عن خيامه ، غير أن النصر كان أبعد ما يكون عن الاكتمال ، إذ أن المسلمين في المناوشات التي تلت قضوا تماما على عدة فصائل فرنجية . لكن فولك دخل انطاكية دخول الظافرين قبل أن يعود إلى فلسطين في صيف عام ١١٣٣م . وما أن رحل حتى عاود سوار الاغارة على الأراضي المسيحية(١٣).

١١٣٥م : زنكي أمام دمشق

وباستثناء تلك الغارات الحدودية ، مرت سنة ١١٣٤م بسلام فيه الكفاية . وفي العام التالي أضعفت الثورات العالم الاسلامي ؛ ففي مصر حاول الخليفة الفاطمي الحافظ كبح سلطان الوزارة بأن عين ابنه حسن وزيرا . لكن الشاب كاد أن يظهر نفسه في صورة وحش مخبول ، إذ أطاح برؤوس أربعين أميرا تباعا لاتهامهم باتهامات تافهة مما تسبب في اندلاع الثورة . ولم ينقذ الخليفة نفسه الا بعد أن قتل ابنه بالسم وسلم جثته للثائرين ، ثم عين وزيرا ارمينيا ، فاهرام ، الذى انصرف اهتمامه إلى زيادة ثراء اصدقائه ورفاقه المسيحيين أكثر من اهتمامه باتخاذ اجراءات عدوانية ضد الفرنج(١٤). وكانت دمشق على نفس القدر من العجز ، فقد مات بورى ابن طغتكين عام ١١٣٢م، وخلفه ابنه اسماعيل كأتابج . وبدأ حكم اسماعيل بداية ساطعة بالاستيلاء على بانياس من الفرنج وبعلبك وحماه من أنداده ، لكنه سرعان ما بدأ يمزج بين القسوة الطاغية وجباية الضرائب الجائرة ، مما استفز البعض فى محاولة لاغتياله ، فأنزل عقوبة الإعدام بالجملة ، حتى انه علق على الجدران شقيقه هو نفسه ، سونج ، لأوهى مظنات الريبة . وأزمع بعد ذلك القضاء على مستشار ابيه وموضع ثقته ، يوسف بن فيروز . وقد تحملت أمه ، الأميرة المهيبة زمرد ، موت ابنها سونج وهى متمالكة لنفسها ، لكن يوسف كان حبيبها ، فراحت تدبر أمرها لانقاذه . وبات اسماعيل مدركا أنه غير آمن حتى فى قصره ، وفى لحظة الشعور بالخطر كتب إلى عدو أبيه القديم، زنكى ، يعرض عليه أن يصبح تابعا له اذا استطاع زنكى أن يبقيه فى السلطة ، وان لم يفعل زنكى ذلك فسوف يسلم دمشق للفرنج . ولم يكن بوسع زنكي أن يرحل عن الموصل دون أن يهزم الخليفة العباسى المسترشد ، غير أنه في ذات الوقت لا يستطيع تجاهل النداء

(١٣) William of Tyre, XIV, 7, pp. 615-16; Ibn al-Qalanisi, pp. 222-3; Kemal ad-Din, p. 665.

(١٤) Ibn al-Athir, pp. 405-8.

الذى تسلمه متأخرا للغاية . فعبر الفرات يوم ٧ فبراير، لكن زمرد قبل ذلك بستة أيام، نفّذت اغتيال اسماعيل وتولية ابنها الأصغر شهاب الدين محمود . وأرسل زنكى رسله إلى الاتابج الجديد كي يستسلم ، غير أن هذا الأخير ، وبتأييد من سكان دمشق ، رد على الرسل باعتذار مهذّب . ولمّا وصل زنكى إلى دمشق ، وقد استسلمت له حماه وهو في الطريق ، وجد دمشق فى حالة دفاع. وأخفقت محاولته قصف الأسوار ، وسرعان ما نفدت المؤن من معسكره ، وتخلى عنه البعض من جنوده . وفى تلك اللحظة وصلته سفارة من الخليفة المسترشد ، ترجوه أن يتلطّف ويحترم استقلال دمشق . وقَبِل زنكى بامتنان اعتذاراً مكّنه من الانسحاب دون مساس بمكانته . وحل السلام بين زنكى ومحمود ، وقام زنكى بزيارة رسمية لدمشق ، غير أن محمود لم يتوفر لديه ما يكفى من الثقة فى زنكى بحيث يرد الزيارة ، فأرسل أخاه بدلا منه(١٥).

وكانت تلك الحادثة ، التى جاءت فى وقت ضعفت فيه مصر ، بمثابة فرصة نادرة للفرنج لاسترداد بانياس والمبادرة بالعدوان . غير أن فولك ترك الفرصة تفلت من بين يديه . ذلك أن زنكي، بعدما خلّص بنفسه من دمشق، راح يغير على الأراضى الأنطاكية . فبينما كان قائده سوار يهدد تل بشير وعينتاب وعزاز ، مانعا وجود الاتصال بين جيشي انطاكية والرها ، كان زنكى يكتسح طريقه مرورا بحصون الحدود الشرقية ، كفرطاب ، والمعرة ، وزردنا، والأثارب مستوليا عليها الواحدة تلو الأخرى. ولحسن حظ الفرنج اضطر وقتئذ إلى العودة إلى الموصل ، ولكن الدفاعات الحدودية ضاعت من الفرنج(١٦).

وأرغمت تلك الكوارث فولك على السير إلى الشمال مرة اخرى . وكان مايزال وصيا اسميا على انطاكية ، لكن السلطة هناك كانت فى يد البطريق الوقور برنارد . على أن برنارد مات فى اوائل الصيف ، وقد كان رجل دولة مقتدرا ، نشطا ، ثابتا ، شجاعا ، لكنه كان حازما مع نبلاء الفرنج ، ومتعصبا إزاء المسيحيين الوطنيين . وهلّل العوام لخليفته أسقف المصيصة اللاتينى ، رادولف (اوف دومفورت) الذى ، فاتخذ لنفسه العرش البطريقي دون انتظار انتخاب كنسي . وقد كان رادولف رجلا مختلفا جدا ، إذ كان مليحا ، برغم حَوَل طفيف، محبا للأبّهة ، مبسوط اليد ، بشوشا ، ليس

---

(١٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 211-36، أورد ابن القلانيسى رواية كاملة للغاية ، لكنه يعزو الدوافع الجديرة بالثناء الى قتل السيدة المهيبة لإبنها . فيقول ان الوزير الأول لاسماعيل كان كرديا مسيحيا، هو برتراند الكافر. *Bustan*, p. 329; Kemal ad-Din, pp. 667-70; Ibn al-Athir, pp. 403-5.

(١٦) Kemal ad-Din, p. 670.

بصاحب علم ولكنه كان متحدثا فيه استدراج وفصاحة ، لكنه كان - وراء قناع من الشفقة - متعلقا بالدنيا ، طموحا ، خبيثا . ولم يكن راغبا فى أن يسيطر عليه الملك ورجاله ، ولذا استهل المفاوضات مع السيدة الأرملة الأميرة أليس التى كانت ماتزال تعيش فى اراضيها فى اللاذقية . ووجدت أليس فرصتها وناشدت اختها الملكة ميليسيند للمساعدة. وجاء فولك إلى انطاكية فى اغسطس فى زيارة قصيرة . وشعر بأن القوة تنقصه بحيث يحتج على انتخاب رادولف انتخابا غير عادى ، ولا يستطيع الآن أن يرفض شيئا تراه زوجته . وسُمح للأميرة اليس بالعودة إلى انطاكية . وبقى فولك وصيا ، ولكن السلطة باتت مشاركة فى تحالف غير يسير بين الأرملة والبطريق(١٧).

١١٣٦م : استدعاء ريموند (اوف بواتييه) إلى انطاكية

وما لبث رادولف أن تشاجر مع رجال الدين التابعين له ، وبقيت أليس سيدة المدينة . ولكنها كانت فى وضع مقلقل ، إذ كان أهم تأييد لها يأتيها من السكان المسيحيين الوطنيين ، وكما ظهر من محاولتها التواطؤ مع زنكى ، كان تقديرها للعواطف الفرنجية شيئا ضئيلا . والآن طافت بذهنها خطة افضل . فقد ارسلت فى نهاية عام ١١٣٥م مبعوثا إلى القسطنطينية يعرض يد ابنتها الأميرة كونستانس لإبن الامبراطور الأصغر مانويل . وربما اقدمت على هذا التصرف ، كما اعلن الصليبيون المرتاعون ، بنوازع طموحاتها الشديدة ؛ غير أنها فى واقع الأمر قدمت أفضل حل للمحافظة على شمالى سوريا . إذ كان العنصر اليونانى قويا فى انطاكية ، والتهديد الاسلامى يتعاظم فى ظل زنكى ، والامبراطورية البيزنطية هى القوة الوحيدة التى يتوفر لها ما يكفى من القوة للتصدى لهذا التهديد . إن دويلة تابعة ، يجرى حكمها فى ظل السيادة الامبراطورية ، أولا بالأميرة نصف الارمينية أليس ، ثم بصورة مشتركة بين أمير بيزنطى وأميرة فرنجية ، كانت خليقة حقا بأن تلحم اليونانيين والفرنج معا من اجل الدفاع عن العالم المسيحى . غير أن نبلاء الفرنج باتوا فى رعب شديد ، ورأى البطريق رادولف نفسه وقد أزيل من منصبه لصالح يونانى بغيض . ويبدو أن بارونات انطاكية استشاروا الملك فولك أثناء زيارته حول أنسب زوج لكونستانس . والآن ذهب رسول سرا إلى الملك يقول إن من اللازم العثور على زوج فى الحال . وبعد أن استعرض فولك

---

(١٧) William of Tyre, XIV, 9, 20, pp. 619-20, 636 .. كان فولك فى انطاكية فى اغسطس عام ١١٣٥م وفقا لما جاء فى Rhricht , *Regesta*, p. 39

كل أخلائه من الأمراء الفرنسيين ، قرر اختيار ريموند (اوف بواتييه) وهو الابن الاصغر لدوق آكيتان وليم التاسع ، وكان آنذاك فى انجلترا فى بلاط الملك هنرى الأول الذى تزوجت ابنته مؤخرا من ابن فولك جيوفرى . وأرسل فارس من فرسان المستشفى ، جيرارد جيبار ، إلى انجلترا لإحضاره وروعيت أقصى درجات السرية ، فلا يجب أن تعرف أليس شيئا ، ولا تؤتمن حتى الملكة لو علمت . وهناك خطر آخر يكمن فى عداوة الملك روجر الصقلى الذى لم يغفر البته لمملكة القدس اهانتها لأمه أديلايدى ، والذى كانت طموحاته فى البحر المتوسط لا تدعه قط يسمح بمرور من يتطلع إلى الإقتران بأعظم الوريثات فى الشرق . ووصل جيرارد إلى البلاط الانجليزى وقبل ريموند العرض . لكن الملك روجر اطلع على السر ، اذ كان نورمانديو انجلترا وصقلية على اتصال وثيق ببعضهم البعض دائما . فقرر القبض على ريموند الذى لن يجد سفينة تقله إلى سوريا إلاّ من ميناء فى جنوب ايطاليا. واضطر ريموند إلى تجزئة بطانته والتنكر على هيئة حاج حينا ، وخادم لتاجر حينا آخر ، وتمكن من التسلل من خلال الحصار ، ووصل انطاكية فى ابريل ١١٣٦م .

ولم يكن وصوله ليخفى على أليس ، ولذا ذهب فى الحال لمقابلة البطريق . وعرض عليه البطريق رادولف المساعدة بشروط أن يخضع ريموند له ويذعن له فى كل شئ . فلمّا وافق ريموند طلب رادولف الاجتماع مع اليس ليخبرها أن ذلك الغريب الفتّان جاء طالبا يدها . وهى قصة مقنعة ، إذ كان ريموند فى السابعة والثلاثين ، وأليس دون الثلاثين ، وابنتها كونستانس بالكاد فى التاسعة . وبينما كانت أليس فى قصرها تنتظر خطيب المستقبل ، اختطف البعض كونستانس وذهبوا بها إلى الكتدرائية حيث سارع البطريق باجراء زفافها بريموند . وانهزمت أليس . فليس للأرملة المسنة حقوق إزاء الزوج الشرعى للوريثة . فتقاعدت مرة اخرى فى اللاذقية لتبقى متفطّرة القلب ما تبقى من حياتها القصيرة(١٨).

وكان ريموند فى ميعة الصبا ، وسيما ذا قوة بدنية رائعة . ولم يصب من العلم إلا القليل ، مغرم بالمقامرة، طائش وكسول فى ذات الوقت ، على انه كان ذا شهرة فى الكياسة وطهارة السلوك(١٩) . وسرعان ما تسببت شهرته بين الناس في ارتياع البطريق

---

(١٨) William of Tyre, xiv, 20, pp. 635-6; Cinnamus, pp. 16-17; Robert of Torigny (I,p. 184)، ويعتقد روبرت ان ريموند تزوج ارملة بوهمند الثانى .

(١٩) William of Tyre, xiv,21, pp. 637-8; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p.522، يصف كمال الدين كيف كان يستطيع ثنى قضيب حديدى (Cinnamus (p.125 الذى يقارنه بهرقل .

الذي استمرت مشاكله مع تابعيه من رجال الدين ، ووجد نفسه يعامَل باحترام وانما في الواقع مسلوب القوة . وأيد النبلاء ريموند تأييدا قويا ، إذ كانت حقيقة الوضع بالنسبة لهم من الخطورة بحيث لا يملكون غير ذلك ، فكانت الامارة مهتزة لفقدها الدفاعات الشرقية ، ليس هذا وحسب وانما قام احد المغامرين التركمان في الجنوب ، في جبال النصيرية ، بالاستيلاء على حصن بكسرائيل من صاحبه رينالد مازوار عام ١١٣١م ، وفي عام ١١٣٦م كاد يستولى على بلاطنس . ثم إن بكسرائيل قد استردت بعد ذلك . وفي الجنوب الأبعد ، حيث سبق للفرنج الاستيلاء على قلعة قدموس عام ١١٢٩م ، عادت تلك القلعة عام ١١٣١م إلى الأمير المسلم ، سيف الدين ابن عمرون صاحب قلعة كهف التي باعها في العام التالى لزعيم الحشاشين أبو الفتح . وفي عام ١١٣٥م اشترى الحشاشون قلعة كهف نفسها من أولاد سيف الدين ، وفي شتاء عام ١١٣٦م انتزعوا حصن الجزية من الفرنج[٢٠]. وكانت كيليكيا قد ضاعت فعلا من أنطاكية. ذلك أنه في عام ١١٣١م ، بعد موت بوهمند الثاني مباشرة ، هبط الأمير ليو الروبيني - بعد أن تدبر حماية ظهره بتحالف مع الأمير الدانشمندى - إلى السهل واستولى على المدن الثلاث : المصيصة وطرسوس وأدنه . وكان أخوه وسلفه ، ثوروس ، قد أفلح قبل ذلك بسنوات قليلة في طرد الحاميتين البيزنطيتين من سيس وعين زربة في داخل البلاد. وفي ١١٣٥م انتزع ليو من بلدوين - لورد مرعش - قلعة سرفنتيكار الواقعة على منحدرات جبال الأمانوس . على أن قبضة الأرمن على كيليكيا كانت ضعيفة ، إذ لجأ اليها قطاع الطرق وباتت سواحلها مرتعا للقراصنة[٢١].

١١٣٦م : الحرب مع الأرمن

ولم تكن كونتية الرها أفضل حالا . إذ أن تمرتاش الأرتقى ضم مؤخرا بعض أراضيها في الشرق ، وفي الشمال تنازل ميخائيل أمير كركر الأرمينى الذى عجز عن الصمود أمام الترك ، عن أراضيه للكونت جوسلين الذى سلمها في خطوة طائشة إلى العدو الشخصى لميخائيل ، بازل ، شقيق بطريق الكنيسة الأرمينية (كاثوليكوس) الأرميني ، فشبت حرب اهلية بين الأميرين الأرمينيين ، واضطر جوسلين إلى تزويد

(٢٠) Ibn al-Qalanisi, p. 241; Usama, ed. Hitti, p. 157; Kemal ad-Din, p. 680.

(٢١) Gregory the Priest, p. 152; Michael the Syrian, III, PP. 230-3; *Armenian Rhymed Chronicle*, p.499; Sembat the Constable, p 615.

كركر بحامية من عنده ، لكنه لم يستطع الحيولة دون أن يتناوب الأرمن والأتراك نهب الريف . فأغار سوار على منطقة تل بشير عام ١١٣٥م ، وفى ابريل ١١٣٦م تقريبا، وفي نفس الوقت الذى وصل فيه ريموند (اوف بواتييه) إلى الشرق ، لم يكتف قائده أفشين بشق طريقة خلال الاراضى الانطاكية حتى اللاذقية فى الجنوب وهو يحرق القرى وينهبها فى طريقه ، وانما استدار شمالا فيما بعد مارا بمرعش وكيسوم ، وكان أميرهما - بلدوين ، التابع الرئيسى لكونت الرها - يفتقر إلى القوة التى يدافع بها عن اراضيه(٢٢).

واعتزم ريموند أن تكون أول مهامه استعادة كيليكيا، وكان عليه أن يوفر الحماية لمؤخرته قبل أن يغامر بمجابهة زنكى . وبموافقة الملك سار مع بلدوين امير مرعش لمهاجمة الروبيين ، لكن التحالف لم يكن مكتملا . إذ أن جوسلين امير الرها، وبرغم كونه تابعا للملك وسيدا لبلدوين ، كان ايضا ابن أخت ليو الأرميني (صاحب كيليكيا) ومالت عواطفه ناحية خاله ، ولم تعد سلطة ملك القدس كافية لاعادة توحيد امراء الفرنج . وتمكن ليو - بمساعدة جوسلين - من دحر الجيش الأنطاكى . وإذ هو منتصر ، وافق على مقابلة شخصية مع بلدوين الذى غدر به وسجنه وبعثه أسيرا إلى أنطاكية . وفى غيبة ليو تشاجر أبناؤه الثلاثة ، وانتهى أمر كبيرهم ، كونسطنطين ، إلى أن اعتقله أخواه وأعميا عينيه . لكن الفرنج فى الوقت نفسه لم ينتفعوا من الأحداث بشئ . وقام الامير الدانشمندى محمد الثانى ابن غازى بغزو كيليكيا ، مدمرا الحصاد ، ثم تحول إلى أراضى بلدوين فانتهبها فى طريقة حتى كيسوم . ولم يجد ليو ، الذى هزته الكوارث ، من وسيلة سوى أن يشترى حريته بالتخلى عن مدن كيليكيا لريموند ، لكنه وهو فى طريق عودته إلى وطنه تناسى وعده . واشتعلت مرة اخرى حرب مضطربة إلى أن تمكن جوسلين فى اوائل ١١٣٧م من رتق هدنة بين المتحاربين الذين ارتاعوا من انباء جاءتهم من الشمال ، مفادها أن الاميرة أليس ليست حمقاء مع كل ماحدث(٢٣).

ولم يتمكن الملك فولك من تقديم أى عون فعلى لصديقه ريموند ، إذ كان عليه مواجهة اخطار أقرب إليه . ذلك أن حكومة اتابج دمشق الصغير محمود كانت خاضعة

---

(٢٢) Michael the Syrian, III, p. 244; Ibn al-Qalanisi, pp. 239-40; Kemal ad-Din, p. 672

(٢٣) Gregory the Priest, *loc. cit.* (and note by Dulaurier); Sembat the Constable, p. 616; Matthew of Edessa, ccliii, p.320-1

لما كان يمارسه يوسف - عشيق أمه - من سيطرة هادئة ، غير أنه فى إحدى أمسيات ربيع ١١٣٦م ، وبينما كان الأتابج محمود يمشى فى الفناء مع يوسف والقائد المملوكى، بزْواجْ انقض الأخير فجأة على يوسف وطعنه طعنات قاتلة ثم هرب إلى كتيبته فى بعلبك . ومن هناك هدد بالزحف على دمشق ما لم يصبح هو الوزير الأول . فأذعن محمود لرغباته ، وسرعان ما اتخذ الدمشقيون موقفا عدوانيا من الفرنج ، ففى بداية العام التالى قاموا بغزو كونتية طرابلس ، يساعدهم المسيحيون المحليون الذين لا يحملون ولاء للفرنج ، فقاموا بارشادهم سرا خلال ممرات لبنان إلى داخل السهل الساحلى ، وبذا بوغت الكونت بونز ، فخرج بجيشه الصغير لملاقاتهم فلقى هزيمة كانت بمثابة كارثة ، وهرب هو نفسه داخل الجبال ، ولكن فلاحا مسيحيا خانه وأوشى به للمسلمين فقتل فى الحال . أما أسقف طرابلس ، جيرارد ، الذى أسر فى المعركة ، فكان أسعد حظا إذ لم يتعرف عليه احد ، وسرعان ما تمت مبادلته على انه رجل ليس له أهمية . واستولى بزْواج على حصن حدودى أو أثنين ، لكنه لم يجازف بمهاجمة طرابلس نفسها ، وسرعان ما عاد إلى دمشق يحمل الغنائم الكثيرة(٢٤) .

١١٣٧م : استخلاف ريموند الثانى فى طرابلس

استمر حكم بونز فى طرابلس خمسا وعشرين سنة . ويبدو انه كان إداريا مقتدرا، ولكنه كان عديم القيمة من الناحية السياسية ، متلهفا دائما إلى التحرر من تسيد ملك القدس عليه ولكنه كان بالغ الضعف بحيث لا يستطيع تحقيق الاستقلال . وخلفه ابنه ، ريموند الثانى ، الذى كان مزاجه أكثر حِدّة ، وقد بلغ الآن من العمر الثانية والعشرين ، وتزوج مؤخرا من الأميرة هوديرنا شقيقة مليسيند ملكة القدس، وكان منصرفا اليها بكل جوارح الغيرة . وكان أول ما بدأه من اعمال أن انتقم لمقتل أبيه ، ليس من مماليك دمشق، فقوتهم لا قبل له بها وإنما من مسيحيي لبنان الغادرين ، فزحف على القرى التى تحوم الشكوك حول مساعدتها للأعداء ، وراح يقتل الرجال ويأخذ النساء والأطفال ليبيعهم عبيدا فى طرابلس . وتركت قسوته بصمات الجبن على اللبنانيين ، مما أدى إلى نفورهم من الفرنج(٢٥) .

---

(٢٤) William of Tyre, XIV, 23, p. 640; Ibn al-Qalanisi, pp. 240-1; Ibn al-Athir, pp. 419-20

(٢٥) William of Tyre, *loc. cit*

ولم يستحسن زنكي ما قام به بزواج من نشاط . فهو لا يفضل مهاجمة الفرنج مع وجود دولة مسلمة عدوانية مستقلة على جانب من جوانبه . وفي نهاية يونية زحف على حمص ، التي كان يحكمها أُنُر المملوك المسن باسم أتابج دمشق . وظل زنكي أمام المدينة نحوا من اسبوعين ، إلى أن جاءت انباء اقتراب جيش فرنجي قادم من طرابلس . وأيا ما كانت نوايا الكونت ريموند ، تسبب تحركه في أن يرفع زنكي الحصار عن حمص ويتحول إلى الفرنج . وبينما كان ريموند يتقهقر أمامه ، أخذ يتقدم لمحاصرة قلعة بعرين العظيمة الواقعة على المنحدرات الشرقية لتلال النصيرية ، والتي تتحكم في المدخل إلى البقاع، بينما أرسل ريموند إلى الملك فولك في القدس طالبا مساعدته.

وكان فولك قد تسلم لتوه نداءً عاجلا من أنطاكية ؛ لكنه لا يستطيع تجاهل التهديد الاسلامي لطرابلس . فأسرع شمالا مع كل ما استطاع جمعه من رجال كي يلحق بريموند . وانطلقا معا في مسيرة اضطرارية حول سفوح تلال النصيرية إلى مونت فرات . وكانت رحلة شاقة سرعان ما جعلت الجيش في حالة يرثى لها . وكان زنكي قد ابتعد باقترابهما ، لكنه عندما سمع بحالتهم عاد وأطبق عليهم من حولهم عندما كانوا خارجين من التلال بالقرب من القلعة . وبوغت الفرنج المرهقون . وحاربوا بشجاعة لكن المعركة سرعان ما انتهت ، تاركة أغلب الفرنج جثثا ملقاة في الميدان ، والآخرين في الأسر ، بمن فيهم كونت طرابلس ، بينما هرب فولك مع قلة من حرسه الشخصي إلى داخل القلعة(٢٦).

١١٣٧م : استسلام قلعة بعرين

بادر الملك فولك ، قبل أن يتمكن زنكي من محاصرة القلعة ، بارسال الرسل إلى بطريق القدس ، وكونت الرها ، وأمير أنطاكية ، متوسلا ارسال العون العاجل . واستجاب الثلاثة لندائه متجاهلين المخاطر الأخرى ، إذ أن وقوع الملك وكل فرسانه في الأسر قد يعني فعلا نهاية المملكة . فقام البطريق وليم بتجميع باقي المليشيات المتبقية في فلسطين وقادها - والصليب المقدس على رأسها - شمالا إلى طرابلس . وهبط جوسلين الرها من الشمال متناسيا همومه المحلية ، وانضم إليه في الطريق ريموند أمير انطاكية الذى اضطر إلى مغادرة عاصمته في هذه اللحظة على مضض . وكانت

---

(٢٦) William of Tyre, xiv, 25m oo,643-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 242-3، (أغفل ابن القلانيس بلباقة ذكر التحالف الدمشقي الفرنجي)؛ Kemal ad-Din, pp. 672-3; Ibn al-Athir, pp. 420

فلسطين حسنة الحظ جدا ، إذ لم يكن جيرانها في مزاج عدواني ، وقد تعرت من كل رجالها المحاربين . فكانت مصر مشلولة بثورة في القصر أدت إلى الاستعاضة عن الوزير الأرميني باهرام واستبداله بوزير آخر عنيف مناهض للمسيحيين هو رضوان بن الولخشي ، الذى كان مشغولا تماما بقتل اصدقاء سلفه والعراك مع الخليفة . وأغارت حامية عسقلان على ليديا، لا أكثر(٢٧) . وكان المملوك بزواج والي دمشق أكثر خطورة ، فما أن غادر البطريق مملكة القدس حتى سمح لنفسه بنهب البلاد في طريقه جنوبا حتى مدينة نابلس المفتوحة فقتل سكانها ، لكنه بالنسبة لدمشق كان يخشى ما يترتب على تمتع زنكي بانتصار ساحق ، بحيث لم يكن يرغب في الضغط على الفرنج إلى آخر المدى(٢٨).

وتجمعت قوات الاغاثة في نهاية يولية في البقاع ، بينما كان يأس الملك آخذا في التزايد في قلعة بعرين ، إذ انقطعت عنه أخبار العالم الخارجي ، وأخذ تموينه يتناقص ، وزنكي يستخدم آلات المنجنيق العشر ليل نهار يرجم بها الحجارة فتدق أسوار القلعة . وأخيرا بعث فولك رسولا إلى زنكي يسأله عن شروطه . ولبهجته التي تخالطها الريبة ، طلب بمجرد تسليم قلعة بعرين ، وبامكان الملك الانصراف مع كل رجاله في حرية . وفضلا عن ذلك ، سوف يطلق سراح الفرسان البارزين المأسورين في المعركة بمن فيهم كونت طرابلس وبدون أية فدية . فقبل فولك في الحال . وحافظ زنكي على كلمته ، وجيء بالملك فولك وحرسه الخاص أمام زنكي الذى عاملهم بكامل مظاهر التشريف ، وأهدى الملك رداءً فاخرا وسمح لهم باصطحاب اخدانهم ، وساروا في طريقهم آمنين . وقابلوا جيش الإغاثة في البقاع ، أقرب مما كانوا يظنون . واغتاظ البعض لاكتشافهم انهم لو صمدوا قليلا فربما أمكن انقاذهم ، على أن آخرين أكثر تعقلا أسعدهم أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب(٢٩).

والحقيقة أن ما كان عليه زنكي من رفق وأناة ما يفتأ يتسبب في ذهول المؤرخين . لكن زنكي كان على دراية تامة بما يفعله . فليست بعرين بالجائزة الحقيرة ، وامتلاكها سيمنع الفرنج من التوغل في وادى العاصي الأعلى . كما أنها في موقع يتحكم تماما

---

(٢٧) William of Tyre, XIV, 26 645-7.

(٢٨) *Idem*, XIV, p. 647

(٢٩) William of Tyre, XIV, 28-9, pp. 545-51; Ibn al-Qalanisi, *loc. cit.;* Kemal ad-Din, *loc. cit.;* Ibn al-Athir, pp. 421-3.

فى حماه وحمص الدمشقية ، والحصول عليها بلا مزيد من الحرب فيه الغَناء ، لأنه كان راغبا عن المجازفة بمعركة مع قوة الإغاثة الفرنجية على مثل هذا القرب القريب من تخوم دمشق التى لن يتردد حكامها فى انتهاز ما قد يعانيه من هزيمة . وفضلا عن ذلك كان زنكى ، كشأن أعدائه الفرنج ، يشعر بالقلق من الأنباء الآتية من الشمال.

الفصل الثالث:

مطالب الإمبراطور

مطالب الامبراطور

"لا يَتّكِلْ عَلى السّوء يَضِلْ لأنّ السّوء يَكُونُ أُجْرَتَهُ"
(أيوب ١٥ : ٣١)

أما الأنباء التى تسببت فى رتق سلام بين الفرنج والأرمن ، والتى جعلت الأمير ريموند يشعر كارها لمغادرة أنطاكية ، والتى دفعت زنكى إلى اظهار الرحمة لأعدائه ، فهى أنباء تحرك جيش ضخم فى داخل كيليكيا يقوده الامبراطور جون كومنينوس بشخصه . فمنذ أن فشل الامبراطور الكسيوس فى الحضور إلى انطاكية اثناء الحملة الصليبية الاولى ، اعتاد السياسيون في الشرق الفرنجى على تجاهل بيزنطة تجاهلا لا يخلو من تلطف ، وحتى مع فشل محاولة بوهمند غزو الامبراطورية من الغرب فشلا ذريعا ، فقد عجز ألكسيوس تماما عن ضمان تنفيذ شروط المعاهدة التى وقعها بوهمند . وكما يعلم فرنج أنطاكية جيدا ، كانت همومه الأقرب إلى وطنه هى التى صرفته عن ذلك .

واستمرت تلك الهموم لما يقرب من ثلاثين سنة ، نظرا للحروب المتقطعة المنتشرة

فى كل مكـان مـن تخوم الامبراطوريـة ؛ فكـانت هنـاك غـزوات البولوفسـتيين(١) عـبر الدانوب الأسـفل ، كمـا حـدث فـى عـامي ١١١٤م و١١٢١م . وكـان هنـاك التوتـر المستمر مع الهنجاريين فى الدانوب الأوسط ، الذى اندلع حربا صريحة عـام ١١٢٨م ، ووصل الغزو الهنجارى لشبه جزيرة البلقان حتى صوفيـا ، لكـن الامبراطور دحـر هـذا الغزو وهزم الهنجاريين فى أراضيهم. ودأبت المدن التجارية الإيطاليـة علـى الاغـارة مـن حين لآخر على الإمبراطوريـة كـى تنـتزع مزايـا تجاريـة ، فحصلـت بيزا علـى معـاهدة تفضيلية عام ١١١١م ، وأما البندقية ، فاستمرت الحرب بينها وبين بيزنطة أربع سنوات بعد أن رفض الامـبراطور حـون تجديـد الإمتيـازات التـى منحهـا أبـوه ، وفـى ١١٢٦م استردت بعد تلك الحرب كافـة مـا كـان لهـا مـن حقـوق . وكـان نورمـانديو جنـوب إيطاليا، فى حالة من الجـبن منـذ هزيمة بوهمنـد فـى دورازو (ديرهـاكيوم) ، وأصبحـوا مصدر خطر مرة اخرى عام ١١٢٧م عندما قام روجر الثانى الصقلى بضم إقليم أبوليا . ثم أن روجر الثانى ، الذى اتخذ لنفسه لقب ملك عام ١١٣٠م ، تلبسته كراهية عائلتـه لبيزنطة ، رغم ميوله إلى اقتباس أساليبها ورعايـة فنونهـا.، لكـن طموحاتـه كـانت مـن الاتساع بحيث كان من اليسير دائما العثور على حلفاء لكبح طموحاتـه . فلـم يكتـف بالسعى للسيطرة على ايطاليا وحسـب ، وانمـا كـان يطـالب بانطاكيـة باعتبـاره الممثـل الوحيد الباقى على قيد الحياة من ذكور بيت هوتفيل ، بـل والقـدس نفسـها اسـتنادا إلى المعاهدة التى ابرمتها امه أديلايدى مع بلدون الأول(٢).

الأيام الأخيرة من حكم ألكسيوس الأول

ولم يكن هناك سلام فى آسيا الصغرى . وخـلال الحملـة الصليبيـة الأولى وبعدهـا عزز ألكسيوس قبضته على الثلث الغربـى مـن شـبه الجزيـرة وعلـى السـواحل الشـمالية والجنوبية ، ولو أنه تعامل مع الأمراء الأتراك فقط لاستطاع الاحتفاظ بأملاكه سـليمة ، لكن جماعات من التركمان دأبت على التسلل داخل البـلاد بحيـث تضـاعفت أعدادهـم

(١) (المترجم) : البولوفستيون Polovstians بالروسية أو الكومـان Kuman بالبيزنطية أو الكيبشـاك Kipchak : اتحاد قبائلى احتل مناطق شاسعة من السهول الآسيوية الأوروبية ، من شمـال بحر الآرال وحتى شمال البحرالأسود.

(٢) عن روجر الثانى انظر Chalandon, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 1-51. وقـام Basil of Edessa اليعقوبى بعمل وصف تخطيطى عن الغزو البولوفتسى عام ١١٢١م ، وقد أفاد منه ميخائيل السورى Michael the Syrian (III, p. 207) .

وقطعانهم ، وكان حتما أن يتدفقوا فى الوديان الساحلية سعيا وراء مناخ ألطف ومراع أكثر ، ومن ثم، كان لابد من انهيار الحياة الزراعية المستقرة للمسيحيين . وفى واقع الأمر ، كلما كان ضعف الأمراء يزداد كلما زاد رعاياهم البدو ضراوة وخطورة على الامبراطورية(٣).

وفى الوقت الذى مات فيه ألكسيوس عام ١١١٨م، كانت الأناضول التركية مقسمة بين السلطان السلجوقى مسعود ، الذى كان يحكم من قونية الجزء الجنوبى من وسط شبه الجزيرة ، من نهر صنغارى إلى جبال طوروس ، والأمير الدانشمندى غازى الثانى، الذى كانت أراضيه ممتدة من نهر هاليس إلى نهر الفرات . وقد ابتلعا ما بينهما من الامارات الأصغر ، باستثناء ملطية فى الشرق حيث كان اخو مسعود الأصغر ، طغرل، يحكم تحت وصاية امه وزوجها الثانى ، بلك الأرتقى . وعلى الرغم مما احرزه البيزنطيون من انتصار فى فيلوميليوم عام ١١١٥م ، وما اعقب ذلك من محاولة رسم الحدود ، استعاد الأتراك فى السنوات التالية لاوديكيا الفريجيّة وتوغلوا داخل وادى نهر الماندر وقطعوا الطريق الذاهب إلى أضاليا . وفى الوقت ذاته كان الدانشمند يشدد هجماتهم باتجاه الغرب داخل بافلاجونيا . وكان الامبراطور الكسيوس يخطط لحملة يسترد بها مناطق الحدود الأناضولية عندما عرض له مرضه الأخير(٤).

١١١٨م : ولاية عهد جون كومنينوس

حلبت ولاية عهد الامبراطور جون قوة جديدة لبيزنطة . وكان جون ، الذى يطلق عليه رعاياه (كالويوانيس) ، أى جون الطيب ، واحدا من تلك الشخصيات النادرة التى لا يجد فيها أى مؤرخ من معاصريه ما يعيبها ، باستثناء مؤرخ واحد، هو أخته المؤرخة أنّا كومنينا التى كانت أكبر أولاد الكسيوس . وكانت فى طفولتها قد خطبت إلى ولى العهد الامبراطورى الصغير كونسطنطين دوكاس ، الذى حدث وأن وعده ألكسيوس باستخلافه امبراطورا . على أن موته المبكر ، بعد مولد أخيها مباشرة ، كان بمثابة ضربة

---

(٣) يرد موجز جيد حول مسار وأثر الغزوات التركمانية فى 'حرب المسلم والمسيحى لامتلاك آسيا الصغرى 'Ramsay, War of Moslem and Christian for the Possession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the* Eastern Provinves of *the* Roman Empire, pp. 295-8 .

(٤) Anna Comnena, xv, i, 6-vi, 10, pp.187-213; Chalandon, *Règne d'Alexius I Comnène*, pp. 268'71

قاسية لطموحاتها ، ودأبت فيما بعد ساعية لاصلاح مـا ألحقتـه بهـا العناية الالهيـة مـن ظلم، بمحاولة اقناع والدها ، وبموافقة أمهـا ، بـان يـترك العرش الامـبراطورى لزوجهـا القيصر نيسفورروس برينيوس ، حتى عندما كان الامبراطور راقدا فى فراش الموت ، بـين زوجته وابنته تمرّضانه بغاية جهدهما ، ودأبت المرأتان أثناء تمريضـه على المطالبة بعـدم توريث جون . لكن الكسيوس قرر أن يخلفه ابنـه . وعندمـا دخـل عليـه ابنـه جـون لتوديعـه ، ناولـه الرجـل المحتضر خاتمـه الامبراطورى فى هدوء ، وأسرع جون لاغـلاق بوابـات القصـر ، فأفادتـه السـرعة ، اذ هتـف بـه الجيـش ومجلـس الشـيوخ (السّـينيت) امبراطورا حاكما فى الحال ، وأسرع البطريق إلى تأييد قرارهما باقامة حفل تتويجـه فـى كنيسة القديسة صوفيا . وهكذا غلبت الحيلة والدهاء أنّا وامهـا الامـبراطورة . علـى أن جون كان يخشى من أن يحاول أشياعهما الاعتداء على حياته ، حتى انه رفـض حضـور جنازة أبيه بعدما توفرت له معلومات قوية بوجـود مخطـط لاغتيالـه فـى هـذه المناسـبة . وبعد أيام قليلة دبرت أنّا مؤامرة للتخلص منه أثنـاء وجـوده فـى قصـر الضاحيـة الهادئـة فيلوباتيوم . غير أن المؤامرة كان بها نقطـة ضعـف خطـيرة ؛إذ أن ترتيبهـا كـان يقضـي بتتويج نيسفورروس برينيوس ، ولكنه لم يكن راغبا فى العـرش ، وربمـا كـان هـو الـذى انذر الامبراطور . وعاقب جون المتآمرين برفق شديد ، وربمـا لم تكـن الامـبراطورة الأم على علم بالمؤامرة ، لكنها مع ذلك تقاعدت فى أحد الأديرة. وصودرت ممتلكات أبـرز المؤيدين لأنّا ، لكن الكثير منهم استعادها فيما بعد . وحُرمت أنّا نفسـها مـن ممتلكاتهـا لفترة ، ثم عاشت منذ آنذاك فى عزلة تامـة . ولم يعـاقَب نيسـفورس الـذي امتهـن مـع زوجته مهنة التأريخ ذات التبعات الأقل، عزاءً لهما عن ضياع التاج(٥).

وأصبح جون آمنا الآن . وكان فى الثلاثين مـن عمـره رجـلا نحيفـا صغـيرا داكـن الشعر والعينين والبشرة خاصة . وكان صارما فى معالجـة للأمـور ، فلـم يكـن يشـارك أغلب أفراد اسرته ما كانت تسعد به من مناقشات أدبية ودينيـة . فهو فـوق كـل شـئ جندى ، يشعر بالسعادة فى الحملات أكثر مما يشـعر بهـا فـى القصـر . علـى انـه كـان إداريا دقيقا ومقتدرا ، وبرغم قسوته على نفسه كان كريمـا مـع أصدقائـه ومـع الفقـراء وعلى استعداد أن يظهر فى أبّهة حافلة إذا دعت الحاجة. وكان حنونا حليمـا مع اسرته ومخلصا لزوجتـه ، الأميرة الهنجارية بيريسكا ، ثم سُميت اسما مسـيحيا إيريـن ، غـير أن تأثيرها عليه كان ضئيلا برغم مشاركتها له فى صرامته وأوجه احسانه . وكان صديقـه

---

(٥) Anna Comnena, xv, xi, 1-23, pp. 229-42; Zonaras,III, p. 759، (رواية زوناراس أقل تحيزا)؛ أنظر Chalandon, *op.cit.* pp.273-6, and *Les Comnènes*, pp. 1'8 .

الحميم الوحيد هو كبير خدمه ، وهو تركى يدعى أكسوخ الذي أسر وهو صبى عند الاستيلاء على نيقية عام ١٠٩٧م ونشأ فى القصر . وكان تصور جون لدوره الإمبراطورى تصورا رفيعا، وقد ترك له أبوه أسطولا قويا وجيشا مؤلفا من خليط من الأجناس لكنه كان جيد التنظيم والتجهيز ، كما ترك له خزانة فيها ما يكفى لتدبر سياسة نشطة . ولم يكن يرغب فى الحفاظ على حدود الامبراطورية وحسب، وانما يسترجع كذلك حدودها القديمة، ويحيل المطالب الامبراطورية فى شمال سوريا إلى واقع(٦).

وبدأ جون حملته الأولى ضد الأتراك فى ربيع ١١١٩م . فهبط خلال فريجيا واستعاد لاوديشيا . واضطر للعودة إلى القسطنطينية لدواعى عاجلة ، لكنه عاد بعد شهر ليستولى على سوزوبوليس ويعيد فتح الطريق إلى أضاليا . وبينما كان يهاجم السلاجقة بنفسه في الغرب ، كان قد جهّز لمهاجمة الدانشمند فى الشرق . وقد استغل كونسطنطين جابراس ، دوق طرابزون ، شجارا بين الأمير غازى وزوج ابنته الأمير التركى ابن مَنجو الذى اتخذ في طارناغى بأرمينيا مقرا له ، فهب لمساعدة الاخير . لكن غازى ومعه حليفه طغرل أمير ملطية هزماه واخذاه أسيرا ، فاضطر إلى دفع ثلاثين الف دينار ليفتدى نفسه . وحدث خلاف بين غازى وطغرل فى ذلك الوقت حال دون أن يتابع الترك انتصارهم(٧).

١١٣٧م : جون يعد العدة لغزو سوريا

لم يتمكن جون من التدخل فى الأناضول فى السنوات القليلة التى تلت ، إذ شهدت تلك السنوات تعاظم قوة الدانشمند ينذر بالخطر . ففى سنة ١١٢٤م ، وعندما مات بلك الأرتقى زوج ام طغرل امير ملطية ، اثناء القتال فى الجزيرة ، هاجم الامير غازى ملطية وضمها، الأمر الذي أبهج المسيحيين الوطنيين هناك إذ وجدوا حكمه يسيرا ومنصفا . ثم استدار غازى غربا وانتزع من البيزنطيين أنقرة وجنجرة وقسطمونية ووسع سلطانه جنوبا حتى ساحل البحر الأسود ، مما عزل كونسطنطين جابراس برا عن القسطنطينية فأعلن نفسه حاكما مستقلا فى طرابزون . وفى ١١٢٩م ، وبعد موت

---

(٦) Chalandon, *op. cit.* pp.8-11, 19.

(٧) *Ibid*, pp. 35-48

الأمير الروبيني ثوروس ، تحول اهتمام غازى إلى الجنوب ، وفى العام التالى ، وبتحالفه مع الأرمن ، ذبح الأمير بوهمند الثانى امير انطاكية على ضفاف نهر جيحان . ومهما كانت آراء جون حول انطاكية ، فانه لم يكن يرغب فى أن تنتقل إلى أمير مسلم قوى، فشن هجوما فوريا على بافلاجونيا مما حال بين غازى وبين متابعة انتصاراته . ولحسن الحظ كان سلاجقة الأناضول فى حالة من الضعف بسبب خلافات عائلية . ففى ١١٢٥م تمكن الأمير عرب من انتزاع عرش أخيه السلطان مسعود الذى هرب إلى القسطنطينية ، حيث استقبله الامبراطور بمظاهر التشريف . ثم ذهب بعد ذلك إلى زوج امه غازى الدانشمندى واستطاع بمساعدته ، وبعد اربع سنوات من الكفاح، من استعادة عرشه . ولاذ أخوه عرب بدوره إلى القسطنطينية حيث مات(٨).

وابتداء من ١١٣٠م إلى ١١٣٥م دأب جون على الخروج بحملة ضد الدانشمند كل سنة. وفى مرتين تتوقف الحملة بسبب مكائد من أخيه ، اسحق سيباستوكراتور، الذى هرب من البلاط ١١٣٠م وامضى السنوات التسع التالية فى التآمر مع شتى الأمراء المسلمين والأرمن . وفى ١١٣٤م عاد من الحروب لموت الامبراطورة المفاجئ . وفى سبتمبر ١١٣٤م ، عندما هدأ الموقف بموت الأمير غازى، تمكن من استعادة كل الأراضى التى فقدها باستثناء جنجرة التى استعادها فى العام التالى . وأما ابن غازى وخليفته ، محمد ، فقد ضايقته المشاجرات العائلية فلم يعد بوسعه معودة هجماته . وأما مسعود ، الذى حُرم من مساعدة الدانشمند ، فقد توصل إلى اتفاق مع الامبراطور(٩).

وتملك الخوف أتراك الأناضول ، فغدا جون مهيّأ للتدخل فى سوريا . بيد أنه من الضروري أن يحمي ظهره اولا . ولذا وصلت سفارة بيزنطية فى عام ١١٣٥م إلى ألمانيا فى بلاط الامبراطور الغربى لوثير ، وعرضت عليه نيابة عن جون معونات مالية ضخمة مقابل الهجوم على روجر الصقلّى . وتواصلت المفاوضات عدة أشهر إلى أن وافق لوثير على مهاجمة روجر فى ربيع عام ١١٣٧م(١٠) وهُزم المنجاريون عام ١١٢٨م ، وزحفت حملة عام ١١٢٩م إلى الصرب فأخضعتهم . وبذا تحقق الأمان للدفاع على

(٨) Chalandon,pp. 77-91; Nicetas Choniates, pp. 27-9; Michael the Syrian, III, pp. 223-4, 227,237.

(٩) Cinnamus, pp.14-15; Nicetas Choniates, pp.27-9; Michael the Syrian, III, pp. 237-49.

(١٠) Peter Diaconus, in *M.G.H.Ss.* vol.VII, p. 833.

الدانوب الأسفل(١١) وأدت معاهدة أبرمت فى ١١٢٦م إلى عزل أبناء بيزا عن حلفائهم النورمانديون ، وأمسى الامبراطور الآن على علاقة طيبة بكل من البندقية وجنوا(١٢).

وفى ربيع عام ١١٣٧م ، تجمع الجيش الامبراطورى وعلى رأسه الامبراطور وأبناؤه فى أضاليا وتقدم شرقا داخل كيليكيا ، وكان الاسطول الامبراطورى يحرس ميمنته، فبوغت الأرمن بأنباء اقترابه كما بوغت الفرنج بنفس القدر. وحاول ليو الروبينى ، وهو الآن سيد سهل كيليكيا الشرقى ، أن يوقف تقدمه بمحاولة الاستيلاء على القلعة الحدودية البيزنطية سيلوقية ، لكنه أجبر على التقهقر . واكتسح الامبراطور مرسين ، وطرسوس ، وأذنه ، والمصيصة ، والتى استسلمت له كلها فى الحال . وفى عين زربة، اعتمد الامير الارمينى على تحصيناتها الهائلة فى صده ، وقاومت حاميتها طوال سبعة وثلاثين يوما ، غير أن آلات الحصار التى كانت فى حوزة البيزنطيين سحقت أسوارها، واضطرت المدينة إلى التسليم ، وانسحب ليو داخل جبال طوروس العالية ، ولم يعبأ الامبراطور بمطاردته آنذاك . وبعد أن طهر عدة حصون ارمينية فى الجوار من حامياتها ، قاد قواته جنوبا مرورا بإسوس والإسكندرونة ، والبوابات السورية إلى داخل سهل انطاكية . وفى ١٩ أغسطس ظهر أمام أسوار المدينة وضرب معسكره على الضفة الشمالية لنهر العاصى (الأرند)(١٣).

وكانت انطاكية بغير أميرها ، إذ ذهب ريموند (اوف بواتييه) لإنقاذ الملك فولك من بعرين وكان معه جوسلين امير الرها . ووصلا البقاع ليجدا الملك قد نجا من القلعة. وانتوى فولك الذهاب بنفسه إلى أنطاكية لمقابلة البيزنطيين ، لكنه فضل العودة إلى القدس بعد التجارب التى مر بها مؤخرا . وسارع ريموند بالعودة إلى انطاكية ليجد الامبراطور قد بدأ حصاره للمدينة ، ولكن الحصار لم يكن مستكملا بعد ، فتمكن من أن يتسلل داخلا مع حرسه الشخصى من خلال البوابة الحديدية تحت القلعة.

---

(١١) Chalandon, *op.cit.* pp. 59-63, 70-1.

(١٢) *Ibid.* pp.158-61

(١٣) Cinnamus, pp. 16-18; Nicetas Choniates, pp. 29-35; William of Tyre, xiv, 24, pp. 341-2; Matthew of Edessa, ccliv, p.323; Sembat the Constable, pp. 616-17; Gregory -the Priest, pp. 152-3; Michael the Syrian, III, p. 45; Ibn al-Athir, p. 424; Ibn al Qalanisi, pp.2401، (فى صفحة ٢٤٠، ملحوظة ٢، يورد الناشر قراءة مغايرة فى Kiyalyani, i.e. Kaloioannes الى Imanyal, Emmanuel. غير انه جون هو الذى يتحدث عنه المؤرخ).

١١٣٧م : ريموند يقدم فروض الولاء للإمبراطور

ظلت الآلات البيزنطية تدق التحصينات عدة ايام . ولم يكن فى مأمول ريموند الحصول على مساعدة من الخارج ، ولم يكن واثقا من مشاعر السكان داخل الأسوار ، وقد بدأ الكثير من الناس ، حتى من باروناته هو نفسه، يدركون الحكمة من سياسة أليس العنيدة . ولم يمض وقت طويل حتى بادر ريموند بارسال رسالة إلى الامبراطور يعرض عليه الاعتراف بسيادته مقابل الاحتفاظ بالإمارة باعتباره مندوبا امبراطوريا، وكان رد حون هو الاستسلام بلا قيد أو شرط ، وعندئذ أخبره ريموند بأن عليه استشارة الملك فولك ، وأرسلت الرسائل بغاية السرعة إلى القدس . على أن رد فولك كان عقيما ، إذ قال الملك : "نعلم جميعا ، وقد دأب كبراؤنا من قديم على تعليمنا ، أن أنطاكية كانت جزءا من امبراطورية القسطنطينية إلى أن اخذها الأتراك من الامبراطور واحتفظوا بها أربع عشرة سنة ، وأن مطالب الامبراطور الواردة فى المعاهدات المبرمة مع أسلافنا صحيحة . أفينبغى لنا إذن إنكار الحقيقة والتنكر لما هو صحيح؟" ولم يكن بوسع ريموند أن يتردد أكثر من ذلك ، بعدما عرض عليه الملك ، سيده الأعلى ، هذه النصيحة . ووجد مبعوثوه أن الامبراطور على استعداد لتقديم تنازلات . وتقرر أن يأتى ريموند إلى معسكره ويقسم كامل قسم الولاء له ، وأن يصبح رجلا من رجاله ويمكنه من دخول المدينة والقلعة . وفضلا عن ذلك ، وفى حالة تعاون الفرنج مع البيزنطيين فى الاستيلاء على حلب وما جاورها من المدن ، يعيد ريموند انطاكية إلى الامبراطورية ويأخذ بدلا منها امارة تتألف من حلب وشيزر وحماه وحمص. وأذعن ريموند . وركع أمام الامبراطور وقدم له فروض الولاء والطاعة. ولم يصر جون عندئذ على دخول انطاكية ، لكن الراية الامبراطورية رفرفت فوق القلعة(١٤).

وقد أظهرت المفاوضات موقف الفرنج المضطرب إزاء الامبراطور . وربما كانت احتياجات اللحظة العاجلة هى التى أملت الرد الذى كتبه فولك ، الذى كان يعلم تماما أن زنكى هو العدو الأكبر للمملكة الفرنجية ، وليس بوسع الملك الإساءة إلى القوة المسيحية الوحيدة القادرة على صد المسلمين ، وربما مارست الملكة ميليسند نفوذها لصالح سياسة من شأنها أن تبرئ اختها أليس وتلحق الخزى بالرجل الذى خدعها . على أن هذا الرأى الذى كتبه فولك ربما كان هو الرأى الذى ارتآه محاموه . وبرغم كل

---

(١٤) William of Tyre, XIV, 30, pp. 651-3; Orderic Vitalis, XIII, 34, pp. 99-100; Cinnamus, pp. 18-19; Nicetas Choniates, pp.36-7

ما أتاه بوهيموند الأول من دعاية ، كان رأى الصليبيين الأكثر ارتيابا أن المعاهدة المعقودة بين ألكسيوس وآبائهم فى القسطنطينية ما تزال صالحة ، وان انطاكية كان ينبغى أن تعود إلى الامبراطورية ، وان حنث بوهمند وتنكريد بما أقسماه من قسم إنما هو تفريط لأية مزاعم قد يزعمونها . وكان ذلك رأيا امبراطوريا أكثر تطرفا مما كان يراه الامبراطور نفسه . والحكومة الامبراطورية تتصف بأنها دائما واقعية ، وقد رأت أن طرد الفرنج من انطاكية دون تقديم تعويض أمر غير عملي ويخلو من الحكمة . وفضلا عن ذلك ، كانت تود تحديد التخوم مع الدويلات التابعة بحيث يسيطر الامبراطور على سياستها العامة وفى نفس الوقت تتحمل تلك الدويلات صدمات هجوم الأعداء . ولذلك لم يرتكز موقف الامبراطور على معاهدة القسطنطينية ، وإنما على المعاهدة الموقعة مع بوهمند فى ديفول . إذ طلب استسلام انطاكية غير المشروط باعتبار ذلك استسلاما من تابع متمرد ، غير انه كان على استعداد لأن يترك انطاكية تستمر كدويلة تابعة . ومطلبه العاجل هو أن تتعاون معه فى حملاته ضد المسلمين(١٥).

بات الوقت متأخرا هذا العام للقيام بحملة ولذا عاد جون ، إلى كيليكيا ليستكمل غزوها ، بعد أن رسخ سلطته . وهرب امامه الأمراء الروبيون إلى داخل جبال طوروس العالية ، ولاذ ثلاثة من أبناء ليو وهم مليخ ، وستيفن ، وقنسطنطين الضرير ، بابن عمتهم جوسلين أمير الرها . وصمدت فاهكا التى تعد بمثابة قلعة الأسرة لبضع اسابيع بقيادة قائدها المقدام قنسطنطين الذى كان لنزاله مع ضابط من الكتيبة المقدونية يدعى ، إيوستراتيوس ، أبلغ الأثر في الجيش الامبراطورى كله . وبعد سقوط فاهكا مباشرة ألقى القبض على ليو وولديه الكبيرين روبين وثوروس ، وأرسلوا إلى السجن فى القسطنطينية حيث أعدم روبين لتوه ، لكن ليو وثوروس فازا بالرأفة من الامبراطور الذي سمح لهما بالعيش تحت المراقبة فى البلاط. ومات ليو هناك بعد أربع سنوات ، وانتهى أمر ثوروس بفراره وعودته إلى كيليكيا. وبعدما استكمل جون غزو المنطقة ، ذهب إلى منتجع شتوى فى السهل الكيليكى حيث جاءه بلدوين حاكم مرعش ليقدم له فروض الولاء ويلتمس حمايته من الاتراك. وفى الوقت ذاته، أرسلت سفارة امبراطورية إلى زنكى كي يتولد لديه الانطباع بأن البيزنطيين غير راغبين فى الشروع فى مغامرة عدوانية.

---

(١٥) أنظر Chalandon, *op. cit.* pp. 122-7, 130-3

١١٣٨م : المسيحيون يحاصرون شيزر

وفى فبراير التالى ، وبأوامر من الامبراطور ، اعتقلت سلطات أنطاكية فجأة كل التجار والمسافرين من حلب والمدن الاسلامية المجاورة ، كى لا ينقلوا فى أوطانهم ما شاهدوه من استعدادات عسكرية . وفى أواخر مارس تحرك الجيش الامبراطورى إلى انطاكية حيث انضم إليه جنود أمير انطاكية وكونت الرها وكذلك كتيبة من فرسان المعبد. وفى أول ابريل عبر الحلفاء إلى اراضى الأعداء واحتلوا مدينة بلاط. وفى الثالث من الشهر ظهروا أمام البزاعة التى صمدت لخمسة أيام بقيادة زوجة القائد . وانقضى اسبوع آخر فى جمع الجنود المسلمين فى المنطقة وقد لاذ اغلبهم بمغارات الباب حيث اجبرهم البيزنطيون على الخروج ببث الأدخنة فى المغارات . وكان زنكى مع جيشه أمام حماه يحاول أن يخرج منها الحامية الدمشقية عندما اخبره الكشافون بالغزوات المسيحية . فسارع بارسال الجنود بقيادة سوار لتعزيز حامية حلب . وكان جون يمنى نفسه بمباغتة حلب ، لكنه عندما وصل امام اسوارها يوم ٢٠ ابريل وشن عليها هجوما، وجدها فى حالة دفاع قوى ، فقرر عدم المضى مع أثقال الحصار واستدار جنوبا . وفى ٢٢ ابريل احتل أتارب ، وفى ٢٥ معرة النعمان ، وفى ٢٧ كفرطاب . وفى يوم ٢٨ كان جيشه أمام بوابات شيزر.

كان صاحب شيزر هو الأمير المنقذى أبو العساكر سلطان ، الذى تدبر استقلاله عن زنكى . ولذا ربما كان جون يأمل في أن يصرف زنكى اهتمامه عن مصير حلب . غير أن امتلاكها سوف يتيح للمسيحيين السيطرة على أواسط العاصى وسوف يعوق زنكى عن مزيد من التقدم فى سوريا . وشدد البيزنطيون الحصار ، وسرعان ما احتلوا جزءا أسفل المدينة ، وأحضر الامبراطور ما لديه من راجمات الحجارة الضخمة لرجم أعلى المدينة فى التل شديد الانحدار المطل على نهر العاصى . وتروى المصادر اللاتينية والاسلامية على السواء ما بدا من شخص الامبراطور من شجاعة ونشاط ، وكفاءة الرجم كذلك ، فقد بدا كما لو كان فى كل مكان فى ذات الوقت فى خوذته الذهبية، يتفقد الآلات ، ويشجع المهاجمين، ويواسى الجرحى . وشاهد أسامة ابن اخي الامير ما أحدثته المنجنيقات اليونانية من دمار مرعب إذ كانت القذيفة الواحدة منها تدمر بيوتا بكاملها ، بينما انسحقت السارية الحديدية التى تحمل علم الامير ، وهوت إلى اسفل فنفذت فى بدن رجل كان فى الشارع فقتلته . على انه بينما دأب الامبراطور ومهندسوه على العمل بلا كلل ، تخلف الفرنج . إذ كان ريموند يخشى الإقامة في شيزر حال الاستيلاء عليها وهي فى خط المواجهة للعالم المسيحى، تاركا أسباب الراحة فى

أنطاكية ، بينما لم يكن جوسلين ، الذى كان يحمل الكراهية لريموند ، يود أن يراه وقد وطّد نفسه في شيزر وربما فى حلب لاحقا ، ولذا كان لحماسته أثرها فى تشجيع ما يحمله ريموند من تراخ طبيعى ومن عدم ثقة فى البيزنطيين . وبدلا من أن يشترك الأميران فى القتال ، أمضيا أيامهما فى خيمتيهما يلعبان النرد . ولم يكن لتوبيخات الامبراطور من أثر سوى أن دفعتهما دفعا إلى بعض النشاط الخامل لفترة وجيزة . وفى ذات الوقت رفع زنكى حصاره عن حماه وتقدم باتجاه شيزر . وكان مبعوثوه قد أسرعوا إلى بغداد ، حيث كان السلطان عازفا عن تقديم المساعدة أول الأمر ، إلى أن اندلعت اعمال شغب صارخة بالجهاد ، مما اضطره إلى ارسال حملة . ووعد الأمير داود الأرتقى بجيش قوامه خمسين ألفا من التركمان من الجزيرة . كما أرسلت رسائل إلى الأمير الدانشمندى بطلب شن هجوم في الأناضول . وفضلا عن أن زنكى كان مدركا تماما لما يسود البيزنطيين والفرنج من شقاق ، راح عملاؤه فى الجيش المسيحى ينفثون ما يكنه الأمراء اللاتين من ازدراء للإمبراطور.

١١٣٨م : دخول جون أنطاكية

على الرغم من كل مابذله جون من قوة ، فإن صخور شيزر ، وشجاعة المدافعين عنها ، وبلادة الفرنج ، اجتمعت كلها وهزمته . واقترح عليه بعض حلفائه الخروج لملاقاة زنكى خاصة وان جيشه اصغر من جيش المسيحيين، لكنه لم يشأ أن يترك آلات الحصار دون حراسة ، ولا أن يثق بالفرنج الآن . لقد كانت المجازفة فائقة الضخامة . وتدبر أمره واحتل جزء المدينة الاسفل كله ، وفى حوالى ٢٠ مايو أرسل إليه امير شيزر يعرض دفع تعويض ضخم واهدائه أجود خيوله وأردية حريرية وأنفس كنزين لديه : منضدة مرصعة بالجواهر ، وصليب بفصوص اليواقيت سبق وأن أخذ من الامبراطور رومانوس ديوجينيس في منزكيرت قبل سبع وثلاثين سنة، فضلا عن قبوله الاعتراف بالامبراطور سيده الأعلى ودفع جباية سنوية له . فما كان من جون ، الذى كان يشعر بالغثيان من حلفائه اللاتين ، إلا أن قبل الشروط ، فرفع الحصار فى ٢١ مايو . وبينما كان الجيش الامبراطورى العظيم يتحرك عائدا إلى انطاكية ، جاء زنكى إلى شيزر. وبعد عدة مناوشات قليلة ضئيلة الخطر لم يشأ أن يجازف بمطاردة الانسحاب البيزنطى[١٦].

---

(١٦) -William of Tyre, xv, 1-2, pp.655-8; Cinnamus, pp.19-20; Nicetas Choniates, pp. 37

وصل جون بجيشه إلى أنطاكية وأصر على دخول المدينة في موكب حافل، فتقدم على صهوة جواده وسار على جانبيه أمير أنطاكية وكونت الرها على الأقدام كما لو كانا سائسين لفرسه . وقابله عند البوابه البطريق وكل رجال الدين ومشوا بين يديه خلال الشوارع المزدانة بأعلام الزينة الملونة حتى الكتدرائية حيث اقيم قداس وقور ، ومنها إلى القصر حيث اتخذ مكان اقامته . واستدعى ريموند ، وألمح أن الأمير فشل مؤخرا فى واجباته كتابع ثم طلب أن يدخل الجيش المدينة ويتسلم القلعة ، إذ أن الحملات المقبلة ضد المسلمين يتعين التخطيط لها فى انطاكية ، وهو فى حاجة إلى القلعة لتخزين ما لديه من أموال ومواد الحرب . وارتاع الفرنج . والتمس ريموند بعض الوقت للنظر فى هذا الطلب بينما انسل جوسلين خارجا من القصر . وما أن خرج من القصر حتى طلب من جنوده نشر شائعة بين السكان اللاتين فى المدينة بأن الامبراطور يطلب طردهم في الحال ، وحثّهم على مهاجمة السكان اليونانيين . ولدى تفجّر أعمال الشغب اندفع عائدا إلى القصر ، صائحا بالإمبراطور أنه جاء مجازفا بحياته ليحذره من الخطر المحدق به . ويقينا كانت هناك ضجة وهرج فى الشوارع ، وكان اليونانيون الغافلون يقتّلون . ولا أحد يعلم في الشرق أين ينتهي الشغب . ولم يكن جون يحب المعاناة لليونانيون فى المدينة ولا أن تغلق عليه ابواب القصر مع حرسه الخاص فقط، وقد انقطع الاتصال بجيشه البعيد على ضفاف نهر العاصى . فضلا عن انه علم أن سلاجقة الاناضول قاموا بغزو كيليكيا وأغاروا على أذنة، بفضل دبلوماسية زنكى. ولم ينخدع بحيلة جوسلين ، لكنه قبل أن يخاطر بعداوة صريحة مع اللاتين لابد وان يؤمّن تماما خطوط مواصلاته، فأرسل إلى ريموند وجوسلين قائلا إنه فى الوقت الراهن لا يطلب اكثر من تجديد قسم التبعية وانه لابد من أن يرجع إلى القسطنطينية . وغادر القصر عائدا إلى جيشه ، وعلى الفور هدأت اعمال الشغب بأوامر من الأميرين . غير انهما كانا ما يزالان فى حالة من التوتر وفى تلهف كبير لاسترداد حسن نوايا الامبراطور ، حتى أن ريموند عرض تواجد موظفين امبراطوريين فى المدينة وهو يظن - صوابا - أن جون لن يقبل بهذا العرض الذى يخلو من الاخلاص . وبعد وقت قصير ودع جون كلا من ريموند وجوسلين بمظهر خارجى يحمل الصداقة وكامل الريبة المتبادلة . ثم قاد جيشه

وترحى 41; Michael the Syrian, *loc.cit.;* Usama, ed. Hitti, pp.26, 124,143-4; Ibn al-Qalanisi, pp.248-52; Kemal ad-Din, pp. 674-8; Ibn al-Athir, pp.426-8 قصيدة التهنئة التى وجهها Prodomus الى الامبراطور بأن الجو هو الذى انقذ شيزر (M.P.G. vol. CXXXIII, cols. 1344-9).

عائدا إلى كيليكيا[١٧].

١١٣٩م : جون في الأناضول

والجدير بالملاحظة عدم التعرض للكنيسة طوال مفاوضات جون حول انطاكية . وكانت سلطات الكنيسة اللاتينية تخشى أن يصر الامبراطور على تنفيذ البند الوارد في معاهدة ديفول بأن تعود البطريارقية إلى الحظيرة الاغريقية . ذلك انه في مارس ١١٣٨م، أصدر البابا إينوسنت الثاني أمرا يحظر على أى عضو في كنيسته البقاء مع الجيش البيزنطي في حالة إقدام هذا الجيش على أى عمل مضاد للسلطات اللاتينية في انطاكية وليس هناك أدنى شك في أن البابا أصدر هذا الأمر استجابة لطلب أنطاكية . ولا بد وأن جون كان عازفا عن اثارة أية مشكلة دينية إلى أن ترسخ أقدامه على أرض صلبة سياسيا واستراتيجيا ، ولو أنه استطاع تقديم إمارة اخرى بدلا من انطاكية إلى ريموند ، لتمكن من إعادة بطريق يونانى إلى المدينة . لكنه في الوقت ذاته ، وعلى الملأ، كان متسامحا إزاء الوجود اللاتيني عندما كان في موكبه الوقور داخلا المدينة إذ جاء رادولف (اوف دومفرنت) وحياه وسار بين يديه إلى القداس الذى تم في الكتدرائية[١٨].

وعاد جون متباطئا إلى القسطنطينية بعد أن ارسل قسما من جيشه لمعاقبة مسعود السلجوقى على غارته في كيليكيا، فطلب مسعود السلام ودفع تعويضا . وخلال عامي ١١٣٩م و١١٤٠م انشغل الامبراطور مع الامير الدانشمندى الذى كان عدوا أخطر بكثير من السلاجقة . إذ لم يكتف محمد بغزو كيليكيا العليا عام ١١٣٩م والاستيلاء علىقلعة فاهكا ، وإنما قاد أيضا حملة باتجاه الغرب توغلت حتى نهر صنغاري . وبتحالفه مع قسطنطين جابراس ، دوق طرابزون المتمرد ، تمكن من حراسة جانبه الشمالى . وخلال صيف ١١٣٩م أفلح جون في دحر الدانشمند خارج بيثينيا وبافلاجونيا ، وفي الخريف سار شرقا بمحاذاة ساحل البحر الأسود . واستسلم

(١٧) William of Tyre, xv,3-5,pp.658-65; al-Azimi (p.352) is the only other chronicler to mention the plot.

(١٨) William of Tyre, xv,3,p.659. ولكن ابن القلانيسي يقول (ص ٢٤٥) ان جون طلب بطريقا يونانيا لأنطاكية . وربما اضطرب عليه الأمر بين مطالب جون والمطالب اللاحقة التى طالب بها مانويل . ويرد خطاب إينوسينت ، المؤرخ في ٢٥ مارس ١١٣٨م في *Cartulaire du Saint Sèpulcre*, ed. Rozière, p.86.

قسطنطين حابراس ، وتحول الجيش الامبراطورى إلى داخل البلاد لمحاصرة قلعة نقصار الدانشمندية . وكانت مهمة صعبة ، إذ وهبتها الطبيعة القوة والحماية الجيدة، وفي تلك البلاد الجبيلة الوعرة يصعب الحفاظ على خطوط المواصلات . وتأسى حون لخسارته الجسيمة فى جنوده ، ولفرار ابن أخيه ، حون بن اخيه اسحق ، إلى صفوف الاعداء وتحوله إلى الاسلام وزواجه من ابنة مسعود . ويدعى السلاطين العثمانيون انهم من نسله . وفى خريف ١١٤٠م تخلى حون عن مواصلة الحملة وأعاد جيشه إلى القسطنطينية وفى نيته استئناف الحملة فى العام التالى . لكن االأمير محمد مات فى العام التالى ، وتوقفت القوة الدانشمندية عن نشاطها مؤقتا بما دار لديها من حرب أهلية اشتعلت بين الورثة ، ومن ثم يستطيع حون العودة إلى مشروعه الأكبر وأن يحول انتباهه مرة اخرى إلى سوريا(١٩).

وسرعان ما خسر في سوريا ما فازت به حملته ضد المسلمين عام ١١٣٧م ، إذ استعاد زنكى كفرطاب من الفرنج فى مايو ١١٣٧م ، ومعرة النعمان وبزاعة وأتارب فى الخريف . وفى السنوات الأربع التالية كان زنكى مشغولا تماما بمحاولته الاستيلاء على دمشق ، وقد فشل فرنج شمال سوريا الكسالى فى انتهاز فرصة الصعوبات التى يواجهها زنكى . وفى كل سنة يتبادل ريموند وسوار والي حلب الغارات فى أراضى بعضهما البعض ، ولكن لم تحدث معركة كبرى(٢٠) . وفازت كونتية الرها بسلام نسبى، نظرا للنزاعات المهلكة بين امراء المسلمين حول الحدود ، والتي وتفاقمت بموت محمد الدانشمندى . وكان الامبراطور حون يراقب الأحداث بعناية من القسطنطينية ، وبدا له بوضوح أن فرنج شمال سوريا لا قيمة لهم كجنود للعالم المسيحي.

١١٣٩م : خلع البطريق رادولف

ويرجع ما ظهر على ريموند من عدم المبالاة إلى نقص القوة العاملة من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى شجاره مع البطريق رادولف . و لم يكن فى نيته قط أن يحترم قسمه بطاعة البطريق فى كل شئ، وكانت عجرفة رادولف تثير ثائرته . وعثر على حلفاء فى بعض رجال الكنيسة الملحقين بالكتدرائية يتزعمهم رئيس الشمامسة ،

(١٩) Nicetas Choniates, pp. 44-9; Michael the Syrian, III, p. 248

(٢٠) Kemal ad-Din, pp. 681-5

لامبرت ، وكاهن يدعى أرنولف (اوف كلابريا) . وبتشجيع من ريموند ، رحلوا إلى روما في اواخر عام ١١٣٧م للشكوى من انتخاب رادولف بطريقة غير كنسية ، وعند مرورهم في اراضي الملك روجر الثاني ، استثاره أرنولف - المولود من بين رعاياه - ضد رادولف بأن أكد له أن رادولف قد ضمن لريموند عرش انطاكية ، وهو العرش الذي طالما كان روجر الثاني يشتهيه . واضطر رادولف إلى اللحاق بهم في روما للدفاع عن نفسه ، وعندما وصل بدوره إلى جنوب ايطاليا اعتقله روجر . لكنه أوتي من سحر البديهة وإغواء اللسان ما جعله يفوز بالملك إلى جانبه بسرعة . وواصل الرحلة إلى روما حيث انتصر سحره مرة اخرى . ونضا عن نفسه طيلسانه الأسقفي ووضعه على مذبح القديس بطرس ، ثم استرده من البابا . وفي طريق عودته خلال ايطاليا لاستئناف مسؤوليات عرشه البطريارقي ، عامله الملك روجر معاملة ضيف الشرف ، لكنه عندما وصل انطاكية ، رفض أتباعه من رجال الدين - يؤازرهم ريموند - أن يحيوه التحية المألوفة وهي مقابلته عند بوابات المدينة . فتظاهر رادولف بمظهر الرجل الوديع المجروح ، وتقاعد سرا في دير بالقرب من السويدية ، وبقي هناك إلى أن دعاه جوسلين امير الرها - الساعي دائما إلى إحراج ريموند - إلى زيارة رسميه لعاصمته ، حيث استقبل رئيس الأساقفة استقبال السيد الروحي الأعلى . وسرعان ما قرر ريموند أن الأسلم له شخصيا أن يعود البطريق إلى انطاكية ، ولّما عاد لقي من التحية كل آيات التشريف التي يودها.

على أن ملف التحقيق أعيد فتحه من جديد في روما نظرا لما اثاره ريموند من هياج واضطراب. وفي ربيع ١١٣٩م ، أرسل بطرس ، رئيس أساقفة ليون ، لينظر الحالة في مكانها . وذهب بطرس الذي كان طاعنا في السن لزيارة الأماكن المقدسة ، وأثناء رحلة العودة إلى الشمال مات في عكا. وكان موته خزيا على اعداء رودولف ، وحتى أرنولف (اوف كلابريا) عرض خضوعه لرادولف الذي منعته غطرسته من قبول ذلك العرض ، فثارت ثائرة ارنولف وعاد إلى روما وحث البابا على ارسال مندوب آخر ، ألبيريك ، أسقف أوستيا . ووصل المندوب الجديد في نوفمبر ١١٣٩م ، وعقد على الفور مجمعا كنسيا حضره كل مطارنة الشرق ، بمن فيهم بطريق القدس . وكان جليا أن تعاطف المجمع يميل إلى جانب الأمير ورجال الدين المعارضين ، وكان رئيس أساقفة أفاميا سيرلون يحاول الدفاع عن البطريق رادولف فطردوه من المجمع، ومن ثم رفض رادولف حضور جلسات المجمع المنعقدة في كتدرائية القديس بطرس، عندما طرد مؤيده الوحيد. وبعد رفضه الاستدعاء لثالث مرة ليدفع عن نفسه الاتهامات الموجهة إليه ،

أعلن المجمع خلعه . وانتخب المجمع مكانه آميرى (اوف ليموج) رئيس كهنة الكنيسة ، وهو رجل ضخم ، نشيط، ويكاد يكون أميًا ، ومدين لأرنولف بأول درجات تقدمه ، لكنه كان حصيفا عندما أنشأ علاقة الصداقة مع ريموند . وبناء على قراره المكتوب ألقى ريموند البطريق السابق فى غيابة السجن . وفيما بعد هرب رادولف وذهب إلى روما حيث فاز مرة اخرى بتأييد البابا والكرادلة . لكنه قبل أن يتمكن من استغلال مساعدتهم لإعادة توطيد مكانته وافته المنيّة فى وقت ما من عام ١١٤٢م ، وحامت الشكوك حول السم. وضمنت تلك الحادثة التعاون المخلص من كنيسة انطاكية ، على أن ما كان يتصف به البطريق من معاملة جائرة ، ترك انطباعا قبيحا حتى بين رجال الدين الذين كانوا يكرهونه الكراهية كلها[٢١].

١١٤٢م : جون يعود إلى كيليكيا

وفى ربيع ١١٤٢م كان جون مهيأً للعودة إلى سوريا . وكما حدث عام ١١٣٦م ، احتاط لحماية ظهره بتحالف مع العاهل الالمانى ضد روجر الصقلى ، وزار سفراؤه بلاط كونراد الثالث ، خليفة لوثير ، لعمل الترتيبات الضرورية ولكى توضع اللمسات الأخيرة للصداقة بخاتم الزواج ، وعادوا عام ١١٤٢م ومعهم اخت زوجة الملك كونراد ، بيرثا (اوف سولزباخ) ، التى تقرر أن تصبح زوجة أصغر ابناء جون – مانويل تحت اسم إيرين . كما ضمن جون النوايا الحسنة للمدن البحرية الايطالية[٢٢]. وفى ربيع ١١٤٢م قاد جون وأبناؤه الجيش عبر الأناضول إلى أضاليا، وهو يدحر فى مسيرته السلاجقة ورعاياهم التركمان الذين كانوا يحاولون مرة اخرى شق طريقهم إلى فريجيا ، ويقوى الدفاعات الحدودية . وبينما كان الامبراطور منتظرا فى اضاليا ، اصابته مصيبة جسيمة . إذ أن أكبر أبنائه ألكسيوس ، المعيّن وريثا ، سقط مريضا ومات هناك . وتقرر أن يعهد إلى إبنيه الثانى والثالث – أندرونيكوس واسحق – بنقل الجثة بحرا إلى القسطنطينية ، وأثناء الرحلة مات أندرونيكوس هو الآخر[٢٣] . وبرغم هاتين

---

(٢١) William of Tyre, xiv, 10, pp. 619-20, xv, ii-16, pp. 674-85. وهو مصدرنا الوحيد.

(٢٢) Chalandon, *op. cit.* pp.161-2, 171-2

(٢٣) Cinnamus, p. 24; Nicetas Choniates, pp. 23-4. يقول سينّاموس (Cinnamus ص ٢٣) إن جون كان ينوى توريث الامبراطورية لألكسيوس ، وأن يحصل مانويل ، أصغر ابنائه ، على امارة تتألف من أنطاكية و أضاليا وقبرص.

الفاجعتين، واصل حون زحفه شرقا معلنا أن الهدف هو كيليكيا العليا لاستعادة ما أخذه الدانشمند من قلاع ، إذ لم يرغب فى اثارة شكوك الفرنج[٢٤] ، وشق الجيش طريقه الوعر خلال كيليكيا وعبر سلسلة جبال امانوس العليا المسماة جياورداغ، وفي منتصف سبتمبر ظهر فجأة أمام تل بشير ، العاصمة الثانية لجوسلين أمير الرها. وبوغت جوسلين فسارع إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للامبراطور وقدم له رهينة ، ابنته ايزابيلا . فاستدار حون واتجه نحو انطاكية ، وفى ٢٥ سبتمبر وصل إلى قلعة بـاجراس وهي قلعة فرسان المعبد العظيمة التى تتحكم فى الطريق من كيليكيا إلى انطاكية . ومن هناك ارسل إلى ريموند طالبا تسليم المدينة كلها له ، وكرر ما سبق أن عرضه من تقديم امارة جديدة للأمير من الغزوات المقبلة.

وانزعج ريموند . فيقينا عقد الامبراطور عزمه الآن على متابعة مطالبه والحصول عليها بالقوة ، ويبدو أن المسيحين الوطنين كانوا على استعداد لمساعدة البيزنطيين . وحاول الفرنج كسب الوقت . فرد ريموند بأنه لابد وأن يستشير اتباعه ، وبذا غير تماما الوضع القانونى الذى ارتكز عليه عام ١١٣١م وانعقد مجلس فى انطاكية أعلن فيه الأتباع - وربما استدعاهم البطريق الجديد على وجه السرعة - أن ريموند يحكم كمجرد زوج وريثة انطاكية ، ومن ثم لاحق له في التخلى عن أراضيها ، بل إن الأمير والأميرة معا لا يستطيعان تغريب الامارة او مبادلتها دون موافقة أتباعهما الذين سوف يطيحون بهما من على العرش اذا حاولا ذلك . وحمل اسقف جبلة رد المجلس إلى حون الذي استشهد بسلطة البابا في تأييد رفض المطلب الامبراطورى غير انه عرض على حون أن يدخل انطاكية في موكب يكلله الوقار . ولم يكن فى هذا الرد الذى يتعارض تماما مع كل تعهدات ريموند السابقة أى خيار يختاره حون سوى الحرب . على أن الموسم كان متقدما جدا بحيث لا يسمح بالعمل الفورى ، ولذا راح حون ينهب ممتلكات الفرنج فى جوار المدينة ، ثم انسحب إلى داخل كيليكيا لاستعادة القلاع التى اخذها الدانشمند ولكى يمضى الشتاء[٢٥] .

---

(٢٤) William of Tyre, xv,19, p 688 ، يشير وليم الى ان ريموند دعا حون للتدخل خشية من زنكى، ولكن Nicetas Choniates (p.52) يتحدث عنه مخفيا خططه وأن وصوله الفعلى الى سوريا كان مفاجأة (William of Tyre, *ibid.* p. 689) .

(٢٥) William of Tyre, xv, 19-20, pp. 688-91; Nicetas Choniates, pp. 52-3; Gregory the Priest, p.156; Matthew of Edessa, cclv, p.325.

ومن كيليكيا أرسل حون سفارة إلى القدس لتعلن للملك فولك عن رغبته فى زيارة الأماكن المقدسة ولكى يناقش مع الملك عملا مشتركا ضد الكفرة . واسقط في يد فولك . فهو لا يرغب فى نزول الجيش الامبراطورى العظيم إلى فلسطين ، وسوف يكون ثمن ما يقدمه الامبراطور من مساعدة هو حتما الاعتراف بسيادته . وانطلق أسقف بيت لحم ، انسيلم ، وبصحبته آمر قلعة القدس ، رورد ، ورئيس رهبان فرسان المعبد جيوفرى الذى كان دارسا جيدا لليونانية ، ليشرحوا لجون أن فلسطين بلد فقير لا يستطيع توفير الطعام لإعاشة جيش ضخم كجيش الامبراطور ، ولكنه اذا تعطف بالحضور مع حرس صغير فسوف يكون الملك فى غاية السرور للترحيب به . وقرر حون عدم الاصرار على طلبه أكثر من ذلك حاليا(٢٦).

فى مارس ١١٤٣م ، عندما أتم الامبراطور استعداداته للاستيلاء على انطاكية ، منح نفسه عطلة قصيرة يذهب فيها لصيد الخنزير البرى فى جبال طوروس . وأثناء الصيد أصيب عرضا بسهم فجرحه . ولم يعبأ كثيرا بهذا الجرح . لكن الجرح تعفّن وسرعان ما دخل في مرحلة الاحتضار بسبب تسمم الدم . وواجه حون نهايته رابط الجأش ، وظل حتى آخر لحظة يعمل فى الترتيب لاستخلافه ولاستمرار الحكومة استمرارا سلسا. لقد مات أكبر ابنين من ابنائه الأربعة . وكان الثالث اسحق ، الموجود الآن فى القسطنطينية ، شابا متقلب المزاج . فقرر حون أن يوّرث الامبراطورية للأصغر والأحد ذكاءً ، مانويل ، وحث صديقه العظيم ، آكسوك كبير متبوعيه ، مساندة مانويل في مطلبه . وبيديه الضعيفتين وضع التاج على رأس مانويل واستدعى جنرالاته للهتاف للامبراطور الجديد وبعد أن نطق باعترافه الأخير لراهب جليل من بامفيليا، مات يوم ٨ ابريل(٢٧).

وكان موت حون بمثابة الخلاص لأنطاكية الفرنجية . وفى الوقت الذى أسرع فيه

(٢٦) William of Tyre, xv, 21.pp. 691-3. ويقول (Cinnamus, p.25) إن حون أعدّ قرابين للقبر المقدس.

(٢٧) William of Tyre, xv, 22-3, pp. 693-5; Cinnamus, pp. 26-9; Nicetas Choniates, pp. 56-64; Matthew of Edessa, cclv, p. 325; Gregory the Priest, p. 156; Michael the Syrian, III, p. 254; Ibn al-Qalanisi, p 264; *Bustan*, p. 537.

آكسوك إلى القسطنطينية يسبق الأنباء لحماية القصر والحكومة من أية محاولة من جانب اسحق بن حون للمطالبة بالعرش ، كان مانويل يقود الجيش عائدا به عبر الأناضول. وإلى أن يتأكد أولا من عاصمته ، ليس هناك مجال للمزيد من المغامرات فى الشرق . ونحّى المشروع الامبراطورى جانبا ، ولكن ليس لفترة طويلة(٢٨).

(٢٨) Cinnamus, pp. 29-32، يتحدث عن سفارة انطاكية تتصف بالوقاحة ذهبت الى مانويل الذى رد بأنه سوف يعود لتأكيد حقوقه Nicetas Choniates, pp. 65-9; William of Tyre, xv, 23, p.696.

الفصل الرابع:

سقوط الرها

سقـوط الرها

"رُبّ مُلكٍ مُعَجّلٍ فى أوّلِهِ . أمّا آخِرَتُهُ فلا تُبَارَكُ"
(أمثال ٢٠ : ٢١)

تنفس فرنج الشرق الصعداء لدى سماعهم نبـأ وفـاة الامـبراطور ، و لم يلحظـوا فـى تنهدات راحتهم كم كان الأتابج زنكى أكثر منهم ارتياحا بكثير وهو ألـد أعدائهـم[١]. وقد أمضى زنكى فترة سنتين ، من ١١٤١م ، وهـو يعـانى الحـرج مـن رغبـة السـلطان مسعود فى إعادة تـأكيد سـلطته عليه . و لم يتمكـن زنكـى مـن تجنـب غـزو السـلطان لأراضى الموصل إلاّ بالتظاهر فى الوقت المناسب بالخضوع له ، إلى جـانب هديـة ماليـة وإرسال ابنه كرهينة[٢]. ولو قد حدث غزو بيزنطى لسوريا فى تلك اللحظة ، لانتهـت مخططات زنكى فى الجهة الغربيـة ، بل زاد تهديد تلك المخططات من جرّاء تحالف بـين

---

(١) يتمثل الموقف الاسلامى حيال البيزنطيين فيما أورده ابن القلانيسى (ص ٢٥٢) عندمـا كـان يتحـدث عن انسحاب الأمبراطور عام ١١٣٨م فيقول : "اطمأنت كل القلوب بعد حزنها وخوفها".

(٢) Ibn al-Athir, pp. 241-2

ملك القدس وأتابج دمشق ، نشأ نتيجة لخوفهما المشترك منه .

وبعد انهيار التحالف الفرنجي البيزنطي عام ١١٣٨م ، عاد زنكي إلى ما كان فيه من محاولة الاستيلاء على دمشق . وكان حصاره لحمص قد توقف مرتين ، المرة الأولى بتقدم الفرنج إلى قلعة بعرين ، والمرة الثانية بحصار الفرنج لشيزر . وقد عاد الآن في كامل قوته إلى حمص ، وأرسل إلى دمشق طالبا يد أم الأتابج للزواج ، الأميرة زمرد ، عارضا حمص مهرا لها . ولم يكن الدمشقيون في موقف يساعدهم على الرفض . وفي يونية ١١٣٨م تزوجت السيدة الأرملة من زنكي ودخلت جنوده حمص . وإظهارا لحسن النوايا، أقطع زنكي حاكم حمص المملوك المسن أنر إقطاعية تضم قلعة بعرين التي احتلها حديثا وبعض الحصون في الجوار(٣).

وكانت أسرة بوري الحاكمة في دمشق حسنة الحظ ، إذ لم يتخذ أنر مقامه في قلعة بعرين وإنما جاء إلى دمشق . وهناك قُتل الأتابج الصغير شهاب الدين محمود في فراشه على يد ثلاثة من أقرب غلمانه ، وكان ذلك في ليلة ٢٢ يونية ١١٣٩م . ولو كان زنكي - الذي حامت حوله شكوك التواطؤ - يأمل بذلك في الاستيلاء على الحكم فقد خاب أمله ، إذ باشر أنر في الحال تسيير دفة الأمور ، فصلب القتلة ، واستدعى الأخ غير الشقيق للأتابج ، جمال الدين محمد ، حاكم بعلبك ، ليتسلم عرش محمود. وفي المقابل أعطى محمد بعلبك لأنر الذي تزوج من أم التابج الجديد . لكن أنر بقي في دمشق مسؤولا عن الحكومة . ولم يصادف ذلك هوى لدى زنكي ، وخاصة بتشجيع زوجته زمرد وأخ لمحمد ، هو باهرام شاه الذى كان يحمل عداوة شخصية لأنر . وفي أواخر صيف ١١٣٩م حاصر بعلبك بجيش ضخم وأربع عشرة آلة من آلات الحصار ، فاستسلمت المدينة يوم ١٠ أكتوبر ، كما استسلمت يوم ٢١ من الشهر حامية القلعة - والتي شيِّدت من بقايا معبد بعل الكبير - بعد أن أقسم زنكي على القرآن بالإبقاء على حياة افراد الحامية ؛ لكن زنكي حنث بقسمه ، إذ قتلوا جميعا شر قتلة وبيعت نساؤهم سبايا . ولم يكن زنكي يقصد من ذلك سوى ترويع الدمشقيين ، لكنها جعلت مقاومتهم أكثر صلابة وأدت بهم إلى النظر إلى زنكي على انه عدو خرج عن العقيدة(٤).

وفي الأيام الأخيرة من تلك السنة عسكر زنكي بالقرب من دمشق ، وعرض على

(٣) Ibn al-Qalanisi, p. 252; Kemal ad-Din, pp. 678-9

(٤) Ibn al-Qalanisi, pp. 253-6; Ibn al-Athir, p.431

الأتابج محمد بعلبك أو حمص بدلا من دمشق . وكان الأمير الصغير حريا بالقبول لوسمح له أنر . وبرفض هذا الأخير تحرك زنكي لمحاصرة المدينة . وفي خضم تلك الأزمة مات محمد يوم ٢٩ مارس ١١٤٠م . بيد أن الدمشقيين كانوا يحملون الولاء لآل بورى، و لم يجد أنر صعوبة في رفع إبن محمد الشاب مجير الدين أبق إلى العرش . وفي ذات الوقت قرر أنر أن لديه من المبررات الدينية والسياسية ما يدفعه إلى طلب مساعدة المسيحيين ضد عدوه الغادر. فانطلقت من دمشق سفارة يرأسها الأمير أسامة بن منقذ قاصدة القدس[٥].

١١٣٩م : التحالف الفرنجي مع دمشق

كان الملك فولك يحاول انتهاز فرصة ما يعانيه الدمشقيون من ارتباك كي يحكم قبضته على منطقة ما وراء نهر الأردن. وفي صيف ١١٣٩م زاره ثييرى (اوف ألزاس)، كونت فلاندرز ، زوج سيبيلا ابنة فولك من زواجه الأول . وبمساعدة ثييرى أغار فولك على جلعاد ، وبشئ من الصعوبة استولى على حصن صغير بالقرب من عجلون، وذبح المدافعين عنه[٦] . و لم يجن من كده سوى القليل . إذ أنه عندما عرض عليه أنر عشرين ألف بيزنت شهريا وإعادة قلعة بانياس لقاء طرد زنكي من دمشق ، لم يتردد في تغيير سياسته . و لم تكن فكرة هذا التحالف جديدة ، فقد سبق وان حدث فى أوائل ١١٣٨م أن رحل أسامة إلى القدس نيابة عن أنر لمناقشة جدوى التحالف . وبرغم ما استقبله به البلاط الفرنجي من مظاهر التشريف ، إلاّ انه رفض ما عرضه من مقترحات . أما الآن ، فالبلاط الفرنجي يفهم ما تشكله الأخطار الناجمة عن تعاظم قوة زنكي ، وعندما استدعى فولك بمجلسه لينظر فى العرض ، كان هناك شعور عام بأنه ينبغي قبوله[٧].

بعد تسلم الفرنج رهائن من دمشق ، انطلق جيشهم فى ابريل قاصدا الجليل . وسار فولك متوخيا جانب الحذر ، وتوقف بالقرب من طبرية بينما استمر الكشّافون . وهبط زنكي على الساحل المقابل لبحر الجليل كي يراقب تحركاته ، فوجده ماكثا لا

---

(٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 256-9

(٦) William of Tyre, xv, 6, pp. 665-8

(٧) *Ibid.* xv, 7, pp. 668-9; Ibn al-Qalanisi, pp. 259-60

يتحرك ، فعاد لمحاصرة دمشق . وعلى الأثر انطلق فولك شمالا . و لم يكن زنكي ليجازف بأن يقع بين فكي الفرنج والدمشقيين ، ولذا انسحب مبتعدا عن دمشق . وعندما قابل فولك قوات أنر إلى الشرق قليلا من بحيرة الحولة في وقت مبكر من يونية ، علموا أن زنكي انسحب إلى بعلبك . وعادت بعض قوات زنكي في وقت متأخر من الشهر للإغارة حتى وصلت إلى أسوار دمشق ، لكن زنكي إنسحب بجيشه الرئيسي إلى حلب و لم يصبه أذى[٨] . وبذا أنقذ التحالف دمشق دون معركة . والتزم أنر بشروط الصفقة، وكان جنوده يحاصرون بانياس حصارا متقطعا لعدة شهور خلت. وانتهز أحد قادة زنكي – إبراهيم بن طرغوت – فترة خمود في الحصار وراح يغير على الساحل بالقرب من صور حيث بوغت بجيش فرنجي أنطاكي يقوده ريموند جاء جنوبا لمساعدة فولك في الحملة الدمشقية . وهزم ابراهيم وقتل . وسرعان ما قرر المدافعون عن بانياس التسليم عندما شاهدوا أنر نفسه وبصحبته فولك وريموند ، اللذين شجعتهما زيارة المندوب البابوي، ألبريك (اوف بوفيه) . ورتب أنر تعويض المدافعين عن بانياس بأراض بالقرب من دمشق ، ثم سلّم المدينة للفرنج الذين نصّبوا فيها حاكمها السابق ، رينيه (اوف بروس) ، بينما تقرر تعيين آدم ، رئيس شمامسة عكا ، أسقفا لها[٩].

وتأكد تحالف فولك وأنر بزيارة قام بها الأخير بعد ذلك مباشرة إلى بلاط الملك في عكا يصحبه فيها أسامة . ولقيا استقبالا ساده الود والتملق ، ثم ذهبا إلى حيفا والقدس ، وعادا خلال نابلس وطبرية . وتمت الجولة في جو تميز بحسن النية البالغة، رغم أن اسامة لم يوافق البتة على كل ما شاهده[١٠] . وفضلا عن ذلك ، أظهر فولك رغبته المخلصة في صداقة الدمشقيين . إذ شكوا له مما يقوم به رينيه (اوف بورس) من غارات من بانياس على قطعانهم ، فأصدر فولك اوامره الصارمة بأن يكف رينيه عن غاراته وأن يدفع تعويضات للضحايا[١١].

---

(٨) William of Tyre, xv, 8, pp. 669-70; Ibn al-Qalanisi, p.260; Kemal ad-Din, p. 682

(٩) William of Tyre, xv, 9-11, pp. 770-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 260-1

(١٠) Usama, ed Hitti, pp. 166-7, 168-9, 226

(١١) *Ibid.* pp.93-4

١١٤٠م : بناء القلاع على الحدود الجنوبية

شعر الملك فولك بالاطمئنان على حكومته فى حوالى عام ١١٤٠م. وكانت الأحوال فى شمال سوريا قد تدهورت منذ أيام أسلافه ، ولم يكن يشعر بأن له مكانة أو سلطة هناك . بل ومن المشكوك فيه ما اذا كان جوسلين أمير الرها يعترف بسلطته هناك. لكنه كان آمنا فى نطاق سلطانه الخاص به . وقد لقن الدرس الذى يفرض على الفرنج تخفيف خصومتهم للمسلمين إذا أرادوا العيش هناك، وينبغى لهم أن يكونوا على استعداد لمد يد الصداقة لأقلهم خطورة ، وقد طوّع الملك نبلاءه بحيث ساروا معه على نفس درب سياسته . واجتهد فى الوقت نفسه كي يوفر الحماية للبلد . فشُيِّدت على الحدود الجنوبية ثلاث قلاع للحراسة من غارات المصريين الآتية من عسقلان: ففى يبنه، الواقعة على مسافة عشرة أميال تقريبا جنوب غرب اللد ، وفى بقعة وفيرة المياه تتحكم فى تلاقى الطرق من عسقلان إلى يافا والرملة ، استغل أطلال المدينة الرومانية القديمة يمنية لتشييد قلعة رائعة عهد بها إلى باليان ، وشهرته "العجوز" ، شقيق فيكونت تشارترز . وكان بليان يمتلك الأرض فى ظل لوردات يافا ، وفاز بعطف فولك عندما سانده الملك ضد هيو (اوف لو بواسيه) . ولأنه آمر قلعة يبنة ، فقد رفع إلى مصاف كبار مستأجرى الأرض ، وتزوج هيلفيس ، وريثة الرملة . وكانت ذريته تشكل أشهر عائلة نبيلة فى الشرق الفرنجى(١٢).

وإلى الجنوب من يبنة يقع الطريق المباشر من عسقلان إلى القدس ، تحرسه قلعة (الحراسة البيضاء Blanchegarde) ، على التل الذى يسميه العرب تل الصافية ، أى المشرقة . وقد أصبح وكيلها ، أرنولف ، من أغنى وأقوى بارونات المملكة(١٣). وبنيت القلعة الثالثة فى بيت جبريل عند القرية التى يسميها الصليبيون خطأ بئر سبع . وكانت تتحكم فى الطريق من عسقلان إلى الخليل ، وعهد باستحكاماتها إلى فرسان المستشفى(١٤). ولم تكن تلك الاستحكامات على ما يكفى من الاكتمال بحيث تمنع كل الغارات المنطلقة من عسقلان . ففى ١١٤١م ، اخترق المصريون تلك

---

(١٢) William of Tyre, xv, 24 pp.696-7. For Balian's origin , see Ducange, *Familles d'Outre Mer*, ed.Rey, pp.360-1

(١٣) William of Tyre, xv, 25, pp. 697-9.

(١٤) *Ibid.* xɪv, 22, pp.638-9. Martin, 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacovites de Jérusalem. ɪɪ', *Journal Asiatique*, 8 me série, vol. xɪɪɪ, pp.34-5, gives Szrian evidence suggesting that the castle was being built in 1135.

الاستحكامات وهزموا قوة صليبية صغيرة فى سهل شارون[١٥]، غير أن تلك التحصينات كانت قادرة على صد أى هجوم حاد من الجنوب على القدس ، وكانت بمثابة مراكز للإدارة المحلية .

وفى الوقت ذاته اتخذ فولك الخطوات الكفيلة بإخضاع البلاد شرقى وجنوبى البحر الميت للرقابة الصارمة . وقد ساعدت اقطاعية الشوبك ، بقلعتها الواقعة فى واحة فى تلال إيدوم ، فى تحكم الفرنج المطلق فى طرق القوافل الذاهبة من مصر إلى الجزيرة العربية وسوريا ، على أن القوافل الاسلامية كانت ما تزال تمر آمنة على الطرق ، وكان المغيرون من الصحراء ما يزالون قادرين على الاختراق والوصول إلى يهودا. ومنذ أن تولى فولك العرش منح رومان (اوف لو بوي) الشوبك ومنطقة ماوراء الأردن نحو عام ١١١٥م . لكن رومان ساند هيو (اوف لو بواسيه) ضد الملك ، الذى صادرهما وحرم ابنه من وراثتهما ، ومنح الاقطاعية لباجان الساقي الذي كان من أرفع مسؤولي بلاطه . وكان باجان إداريا قويا حاول إحكام رقابته على المنطقة الكبيرة التى يحكمها . ويبدو انه أفلح فى أن يستتب الأمن فى البلاد حتى جنوب البحر الميت ، ولكن عندما كان فولك مشغولا فى جلعاد عام ١١٣٩م تمكنت جماعة من المسلمين من عبور نهر الأردن على مقربة من اتصاله بالبحر الميت والإغارة على يهودا، حيث نصبت شركاً - بخدعة تقهقر زائف - قضت فيه على جماعة من فرسان المعبد كانت قد أرسلت للتصدى لها . وربما نقل باجان مقره من الشوبك فى الشراه إلى مؤاب لكى يسيطر على الطرف الشمالى للبحر الميت وطرفه الجنوبي أيضا. وهناك فى مؤاب، وبموافقة الملك عام ١١٤٢م ، وعلى تل يسميه المؤرخون حجرة الصحراء Petra Deserti ، بنى قلعة عظيمة تعرف باسم كرك مؤاب . وكانت ذات موقع رائع يسيطر على الطرق الوحيدة التى تربط مصر عمليا بغربى الجزيرة العربية والداخلة إلى سوريا ، ولم تكن تلك القلعة تبعد كثيرا عن مخاضات نهر الأردن الأسفل . وكان بلدوين الأول قد انشأ فعلا مرقبا أسفل شاطئ خليج العقبة ، عند إيلين أو أيله . ونصّب باجان حامية أقوى هناك ، وكذا فى حصن وادى موسى بالقرب من البتراء القديمة . وقد ساعدت تلك الحصون ، مع الشوبك وكرك ، في توطيد سيادة لورد منطقة الأردن على أراضى إيدوم (الشراه) ومؤاب ، وعلى ما يحيطها من حقول غنيّة بالحبوب ، ومنخفضات الملح على البحر الميت على الرغم من أن الفرنج لم يستعمروا تلك المناطق بجدية ، وواصلت قبائل

(١٥) Ibn al-Qalanisi, p. 263

البدو حياتها البدوية القديمة فى المناطق القاحلة ، تدفع أحيانا مجرد إتاوة للفرنج[١٦].

وتحسنت الحالة الأمنية الداخلية فى المملكة في عهد فولك . إذ كان الطريق بين يافا والقدس فى وقت استخلافه ما يزال محفوفا بالمخاطر بسبب قطاع الطرق الذين لم يعتادوا على التحرش بالحجاج وحسب ، وانما كانوا يقطعون كذلك امدادات الطعام الذاهبة إلى العاصمة . وفى ١١٣٣م ، وبينما كان الملك غائبا فى الشمال ، نظّم البطريق وليم حملة ضد قطاع الطرق وشيّد حصنا سمى (شاسيل إيرنوت) بالقرب من بيت نوبه ، حيث يصعد الطريق القادم من اللد إلى داخل التلال . وكان تشييدها تسهيلا للسلطات فى حراستها للطريق ، وبعد اتمام التحصينات على الحدود المصرية ، لم يكن المسافرون يواجهون صعوبة أثناء رحلتهم من الساحل إلا فيما ندر[١٧].

١١٤٣م : مؤسسات الملكة مليسيند

ليس لدينا سوى القليل عن حكومة المملكة فى السنوات الأخيرة من حكم فولك . فبعد سحق تمرد هيو (اوف لو براسيه) ، بعد أن هدأت رغبة الملكة فى الإنتقام ، أيّد البارونات التاج بغاية الإخلاص . وكانت علاقات فولك بكنيسة القدس طيبة على الدوام . إذ أن البطريق وليم (اوف ميسين) الذى توّجه والذى قُدّر له أن يعيش من بعده ، ظل صديقه الوفي الذي يرعاه . وبتقدم الملكة مليسيند فى السن اتجهت اهتماماتها إلى أعمال التّقى والورع ، برغم أن المقصود من أهم مؤسساتها هو زيادة مجد أسرتها. وكّرست نفسها لأخواتها ، فغدت أليس أميرة لأنطاكية ، وهوديرنا الآن كونتيسة طرابلس ، أما الصغرى جوفيتا التى أمضت سنة من طفولتها رهينة لدى المسلمين ، فلم تعثر لها على زوج مناسب . وقد انخرطت فى التدين وأصبحت راهبة فى دير القديسة آن في القدس . و اشترت الملكة عام ١١٤٣م من كنيسة القبر المقدس قرية بيثانى ، كبديل لأراضى قريبة من الخليل ، وبنت هناك ديرا للراهبات تخليدا

---

(١٦) William of Tyre, xv, 21, pp.692-3. وعن منتجات المنطقة انظر Abel, GÉOGRAPHIE DE LA PALESTINE, I, p 505..وعن الأثر الواقع على التجارة الاسلامية انظر Wiet, *op.cit.*pp.320-1.. أنظر Rey, 'Les Seigneurs de Montréal et de la Terre d'Oultre Jourdain'، فى *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV, pp. 19ff.. والقلعة فى وادى موسى تقع على تل شديد الإنحدار يعرف الآن باسم ويرا Wueira خارج ضواحى البتراء، حيث تبدو أطلال خرائب صليبية كثيرة عبر وادى موسى. كما توجد أطلال قلعة صغيرة من العصور الوسيطة على تل الحابس فى وسط البتراء.

(١٧) William of Tyre, XIV, 8, p. 617

للقديس لازاروس وأختيه مارثا ومارى ، وجعلت أريحا بكل بساتينها ومزارعها المحيطة وقفا على الدير، وحصّنته ببرج . وحتى لا تتضح دوافع الملكة غاية الوضوح ، عيّنت أول رئيسة لدير الراهبات راهبة ممتازة عجوز تريد أن تحتضر ، وقد ماتت بعد شهور قليلة بمهارة شديدة . ومن باب الواجب انتخب دير الراهبات رئيسة له جوفيتا البالغة من عمرها أربعة وعشرين ربيعا. وبذا كانت جوفيتا تقوم بدور مزدوج ، أميرة تجرى فى عروقها الدماء الملكية ، ورئيسة أغنى أديرة الراهبات فى فلسطين ، ومن ثمّ كانت تشغل مكانة متميّزة مبجّلة مابقى لها من عمرها الطويل(١٨).

كان ذلك أكثر عطايا الملكة مليسيند الخيرية إسرافا ، على أنها حرّضت زوجها على أن يهب كنيسة القبر المقدس عدة هبات على هيئة أراض ، ودأبت على إنشاء دور دينية على درجة من السخاء طوال فترة ترملها . كما كانت مسؤولة عن تحسين العلاقات مع الكنيستين اليعقوبية والأرمينية . وقبل الاستيلاء الصليبي على القدس كان اليعاقبة قد هربوا كلهم معا إلى مصر . وعندما عادواوجدوا الضياع التى كانت تملكها كنيستهم فى فلسطين قد منحت لفارس فرنجى ، جوفيير ، الذى أسره المصريون عام ١١٠٣م ومن ثمّ استعاد اليعاقبة أراضيهم . غير أن جوفيير ، الذى ظنه الجميع ميتا ، عاد عام ١١٣٧م من الأسر وطالب بممتلكاته . وبتدخل الملكة تدخلا مباشرا ، سُمح لليعاقبة الاحتفاظ بممتلكاتهم ، بعد دفع ثلاثمئة بيزانت لجوفيير على سبيل التعويض . وفى عام ١١٤٠م نجد كاثوليكوس بطريق الأرمن وقد حضر مجمعا كنسيا للكنيسة اللاتينية هناك . كما وهبت مليسيند العطايا لدير القديس ساباس الأرثوذكسى(١٩).

أما سياسة فولك التجارية فكانت امتدادا لسياسة سلفه . فكان يحترم التزاماته حيال المدن الإيطالية التى تسيطر الآن على تجارة تصدير البلد . غير انه رفض رفضا مطلقا منح حق الإحتكار ، وفى ١١٣٦م عقد معاهدة مع تجار مرسيليا، واعدا منحهم أربعمائة بيزانت سنويا من عوائد يافا ، لصيانة منشآتهم هناك(٢٠).

---

(١٨) William of Tyre, xv, 26, pp. 699-700 كانت جوفيتا مسؤولة عن تعليم حفيدة اختها سيبيللا ملكة المستقبل (انظر أدناه ص ٤٦٥) . وماتت فى وقت ما قبل عام ١١٧٨م ، إذ قالت رئيسة دير الراهبات ، إيفا (اوف بيثانى) إنها قد خلفتها فى رئاسة الدير (*Cartulaire de Ste Marie* *Josaphat*, ed. Kohler, p. 122)

(١٩) Nau, 'Le croisé lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique*, 9me sèrie, vol xiv, pp. 421-31é Rohricht, *Regesta*, pp. 106'7. انظر ادناه الصفحات ٣٢١-٣.

(٢٠) Rohricht, *Regesta*, p.40. See La Monte, *Feudal Monarchy*, p 272. وبعد ١٦ سنة أعطاهم بلدوين الثالث حيا فى القدس Rohricht, *Regesta*, p. 70.

١١٤٣م : موت الملك فولك

فى خريف ١١٤٣م كان البلاط فى عكا يستمتع بالهَدْأة التى أتاحها انسحاب زنكى من دمشق . وفى ٧ نوفمبر رغبت الملكة فى الخروج لنزهة خلوية . وبينا الجماعة الملكية على جيادها متجهة إلى داخل البلد فزع أرنب ، وركض الملك ينهب الأرض وراءه . وفجأة تعثر جواده وألقى الملك من على ظهره ، وسقطت صهوة الفرس الثقيلة مرتطمة برأسه . وعادوا به فاقد الوعى والجراحات فظيعة فى رأسه إلى عكا حيث مات بعد ثلاثة ايام . وكان ملكا طيبا لمملكة القدس ، لكنه لم يكن بالملك العظيم ولا بقائد فرنج الشرق(٢١).

وصدرت عن الملكة مليسيند ألفاظ الأسى ، التى حركّت مشاعر البلاط كله ، لكن ذلك لم يصرفها عن تولى شؤون المملكة . وكان من بين أولادها من فولك إبنان : بلدوين ابن ثلاث عشرة سنة ، وأماليك ابن سبع سنين . وكان فولك قد تولى العرش باعتباره زوجها ، وكانت حقوقها كوريثة معترف بها كلها . غير أن فكرة وجود ملكة وصيّة بمفردها لم تخالط أذهان البارونات . ولذا عيّنت ابنها بلدوين زميلا لها وباشرت هى الحكومة . واعتبر تصرفها تصرفا دستوريا مثاليا وأيده مجلس المملكة عندما قام البطريق وليم بتتويجها هى وبلدوين يوم عيد الميلاد(٢٢) . وكانت مليسيند امرأة ذات اقتدار وكان حكمها خليقا بالنجاح فى أوقات أكثر سعادة . واتخذت مستشارها ابن عمها الوكيل (الكونستابل) مناس (اوف هيرجز) ابن اللورد الوالونى الذى تزوج اخت الملك بلدوين الثانى ، هوديرنا (اوف ريثيل) . وقد برز مناس الشاب فى بلاط عمه ، حيث كفلت له قدراته وعلاقاته الملكية تقدما مطردا . وعندما مات باليان العجوز فى يبنة ، بعد موت فولك مباشرة ، تزوج مناس أرملته هيلفيس ، وريثة الرملة التى كانت تسيطر على السهل الفلسطينى كله بحقها الشخصى وبحق أولادها . وكان مقدرا أن يشعر البارونات بالاستياء عاجلا أو آجلا من قوة مناس ، إذ كان هو والملكة يميلان إلى الحكم الاستبدادى على أنه لم تكن في الوقت الراهن أية معارضة للملكة(٢٣).

---

(٢١) William of Tyre,xv, pp.700-2; Matthew of Edessa, cclvi, p. 325; Ibn al-Qalanisi, p.265. كتب سان برنار خطاب تعزية للملكة مليسيند (no. 354, M.P.L. vol. CLXXXII, cols. 556-7)

(٢٢) William of Tyre, XVI, 3. p.707 وعن وضع مليسيند الدستورى أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 14-18.

(٢٣) William of Tyre, XVI, 3, p.707، يقرّظ الملكة . وعن مناس (انظر ادناه ص ٣٨٦). وزواجه سجّله وليم . وكثيرا ما يظهر اسم هيلفيس Helvis فى صكوك عقود ، e.g. Rohricht, *Regesta*,

وكان لتوليها العرش عيب خطير . ففي ظل حكم الملك فولك ، كان وضع ملك القدس كسيد أعلى للدويلات الصليبية يتنامى نظريا وليس عمليا ، ومن غير الراجح أن يولى أمراء الشمال انتباها اكبر إلى سيادة امرأة وطفل . وعندما كانت المشاحنات تتفجر بين أمير انطاكية وكونت الرها، كان ملك القدس القوى - كبلدوين الثانى - يشد الرحال شمالا ويهدئ الخلافات قسرا . وهذا مالا تستطيعه ملكة ولا ملك صبى ، وليس هناك من يملك السلطة الغالبة .

أما ريموند أمير أنطاكية فمنذ أن مات الامبراطور حون ، وصد زنكي أمام دمشق، بُعثت من حديد ثقته في نفسه ، فأرسل في الحال إلى الامبراطور الجديد مانويل طالبا إعادة كيليكيا إلى إمارته ، وعندما رفض مانويل طلبه هذا قام بغزو المنطقة، وقد اضطر مانويل نفسه أن يبقى في القسطنطينية في الشهور الأولى من حكمه ، لكنه أرسل حملة برا وبحرا بقيادة الأخوين كونتوستيفانوس وبرسق التركى المرتد وأمير البحار ديميتريوس براناس ، ولم تكتف الحملة بطرد ريموند من كيليكيا ، وانما طاردت جنوده حتى أسوار أنطاكية[٢٤]. وكان ريموند قبل ذلك بأشهر قليلة قد أضاف أراض حلبيّة وصلت إلى البزاعة بينما تقدم جوسلين أمير الرها حتى الفرات لمقابلته . غير أن جوسلين وقع فجأة هدنة مع سوار ، حاكم حلب ، حطّمت مخططات ريموند . وزادت العلاقات سوءً بين ريموند وجوسلين . ويبدو أن جوسلين قد اضطر منذ نحو عام ١١٤٠م إلى أن يقبل ريموند كسيد اعلى له ، بيد أن الود كان غائبا عنهما تماما . وكان جوسلين قد أغاظ ريموند بتدخله لصالح البطريق رادولف ، وجاءت هذه الهدنة تكاد أن تقطع العلاقات بينهما[٢٥].

١١٤٤م : حصار الرها

كان زنكي يراقب تلك المشاحنات . وقد حرره موت الامبراطور من أخطر عدو كامن ، ولن يتخذ الدمشقيون أى عمل ضده بدون مساعدة الفرنج ، ولا يحتمل أن

---

pp.22,76

(٢٤) Cinnamus, pp. 33-4

(٢٥) Azimi, p.537; Ibn al-Qalanisi, p. 266. . يضع جوسلين تاريخ وثيقة رسمية فى عام ١١٤١م 'Raimundo Antiochiae principe regnante' (Rohricht, *Regesta*, p.51)، ويجعله وليم الصورى (XVI, 4, p.710) يلمح الى ريموند على انه سيده عام ١١٤٤م .

تشرع مملكة القدس الآن في مغامرات ، وإذن فلا ينبغي تفويت الفرصة . وفي خريف ١٤٤١م هاجم زنكي قره أرسلان أمير دياربكر الأرتقي ، الذى تحالف مؤخرا مع جوسلين . وتعزيزا لهذا التحالف خرج جوسلين من الرها بأكثر جيشه هابطا باتجاه الفرات ، لقطع اتصالات زنكي مع حلب فيما يبدو. وقام مراقبون مسلمون في حرّان باخطار زنكي بتحركات جوسلين . وفي الحال أرسل زنكي فصيلة بقيادة ياغي سياني أمير حماه كي يباغت مدينة الرها ، لكن ياغي سياني ضل طريقه في ظلام ليلة مطيرة من ليالي نوفمبر ، ووصل الرها ليجد زنكي قد سبقه اليها بالجيش الرئيسي يوم ٢٨ نوفمبر . وكان أبناء الرها وقتئذ قد أُنذروا وتجهزت الدفاعات بالمدافعين.

وتواصل حصار الرها أربعة أسابيع . وكان جوسلين قد اصطحب معه أبرز جنوده كلهم ، ولذا عُهد بالدفاع إلى رئيس الأساقفة اللاتيني هيو الثاني ، وسانده بإخلاص الأسقف الأرميني جون والأسقف اليعقوبي بازل . وربما كان زنكي يأمل في إغواء المسيحيين الوطنيين بالتخلي عن الولاء للفرنج ، لكن خابت آماله كلها . واقترح بازل اليعقوبي طلب هدنة ، لكن الرأى العام عارضه . على أن المدافعين ، برغم بسالتهم ، كانوا في قلّة من عددهم ، وقد تراجع جوسلين نفسه إلى تل بشير . وينتقده المؤرخ وليم الصورى انتقادا لاذعا لتراخيه عن انقاذ عاصمته . غير أن جيشه لم يكن من القوة بحيث يجازف بمعركة مع جيش زنكي . وكان جوسلين واثقا من صمود التحصينات العظيمة في الرها لبعض الوقت، وبامكانه وهو في تل بشير أن يعترض أية تعزيزات قد يستدعيها زنكي من حلب ، وكان يعوّل على مساعدة جيرانه الفرنج . وكان قد ارسل من فوره إلى انطاكية والى القدس . وفي القدس عقدت الملكة مليسيند مجلسا سمح بجمع جيش أرسلته بقيادة الوكيل مناس (الكونستابل)، وفيليب أمير نابلس ، وإيليناند (اوف بور) أمير الجليل . وفي انطاكية ، لم يفعل ريموند شيئا ، وضاعت هباء كل مناشدات جوسلين له باعتباره سيده الأعلى ، وبدون مساعدته لم يكن جوسلين ليجرؤ على مهاجمة زنكي ، فلبث في تل بشير منتظرا وصول جيش الملكة .

لكن جيش الملكة وصل بعد أن سبق السيف العذل . إذ أن جيش زنكي أخذ يتضخم بجموع الأكراد والتركمان التي انضمت اليه من وادى دجلة الأعلى ، فضلا عن آلات الحصار الجيدة التي كانت معه . وفي داخل الرها ، كان رجال الدين والتجار ، الذين يشكلون جُلّ الحامية ، يفتقرون إلى الخبرة الحربية ، ومن ثم فشلت هجماتهم المضادة وعمليات التلغيم المضادة . وساد الظن أن هيو رئيس الأساقفة يحتجز الأموال التي اكتنزها برغم شدة الحاجة اليها للدفاع . وفي عشية عيد الميلاد انقض

حدار في السور بالقرب من بوابة الساعات وتدفق سيل المسلمين خلال الفجـوة فهـرب السكان فى فزع إلى القلعة ليجدوا بواباتها مغلقة فى وجوههم بـأمر رئيـس الأسـاقفة ، الذى بقى هو نفسه خارجها فى محاولة يائسة للحفـاظ علـى النظـام . وهلـك الألـوف تحت الأقدام فى الهرج والمرج ، وجدّ جنود زنكى فى أعقابهم يقتلـون ألوفـا أكـثر بمـن فيهم الأسقف ، إلى أن دخل زنكى نفسه على جواده وامر بإيقاف المذبحة . وابقى على حياة المسيحيين الوطنيين . أما الفرنج فقد جُمعوا كلهم وقتلـوا ، وبيعـت نسـاؤهم فـى الرق . وبعد يومين ، استسلم لزنكى القس اليعقوبى بارسوما ، الذى كان يتـولى قيـادة القلعة[٢٦].

١١٤٥م : سياسة زنكى فى الرها

عامل زنكى المدينة معاملة طيبة بعد أن خلصها من الفرنج ، وعيّن عليهـا كوجـك على والي إربل، مع السماح للمسيحيين ، الأرمـن واليعاقبـة وحتـى اليونـانيين ، بتدبـير معين من تدابـير الحكـم الذاتى. وعلـى الرغـم مـن تدمـير الكنـائس اللاتينيـة ، لم تمـس كنائسهم ، ووجدوا تشجيعا على جلب اخوانهـم فـى الديـن لإعـادة إسـكان المدينـة ، وعلى نحو خاص فاز الأسقف السـورى بـازل بعطـف الغـزاة بسـبب رده المتكـبّر علـى سؤالهم له ما إذا كان جديرا بالثقة ، إذ أجاب بأن ولاءه للفرنج أظهرت مدى ما يتمتع به من قدرة على الولاء . أما الأرمن ، وكانت أسرة كورتناى الحاكمة دائمـا مشـهورة بينهم ، فكانوا أقل ميلا إلى النظام الجديد[٢٧].

ومن الرها توجه زنكى إلى سروج ، وهى ثانى قلعة فرنجية عظيمة شرقى الفرات ، فسقطت هى الأخرى له فى يناير . ثم انه تقدم إلى البيرة ، وهى المدينـة الـتى تتحكـم فى أهم مخاضة عـبر نهر الفرات ، على أن الحاميـة الفرنجيـة أظهـرت مقاومـة شـديدة .

(٢٦) William of Tyre, XVI, 4-5, pp. 708-12; Matthew of Edessa, cclvii, pp.326-8; Michael the Syrian, III, pp. 259-63; *Chron. Anon. Syr.*, pp.281-6. (لايوجد فـى مكـان آخـر روايـة أكثر اكتمالا بالتفاصيل) Nerses Shnorhal, *Elegy on the fall of Edessa*, pp. 2ff; Bar-Hebraeus, trnas. Budge, pp. 268-700; Kemal ad-Din, pp 685-6; Ibn al-Qalanisi, pp.266-8; Ibn al-Athir, pp.443-6 . والكثير من المؤرخين الأوروبيين يذكرون سقوط الرها بعض الشئ . وترد اشارة الى سقوط الرها فى خطاب القديس برنـارد no. 256, M.P.L.vol. CLXXXII, col. 463. ويخبرنا ابن الأثـير أن مسـلما فـى بـلاط الملـك روجـر فـى صقليـة جاءتـه رؤيـا تخاطريـة (تليباثى) بالاستيلاء على الرها.

(٢٧) Michael the Syrian, *loc. cit.; Chron. Anon. Syr. loc. cit*.

وكان جوسلين قريبا في المتناول ، وجيش الملكة يقترب ، وفي تلك الأوقات سمع زنكي شائعات بوجود اضطرابات في الموصل . فرفع الحصار عن البيرة وأسرع باتجاه الشرق . وكان لايزال من الناحية الإسمية مجرد أتابج الموصل يحكمها للأمير السلجوقي الصغير ألب أرسلان ابن مسعود . وعاد إلى الموصل ليجد أن ألب أرسلان حاول تأكيد سلطته فقتل القائد التابع للأتابج ، حقر . وقد جاء اختيار الوقت غاية في السوء ، إذ أن زنكي ، الذي قهر عاصمة فرنجية ، قد بلغ ذروة الهيبة في العالم الإسلامي . فخلع ألب أرسلان عن العرش وأعدم مستشاريه ، وفي ذات الوقت بعث الخليفة سفارة إلى زنكي ، محمّلة بالهدايا، لتخلع عليه شرف تلقيبه بالملك الغازي(٢٨).

وتردد صدى سقوط الرها في العالم كله . فكان للمسلمين بمثابة أمل جديد جاءهم ، إذ انهارت دويلة مسيحية دخيلة في قلب أراضيهم ، واقتصر وجود الفرنج على الأراضي المطلة على البحر المتوسط . وتطهرت الآن الطرق التي تربط بين الموصل وحلب من الأعداء ، وتم خلع الإسفين المحشور بين أتراك إيران وأتراك الأناضول . وكان زنكي جديرا بلقبه الملكي . أما الفرنج ، فقد هبط عليهم النبأ هبوط القنوط والإنذار ، ووقع من مسيحيي غرب أوروبا موقع الصدمة المرعبة . ولأول مرة يتحققون من أن الأمور ليست على مايرام في الشرق ، ومن ثم نشطت حركة للتبشير بحملة صليبية جديدة.

كان من الضروري ارسال حملة صليبية جديدة في واقع الأمر، إذ كان أمراء فرنج الشرق لا يزالون عاجزين عن التعاون مع بعضهم البعض برغم المخاطرالمحيطة بهم . وقد حاول جوسلين إعادة بناء إمارته في الأراضي التي يحتلها إلى الغرب من الفرات ، وأن يجعل من تل بشير عاصمته(٢٩). على انه ، وعلى الرغم من أن زنكي سرعان ما سوف يهاجمه ، فإنه لم يغفر لريموند رفضه المساعدة . وجاهر بخلافه معه ، وأنكر سيادته عليه. وكان ريموند رافضا للمصالحة بنفس القدر، ولكنه كان مدركا لخطر العزلة . وفي عام ١١٤٥م ، وبعد أن هزم غارة من التركمان قرر الرحيل إلى القسطنطينية ملتمسا المساعدة من الامبراطور مانويل الذي رفض استقباله فور وصوله. و لم يأذن له بمقابلة إلا بعد أن ركع ريموند في ندامة متضعة أمام قبر الامبراطور جون . ثم أن مانويل عامله

---

(٢٨) *Chron. Anon. Syr.* pp. 286-8; Ibn al-Qalanisi, pp.268-9; Ibn al-Athir, pp.445-8; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p.371 n.11.

(٢٩) كان جوسلين ما يزال يمتلك الأراضي الواقعة من سميساط ، مرورا بمرعش (وهي في حوزة التابع بلدوين) جنوب البيرة وعينتاب وراوندان وتل بشير.

معاملة رقيقة كيّسة ، وحمّله بالهدايا ووعده بمعونة مالية . لكنه لم يعد بمساعدة عسكرية عاجلة ، إذ أن البيزنطيين يخوضون حربا تركية على أراضيهم ، وتحدثا عن حملة فى المستقبل وباتت الزيارة في نظر باروناته مهينة وممجوجة ، لكنها مع ذلك أثمرت ثمرة واحدة مفيدة . إذ انها لم تمر دون أن يلحظها زنكى ، فقرر تأجيل المزيد من الهجوم على فرنج الشمال وأن يحول انتباهه مرة اخرى إلى دمشق(٣٠).

١١٤٦م : مصرع زنكى

فى شهر مايو ١١٤٦م سار زنكى إلى حلب كي يعد العدة لحملته على سوريا. وبينا كان يعبر الرها علم بمؤامرة دبرها الأرمن حاولوا بها التخلص من حكمه واعادة جوسلين ، وقد سحقها كوحك على بسهولة. وأمر زنكى باعدام زعماء المؤامرة ، ونفى جزءا من السكان الأرمن حل محلهم ثلاثمائة اسرة يهودية جلبهم زنكى لما كانوا يشتهرون به من استعداد لتأييد المسلمين ضد المسيحيين(٣١) . وفى الصيف قاد زنكى جيشه جنوبا إلى مدينة قلعة جعبر الواقعة على الطريق المباشر الذاهب من الفرات إلى دمشق ، كان بها أمير ضئيل الشأن رفض الاعتراف به سيدا أعلى له . وبينما كان يحاصر المدينة ، حدثت فى ليلة ١٤ سبتمبر ١١٤٦م مشاجرة بينه وبين أحد الخصيان من أصل فرنجى عندما ضبطه يشرب من قدحه الخاص به . فاحتدم الخصى غيظا مما سمعه من توبيخ ، فانتظر حتى نام ثم قتله(٣٢).

كان اختفاء زنكى المفاجئ نبأ سار تلقاه كل أعدائه الذين راودهم الأمل فى تمزيق مملكته لما سوف ينشأ من خلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة، وهو خلاف عادة ما يعقب وفاة أمراء المسلمين . وبينما كان جسده ساجيا وحيدا لم يدفن بعد ، أسرع أكبر ابنائه سيف الدين غازى ، يصحبه الوزير جمال الدين الأصفهانى ، إلى الموصل لتولى الحكومة هناك، بينما استولى ابنه الثانى ، نور الدين ، على خاتم الوزارة من اصبع الجثّة وانطلق إلى حلب كي ينادى به شيركوه الكردى ، الذى أنقذ أخوه أيوب حياة زنكى عندما

---

(٣٠) Cinnamus, p. 35; Michael the Syrian, III, p. 267.

(٣١) Michael the Syrian, III, pp. 267-8; *Chron. Anon. Syr.* p.289; Ibn al-Qalanisi, p. 270; Ibn al-Furat, *loc. cit.*

(٣٢) William of Tyre, XVI, 7, p.714; Michael the Syrian, III, p.268; Chron. Aon.Syr. p.291; Ibn al-Qalanisi, pp.270-1; Kemal ad-Din, p.688.

هزمه الخليفة عام ١١٣٢م . وكان انقسام المملكة بمثابة العلامة للأعداء كي يبدأوا غزوهم. ففي الجنوب استعاد جنود أُنر الدمشقيون بعلبك ، وأخضعوا أمير حمص ، وياغي سياني أمير حماه فأصبحا تابعين لدمشق. وفي الشرق أقدم ألب أرسلان على محاولة فاشلة للاستيلاء على السلطة ، بينما استعاد أراتقة ديار بكر مدنا كانوا قد فقدوها(٣٣). وفي الوسط قاد ريموند أمير انطاكية غارة حتى أسوار حلب نفسها، بينما خطط جوسلين لإعادة احتلال الرها . وأجرى عملاؤه اتصالات مع الأرمن في المدينة وفازوا بتأييد اليعاقبة ، فانطلق جوسلين نفسه مع جيش صغير انضم اليه بلدوين أمير مرعش وكيسوم . ومرة أخرى رفض ريموند مساعدته ، ولكنه رفض له ما يبرره هذه المرة ، لسوء تخطيط الحملة . إذ كان جوسلين يأمل في مباغتة الرها ، ولكن المسلمين كانوا على استعداد ، وعندما وصل أمام أسوار المدينة يوم ٢٧ أكتوبر لم يتمكن - إلا بالمساعدة الوطنية - من اقتحام طريقه إلى داخل المدينة ذاتها ، غير أن حامية القلعة كانت في انتظاره . وكان جنوده من ضآلة العدد بحيث تعذر اقتحام تحصناتها عنوة . فلبث في المدينة حائرا لا يدرى ماذا يفعل . وفي تلك الأثناء وصل الرسل نور الدين في حلب ، الذى كان جيشه الآن يهاجم ريموند هجوما مضادا في أراض انطاكية ، فاستدعى الجيش للعودة في الحال وطلب المساعدة من الحكام المسلمين في الجوار . وفي يوم ٢ نوفمبر ظهر أمام الرها ، وبذا وقع جوسلين بينه وبين القلعة ، وارتأى أن فرصته الوحيدة في الجلاء العاجل . وتمكن خلال الليل من التسلل خارجا مع رجاله ومع عدد كبير من المسيحيين الوطنيين ، ويمم وجهه شطر الفرات . وتبعه نور الدين عن كثب . وفي اليوم التالي دارت رحى المعركة . وصمد الفرنج صمودا جيدا إلى أن أمر جوسلين في تهور بهجوم مضاد دحره المسلمون ، وتفتت الجيش الفرنجي مذعورا . وقتل بلدوين أمير مرعش في ميدان المعركة ، وأصيب جوسلين بجرح في رقبته ، وتمكن من الهرب مع حرسه الخاص ولاذ بسميساط حيث لحق به الأسقف اليعقوبي بازل . وألقى القبض على الأسقف الأرميني جون واقتيد إلى حلب . وأما المسيحيون المحليون الذين تخلى عنهم الفرنج فقد قتلوا جميعا، وباتت نساؤهم إماء وأطفالهم رقيقا . وفي الرها تقرر نفي السكان المسيحيين جميعا . وأصبحت المدينة العظيمة ، التى يُدّعى بانها كانت اقدم كومنويلث مسيحي في العالم ، خاوية موحشة ، و لم تبرأ قط حتى يومنا هذا(٣٤).

---

(٣٣) Ibn al-Qalanisi,pp.272-4; Ibn al-Athir,pp.455-6; see Cahen, 'Le Diyarbekr' in *Journal Asiatique*,1935, p.352.

(٣٤) William of Tyre, XVI, 14-16, pp.728-32; Matthew of Edessa, cclviii, pp.328-9 (giving the wrong date 1147-8); Michael the Syrian, III, pp.270-2. Basil the Doctor,

١١٤٧م : الفرنج يتخاصمون مع أنر

أيقن أعداء زنكى انهم لم يكسبوا من وفاته سوى القليل . فضلا عن أن ولديه ، برغم قلة المودة فيما بينهما ، كانا من الحكمة بحيث لم يتشاجرا . وبادر سيف الدين غازى ، برغم انشغاله الشديد مع الأراطقة ، بالترتيب لمقابلة مع أخيه ، تم فيها الإتفاق بسلام على تقسيم الميراث . فأخذ سيف الدين اراضى العراق ونور الدين اراضى سوريا. وفي نفس تلك الأثناء على وجه التقريب تعزز وضع نور الدين نتيجة لتصرف أحمق غير متوقع ارتكبه فرنج القدس . ففى وقت مبكر من عام ١١٤٧م ، قام أحد قواد أنر ، ألتونتاش ، والى بُصرى وصلخد الواقعتين فى حوران ، وكان أرمينيا ثم تحول إلى الإسلام ، بإعلان استقلاله عن دمشق وذهب إلى القدس ملتمسا تأييدها عارضا تسليم الفرنج بُصرى وصلخد إذا نصّبوه فى لوردية فى حوران . وكان تصرف الملكة مليسيند سليما جدا بدعوتها لمجلسها لمناقشة الاقتراح . وكان قرارا هاما ذلك الذى سوف يتخذ؛ إذ أن مساندة ألتونتاش تعنى تمزيق التحالف مع دمشق . غير انه كان عرضا مغريا ، فأغلب سكان حوران من المسيحيين الملكيين[٣٥]، من الطائفة الأرثوذوكسية. وبهذه المساعدة المسيحية سيكون من اليسير احتلال حوران ، والسيطرة عليها سوف تضع دمشق تحت رحمة الفرنج . وتردد البارونات ، ثم أمروا بأن يتجمع الجيش عند طبرية، غير انهم ارسلوا إلى أنر سفارة تقول إنهم اقترحوا تنصيب ألتونتاش . فغضب أنر ، لكنه رغب فى تجنب الانفصال خوفا من نورالدين ، فرد على الملكة يذكّرها بأنه وفقا لقانونها هي الخاص بالاقطاع ، لا يستطيع أي حاكم تأييد تابع لحاكم آخر تربطه بالأول علاقة صداقة إذا تمرد ذلك التابع على سيده ، وعرض تسديد أية مصروفات تكون قد تكبدتها من جراء تجهيز الحملة . فأرسلت الملكة فارسا يدعى برنارد فاشير إلى دمشق يقول إنها لسوء الحظ ملتزمة بتأييد ألتونتاش الذى سوف يعيده جيشها إلى بُصرى ، وتعهدت بعدم الحاق أى أذى بالأراضى الدمشقية بأى حال . وسرعان ما عاد برنارد وقد اقنعه أنر بأن الاقتراح يخلو من الحكمة والصواب . وأقنع الملك الصغير

Elegy on Baldwin, p.205; *Anon. Chron. Syr.* pp.292-7; Ibn al-Qalanisi, pp.274-5; Ibn al-Athir, pp.455-8 (and *Atabegs*, p. 156); *Bustan* p. 541.

(٣٥) (المترجم) المَلِكيون Melchites أو Melkites: تسمية تطلق على من أخذوا من مسيحيي سوريا ومصر بما انتهى اليه مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية . وللتفصيل انظر الجزء الأول ، ص ٣٢ ، الحاشية رقم (١).

بلدوين بآرائه ، وعندما نوقش الأمر مرة اخرى فى المجلس تقرر التخلى عن الحملة . ولكن حماس الجنود كان قد اشتد الآن ، وحنق قادة الدهماء فى الجيش لإلغاء غارة على الكفرة كانت ستعود عليهم بالأسلاب ، فأنكروا برنارد ورموه بالخيانة وأصروا على الحرب . فخاف الملك والبارونات وأذعنوا للدهماء .

وفى شهر مايو ١١٤٧م عبر الملك على رأس الجيش الفرنجى نهر الأردن ودخل الجولان . غير أن الأمر لم يكن ما توقعه الجنود من نصر مؤزر، ذلك أن أنر كان قد أعد العدة تماما ، فراح جنوده التركمان خفيفو الحركة ومعهم أعراب المنطقة يضايقون جنود الفرنج أثناء كدحهم أعلى وادى اليرموك باتجاه درعا. وكان أُنر نفسه قد أرسل سفارة إلى حلب ملتمسا العون من نور الدين الذي ابتهج لهذه المناشدة . وولد تحالف . ووافق أُنر على منح يد ابنته إلى نور الدين ، الذى وعد بالحضور فورا لمساعدته ، وقد تقرر أن تعود حماه إلى نور الدين ولكن عليه أن يحترم استقلال دمشق . وفى نهاية مايو وصل الفرنج إلى درعا الواقعة على أكثر قليلا من منتصف المسافة بين الحدود وبُصرى، بينما سارع أُنر إلى صلخد الواقعة أبعد إلى الشرق ، والتي طلبت فيها حامية ألتونتاش الهدنة . وتحرك أُنر غربا كى ينضم إلى نورالدين الذى هبط من حلب بالسرعة القصوى. وزحفا معا إلى بُصرى فما كان من زوجة ألتونتاش إلا أن سلمتها إليهما ووصلت أنباء الاستسلام مساءً إلى الفرنج عندما وصلوا على مرمى البصر من بصرى وقد عانوا في ترحالهم غاية الرهق وشدة الظمأ، ومن ثم لم يتمكنوا من مهاجمة المسلمين، و لم يكن بوسعهم سوى التقهقر . وكانت رحلة الإياب أصعب من رحلة الذهاب، إذ سرعان ما تناقص الطعام ، والكثير من الآبار قد دمرت ، وتعلق الأعداء بمؤخرتهم يضايقونهم ويقتلون الجماعات الشاردة . وأبدى الملك الصبى بطولة عظيمة عندما رفض اقتراحا بأن يترك الجيش الرئيسى ويسرع إلى مأمن مع حرس شخصى يجرى اختياره ، وبفضل ما ضربه من مثل ظل الإنضباط فى حالة جيدة . وأخيرا قرر البارونات عقد السلام مع أُنر ، وأرسلوا رسولا يتحدث العربية ، ربما كان برنارد فاشر، يلتمس هدنة ، لكنه قتل فى الطريق . ومع ذلك ، وبوصول الجيش إلى الرحبة الواقعة على سفح جبل عجلون ، جاء رسول من أُنر عارضا إعادة تموين الفرنج. ذلك انه لم يشأ أن يمحو الجيش الفرنجى تماما مع وجود نور الدين على مقربة منه، ورفض الملك العرض فى غطرسة ، على انه لوحظ ظهور فارس غريب غامض على فرس ابيض يرفع راية قرمزية قاد الجيش بأمان إلى جدر . وبعد مناوشة أخيرة هناك عبر الجيش نهر الأردن عائدا إلى داخل فلسطين . وكانت الحملة باهظة التكاليف ولا مغزى لها .

وكشفت عن حماقة الفرنج في السياسة والاستراتيجية برغم ما قد يبدو عليهم من مهارة في القتال[٣٦].

١١٤٧ م : ارتفاع نجم نور الدين

لم تعد الحملة بالنفع على أحد سوى رجل واحد فقط هو نور الدين . واستعاد أُنر حران في الواقع . وعندما ذهب ألتونتاش إلى دمشق راجيا المغفرة ، فقئت عيناه والقي في غيابة السجن ، ولحق الخزي بأصدقائه. على أن أُنر بات مدركا إدراك اليائس لما أصبح عليه نور الدين من قوة. وشعر بالخطر على مستقبله وظل مشتاقا لاستعادة التحالف الفرنجي . ومع ذلك ، التزم نور الدين بمعاهدته مع أُنر ، وعاد شمالا لمواصلة مهمته في تجريد الإمارة الأنطاكية من كل اراضيها الواقعة شرق العاصي . وفي نهاية ١١٤٧م ، كان قد استولى على أرتاح وكفرلاثا وبسرفوت والبلاط[٣٧].

وهكذا برز نور الدين العدو الرئيسي للمسيحيين . وهو الآن في التاسعة والعشرين من عمره ، غير أن حكمته كانت أكبر من سنه ، بل كان معارضوه يعجبون بنزوعه إلى العدالة والاحسان والورع الصادق . وربما لم يبلغ مبلغ والده زنكي في ذكائه العسكرى ، لكنه كان أقل قسوة وغدرا وأبعد شأوا في صواب حكمه على الرجال . وكان وزراؤه وقواده على اقتدار واخلاص ، ومصادره المادية أقل مما كان عليه أبوه ، إذ كان بمقدور زنكي أن يطلب ثروات العراق الأعلى ، التى أمست الآن في حوزة سيف الدين . ولذلك ورث سيف الدين مصاعب زنكي مع الأراتقة ومع الخليفة ومع السلطنة السلجوقية، تاركا نور الدين يوجه كل انتباهه إلى الغرب لا يشغله شاغل . وفضلا عن ذلك ، بقي ولدا زنكي مخلصين لرباطهما العائلي . إذ أن سيف الدين خليق بان يرسل العون إلى نور الدين وقت الشدة دون أن يطمع في ضم نصيبه من اراضي الأسرة . وكان هناك ابن ثالث ، تم تنصيبه في حران كتابع لنور الدين ، بينما كان أصغر افراد الأسرة قطب الدين ، ينشأ في بلاط أخيه الأكبر في الموصل . وغدا نور

---

(٣٦) William or Tyre, XVI, 8-13, pp. 715-28; Ibn al-Qalanisi, pp. 276-9; Abu Shama, pp. 50-3.

(٣٧) Kemal ad-din, ed. Blochet, pp. 515-16; Ibn al-Athir, pp.461-2

الدين ، بمتانة روابطه الأسرية ، وبتحالفه مع أنر ، في مأمن مما قد يشكله رفاقه المسلمون من أخطار ، ومن ثمّ صار الرجل المناسب تماما ليقود الإسلام في هجومه المضاد، ولكي لا يعمل مسيحيو الشرق على تركيز جهودهم ضده[٣٨].

(٣٨) Ibn al-Athir, p. 456, and *Atabegs*, pp.152-8

الباب الثالث:

الحملة الصليبية الثانية

الفصل الأول:

اجتــماع المــلوك

اجتماع الملوك

"قُمْ وَاعْمَلْ وَلْيَكُنِ الرَّبُّ مَعَكَ"
(أخبار الأيام الأول ٢٢ : ١٦)

ما أن علمت القدس بسقوط الرها حتى أرسلت الملكة ميليسيند مبعوثيها إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها بصدد إرسال سفارة إلى روما لإبلاغ البابا وطلب ارسال حملة صليبية جديدة . وتقرر اختيار هيو أسقف جبلة ليكون سفيرا ، لما أصاب من شهرة بين المسيحيين اللاتينيين لمعارضته مطالب الامبراطور حنا . وبرغم حالة العاجلة التي اتصفت بها سفارته لم يصل الأسقف إلى المقر البابوي قبل خريف عام ١١٤٥م . وكان البابا إيوجينيوس الثالث فى مدينة فيتربو ، إذ كانت روما تحت سيطرة جماعة تزدرى الحكم البابوى . وكان بصحبته المؤرخ الألمانى أوتو (أوف فريزنجن) ، الذى سجل تلقى البابا للأنباء المرعبة على الرغم من أنه كان أكثر اهتماما هو نفسه بالمعلومات التى حملها أحد أساقفة عاهل مسيحيي فى شرق فارس ، يدعى حنا من

النساطرة، ويحرز تقدما ناجحا ضد الكفرة[١]. وكان قد غزا فعلا العاصمة الفارسية Ecbatana (همدان) ، غير أنه اتجه إلى منطقة ثلجية في الشمال حيث فقد عددا غفيرا من رجاله مما اضطره إلى العودة . وكان ذلك إيذانا بدخول بريستر جون الأسطورى فى صفحات التاريخ[٢].

ولم يشارك البابا إيوجينيوس المؤرخ فى آماله التى عقدها على بريستر جون فى انقاذ العالم المسيحى. وكان فى حالة من القلق البالغ . وفى ذات الوقت جاءه وفد من أساقفة الأرمن من كيليكيا، يتلهفون على المساعدة ضد بيزنطة[٣] . ولم يكن بوسع البابا اهمال واجباته نحو الشرق . وبينما ذهب الأسقف هيو لإطلاع عواهل فرنسا وألمانيا بأنباء الرها ، قرر البابا إيوجينيوس التبشير بحملة صليبية[٤] . على أن البابوية لم تكن فى وضع يمكّنها من توجيه الحركة على النحو الذى حاوله البابا إيربان ؛ فمنذ أن اعتلى إيوجينيوس عرش البابوية فى فبراير لم يتمكن من دخول روما ، وفضلا عن ذلك لم يكن قادرا على السفر عبر الألب . ولحسن الحظ كان على علاقة طيبة بالعاهلين الرئيسيين فى اوروبا الغربية ، إذ كان كونراد (أوف هوهينيشتافن) ملك ألمانيا مدينا بعرشه للمساندة الكنسية وقد قام الممثل البابوى بتتويجه. وكانت العلاقات البابوية أكثر ودا مع لويس السابع ملك فرنسا الورع التائب من بعض الجرائم التى ارتكبها فى وقت مبكر بسبب نفوذ زوجته إليانور الأكيتانية ، وارتضى أن يُسلِم قياد أمره كله للمستشارين الكنسيين ، وبصورة ملحوظة لرئيس دير رهبان كليرفو ، القديس برنارد. وقرر البابا أن يكون الملك لويس هو المستهدف لتقديم المساعدة للشرق ، أما كونراد ملك ألمانيا فكان فى احتياج لمساعدته فى ايطاليا لإخضاع الرومان وكبح طموحات روجر الثانى الصقلى ، ولم يشأ أن يتولى كونراد التزامات اخرى . وكان لويس ملكا للأراضى التى جاء منها أغلب أمراء ولوردات فرنج الشرق ، ومن ثم كان هو القائد المرشح لقيادة الحملة التى سوف تخلّصهم . وفى أول ديسمبر ١١٤٥م أصدر إيوجينيوس أمرا بابويا إلى الملك لويس وكافة الأمراء والمخلصين فى المملكة الفرنسية

---

(١) (المترجم) : النسطورية Nestorianism مذهب مسيحى هرطيقى يعزى الى البطريق نسطوريوس Nestorius (بطريق القسطنطينية ٤٢٨-٤٣١) القائل بوجود طبيعتين للمسيح ، إلهية وبشرية .

(٢) Otto of Freisingen, *Chronica*, pp. 363-7. See Gelber, *Papst Eugen* III, p. 36.

(٣) أنظر Tournebize, *Histoire Politic et Religieuse de l'Arménie*, pp.235-9.

(٤) *Chronicon Mauriniacense*, R.H.F. vol II, p.88; Otto Freisingen, *Gesta Friderici*, pp.54-7.

يحثهم على الذهاب لانقاذ العالم المسيحى الشرقى واعدا إياهم بالحفاظ على ممتلكاتهم في الحياة الدنيا وغفران خطاياهم في الحياة الآخرة(٥).

حملات صليبية متفرقة

ارتاع الغرب لسقوط الرها . وكانت جذوة الحملة الصليبية الأولى وحماسها قد هدأت بعد أن ألهب احتلال القدس خيال الرجال ، فكانوا يسارعون طواعية إلى تلبية النداءات الآتية من الشرق بطلب التعزيزات ، كما اتضح من الحملات الصليبية عام ١١٠١م . غير أن الحملات الصليبية عام ١١٠١م كانت نهاياتها فاجعة ، وبرغم ذلك صمدت دويلات الشرق الفرنجية وعززت مواقعها. وكانت التعزيزات ما تزال تفد على الشرق ، على ضآلتها البالغة، ولم ينقطع سيل المهاجرين الذين بقى الكثير منهم فترات طويلة بما يكفى لاشتراكهم فى إحدى الحملات الصيفية . وكان من بين هؤلاء الحجاج زعماء من مثل سيجورد النرويجى ، أو كانت هناك جماعات كبيرة من الرعاع، كالانجليز، والفلاندرز من البلجيك والدانمركيين ، ممن جاءوا عام ١١٠٦م . وكانت المدن البحرية الإيطالية ترسل من حين لآخر أسطولا للمساعدة فى الاستيلاء على بعض الموانى ، وان كانت دوافعها المعلنة تتمثل فى المصالح التجارية ، كما كانت تجلب معها أعدادا متزايدة من التجار الايطاليين . غير انه منذ حكم بلدوين الأول قلّت حملات الحجاج المسلّحة هذه ، وكانت الحملة الوحيدة الملحوظة فى السنوات الأخيرة الحملة التى قادها صهر الملك فولك ، ثيرى كونت فلاندرز . وتواصل تدفق المهاجرين – من أصغر الأبناء المفلسين – مثل باليان (أوف تشارتر) مؤسس بيت إيبيلين (ينبة)، أو بارونات من أمثال هيو (أوف لو بواسيه) أو مناس (أوف هيرج) ممن كانوا يعقدون الآمال على استغلال علاقة القرابة بالبيت المالك . ومن العوامل الأكثر دواما ونفعا الفرسان الذين جاءوا للانضمام إلى النظامين العسكريين الكبيرين : فرسان المعبد وفرسان المستشفى ، اللذين أخذا تدريجيا فى مباشرة مهام الجيش الدائم للمملكة ، وكانت هبات الأراضى الكبيرة التى أغدقها التاج عليهم شاهدا على مدى التقدير الذى ينالونه . على انه منذ أن تبعثرت جيوش الحملة الصليبية الاولى ، لم تكن هناك قوة

---

(٥) Jaffé-Wattenbach, *Regesta,* no. 8796, vol. II, p. 26. Caspar, 'Die Kreuzzugsbullen Eugens III', in *Newes Archiv,* vol XLV, pp.285-306K، ويثبت كاسبار أن تاريخ الأمر البابوى هو قطعا أول ديسمبر ١١٤٥، الأمر الذى ينسف النظرية الفرنسية القائلة بأن لويس السابع هو الذى حرّض على الحملة الصليبية.

فرنجية في الشرق لديها من القدرة ما يكفي لشن هجوم كبير على الكفرة.

كانت صدمة الكارثة في الرها ضرورية لإثارة الغرب مرة اخرى . ففى ذلك الوقت بدت الدويلات الصليبية في سوريا في منظور أوروبا الغربية مجرد الجناح الأيسر للحملة المضادة للاسلام باتساع البحر الابيض المتوسط ، وأسبانيا جناحها الأيمن حيث كانت ما تزال هناك مهام يقوم بها الفارس المسيحى . وكان تقدم الصليب فى اسبانيا قد توقف في العقدين الثانى والثالث من القرن الثاني عشر بسبب المشاحرات التى جرت بين الملكة أوراكا ملكة قشتالة وزوجها الملك ألفونسو الأول ملك أراجون . غير أن ابن الملكة، ألفونسو السابع، ووريثها من زواجها الأول البرجندى أحدث نهضة فى قشتالة . وبعد ست سنوات من استخلافه بدأ سلسلة من الحملات ضد المسلمين جاءت به في عام ١١٤٧م إلى بوابات قرطبة حيث تم الاعتراف بسيادته العليا . وقد سبق أن اتخذ لنفسه عام ١١٣٤م لقب امبراطور ليُظهر انه السيد الأعلى لشبه الجزيرة وأنه ليس تابعا لأحد . وفى تلك الأثناء تحرر ألفونسو الأول من مشاكل كاستيل المعقدة بموت زوجته أوراكا، فأمضى سنواته الأخيرة وهو يبادر بالهجوم فى مورسيا Murcia بدرجات متفاوته من النجاح . وعلى طول الساحل راح ريموند برينجار الثالث كونت برشلونة ، يوسّع من سلطانه جنوبا . ومات ألفونسو الأول عام ١١٣٤م ، وحكم أخوه الراهب السابق راميرو حكما مشؤوما لثلاث سنوات . وفى عام ١١٣٧م زُوجت ابنته البالغة من العمر سنتين – الملكة بترونيللا – من ريموند برينجار الرابع عاهل برشلونة ، واتحدت قطالونية وأراجون فى قوة واحدة مكّنتها بحريتها القوية من استكمال استعادة شمال شرق اسبانيا وهكذا كانت الأمور فى عام ١١٤٥م تسير على ما يرام على المسرح الأسبانى ، غير أن عاصفة كانت تتجمّع . ذلك أن المرابطين، الذين سيطروا على أسبانيا المسلمة طوال النصف الأخير من القرن ، وقعوا فريسة اضمحلال لا مخرج يرتجى منه . وحل محلهم فى افريقيا الموحدون ، وهم يمثلون طائفة من المصلحين النسّاك ، تكاد عقيدتهم اللاهوتية أن تكون غنوصية[٦]. وكانوا يصرون على أنهم طبقة من المقتدين بمؤسسها ولي من أولياء البربر يدعى ابن تومرت ، وواصل خليفته عبد المؤمن نشاط هذا المذهب بمزيد من العنف فهزم زعيم المرابطين – تاشفين بن على – وقتله بالقرب من تلمسان عام ١١٤٥م ، وفى العام التالى استكمل الاستيلاء

(٦) (المترجم): الغنوصية Gnosticism or Gnosis معرفة الأمور الروحية . وتطلق عموما على طائفة مسيحية هرطيقية فى القرن الأول حتى القرن الثالث كان أفرادها يدّعون معرفتهم بالأمور الروحية.

على المغرب واصبح على استعداد للانتقال إلى اسبانيا(٧) . ونتيجة لتلك التوقعات لم يلق الفرسان المسيحيون فى اسبانيا بالاً للنداء الآتى من الشرق . ومن الناحية الاخرى، وبعد أن تأسست الممالك الأسبانية بصورة مضمونة الآن ، لم يعد هؤلاء الفرسان يوفرون لفرسان وامراء فرنسا نفس النطاق الذى كان سائدا فى القرن المنصرم .

الملك روجر الثانى الصقلّى

احتل الملك روجر الثانى الصقلى مركز الصدارة فى ميدان القتال ضد الاسلام . وكان قد وحّد كافة الأراضى النورماندية فى ايطاليا واتخذ لنفسه اللقب الملكى عام ١١٣٠م . وقد وعى جيدا ما لمملكته من أهمية استراتيجية ، إذ كانت ذا موقع مثالي للسيطرة على البحر المتوسط . غير أنه لكى يستكمل تلك السيطرة كان ضروريا أن يكون له موطئ قدم على الساحل الافريقى قبالة صقلية . واتيحت لروجر الفرصة لما ساد بين الاسر الحاكمة الاسلامية من مشاحنات وندّية فى شمال افريقية ، فاقم من حدّتها اضمحلال قوة المرابطين فى المغرب وضعف السيادة الفاطمية فى تونس ، فضلا عن أن المدن الافريقية كانت تعتمد على واردات الحبوب من صقلية . غير أن حملاته الأولى من ١١٢٣ إلى ١١٢٨م لم تعد عليه بنفع يذكر سوى حصوله على جزيرة مالطة. وفى عام ١١٣٤م ، وبمساعدة قضائية جاءته فى وقتها ، استمال الحسن - صاحب مهدية - إلى قبول سيادته العليا ، وفى العام التإلى احتل جزيرة جربه الواقعة فى خليج قابس وانفتحت شهيّته بغارات ناجحة على السفن الاسلامية ، فبدأ فى مهاجمة المدن الساحلية ، وفى يونية ١١٤٣ دخل جنوده طرابلس لكنهم أجبروا على الانسحاب . وبعد ثلاث سنوات كاملة أعاد احتلال المدينة ، فى وقت اندلاع ثورة داخلية فيها كانت تنصّب أميرا من امراء المرابطين حاكما عليها ، وتعذر إخراجه منها هذه المرة ، وغدت طرابلس نواة لمستعمرة نورماندية فى افريقيا(٨).

وهكذا أصبح الملك روجر مناسبا بصورة تثير الإعجاب للاشتراك فى الحملة الصليبية الجديدة. غير انه كان موضع ريبة . فلم يكن سلوكه سلوك من يستشعر الواجب إزاء البابوية قط ونادرا ما كان يوليها المراعاة الواجبة . وقد شعر ذوو السلطان

(٧) عن المهادنين انظر Codera, *Decadencia y Desaparicion de los Almoravids en Espana*، ومقال Bel عن 'Almohads' فى دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islām*.

(٨) Chalandon, *Domination Normande en Italie*, pp. 158-65.

الآخرون في أوروبا بالامتعاض من تجرؤه على تتويج نفسه ملكا؛ وقد علّق القديس برنار في رسالته إلى لوثير ملك ألمانيا قائلا: "إن من يجعل من نفسه ملكا لصقلية فإنما يهاجم الامبراطور"(٩). ويعني اعتراض القديس برنار عدم موافقة الرأى العام الفرنسي . وكان روجر ما يزال يفتقر إلى الشعبية بين امراء الشرق ؛ إذ أظهر بجلاء انه لم يغفر البتة لمملكة القدس اساءة معاملتها لوالدته أديلايدى ، وفشلها فى استخلافه ملكا للقدس على نحو ما ينص عليه عقد الزواج ، وكان يطالب بأنطاكية ميراثا باعتباره الوريث الوحيد من الذكور من ذرية ابن عمه بوهمند . لقد كان وجوده فى الحملة الصليبية غير مرغوب فيه ، لكن الآمال كانت معقودة عليه للمضى فى حربه على الاسلام فى منطقته الخاصة به(١٠).

ومن اليسير تفهم اختيار البابا للملك فرنسا ، لويس ، لتنظيم الحملة الصليبية الجديدة ، وقد استجاب الملك للنداء متلهفا . وعندما وصل الأمر البابوى ، الذى جاء بعد وقت قصير من وصول الأنباء التي حملها أسقف جبله ، كان لويس قد أصدر لتوه استدعاء لكبار مستأجري الأرض لمقابلته في يوم عيد الميلاد فى بورج. وعندما اجتمعوا اخبرهم أنه قد قرر أن يأخذ الصليب ورجاهم أن يحذوا حذوه . وداهمته مشاعر الأسف فى خيبة أمله من ردهم ؛ فلم يظهر عوام النبلاء حماسا لطلبه ، وأعرب رجل الدولة البارز في المملكة - سوجر ، رئيس دير رهبان سانت دينيس - عن عدم موافقته على غياب الملك المتوقع . ولم يفصح أحد عن مؤازرته لسيده سوى أسقف لانجر(١١).

١١٤٦م : التجمع في فيزيلاى

ثبطت همة الملك لويس لما أظهره أتباعه من عدم المبالاة ، فقرر إرجاء مناشدته ثلاثة أشهر ، واستدعى تجمعا آخر لمقابلته فى فيزيلاى يوم عيد الفصح ، وفى ذات الوقت كتب يطلع البابا على رغبته فى قيادة حملة صليبية ، وأرسل إلى الرجل الوحيد فى فرنسا الذى كان له من السلطة ما يفوق سلطته هو نفسه ، ألا وهو برنار رئيس دير رهبان كليرفو . وكان القديس برنار الآن في ذروة شهرته . ومن العسير علينا الآن

(٩) Saint Bernard, letter no. 139, in M.P.L. vol. CLXXXII, col. 294.

(١٠) Odo of Deuil, pp. 22-3.

(١١) *Vita Sugerii Abbatis,* pp. 393 ff.; Odo of Deuil, p. 121

أن نلتفت وراءنا عبر القرون لنعرب عن تقديرنا لما كان له من نفوذ رائع على كل من عرفوه ؛ إذ أن لهيب فصاحته فقد رواءه فيما بقى من كلمات مكتوبة . ولكونه لاهوتيا مجادلا بدا الآن صارما فظّا جافيا ، لكنه منذ اليوم الذى عُين فيه رئيسا لدير رهبان كليرفو عام ١١١٥م ، وهو آنذاك فى الخامسة والعشرين من عمره، وحتى وفاته بعد ذلك بأربعين سنة تقريبا ، كان صاحب الأثر المهيمن على الحياة الدينية والسياسية فى اوروبا الغربية : فهو الذى أعطى النظام البندكتى قوته الدافعة ، وهو وحده - دون معين فى الأغلب - الذى انقذ البابوية من رغام الصدع الذى كاد يسببه أناكليتوس[١٢]، إذ كان فى وعظه حماس واخلاص ، وكان شجاعا قويا ، وقد خلت حياته مما يعيبها، فكانت تلك المزايا تجتمع لديه وتمكّنه من الانتصار لأية قضية يمنحها مؤازرته ، باستثناء قضية واحدة فقط هي حالة طائفة الكثار المريرة فى لانجدوك[١٣]. وكان مهتما منذ زمن طويل بمصير العالم المسيحى الشرقى وسبق أن أسهم هو نفسه عام ١١٢٨م فى وضع مبدأ انشاء نظام فرسان المعبد . وعندما ترحاه البابا والملك

---

(١٢) (المترجم): بعد وفاه البابا هونوريوس الثانى عام ١١٣٠م انتحب اغلب الكرادلة أناكليتوس الثانى Anacletus II ، وانتخبت أقلية الكرادلة إينوسنت الثانى Innocent II ، ورُسم البابوان كلاهما مما أنذر بصدع فى الكنيسة جسيم . ودعا الملك الفرنس لويس السادس ملك فرنسا (السمين) مجلسا لتقرير الشرعية البابوية عام ١١٣٠م ، فاختار المجلس البابا إينوسنت لكن أناكليتوس أجبر غريمه إينوسنت على الهرب الى فرنسا حيث آيده الراهب القديس برنار (اوف كليرفو) الذى هاجم انحدار أناكليتوس من أسلافه اليهود . وبرغم تحالف أناكليتوس مع الملك روجر الصقلى الطموح ، فقد تغلب مناصرو إينوسينت بمن فيهم الإمبراطور البيزنطى جون الثانى كومنينوس والامبراطور الالمانى لوثير الثانى على رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الذى اصطحب اينوسنت وقاد جيشا ألمانيا عام ١١٣٢م واحتل روما كلها ماعدا الجزء الذى يحتله انصار أناكليتوس. وبعد رحيل لوثير أجبر أناكليتوس غريمه إينوسنت على الهرب من روما مرة اخرى فلجأ الى بيزا حيث عقد مجلسا عام ١١٣٤ م وأعلن الحكم على أناكليتوس بالحرمان الكنيسى . وتمكن الامبراطور لوثير فى حملته الثانية (١١٣٦-٧) من طرد روجر الصقلى من جنوب ايطاليا ، وبذا أمسى أناكليتوس بقليل من المناصرين، فمات منهيا بذلك الصدع الوشيك ، ولكن الآراء منقسمة حول تلك المسألة حتى يومنا هذا .

(١٣) (المترجم) : الكثار Cathari: طائفة مسيحية هرطيقية ازدهرت فى القرنين ١٢ و١٣ فى لانجدوك Languedoc فى جنوب فرنسا وانحاء من اوروبا الغربية. اعتنقت ثنائية مانوية جديدة ذات مبدأين : مبدأ الخير ومبدأ الشر ، قالت إن المادة شر والإنسان مغترب فى هذا العالم الشرير . كانت لها قواعد صوم صارمة منها الامتناع التام عن اكل اللحوم . حظرت المضاجعة الجنسية ونادت بالتبرؤ التام النسكى من العالم . أعادت كتابة القصة الانجيلية وطوّرت خرافة مدروسة لتحل محلها بعد ان تحفظت على أغلب العهد القديم الذى أنكره بعض أفرادها برمته . ورفضت مبدأ التجسد Incarnation وليس عيسى عليه السلام سوى ملاك ، وما آلامه البشرية وموته إلا مجرد وهم . وهاجمت فساد الكنيسة الكاثوليكية واهتماماتها الدنيوية هجوما لاذعا. جرّدت الكنيسة الكاثوليكية ضدها الحملة الصليبية الألبنسية the Albigensian Crusade وراح بارونات شمال فرنسا يخربون تولوز وبروفانس ويقتلون الكثار والكاثوليك على السواء.

للمساعدة في التبشير بالحملة الصليبية لّبى النداء بشغف[١٤].

وتجمعت الحشود فى فيزيلاى Vèzèlay يوم ٣١ مارس ١١٤٦م ، وبانتشار الأنباء بأن القديس برنار سوف يبشّر في هذا الجمع ، جاء الزائرون من سائر انحاء فرنسا . وكما حدث في كليرمونت منذ نصف قرن ، كان الحشد من الضخامة بحيث تعذر اجتماعه في الكاتدرائية ، فتحدث القديس برنار وهو يعتلى منصة أقيمت فى حقل خارج المدينة الصغيرة . ولم تسجل الأجيال كلماته ، وانما نعرف فقط انه قرأ الأمر البابوى الداعى إلى حملة مقدسة مع وعد المغفرة لكل من يشارك فيها ، ثم استغل فصاحته التى لا تبارى كى يوضح العجالة التى تتطلبها الدعوة البابوية . وسرعان ما وقع الحاضرون أسرى لنفوذه الطاغى ، وبدأ رجال يصيحون طالبين الصلبان - "الصلبان ، اعطونا الصلبان !" - ولم يمض طويل وقت قبل أن تنفد المواد التى سبق اعدادها لخياطة الصليب، فنضى القديس برنار رداءه الخارجي والقى به لتمزيقه إلى صلبان صغيرة، وغربت الشمس ولا زال هو ومساعدوه يخيطون الصلبان، إذ كان المخلصون الذين نذروا انفسهم للذهاب فى الحملة الصليبية يفدون بأعداد آخذة فى التزايد[١٥].

وكان الملك لويس أول من أخذ الصليب . وتلهف اتباعه على أن يحذوا حذوه وقد نسوا ما أبدوه من برود سابق . وكان من بينهم أخوه روبرت كونت دريو ، وألفونسو - جوردان كونت تولوز الذى ولد هو نفسه فى الشرق ، ووليم كونت نفرس الذى قاد أبوه إحدى الحملات الفاشلة عام ١١٠١م ، وهنرى وريث كونتية شامباني ، وثييرى (اوف فلاندرز) الذى سبق له أن حارب في الشرق وكانت زوجته ابنة (فولك) زوج الملكة ميليسند ، وأماديوس (اوف سافوى) عم الملك ، وأرشمبالد كونت بوربون ، وأراس وليزيو من أساقفة لانجر وكثير من نبلاء المرتبة الثانية . وجاءت الاستجابة الأعظم حتى من رعاع الناس[١٦]. واستطاع القديس برنار أن يكتب للبابا

---

(١٤) Odo of Deuil, p. 21. واستنادا الى Otto Freisingen فإن البارونات رغبوا فى استشارة القديس برنار قبل أن يلزموا انفسهم (*Gesta Friderici,p. 58*) وعن القديس برنار وفرسان المعبد ، أنظر Vacandard, *Vie de Saint Bernard, ii*, pp.227-49.

(١٥) Odo of Deuil, p. 22; *Chronicon Mauriniacense, loc. cit;* Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp. 158-60.

(١٦) كان أسقف لانجر هو Godfrey de la Roch Faillèe، وكان راهب كليرفو ويمت الى القديس برنار بصلة قرابة . ولا نعرف سوى القليل عن أسقف أراس Alvisus الذى كان سابقا رئيسا لدير أنشين . وجعلته الأساطير المتأخرة أخا لـ Suger دون أى أساس لذلك . وكان أسقف ليزيو Arnulf of Séez

بعد ذلك بأيام قليلة قائلا : "أنت أمرت . وأنا أطعت . وسلطة من أعطى الأمر جعلت طاعتي مثمرة . قد فتحت فمي . تكلمت . وعلى الفور تضاعفت اعداد الصليبيين الى ما لا نهاية . القرى والمدن الآن مهجورة . ستجد بالكاد رجلا واحدا لكل سبع نساء . وفي كل مكان ترى أرامل لا يزال أزواجهن على قيد الحياة."(١٧).

١١٤٦م : القديس برنار في ألمانيا

وإذ تشجع القديس برنار بما صادفه من نجاح ، قام بجولة في برجندى واللورين وفلندرز ، يبشر بالحملة الصليبية في طريقه . وبينما كان في فلاندرز تلقى رسالة من رئيس اساقفة كولونيا يرجاه الحضور على الفور إلى أراضى الراين ؛ ذلك أنه كما حدث في ايام الحملة الصليبية الأولى ، فإن ما أثارته أنباء الحركة من حماس انقلب ضد اليهود . ففي فرنسا اشتكى رئيس دير رهبان كلاني ، بطرس الموقر، من أن اليهود لا يدفعون اسهاما ماليا لإنقاذ العالم المسيحي ؛ وفي ألمانيا اتخذ الازدراء لليهود شكلا أكثر شراسة ؛ إذ أن راهبا بندكتيا متعصبا يدعى رودولف راح ينفث الإيحاء بمذابح لليهود في كافة انحاء أراضي الراين : في كولونيا ومينز وورمز وسبير وستراسبورج . وبذل رئيسا أساقفة كولونيا ومينز ما في وسعهما لإنقاذ الضحايا ، إلى أن استدعيا برنار أخيرا للتعامل مع البندكتي. فسارع برنار بالرحيل من فلاندرز وأمر بعودة رودولف إلى ديره . وعندما عاد الهدوء مكث برنار في المانيا ، إذ بدا له أن على الألمان كذلك الإنضمام إلى الحملة الصليبية(١٨).

ولم يكن للألمان دور متميز حتى الآن في الحركة الصليبية . وانما كان حماسهم

دارسا كلاسيكيا للأذواق العلمانية المتميزة . وقد اعتبر أسقفا لانجر وليزيو نفسيهما أنهما وقد منحا وضع المندوبين البابويين، رغم ان المندوبين البابويين كانا في الواقع هما Theodwin الألماني كاردينال بورتو، وFlorentine كاردينال جويدو . واعتبر John of Salisbury في *Historia Pontificalis*, pp. 54-5 أن المشاحنات التي دارت بين الأسقفين وازدراءهما المشترك للكاردينالين تعزى بدرجة كبيرة الى فشل الحملة الصليبية . وكان يعتقد ان Godfrey of Langres أكثر تعقلا من Arnulf of Lisieux.

(١٧) St Bernard, letter no. 247, in *op. cit.* col.447

(١٨) St. Bernard, letters no. 363, 365, in *op. cit.* cols. 564-8, 570-1; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 58-9; Joseph ben Joshua ben Meir, *Chronicle*, trans. Biellablotzky, I, pp. 116-29. وساعد الشائعات التي انتشرت عن قتل اليهود لطفل مسيحي في نورويش على اثارة المشاعر ضدهم . انظر Vacandard, op.cit. II, pp. 274-81.

السماء عليه ، وصاح به قائلا : "يا إنسان ، ما الذى كان ينبغى لى أن افعله لك و لم أفعله ؟" فتحركت مشاعر كونراد فى اعماقه ووعد باتباع اوامر القديس[٢٠].

ورحل القديس برنار عن المانيا وقد تملكته الغبطة بما أنجزه من عمل . وسافر خلال شرقى فرنسا يشرف على ترتيبات الحملة الصليبية وراح يكتب للبيوت البنديكتية فى كافة انحاء أوربا يأمرها بتشجيع الحركة . وعاد إلى المانيا فى شهر مارس للمساعدة فى مجلس فى فرانكفورت عندما تقرر ارسال حملة صليبية ضد السلاف شرقى أولدنبرج . وكان المقصود من وجوده أن يُظهر انه بينما يناصر حملة صليبية فى الشرق فإنه لا يرغب فى أن يهمل الألمان واحباتهم الأقرب . وعلى الرغم من أن البابا سمح للمشتركين بارتداء الصليب فى هذه الحملة الصليبية، إلا أنها أخفقت إخفاقا تاما تسبب بدرجة كبيرة فى تأخر تحول السلاف إلى المسيحية . وسارع برنار من فرانكفورت إلى دير رهبانه فى كليرفو ليستقبل البابا الزائر[٢١].

١١٤٧م : البابا إيوجينيوس فى فرنسا

كان البابا إيوجينيوس قد امضى عيد الميلاد من عام ١١٤٥م فى روما ؛ غير أن المتاعب مع أهل روما أجبرته على سرعة انسحابه مرة اخرى فى فيتربو ، بينما خضعت روما نفسها لتأثير المحرض على الاثارة ضد الكنيسة ، أرنولد (اوف بريشيا) . وتحقق ايوجينيوس من انه بدون مساعدة الملك كونراد لن يتسنّى له إعادة تنصيب نفسه فى المدينة المقدسة ، وفى ذات الوقت قرر عبور جبال الألب إلى فرنسا لمقابلة الملك لويس والاشراف على الحملة الصليبية ، فغادر فيتربو فى شهر يناير ١١٤٧م ووصل مدينة ليون يوم ٢٢ مارس . وتلقى اثناء ترحاله أنباء عما بذله القديس برنار من أنشطة، فلم يُسر تماما لذلك . ذلك أن احساسه العملى جعله يتخيل حملة صليبية فرنسية خالصة تحت الزعامة العلمانية لملك فرنسا وبدون القيادة المنقسمة التى كادت أن تحطّم الحملة الصليبية الأولى ، وها هو القديس برنار قد حول الحركة إلى مغامرة دولية ؛ ومن الجائز

---

(٢٠) Otto of Freisingen, *Gesta Fridericik*, pp. 60-3; *Vita S. Bernardi*, cols. 381-3 . ويحتمل ان يكون كونراد قد تأثر بسماعه ان غريمه Welf VI of Bavaria قرر ان يأخذ الصليب . (انظر Cosack, 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug' in *Mitteilungen des Institus fur osterreichische Geschichtsforschung*, vol XXXV؛ غير ان قرار ويلف أعلن لكونراد فى وقت قصير جدا بحيث لم يكد هذا الأخير ان يسمع به أنظر Gleber, *op. cit.* pp.53-4).

(٢١) See St Bernard, letter no. 457, *loc. cit;* Vacandard, *op.cit.* II, pp. 297-8

المسيحى موجها نحو التنصير القسرى للسلافيين الوثنيين على حدودهم الشرقية . فمنذ بداية القرن كان العمل التبشيرى والاستعمار الألمانى يجريان على قدم وساق فى المقاطعات السلافية فى بوميرانا وبراندنبرج ؛ وقد اعتبر اللوردات الألمان أن توسع العالم المسيحى هذا عمل يفوق فى اهميته الحرب ضد الاسلام الذي بدأ تهديده لهم نائيا ونظريا ، ومن ثم أعرضوا عن الاستجابة لتبشير القديس برنار . كما لم يكن ملكهم كونراد (أوف هوهينشتافن) ، برغم اعجابه الشديد بالقديس ، أكثر تلهفا للإنصات اليه . فكانت لديه اهتمامات فى البحر المتوسط ، غير انها كانت مقيدة بايطاليا حيث وعد البابا بتقديم المساعدة ضد الرومان المتمردين وضد روجر الصقلى ، لقاء تتويجه الامبراطورى الذى يتمناه . كما أن وضعه فى المانيا نفسها لم يكن مستقرا. فبرغم انتصاره فى فينسبرج عام ١١٤٠م إلا أنه كان يلقى العداوة من مناصرى بيت ويلف ، وفى الوقت ذاته كانت التصرفات الغريبة من اخوته واخواته غير الأشقاء تثير له المتاعب بطول جناحه الشرقي . وكتب القديس برنار إلى الأساقفة الألمان ليضمن تعاونهم. ثم قابل الملك فى فرانكفورت فى خريف عام ١١٤٦م ، لكن كونراد راوغه؛ وتهيأ برنار للعودة إلى كليرفو لولا أن توسل اليه الأساقفة مواصلة تبشيره بالحملة الصليبية فى فريبورج ، وبازل ، وشافهاوزن ، وكونستانس. وسرعان ما نجحت الجولة حتى مع ضرورة ترجمة المواعظ الدينية بمعرفة مترجم ألمانى . وتدافعت قطعان الرعاع ليأخذوا الصليب . وفشلت المحاصيل فى المانيا ذلك العام وانتشرت المجاعة. والتضور جوعا خليق بأن يولد شعورا غامضا بالنشوة ؛ والأرجح أن الكثيرين ممن استمعوا إلى برنار قد ظنوا – كشأن حجاج الحملة الصليبية الأولى – أن الرحلة ستوصلهم إلى فردوس اورشليم الجديدة فى السماوات[١٩].

ووافق الملك كونراد على مقابلة القديس برنار مرة اخرى فى يوم عيد الميلاد من عام ١١٤٦م أثناء عقده لمجلس تشريعي فى مدينة سباير . ومرة ثانية طلب القديس برنار من الملك فى موعظته يوم عيد الميلاد أن يأخذ الصليب ، لكن نداءه لم يحرك من الملك ساكنا. على انه بعد يومين القى برنار موعظة اخرى أمام البلاط ، وتحدث كما لو كان هو المسيح نفسه مطوّقا الملك ومذكّرا إيّاه بالأفضال التى أمطرتها

(١٩) Bernhardi, *Konrad III*, oo, 563-78k الذى يورد موجزا كاملا للحملات الصليبية ضد السلافيين . وفى St Bernard's letter no. ٤٥٧ (*op. cit.* cols. 651-2) يأمر القديس مسيحيى المانيا بالخروج فى الحملة الصليبية فى الشرق . وفى رقم ٤٥٨ cols 652-4 يصدر نفس الأمر لملك بوهيميا وشعبها. والمؤرخون من مثل William of Tyre, Odo of Deuil وأغلب المؤرخين المعاصرين يشيرون الى كونراد على انه امبراطور ، غير انه فى الواقع لم يتلق قط تتويجا امبراطوريا .

جدا عمليا أن ترجح كفة المنافسة بين الملوك على كفّة تصوراته الرائعة. وفضلا عن ذلك ، سوف يحرم البابا من مساعدة الملك كونراد التى يعلق عليها الآمال فى ايطاليا . فاستقبل أنباء الاشتراك الألمانى استقبالا غاية فى البرود . لكنه لم يكن بوسعه منع الألمان من الاشتراك(٢٢).

وقابل البابا الملك لويس فى ديجون أثناء الرحلة فى فرنسا فى الأيام الأولى من ابريل، ووصل كليرفو يوم ٦ ابريل . وارسل اليه الملك كونراد سفارة هناك يلتمس مقابلته فى ستراسبورج يوم ١٨ من الشهر ؛ لكن ايوجينيوس كان قد وعد بتمضية عيد الفصح - يوم ٢٠ ابريل - فى سانت دينيس ولن يغير من خططه . وأعد كونراد العدة للرحيل إلى الشرق دون مباركة من البابا شخصيا . وفى تلك الأثناء أجرى إيوجينيوس مقابلات عديدة مع الراهب سوجر الذى كان مقررا أن يحكم فرنسا أثناء غيبة الملك لويس. وعقد مجلسا فى باريس للتعامل مع هرطقة جيلبرت (اوف دى لا بوريه) ، وقابل لويس مرة اخرى فى سانت دينيس يوم ١١ يونية . وبينما كان لويس يستكمل ترتيباته الأخيرة ، رحل البابا ببطء جنوبا للعودة إلى ايطاليا(٢٣).

وفي الوقت الذي كان ملكا فرنسا وألمانيا يعدان فيه العدة للحملة الصليبية ويخططان لرحلة برية طويلة ، كانت هناك حملة أكثر تواضعا تتألف من إنجليز مع بعض البلجيكيين من الفلاندرز وأبناء شمال هولندا (من الفريزيين) ، استلهموا ما قام به عملاء القديس برنار من تبشير بالخروج بحرا إلى فلسطين . فأبحرت السفن من انجلترا فى اواخر الربيع من عام ١١٤٧م ؛ وفى أوائل يونية أجبرها سوء الأحوال الجوية على اللجوء إلى مصب نهر دورو على الساحل البرتغالى . وقابلهم مبعوثو ألفونس هنرى ، كونت البرتغال ، الذى كان قد حقق استقلال بلاده مؤخرا وكان يتفاوض مع البابوية على منحه لقب ملك بمبرر نجاحه فى حملاته ضد المسلمين. وكان قد استغل ما يواجهه المرابطون من صعوبات وانتزع نصرا كبيرا فى عريق عام ١١٣٩م ، وفى عام ١١٤٧م كان قد وصل إلى ضفاف نهر التاجة بعد استيلائه على شنترين. وقد رغب الآن فى مهاجمة العاصمة الاسلامية لشبونة وكان فى حاجة إلى مساعدة بحرية . وجاء وصول الصليبيين فى وقته المناسب. إذ أكّد لهم مبعوثه ، أسقف أوبورتو ، عدم الحاجة إلى القيام برحلة طويلة إلى فلسطين اذا كانوا يريدون الحرب من اجل الصليب ؛ فهنا كفرة

---

(٢٢) See Gleber, *op. cit.* pp. 22-7, 48-61

(٢٣) Odo of Deuil, pp. 24-5

فى متناول اليد ، ولن ينال الصليبيون الجدارة الروحية فحسب ، وانما أمامهم ضياع غنية يمكنهم الفوز بها هنا والآن . فوافق البلجيكيون والفريزيون من فورهم ، لكن أفراد الفصيلة الانجليزية ترددوا ، إذ أخذوا على أنفسهم العهد بالذهاب إلى القدس، وكان الأسقف قد أفلح فى اقناع قائدهم ، هنرى حلانفيل حاكم سافوك ، بالبقاء . واضطر قائد الفصيلة الانجليزية إلى بذل كل ما فى وسعه من نفوذ لتحريض افراد فصيلته على البقاء. وبعد أن تم الإتفاق على الشروط أبحر الأسطول الصغير جنوب نهر التاجة للانضمام إلى الجيش البرتغالى ؛ وبدأ حصار لشبونة . ودافع المسلمون عن مدينتهم ببسالة ، و لم تستسلم الحامية الاّ فى اكتوبر، بعد أربعة اشهر ، بعد ضمانات بالمحافظة على ارواح أفرادها وممتلكاتهم. وعلى الفور نقض الصليبيون عهدهم وانغمست أيديهم فى مذبحة كبيرة للكفرة قام بعدها أفراد الفصيلة الانجليزية بتبادل التهنئة على ما قدموه من "فضيلة" ، مع أنهم لم يلعبوا فيها سوى دور ضئيل . وبعد انتهاء الحملة واصل بعض الصليبيين رحلتهم إلى الشرق ، غير أن اغلبهم بقى فى حالة استيطان تحت التاج البرتغالى . ورغم أن هذه الحادثة كانت إيذانا بتحالف طويل بين انجلترا والبرتغال ، وبرغم انها كانت بمثابة إرساء القواعد لانتشار المسيحية وراء المحيطات ، فإنها لم تفعل سوى القليل لمساعدة المسيحيين في الشرق حيث كانت القوة البحرية بالغة الأهمية للقضية[٢٤].

١١٤٧م : الملك كونراد يغادر ألمانيا

في الوقت الذى تأخر فيه الشماليون في البرتغالى كان ملكا فرنسا وألمانيا قد شرعا فى الرحيل برا إلى الشرق . وكان الملك روجر الصقلى قد أرسل إلى كل منهما يعرض نقلهما ونقل جيشيهما بحرا. وكان طبيعيا أن يرفض كونراد ذلك العرض إذ كان لفترة طويلة عدوا لروجر ، وكذلك فعل لويس . و لم يكن البابا راغبا فى تعاون روجر ؛ ومن المشكوك فيه ما اذا كانت البحرية الصقلية من الضخامة بحيث تحمل كل الجنود الذاهبين فى الحملة الصليبية . و لم يكن لويس راغبا فى أن يسلم نفسه – وقد انفصل عن نصف جيشه – إلى رجل اشتهر بماضي نفاقه الحافل فضلا عن كونه عدوا لدودا لعم الملكة

(٢٤) المصدر الرئيسى الأصلى للحملة الصليبية البرتغالية هو Osborn, *De expugnatione Lyxbonensi,* مطبوع فى Stubbs *Memorials of the Reign of Richard I,* vol. I, pp. CXLIV-CLXXXII. أنظر ايضا Ermann, 'Die Kreuzzugegedanke in Purtugal' in *Historische Zeitschrift* , vol CXLI, pp.23-53.

الفرنسية . فكان السفر برا أكثر أمانا وأقل تكلفة[٢٥].

وانتوى الملك كونراد مغادرة ألمانيا في عيد الفصح من عام ١١٤٧م ، وكان قد تلقى سفارة بيزنطية في ديسمبر في مدينة شبير ، أخبرها برحيله الفورى إلى الشرق . على انه لم يبدأ رحلته في واقع الأمر إلاّ في نهاية مايو . وغادر راتيسبون في الأيام الأخيرة من الشهر وعبر إلى هنجاريا . وكان الجيش بالغ الضخامة . إذ تحدث المؤرخون المرتاعون عن مليون جندى ؛ والأرجح أن العدد الإجمالي للرجال المسلحين والحجاج قد بلغ عشرين الفا . وجاء مع كونراد اثنان من الملوك التوابع : فلاديسلاف ملك بوهيميا وبوليسلاف ملك بولندا . وكان على رأس النبلاء الألمان فريدريك ، دوق سوابيا، وهو ابن اخى كونراد ووريثه . وكانت هناك كتيبة من اللورين بقيادة ستيفن أسقف ميتز ، وهنرى اسقف تول . ولقد كان جيشا مشاغبا؛ فكان الأقطاب الألمان يغارون من بعضهم البعض ، ودامت الإحتكاكات بين الألمان والسلاف وأبناء اللورين من الناطقين بالفرنسية . ولم يكن كونراد بالرجل الذى يسيطر على الجيش ويبقيه في حالة انضباط، إذ جاوز عمره الآن الخمسين بكثير ، وصحته لا هى بالجيدة ولا بالسيئة ، ومزاجه ضعيف قلق . وقد بدأ في تفويض الكثير من سلطاته إلى يدى إبن أخيه فريدريك القويتين غير المتمرستين[٢٦].

وعبر الجيش الألمانى هنجاريا في شهر يونية. وكان ملك هنجاريا الصغير (جيزا) ودودا جدا ، ولم تحدث حادثة سيئة . وفي هنجاريا جاءت سفارة بيزنطية يرأسها ديميتريوس ماكريمبولايتس والإيطالي ألكسندر (اوف جرافينا) وقابلت كونراد وسألته – نيابة عن الامبراطور – ما إذا كان قد جاء صديقا أم عدوا ، ولكي تترجاه أن يقسم القسم بألا يأتي من الأفعال ما يضر بمصالح ورفاهية الامبراطور . وقد أُحسن اختيار قسم عدم الإضرار هذا ؛ إذ كان القسم المعتاد في اجزاء معينة من الغرب يؤخذ من تابع لسيده؛ وهو الذى أقسمه ريموند التولوزى لألكسيوس أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ ومع ذلك كان القسم مصاغا بحيث اذا رفضه كونراد فمعنى هذا انه قد وصم نفسه بعداوة الامبراطور . ولقد أقسم كونراد هذا القسم . فوعده السفراء البيزنطيون بتقديم

---

(٢٥) كان الملك لويس قد اعلن لروجر عن الحملة الصليبية (Odo of Deuil, p.22)، على انه عندما اقترح روجر أن يشترك في الحملة بصورة ايجابية نبذ الملك لويس مساعدته مما تسبب في استعادة المؤرخ Odo لأحزانه (*ibid. p.24*).

(٢٦) Odo of Freisingen, *Chronica*, p. 354 and *Gesta Friderici*, pp. 63-5.

كل المساعدة أثناء عبوره أراضى الامبراطورية[٢٧].

١١٤٧م : الألمان في البلقان

فى يوم ٢٠ يولية تقريبا دخل كونراد أراضي الامبراطورية عند برانيتشوف . وساعدت السفن البيزنطية فى نقل رجاله عبر نهر الدانوب . وفى نيش ، قابله حاكم المقاطعة البلغارية ، ميخائيل براناس وزود الجيش بالطعام الذى سبق تخزينه استعدادا لوصوله . وفى صوفيا ، التى وصلها بعد ذلك بأيام قليلة ، أقام حاكم ثيسالونيكا، ميخائيل باليولوجوس ابن عم الامبراطور ، ترحيبا رسميا لكونراد من الامبراطور . وحتى الآن سارت الأمور على ما يرام . وكتب كونراد إلى اصدقاء له فى المانيا يخبرهم بأنه راض عن كل شئ . على انه بعد مغادرته صوفيا بدأ رجاله فى نهب الريف رافضين أن يدفعوا للقرويين مقابل ما يأخذونه منهم ، بل انهم قتلوا من اعترض عليهم . وعندما تلقى كونراد الشكاوى اعترف بأنه عاجز عن فرض الانضباط على الغوغاء . وفى فيلوبوبوليس حدثت احداث فوضوية أسوأ ، إذ سُرق المزيد من الطعام ، وحدثت اعمال شغب عندما قام أحد المشعوذين ببعض الحيل وفى مأموله الحصول على بعض المال من الجند ، فاتهمه الألمان بالسحر . واضرمت الحرائق فى الضواحى ، بيد أن اسوار المدينة كانت من القوة بحيث تعذر على الألمان مهاجمتها . وكان احتجاج رئيس الأساقفة ميخائيل اتاليكوس لدى كونراد من القوة بحيث شعر الأخير بالخجل وعاقب زعماء العصابات . ثم أن مانويل أرسل الجنود لمصاحبة الصليبيين وضمان عدم خروجهم عن الطريق . ولم يؤد ذلك إلا إلى عمل فريد من أعمال الفوضى الأسوأ ؛ إذ تكرر الصدام بين البيزنطيين والالمان . وبلغت الأمور ذروتها من السوء بالقرب من أدرنه عندما هاجم بعض قطاع الطرق البيزنطيين وجيها المانيا كان قد تخلف لمرضه وقتلوه ؛ فما كان من فريدريك (اوف سوابيا) إلا أن حرق ديرا كان بالقرب من مكان ارتكاب الجريمة وقتل قاطنيه . وانتقاما لذلك ، دأب البيزنطيون على قتل الشاردين المخمورين – وكانوا بأعداد غفيرة بين الألمان – أينما وقعوا عليهم . وعندما تمكن القائد البيزنطى بروسوخ من تهدئة الأمور واستأنف الجيس مسيرته ، جاءت سفارة من مانويل ، الذى شعر بالخطر الشديد ، تحث كونراد على أن يسلك الطريق الذاهب إلى سيستوس على بوغاز الدردنيل والعبور من هناك إلى آسيا . ولما كان مقررا أن تستمر

(٢٧) . Cinnamus, pp. 67-9

مسيرة الألمان إلى القسطنطينية ، فقد اعتُبر طلب مانويل عملا غير ودى لم يوافق عليه كونراد . ويبدو أن مانويل قرر آنذاك مقاومة الصليبيين بالقوة ، لكنه فى آخر لحظة ألغى اوامره المرسلة إلى بروسوخ . وسرعان ما نزل بالألمان عقاب الهى . فبينما كانوا مستلقين فى معسكرهم فى شيرفاس الواقعة فى سهل ترافيا ، فاجأهم سيل مغرق أطاح بخيامهم وأغرق الكثير من الجنود ودمّر الكثير من ممتلكاتهم ، و لم ينج من الأذى سوى فصيلة فريدريك التى كانت تعسكر فوق ربوة اكثر ارتفاعا . و لم تحدث حوادث اخرى جسيمة إلى أن وصل الجيش القسطنطينية فى العاشر من سبتمبر على وجه التقريب(٢٨).

وجاء الملك لويس والجيش الفرنسى فى اعقابهم بعد شهر تقريبا . وكان الملك نفسه قد انطلق من سانت دينيس فى الثامن من يونية ، وبعد ايام قليلة استدعى أتباعه لمقابلته فى ميتز . والأرجح أن حملته كانت اصغر من حملة كونراد . وقد جاء معه كل النبلاء الذين اخذوا الصليب معه فى فيزيلاى للوفاء بعهودهم، وكان مع الملك زوجته ، إليانورا الأكيتانية ، أعظم وريثة فى فرنسا وابنة اخت أمير أنطاكية . وكانت كونتيسات فلاندرز وتولوز وكثيرات من السيدات الفخيمات قد ارتحلن مع ازواجهن . وانضم إلى الجيش السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إيفيرارد (اوف بار) مصطحبا معه فصيلة من الذين جندهم فى نظام فرسانه(٢٩). وكان عمر الملك نفسه ستة وعشرين عاما ، وقد اشتهر عنه الورع وليس قوة الشخصية ، وقد مارس كل من أخيه وزوجته نفوذهما عليه ؛ وكقائد كان يفتقر إلى التدريب والحسم(٣٠). وعلى الجملة كان جنوده أكثر انضباطا وأقل شيطنة من الألمان ، برغم وجود حالات من الفوضى حدثت فى مدينة فورمز عند عبور نهر الراين.

---

(٢٨) Cinnamus, pp. 69-74; Nictas Choniates, pp. 82-7; Odo of Deuil, p. 38. وكان المؤرخ Odo قد سبق له ان ذكر المحتال من قبل فى صفحة ٣٦ . Odo of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 65-7.

(٢٩) ترد قائمة بالصليبيين أوردها Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp.158-60 والأسطورة القائلة بأن الملكة إلينور جاءت على رأس مجموعة من الأمازون تقوم على أساس ملحوظة Nicetas p.80 بأن الجيش الألمانى كان يشتمل على عدد من النساء المسلحات تسليحا كاملا .

(٣٠) تدل صورة شخصيته التى أوردها Suger فى مؤلفه *Gesta* وفى رسائله الخاصة به على أنه لم يكن رجلا حاسما.

١١٤٧م : وصول الفرنسين إلى القسطنطينية

وعندما انضمت جميع الفصائل الفرنسية إلى الملك ، انطلق الجيش عبر بافاريا . وفي راتسيبون التى وصلها يوم ٢٩ يونية ، كان هناك سفيران من الامبراطور مانويل في انتظاره ، هما ديميتريوس ماكريمبولايتس الذى سبق وان أجرى مقابلة مع كونراد فى هنجاريا ، وآخر يدعى موروس . وطلبا ضمانا بأن يتصرف لويس كصديق أثناء تواجده فى الأراضى الامبراطورية وأن يعد بأن يعيد إلى الامبراطورية أية ممتلكات سابقة لها قد يستولى عليها فى الحملة . وكان واضحا انهما لم يطلبا منه أن يقسم قسم عدم الإضرار ، إذ كان خليقا بأن يعي مغزاه تماما . وأعلن لويس رسميا أنه جاء كصديق ، لكنه لم يعد شيئا بشأن الغزوات المقبلة ، إذ وجد الطلب مبهما بصورة خطيرة[٣١]. ومن راتيسبون ارتحل الجيش فى سلام لخمسة عشر يوما خلال هنجاريا ووصل الحدود البيزنطية فى نهاية أغسطس[٣٢]. وعبر المرتحلون الدانوب عند برانيتشيفو وسلكوا الطريق الرئيسى خلال البلقان . ووجدوا بعض الصعوبة فى شراء ما يكفى من الطعام ، إذ سبق أن استهلك الألمان كل ما كان متاحا ، وما ارتكبه الألمان من تجاوزات أثار الريبة لدى السكان المحليين الذين باتوا عازفين عن المساعدة .وفضلا عن ذلك ، لم يكن التجار المحليون على استعداد لمنح أية تخفيضات فى الأسعار بعد تصميمهم على الدفع اولا . غير أن المسؤولين البيزنطيين كانوا ودودين ، واستطاع القادة الفرنسيون السيطرة على انضباط رجالهم . ولم تحدث مشاكل جسيمة إلى أن اقترب الجيش من القسطنطينية رغم أن الفرنسيين بدأوا يشعرون بالإزدراء تجاه كل من البيزنطيين والألمان . وفى أدرنه حاولت السلطات دون جدوى مـا حاولته مع كونراد من حث لويس على تجنب العاصمة وعبور الدردنيل إلى آسيا . وفى ذات الوقت ، كان بعض الفرنسيين قد نفد صبرهم من تمهل الجيش فى سيره ، فأسرعوا قُدُما ليلحقوا بالألمان . لكن الألمان كانوا يفتقرون إلى الود ، إذ رفضوا منحهم مخصصات الطعام . لذا قامت فصائل اللورين – وكانت على غير وفاق مع زملائهاالألمان – بالانضمام إلى الجنود الفرنسيين وأشعلت رأيا عاما فرنسيا مناهضا للألمان[٣٣]. وهكذا ، وقبل أن يصل الملك الفرنسى إلى القسطنطينية ، كانت العلاقات بين الجيشين الصليبيين مصطبغة بصبغة الريبة والمرارة ،

---

(٣١) Cinnamus, p. 82; Odo of Deuil, pp. 28-30 يقول أودو إن لويس جعل ممثليه يقسمون نيابة عنه.

(٣٢) Odo of Deuil, pp.30-4.

(٣٣) Ibid pp. 35-44

وقد اتخذ الألمان والفرنسيون سواء بسواء موقفا عدائيا إزاء بيزنطة ؛ وليس ذلك بشيرا بنجاح الحملة الصليبية .

الفصل الثانى:

الشقاق المسيــحى

٣٠٧

الشقاق المسيحى

"خُصُومَاتٌ وَمُحَاسَدَاتٌ وسَخَطَاتٌ وَتَحَزّبَاتٌ وَمَذَمّاتٌ وَنِمِيمَاتٌ وَتَكَبّرَاتٌ وتَشْوِيشَاتٌ"

(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢ : ٢٠)

عندما وصلت أنباء الحملة الصليبية إلى القسطنطينية أول الأمر كان الامبراطور مانويل مستغرقا فى شؤون الأناضول . وبرغم الحملات التى أطلقها أبوه وجده من قبل فى المقاطعات الآسيوية للامبراطورية ، بقى الوضع مثيرا للقلق ، إذ لم يسلم من الغزوات التركية سوى المقاطعات الساحلية ، أما فى داخل البلاد فكانت الغارات التركية تكاد أن تكون سنوية ، تكتسح البلاد مجتنبة الحصون الكبيرة وهى تراوغ الجيش الامبراطورى، وقد هجر سكان المواجهة قراهم وهربوا إما إلى المدن أو إلى الساحل . وأقام مانويل سياسته على أساس إنشاء خط حدودى محدد تحرسه سلسلة من القلاع المتصلة ببعضها البعض عن قرب . وكانت دبلوماسيته وحملاته تستهدف الحفاظ على هذا الخط.

وكان الأمير الدانشمندى محمد بن غازى قد مات فى ديسمبر عام ١١٤١م ،

وكان يمثل القوة الاسلامية الرئيسية في آسيا الصغـرى ، فـاندلعت بعـد موتـه الحـروب الأهلية بين ابنائه واخوته ، وقبل نهاية سنة ١١٤٢م انقسـمت الإمـارة إلى ثلاثـة أجـزاء احتفظ ابنه ذو النون بقيصرية مزاكا ، بينما احتفظ أخواه يعقـوب أرسـلان بـن غـازى وعين الدولة بن غازى بسيواس وملطية على التوالى . وقـد رأى مسـعود سـلطان قونيـة السلجوقى فى هذا الانقسام فرصته فى السـيطرة علـى أتـراك الأنـاضول . فغـزا اراضـى الدانشمند وبسط سـلطانه علـى المقاطعـات الممتـدة حتـى نهـر الفـرات ، فتسـبب هـذا العدوان في إثارة مشاعر الخوف لدى الأخوين يعقوب أرسلان وعين الدولـة فسـعيا إلى التحـالف مـع بيزنطـة .وبموجـب معـاهدة ربمـا عقـدت عـام ١١٤٣م أصبحـا تـابعين للإمبراطور بدرجة ما . وبعد ذلك حـول مـانويل انتبهاهـه نحـو مسـعود الـذى توغلـت غاراته إلى ملاجينه الواقعة على الطريق بين نيقية ودوريليـوم ، ورد تلـك الغـارات علـى أعقابها ، لكنه سرعان ما عاد إلى القسطنطينية لاعتلال صحته ، وللمرض المميت الذى أصيبت به اخته المحبوبة ماريا ، التى دلت على اخلاصها له عند تآمر زوجهـا ، القيصـر جون روجر النورمانى المولد ، على العرش وقت استخلاف أخيها . وفى عـام ١١٤٥م غزا مسعود الامبراطورية مرة اخرى واستولى على حصن براكانا الصغير فـى إيسـوريا ، وبذا هدد خطوط المواصلات البيزنطية مع سوريا ، وسـرعان مـا أغـار بعـد ذلـك علـى وادى نهر الياندر وحتى البحر تقريبا.

١١٤٦م : حملة مانويل ضد قونية

قرر مانويل ان الوقت قد حان ليضرب مسعود بشدة ويزحف على قونية . وكـان قد تزوج حديثا ، وقيل إنه أراد أن يُطلع زوجته الألمانية على روائع الفروسية البيزنطية . وفى صيف عام ١١٤٦م أرسل إلى السلطان إعلانا رسميا بالحرب ، وانطلـق في موكـب فخيم بطول الطريق مارا بدوريليوم جنوبا إلى فيلوميليوم حيـث حـاولت فصـائل تركيـة التصدى له لكنها اندحرت . وتراجع مسعود باتجاه عاصمته التـى عـزز حاميتهـا، لكنـه رغم ذلك بقى فى الأراضى المفتوحة وأرسل يطلب التعزيزات من الشرق علـى عجـل . وعسكر الجيش البيزنطى لعدة شهور امام قونية التى كان السلطان يدافع عنهـا . وكـان موقف مانويل إزاء اعدائه يتصف بالكياسة ؛ ذلك انـه عنـد انتشـرت الشـائعات بمقتـل السلطان ، أرسل إلى السلطانـة يخبرها بان القصة غير حقيقية ؛ وحـاول - دون طائل - أن يفـرض علـى جنـوده احـترام مقـابر المسـلمين خـارج المدينـة . وفجـأة أصـدر أمـره

بالانسحاب . وقيل فيما بعد انه قد سمع شائعات بتحرك الحملة الصليبية ؛ لكنه مع ذلك لم يكد يعلم بالقرار المتخذ فى فيزيلاى ذلك الربيع . وكان بالقطع مرتابا فى النوايا الصقلية ، وربما تحقق فعلا من أن هناك شيئا يأخذ مجراه . كما انه علم أن مسعود تلقى تعزيزات كبيرة لجيشه ، فكان يخشى من الإمساك به ووراءه خطوط مواصلات طويلة محفوفة بالأخطار . فتقهقر ببطء فى غاية النظام عائدا إلى أراضيه[١].

وقبل إمكان الترتيب لحملة اخرى ضد قونية ، وجد مانويل نفسه يواجه الواقع الفعلى للحملة الصليبية ، فانتابه القلق وله العذر؛ إذ لم تكن تجارب البيزنطيين مع الصليبيين باعثة على الطمأنينة ، ولذا وافق مانويل على ما اقترحه عليه مسعود فى ربيع ١١٤٧م من عقد هدنة وإعادة براكانا وما استولى عليه فى غزواته الأخيرة . وبسبب هذه المعاهدة نعته العالم المسيحى بالخيانة . غير ان عداوة كونراد التى اتضحت قبل أن يتلقى الألمان نبأ المعاهدة تظهر أن توجسات الامبراطور نابعة من منبع الحكمة وليس هناك ما يجعله ملتزما إزاء رفيق مسيحى يفكر علنا فى مهاجمة القسطنطينية . كما لا يستطيع مانويل أن يغتبط بحملة لا شك فى انها سوف تشجّع امير أنطاكية على تناسى احترامه وتبعيّته . وإذا ما دخل فى حرب حادة مع الأتراك فربما كانت عونا للصليبيين فى مرورهم عبر الأناضول ، غير انها كانت ستجعلهم يلحقون أضرارا لا حد لها بالامبراطورية التى تعتبر حصنا للعالم المسيحى . ففضّل عدم التورط الذى ربما يضعفه فى ذلك الوقت الحساس لا سيما وان هناك حربا وشيكة مع صقلية[٢].

١١٤٧م : الألمان يعبرون إلى آسيا

كانت العلاقات طيبة بين مانويل وكونراد حتى ذلك الحين ؛ إذ جمع بينهما الخوف المشترك من روجر الصقلى ؛ فضلا عن ان مانويل تزوج حديثا من أخت زوجة كونراد[٣]. على ان سلوك الجيش الألمانى فى البلقان ، ورفض كونراد اتخاذ الطريق الذى يعبر مضيق الدردنيل جعله يشعر بالخطر . وعندما وصل كونراد أمام

---

(١) أنظر .Chalandon, les Comnènes, pp. 248-58 ويقول ميخائيل السورى Michael the Syrian (III,p.275) إن مانويل عقد سلاما مع الأتراك خشية الصليبيين ، وانه تمكن من صدهم لسنتين.

(٢) Chalandon, op. cit., pp.266-7 اندلعت الحرب مع صقلية فى الواقع فى صيف ١١٤٧م (po.cit.p.318 n.1) ويشير اليها .Odo of Deuil (p.53)

(٣) وقد تم الزواج فى يناير ١١٤٦م. (Chalandon, op. cit. p. 262 n 3)

القسطنطينية خُصص لإقامته قصر فيلوبـاتيوم بـالقرب من الأسـوار ، وعسـكر جيشـه حوله . على أنه فى غضون أيام قليلة راح الألمان ينهبون القصر بحيث لم يعد صالحا للإقامة وانتقل كونراد عبر رأس القرن الذهبى إلى قصر بيكريديوم، فـى مواجهـة ناحيـة فانار . وفى تلك الآونة ارتكب جنوده أعمال العنف ضد السـكان المحليين ، وأرسلت فصائل من الجنود البيزنطيين لقمعهم ، وتلى ذلك سلسلة من المناوشات . وعندما طلب مانويل الإنتصاف قـال كونـراد بـادئ الأمـر إن الاعتـداءات لم تكـن هامـة ؛ ثـم هـدد بالعودة فى العام التالى والاستيلاء على العاصمة . ويبدو أن الامبراطورة - أخت زوجـة كونراد - تمكنت من تهدئة العاهلين . وكـان مـانويل يحـث الألمـان علـى سرعة عبـور البوسفور لما كان يخشاه مما سوف يترتب على اتصال الألمان بالفرنسـيين، وفجـأة أذعـن الألمان ، إذ انهم بدأوا بالفعل فى مشاجرات مع أول القادمين الفرنسيين . وأمكن تحقيق وفاق ظاهرى ، وعبر كونراد وجيشه إلى خلقدونية ومعهـم الكثـير مـن الهدايـا النفيسـة وقد تلقى كونراد نفسه بعض الخيول الجميلة . غير أنه رفض اقتراحا بترك بعـض رجالـه للخدمة مع الامبراطور لقاء حصوله على بعض الجنود البيزنطيين فى كيليكيا ، وكـان ذلـك الترتيـب ملائـما لمانويـل فى حربه مع روجر الصقلى(٤).

وعندما وصل كونراد إلى خلقدونية طلب من مانويل تزويده بمرشدين يأخذونه عبر الأناضول ، وعهد مانويل بتلك المهمة إلى رئيس الحرس الفارنجي، ستيفن . وفى الوقـت ذاته نصح الألمان بتجنب الطريق المستقيم العابر لشبه الجزيـرة ، واتخـاذ طريـق السـاحل الملتـف إلى أضاليـا، وبذا يسـلكون طريقهـم فـى الأراضـى الواقعـة تحـت السـيطرة الامبراطورية. كما اقترح مراعاة الحكمة وإعادة جميع الحجاج غـير المقـاتلين إلى بلادهـم إذ ليس فى وجودهم سوى احراج للجيش . ولم يعبأ كونراد بهذه النصيحة وانما انطلـق إلى نيقية . وبوصوله هناك أعاد التفكير وقرر تقسيم الحملة . فتقرر ان يصطحـب أوتـو (اوف فريسينجين) فرقة تضم اغلب الحجاج غير المقاتلين ، فـى طريـق يخـترق لاوديفيـا على نهر ليكوس إلى أضاليا ، بينما يسلك هو نفسه ومعه القـوة المقاتلـة الرئيسية طريـق الحملة الصليبية الأولى مخترقا داخل البلاد(٥).

---

(٤) Cinnamus, pp.74-80; Nicetas Choniates, p.87; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae in Jaffé, Bibliotheca, I,p.166. يقول إن الامبراطور استقبله استقبالا حسنا. Annales Herbipolenses,pp.4-5;Romuald of Salerno,p 424; ويقول Odo of Deuil, pp.39 -40 إنـه طبقا للحسابات الإغريقية عبر البوسفور ٩٠٠٥٦٦ من الجنود والحجاج الألمان . والأرجح ان الرقم الصحيح هو ٩٥٦٦ شخصا. كما يقول إن كونراد لم يقابل مانويل مقابلة شخصية.

(٥) Cinnamus, pp. 80-1 .

غادر جيش كونراد نيقية يوم ١٥ أكتوبر مع ستيفن الفارانجى كبير المرشدين . وطوال الأيام الثمانية الأولى ، أثناء تواجدهم فى اراضى الامبراطور ، كانوا يحصلون على جيد الطعام ، رغم أنهم فيما بعد اشتكوا من ان عملاء الامبراطور خلطوا ما كانوا يزودونهم به من دقيق بالطباشير ، كما انهم كانوا يعطونهم عملات منخفضة القيمة . على انهم لم يزودوهم بالطعام أثناء سيرهم فى الأراضى التركية التى افتقروا فيها إلى الماء بصورة خاصة . وبوصولهم فى ٢٥ اكتوبر إلى نهر باثى الصغير بالقرب من دوريليوم، فى جوار الموقع الذى شهد الانتصار الصليبى العظيم قبل ذلك بنصف قرن ، انقض عليهم الجيش السلجوقى كله . وكان مشاة الألمان فى حالة من التعب والعطش ، والكثير من الفرسان مترجلون لإتاحة الراحة لخيولهم المرهقة ؛ فبوغتوا بفرسان الأتراك الخفاف يهجمون عليهم فى هجمات متكررة سريعة مفاجئة . وكانت فى حقيقتها مذبحة لا معركة . وحاول كونراد أن يلم شعث رجاله ، ولكن دون جدوى . وبحلول المساء كان يسابق الريح هربا مع قليلين ممن بقوا على قيد الحياة عائدا إلى نيقية. لقد فقد تسعة أعشار جنوده وكل ما كان يشتمل عليه معسكره . وباع المنتصرون الغنائم فى الاسواق المنتشرة فى سائر انحاء الشرق الاسلامى حتى فارس(٦) .

١١٤٧م : الفرنسيون يعبرون إلى آسيا

وفى تلك الأثناء كان الملك لويس والجيش الفرنسى فى الطريق إلى القسطنطينية التى وصلاها يوم ٤ أكتوبر، ليجدا حرس المقدمة وجيش اللورين فى حالة اشمئزاز سببتها وحشية الألمان من ناحية ، وأنباء هدنة مانويل مع الأتراك من ناحية أخرى. وحالت السلطات البيزنطية دون اتصال فصائل اللورين مع الفرنسيين برغم توسلات مبعوث لويس ، إيفرارد (أوف بارر) السيد الأعظم لفرسان المعبد(٧). فاقترح أسقف لانجرز - راهب كليرفو بتعصبه غير المسيحى - على الملك وجوب تغيير سياسته وعقد تحالف مع روجر الصقلى ضد الغدر اليونانى (البيزنطى) . على ان الوساوس المتسلطة على لويس منعته من الأخذ بهذا الاقتراح مما أثار الشعور بخيبة الأمل لدى باروناته .

---

(٦) Cinnamus, pp. 81-2; Nicetas Choniates, p. 89; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.152; Annales Palidenses p.82; Annales Herbipolenses, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.53, 56-8; William of Tyre, XVI, 21-2, pp.740-4; Michael the Syrian, III, p.276.

(٧) Odo of Deuil, pp. 40-1 .

لقد شعر بالرضا من استقباله في البلاط الامبراطوري وفضّل الأخذ بالنصيحة الرقيقة التي نصح بها أسقف ليزيو ذو النوازع الانسانية ، وأقام في قصر فيلوباتيوم الذي جرى تنظيفه بعد الاحتلال الالماني ، ودعي إلى مأدب في القصر الامبراطوري في بلاشيرناي حيث لقي ضروب الحفاوة ، واصطحبه الامبراطور في جولة شاهد فيها معالم المدينة العظيمة . وافتتن كثيرون من نبلائه بنفس القدر لما لاقوه من الاهتمام بهم[٨]. على ان مانويل تدبر سرعة عبور الجيش مضيق البوسفور ، وبعدما استقر الجيش في خلقدونية ، قطع الامدادات عن الفرنسيين متذرعا بأعمال شغب أثارها حاج فلمنكي ظن أنه خدع. ورغم ان لويس شنق من ارتكب الجريمة في الحال، امتنع مانويل عن إعادة تموين الجيش إلى ان أقسم لويس أخيرا بأن يعيد إلى الامبراطورية ما يمكنه أن يعين على استعادته من ممتلكاتها المفقودة ، ووافق على أن يعترف البارونات بولائهم مقدما للامبراطور في كل أرض جديدة يحتلونها ، فاعترض النبلاء الفرنسيون ؛ غير أن لويس اعتبر الطلب معقولا نظرا لحاجته الشديدة للمساعدة البيزنطية ، لاسيما بوصول شائعات حول الكارثة الألمانية[٩].

وفي أول نوفمبر وصل الجيش الفرنسي نيقية حيث أيقن من هزيمة كونراد ، إذ وصل فريدريك (اوف سوابيا) على جواده إلى المعسكر الفرنسي وأخبرهم بالقصة وطلب من لويس ان يذهب من فوره لمقابلة كونراد . وسارع لويس إلى مقر الرئاسة الألماني ودارت المشاورات بين الملكين . وقررا كلاهما أن يتخذا طريق الساحل المتجه جنوبا ليكونا في داخل الأراضي البيزنطية . وكان الجيشان على وفاق في تلك اللحظة. ولم يجد الألمان طعاما في المنطقة التي يعسكرون فيها بعد أن استولى الفرنسيون على كل ما كان متاحا ، فأغار الألمان على القرى المجاورة، فما كان من الشرطة البيزنطية إلا أن هاجمتهم في الحال ، ولم ينقذهم سوى فصيلة فرنسية يرأسها كونت سواسون الذي سارع لإنقاذهم بناء على طلب كونراد . وفي تلك الأثناء كان كونراد قادرا على المحافظة على نوع من الانضباط بين جنوده . وقد تركه أغلب الحجاج الباقين على قيد الحياة عائدين يتلمسون طريقهم إلى القسطنطينية ، ولا نعلم عنهم شيئا بعد ذلك[١٠].

---

(٨) Cinnamus, pp. 82-3; Louis VII, letter to Suger, R.H.F vol. xv, p.488; Odo of Deuil, pp. 45-6, 47-8

(٩) Odo of Deuil, pp. 48-51.

(١٠) Odo of Deuil, pp. 58-60; William of Tyre, xvi, 23, pp. 744-5.

وانطلق الجيشان معا . وفى ١١ نوفمبر ضربا معسكريهما فى إيسيرون بالقرب من باليق سراى الحديثة ، وهناك غيرا الخطة مرة اخرى . ويرجح أنهما تلقيا تقارير حول الرحلة التى قام بها أوتو (اوف فريسينجين) بطول الطريق المباشر الذاهب إلى فيلادلفيا ولاوديفيا . ولا نعلم عن تلك الرحلة سوى القليل ، عدا وصول تلك الحملة فى نهاية الأمر إلى أضاليا وهى مرهقة وقد انخفض عدد افرادها ، تاركة على جانبى الطريق الكثير من الموتى الذين سقطوا صرعى تضورهم جوعا او ضحايا المغيرين الأتراك . وقرر الملكان السير على مسافة أقرب إلى الساحل خلال الأراضى الأكثر خصوبة ، ومداومة الاتصال بالاسطول البيزنطى . وواصلا سيرهما خلال أدراميتيوم وبرجاموم وأزمير وهبطا إلى إفسوس . وكان جيش لويس فى الطليعة بينما كان الألمان يشقون طريقهم فى الخلف بمسيرة يوم تقريبا وقد باتوا موضع سخرية مهينة من حلفائهم المتلكئين . ويسجل المؤرخ البيزنطى سيناموس Cinnamus الصيحة الفرنسية "تحركوا يا ألمان" التى قذفهم بها الفرنسيون بازدراء[١١].

١١٤٧ - ١١٤٨م : الفرنسيون فى آسيا الصغرى

وعندما وصلوا إلى إفسوس كانت صحة كونراد قد تدهورت بحيث تخلف هناك . وما أن سمع مانويل بذلك حتى أرسل له الهدايا الثمينة وحثه على العودة إلى القسطنطينية حيث استقبله استقبالا طيبا وأنزله فى القصر . وكان مانويل شديد الاهتمام بالطب وأصر على ان يكون طبيبا لضيفه واستعاد كونراد صحته وقد مس أعماق مشاعره ما لمسه من اهتمام الامبراطور والامبراطورة . وأثناء هذه الزيارة تمت ترتيبات زواج أخيه هنرى ، دوق النمسا، من ثيودورا ، ابنة أخى الامبراطور، أندرونيكوس . وبقى الملك الألمانى وأهل بيته فى القسطنطينية حتى أول مارس ١١٤٨م عندما نقلهم اسطول بيزنطى صغير إلى فلسطين[١٢].

وأثناء الأيام الأربعة التى أمضاها الملك لويس فى إفسس ، تلقى رسالة من مانويل

---

(١١) Odo of Deuil, pp.61-3. ويناقش سيناموس Cinnamus الفرق بين الجيشين . إذ كان الفرنسيون أفضل حالا على خيولهم ومعهم الرماح ، بينما كان الألمان راجلين ومعهم السيوف . وقد أورد عبارة "تحركوا يا ألمان" بالحروف الاغريقية.

(١٢) Cinnamus, pp.85-6; letters of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.153; Annales Hdrbipolenses, p.6; Odo of Deuil, pp.63-4; William of Tyre, XVI, 23, pp. 745-6.

يخبره فيها أن الأتراك يعدون العدة للحرب ونصحه بتجنبهم وأن يبقى في نطاق المأوى الذى توفره الغابات البيزنطية . ومن الواضح ان مانويل كان يخشى أن يعانى الفرنسيون من الترك فتلقى عليه الملامة ؛ وفى ذات الوقت لم يكن راغبا فى أن يحدث ما يعكر السلام المعقود بينه وبين السلطان ، ولا سيما وأن الحرب الصقلية على الأبواب . ولم يرد لويس . كما لم يرد عندما كتب له مانويل محذرا من ان السلطات البيزنطية لن تمنع مواطنيها من الانتقام لأية اضرار يسببها الصليبيون . ذلك ان انضباط الجيش الفرنسى كان آخذا في الانهيار ، وكانت العاصمة تتلقى شكاوى المواطنين من تمرد الصليبيين على القانون(١٣).

وشق الجيش الفرنسى طريقه الملتوى أعلى وادى نهر مياندر . وفى ديسيرفيوم ، حيث أمضوا عيد الميلاد ، ظهر الأتراك وبدأوا فى مضايقة الصليبيين حتى وصلوا إلى الجسر الذى يعبر النهر فى أنطاكيا البيسيدية(١٤)، حيث دارت معركة مدروسة، غير ان الفرنسيين شقوا طريقهم فوق الجسر وانسحب الأتراك داخل أسوار انطاكياالبيسيدية . ولا نعرف شيئا عن الظروف التى مكّنت الأتراك من اللجوء إلى تلك القلعة البيزنطية ، وهى الحادثة التى اعتبرها الفرنسيون بمثابة خيانة للعالم المسيحى ، وليس ذلك شيئا غير طبيعى ؛ على أنه سواء كانت الحامية المحلية للقلعة قد مالت إلى القوة الأقوى ، أو كان هناك نوع من الترتيب الخاص مع الكفرة ، فمن غير المحتمل أن يكون الامبراطور نفسه قد أجاز الخطة(١٥).

وكانت المعركة التى دارت أمام الجسر فى أنطاكيا البيسيدية قد حدثت في أول يناير ١١٤٨م تقريبا . وبعد ذلك بثلاثة ايام وصل الصليبيون إلى لاوديفيا ليجدوها مهجورة ؛ إذ أن سمعتهم دفعت بالسكان إلى النزوح إلى التلال ومعهم كل المؤن . وتعذر على الجيش ان يجمع أية أطعمة للمرحلة الشاقة التى تنتظره، إذ أن الطريق إلى أضاليا كان ملتفا حول مجموعة من الجبال العالية المقفرة ؛ فكانت الرحلة شاقة فى أحسن الظروف . أما بالنسبة لجيش جائع يكافح عواصف شهر يناير ، والأتراك متعلقون بأطرافه يتصيدون الشاردين والمرضى بلا هوادة ، فكانت الرحلة بمثابة كابوس.

---

(١٣) Cinnamus, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.63-5 .

(١٤) (المترجم) بيسيديا : Pisidia كورتية قديمة كانت تقع فى أواسط جنوب آسيا الصغرى ، جنوب فريجيا.

(١٥) Odo of Deuil, pp. 65-6; William of Tyre, XVI, 24, pp. 746-7

فعلى طول الطريق كان الجنود يرون جثث الحجاج الألمان الذين هلكوا فى سيرهم قبل ذلك بأشهر قليلة . و لم تعد هناك محاولات لفرض الانضباط ، فيما عدا مجموعة فرسان المعبد . وكانت الملكة والسيدات المصاحبات لها يرتعدن فى محفاتهن وقد أقسمن ألاّ يواجهن مرة أخرى قط مثل تلك المحنة . وفى عصر أحد الأيام ، وبينما بدأ الجيش يهبط باتجاه البحر ، عصى جودفرى (اوف رانكون) قائد حرس المقدمة ، أوامر الملك بأن يضرب المعسكر فوق قمة الممر ، وهبط إلى اسف التل ففقد الإتصال بالجيش الرئيسى ، فكانت فرصة سانحة لهجوم الأتراك . وثبت الصليبيون فى موقعهم ؛ غير ان هبوط الظلام هو وحده الذى أنقذ حياة الملك ، وكانت خسائر الفرنسيين فادحة(١٦).

١١٤٨م : الفرنسيون فى أضاليا

ومن هنا قدما كان الطريق أيسر ، إذ لم يغامر الأتراك بالهبوط إلى السهل . وفى بداية فبراير وصل الصليبيون إلى أضاليا حيث كان حاكمها البيزنطى إيطاليا يدعى لاندولف. وبناء على اوامر الامبراطور بذل ما أمكنه فى التخفيف عن الغربيين . غير ان أضاليا ليست بالمدينة الكبيرة التي تتوفر فيها موارد الطعام الضخمة ، وانما كانت فى موقع سيئ فى الريف وقد انتهبها الأتراك مؤخرا. وآنذاك تقلصت تخزينات الشتاء ، بعد أن أخذ الحجاج الألمان الجزء المخصص للتخزين ، فلا عجب من قلة المتاح من المؤن وارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيرا . على أنه فى نظر الفرنسيين الغاضبين المحبطين ، كان كل ذلك بمثابة دليل آخر على الخيانة البيزنطية . والآن قرر الملك لويس أن تتواصل الرحلة بحرا ، وتفاوض مع لاندولف للحصول على السفن . و لم يكن من اليسير فى ذلك الوقت من العام تجميع اسطول فى ميناء على الساحل الكارامانى الموحش . وأثناء الانشغال فى جمع السفن الناقلة ، هبط الأتراك وشنوا هجوما مفاجئا على معسكر الصليبيين . ومرة اخرى ألقى الفرنسيون باللائمة على البيزنطيين ، الذين ربما لم يبذلوا أى جهد للدفاع عن هؤلاء الضيوف الثقال الذين لولا وجودهم لما كانت هناك غارات تركية . وعندما وصلت السفن كانت من قلة العدد بحيث يتعذر نقل الجيش كله ، ولذا

(١٦) Ibid pp. 67-7, 71-2; William of Tyre, xvi, 25, pp. 747-9. وعن القصة التى لا أساس لها القائلة بأن الملكة إلينورا مسؤولة عن الكارثة ، أنظر Walker, 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain'in American Historical Review, vol. LV, pp. 857-61. وكان Odo of Deuil مسؤولا عن الكثير من الأعمال الطيبة فى تزويد الجيش بالطعام . وهو متواضع للغاية بحيث لم يذكر ذلك (William the Monk, Dialougus Apologeticus).

ملأها لويس بأهل بيته هو وبأكبر عدد يمكن أخذه من الفرسان ، وأبحر إلى ميناء السويدية الذى وصله يوم ١٩ مارس. ومداراة من الملك لضميره لتخليه عن جيشه ، ترك مع لاندولف خمسمائة مارك كى يقوم على رعاية المرضى والجرحى ، ويرسل الباقى بحرا - إذا أمكن - وترك كونت فلاندرز وكونت بوربون ليتوليا مسؤولية الإشراف . وفى اليوم التالى لرحيل الملك اندفع الأتراك هابطين إلى السهل وهاجموا المعسكر . واستحال دحرهم دحرا فعالا نظرا لعدم كفاية الفرسان ؛ ولذا حصل الصليبيون على إذن باللجوء إلى داخل الأسوار ، حيث عولجوا علاجا جيدا وحصل المرضى منهم على الرعاية الطبية ؛ وضاعف لاندولف من نشاطه لجمع المزيد من السفن. ومرة اخرى لم يجد ما يكفى من السفن للحملة كلها، ولذا حذا ثييرى كونت فلاندرز، وأرشيمبالد كونت بوربون، حذو مليكهما وركبا السفن مع أصدقائهما وباقى الفرسان، تاركين المشاة والحجاج لمواصلة طريقهم برا بقدر استطاعتهم(١٧). وأعد لاندورف معسكرا خارج المدينة لمن تبقى من الجيش، لكن الجنود التعساء الذين هجرهم قادتهم رفضوا الإقامة على الساحل خوفا من تعرضهم لهجمات رماة الأتراك، وبدلا من ذلك انطلقوا مرة أخرى يشقون طريق العذاب إلى كيليكيا، ووراءهم من تبقى من مشاة كونراد الألمان يجرون اقدامهم، والجميع على حالهم من الجهل وعدم الانضباط والريبة فى مرشديهم، والمضايقات تتواصل من جانب الأتراك المقتنعين كذلك بأن البيزنطيين متحالفين معهم. وفى أواخر الربيع وصل أقل من نصفهم إلى انطاكية(١٨).

١١٤٧ - ١١٤٨م : السياسة البيزنطية أثناء الحملة الصليبية

فى إحدى الرسائل الكثيرة المرسلة من الملك لويس إلى الراهب سوجر - وموضوعها جميعا لا يتغير وهو طلب المزيد من المال - نسب الملك ما نزل بالصليبيين من كوارث فى الأناضول إلى "خيانة الامبراطور وأخطائنا أيضا". ودأب المؤرخ الفرنسى الرسمي للحملة الصليبية - أودو اوف دويل Odo of Deuil - على مهاجمة الامبراطور مانويل بصورة دائمة وبحمية زائدة وردد صداه المؤرخون الغربيون حتى يومنا

---

(١٧) Odo of Deuil, pp. 73-6 يحاول محاولات مربكة التمويه على تخلى الملك عن الجيش William of Tyre, xvi, 26, pp. 749-51

(١٨) Odo of Deuil, pp. 76-80 .

هذا ، باستثناءات قليلة[١٩] ، وتسببت النكبات التى منى بها الصليبيون فى تنغيص العلاقات بصورة شديدة بين العالم المسيحى الغربى والشرقى بحيث ينبغى فحص الاتهامات فحصا دقيقا . فيشكو أودو من أن البيزنطيين لم يقدموا ما يكفى من امدادات الغذاء التى تقاضوا عنها أسعارا فادحة ، ولم يقدموا ما يكفى من وسائل النقل، ولا ما يكفى من المرشدين ، والأسوأ من هذا كله أنهم تحالفوا مع الأتراك ضد رفاقهم المسيحيين . والاتهامات الأولى سخيفة . فلا توجد دولة فى القرون الوسطى - حتى وان كانت منظمة تنظيما جيدا كبيزنطة - تمتلك ما يكفى من مخزونات الطعام بالقدر الذى يمكّنها من امداد جيشين كبيرين بصورة غير عادية هبطا عليها دون دعوة وباخطار مسبق بفترة وجيزة ؛ وعندما يندر الطعام ترتفع الأسعار حتما . وأما محاولات الكثير من التجار وبعض المسؤولين الحكوميين خداع الغزاة ، فهذا أمر يقينى . فمثل هذا السلوك لم يكن قط ظاهرة نادرة فى التجارة ، ولاسيما فى العصور الوسطى وفى الشرق . وليس من المعقول أن يُتوقع من لاندولف إمداد العدد الكافى من السفن لجيش بكامله فى ميناء أضاليا الصغير فى منتصف الشتاء ؛ كما لا يمكن إلقاء اللوم على المرشدين - ونادرا ما يؤخذ بنصائحهم - إذا كان غائبا عنهم آخر ما قام به الأتراك من تدمير الجسور والآبار ، أو فى حالة هربهم إزاء التهديدات والأعمال العدوانية من جانب الرجال الذين يرشدونهم . ومسألة التحالف التركى أكثر حسامة ، على أنه ينبغى النظر اليها من وجهة نظر الامبراطور مانويل ، الذى لم يوجه الدعوة إلى الحملة الصليبية ولا كان راغبا فيها . وكان له أسبابه المعقولة لاستنكارها . ذلك أن الدبلوماسية البيزنطية آنذاك قد تعلمت جيدا كيف توقع الفتنة بين شتى الأمراء المسلمين ضد بعضهم البعض ومن ثمّ تعزل كلا منهم بدوره ؛ إذ من شأن حملة أُعد لها إعلام جيد كالحملة الصليبية أن توحد حتما جبهة الأعداء ضد العالم المسيحى . وفضلا عن ذلك ، ومن أجل الاستراتيجية البيزنطية ضد الاسلام ، كان من الضروري السيطرة على أنطاكية ؛ وقد فازت بيزنطة أخيرا بهذه السيطرة عندما أعلن الأمير ريموند عن خضوعه المذل فى القسطنطينية . ولابد حتما أن يغريه وصول حملة صليبية على رأسها ابنة اخته (اليانور) وزوجها (لويس السابع) بالتخلى عن تبعيته ؛ ولم يكن تصرف الصليبيين ، عندما كانوا ضيوفا فى أراضى الامبراطور ، هو السلوك الذى من شأنه أن يزيد من حب الامبراطور لهم ؛ فقد دأبوا على النهب ، وهاجموا شرطته ، وتجاهلوا

---

(١٩) Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, pp.495-6؛ وموقف Odo of Deuil الشامل مناهض لليونانيين بصورة هستيرية.

طلباته بأن يسلكوا طرقا معينة ، وجاهر الكثير من وجهائهم بضرورة الهجوم على القسطنطينية . وفى ضوء هذه الحقائق، تبدو معاملته لهم كريمة متجملة بالصبر ، وهذا ما تحقق منه بعض الصليبيين . غير أن الغربيين لم يفهموا و لم يغفروا معاهدته مع الأتراك، إذ كانت الاحتياجات العريضة للسياسة البيزنطية بعيدة عن إدراكهم ، ولقد اختاروا أن يتجاهلوا - رغم إدراكهم يقينا - الحقيقة التى مفادها أنه بينما كانوا يطلبون العون من الامبراطور ضد الكفرة كانت أراضيه هو نفسه خاضعة لهجوم حقود من قوة مسيحية اخرى ؛ ذلك أنه فى خريف عام ١١٤٧م احتل الملك روجر الصقلى جزيرة كورفو ومنها أرسل جيشا للإغارة على شبه الجزيرة اليونانية . وخرّبت طيبه (ثيبيس) ، واختطف الألوف من عمالها للمساعدة فى صناعة الحرير الوليدة فى باليرمو، وحتى كورينث نفسها - وهى القلعة الرئيسية فى شبه الجزيرة - استولوا عليها وجردوها من كنوزها . وعاد النورمانديون الصقليون محملين بالأسلاب إلى كورفو التى خططوا الاحتفاظ بها لتكون بمثابة تهديد دائم للامبراطورية وقبضة خانقة على البحر الأدرياتيكى . وانما كانت شدة الهجوم النورماندى هى التى دفعت مانويل إلى اتخاذ قراره بالانسحاب من قونية عام ١١٤٦م وقبول ما قدمه السلطان من عروض للسلام فى العام التالى . وإذا كان مانويل يوصم بأنه خائن للعالم المسيحى ، فيقينا تكون للملك روجر الصقلى الأسبقية عليه.

١١٤٧ - ١١٤٨م : دور الامبراطور

كان الجيش البيزنطى كبيرا ، لكن وجوده لم يكن مطلقا فى كل مكان وفي كل وقت . وكانت الحاجة تستلزم استخدام أفضل الجنود ضد روجر . ثم كانت هناك شائعات بوجود قلاقل فى السهول الروسية ، حدث أن أسفرت فى صيف عام ١١٤٨م عن غزو بولوفتسيانى للبلقان . ومع وجود الصليبيين على مقربة ، لم يستطع مانويل تعرية حدوده فى كيليكيا من الرجال ؛ إلى جانب أن مرور الصليبيين خلال الامبراطورية كان يعنى ضرورة زيادة الشرطة العسكرية زيادة كبيرة . وبكل تلك المشاغل ، لم يتمكن الامبراطور من توفير قوات حدودية كاملة لتغطية حدوده الطويلة فى الاناضول ، ففضّل هدنة تساعد رعاياه فى الاناضول على أن يعيشوا حياتهم متحررين من تهديد الغارات التركية . وقد تسبب الصليبيون فى تعريض هذه الهدنة للخطر ؛ إذ كان تقدم كونراد إلى دوريليوم بمثابة استفزاز مباشر للأتراك . أما لويس ،

فبرغم بقائه داخل الأراضى البيزنطية ، إلاّ أنه جاهر بإعلانه أنه عدو لجميع المسلمين ورفض طلب الامبراطور بالبقاء داخل المدى الذى تحرسه الحاميات البيزنطية . ومن المحتمل تماما أن يكون مانويل - وهو يواجه هذه المشكلة - قد أعد ترتيبا مع الأتراك تغاضى بمقتضاه عن الاغارة على اراضيه طالما انهم يهاجمون الصليبيين فقط ، وان الأتراك التزموا بالصفقة ، مما يولد انطباعا واضحا بأنهم كانوا فى حلف مع السكان المحليين الذين كان يستوى عندهم الصليبيون والأتراك فى سرقة قطعانهم ومخزونات طعامهم ، والذين كانوا فى تلك الظروف يفضلون الأتراك بطبيعة الحال[٢٠] على انه من المستحيل أن نصدق ما أكده أودو (اوف دويل) من أن السكان المحليين انضموا إلى جانب الأتراك في الهجوم على الصليبيين. فهو يوجه هذا الاتهام إلى سكان أضاليا بعد أن قال مباشرة إن الامبراطور عاقبهم فيما بعد لتعاطفهم مع الصليبيين[٢١].

إن المسؤولية الرئيسية عن الكوارث التى حلت بالصليبيين فى الأناضول ينبغى ان تقع على حماقاتهم هم أنفسهم . وكان الامبراطور حريا فى الواقع أن يفعل من أجلهم أكثر مما فعل ، وانما لا يكون ذلك إلاّ على حساب المخاطرة الجسيمة بامبراطوريته . بيد أن المسألة الحقيقية أعمق من ذلك . فهل كان الأفضل للعالم المسيحى أن تكون هناك حملات عرضية فخمة تأتى إلى الشرق ، يقودها خليط من المثاليين الحمقى والمغامرين الغلاظ ، لإنقاذ دويلة متقحّمة يتوقف وجودها على تشتت المسلمين ؟ أم أن تستمر بيزنطة التى ظلت طويلا حارسة للحدود الشرقية فى القيام بدورها دون أن يسبب لها الغرب الحرج ؟ لقد أظهرت قصة الحملة الصليبية الثانية بصورة حتى أوضح مما أظهرت الحملة الصليبية الأولى أن السياستين ليستا متفقتين . وعندما سقطت القسطنطينية نفسها وراح الأتراك يهدرون هدير الرعد على أبواب فيينا ، كان يمكن أن نفهم أي السياستين هى السياسة الصحيحة.

---

(٢٠) للاطلاع على مشاغل مانويل فى ذلك الوقت أنظر Chalandon ويكرر ميخائيل السورى الكثير من اتهامات الفرنج لليونانيين (III, p. 276) على أن المصادر الاسلامية ، مثل أبو شامة فى صفحة ٥٤ ، تقول إن مانويل كانت له قضية مشتركة مع الفرنج.

(٢١) Odo of Deuil, p. 79.

الفصل الثالث:

الإخفــاق التـــام

الإخفاق التام

"تَشَاوَروا مَشُورَةً فَتَبطُلُ"
(إِشَعْيَاءَ ٨ : ١٠)

فى ١٩ مارس ١١٤٨م وصلت أنطاكية أنباء نزول الملك لويس إلى البر فى ميناء السويدية ، فهبط إليها الأمير ريموند وأهل بيته كلهم للترحيب به ومرافقته إلى المدينة. ومضت الأيام الأولى فى حفول وسرور . وبذل الوجهاء من نبلاء انطاكية ما فى وسعهم لإدخال البهجة على ملكة فرنسا وعقيلات السيدات فى حاشيتها ؛ ونسى الزائرون المشاق التى مروا بها فى هذا الربيع السورى البهيج وسط مفاخر البلاط الأنطاكى . وما أن انتعشوا حتى بدأ ريموند يناقش القادة الفرنسيين خطط حملة ضد الكفرة ؛ إذ كانت الآمال العراض تداعب خيال ريموند بمجئ الحملة الصليبية . ولقد كان في وضع محفوف بالمخاطر ؛ إذ كان نور الدين يوطد سلطانه الآن على طول الحدود المسيحية من الرها إلى حماة ، وقد أمضى خريف عام ١١٤٧م ينتزع القلاع الفرنجية الواحدة تلو الأخرى شرق نهر العاصى ، وكان الكونت جوسلين منشغلا

للغاية في الحفاظ على كونتيته فى تل بشير . وفي حالـة هجوم إسلامي على انطاكيـة بأعداد كبيرة فإن القوة الوحيدة القادرة على مساعدة ريموند هى بيزنطة ، والأرجـح أن لا يصل جنود بيزنطة إلا بعد فوات الأوان ، وعلى أية حال سـوف تصر بيزنطـة علـى تشديد تبعية انطاكية . وقدم الجيش الفرنسى - رغم أن حوادث الرحلة قللت مـن قـوة المشاة - هذا التعزيز الهائل من الفرسـان بحيث يتمكـن فرنـج انطاكيـة مـن أخـذ زمـام الهجوم . ودأب ريموند على تحريض الملك على ضـرورة أن يضربـا معـا قلـب قـوة نـور الدين - مدينة حلب - وحث الكثير من الفرسـان الفرنسـيين علـى الإنضمـام إليـه فـى استطلاع مبدئى حتى أسوارها ، مما تسبب فى انتشار الذعر بين سكانها[١] .

١١٤٨م : لويس وإلينور فى أنطاكية

غير انه عندما حانت لحظة العمل تردد الملك لويس ، قائلا إن قسمه الصليبى يجبره على أن يذهب إلى القدس أولا قبل أن يبدأ فى أية حملة . غير أن العذر كان مجرد قنـاع يخفى وراءه عجزه عـن اتخـاذ قـرار . لقـد كـان أمـراء الشـرق الفرنجـى كلهـم يطلبـون مساعدته ؛ فالكونت جوسلين يعلق عليه الآمال فى استعادة الرها ، أليس سـقوطها هـو الذى حرك الحملة الصليبية كلها؟ وكان ريموند أمير طرابلس يطـالب بحق رابطـة أبنـاء الخؤولة، إذ كانت أمه أميرة فرنسية ، فسعى إلى مساعدته لاسـتعادة قلعـة بعريـن . ثـم حدث أن جاء إلى انطاكية فى شهر ابريـل بطريـق القـدس نفسـه ، مرسـلا مـن البـلاط الأعلى للملكة، يلتمس منه الإسراع جنوبا ، وليخبره بأن الملك كونراد موجـود بـالفعل فى الأراضى المقدسة[٢]. وفى نهاية الأمر كان هناك دافع شخصى محض هو الذى جعل الملك يستقر على رأى. ذلك أن الملكة إلينور كانت أذكى من زوجها للغاية ؛ وكـانت قد أدركت فى الحـال الحكمـة التـى ينطـوى عليهـا مخطـط ريمونـد ، علـى أن ترديدهـا لعواطفها البادية ومساندتها لخالها (ريموند) لم يكن لها من أثر سوى إثارة غـيرة زوجهـا لويس . وبدأت الألسن فى القيل والقال ، وكانت الملكة والأمير يشـاهدان معـا أغلـب الأوقات . ودارت الهمسات بأن افتتان ريموند يتجاوز اهتمام خال بابنـة اختـه . وشعر لويس بالخطر على شرفه ، فأعلن عن رحيلـة فـى الحـال ، فمـا كـان مـن الملكـة الا أن

---

(١) William of Tyre, XVI, 27, pp.751-3; William of Nangis, I, p. 44.

(٢) البطريق هـو Fulcher of Angoulême ، رئيس أسـاقفة صور الأسبق ، عينتـه ملسـيند عقـب وفاة William of Messines عام ١١٤٧م.

اعلنت عن بقائها فى انطاكية وعزمها على السعى للحصول على الطلاق من زوجها ؛ وردا على ذلك جر لويس زوجته بالقوة من قصر خالها وانطلق إلى القدس مع جنوده جميعا(٣).

وكان الملك كونراد قد هبط إلى البر فى عكا مع أهم أمرائه فى منتصف ابريل ولقى فى القدس استقبالا وديا ومشرفا من الملكة ملسيند وابنها(٤). وبعد ذلك بشهر استقبل الملك لويس بمظاهر تشريف مماثلة عند دخوله الأراضى المقدسة . ولم تشهد القدس قط مثل هذا الحشد الرائع من الفرسان والعقيلات(٥). غير انه قد غاب كثيرون بصورة ملحوظة . ذلك أن ريموند أمير أنطاكية تملكه الحنق مما أتاه لويس ، فنفض يديه من الحملة الصليبية برمتها . وعلى أية حال لم يكن بوسعه أن يترك إمارته وهى تعانى من الضغط الشديد من اجل بعض المغامرات فى الجنوب . كما لم يستطع الكونت جوسلين أن يترك تل بشير . وأما غيبة كونت طرابلس فتعزى إلى حادثة عائلية فاجعة. إذ كان من بين الصليبيين الذين أقسموا القسم فى فيزيلاى ، ألفونسو - جوردان ، كونت تولوز . وكان قد ركب البحر مع زوجته وأولاده من القسطنطينية وهبط فى عكابعد كونراد بأيام قليلة . وكان لوصوله مع كتيبة كبيرة أن أشعل حماس فرنج الشرق إذ كان بالنسبة لهم شخصية خيالية ، فهو ابن الصليبى القديم ريموند (اوف تولوز) وقد ولد فى الشرق على جبل الحجاج أثناء أن كان والده يحاصر طرابلس . بيد أن مجيئه كان إحراجا للكونت الذى يحكم طرابلس ، وهو حفيد برتراند، الإبن غير الشرعي للكونت ريموند. فإذا ما طالب ألفونسو - جوردان بطرابلس ، يصعب إنكار ذلك عليه ؛ ويبدو أنه أحب أن يذكر حقوقه . وفى طريقه شمالا من عكا إلى القدس ، توقف قليلا فى قيصرية . وهناك ، مات فجأة من الألم . وربما كان سبب موته مرض حاد مثل التهاب الزائدة الدودية ، إلا أن الجميع فكروا فى السم فورا ، وجاهر إبن الميت - برتراند - باتهام ابن عمه ريموند أمير طرابلس بتدبير قتله . واعتقد آخرون أن الملكة ملسيند هى التى ارتكبت الجرم عملا بوصية اختها المحبوبة - الكونتيسة هوديرنا - زوجة ريموند . ولم يثبت شئ من ذلك ؛ غير أن ريموند شعربالسخط من الإتهام

---

(٣) William of Tyre, *loc.cit.*، الذى يطلق على إلينور : المرأة "البلهاء" لكنه لا يفترض انها غير مخلصة. وقد أورد شكوك الملك John of Salisbury (*Historia Pontificalis*, p.53).

(٤) William of Tyre, XVI, 28, pp. 753-4; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp.88-9.

(٥) William of Tyre, XVI, 29, pp. 754.

فامتنع عن أى تعامل مع الحملة الصليبية[٦].

١١٤٨م : قرار الهجوم على دمشق

عندما وصل كل الصليبيين إلى فلسطين ، وجّهت الملكة ملسيند والملك بلدوين الدعوة اليهم لحضور تجمع كبير تقرر عقده فى عكا يوم ٢٤ يونية ١١٤٨م . وكان حشدا مؤثرا . فكان المضيفون الملك بلدوين ، والبطريق فولشر مع رئيسى أساقفة قيسارية والناصرة ، والسيدين الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى ، وأبرز أساقفة وبارونات المملكة . وجاء مع كونراد أخواه غير الشقيقين ، هنرى جاسوميرجوت أمير النمسا ، وأوتو (اوف فريسينجن) ؛ وابن أخيه فريدريك (اوف سوابيا) ، وويلف (اوف بافاريا) والكثير من الأمراء الأقل . وكان مع الملك لويس أخوه روبرت (اوف دروو) وخطيب ابنته هنرى (اوف شامبانى) ، وثييرى كونت فلاندرز ، وكذلك برتراند الصغير ، الإبن غير الشرعى لألفونسو - جوردان . ولا نعرف المسار الذى سارت فيه المناقشة ولا الذى تقدم بالاقتراح الأخير . وقرر الجمع ، بعد قليل من المعارضة ، تركيز كل قوته فى الهجوم على دمشق[٧].

ولقد كان القرار هو الحماقة عينها . فدمشق ستكون فى الواقع جائزة ثمينة ، واستيلاء الفرنج عليها سوف يقطع الصلة تماما بين مسلمى مصر وأفريقيا وبين اخوانهم فى الدين فى شمال سوريا والشرق . غير أنه من بين الدول الاسلامية جميعا كانت المملكة البورية الدمشقية هى وحدها التى كانت تتطلع إلى أن تبقى على علاقة صداقة مع الفرنج ؛ إذ أنها - كشأن ذوى البصيرة من الفرنج - كانت تعتبر عدوها الرئيسى هو نور الدين . والمصلحة الفرنجية تقضى بالحفاظ على صداقة دمشق إلى أن يتم سحق نور الدين ، وأن يظل الخلاف مفتوحا بين دمشق وحلب . ويعتبر الهجوم على الأولى أنجح وسيلة لأن يرتمى حكامها فى أحضان نورالدين ، كما أظهرت أحداث العام الفائت . لكن بارونات القدس كانوا يشتهون الأراضى الخصيبة التى تدين بالولاء لدمشق ، وكانوا يعانون مرارة الألم فى تذكرهم للخزى الذى أصابهم مؤخرا ، ولابد

---

(٦) William of Tyre, xvi, 28, p. 754d؛ ويفترض William of Nangis, i, p. 43 أن ملسيند متورطة فى القتل.

(٧) William of Tyre, xvii, i, pp. 758-9، الذى يورد قائمة بأبرز الحاضرين من رجال الدين والعلمانيين؛ Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, p.89; Suger, *Gesta Ludovici*, pp.403-4

أن مليكهم الشاب ذا المعنويات المرتفعة كان متلهفا علـى الثـأر. و لم تكـن حلـب تعني شيئا للصليبيين الزائرين ، وانما كانت دمشـق هـى المدينـة المبجلـة فـى الأسـفار المقدسـة والتى ستكون استعادتها من الكفرة بمثابة تمجيـد لـلرب وليـس هنـاك مـن جـدوى فـى توزيع الملامة فى اتخاذ هذا القرار ، غير أن المسؤولية الأكبر ينبغـى أن تقـع علـى عـاتق البارونات المحليين الذين كانوا يعرفون الوضع ، أكثر من وقوعهـا علـى عـاتق الوافديـن الجـدد الذيـن كانوا ينظرون إلى المسلمـين كلهـم نفس النظرة(٨).

وفى منتصف يولية ، انطلق الجيش المسيحى ، من الجليل خلال بانياس ، وهو أكبر جيش على الاطلاق يدفع بـه الفرنـج إلى ميـدان القتـال . وفـى يـوم السـبت ٢٤ يوليـة ضرب معسكره على حافة الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق . وفى بداية الأمر لم يـأخذ الأمير أنـر أنبـاء الحملـة الصليبيـة مـأخذا جـادا ، بعـد أن سمـع بخسـائرها الجسيمة فـى الأناضول ، وعلى أية حال فإنه لم يتوقع أن تجعل الحملـة مـن دمشـق هدفـا لهـا . لكنـه عندما اكتشف الحقيقة سارع باصدار الأوامر لحكام المقاطعات بارسال كـل مـن يمكـن الاستغناء عنه من الرجال؛ بينما هرع رسول إلى حلب طالبا المساعدة من نـور الديـن . وتوقف الفرنج أولا في الموضع المسمى منـاكل العسـاكر على بعـد حـوالى ثمانيـة أميـال جنوب دمشق التى كانت أسوارها وأبراجهـا البيضـاء تومـض مـن خـلال مـا تعـج بـه البساتين من أوراق كثيفة ؛ غير انهم سرعان ما تقدموا شمالا إلى قرية الميزة حيـث الميـاه الوفيرة . وهنـاك حـاول الجيش الدمشقي وقف تقدمهم لكنه أجبر على الانسـحاب وراء الأسـورا . وابتهـج زعمـاء الصليبيـين بانتصـارهم ، فأرسـلوا جيـش القـدس إلى داخـل البساتين لتطهيرها من مقاتلى حرب العصابات ؛ وما أن حل عصـر اليـوم حتـى كـانت البساتين الواقعة جنوب المدينة فى قبضة الفرنج الذين راحوا يغرزون متـاريس الحسـائك الخشبية من الأشجار التـى كـانوا يقطعونهـا . وبعـد ذلـك ، وبفضـل شـجاعة كونـراد شخصيا، شقوا طريقهم إلى قرية الربوة الواقعة على نهر بردى أسفل أسوار المدينة تماما. وظن مواطنو دمشق الآن أن كل شئ قد ضاع وبدأوا فى وضع المتاريس والحواجـز فـى الشـوارع إيذانـا بـالصراع الأخـير اليـائس . لكـن المـد تحـول فـى اليـوم التـالى ؛ إذ أن التعزيزات التى طلبها أنر بدأت تتدفق إلى داخـل المدينـة مـن خـلال البوابـات الشـمالية للمدينة ، وبمساعدتها شن هجوما مضادا دحر المسـيحيين بعيـدا عـن الأسـوار . وأثنـاء اليوميين التاليين كرر الهجمات ، بينما زاد توغل رجال حرب العصابات داخل الحدائـق

(٨) William of Tyre, *loc. cit.*.

والبساتين . وكانت عملياتهم من الخطورة البالغة للمعسكر بحيث اجتمع كونراد وبلدوين وقررا إخلاء البساتين جنوب المدينة والانتقال إلى الشرق وضرب المعسكر فى بقعة لا يجد فيها العدو مثل هذه التغطيـة . وفى يوم ٢٧ يولية تحرك الجيش كله إلى السهل خارج الأسوار الشرقية . ولقد كان القرار بمثابة كارثة ؛ إذ كان الموقع الجديد يفتقر إلى المياه ويواجه أقوى قسم فى الأسوار ؛ وتستطيع الآن فرق الهجوم الدمشقية أن تتحرك بحرية أكبر فى أنحاء البساتين . وفى واقع الأمر ، اعتقد الكثير من جنود الفرنج أن البارونات الفلسطينيين الذين نصحوا الملكين ، لابد وأنهم تلقوا الرشاوى من أونر لقاء نصيحتهم . ذلك أن انتقالهم أضاع آخر فرصة للإستيلاء على دمشق . وكان جنود أونر يتزايدون فى أعدادهم ، وكان يعلم أن نور الدين فى طريقه جنوبا ، فراح يجدد هجماته على المخيم الفرنجى . وبات الجيش الصليبى - وليس المدينة المحاصَرة - هو الذى يحارب حربا دفاعية[٩].

١١٤٨م : مشاجرات فى المعسكر المسيحى

فى الوقت الذى ترددت فيه الهمهمات عن الخيانة فى أنحاء الجيش المسيحى ، اختلف قواده جهارا حول مستقبل دمشق بعدما يحتلونها . فتوقع بارونات مملكة القدس إدماجها اقطاعية فى المملكة ، واتفقوا على تعيين جوى بريسبار - لورد بيروت - لوردا لها ، ويبدو أن الملكة ملسيند وكونستابل مناس قد وافقا على هذا الترشيح . غير أن تيرى (اوف فلاندرز) كان يشتهى دمشق التى كان يرغب فى الاحتفاظ بها اقطاعية شبه مستقلة على غرار طرابلس . وفاز بتأييد كونراد ولويس والملك بلدوين الذى كانت اخته غير الشقيقة زوجة تيرى . ولمّا علم البارونات المحليون بتأييد الملوك لثيرى توانى نشاطهم ؛ وزاد مؤيدوا من كانوا دائما يعارضون الهجوم على دمشق ، وربما كانوا على صلة خفية بأونر ، إذ كانت هناك همسات حول مبالغ طائلة من الأموال المدفوعة المزيفة - وهذا صحيح - التى عثر عليها أثناء مرورها بين دمشق وبين بلاط القدس وأمير الجليل (إليناند). وربما قال لهم أونر إنهم إذا انسحبوا فى الحال فسوف يتخلى عن تحالفه مع نور الدين . وسواء استغل أونر هذا الجدل استغلالا محددا أم لا ، فلاشك فى أنه كان له أثره على نبلاء المملكة . وكان نور الدين قد وصل

---

(٩) William of Tyre, XVII, 2-5, pp. 760-7; Ibn al-Qalanisi, pp 282-6; Abu Shama, pp. 55-9, Usama,ed. Hitti, p 124.

بالفعل إلى حمص وراح يتفاوض على شروط مساعدته لأونُر ؛ فطلب ضرورة السماح لجنوده بالدخول إلى دمشق ؛ وكان أونر يناور كسبا للوقت ؛ إذ كان الجيش الفرنجى فى وضع صعب أمام دمشق ، ولا يتوقع وصول تعزيزات ، بينما يستطيع رجال نور الدين أن يكونوا فى ساحة القتال فى غضون أيام قليلة. وفى حالة مجيئهم ، فلن تجتث شأفة القوة الصليبية عن آخرها وحسب ، وإنما سوف تكون دمشق فى قبضة نور الدين يقينا(١٠).

والآن اقتنع بارونات فلسطين كلهم - بعد فوات الأوان - بحماقة مواصلة الحرب ضد دمشق ؛ وراحوا يضغطون برأيهم على الملك كونراد والملك لويس . وأصيب العاهلان الغربيان بالصدمة ؛ وليس باستطاعتهما المضى فى الجدل السياسى الخبيث ، لكنهما كانا يعلمان أنهما لا حيلة لهما بدون مساعدة الفرنج المحليين . واشتكى الملكان علانية من عدم الطاعة التى وجداها بين الفرنج المحليين وافتقارهم إلى الحماس للقضية . لكنهما أصدرا الأمر بالانسحاب(١١).

وفى فجر يوم الأربعاء ٢٨ يولية ، أى فى اليوم الخامس لوصول الصليبيين أمام دمشق ، هدم الجيش المعسكر وبدأ طريق العودة باتجاه الجليل . ورغم أن أموال أونُر ربما كانت ثمن انسحابهم فإنه لم يدعهم يرحلون فى سلام . إذ أن فرسان التركمان الخفاف تعلقوا بجناحيهم ومؤخرتهم طوال اليوم كله والأيام القليلة التالية ، وهم يمطرون حشودهم بسهامهم ، وتحول الطريق إلى فراش لجثث الرجال والخيول ، تسببت عفونتها فى تلوث السهل طوال أشهر كثيرة تالية . وفى أوائل أغسطس عادت تلك الحملة العظيمة إلى فلسطين وعاد الجنود المحليون إلى منازلهم . وكانت كل إنجازاتها أنها فقدت العديد من رجالها والكثير من موادها وعانت من خزى مرعب . إن ما أتاه هذا الجيش الجرار بتخليه عن هدفه بعد مجرد أربعة أيام يعد بمثابة لطمة مريرة للكبرياء المسيحى.

---

(١٠) William of Tyre, XVII, 6, pp. 767-8. Rey, 'Les Seigneurs de Barut', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV, pp. 14-15، ويحدد Rey البارون المرشح على أنه Guy of Beirut ، وذلك من *Assisse*, II,p.458. ويورد ميخائيل السورى (III,p.276) شائعة الأموال التى دفعت للملك بلدوين وإيليناند ، والتى قبلاها خشية من طموحات كونراد. ويقول Bar Hebraeus (trans Budge, p.274) إنه لم يجد القصة لدى أى كاتب عربى . ويقول ابن القلانيسى فى صفحة (٢٦٤) إن الفرنج شعروا بالخطر من اقتراب الجيوش الإسلامية . ويقول ابن الأثير (pp. 469-70) إن أونور بالقطع حذر الفرنج المحليين من تلك الجيوش وبذر الخلاف بينهم وبين ملك ألمانيا.

(١١) William of Tyre, XVII,7,pp.768-70. وتدرج الترجمة الفرنسية هجوما على (البولانى) أى الفرنج الذين نشأوا فى الشرق . ويلقى كونراد باللوم على البارونات المحليين . انظر letter in *Wibaldi*. *Epistolae*, pp. 225-6

وتحطمت تماما أسطورة فرسان الغرب الذين لا يُقهرون ، التى أكسبت هيبتها إبان المغامرة العظيمة للحملة الصليبية الأولى . وعادت الحياة إلى معنويات العالم الإسلامى(١٢).

١١٤٨م : الملك كونراد يغادر فلسطين

لم يمكث الملك كونراد فى فلسطين بعد عودته من دمشق ؛ وإنما اصطحب حاشيته يوم ٨ سبتمبر وركب سفينة متجهة إلى ثيسالونيكا . وبوصوله اليها تلقى دعوة ملحّة من الامبراطور مانويل لتمضية أعياد الميلاد فى بلاطه الامبراطورى . والآن ساد الوفاق التام بين العاهلين . واستمر ابن اخيه الصغير فريدريك فى ضغينته للبيزنطيين وتوجيه اللوم اليهم عن الخسائر الألمانية في الأناضول ، ورغم ذلك لم يفكر كونراد إلا في تحالفه النفيس مع الامبراطور ضد روجر الصقلى ، وبات أسيرا لجاذبية مانويل الشخصية وضيافته البهيجة . وأثناء زيارته تمت مراسم زواج أخيه هنرى كونت النمسا من ابنة أخى مانويل ثيودورا بأعظم مظاهر الأبهة . وبكى البيزنطيون في ذهولهم لرؤيتهم أميرتهم الشابة المحبوبة تذهب ضحية لهذا المصير البربرى - وكما كتب أحد شعراء البلاط مواسيا أمها: "راحت قربانا لوحش الغرب" . غير أن الزفاف كان علامة على المصالحة التامة بين البلاطين الألمانى والبيزنطى . وغادر كونراد القسطنطينية فى فبراير ١١٤٩م عائدا إلى ألمانيا ، وحاملا معه تحالفا بينه وبين مانويل ضد روجر الصقلى ، يقضي بتقسيم أراضيه الواقعة على شبه الجزيرة الإيطالية(١٣).

وفى الوقت الذى كان فيه كونراد يستمتع بما تقدمه القسطنطينية من أسباب الراحة ، لبث الملك لويس متريثا فى فلسطين وكتب له الراهب سوجر المرة تلو الأخرى راجيا منه العودة إلى فرنسا، لكنه لم يكن قادرا على حسم أمره . إذ كان بلا شك راغبا فى تمضية عيد من أعياد الفصح فى القدس . وكان يعلم أن عودته سيعقبها طلاق وما يترتب عليه من كافة المترتبات السياسية . فسعى إلى تأجيل اليوم الشؤم .

---

(١٢) William of Tyre, *loc. cit.;* Ibn al-Qalanisi, pp. 286-7.

(١٣) William of Tyre, XVII, 8, pp. 770-1; Cinnamus, pp. 87-8; *Annales Palidense,* p. 83; Otto of Saint Blaise, p. 305; Otto of Freisingeg, *Gesta Friderici,* p. 96. وترد قصيدة من الشعر قالها Prodromus على شرف زواج ثيودورا فى *R.H.C.G.* II, P. 772 ؛ لكنه يشير اليها قصيدة مرسلة لأمها على أنها راحت ضحية "لوحش من الغرب. *Ibid.* p 768 "

وفى الوقت ذاته ، وبينما حدد كونراد صداقتـه مـع بيزنطـة ، كـان لويـس يـزداد مقتـا للإمبراطور كلما خطر بذهنه، وغير سياسته وسـعى إلى التحـالف مـع روجـر الصقلى. وكان خلافه مع ريموند أمير انطاكية بمثابة تنحيه أهم عقبة فى طريق هذا التحالف الذى سوف سيزيد الشحناء مع بيزنطة . وأخيرا غادر لويس فلسطين فـى أوائـل صيـف عـام ١١٤٩م فى سفينة قبرصية سرعان ما انضمت إلى أسطول صقلى يبحر فى المياه الشرقية من البحر المتوسط . وكانت الحرب الصقلية ضد بيزنطة ما تـزال دائـرة ؛ وبينمـا كـان الأسطول يدور حول بيلوبونيز[١٤] هاجمته سفن البحرية البيزنطية . فسارع الملك لويس باصدار الأوامر برفع العلم الفرنسى على سفينته ، وبذا سُمح له بمواصلـة الابحـار ؛ غـير أن سفينة اخرى تحمل الكثير من اتباعه وممتلكاتـه وقعـت فـى أيـدى البـيزنطيين الذيـن أخذوها إلى القسطنطينية غنيمة حرب . ومرت أشهر كثـيرة قبـل أن يوافـق الامـبراطور على إعادة الرجال والمتاع إلى فرنسا[١٥].

وهبط لويس إلى البر فى كلابريا فى نهاية يولية ، واستقبله الملك روجر فى بوتنزا. وعلى الفور اقترح الملك الصقلى شن حملة صليبية جديـدة يكـون هدفهـا الأول الانتقـام من بيزنطة . ووافق لويس ومستشاروه بسهولة ، وواصل رحلته إلى فرنسا وهو ما يفتـأ يخبر كل شخص فى طريقه بما لقيه من غدر البيزنطيين وضرورة معاقبتهم . وكان البابـا إيوجينيوس - الذى قابله لويس فى تيفولى - فاتر الحماس ، غـير أن الكثـير مـن أعـوان البابوية رحبوا بالمخطط . وبدأ الكاردينال ثيودوين فى البحث عن مبشرين لتشجيعها ، فمنحه بطرس المبجل مؤازرته . وعندما وصل لويس إلى فرنسا حـرض الراهـب سـوجر على الموافقة . والأهم من كل ذلك أن القديس برنارد أصابته الحيرة من تصاريف العناية الإلهية التى قضت مشيئتها بانتهاء حملته العظيمة مثل هذه النهاية المؤسفة ، فقبل متلهفـا اعتبار بيزنطة مصدرا لكل ما لحق بالحملة الصليبية من كوارث ، وأطلق طاقاتـه جميعهـا فى استنزال الثأر من السماء على الامبراطورية الآثمة . بيد أنه لكى تنجـح الحركـة لابـد لها من الاستعانة بمساعدة الملك كونراد الألمانى ؛ وكونراد الألمانى لن يتعـاون معهـا، إذ أنه كان يرى بوضوح شديد أصابع عدوه روجر ، ولم يجد سببا فى التخلـى عـن تحالفـه

---

(١٤) (المترجم): بيلوبونيز Peloponnese, Peloponnesus or Peloponnesos: شـبه جزيرة تكـون الجزء الجنوبى من اليونان حاليا.

(١٥) Cinnamus, p.87, letter of Suger (*Sugeri Opera*, ed. de la Marche, pp. 258-60); William of Nangis, I, p. 46. وقد احتجز البيزنطيون السفينة التى تقل الملكـة إلينـور لفـترة (John of Salisbury, *Historia Pontificalis*, p. 61)

مع مانويل لكى يزيد روجر قوة على قوة . وجاءته المناشدات من الكاردينـال ثيودوين ومن بطرس المبجل ولكن بلا جدوى ؛ وتوسل إليه القديس برنارد نفسه وأطلق الرعـود فى وجه ، بلا طائل كذلك ؛ إذ كانت المرة الأخيرة التى أخذ فيها كونراد بنصيحة القديس هى نصيحة الحملة الصليبية الثانية . ولن يسمح لنفسه بأن يقـع فـى الفخ مرة اخرى . وبرفض الملك كونراد تقديم المسـاعدة ، لم يكـن هنـاك مفـر مـن التخلـى عـن المخطط. وهكذا تأجلت الخيانة العظمى للعالم المسيحى التى نفثها القديس برنارد إلى ما بعد نصف قرن آخر.

١١٤٩م : برتراند التولوزى

ولم يمكث فى الشرق سوى أمير واحد من أمراء الحملة الصليبية الثانية ؛ ولم تكـن اقامته هناك من اختياره . ذلك أن برتراند التولوزى ، وهو ابـن الكونـت ألفونسـو مـن الزنا ، لم يتحمل رؤية ميراث طرابلس الكبير فى حوزة ابـن عمـه الـذى يرتـاب في أنـه قاتل أبيه . فلبث فى فلسطين إلى أن غادرها الملك لويس ، ثم سار شمـالا برجالـه أبنـاء لانجدوق (فى جنوب فرنسا) كما لو كان ينوى ركوب البحر من ميناء شمالى سـوري. وبعد أن عبر السهل الذى ينفتح فيه وادى البقاع باتجـاه البحـر تحـول فجـأة إلى داخـل البلاد واحتل قلعة العريمة، ومن هناك تحدى الجنود الذين أرسـلهم الكونـت ريمونـد مـن طرابلس لإقتلاعه . وكانت القلعة فى موقع مرتفع جيد كما لو كان وكـرا للنسـر ؛ إذ أنها تسيطر على الطرق الموصلة من طرابلس إلى طرطوس ومن طرابلس إلى داخل البلاد أعلا البقاع . ولم يجد الكونت ريموند من يتعاطف معه بين الأمراء من رفاقه المسيحيين، ولذا أرسل إلى دمشق طالبا المساعدة من أونُر الذي استجاب بسرور ودعـا نـور الديـن للانضمام إليه ؛ وبذا أظهر استعداده للتعاون مع نور الدين ضد المسيحيين دون الإضرار بمحاولته الحفاظ على علاقات طيبة مع مملكة القدس . وفى واقع الأمر فإنه بذلك يرضى الملكة مليسند بمساعدة زوج أختها . وقد هبط الأمـيران المسـلمان علـى العريمـة التـى لم تستطع الصمود طويلا أمام هذا الحشد الكبير . ونهب المسـلمون الظـافرون القلعـة عـن آخرها ثم دمروها تدميرا وتركوها للكونت ريموند ليحتلهـا مـرة اخـرى وانسـحبوا وفي أثرهم صف طويل من الأسرى . وكـان برترانـد وأختـه مـن نصيـب نـور الديـن الـذى أخذهما إلى حلب حيث أمضيا اثنى عشر عاما فى الأسر[١٦].

---

(١٦) Ibn al-Qalanisi, pp. 287-8, Ibn al-Athır, pp. 470-1, and *Atabegs*, p. 162; Kemal ad-

ولقد كانت خاتمة ملائمة للحملة الصليبية الثانية ، أن يقع آخر صليبى فيها أسيرا لدى المسلمين الحلفاء لرفيقة الأمير المسيحى الذى حاول أن يسلبه امارته . وليست هناك مغامرة فى العصر الوسيط بدأت بآمال أكثر روعة منها . إذ أن الحملة الصليبية الثانية ، وقد خطط لها البابا ، وبشرت لها وأوحتها فصاحة القديس برنارد الذهبية ، وقادها العاهلان الرئيسيان فى أوروبا الغربية ، كانت واعدة بالكثير من أجل مجد وخلاص العالم المسيحى . على أنها عندما وصلت إلى نهايتها المخزية بانسحابها الكئيب من دمشق ، كان كل ما حققته من انجاز هو تنغيص العلاقة بين المسيحيين الغربيين والبيزنطيين حتى كادت أن تصل إلى مرحلة الصدام ، وزرع بذور الريبة بين الصليبيين من الوافدين الجدد والفرنج المقيمين فى الشرق ، والمباعدة بين الأمراء الفرنج الغربيين عن بعضهم البعض، والتقريب الأوثق بين المسلمين من بعضهم البعض ، وإلحاق أضرار مهلكة بما اشتهر به الفرنج من الإقدام العسكرى . وربما حاول الفرنسيون أن يلقوا لائمة الإخفاق التام على غيرهم ، على الامبراطور مانويل الخؤون ، أو على بارونات فلسطين فاترى الحماس ، وربما راح القديس برنارد يهدر رعوده ضد الأشرار ممن تدخلوا فى مشيئة الرب ؛ غير أن الحملة الصليبية فى واقع الأمر قد انتهت إلى لا شئ بسبب قادتها ، بضراوتهم وجهلهم وحماقتهم العقيمة.

Din, ed. Blochet, p 517 واستنادا الى التراث الفرنجى تزوجت أخت برتراند من نور الدين وأصبحت أم وريثه الصالح.(Robert of Torigny, II, p. 53)

الباب الرابع:

تحـول المـد

الفصل الأول:

الحياه فى الشرق الفرنجى
(أوتريميه)

الحياة فى الشرق الفرنجى
(أوتريميه)

"بل عملتم حسب أحكام الأمم الذين حولكم"

(حزقيال ١١ : ١٢)

فشلت الحملة الصليبية الثانية ، فكان فشلها نقطة تحول في قصة الشرق الفرنجي . وكان سقوط الرها بمثابة اكتمال المرحلة الأولى من البعث الإسلامي ، ثم انهارت الحملة العظيمة انهيارا يرثى له ، وهي الحملة التي كان يفترض لها أن تعيد السيادة الفرنجية ، وبذا جاء انهيارها تثبيتا لمكاسب الإسلام.

ومن أهم أسباب ذلك الفشل اختلاف العادات والتوقعات بين الفرنج المقيمين فى الشرق وأبناء عمومتهم فى الغرب . ذلك أن الصليبيين صُدموا بعد أن اكتشفوا وجود مجتمع فى فلسطين غيّر أفراده أسلوب حياتهم على مدى جيل واحد. كانوا يتحدثون لهجة فرنسية ، وكانوا أتباعا مخلصين للكنيسة اللاتينية ، وحكومتهم تتبع التقاليد التى نطلق عليها التقاليد الإقطاعية . على أن هذا التشابه المصطنع لم يكن له من أثر سوى أن زاد من حيرة الوافدين الجدد بسبب تلك الفروق.

ولو كان المستعمرون أكثر عددا لتمكنوا من الاستمرار بأساليبهم الغربية ، لكنهم كانوا أقلية ضئيلة في بلد كان مناخه وأسلوب حياته غريبين عنهم . وليس فى الامكان معرفة الأعداد الحقيقة إلا حدسا ؛ لكن يبدو أنـه لم يحدث فـى أى وقـت أن زاد عـدد البارونات والفرسان المقيمين إقامة دائمة فـى مملكة القدس عـن ألـف شـخص . وأما أقاربهم من غير المقاتلين ، من النساء والمسنين ، فلم يزيدوا كثيرا على ألـف أخرى . وكانت مواليد الأطفال كثيرة ، لكن القليل منهم يبقى على قيد الحياة . وبتعبير آخر ، وبخلاف رجال الدين الذين كان عددهم مئات قليلة ، وفرسـان النظـامين العسـكريين ، لم يكن هنـاك سـوى عـدد يـتراوح بـين ألفـين وثلاثـة آلاف شـخص مـن البـالغين فـى الطبقات العليا الفرنجيـة[1] . وربمـا كـان مجمـوع سـكان طبقـات الفروسـية فـى إمـارة أنطاكية وكونتيتى طرابلس والرها هو نفس العدد[2]، وبقيت تلك الطبقات نقيّة العـرق عموما. أما فـى الرهـا وانطاكيـة فكـانت هنـاك زيجـات مختلطـة مـع اليونـانيين المحليـين والأرستقراطية الأرمينية ؛ إذ تزوج كل من بلدوين الأول وبلدوين الثانى – عندما كـان كل منهما كونت الرها – من زوجة أرمينية من الطائفة الأرثوذوكسـية ، وقيـل لنـا إن بعض نبلائهم قد حذوا حذوهما . وكانت زوجة إبلين الأول وزوجة فاليران أمير البـيرة أرمينيتين من أتباع الكنيسة المنفصلة على أنه لم يكـن في الجنـوب أرسـتقراطية مسـيحية محلية ، وانما كان العنصر الشرقى الوحيد يتألف ممن تجرى فى عروقهم دماء أرمينيـة فـى العائلة المالكة وآل كورتناى ، وفيما بعد ذرية الملكة البيزنطيـة ماريـا كومنينـا – سـواء الذرية المالكة أو ذرية إبلين[3].

---

(١) وربما كان فى الجيش العظيم الذى هزم فـى حطـين ١٢٠٠ فـارس ، منهـم ٣٠٠ فـارس مـن فرسان المعبد، وربما مثلهـم مـن فرسـان المستشفى . وأما البارونـات والفرسـان العلمـانيين فـلا يمكن لعددهم أن يزيد على ٧٠٠ شخص ، ومع ذلك اشترك جميـع الفرسـان فـى المعركـة . ولم يتخلف فـى القـدس سـوى اثنين فقط. وكان هذا الجيش يشتمل على القليل من الفرسـان الآتين من طرابلس أو أنطاكية . وكان عدد معين من الفرسان قد غادر المملكة مع بلدوين (اوف إبلين) أنظر أدناه صفحتى ٤٥٤،٤٦٤ . وفى تقديـرات جـون (اوف إبلـين) أن المملكـة كـانت تسـتطيع فـى عهـد بلدويـن الرابـع اسـتدعاء ٥٧٧ فارسـا بخـلاف فرسـان النظـامين العسكريين ، و ٥٠٢٥ ضابطا من ضباط النظام.(Ibelin,pp. 422-7)

(٢) ليس فى الإمكان معرفة أرقام أنطاكية وطرابلس إلاّ حدسـا . وربما لم تكن الرها تشتمل على مايزيد على ١٠٠ أسرة مـن أسـر النبـلاء وفرسـان الفريـج . وربمـا كـانت كونتيـة طرابلـس تشتمل على ٢٠٠ أسرة وأنطاكية أكثر بكثير . وفى عـام ١١١١م ، يقـول Albert of Aix (XI, 40-1, pp. 182-3) إن تل بشير قدمت ١٠٠ فـارس والرهـا ٢٠٠ فـارس ، غير انه لابد وأن كان الكثير منهم من الأرمن.

(٣) أنظر أدناه ، شجرات الأنسـاب.
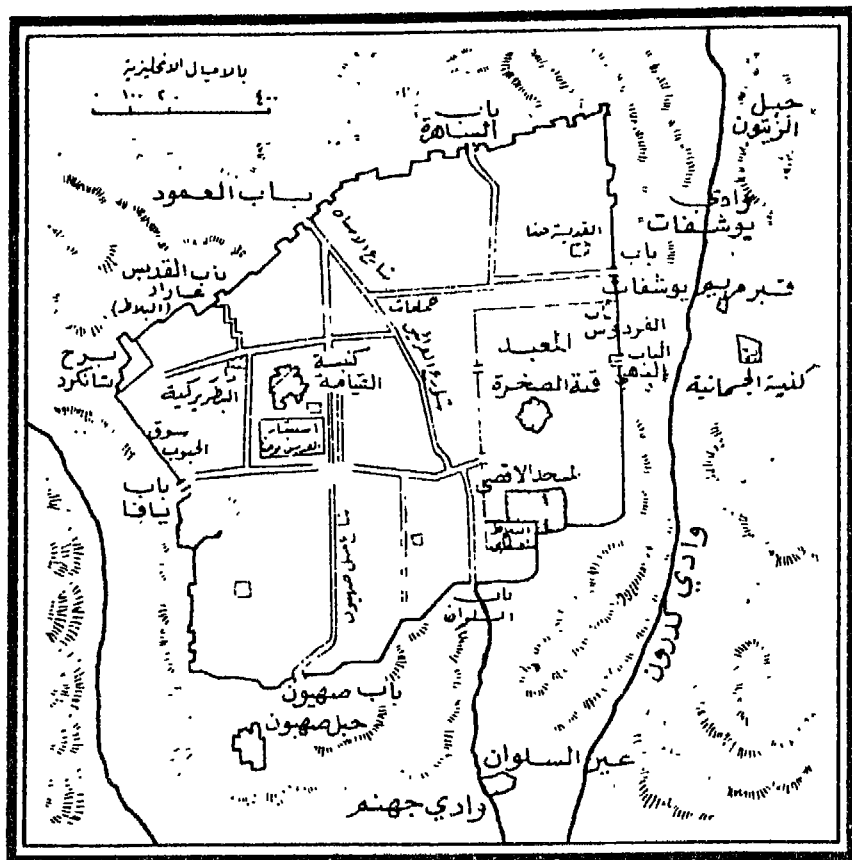
خريطة رقم (٤) بيت المقدس زمن ملوك اللاتين

أما طبقة "ضباط الصف" فكانت أكثر عددا ؛ وكان أفرادها أصلا بمثابة دعامة المشاة الفرنجية كاملة التسليح ، وقد استقروا فى اقطاعيات اللوردات . ولما كانوا بلا مفاخر أنساب يفاخرون بها ، كانوا يتزوجون من المسيحيات الوطنيات ؛ وبحلول عام ١١٥٠م بدأوا يشكلون طبقة من "المخلطين" التى برزت بالفعل مع المسيحيين الوطنيين. وفى عام ١١٨٠م كان عدد ضباط الصف يقدر بأكثر قليلا من ٥٠٠٠ شخص ؛ لكننا لا نستطيع أن نعرف النسبة المتبقية ممن تجري في عروقهم الدماء الفرنجية الخالصة . وربما كانت طبقة جنود المرتزقة "sodcers" تدعى هى الأخرى بأنها من نسل فرنجى . وأما طبقة "أنصاف الأتراك Turcopoles" التى نشأت محليا وتسلحت وتدربت على غرار الفرسان البيزنطيين الخفاف ، والتى أخذت إسمها منهم ، فكانت تتألف جزئيا من المسيحيين الوطنيين والمتحولين ، وجزئيا من أنصاف الطبقات ، وربما كان هناك فرق بين أنصاف الطبقات المتحدثين لغة آبائهم وبين المتحدثين لغة أمهاتهم . وربما كان "أقطاب الأتراك" ينحدرون من تلك الأخيرة(٤).

وكان المستوطنون كلهم تقريبا من أصل فرنسي فيما عدا المدن الكبيرة . وكانت لغة المخاطبة فى مملكة القدس وامارة انطاكية هى اللغة المألوفة لدى الفرنسيين الشماليين والنورمان والتى تدعى Langue d'oeil . وفى كونتية انطاكية بخلفيتها التولوزية ربما كانت تستخدم بادئ الأمر لغة البروفنسال القديمة Langue d'oc وقد اغتاظ الحاج الألمانى جون (اوف فورزبرج) ، الذى زار القدس حوالى عام ١١٧٥م ، لعدم وجود أى دور للألمان فى المجتمع الفرنجى برغم ادعائه أن جودفرى وبلدوين الأول كانا من أصل ألمانى . وابتهج عندما عثر أخيرا على منشأة دينية كل العاملين فيها على وجه الحصر من الألمان.

وكانت المدن تشتمل على مستعمرات إيطالية كثيرة . إذ كان البنادقة وأبناء جنوا يمتلكون شوارع فى القدس نفسها . وكانت هناك منشآت لأبناء جنوا – مضمونة بمعاهدة – فى كل من يافا وعكا والسويدية وانطاكية ، ومنشآت للبنادقة فى أكبر تلك المدن . وكان لأبناء بيزا مستعمرات فى صور وعكا وطرابلس واللاذقية . وكانت كلها كميونات تدار بالحكم الذاتى ، وكان مواطنوها يتكلمون الايطالية و لم يختلطوا اجتماعيا بجيرانهم . وكانت هناك على شاكلتها منشآت يملكها أبناء مرسيليا فى عكا

---

(٤) أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp 160-2; Munro, *The Kingdom of the Crusaers*, pp.106-7, 120-1.

ويافا وصور وجبيل ، ومنشآت يملكها أبناء برشلونة في صور . وباستثناء عكا ، كان عدد الأشخاص في كل من تلك المستعمرات لا يزيد على مئات قليلة(٥).

المسيحيون الوطنيون والمسلمون واليهود

كانت الأغلبية الساحقة من السكان تتألف من المسيحيين . وفي مملكة القدس كان هؤلاء المسيحيون من أصل مختلط ، أغلبهم يتحدث العربية ، وقد أطلق عليهم بلا اكتراث اسم المسيحيون العرب ، وكلهم تقريبا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . وفي كونتية طرابلس كان بعض السكان أعضاء في الطائفة المونوثيليتية (التي تؤمن بوحدة إرادة المسيح ذي الطبيعتين) والتي تسمى الطائفة المارونية . وفي المناطق الأبعد إلى الشمال كان السكان في أغلبهم من الوحديطبعيين Monophysites(٦) التابعين للكنيسة اليعقوبية ، غير أنه كانت هناك مستعمرات كبيرة جدا للأرمن ، وكل أفرادها تقريبا من أتباع الكنيسة الأرمينية المنفصلة ، وكان في أنطاكية واللاذقية وكيليكيا مجموعات كبيرة من الأرثوذكس المتحدثين باليونانية . وبالإضافة إلى ذلك ، كان في الأراضي المقدسة مستعمرات دينية من كل طائفة دينية . وكانت الأديرة أرثوذكسية أساسا وتتحدث اليونانية ؛ ووجدت كذلك منشآت جورجية أرثوذكسية ، كما كان في القدس خاصة مستعمرات للوحديطبعيين من الأقباط المصريين والاثيوبيين على السواء ، ومن اليعاقبة السيريان ، وجماعات لاتينية قليلة كانت قد استقرت هناك قبل الحملات الصليبية(٧) . وقد هاجرت جماعات إسلامية كثيرة بعد إنشاء المملكة المسيحية ، على

---

(٥) Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7، يشير الى أن الأنشطة التجارية للايطاليين خلال القرن الثاني عشر كانت تركز أساسا على مصر والقسطنطينية. وكانت الموانى الساحلية السورية أقل بكثير في أهميتها بالنسبة لهم.

(٦) (المترجم): أى القائلين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، بخلاف الطائفة القائلة بوجود طبيعتين له بشرية وإلهية

(٧) ليس هناك سوى أدلة قليلة على وجود مسيحيين وطنيين في فلسطين أثناء القرن الثاني عشر .نظر أدناه الصفحات ٣١٩-٢٣. و Rey, *Les Colonies Franques*, pp.75-94 عن الأقباط والأثيوبيين انظر Gerulli, *Etiopi in Palestina*, pp 8 ff

أن هناك قرى إسلامية كانت ما تزال موجودة حول نابلس[٨] ، وبقى سكان مقاطعات كثيرة على اسلامهم بعد أن احتلها الفرنج فى وقت لاحق . وفى شمال الجليل ، بطول الطريق من بانياس إلى عكا ، كان الفلاحون على وجه الحصر تقريبا مسلمين . وأبعد إلى الشمال ، فى البقاع وجبال النصيرية ووادى نهر العاصى، كانت هناك طوائف اسلامية هرطيقية تعترف بالحكم الفرنجى[٩]. وبطول الحدود الجنوبية وما وراء نهر الأردن كانت هناك قبائل رحّل بدوية . وأدت مذابح اليهود والتهديد بها إلى تقليص أعداد اليهود بدرجة كبيرة فى فلسطين وسوريا المسيحية . وشعر بنيامين تيوديلا بالأسى عندما زار البلاد لضآلة عدد مستعمراتهم[١٠] ، وكان عددهم فى دمشق وحدها أكثر من عددهم فى كل الدويلات المسيحية[١١] ، على أنهم فى وقت ما خلال القرن الثانى عشر اشتروا احتكار صناعة الصباغة من التاج ؛ وكانت صناعة الزجاج فى أيديهم بدرجة كبيرة[١٢] ، وكان فى نابلس طائفة سامرية[١٣] صغيرة تعيش هناك[١٤].

وكانت تلك المجتمعات المختلفة تشكل قاعدة الدويلات الفرنجية ؛ ولذا لم يكن الأسياد الفرنج يتسببون فى إزعاجهم ، إلا فيما ندر . وحيثما تمكن الوطنيون من اثبات ملكيتهم للأرض كان يسمح لهم بالاحتفاظ بها ؛ غير أن أصحاب الأرض فى فلسطين وطرابلس كانوا كلهم تقريبا من المسلمين، باستثناء الأراضى التى تملكها الكنائس المحلية، وقد هاجروا فرارا من الغزو الفرنجى تاركين أراض شاسعة تساعد الحكام الجدد على تثبيت أتباعهم من بنى جلدتهم . وبدا أنه لم تعد هناك قرى حرة باقية مثل تلك

---

(٨) تسبب المسلمون حول نابلس فى استشعار الخطر للفرنج بعد حطين (Abu Shama, p.302)؛ وعن المسلمين فى عكا وحولها انظر .Ibn Jubayr, ed. Wright, pp.8 ff.

(٩) أنظر .Cahen, *La Syrie du Nord,* pp. 170 ff ويشير Burchard of Mt Sion إلى شتى الطوائف الاسلامية فى شمال سوريا.(P.P.T.S. vol. XII, p. 18)

(١٠) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, pp. 26-47

(١١) *Ibid.* pp. 47-8.

(١٢) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, p. 35 (dye-monopoly at Jerusalem).وكان اليهود يصنعون الزجاج فى أنطاكية وصور.*Ibid.* pp.26-47 .

(١٣) (المترجم): نسبة إلى طائفة من اليهود توشك الآن على الانقراض، وترى أنها تنتسب إلى السامرة القديمة، ويسمون أنفسهم بنى إسرائيل (أو الشيميريم) أى "المراعين" لأنهم لا يعتدون كمرجع لهم إلا التوراة محصورة فى الأسفار الخمسة الأول من العهد القديم.

(١٤) *Ibid.* pp.33-4 واستنادا الى بنيامين (pp. 32-44) ، كانت هناك ألف أسرة ووجدت غيرها فى قيسارية وعسقلان.

التى كانت موجودة فى العهود البيزنطية المبكرة .وكان كل مجتمع من مجتمعات القرى مرتبطا بالأرض ويدفع حصة من انتاجها للسيد ؛ غير أن تلك الحصة لم تكن موحّـدة . ففى الجزء الأكبر من البلد ، حيث كان القرويون يتبعون نظام الزراعة المختلطة البسيط، ربما كان السيد يتوقع ما يكفى من الإنتاج لإطعام أهل بيته والتابعين لـه مـن "المخلطين وأنصاف الأتراك" الذين كانوا يعيشون فى جماعات حـول القلعة ؛ إذ لم يكـن الفـلاح المحلى مناسبا هو نفسه لأن يكون جنديا . وكانت الزراعـة تـدار فـى السـهول الخصيبة على أساس تجارى بصورة أكبر . فكان السيد يستغل البساتين وحدائـق الكروم، وقبـل كل ذلك مزارع قصب السكر ، وربما كان الفلاح يتقاضى ما يزيد قليلا عن قوته. ولم تكن هناك أعمال عبودية فيما عدا بيت السـيد ، رغـم أن أسـرى المسلمين ربمـا كـانوا يعملون مؤقتا فى أراضى الملك أو أراضى السيد الأعظم. وكـان التعـامل بـين القرويـين وسيدهم يجري عـن طريـق رئيسـهم ، وأحيانـا كـان يسـمى بالإسـم العربـى (الريـس) وأحيانا بالشكل اللاتينى ريجولوس regulus وكان السيد يستخدم إلى جانبه أحد مواطنيه علـى أنـه الترجمـان (dragoman) ، وهـو سـكرتير يتحـدث العربيـة بإمكانـه مسـك الدفاتر[١٥].

إقطاعيات المملكة

على الرغم من التغير الطفيف الذى حدث فى حياة الفلاحين ، أعيد تنظيـم مملكـة القدس تنظيما ظاهريا على غرار الإقطاعات التى نطلق عليهـا "إقطاعيـة". فكـان نطـاق السلطة المَلَكية يتألف من المدن الثلاث القدس وعكا ونابلس ، وفيما بعـد مدينـة دارون الحدودية وما حولها من أراض . وكان نطاقـا يشـغل جـزءا كبـيرا مـن المملكـة ، إذ أن الملوك الأوائـل ، وخاصـة الملكـة ملسـيند ، دأبـوا علـى الإسـراف فـى إهـداء الأراضـى لأصدقائهم وللكنيسة وللنظامين العسكريين الدينيين . وكانت هناك اجزاء اخرى تقتطع كبائنة للأرامل من الملكات . وكانت أهم الإقطاعيات الأربع للمملكة هى كونتيـة يافـا التى كانت تخصص عادة لأحد المتعلمين من البيت الملكى ؛ وإمارة الجليل ، التـى تديـن بإسمها الفخيم لطموح تنكريد ؛ وإقطاعيـة صيـدا السـيادية ؛ وإقطاعيـة مـا وراء الأردن

---

(١٥) أنظر Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades ed de l'Orient latin. II. Le régime rural syrien au temps de la domination franque', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7، حيـث يـرد فيهـا دراسـة نفيسة حـول هـذه المسـألة العويصة.

السيادية . ويبدو أن حائزى تلك الإقطاعيات كان عندهم موظفون كبار تقليدا لما كان عليه الملك . وهذا ما كان يفعله كذلك لورد قيسارية ، الـذى كـانت اقطاعيته بنفس الأهمية تقريبا ، رغم أن تصنيفها جاء مع الإقطاعيـات الإثنتى عشـرة الثانويـة . وبعد حكم بلدوين الثانى، كانت حيازة الأرض تقوم على أساس الحق الوراثـى بحيث تـؤول إلى الإناث في حالة عدم وجود وريث من الذكور . وليس فى الإمكان إخلاء المستأجر إلا بقرار من المحكمة العليا إذا ارتكب بعض الأعمال الشريرة. غير انه كان مدينا للملك أو لسيده الأعلى بعدد محدد من الجنود فى حالة طلبهم منه ، ويبـدو أنـه لم تكـن هنـاك فترة زمنية محددة لخدمتهم . وكان كل من كونت يافا ولورد صيدا وأمير الجليل مدينـا بمائـة فارس كاملى التسليح ، وأما لورد منطقة الأردن فكان مدينا بستين فارسا(١٦).

وقد اختلفت أحجام الإقطاعيات . فكـانت الإقطاعيـات العلمانيـة تتحـدد بـالغزو وكانت عبـارة عـن قطـع محـددة مـن الأرض . علـى أن ممتلكـات الكنيسـة والنظـامين العسكريين ، كانت آخذة في التضخم بسبب الهبات الخيرية ووصايـا التوريـث ، أو مـا يتلائم استراتيجيا فى حالة النظامين الدينيين العسكريين ، وقد تبعثرت تلـك الممتلكـات في أنحاء الدويلات الفرنجية . وكانت وحدة القياس التى تقاس بها الأراضى هى القرية ، أو الدار casal ، أو نادرا جدا نصف القرية أو ثلثهـا ؛ لكـن القـرى كـانت تختلـف فـى أحجامها كذلك . وفى شمال الجليل حول صفد ، يبـدو أن القـرى كـانت تشـتمل فـى المتوسط على مجرد أربعين من السـكان الذكـور ، لكننـا نسـمع عـن قـرى أكـبر حـول الناصرة ، وقرى أصغر حول صور حيث كان السكان عموما أكثر كثافة مع ذلك(١٧).

كما كان هناك لـوردات عـاديون يتحصلـون علـى اقطاعيـات نقديـة ، أى كـانوا يحصلون من مدن وقرى معينة على إيراد مالى ثابت لقاء التزامهم بتوفـير الجنـود بـأعداد متناسبة . وكانت تلك الإقطاعيات المالية وراثية ويكاد يسـتحيل أن يلغيهـا الملـك(١٨)، وانما كان يأمل - كما هى الحال فى إقطاعيات الأراضى - أن يموت صاحب الإقطاعيـة المالية دون أن يترك ورثة ، أو على الأقل يترك بنتا ترثه ، وفـى هـذه الحالـة يسـتطيع أن يختار لها زوجا أو أن يصر على أن تختار هى زوجا من ثلاثة رجال يرشحهم هو(١٩).

(١٦) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.138-65; Rey, *op.cit.* pp. 1-56, 109-64.

(١٧) Cahen, *op. cit.* pp. 291-8.

(١٨) La Monte, *op. cit. pp. 144-51.*

(١٩) يقـول Grandclaude, 'Liste d'Assises de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*, p 340 إن تـاريخ القـانون الـذى يسـمح للوريثـة باختيـار زوج مـن بـين ثلاثـة

وكانت المدن الملكية مجبرة على توفير الجنود بحسب ثرواتها . فكان على القدس توفير واحد وستين جنديا ، ونابلس خمسة وسبعين جنديا ، وعكا ثمانين جنديا . على أن الجنود لم يكونوا من الطبقة البورجوازية ، وانما من النبلاء المقيمين فى المدينة ، أو أصحاب المنازل فيها . وكان رجال الدين البارزون مدينين بالجنود كذلك في مقابل ضياع الأراضى التى فى حوزتهم أو ملكيتهم للمنازل . أما الطبقة البورجوازية فكانت تدفع للحكومة ضرائب مالية . وكانت الضرائب المنتظمة مفروضة على الموانى والصادرات ، وعلى المبيعات والمشتريات ، وعلى رسو السفن والحجاج ، وعلى استخدام الموازين والمقاييس . كما كانت ضريبة الأرض terraticum مفروضة على ممتلكات الطبقة البورجوازية ، ولا نعرف عنها سوى القليل . وبالإضافة إلى ذلك ، قد تدفع ضريبة خاصة لبعض الحملات . ففى عام ١١٦٦م كان على غير المقاتلين أن يدفعوا عشرة فى المائة من قيمة منقولاتهم ؛ وفى عام ١١٨٣م كانت هناك ضريبة رأسمالية مقدارها واحد فى المائة على الممتلكات والديون يدفعها جميع السكان ، مقترنة بنسبة اثنين فى المائة على إيرادات المنشآت الكنسية وممتلكات البارونات . وكان على كل فرد من الفلاحين أن يدفع ضريبة الرأس الشخصية لسيده إلى جانب ما تدفعه القرية على انتاجها ؛ وكان على الرعايا المسلمين دفع العُشر أو الدايْم dime (أى مبلغ ضئيل) يذهب إلى الكنيسة . ودأبت الهرميات اللاتينية على محاولة تمديد ضريبة الدايم هذه لتطبق على المسيحيين المنتمين إلى كنائس هرطيقية . لكن تلك الهرميات اللاتينية لم تفلح رغم أنها أجبرت الملك أماريك على رفض عرض من الأمير الأرمينى ثوروس الثانى بارسال مستعمرين إلى المقاطعات الفلسطينية الخالية من السكان لأن رجال الهرمية اللاتينية أصروا على أن يدفع هؤلاء المستعمرون الجدد الدايم[٢٠] . على أن المسلمين قد وجدوا فى هذا الدايم مستوى ضريبى عام أقل فى ظل الحكم الفرنجى عن مستواه فى ظل الحكام المسلمين المجاورين . كما أنهم – أى المسلمين – لم يُستبعدوا من الالتحاق بالوظائف الحكومية البسيطة ، إذ كان بامكانهم – والمسيحيين كذلك – الإلتحاق بوظائف مسؤولى الجمارك ومحصّلى الضرائب[٢١] .

يرشحهم الملك يرجع الى ما بعد عام ١١٧٧م . غير أن بلدوين الثالث عرض على كونستانس فى أنطاكية الإختيار من بين ثلاثة خطاب فى عام ١١٥٠م. ومع ذلك لا يستطيع الملك إجبارها على قبول أى منهم (انظر أدناه صفحة ٣٣١).

(٢٠) Cahen, *op. cit.* pp. 299-302. وأورد Ernoul, pp. 27-30 عرض ثوروس.

(٢١) Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 305.

الدستـــور

من المحال أن نذكر شيئا دقيقا عن دستور الدويلات الفرنجية لأنه لم يكن هناك دستور ثابت فى أى وقت . وعندما قدم القانونيون المتأخرون ما جمعوه من مثل "كتاب للملك Livre au Roi " أو "قوانين القدس Assisses de Jerusalem"، إنما كانوا يحاولون اكتشاف الحالات التى تسببت فيها القرارات المحددة فى تغيير العادات المقبولة ، وليس وضع قانون حكومى راسخ . وكانت هناك اختلافات محلية . إذ لم يكن أمير انطاكية أو كونت الرها أو كونت طرابس يصادف مشاكل من الأتباع سوى القليل . بينما كان ملك القدس فى وضع أضعف . فهو ممسوح الرب ، وزعيم الفرنج المقبول فى الشرق ، لا غريم له ، بعد أن وضع بلدوين حدا لطموحات البطريارقية . على أنه فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أميرا أنطاكية وطرابلس توريث سلطانهما بقواعد الاستخلاف الوراثى المقبولة ، كانت المَلَكية انتخابية ، وإن كان الشعور العام ربما يؤيد الحق الوراثى . ففى عام ١١٧٤م كان بلدوين الرابع مقبولا دون منازع ليخلف أباه، رغم انه كان فى الثالثة عشرة فقط من عمره فضلا عن اصابته بالجزام . على أن تثبيت الملك بالانتخاب كان ضروريا . وكان الناخبون أحيانا يضعون شروطهم ، كما حدث عندما أجبر أماريك الأول على تطليق زوجته آجنس قبل أن يسمحوا له بتتويجه. وعندما يكون الوريث الطبيعى امرأة تكون هناك تعقيدات أخرى ؛ إذ يتعين انتخاب زوجها كملك ؛ غير أن هذا الملك الزوج ربما اعتُبر أنه يستمد حقوقه من خلالها . وفى حالة الملكة ملسيند وابنها بلدوين الثالث ، لم يكن هناك أحد يعلم جيدا ما يكون عليه الوضع القانونى ؛ واتضحت المشكلة الدستورية برمتها بصورة فاجعة بعد موت بلدوين الخامس عام ١١٨٦م(٢٢).

المحكمة العليا

كان الملك هو قمة الهرم الاجتماعى ، لكنها قمة منخفضة . فباعتباره ممسوح الرب، كانت له مكانة ما ، ومن ثم فالإساءة إليه خيانة عظمى . وهو رئيس المحكمة العليا، والقائد الأعلى لقوات المملكة ،.وهو المسؤول عن الادارة المركزية ويعين المسؤولين فيها. وباعتباره السيد الأعلى لأتباعه ، يستطيع منعهم من التصرف فى

(٢٢) فى أماكن متفرقة من La Monte, *op. cit.* pp. 87-137 وانظر أعلاه ص ٢٧١ وأدناه ص ٣٨٦، ٥٠٢.

أراضيهم ، وبامكانه اختيار الأرواج للوريثات . ولأنه ليس له سيد أعلى فوقه ، يستطيع أن يهب الهبات كما يحلو له من ممتلكاته الخاصة ، رغم أنه عادة ما كان يُشرك زوجته وأولاده فى منح الهبة - كما كان يفعل تلاميذه عاما يتصرفون فى أراضيهم - خوفا من أن تثار لاحقا بعض الشكاوى حول مائة الأرملة أو ميراث الابن . غير أن السلطة الملكية كانت تنتهى عند هذا الحد . وكانت الايرادات الملكية مقيدة وتتناقص بسبب ما يهبه من هبات سخية . ولقد كان الملك دائما فى حاجة إلى المال . وكان على رأس المملكة ، لكنه تحت قانون المملكة الذى كانت المحكمة العليا تمثله . وتتألف المحكمة العليا من كبار مستأجرى الأرض فى المملكة، وهم اللوردات الذين يدينون بالولاء المباشر للتاج . وكان أبرز رجال الدين يحضرون بفضل حيازتهم للأراضى . أما المجتمعات الأجنبية التى تمتلك الأراضى فى المملكة ، مثل البنادقة وأبناء جنوا ، فكانوا يرسلون ممثلين عنهم . ومن الجائز دعوة كبار الزائرين للحضور ، رغم انهم لا يمثلون جزءا من المحكمة ولا يحق لهم التصويت[٢٣] .

والمحكمة العليا هى أساسا محكمة قانونية ، ومن ثم كان لها وظيفتان رئيسيتان . الأولى أن توضح الجانب القانونى المتصل بنقطة معينة . ومعنى ذلك أنها كانت تصدر تشريعات ؛ إذ كانت كل قاعدة assise من الناحية النظرية مجرد بيان للقانون ، لكنها كانت فى الواقع تحديدا لقانون جديد كذلك . وثانيا ، كانت تحاكم المذنبين من اعضائها وتنظر فى القضايا التى قد يرفعها بعضهم ضد بعض . وكانت المحاكمة عن طريق الأنداد ملمحا أساسيا فى التقاليد الفرنجية ؛ وكان مركز الملك هو الأول بين الأنداد primus inter pares من كبار مستأجرى الأرض، رئيسهم وليس سيدهم . والنظرية التى تؤسس ذلك الوضع هى أن المملكة لم يقهرها ملك ، وإنما مجموعة من الأنداد الذين انتخبوا مليكهم بعد ذلك . وهى النظرية التى تبرر للمحكمة أن تنتخب ملوكا على التعاقب ، وفى الحالة التى يكون الملك فيها دون سن الرشد أو في حالة وقوعه في الأسر ، تنتخب المحكمة وصيا أو مشرفا ملكيا bailli كما كانت المحكمة العليا تستشار فى أهم المسائل السياسية ، وكان ذلك تطورا محتما ، إذ لا يستطيع الملك بدون تعاون أتباعه تنفيذ سياسته إلا نادرا . وفى عام ١١٦٦م توسعت المحكمة العليا لتشمل أتباع الأتباع arrière-vassals ، كجزء من مخطط أمالريك الأول كى يجد مساندة للتاج ضد أتباعه الرئيسيين . وفى عام ١١٦٢م أجبر المحكمة على إصدار

---

(٢٣) *Ibid.* pp 87-104

قاعـدة assie تسمح لأتباع الأتباع بالاستئناف ضد أسيادهم أمام المحكمـة العليـا . وفى حالة رفض السيد الاستجابة للاستدعاء ، يستطيع كبار مستأجريه أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف التاج . ورغم أن هذا القانون قد زود الملك بسلاح نافع ضـد نبلائـه ، إلا أنه على المدى البعيد زاد من سلطة المحكمة العليا لا أكثر ، بـل وأمكـن استخدامه ضـد الملك . ويبدو أن المحكمة كانت تنظر فى القضايا بعناية وبما يمليه الضمير ، ورغم ذلـك كانت نتيجة المحاكمة عن طريق النزال مقبولة كدليل . و لم يكن لها مكان انعقاد محدد ، وانما يستطيع الملك استدعاءها فى اى مكان يراه ملائما . وفى عهد المملكة الأولى عـادة ماكانت تعقد فى القدس أو عكـا . وبـدأ النبـلاء المتلهفـون علـى حضورهـا ، يهملـون اقطاعياتهم ويتخذون لأنفسهم أماكن للإقامة فى أى من المدينتين(٢٤) . غـير أن قوتهـم كهيئة جماعية ضعفت بمشاحراتهم المتكررة والضغائن العائلية التـى تضخمـت وتعقـدت بمرور الزمن، وكانت أسر النبلاء كلها تقريبا مرتبطة بعلاقات زواج فيما بينها.

وبمقتضى مبدأ المحاكمة عن طريق الأنداد ، كان للمستوطنين الفرنج من غير النبلاء محـاكمهم البورجوازيـة الخاصـة بهـم cours des bourgeois . وكـانـت تلـك المحـاكم البورجوازية موجودة فى كل مدينة كبيرة ، ويرأسـها دائمـا فيكونـت المدينـة Viscount ولكل محكمة هيئة محلفين مـن اثنـى عشـر محلفـا يختـارهم السـيد مـن رعايـاه اللاتينيـين المولودين أحرارا ، وكانوا يعملون عمل القضاة ، رغم استطاعة أحد أطـراف الخصومـة اختيار احدهم ليكون محاميه ، وفى هذه الحالة لا يشترك هذا المحامى المحلـف فـى اصدار الحكم . كما كان يُطلب من المحلفين أن يشهدوا على أى عمل أو وثيقة فـى المحكمـة . وعلى خلاف الممارسة فى المحكمة العليا، كانت هناك سجلات دقيقة لكافة الإجـراءات القانونية . وكـانت المحـاكم البورجوازيـة تجتمـع بصفـة منتظمـة أيـام الاثنـين والأربعـاء والجمعة من كل أسبوع ، فيما عدا أيام الأعياد . وكانت تنظر فى الدعوى المرفوعة بين أحد النبلاء وأحد البورجوازيين . وكانت المحكمـة البورجوازيـة تقـر التحـاكم بـالنزال والتحاكم بالماء(٢٥).

وبادئ الأمر كان للمجتمعات الوطنية محاكمها الخاصة بهـا فـى القضايـا البسـيطة برئاسة الزعيم المحلى الذى يعينه الفيكونت ، حيث تطبق قوانينها العرفية . غـير انـه فـى

---

(٢٤) pp 106-13 *Ibid* ويذكر Usama أمثلة لمحاكمـات عـن طريـق النزال الفـردى ، والمـاء .ed Hitti, pp.167-9)

(٢٥) La Monte *po. cit.* pp 105-8

عهد الملك اماريك الأول أنشئت محكمة الدعوى Cour de la Fonde فى كل مدينة من المدن الثلاث والثلاثين التجارية الرئيسية . وكانت تنظر فى الشؤون التجارية وكافة الدعاوى الأخرى ، حتى الجنائية ، التى يتنازع فيها السكان الوطنيون . وكان يرأسها مشرف ملكى bailli ، يعينه السيد المحلى ، وتتألف من ستة محلفين اثنان من الفرنج وأربعة من الوطنيين . وكان المتخاصمون الوطنيون يقسمون القسم كل على كتابه المقدس ؛ ويستطيع المسلمون أن يقسموا على القرآن ؛ وقد أعجب الزائرون المسلمون بنزاهة الاجراءات القانونية . كما كانت محكمة الدعوى تسجل المبيعات والهبات من كافة الممتلكات فيما عدا العقارات وكانت بمثابة مكتب لجمع ضرائب المشتريات . وفى الامكان الاستئناف لدى المحكمة البورجوازية بنفس اجراءاتها . كما أنشأ أماريك محكمة السلسلة Cour de la Chaine فى جميع المدن البحرية ، للنظر فى القضايا المتعلقة بالملاحة ولكى تكون بمثابة مكان لتسجيل الرسوم الجمركية ورسوم رسو السفن . وكان محلفوها يختارون من التجار والبحارة . وبالاضافة إلى ذلك كان للمجتمعات التجارية الايطالية والبروفنسالية محاكمها الاستشارية الخاصة بها للنظر فى شؤونها الداخلية . وكان لكبار الاقطاعيين محاكمهم الخاصة بهم "محكمة البارونات" لتتناول النزاعات التى تنشأ بين أتباعهم من الفرسان . وكان هناك اثنتان وعشرون محكمة من تلك المحاكم وكذلك أربع محاكم لأملاك الملك . وكان لكل محكمة من تلك المحاكم الكثيرة مجالها المحدد بوضوح ؛ وحيثما تكون هناك دعوى تشتمل على خصمين من مرتبتين مختلفتين، كانت الدعوى تنظر فى المحكمة الملائمة لأدناهما(٢٦).

وبسبب مفهوم القانون فى العصور الوسطى الذى لم يكن يتطلب قوانين محددة ، إلا عندما تنشأ الحاجة إلى تحديد نقطة بعينها ، يبدو أن النشاط التشريعى للحكومة كان متعسفا ذا نزوات . ومن بين القوانين الواردة فى القرن الثالث عشر فى قواعد القدس Assise de Jèrusalem، الأرجح أن ستة قوانين يرجع تاريخها إلى عهد الدوق جودفرى ، وتسعة عشر قانونا آخرين من الفترة حتى عام ١١٨٧م ، ومنها أحد عشر قانونا يمكن تحديد تواريخها بالتقريب(٢٧).

---

(٢٦) pp.108-9*Ibid*

(٢٧) Grandclaude,*op.cit.*pp.322 ff.، يورد قائمة بالقواعد التى يمكن إرجاعها الى الفترة ١٠٩٩-١١٨٧م. ويحدد ستة قواعد لعهد جودفرى وإحدى عشرة قاعدة للملوك من بلدوين الأول الى بلدوين الرابع (رغم انه يظن أن إحدى تلك القواعد التى تقضى ببيع الاقطاعيات التى لا ورثة لها لدفع فدية الملك يرجع تاريخها الى ما بعد وقوع Guy فى الأسر فى حطين . ومع ذلك ، ربما تشير الى أسر بلدوين الثانى). كما توجد ست قواعد يتعذر

الإدارة

كان المسؤولون الرئيسيون في الأسر الكبيرة يباشرون الإدارة بعد أن يختارهم من كبار مستأجرى الأرض فى المملكة. وكان للقهرمان Seneshal الترتيب الأول فى الأسبقية فهو الذى يرأس الاحتفالات ، ومن ثم يحمل الصولجان أمام الملك فى حفل التتويج ، وهو رئيس الخدمة المدنية ، والمسؤول بصورة خاصة عن الخزانة (الأمانة Secrète) وهو الذى يشغل المركز الذى تدفع فيه الأموال المستحقة للتاج ، وتؤخذ منه الرواتب ، وهو الذى يحتفظ بسجلات لكافة التعاملات المالية التى تشترك فيها الحكومة. وكانت الأمانة Secrète عبارة عن مكتب واسع التنظيم أخذه الفرنج عن العرب الذين سبق أن أخذوه بدورهم عن البيزنطيين . ويأتى بعد القهرمان الياور أو الكونستابل Constable الذى كان ذا سلطة فعلية أقوى ، إذ كان رئيس الجيش – تحت الملك – والمسؤول عن كافة جوانب تنظيمه وإدارته . وفى حفل التتويج يحمل راية الملك ويمسك بلجام حصانه، وهما مهمتان زائدتان على مسؤولياته . وكان مسؤولا عن الإمدادات العسكرية والعدالة العسكرية . وكان المرتزقة الذين يستأجرهم الملك أو أحد النبلاء يخضعون لنطاق سلطته الخاصة ، ويستوثق من تسلمهم لرواتبهم على النحو الملائم . وفى حالة غياب الملك أو نائبه الملكى bailli عن الحملة تكون له كامل السيطرة عليها . وكان يساعده المارشال الذى كان بمثابة القائم مقامه فى كل شئ . وكان حاجب الملك Chamberlain مسؤولا عن أسرة الملك وأمواله الشخصية . وكان ينتفع بمركزه هذا، بالهدايا التي يغدقها عليه الأتباع الآتين للإعراب عن احتراماتهم للملك . وكانت هناك أراض معينة مخصصة لهذا المكتب ؛ على انه فى عام ١١٧٩م باعها حاجب الملك جون (اوف بيليزم) دون أن تكون هناك إساءة ظاهرة للملك . أما مهام كبير الخدم Butler فليست معروفة ، وربما كانت واجباته تقتصر على الاحتفالات . وكان المستشار Chancellor – كشأنه فى الغرب – رجل دين دائما، رغم أنه لم يكن قسيس الملك على نحو ما اعتاد عليه الغرب . وباعتباره رئيسا للديوان الملكى كانت مهمته صياغة كافة المواثيق وتسجيلها وختمها بالخاتم الملكى . وظل الديوان الملكى مكتب سجلات . ولمّا لم تكن هناك عدالة مَلكية ولا قانون عام ، فلم يُطلب منه البتّة أن يصدر أوامر رسمية أو أن ينشئ محكمة خاصة به ، ويبدو أن السجلات كانت محفوظة جيدا برغم بقاء القليل منها . وكانت لغة الديوان الملكى فى القرن الثانى عشر

ارجاعها الى تاريخ محدد.

هى اللاتينية ، وتحديد التواريخ بالسنة الميلادية والخمسعشرية الرومانية[٢٨]، وأحيانا إضافة السنة الملكية أو عدد السنوات المنصرمة منذ الاستيلاء على القدس. وتبدأ السنة فى عيد الميلاد. وكان الملوك يضعون لأنفسهم أرقاما ابتداء من بلدوين الأول بغض النظر عن أسمائهم . ولم يكن لقب الملك يأخذ صيغة محددة بادئ الأمر ، لكنه أصبح فى نهاية الأمر لقبا معياريا[٢٩] "ملك القدس اللاتينية المدنية المقدسة بفضل الرب" (per Dei gratiam in sancta civitate Jerusalem Latinorum Rex) .

وكان الفيكونت أهم المسؤولين المحليين ، إذ كان يمثل الملك فى المدن الملكية، وهو اللورد فى المدن البارونية . وكان يجمع الضرائب المحلية ويرسلها إلى الخزانة بعد أن يستبقى حاجته من مصروفات الحكومة المحلية، وكان مسؤولا عن المحاكم القانونية المحلية وعن حفظ النظام عموما فى مدينته . ويأتي اختياره من أسرة نبيلة لكن مركزه لم يكن وراثيا . وكان الذى يليه فى القيادة ما يعرف باللقب العربى المحتسب Mathesep، وأحيانا رئيس ضباط النظام Master-Sergeant ، الذى كان مسؤولا أصلا عن لوائح التسويق[٣٠].

الدويلات التابعة

نادى ملك القدس بالسيادة على كل الدويلات الفرنجية فى الشرق ، واعتبر أن من حقه مطالبة حكامها بتسيير الجنود للانضمام اليه فى حملاته . وواقع الأمر أن تلك السيادة لم تكن موجودة إلا عندما يكون الملك قويا بما يكفى لفرضها ، بل لم تكن أنطاكية ولا طرابلس من الناحية النظرية تعتبر جزءا من المملكة . وقد تمكن الملوك الأوائل من فرض السيادة الشخصية على طرابلس . وقدم الكونت برتراند فروض الولاء لبلدوين الأول عام ١١٠٩م لما منحه من الأراضى . وسعى الكونت بونز إلى انكار تبعيته لبلدوين الثانى عام ١١٢٢م لكن محكمته العليا هى التى اجبرته على الخضوع ، وفى عام ١١٣١م رفض السماح للملك فولك المرور فى أراضيه ، لكن الملك عاقبه وأجبره على الخضوع مرة اخرى . وفى الفترة من عام ١١٦٤م إلى ١١٧١م كان الملك

---

(٢٨) (المترجم) الخمسعشرية الرومانية Roman Indiction : دورة زمنية من ١٥ سنة أسسها الامبراطور قسطنطين عام ٣١٣ باعتبارها فترة ضريبية.

(٢٩) La Monte, *op.cit.* pp. 114-37، حيث يرد أفضل موجز لوظائف مسؤولى الدولة.

(٣٠) *Ibid.* pp. 135-6, 167-8.

أماليك وصيا على طرابلس للكونت الطفل ريموند الثالث ، غير أن ذلك لكونه أقرب الأقرباء الذكور للصبي وليس كسيده الأعلى. وعندما شب ريموند الثالث عن الطوق لم يعترف قط بالسيادة للملك رغم انه كان تابعا للملك فيما يتصل بإمارة الجليل التى تملكها زوجته . وأثناء حملة عام ١١٨٧م التى اشترك فيها كأمير للجليل ، أعلنت كونتية طرابلس التابعة له عن حيادها . وأما علاقة القدس بكونتية الرها ، فكانت الرابطة الشخصية هي التي تربط الملكين ؛ فعندما عين بلدوين الأول بلدوين الثانى ليخلفه في الرها ، أخذ منه قسم التبعية ، وحذا بلدوين الثانى حذوه مع جوسلين (اوف كورتناى) . على أن جوسلين اعترف فى أواخر ايامه بأمير انطاكية سيدا اعلى له . وكانت انطاكية فى وضع مختلف ، إذ أن بوهمند لم يعترف بأى سيد أعلى له ، وهذا ما لم يفعله الوصيان تنكريد وروجر اللذان عينتهما كلاهما المحكمة العليا فى الإمارة. وكان بلدوين الثاني يقوم بأعمال الوصى على الأمير الصغير بوهمند الثانى من عام ١١١٩م إلى عام ١١٢٦م ، بيد أنه يبدو أن ذلك كان بناء على دعوة من المحكمة العليا وليس بالحق القانونى . ودعى مرة اخرى عام ١١٣١م لسبب آخر زائد وهو كونه جد الأميرة كونستانس الصغيرة ، التى بدا للمحكمة أن مصالحها معرضة للخطر بسبب امها أليس . وبعد موته ، وعندما حاولت أليس مرة اخرى الاستيلاء على السلطة ، دعت المحكمة العليا الملك فولك ليتسلم الوصاية بدلا منه . ومرة اخرى كان الملك هو أقرب الأقرباء الذكور للأميرة باعتباره زوج خالتها . ولو كان فى الشرق آنذاك أحد افراد آل هوتفيل الذكور لكان هو المختار كوصى . وبالمثل ، عندما اختار الملك زوجا للأميرة كان يتصرف بناء على طلب المحكمة العليا وليس كسيد أعلى . وكان بلدوين الثاني قد طلب من ملك فرنسا اختيار زوج لوريثته ملسيند دون اى افتراض بأنه قبل السيادة الفرنسية . وعندما حان الوقت كى تختار كونستانس زوجا ثانيا ، اختارته بمحض اختيارها كأميرة ذات سيادة . وإذا كانت قد طلبت الإذن من الملك بلدوين الثالث ، فذلك لأن زوجها الذى اختارته كان تابعا للملك . وفى عام ١١٦٠م دعا الأنطاكيون الملك بلدوين الثانى كى يتولى الوصاية ؛ ومرة أخرى لأن الملك كان أقرب الأقرباء الذكور لأميرهم . إن الوضع القانونى لم يتضح بجلاء قط . وربما كان أمير انطاكية يعتبر ملك القدس أعلى منه مكانة ولكن ليس سيده الأعلى[٣١].

---

(٣١) La Monte, *op. cit.* pp.187-202. وانظر أيضا Cahen, *La Syrie du Nord*, pp 436 -7. ومع ذلك كان بوهمند الثانى تابعا لأماليك بسبب الإقطاعية النقدية التى كان يتقاضاها فى عكا.

وكانت أنطاكية هي الأخرى متميزة عن طرابلس والرها فى نظام حكومتها . ولا نعرف عن الرها سوى القليل ، وقد ضاعت المواثيق التى ربما يكون الكونت قد أصدرها. ويفترض أن كان له بلاط من أتباعه كأى لورد اقطاعى عظيم ؛ غير أن موضع الكونتية كأول المخافر الأمامية للعالم المسيحى حال دون أى تطور دستورى . فكانت معيشة أميرها شديدة الشبه بحياة أحد الأمراء الأتراك ممن كانوا يحيطون به ، وكان المستعمرون الفرنج قليلين، وكذلك كانت الإقطاعيات الكبيرة قليلة . وكان الكونت يعتمد بدرجة كبيرة على المسؤولين الأرمن المدربين على النمط البيزنطى ، وقد اضطرته الحروب شبه الدائمة إلى أن يحكم حكما فرديا مطلقا بصورة أكبر مما لو كان الحال عليه في أراض هادئة . ويبدو أن دستور كونتية طرابلس كان مماثلا لدستور القدس . وكان للكونت محكمته العليا التى تقيده بأحكامها . بيد أن لقبه كان وراثيا وليس اختياريا ، وكانت أملاكه الشخصية أكثر بكثير من أملاك أىّ من اتباعه . وباستثناء أمر أو أمرين من أمور السياسة الجسام ، لم يكن الكونت يصادف متاعب من باروناته سوى القليل ، إذ كان البارونات منحدرين من الأتباع التولوزيين لأسلافه ، فيما عدا لوردات جبيل من ابناء جنوا . وكان لأهم مسؤولى البلاط نفس القاب ووظائف مسؤولى بلاط القدس . وبالمثل كان الفيكونت يدير مدن الإمارة(٣٢).

إمارة أنطاكية

كانت المؤسسات فى امارة انطاكية تماثل فى ظاهرها مثيلاتها فى مملكة القدس . فكانت هناك محكمة عليا ومحكمة بورجوازية ونفس المسؤولين الكبار . وكان لأنطاكية قوانينها الخاصة بها Assises ، غير أن مغزاها العام كان متسقا مع مغزى قوانين القدس . ومع ذلك ، كانت هناك فروق كثيرة مستترة تحت السطح ؛ فكان لقب الأمير وراثيا ، ولم تكن المحكمة العليا تتدخل إلا لتعيين وصى إذا دعت الحاجة ، وكان الأمير يسيطر منذ البداية فى أهم مدن الإمارة والكثير من أراضيها ، وكان ضنينا فى منح هبات الأرض فيما عدا المقاطعات الحدودية ، وانما كانت الاقطاعيات النقدية تناسبه بصورة أفضل . ويبدو أن القضاة المعينين من قبل الأمير يقتصرون على المحكمة العليا ، وأن ممثليه الخصوصيين يسيطرون على المحاكم البورجوازية . أما إدارة المدن والأملاك الأميرية، فقد تبنى الأمير النظام البيزنطى بما له من بيروقراطية مقتدرة ووسائل معتنية فى

---

(٣٢) La Monte, *op. cit.*, *loc. cit.*; Richard, *Le Comté de Tripoli*, pp. 30-43.

جمع الضرائب . وكان لكل من أنطاكية واللاذقية وجبلة دوقها الذى كان مسؤولا مسؤولية كاملة عن البلدية . والأمير هو الذى يعينه أو يفصله كما يحلو له ، لكنه أثناء فترة توليه لمنصبه يبدو انه كان عضوا من أعضاء المحكمة العليا . ودائما ما كان دوق اللاذقية ودوق جبلة يعينون من بين السكان الوطنيين ، أما دوق أنطاكية فكان ذا مولد فرنجى نبيل ، وانما يساعده فيكونت قد يكون وطنيا . وقد عزز أمراء أنطاكية أنفسهم - كشأن أبناء عمومتهم فى صقلية - إزاء طبقة النبلاء باستغلالهم للمسؤولين المولودين محليا والذين كانوا يعتمدون كلية على ما كان الأمراء يولونهم من معروف . وقد وجدوا فى انطاكية مجتمعا محليا متعلما من أصل يوناني وسيرياني وأرمينى، باقيا منذ العصور البيزنطية . وكانت هناك رقابة زائدة على المحكمة العليا من خلال تعيين القضاة للبت فى المسائل القانونية الخالصة كما هو الحال فى المحاكم البورجوازية . وقد ورث الأمراء ما كانت تتبعه بيزنطة من نظام تقييم الضرائب وجمعها، وكان لخزانتها Secrète بيروقراطيتها الخاصة بها ، ولا تعتمد فى ايراداتها على المحاكم المحلية كما هو الحال فى القدس . وكانوا يوجهون السياسة بقليل من الإعتبار للمحكمة العليا ، ويبرمون معاهداتهم الخاصة بهم مع القوى الأجنبية . وكان تنظيم الامارة كله مرتبطا بعضه البعض بصورة أوثق وأكفأ مما كان عليه فى الدويلات الفرنجية الأخرى . ولولا الحروب الدائمة فى انطاكية ، وضآلة شأن الأمراء أو وقوعهم فى الأسر واستبدال أسرة حاكمة نورماندية بأخرى فرنسية ، لتطورت حكومة انطاكية بحيث تصبح على نفس القدر من كفاءة حكومة صقلية(٣٣).

السيادة الامبراطورية

وزادت أهمية أنطاكية الفريدة بعلاقتها الخاصة مع الامبراطور البيزنطى . إذ كان الامبراطور ، وفقا للنظرية البيزنطى ، رئيسا للكومنوليث المسيحى .ورغم أنه لم يحاول قط ادعاء السيادة على عواهل الغرب ، كان يعتبر العالم المسيحى الشرقى مجاله الخاص به . ذلك أن المسيحيين الأرثوذوكس فى ظل الخلافة الاسلامية كانوا تحت حمايته ، وكان المسلمون يعترفون بالتزاماته إزاءهم ، و لم تكن لديه أية نية فى التخلى عن واجباته بسبب الغزو الفرنجى . على انه كان هناك فرق بين انطاكية والرها من ناحية وبين القدس وطرابلس من الناحية الأخرى . فلم يكن البلدان الأخيران يشكلان جزءا

(٣٣) Cahen, *op. cit.*pp.435 ff. حيث يرد مقال كامل عن الدستور الأنطاكى وتطوره.

من الامبراطورية منذ القرن السابع ، على خلاف البلدين الأولين اللذين كانا مقاطعتين امبراطوريتين أثناء حياة الامبراطور الكسيوس الأول . وعندما كان الكسيوس يحث زعماء الحملة الصليبية الأولى على الاعتراف بسيادته ، كان يفرق بين الأراضى الامبراطورية السابقة التى كان يتعين إعادتها إليه كأنطاكية ، وبين الغزوات الأخرى التى لم يكن يدعى سوى سيادة غير محددة عليها . وفشل الصليبيون فى احترام ما أقسموا عليه ، ولم يستطع ألكسيوس إرغامهم على ذلك . بيد أن السياسة البيزنطية كانت دائما واقعية ؛ إذ أن ألكسيوس عدّل من طلباته بعد انتصاره على بوهمند بالسماح للنورمانديين - فى معاهدة ديفول - بحكم أنطاكية وانما كأتباع له بصورة صارمة ، وطلب ضمانات معينة مثل تنصيب بطريق يونانى. وكانت تلك المعاهدة بمثابة حجر الأساس للمطالب البيزنطية ، لكن الفرنج تجاهلوها . ويبدو أن الرأى العام الفرنجى كان يرى أن بوهموند قد تصرف تصرفا سيئا إزاء الامبراطور ، لكن الامبراطور ضيع قضيته بعدم ظهوره شخصيا . ومع ذلك ، كانت حقوق الامبراطور تتأكد عند ظهوره شخصيا ، وبتعبير آخر ، وبالحكم من نصيحة الملك فولك عام ١١٣٧م ، فإن مطالبته بالسيادة تصبح مقبولة كمطلب معقول من الناحية القضائية عندما يكون فى وضع يمكنه من فرض مطالبته ، وان اختار ألا يفعل ذلك ، ففى الامكان غض النظر عنها . وكانت هناك مناسبات اخرى قليلة عومل فيها الامبراطور كسيد أعلى ، مثلا عندما طلبت الأميرة كونستانس من الامبراطور مانويل اختيار زوج لها ؛ على انها لما وجدت اختياره لا يسرها تجاهلته . وهكذا كانت السيادة الامبراطورية متقطعة خفيفة فى ثقلها، غير أن أمراء انطاكية ومحاميهم كانوا يشعرون بالقلق ازاءها ؛ وبقيت بمثابة تقييد كامن لاستقلال سيادة الأمير.

وقد اعترف كونت الرها بالسيادة الامبراطورية عام ١١٣٧م؛ لكن الرها كانت بعيدة عن الحدود الامبراطورية، وكانت المسألة أقل إلحاحا. ووافق الرأى العام الفرنجى على أن تبيع كونتيسة الرها عام ١١٥٠م ما تبقى من اراض فى الرها للامبراطور؛ على انه من الواضح أن ذلك قد حدث لتعذر الدفاع عن تلك الأراضى ضد المسلمي. وكان ريموند التولوزى على استعداد للاعتراف بسيادة الامبراطور، وفى عام ١١٠٩م قدم ابنه برتراند فروض الولاء للامبراطور ألكسيوس عن كونتيته المقبلة. وكرر ريموند الثانى هذا الولاء للامبراطور حون عام ١١٣٧م. ورغم أن ريموند الثالث هاجم بيزنطة عام ١١٥١م، إلا أنه تلقى مساعدة من البيزنطيين عام ١١٦٣م، وربما كانت لفتة من مانويل لإظهار سيادته العليا. بيد أن هذا الولاء ربما كان قاصرا على طرطوس وجيرانها

التى كانت تنتمى من الناحية التقليدية لأراضى أنطاكية كجزء من "موضوع" اللاذقية.

أما العلاقات الشرعية بين بيزنطة ومملكة القدس فكانت ما تزال أقل دقة . إذ أن بلدوين الثالث قدم فروض الولاء للامبراطور مانويل فى انطاكية عام ١١٥٨م ؛ وفى عام ١١٧١م قام أمالريك بزيارة القسطنطينية كتابع - وان عومل كتابع رفيع المستوى. وكان كل من بلدوين وأمالريك يعتبر الصداقة البيزنطية جانبا أساسيا فى سياستهما ، ومن ثم كانا على استعداد لمنح بعض التنازلات . ورغم ذلك ، يبدو أن محاميهما لم ينظروا إلى هذه التبعية بأكثر من كونها تبعية نفعيّة مؤقتة(٣٤).

التنظيم الكنسى

إذا كان هناك سيد أعلى للملك القدس فهو البابا . إذ كانت الحملة الصليبية الأولى تتوقع قيام دولة دينية ثيوقراطية فى فلسطين ؛ ولو عاش البطريق أديمار (اوف لو بوى) لربما أمكن تطوير شئ من مثل هذا التنظيم ، وربما كانت تلك الفكرة هى التى جعلت جودفرى يحجم عن قبول تاج ملكى . وأما البطريق دايمبرت - خليفة أديمار - فكان يتخيل دولة يسيطر عليها بطريق القدس . وعكس بلدوين الآية باتخاذه التاج وباستغلال أعداء دايمبرت داخل الكنيسة . وكان واضحا أن البابوية لن تقر قيام بطريارقية شديدة القوة فى القدس ، إذ قد تعمل على ترسيخ دعائمها هى نفسها كما كان دايمبرت يأمل، لما لها من موضع خاص وثروة آخذة فى التنامى ، بحيث تصبح كفؤا شرقيا لروما، ومن ثمّ كان من اليسير على الملك الافادة من البابا ضد البطريق . وكانت التقاليد تفرض عليه تقديم فروض الولاء للبطريق فى حفل التتويج ، غير أنه سعى إلى ترسيخ لقبه من البابا . وكانت تلك التبعية للبابا أكثر قليلا من التبعية الإسمية ، ولا صرامة فيها أكثر مما كان الباباوات يدّعونه من تسيد على الممالك الأسبانية ؛ على أنها كانت تبعية مفيدة للمملكة ، إذ كان الباباوات يشعرون بأنهم مسؤولون عن مواصلة امداد الأراضى المقدسة بالرجال والمال ، وتقديم المساعدة الدبلوماسية كلما دعت الحاجة اليها. وفى الإمكان كذلك استخدام البابوية فى كبح البطريارقية وممارسة بعض

---

(٣٤) عن علاقات أنطاكية ببيزنطة أنظر Cahen, *op.cit.*pp.437-8 وعن علاقات طرابلس ببيزنطة أنظر Richard,*op.cit.*pp. 26-30 وعن كامل مسألة المزاعم البيزنطية المتصلة بالدويلات الصليبية انظر La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Crusading States?" in *Byzantion*, vol.VII .

السيطرة على النظامين العسكريين . غير انه من الناحية الأخرى قد يساعد البابا النظامين العسكريين ضد الملك ؛ وكثيرا ما تدخل البابا عندما كان الملك يحاول كبح جماح المدن التجارية الإيطالية(٣٥).

وكانت الكنيسة فى المملكة خاضعة لبطريق القدس . وبعدما سببته طموحات دايمبرت من اضطراب بادئ الأمر ، أصبح هو نفسه في واقع الأمر خادما للتاج . وكانت الهيئة العامة لكنيسة القبر المقدس ترشّح اثنين من البطارقة يختار الملك واحدا منهما . وتحت البطريق كان هناك أربعة من رؤساء الأساقفة لصور ، وقيسارية ، والناصرة ، ورعبوت - مؤاب ؛ وتسعة أساقفة ، وتسعة رؤساء أديرة رهبان يحق لهم وضع تاج الأسقف ، وخمسة نواب لرؤساء اديرة الرهبان ؛ على انه كانت هناك أديرة أخرى معينة تعتمد على البابوية مباشرة ، وتقوم بأعمال النظامين العسكريين . وكانت كنيسة فلسطين ذات ثراء فائق سواء ثراء اقطاعيات الأراضى أو الإقطاعيات النقدية . وعادة ما كان أبرز رجال الكنيسة مدينين بتقديم جنود خدمات ضباط النظام وليس جنود خدمات الفرسان ؛ فكان البطريق والهيئة العامة لكنيسة القبر المقدس مدينين بتقديم خمسمائة من ضباط النظام ، وأسقف بيت لحم مائتين ، ورئيس أساقفة صور مئة وخمسين ، وكذلك رؤساء أديرة رهبان القديسة مارى جوزافات وجبل صهيون . وكان دير راهبات بيثاني - الذى أسسته الملكة مليسيند لأختها - يمتلك مدينة أريحا كلها . وفضلا عن ذلك ، كانت لدى البطريارقية والكثير من الأديرة الأكثر شهرة أراض شاسعة وعقارات فى سائر أنحاء أوروبا الغربية ، وكانت إيراداتها ترسل إلى فلسطين . وكان للكنيسة محاكمها الخاصة بها لتتعامل مع الحالات التي تتصل بالهرطقة والانضباط الدينى والزواج ، بما فى ذلك الطلاق والزنا ، والمواثيق الدينية ، وكانت تلك المحاكم تسير على خطى القواعد والاجراءات المعتادة فى محاكم القانون الكنسى فى الغرب(٣٦).

وكانت أراضى أنطاكية وطرابلس والرها تابعة كنسيا لبطريق انطاكية . وتسبب رسم حدود نطاق سلطة البطريق فى إثارة المشاكل ؛ إذ أن صور كانت داخلة من الناحية التقليدية فى بطريارقية أنطاكية ، رغم أنها كانت تشكل جزءا من مملكة القدس بطريق الغزو . وحكم باسكال الثانى بنقل صور ، بأسقفياتها المستقلة فى عكا وصيدا

(٣٥) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 203-16.

(٣٦) La Monte, *op. cit.* pp.215-16; Rey, *op. cit.* pp. 268-9

وبيروت ، إلى القدس ؛ وقد تم ذلك لاتساقه مع الحقائق السياسية . غير أن المحاولات التى بذلها بطارقة القدس للفوز بنطاق السلطة على الأسقفيات الطرابلسية الثلاث فى طرابلس وطرطوس وجبلة فشلت برغم تأييد البابوية من حين لآخر . ويبدو أن ريموند التولوزى كان يمنى نفسه بكنيسة مستقلة فى كونتيته المقبلة ؛ غير أن خلفاءه سلموا بالسيادة الكنسية لأنطاكية ، إذ كان الأمر يسيرا عليهم لأنهم كانوا يعينون أساقفتهم دون تدخل.

وكان بطريق أنطاكية - كشأن زميله بطريق القدس - يُنتخب عن طريق الهيئة العامة للكنيسة ، لكن تعيينه فى الواقع يتم بمعرفة الحاكم العلمانى الذى كان بمقدوره أن يعزله كذلك . ونعرف أن أمراء معينين قدموا فروض الولاء للبطريق أثناء تتويجهم ، لكن الأرجح أن ذلك كان فقط فى ظل الظروف الاستثنائية . وكان بطريق أنطاكية يرأس أساقفة البارة وطرسوس والمصيصة ، وكذلك الرها . أما رئاسة أسقفية تل بشير فقد أنشئت فيما بعد باللقب الرسمى "هيرابوليس (مينبج) Hierapolis (Menbij)"، وكان عدد الأسقفيات يختلف باختلاف الظروف السياسية . فكان هناك تسعة رؤساء ونائبان لأديرة الرهبان اللاتينية . وأهم منشأتين رهبانيتين هما دير القديس بول ودير القديس جورج ، حيث يبدو أن الرهبان البندكتيين قد حلوا محل الرهبان اليونانيين ، ودير القديس سيميون حيث كانت الطقوس اللاتينية والطقوس اليونانية موجودة جنبا إلى جنب . ولم تكن كنيسة أنطاكية على نفس المستوى المرتفع من الثراء الذى كانت عليه كنيسة القدس ؛ إذ كان هناك فى واقع الأمر الكثير من المنشآت الفلسطينية تمتلك ضياعا فى الإمارة[٣٧].

النظامان العسكريان

قبل نهاية القرن الثانى عشر بوقت طويل كان النظامان العسكريان قد بسطا كامل سلطانهما على الكنائس العادية فى الدويلات الفرنجية . فمنذ إنشائهما كانت أعداد أفرادها وثرواتهما آخذة فى الارتفاع بصورة مطردة ، وبحلول عام ١١٨٧م كان النظامان العسكريان يمثلان أهم ملاك الأراضى فى الشرق الفرنجى ؛ إذ أخذت ضياعهما تتزايد باستمرار عن طريق الهبات والشراء على السواء. وانضم الكثير من

---

(٣٧) Cahen, *op. cit.* pp 501-10

النبلاء الفلسطينيين إلى صفوفهما ، وكان المجندون يفدون اليهما من الغرب بصورة منتظمة ؛ إذ كانوا يشبعون حاجة عاطفية فيهم كانت سائدة آنذاك ، عندما كان الكثير من الرجال تواقين إلى أن يسلكوا حياة دينية وتعتمل فى أنفسهم الرغبة الدفينة فى عمل ايجابى والقتال من أجل العقيدة . كما كانوا يشبعون حاجة سياسة يمليها النقص المتواتر فى جنود الشرق الفرنجى ؛ إذ كان التنظيم الإقطاعى يعتمد بصورة مفرطة على ما يحدث فى الحياة العائلية للنبلاء من حوادث لتقديم البديل عن الرجال من ضحايا المعارك أو المرض ، فكان الصليبيون الزائرون يشاركون فى الحرب مشاركة ايجابية طوال فصل أو فصلين ثم يعودون إلى أوطانهم ، بخلاف فرسان النظامين العسكريين ، إذ كانا يقدمان امدادا لا ينقطع من الجنود المحترفين المكرسين الذين لا يكلفون الملك شيئا إلى جانب ما كانوا عليه من ثراء بحيث بنوا الحصون وحافظوا عليها على نطاق لم يكن يقدر على الإضطلاع به من اللوردات العلمانيون سوى القلة ، ولولا مساعدتهم لهلكت الدويلات الفرنجية فى مهدها . وليس لدينا معلومات عن أعداد أفرادهما سوى ما تدل عليه الأحداث . ففى عام ١١٥٨م شارك فرسان المستشفى فى الحملة المصرية بإرسال خمسمائة فارس وعدد متناسب من الجنود الآخرين ؛ وكان عدد فرسان المعبد الذين اشتركوا فى حملة عام ١١٨٧م ثلاثمائة تقريبا . وفى كل من الحالتين ربما كانت تلك الأعداد تمثل الفرسان القادمين من مملكة القدس فقط ، بخلاف عدد معين كان يستبقي كحاميات . وربما كان نظام فرسان المستشفى هو النظام الأكبر والأكثر ثراء من نظيره، غير أن فرسان المستشفى دأبوا على الانشغال بالأعمال الخيرية . وكانت دور الضيافة التابعة لهما فى القدس تتسع لألف حاج ، وكانت لديهم مستشفى للمرضى المعدمين الباقين على قيد الحياة بعد الغزوات العربية المضادة . وكانوا يوزعون الصدقات يوميا على الفقراء بسخاء أدهش الزائرين . وكانوا – مع فرسان المعبد – يحرسون طرق الحجاج ويهتمون بصفة خاصة بأماكن الاستحمام المقدسة فى الأردن . كما كان فرسان المعبد يوزعون الصدقات ، وانما بتبذير أقل من فرسان المستشفى . وكان جل الاهتمام منصبا على الأمور العسكرية ، وقد اشتهروا بالشجاعة فى الهجوم وكانوا يعتبرون أنفسهم متخصصين فى الحرب الهجومية ؛ كما اتقنوا الأعمال المصرفية وسرعان ما جعلوا من انفسهم وكلاء ماليين للصليبيين الزائرين ؛ وفيما بعد ساءت سمعتهم لما كان يشوب طقوسهم الخفية الغريبة من ريبة وتشكك ؛ لكنهم حتى ذلك الوقت كانوا محل تقدير عام لشجاعتهم وفروسيتهم(٣٨).

(٣٨) للإطلاع على المراجع المتصلة بالنظامين العسكريين انظر أعلاه ص ١٥٨ ، الملحوظة رقم ١

والى جانب مزايا النظامين العسكريين كانت هناك المساوئ كذلك ، إذ لم يكن للملك سيطرة على النظامين وانما كان السيد الأعلى الوحيد لهما هو البابا ؛ وكانت الأراضى التى توهب لهما تتحول إلى وقف عليهما ، وليس هناك خدمات يلتزمان بها ، ورفضا أن يدفع كبار مستأجرى أراضيهما العشور المستحقة للكنيسة . وكان فرسانهما يحاربون مع جيوش الملك كحلفاء متطوعين لا أكثر . وربما وضع الملك أو اللورد من حين لآخر حصنا تحت السيطرة المؤقتة لفرسانهما ، وكان يطلب منهما أحيانا العمل كأوصياء على بعض القصّر. وفى تلك الحالات كانوا جديرين بالقيام بالخدمة على صورة ملائمة . وكان السيدان العظيمان ، أو نائباهما ، يحضران المحكمة العليا للمملكة؛ وكان ممثلوهما يحضرون فى المحاكم العليا التابعة لأمير انطاكية وكونت طرابلس . غير أن ما كانوا يشيرون به من نصح يخلو من أية مسؤولية ، فإذا لم تلق السياسة الرسمية هوى فى انفسهم يرفضون التعاون ، كما حدث عندما قاطع فرسان المعبد الحملة على مصر عام ١١٥٨م . وكان تواتر المنافسة بين النظامين بمثابة مصدر خطر دائم ، فنادرا ما أمكن إقناعهما بالاشتراك معا فى حملة . وكان كل نظام يسير طبقا لما اختطه لنفسه من خط دبلوماسى بغض النظر عن السياسة الرسمية للمملكة. فنجد كلا النظامين يبرم المعاهدات مع حكام المسلمين ، وليست قصة المفاوضات مع الحشاشين عام ١١٧٢م سوى دليل على استعداد فرسان المعبد للتضحية بترتيب تتضح الحاجة الماسة إليه ، وذلك من أجل مصالحهم المالية ، وازدرائهم الصريح لسلطة البلاط الملكى . وكان فرسان المستشفى طوال تاريخهم أكثر اعتدالا ولا يتصفون بالأنانية، على أن النظام ، حتى مع هذا ، كانت له الأسبقية على المملكة.

وهناك توازن مماثل بين المزايا والمساوئ يظهر فى علاقات الدويلات الفرنجية بالمدن التجارية الإيطالية والمدن التجارية فى البروفانس الفرنسى[٣٩] . لقد كان المستعمرون الفرنج جنودا لا بحارة . وفيما بعد طورت كل من طرابلس وانطاكية أسطولا صغيرا ، وبنى النظامان العسكريان أساطيل أصغر ؛ لكن المملكة نفسها ، بموانيها القليلة الجيدة ، والنقص العام فى الأخشاب ، لم يكن لديها قط مؤسسة بحرية ملائمة . فكان من الضرورى لأية حملة تشتمل على قوة بحرية لغزو المدن الساحلية، أو الحملات التى جُردت على مصر ، الإستعانة ببعض القوى البحرية ، وكانت القوتان البحريتان العظيمتان فى الشرق هما بيزنطة ومصر . على أن مصر كانت دائما عدوا كامنا

(٣٩) أنظر أدناه الفصلين الثانى والثالث ، فى أماكن متفرقة.

حقيقيا ، وبيزنطة محل ريبة دائما . وكان ممكنا أن ترتجى الفائدة من الأسطول الصقلى لولا أن السياسة الصقلية لم تكن جديرة بالثقة . ومن ثم بات الإيطاليون والفرنسيون الشماليون هم الحلفاء الأفضل ؛ وزاد من أهمية مساعدتهم الحاجة إلى إبقاء الطرق البحرية الموصلة بالغرب مفتوحة ولنقل الحجاج والجنود والمستعمرين إلى الشرق الفرنجى. بيد انه كان يتعين دفع مقابل للمدن التجارية التى طلبت تسهيلات وحقوق تجارية ، وأن يكون لها أحياؤها الخاصة بها فى المدن الأكبر ، والإعفاء التام أو الجزئى من الرسوم الجمركية؛ وكان من الضرورى منح مستعمراتهم امتيازات زائدة فيما يتصل بالأرض . ولم تسبب تلك الامتيازات فى جملتها استياء لدى السلطات الفرنجية. فأية خسارة فى الايرادات سوف يوازنها ما يحفزونه من انتعاش التجارة ؛ ولم تر المحاكم الملكية ما يضطرها إلى إنفاذ قوانين جنوا أو البندقية ، خاصة وان القضايا التى تشتمل على مواطن من مواطنى المملكة ، أو على جريمة جسيمة مثل القتل ، كانت تترك لهم . وكانت هناك منازعات من حين لآخر ؛ إذ كان البنادقة فى حالة عداء دائم مع رئيس أساقفة صور ، ودام شجار طويل بين أبناء جنوا والملك أماليك الأول . وفى كل من الحالتين أيدت البابوية الإيطاليين ، وربما كان الحق القانونى فى جانبهم . على أن المدن التجارية لم تخرج من أجل رفاهية العالم المسيحى ، وانما وراء مجرد الكسب التجارى. وعادة ما كانت المصلحتان تحدثان فى آن واحد ؛ لكنهما إذا ما اصطدمتا كانت المصلحة التجارية العاجلة هى السائدة . ومن أجل ذلك ، لم يكن الايطاليون والفرنسيون الشماليون على علاقة صداقة منتظمة مع الملك . وفضلا عن ذلك ، كانت غيرة النظامين من بعضهما البعض زادت شحوب طفيف إذا قورنت بما كانت عليه الغيرة المتفشية فيما بين المدن التجارية ؛ فكانت البندقية على استعداد لمساعدة المسلمين على نحو أسرع بكثير من مساعدتها لجنوا أو بيزا أو مرسيليا ، ويصدق نفس الشئ على ما كانت تراه غريماتها المدن الأخرى . وهكذا، وبينما كانت المساعدة التى تقدمها تلك المدن جميعا أمرا أساسيا للحفاظ على بقاء الشرق الفرنجى ، فإن ما كان سائدا بين مستعمريها من مكائد وشغب ، واستعدادهم الطوعى للإقدام على خيانة القضية المشتركة من أجل منفعة لحظية ، قضى على الكثير من القيمة المرتجاة منها[٤٠].

وبدوا فى نظر الحجاج خاصة فى صورة جشعة مخزية ، وبصورة غير مسيحية؛ ذلك أن الغزو كان حافزا كبيرا لرواج حركة مرور الحجاج ، بحيث كان النّزل الضخم

(٤٠) Heyd, *op. cit.* pp.129-63، حيث يرد موجز كامل

الذى يمتلكه فرسان المستشفى كامل العدد دائما . وبرغم الهدف الأصلى للحملة الصليبية ، ظل الطريق العابر للأناضول على حالته غير الآمنة ؛ إذ لا يجرؤ على تحدى أخطاره سوى جماعة مسلحة تسليحا جيدا ، ومن ثم كان الحاج العادى يفضل السفر بحرا بعد أن يجد له مضجعا فى سفينة ايطالية حيث كانت أجرة السفر باهظة التكلفة . وربما يجتمع عدد من الحجاج لاستئجار سفينة بكاملها ، وحتى مع هذا كان استئجار القبطان والبحارة باهظ التكلفة كذلك . وكان الأرخص للحاج من شمال فرنسا أو انجلترا أن يرتحل مع إحدى القوافل الصغيرة التى كانت تبحر سنويا من أحد موانئ القنال الانجليزى إلى الشرق . غير انها كانت رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر ؛ ففيها التعرض لعواصف الأطلنطى ؛ فضلا عن سفن القرصنة الاسلامية المنتظرة فى مضيق جبل طارق وبطول الساحل الأفريقى ، ولم تكن هناك موانى من أويورتو أو لشبونة وحتى صقلية يمكن الحصول منها على الماء والمؤن بسلام ، وكان من العسير أن تحمل السفينة من الإمدادات ما يكفى للرجال والخيول الذين تقلهم . فكان الأيسر بكثير السفر برا إلى بروفانس أو ايطاليا لركوب سفن اعتادت على الرحلة اعتيادا حسنا . وبالنسبة لمن يحج بمفرده كان العثور على مضجع فى سفينة أيسر وأرخص فى موانى ملك صقلية ، لكن الجماعات الكبيرة كانت تعتمد على اساطيل المدن التجارية الكبيرة(٤١) .

الملابس

وعندما كان المسافر يهبط فى عكا أو صور أو السويدية ، يجد نفسه فى الحال فى جو غريب . إذ كانت البنية الفوقية للشرق الفرنجى تخفى تحتها أرضا شرقية . وكانت حياتها الفاخرة تصدم الغربيين وتترك فيهم أثرها ، خاصة وان الحياة فى أوروبا الغربية كانت ما تزال بسيطة متقشفة ؛ إذ كانت الملابس مصنوعة من الصوف ونادرا ما تُغسل ، إذ كانت تسهيلات الغسيل قليلة ، فيما عدا بعض المدن القديمة التى تعلقت بها تقاليد الحمامات الرومانية . وحتى فى أعظم القلاع ، كان الأثاث خشنا ولا يرتجى منه أكثر من تأدية الغرض ، وكادت السجاجيد أن تكون مجهولة . وكان الطعام رديئا

(٤١) أنظر Cahen, "Notes usr l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Lebant", in *Bulletin de la Faculté des Lettre de Strasbourg*, p. 333

يفتقر إلى النوعية ولا سيما خلال أشهر الشتاء الطويلة . وفى كل مكان تقل الراحة وتتضاءل الخصوصية . أما الشرق الفرنجى فكان على نقيض مذهل . وربما لم يكن هناك الكثير من البيوت التى تصل ضخامتها وروعتها ما كان عليه القصر الذى بناه آل إبلين فى أوائل القرن التالى فى بيروت، بأرضياته الفسيفسائية ، وحوائطة الرخامية ، وسُقُفه المطلية ، ونوافذه الكبيرة السخية، التى يطل بعضها على البحر غربا ، وبعضها الآخر على الجبال شرقا حيث الحدائق والبساتين . ويقينا كان القصر الملكى فى القدس - المنشأ فى جزء من المسجد الأقصى - أقل تواضعا ، مع أن قصر عكا كان صرحا شامخا. على أن جميع النبلاء والبورجوازيين الأثرياء ملأوا منازلهم فى المدن بمفاخر مماثلة؛ فكانت تحوى البُسُط ، والسُتُر الدمقسية ، والموائد وصناديق النفائس ذات التقوسات الرائعة ، وأكسية الفُرُش والموائد الخالية من العيوب ، ومعدات الطعام الذهبية والفضية ، وسكاكين الموائد ، والخزف المزخرف الرائق ، وحتى صحاف الخزف الصينى المجلوبة من الشرق الأقصى . وكانت المياه فى أنطاكية تنقل من عيون دافنى إلى كافة المنازل الكبيرة خلال قنوات المياه المبنية والأنابيب . والكثير من المنازل الواقعة بطول الساحل اللبنانى كانت لها إمداداتها الخاصة بها . أما فى فلسطين ، حيث تقل وفرة المياه ، فكان للمدن صهاريج تخزين منظمة تنظيما جيدا ؛ وفى القدس كانت شبكة المجارير التى شيدها الرومان ما تزال فى حالة مثالية . وكانت أماكن القلاع الحدودية الكبيرة محددة لتكون مريحة كمنازل المدن تقريبا ، على الرغم من تجهم الحياة وشراستها خارج الأسوار . فكانت فيها حمامات ، ومخادع مزدانة لسيدات الأسرة وقاعات استقبال رائعة. وأما الحصون التابعة للنظامين العسكريين فكانت أبسط بقدر طفيف ، أما فى المقار الأسرية العظيمة ، مثل قلعة الكرك فى مؤاب أو غيرها فى طبرية ، كان آمر القلعة يعيش عيشة تزيد فى روعتها عن حياة أى ملك فى أوروبا الغربية(٤٢).

وسرعان ما اصطبغت ملابس المستوطنين بالصبغة الشرقية الفاخرة بنفس القدر الذى أصطبغت به مفروشاتهم . فعندما يخلع الفارس أرديته الحربية ، يرتدى بُرنسا حريريا يطل رأسه منه ، وعادة ما يحيط رأسه بتوربان (عمامة ضيقة لا حرف لها) ؛ وكان عند خروجه فى حملة يرتدى معطفا كتّانيا فوق دروعه ، لحماية الدروع المعدنية من الشمس، وكوفية على النمط العربى فوق خوذته . واتخذت ملابس السيدات الزى الشرقى التقليدى الذى يتألف من ثوب داخلى طويل (روب) ، وسترة (بلوزة) قصيرة

---

(٤٢) Cahen, *La Syrie du Nord*, pp 129-32. Rey, *op.cit.* pp.3-10؛ ويورد كاهن Cahen مقالا عن انطاكية وأسباب الراحة فيها.

أو معطف قصير ، بتطريز كثيف بخيوط الذهب ، وربما مطرزة بالجوهرات . وكن في الشتاء يرتدين الفراء كما كان يفعل أزواجهن . وكن خارج المنزل يضعن خمارا كالنساء المسلمات ، وذلك لحماية بشرتهن المطلية بوافر الطلاء أكثر من كونه خمارا للعفّة ، وكن يمشين مشية رقيقة متكلفة . بيد أنه على الرغم من جو الرقة والتراخي هذا كله ، كان فيهن شجاعة كأزواجهن وإخوتهن ، فكانت الكثيرات من نبيلات النساء يتسلمن قيادة الدفاع عن حصونهن في غيبة بعولتهن . وقد حذت زوجات التجار حذو سيدات الطبقة الأرستقراطية وكثيرا ما بزّتهن في سخاء زينتهن . وكانت المحظيات الناجحات – وهي طبقة لم تكن معروفة حتى آنذاك في المجتمع الغربي – رائعات بنفس القدر . ويقول المؤرخ وليم الصوري عن السيدة باشيا دى ريفيرى ، وهي زوجة صاحب حانوت من نابلس أوقعت البطريق هيراكليوس في حبائل فتنتها، إنك قد تظن أنها كونتيسة أو بارونة مما ترتديه من حرير وجواهر(٤٣).

ولإن بدت تلك الفخامة غريبة للحاج الغربي، فقد كانت شيئا طبيعيا للزائر القادم من الشرق الإسلامي أو من بيزنطة. ولم يكن للمستعمرين الفرنج مندوحة من محاولة التكيف مع بيئتهم الجديدة، ولا مهرب من الاتصال باتباعهم وجيرانهم. وكان المناخ من الأمور التي يتعين وضعها في الاعتبار؛ فشتاء فلسطين وسوريا يكاد يطابق شتاء اوروبا الغربية في كآبته وبرودته ، لكن فترة دوامه أقل. وأما الصيف الطويل القائظ فسرعان ما تعلم منه المستعمرون أن لا غنى لهم عن ارتداء ملابس مختلفة، وتناول أطعمة مختلفة، وتعديل أوقاتهم اليومية. ولا محل لعادات الشمال الفظة، وبدلا منها كان عليهم أن يتعلموا الاساليب الوطنية. وعليهم توظيف الخدم الوطنيين ، وكانت المربيات الوطنيات يقمن على رعاية اطفالهم، وسائسو الخيول يعتنون بجيادهم. وكانت هناك أمراض غريبة في الأنحاء، ومن ثم كان أطباؤهم فاقدي الحيلة حيالها، وسرعان ما اضطروا إلى الاعتماد على الطب الوطني(٤٤). وكان حتما عليهم أن يتفهموا الوطنيين

---

(٤٣) تظهر صورة تنكريد على العملات النقدية وهو يرتدي التّربان أو عمامة الرأس الضيقة بلا حافة (انظر إعلاه ص ٦٤) وفي عام ١١٩٢م شكر هنري (اوف شامباني) صلاح الدين على هدية التربان التي أهداها له معلنا أن تلك الأشياء تلقى استحسان زملائه وأنه سوف يرتديها دائما (انظر Rey, op. cit. pp.11) ويصف ابن جبير Ibn Jubayr (ed. Wright, p.309) ملابس زفاف مسيحي في عكا عام ١١٨٤. (وعن باشيا أنظر أدناه ص ٤٨٢).

(٤٤) الطبيب الطرابلسي الذي يفترض انه دس السم لبلدوين الثالث كان وطنيا (انظر ادناه ص ٤١٤). وعندما كان أماريك على فراش الموت أثبت الأطباء الوطنيون أنهم أكثر حكمة من أطباء الفرنج (انظر أدناه ص ٤٥٥). وعين أماريك رجلا يدعى سليمان بن داود وإبنه الأكبر في منصب طبيبي البلاط ، بينما كان الابن الثاني لسليمان يشغل منصب معلم

وان يمتزجوا بهم؛ ومما ساعد على ذلك غيبة الأرستقراطية الوطنية ، التى كانت خليقة بتحدى حكمهم، بعد أن هرب المسلمون من مملكة القدس وكونتية طرابلس. أما فى الأماكن الأبعد إلى الشمال، فكانت الطبقتان الأرستقراطيتان اليونانية والأرمينية تشعران بالغيرة منهم، وتدخلت السياسة فى تفاهمهما المتبادل، رغم أن الأرمن فى نهاية الأمر تقابلوا معهم فى منتصف الطريق وتبنوا الكثير من العادات الفرنجية(٤٥).

الصداقة مع المسلمين

لم يكن من الممكن قط أن يحل السلام الدائم بين الفرنج وجيرانهم المسلمين ، وانما كانت هناك اتصالات آخذة في التزايد . إذ كانت إيرادات الدويلات الفرنجية تتألف بدرجة كبيرة من الضرائب المفروضة على التجارة بين داخل البلاد المسلمة وبين الساحل؛ فكان يتعين السماح لتجار المسلمين بحرية الحضور إلى الموانى البحرية ومعاملتهم معاملة معقولة . ومن العلاقات التجارية نبعت الصداقة . ذلك أن نظام فرسان المعبد – بأنشطته المصرفية الضخمة – كان على استعداد لتوسيع عملياته بحيث يصبح دائنا للعملاء الكفرة، والاحتفاظ بمسؤولين متخصصين فى شؤون المسلمين . وفى ذات الوقت ، كان الساسة الأعقل بين الفرنج يرون أن لا دوام لمملكتهم إلا إذا بقى العالم الاسلامى مشتتا ، ومن أجل ذلك باتت البعثات الدبلوماسية فى جيئة وذهوب . وكان لوردات الفرنج والمسلمين على السواء يُستقبَلون بآيات التشريف فى كلٍ من بلاط غريم العقيدة . وكثيرا ما كان الأسرى أو الرهائن يمضون سنوات فى حصون الأعداء أو قصورهم . ورغم المعاناة التى تجشمها مسلمون قليلون فى تعلم اللغة الفرنسية ، كان الكثير من الفرنج – نبلاء وتجار – يتكلمون العربية ، بل إن القليل منهم اهتم بالأدب العربى مثل رينالد أمير صيدا . وفى وقت الحرب كان كل جانب يعرب عن التقدير لما يلمسه من لفتات الكياسة والفروسية . وفى أوقات السلم كان اللوردات من كل جانب يشاركون لوردات الجانب الآخر فى رحلات الصيد(٤٦).

ركوب الخيل فى البلاط . أنظر Cahen, 'Indigènes et Croisés', *Syria, 1934* و لم يترك الطب الفرنجى أى انطباع لدى أسامة (انظر أدناه ص ٣٦٩).

(٤٥) أنظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.561-8

(٤٦) (عن رينالد أمير صيدا أنظر أدناه ص ٥٢٦). عندما كان المسلمون يتفاوضون مع الحكام المسيحيين ، كان المسلمون يصرون على أن يدفع فرسان المعبد ضمانات مالية – مثلا المؤرخ أبو شامة.Abu Shama, p. 32 وكان ريمونـد الثالث كونت طرابلس يتحدث اللغة

كما غاب كامل التعصب الدينى . إذ كانت للعقيدتين العظيمتين خلفية مشتركة ؛ فحيثما تُكتشف فى الخليل آثار يعتقد أنها لإبراهيم واسحق ويعقوب كان المؤرخون المسلمون على نفس القدر من الاهتمام الذى كان عليه المسيحيون(٤٧). وحتى فى اوقات الحرب كان حجاج الفرنج يستطيعون التوغل حتى مزار سيدة سارديناى Our Lady of Sardenay على التلال خلف دمشق(٤٨)، وكان البدو الذين يحرسون دير سانت كاترين العظيم فى صحراء سيناء يحرسون دائما زائريه(٤٩). وتسببت المعاملة الوحشية التى كان رينالد (اوف شاتيلون) يعامل بها الحجاج المسلمين فى أن شعر رفاقه فى العقيدة بصدمة كادت أن تكون مساوية لما شعر به صلاح الدين من حنق . وكان المؤرخ وليم الصورى William of Tyre على استعداد للاعراب لنور الدين عن تقديره لورعه رغم اختلافه معه فى العقيدة.وكثيرا ما كان الكتاب المسلمون يعربون عن اعجابهم بالفروسية الفرنجية(٥٠).

ويرد أروع وصف للجو السائد آنذاك فى مذكرات أسامة بن منقذ فى شيزر . وكان بنو منقذ يؤلفون أسرة حاكمة ضئيلة الشأن تعيش فى خوف دائم من أن يستولى عليها مسلمون آخرون يفوقونها قوة ، ولذا كانوا على استعداد للتفاهم مع الفرنج ، وأمضى أسامة نفسه سنوات كثيرة فى كل من بلاطى دمشق والقاهرة عندما كان كلاهما على علاقة دبلوماسية وثيقة بالقدس . وكثرا ما كان أسامة يقوم بزيارات للأراضى الفرنجية ، كمبعوث وكسائح وكرياضى ؛ ورغم أنه فى كتابته يحدد لكل تلك الأنشطة سوء المصير فى الآخرة ، كان له أصدقاء كثيرون من الفرنج يستمتع بمناقشاتهم . وقد صدمته فجاجة ما كانوا عليه من الطب ، رغم أنه تعلم منهم علاجا ناجعا لنوع من أنواع مرض الدرن الورمى ، وصُعِق لمدى الحرية المسموح بها لنسائهم،

العربية ، ويكاد يكون من اليقين ان المؤرخ وليم الصورى William of Tyre كان يقرأ العربية ، أو كان يستخدم أمناء يعرفون اللغات الشرقية. (انظر ادناه ص ٥٣٤).

(٤٧) يشير ابن القلانيسى الى الاكتشاف.Ibn al-Qalanisi, p. 161 أنظر أيضا Kohler, 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol.IV, pp. 477 ff.

(٤٨) عن سيدة سارديناى Our Lady of Sardenay ، انظر. Rey, *op.cit.*pp.291-6

(٤٩) عن دير سانت كاترين وحجاجه انظر. Rey, *op. cit.* pp.287-91

(٥٠) مثلا ، يطلق William of Tyre (xx,31, p. 1000) على نور الدين (الأمير العادل، الفطن الحصيف، والأصل الثانى للتقاليد الدينية princeps justus, vafer et providus, et secundum gentis suae traditiones religiosus).

وشعر بالحرج عندما عرض عليه صديق فرنجى ارسال ابنه كى يتعلم فى اوروبا الغربية . وكان يراهم برابرة بعض الشئ ، ويضحك منهم مع أصدقائه المسيحيين الوطنيين ، غير انه كان يستطيع أن يتوصل إلى تفاهم معهم . وكان الوافدون الجدد من الغرب بمثابة العقبة الواحدة التى تعوق الصداقة ، ففى احدى المرات كان جالسا مع فرسان المعبد فى القدس وقام يصلى فى ركن من المسجد الأقصى بعد أن استأذنهم ، فأهانه أحد الفرسان إهانة فظة ، وسارع فارس آخر من فرسان المعبد يشرح له أن ذلك الرجل الفظ قد جاء لتوه من اوروبا وهو لا يعرف بعد أى سلوك حسن(٥١).

الكنيسة الأرثوذكسية

دأب المهاجرون في الواقع، بطبيعتهم الفجة، على تدمير سياسة الشرق الفرنجى، وهم الذين جاءوا لحرب من أجل الصليب وقد عقدوا العزم على عدم السماح بأى تأخير فى تحقيق غايتهم. وكانوا أقوياء فى الكنيسة بوجه خاص . ولم يكن أىّ من بطارقة القدس اللاتين فى القرن الثانى عشر قد ولد فى فلسطين ، وليس هناك من عظام رجال الكنيسة اللاتينية سوى وليم رئيس أساقفة صور الذي أُنكر عليه منصب البطريارقية . ونادرا ما كان نفوذ الكنيسة مؤيدا للتفاهم مع الكفرة ؛ بل كان نفوذها فاجعا بشكل أكبر فى علاقاتها حتى مع المسيحيين الوطنيين . وكان للمسيحيين الوطنيين نفوذ عظيم لدى عواهل المسلمين ، وكان الكثير من أشهر مشاهير الكتاب والفلاسفة العرب ، وجميع الأطباء تقريبا مسيحيين . وكانوا خليقين بتشكيل جسر بين العالمين الشرقى والغربي.

وقد قبلت طوائف الأرثوذكس فى فلسطين الهرمية اللاتينية نظرا لوجود رجال الدين الأرثوذكس الأعلى جميعا فى المنفى وقت الغزو . وحاول البطريق ديامبرت أن يحرم قساوستهم من مراكزهم فى كنيسة القبر المقدس ، غير أنه حدثت أحداث فى قداس النار المقدسة عام ١١٠١م ، وأبقى نفوذ الملك على رجال الدين فى الكنيسة وسمح باقامة الشعائر الأرثوذكسية فيها . وكان التاج صديقا دائما للأرثوذكس ، فكانت مورفيا – مليكة بلدوين الثانى وأم مليسيند – أميرة ارثوذكسية ، وكذلك كانت الملكتان زوجتا ولدىّ ميليسيند أرثوذكسيين. وكان بلدوين الأول يظهر آيات

---

(٥١) Usama, ed. Hitti, *passim*, esp. pp. 161-70

التشريف في تعامله مع رئيس دير القديس ساباس ، وهي الهرمية الأرثوذكسية الرائدة التي بقيت في فلسطين ؛ ووهبت الملكة مليسيند الأراضي للدير الذى ربما كان مدينا للتاج ببعض الخدمات . وتمكن الامبراطور مانويل من الحفاظ على مكانته الحامية للمصالح الأرثوذكسية ، ويتضح ذلك مما قام به من اصلاحات كان مسؤولا عنها في الكنيستين الكبيرتين : كنيسة القبرالمقدس وكنيسة الميلاد . وفي ذات الوقت تقريبا ، وربما بمساعدة الامبراطور ، أعيد بناء وزخرفة دير القديس إيوثيميوس في برية يهودا . على أن المودة لم تتزايد بين رجال الدين اللاتين واليونانيين ؛ ففي عام ١١٠٤م استقبل الحاج الروسى دانيال بحفاوة في المنشآت اللاتينية ، لكن الحاج اليوناني فوكاس الذى حج عام ١١٨٤م ، وبرغم زيارته لمنشآت لاتينية ، لم يستلطف اللاتينيين ، باستثناء راهب اسباني عاش في وقت ما في الأناضول ، ويقص مرحا معجزة أربكت الكاهن اللاتيني الذى يطلق عليه أسقف اللد "المتقحّم" . والأرجح أن محاولة الهرمية اللاتينية لفرض دفع العشور على الأرثوذكس، إلى جانب ازدرائها للأرثوذكس حتى أنه كان نادرا ما تسمح لهم الكنائس الكبيرة باقامة شعائر عقيدتهم ، هو الذى قلل استحباب الأرثوذكس للحكم الفرنجي ، وجعلهم على استعداد لقبول استرداد صلاح الدين للبلاد - بل وللترحيب به - بعد أن انتهت حماية مانويل لهم . وفي انطاكية ، أسفر وجود مجتمع يوناني قوى ، وما حدث من تطورات سياسية عن ظهور العداوة علانية بين اليونانيين واللاتين ، مما أضعف الامارة على نحو جسيم(٥٢).

---

(٥٢) انظر Daniel the Higumene في اماكن متفرقة ، و John Phocas, *A Brief Description*، في اماكن متفرقة . وانظر ايضا Rey, op.cit. pp.75-93 ، و Cahen, loc.cit. عندما كانت الحاجة الروسية إيوفروسين (Euphrosyne of Polotsk) تموت في فلسطين التمست من رئيس دير القديس ساباس أن يجد لها مقبرة ملائمة باعتباره رئيس رجال الكنيسة الأرثوذكسية . انظر de Khitrowo, 'Pélerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne'، في *Revue de l'Orient Latin*, vol. III, pp. 32'5. وقام الكتاب الأرثوذكس المتأخرون - مثل دوثيسيوس Dositheus في القرن السادس عشر - والذين كرهوا التسليم بحقيقة ان الأرثوذكس قبلوا البطارقة اللاتين من ١٠٩٩م الى ١١٨٧م ، باصدار قائمة بستة بطارقة أو سبعة في الفترة بين وفاة سيميون عام ١٠٩٩م وحتى ١١٨٧م (Dositheus, II, p.1243; Le Quien, *Oriens Christianus*, III, pp.498-503) وهناك من يدعى John ، بطريق القدس ، الذى آيد إدانة Soterichus عام ١١٥٧م ، وجون آخر بطريق القدس - ويفترض انه نفس الشخص - الذى كتب بحثا ضد اللاتين في نفس الفترة تقريبا (Drumbacher, *Gesch. der Byz. Literatur*, p.91) ويحتمل ان الإمبراطور مانويل كان يفكر في إعادة الاستيلاء على بطريارقية القدس ، واحتفظ ببطريق لذلك اليوم . غير انه من الواضح ان الأرثوذكس في فلسطين خضعوا للبطريق اللاتيني . ويتأكد وجود قساوسة يونانيين في كنيسة القبر المقدس ، في *Carulaire du Saint Sépulcre*, ed. Rozière, p 177.

وفى المملكة ذاتها ، لم تكن طوائف الهراطقة بذات أهمية خارج القدس ، حيث كانت كلها تقريبا تحتفظ بمنشآت فى كنيسة القبر المقدس . وحاول دبامبيرت دون جدوى طردهم هم ايضا ؛ فقد حفظ لهم التاج حقوقهم . وكانت الملكة مليسيند فى الواقع قد منحت تأييدها شخصيا للسيريان اليعاقبة عند نظر الدعوى التى رفعوها ضد فارس فرنجى، وفى كونتية طرابلس كانت أهم كنيسة هرطيقية هى كنيسة الموارنة ، وأتباعها هم الباقون من العقيدة المونوثيليتية[٥٣] وعاملتهم الكنيسة المسيحية بما يندر من اللباقة والصبر ؛ وفى عام ١١٨٠م وافقت الطائفة على الإعتراف بسيادة الكرسى الأسقفى الرومانى ، شريطة أن يحتفظ رعاياها بطقوسهم الدينية وعاداتهم السيريانية ولم يتخلوا عن معتقدهم الهرطيقى القائل بوجود إرادة واحدة للمسيح . وأما عن مفاوضاتهم - التى لا نعرف عنها سوى النذر اليسير - فقد أدارها باقتدار البطريق إيمرى بطريق انطاكية . إن القبول بهذه الكنيسة المتحدة الأولى[٥٤] يظهر أن البابوية كانت على استعداد للسماح بأعراف متشعبة ، وحتى بلاهوت مشكوك فيه ، شريطة الإعتراف بسلطتها النهائية[٥٥].

رفاهية الشرق الفرنجى

كانت الكنيسة الأرمينية المنفصلة فى امارة انطاكية قوية وتلقى التشجيع من الأمراء ، الذين رأوا فيها غريما نافعا ضد الكنيسة الأرثوذكسية . وفى الرها كان الأرمن يحظون بصداقة آل كورتناى رغم أنهم كانوا محل ريبة من بلدوين الأول وبلدوين الثانى. وجاء الكثير من أساقفة الأرمن للاعتراف بسيادة البابا ، وحضر البعض منهم عددا من المجامع الكنسية التى عقدتها الكنيسة اللاتينية ، وهم يغفرون فى التعاليم اللاتينية مالا يغفر فى التعاليم اليونانية . وفى بادئ الأمر كان السيريان اليعاقبة فى عداوة صريحة للصليبيين ويفضلون الحكم الاسلامى ؛ ولكن بعد سقوط الرها ، أصبحوا فى حالة صلح مع أمير انطاكية ، إسميا بسبب معجزة عند قبر القديس بارسوما ، وفعليا

(٥٣) (المترجم): المونوثيليتية Monotheletism : معتقد لاهوتى يرى أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٥٤) (المترجم): الكنيسة المتحدة Uniate Church : أية كنيسة مسيحية شرقية متحدة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وانما تمارس طقوسها الخاصة بها وأعرافها وما الى ذلك.

(٥٥) انظر Dib, article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*, vol.x, 1.

لشعورهم شعورا عاما بخوف من بيزنطة وكراهيتها . وكان البطريق اليعقوبى ميخائيل - وهو احد عظام مؤرخى عصره - صديقا للبطريق إمرى ، وقام بزيارة ودية للقدس . ولم يكن هناك من كنائس المراطقة الأخرى كنيسة تعتبر ذات اهمية فى الدويلات الفرنجية(٥٦).

وأما المسلمون من رعايا الفرنج ، فقد قبلوا اسيادهم بهدوء ، واعترفوا بعدالة ادارتهم ؛ ومن الواضح أنهم لا يعتمد عليهم اذا ساءت أمور المسيحيين . وأما اليهود ، فكانوا على حق في تفضيلهم حكم العرب الذين كانوا يعاملونهم دائما بأمانة وشفقة ، ولو بازدراء معين(٥٧).

كان الشرق الفرنجى، فى نظر الحاج الغربى المعاصر، بمثابة صدمة لما كان عليه من رفاهية وفجور. وأما المؤرخ العصرى فكان بالأحرى يتأسى لتعصب الصليبيين وبربريتهم المشينة . ومع ذلك ، يمكن تفسير كلا الجانبين بالجو الذى كان سائدا هناك . فكانت الحياة بالنسبة للمستعمرين الفرنج غير يسيرة ومحفوفة بالمخاطر . إذ كانوا فى أرض ازدهرت فيها المكائد والقتل ، والعدو يتربص عبر الحدود القريبة . ولم يكن أحد يعلم متى سوف يسلم من طعنة خنجر تأتيه من احد الحشاشين المخلصين ، أو متى ينجو من سم يدسه له خدمه . وتفشت بينهم امراض غامضة لا يعرفون عنها سوى القليل ؛ وحتى بمساعدة الأطباء المحليين ، لم يعش فرنجى طويلا فى الشرق . وكانت النساء أكثر حظا من الرجال ؛ لتجنبهن مخاطر القتال . ونظرا للمعرفة الطبية الأفضل فى الشرق ، كانت الولادة أقل خطورة منها فى الغرب . بيد أن وفيات الاطفال كانت مرتفعة ، ولا سيما بين الأولاد . فكانت الإقطاعية تلو الإقطاعية تقع فى يد وريثة ، يغوى ميراثها مغامرى الغرب المترددين للنساء ؛ على انه فى الأغلب الأعم كانت الضياع الضخمة تفتقر إلى سيد لها وقت الأزمة ، ولم تكن أية زيجة سوى مسألة نزاع وتآمر . وغالبا ما كان الزواج عقيما ، إذ فشل الكثيرون من أعنف المحاربين فى أن ينجب طفلا. وأدى التزاوج بين العائلات النبيلة القليلة إلى زيادة التنافس الشخصى . وكانت الاقطاعيات توهب وتقسّم بقليل من الاعتبار للضرورات الجغرافية ؛ وتواترت المشاحرات بين أقرب الأنسباء.

---

(٥٦) أنظر أدناه ص ٤٢٨ ، وكذلك مقدمة Nau's edition of Michael the Syrian.

(٥٧) Ibn Jubayr, ed Wright, pp 304-5 وتظهر احصائيات Benjamin of Tudela ازدهارا أعظم لليهود فى ظل الحكم الاسلامى.

وكان الهيكل الإجتماعي الذى جلبه الفرنج من الغرب يستلزم نظام استخلاف وراثى منتظم ، واعتناء بالقوة العاملة . وكان الانحطاط المادى للعنصر الانسانى غاية فى الخطورة ؛ فأحالهم الخوف وحوشا وخونة ، وأطلق الإرتياب حبهم للمباهج التافهة . وبينما كانت سيطرتهم آخذة فى الضعف والوهن ، زاد اسرافهم فى مباريات الفروسية ومظاهر البطولة . وكان الزائرون والوطنيون على السواء يرتاعون لما يرونه حولهم من فسوق وتطرف، وكان أسوأ المسيئين هو البطريق هيراكليوس(٥٨) بيد أن الزائر الأعقل كان يفهم أن تحت هذا السطح الرائع كان كل شئ سيئا ؛ فالملك الذى كان مثقلا بالحرير والذهب كان دائم الحتياج إلى المال لدفع رواتب جنده . وربما يتلقى فارس المعبد المتعجرف - الذى يعد أكياس نقوده عدا - استدعاء فى اية لحظة ليقاتل بشراسة تفوق ما عرفه الغرب . وقد ينهض المعربدون - كضيوف قلعة كيراك فى١١٨٣م - من المائدة على أصوات آلات المنجنيق يقذفها الكفرة لتدق أسوار القلعة . إن زخرف الحياة الأنيقة المرحة فى الشرق الفرنجى كانت معلقة بخيط رفيع من القلق ، والريبة ، والخوف ؛ وقد يتساءل المتفرج بحق ما اذا كانت المغامرة تستطيع أن تستمر طويلا ، حتى فى ظل أفضل الحكام.

---

(٥٨) *Estoire d'Eracles,* II, p.88; Ernoul, pp.83-7; *Itinerarium Regis Ricardi,* pp.5-6; Caesarius of Heisterbach, *Dialogus Miraculorum,* I, p. 188 ويعزو هذا الأخير سقوط القدس الى فساد فرنج الشرق.

الفصل الثانى:

ارتفاع نجم نور الدين

ارتفاع نجم نور الدين

"وَخَرَجَ غَالِباً وَلِكَيْ يَغْلِبَ"

(رؤيا يوحنا اللاهوتى ٦ : ٢)

كان ريموند أمير أنطاكية مصيبا فى حثه زعماء الحملة الصليبية الثانية على السير للاستيلاء على حلب . ولقد جنى عليه فشله فى اقناعهم ، فكلفه حياته . ذلك أن نور الدين كان العدو الرئيسى للعالم المسيحى ؛ ولو كان هناك جيش كبير لدى ريموند فى ١١٤٧م لكان خليقا بأن يسحقه . كان نور الدين سيد حلب والرها ، ولم يكن أونر صاحب دمشق ولا صغار الأمراء المستقلين فى وادى العاصى ليخفوا لنجدته ؛ كما لم يكن ليعتمد على مساعدة أخيه سيف الدين صاحب الموصل الذى كانت له مشاكله الخاصة به فى العراق. غير أن حماقة الصليبيين دفعت بأونر إلى الدخول فى تحالف معه يبقى طالما بقى الخطر ؛ وواتته فرصة التدخل فى شؤون طرابلس فراح يحكم قبضته على أواسط سوريا .

وكان لريموند كذلك ما يبرر رفضه الانضمام إلى الحملة الصليبية . فلم يكن

يسعه، لا هو ولا جوسلين كونت الرها ، ترك أراضيهما مكشوفة لنور الدين، وحتى عندما كان الصليبيون أمام دمشق أغار جنود من حلب على الأراضي المسيحية. وذهب جوسلين نفسه - تحت علم الهدنة - إلى معسكر نور الدين متوسلا الرحمة؛ وكان كل ماحصل عليه فترة راحة مؤقتة(١). وفي تلك الأثناء كان مسعود سلطان قونية في سلام مع بيزنطة، فانتهز ما كان فيه الفرنج من ارتباك وهاجم مرعش. فاستعد ريموند لملاقاته، ولذا أرسل مسعود إلى نور الدين للقيام بهجوم مضلّل، فأجيب إلى طلبه؛ غير أن ريموند كان قد تحالف مع كردي من زعماء الحشاشين - علي بن وفا - الذي كان يحمل من الكراهية لنور الدين ما يفوق كراهيته للمسيحيين، فباغت ريموند نور الدين في نوفمبر ١١٤٨م أثناء زحفه خلال القرى الواقعة في سهل السواد في أفاميا، على الطريق من أنطاكية إلى مرعش. وكان قائدا نور الدين الرئيسيان - شيركوه الكردي وابن الداية من وجهاء حلب - قد تشاجرا، ورفض الأول الاشتراك في المعركة؛ واضطر الجيش الاسلامي كله إلى أن ينسحب انسحابا سريعا مشينا. وفي الربيع التالي هاجم نور الدين البلاد مرة اخرى وهزم ريموند في بجراس بالقرب من ساحة القتال السابقة. ثم تحول جنوبا لمحاصرة قلعة إيناب، وهي واحدة من المعاقل القليلة المتروكة للمسيحيين شرقي نهر العاصي، فسارع ريموند لانقاذها ومعه جيش صغير وقليل من حلفائه الحشاشين يقودهم علي بن وفا؛ وبتلقي نور الدين معلومات خاطئة عن قوة ريموند، اضطر إلى الانسحاب. وفي حقيقة الأمر، كان جيش نور الدين الذي يتألف من ستة آلاف فارس يفوق جيش الفرنج المؤلف من أربعة آلاف فارس وألف راجل. وإزاء نصيحة علي ابن وفا قرر ريموند تعزيز حامية إيناب. على أن نور الدين أدرك الآن ضعف ريموند. ففي ٢٨ يونية ١١٤٩م كان الجيش المسيحي معسكرا في قاع واد من الوديان بالقرب من نبع مراد في الوادي بين إيناب ومستنقع الغاب، فزحف جنود نور الدين أثناء الليل وحاصروا الجيش المسيحي. وفي الصباح تحقق ريموند من أن فرصته الوحيدة للخروج هي الهجوم؛ غير أن طبيعة الأرض كانت ضده، وهبت رياح قذفت بالأتربة في أعين فرسانه أثناء شق طريقهم على خيولهم أعلى المنحدر، ولم تمض ساعات قليلة حتى احتثت شأفة الجيش كله. وكان بين القتلى رينالد أمير مرعش وزعيم الحشاشين علي ابن وفا. وهلك ريموند نفسه، قتله شيركوه وبذا استعاد استحسان سيده الذي فقده في أفاميا. ووضعت جمجمة الأمير في صندوق فضي، وأرسلها نور الدين هدية لسيده

---

(١) Ibn al-Furat, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 382.

الروحى الخليفة فى بغداد[٢].

١١٥٠م : إعتقال الكونت جوسلين

كان جوسلين كونت الرها هانئا بهدنة مزعزعة مع المسلمين ، ولذا رفض مساعدة غريمه القديم ريموند . والآن جاء دوره . إذ أن نور الدين اخترق الأراضى الأنطاكية مستوليا على أرزغان وتل كشفان ، ثم داهم حاميتى أرتاح وحارم الواقعتين أبعد إلى الشمال ، وبذا استكمل إحكام قبضته على أواسط وادى العاصى ، ثم تحول غربا ليظهر أمام أسوار أنطاكية نفسها وراح يغير على الجوار حتى على ميناء السويدية[٣]. ولم يبذل جوسلين أية محاولة لإنقاذ رفاقه الفرنج ، وانما سار إلى مرعش يحدوه الأمل فى الاستيلاء على ميراث رينالد الذى كان زوج ابنته . ودخل المدينة ، لكنه تركها باقتراب السلطان مسعود ، تاركا فيها حامية سرعان ما استسلمت للسلاجقة نظير الوعد بالإبقاء على حياة المسيحيين ؛ لكنهم عندما انطلقوا مع قساوستهم على الطريق الذاهب إلى انطاكية ، قتلوا عن آخرهم . وطارد مسعود جوسلين حتى جوار تل بشير . بيد أن التعزيزات كانت تقترب ، ولم يكن نور الدين راغبا فى أن يرى جوسلين - الذى كان لا يزال عميله - يفقد أراضيه ليفوز بها السلاجقة . ووجد مسعود أن من السياسة أن ينسحب . وبعد ذلك ، سعى أراتقة الجزيرة - الذين حدد لهم نور الدين وأخويه حدودهم الجنوبية - إلى التوسع بطول الفرات على حساب الأرمن فى كركر الذين كانوا أتباعا يدفعون الجزية لرينالد . وبدد جوسلين طاقاته عبثا بارسال المساعدة إلى بازل حاكم كركر ، إذ استولى قرة أرسلان الأرتقى على كامل مقاطعة كركر وخرتبرت ، مما أبهج المسيحيين اليعاقبة الذين كانوا يفضلون حكم أرسلان بصورة لا حدود لها على حكم رينالد لتحيزه الشديد إلى جانب الأرمن ، ومشاعره البغيضة نحو اليعاقبة[٤]. وفى شتاء عام ١١٤٩م خاصم نور الدين جوسلين ؛ ولم تنجح هجماته

---

(٢) William of Tyre, xvii, 9, pp.771-3p ؛ وخطاب قهرمان نظام فرسان المعبد الى السيد الأعظم Everard ، الوارد فى R.H.F. vol. xv, p.541؛ وأيضا Cinnamus, pp. 122-3; Michael the Syrian, iii, pp. 288-9; *Cron. Anon Syr.* Syriac edition, p.296; Matthew of Edessa, cclix, p. 329; Gregory the priest, p.142; Ibn al-Qalanisi, pp. 288-92; Abu Shama, pp. 10-12; Ibn al-Furat, loc.cit.، ويحدد ابن الفرات موقع المعركة بأنه أرض الحاتم .

(٣) William of Tyre, xvii, 10pp. 774-5; letter to Everard, loc. cit.; *Chron. Anon. Syr* (Syriac edition), p.299; Ibn al-Qalanisi, p.293; Ibn al-Athir, *Atabegs,* p. 180.

(٤) Matthew of Edessa, cclix, pp. 330-1; Gregory the Priest, p. 162; Michael the Syrian,

الأولى ، لكنه في ابريل ١١٥٠م ، وبينما كان جوسلين متجها إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها هناك ، انفصل عن حرسه المرافق له ووقع في أيدى بعض التركمان المنفصلين من الباحثين عن المغانم ؛ وكانوا على استعداد لإطلاق سراحه لقاء فدية ثمينة، لولا أن سمع نور الدين باعتقاله فأرسل فصيلة من الفرسان لتأخذه من آسريه . وفقئت عيناه وسجن في حلب حيث مات بعد تسع سنين في ١١٥٩م(٥).

وهكذا ، وبحلول صيف عام ١١٥٠م ، كانت كل من إمارتي انطاكية وما تبقى من كونتية الرها قد فقدتا سيديهما . ولم يغامر نور الدين بالمضى إلى أكثر من ذلك . وعندما وصلت أنطاكية أنباء موت ريموند ، حول البطريق إيمرى المدينة إلى حالة دفاع وسارع بارسال مبعوث جنوبا يلتمس من الملك بلدوين أن يخف للنجدة . ثم انه حصل من نور الدين على هدنة قصيرة بعد أن وعد بتسليم انطاكية في حالة عدم وصول الملك بلدوين . وكان ذلك ملائما لنور الدين الذى توخى جانب الحذر في عدم محاصرة انطاكية ، بينما كان قادرا على الإستيلاء على أفاميا وهى آخر القلاع الأنطاكية فى وادى نهر العاصى . وهرع الملك بلدوين شمالا مع فرقة صغيرة تتألف فى أغلبها من فرسان المعبد . وأغرى ظهوره نور الدين للقبول بهدنة أطول ساعدت على كبح مسعود من مهاجمة تل بشير . بيد أنه على الرغم من إنقاذ أنطاكية، تقلصت الإمارة لتقتصر على وادى انطاكية نفسها والساحل من الإسكندرونة إلى اللاذقية(٦).

---

iii, 294-6 and Armenian version, p.346.

(٥) William of Tyre, xvii, ii, pp. 776-7; Matthew of Edessa, cclix, pp. 331-2; Michael the Syrian, iii, p. 295; *Chron. Anon. Syr.*, p.300; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, op.cit. p.386; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 523-4; *Bustan*, p.544; Ibn al-Qalanisi, p.300; Ibn al-Athir, p.481; Sibt ibn el-Djauzi, p. 122 وتختلف الظروف فى كل من هذه المراجع . فيقول وليم إنه كان ذاهبا الى أنطاكية تلبية لنداء من البطريق ؛ بينما يقول كل من ماثيو (اوف إيديسّا - الرها) وابن الفرات إنه كان يسعى الى الحصول على المساعدة من انطاكية ؛ ويرد فى التاريخ المجهول Anonymous Chronicle انه ذهب ليضمن الوصاية على انطاكية . ويعزو وليم انفصاله عن صحبته الى تلبيته لنداء الطبيعة ، بينما يعزوه سبت بن الجوزى الى علاقة حب مع فتاة تركمانية ، وابن الفرات الى سقوطه من على جواده أثناء اصطدام الجواد بشجرة - واستنادا الى ميخائيل السورى لم تكن الشجرة موجودة إلا فى خياله (ويرى المؤرخون السريان أن اعتقال جوسلين جاء انتقاما إلهيا لاضطهاده اليعاقبة)؛ ويقول المؤرخون السريان إن يهوديا تعرف عليه . والتاريخ المجهول هو فقط الذى يقول بتعميته . ويضيف ميخائيل السريانى إنه لم يسمح له بالاعتراف - وهو على فراش الموت - على يد قس لاتينى ، وانما تلقى اعترافه أسقف يعقوبى من الرها.

(٦) William of Tyre, xvii, 15, pp.783-4; Ibn al-Qalanisi, pp. 293-4, 300-1.

١١٥٠م : استسلام تل بشير لبيزنطة

بقى بعد ذلك ترتيب حكومة الامارتين العاريتين من رئيسيهما . وكان نور الدين قد هاجم تل بشير بعد اعتقال جوسلين ، غير أن الكونتيسة بياتريس أعدت دفاعا شجاعا أجبر نور الدين على الانسحاب . ومع ذلك ، كان من الواضح عدم امكان الإحتفاظ بتل بشير ؛ إذ كانت مكتظة باللاجئين من الفرنج والأرمن القادمين من المقاطعات البعيدة عنها . وكان المسيحيون اليعاقبة يجهرون بالعصيان ، وقد انعزلت المنطقة كلها عن انطاكية بغزوات نور الدين . وأثناء أن كانت الكونتيسة تعد العدة للتخلى عن أراضيها جاءتها رسالة من الامبراطور مانويل ، الذى كان مدركا للموقف، عارضا أن يشترى منها كل ماتبقى من بلدها . والتزمت بياتريس بواجبها فأحالت العرض إلى الملك بلدوين الذى كان فى انطاكية . وناقش العرض لوردات مملكته المرافقين له، ولوردات انطاكية ، الذين شعروا بالاشمئزاز لفكرة تسليم أية أراض ليونانى بغيض ؛ غير انهم قرروا بعد الموافقة أنه لو فقد العالم المسيحى تلك الأماكن الآن فيكون الامبراطور هو المخطئ . وأحضر حاكم كيليكيا البيزنطى - توماس - أحولة من الذهب ، لا ندرى عددها ، إلى كونتيسة انطاكية ، التى سلمت جنوده فى المقابل القلاع الست : تل بشير وراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك والبيرة . وصاحب جيش الملك الحاميات البيزنطية فى رحلتها ، وفى طريق العودة قام بحراسة الكثير من اللاجئين الفرنج والأرمن المرتابين فى الحكم البيزنطى والذين فضلوا الأمان الأكبر فى انطاكية . واحتفظت الكونتيسة من الصفقة بقلعة واحدة هى قلعة الروم الواقعة على الفرات بالقرب من سميساط ، والتى اعطتها لكاثوليكوس بطريق الأرمن . وبقيت القلعة مكان اقامة تحت السيادة التركية لقرن ونصف من الزمان . وبينما كان الجيش الملكى واللاجئون فى طريق عودتهم حاول نور الدين مباغتتهم فى عينتاب ، غير أن التنظيم الرائع الذى نظمه الملك حافظ عليهم . وتوسل اليه أبرز باروناته - همفرى (اوف تورون) وروبرت (اوف سورديفال) - السماح لهم بالاستيلاء على عينتاب بإسمه ، لكنه التزم بالصفقة التى عقدها مع الامبراطور(٧) .

(٧) William of Tyre, xvii 16-17, pp.784-9 . لم يذكر المؤرخون البيزنطيون الصفقة . وللاطلاع على التاريخ والأدلة التى أوردها المؤرخون المسلمون انظر Cahen, op.cit.p.388 n.24; Michael the Syrian, iii, p 297, and Armenian version, p 343.. ويرد التخلى عن روم قلعة فى Vartan, p.435, and Vahram, *Rhymed Chronicle*, p.618. وتقول نسخة ميخائيل السيريانية إن الكونتيسة طلبت من كاثوليكوس مساعدة لورد أرمينى فى روم قلعة ، ولكن كاثوليكوس نصب نفسه فيها بالخديعة .

أما لماذا عرض الامبراطور الصفقة ، فليس يقينيا . إذ ظن الفرنج أن كبرياء الامبراطور جعله يعتقد أن بامكانة الاحتفاظ بتلك القلاع . ولا يحتمل انه كانت تنقصه المعلومات بهذه الدرجة . بل انه كان يتطلع إلى المستقبل ؛ إذ انه كان يأمل منذ وقت طويل أن يأتي بقواته إلى سوريا ، فاذا فقدها الآن فسوف يمكنه استعادتها فيما بعد ، ولن يكون هناك نزاع حول مطالبته . وفى حقيقة الأمر ، فقدها فى اقل من سنة ، عندما تحالف نور الدين مع مسعود السلجوقى . ولقد ولد التحالف فى اليوم التالى لاعتقال جوسلين ، وتثبّت بزواج نور الدين من ابنة مسعود ، وتقرر أن تكون تل بشير مهرا لها . على أن مسعود لم ينضم إلى زوج ابنته فى الهجوم على بياتريس ، وانما راح يتملى العيش باستيلائه على كيسوم وبهسنا فى شمال البلاد ، وقد منحهما لإبنه قلج أرسلان . وفى ربيع ١١٥١م راح نور الدين ومسعود كلاهما يهاجمان الحاميات ، وسارع الأراتقة للحصول على نصيبهم . فسقطت عينتاب ودُلوك فى يد مسعود ، وسميساط والبيرة فى يد تمرتاش الأرتقى صاحب ماردين ، ورواندال فى يد نور الدين . وفى تل بشير نفسها قاوم البيزنطيون لفترة ، لكن المجاعة اجبرتهم على الخروج والتسليم لنائب نور الدين حسان أمير منبج فى يولية ١١٥١م(٨) وذهب كل ماتبقى من أثر لكونتية الرها . وتقاعدت الكونتيسة بياتريس فى القدس مع ولديها جوسلين وآجنس ، اللذين قدر لهما فيما بعد أن يلعبا أدوارا فاجعة فى سقوط المملكة(٩).

١١٥٠م : خطّاب الأميرة كونستانس

ضاعت الرها ، وبقيت انطاكية . وترك موت ريموند الأميرة كونستانس أرملة بأربعة أطفال صغار . وكان العرش عرشها بحق الميراث ؛ غير أنه ساد الشعور بضرورة أن يحكم رجل فى مثل هذه الظروف . وكان ابنها الأكبر - بوهموند الثالث - فى الخامسة من العمر عندما مات ابوه ؛ ولابد من وجود وصى من الذكور إلى أن يشب عن الطوق . وكان البطريق إيمرى قد تولى المسؤولية وقت الأزمة ، لكن الرأى العام العلمانى لم تعجبه فكرة وجود وصى من رجال الكنيسة . واتضحت ضرورة زواج

---

(٨) William of Tyre, loc.cit.; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p.277; Michael, Armenian version, p.297; Ibn al-Qalanisi, p.309; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 132 (with the wrong date).

(٩) ربما كانت إيزابيلا - ابنة جوسلين الثانى الأخرى - (انظر اعلاه ص ٢٢٢) ميتة آنذاك ، رغم ان وليم الصورى (ص ٧٧٧) يذكرها عندما مات أبوها على انها على قيد الحياة .

الأميرة الشابة مرة أخرى . وفى الوقت ذاته يتعين أن يكون الوصى الملائم ابـن خالتهـا، الملك بلدوين ، بصفته أقرب أقربائها الذكور وليس السيد الأعلى . وكـان الملـك قـد سارع إلى انطاكية لدى وصوله نبأ موت ريموند ، وعالج الموقف بحكمة تندر مـع صبى مثله فى التاسعة عشرة من عمره ، وقبلت سلطته قبولا عاما . وعـاد فـى أوائـل صيـف ١١٥٠م ليعتمد صفقة بيع أراضى الكونتيسة بياتريس . وكانت مشغولياته فى الجنـوب من الكثرة بحيث لم يكـن راغبـا فـى البقـاء فـى انطاكيـة ليكـون مسـؤولا عنهـا.فحـث كونستانس – التى لم تكن قد حاوزت الثانيـة والعشـرين – علـى اختيـار زوج آخـر ، واقترح عليها ثلاثة مرشحين : الأول ، ييف (اوف نيسـيل)، كونـت سواسـون ، وهـو نبيل فرنسي ثرى حاء إلى فلسطين فى أعقاب الحملة الصليبية الثانية ، وكان يعـد العـدة للاستقرار؛ والثانى ، وولتر (اوف فالكونبرج) ، من أسرة سانت أومـير التـى احتفظـت فيما مضى بلورديـة الجليل ؛ والثـالث ، رالـف (اوف مـيرل) ، البـارون الشـجاع فـى كونتية طرابلس . لكن كونستانس لم تكن راغبـة فـى أى منهـم ؛ واضطـر بلدويـن إلى العودة إلى القدس تاركا الحكومة فى يديها[١٠].

وأسخط كونستانس الحاح ابـن خالتهـا الصغـير ، فغـيرت سياسـتها فـى الحـال وأرسلت سفارة إلى القسطنطينية تلتمس من الامبراطور ، باعتباره سـيدها الأعلـى ، أن يختار لها زوجا. وكان مانويل تواقا إلى إجابة رغباتها ؛ فالنفوذ البيزنطى كان آخذا فـى التدهور بطول الحدود الجنوبيـة الشـرقية للامبراطوريـة . وحـوالى عـام ١١٤٣م ، كـان الأمير الأرمينى – ثوروس الروبينى – قد هرب من القسـطنطينية ولاذ ببـلاط ابـن عمـه جوسلين الثانى كونت الرها ، حيث جمع فرقة من بنى وطنه تمكن بها من استعادة قلعـة العائلة – فاهكا ، الواقعة شرقى جبال طوروس . وانضم إليه اثنان من اخوتـه – سـتيفن ومليح – وأنشأ صداقة مع لورد فرنجى فى الجوار ، سيمون حاكم رعبـان الـذى زوجـه ابنته . وفى عام ١١٥١م ، وبينما كان المسلمون يحيّرون البيزنطيين بهجومهم علـى تـل بشير ، زحف جنوبا إلى داخل سهل كيليكيا وهزم توماس الحاكم البيزنطى وقتلـه عنـد بوابات المصيصة ؛ مما دفع مانويل على الفـور إلى ارسـال ابـن عمـه أندرونيكـوس علـى رأس جيش لاسترجاع الأراضى التى استولى عليها ثـوروس ؛ والآن جاءتـه الفرصـه فـى وقتها المناسب لكى يضع من يرشحه هو على عرش انطاكية .

---

(١٠) William of Tyre, xvii , 18 pp. 789-91. يفتـرض وليـم الصـورى أن البطريـق إيمـرى شجـع كونسـتانس على رفض المرشحين خشـية ان يضعف سلطانه. Cinnamus, p. 178

ولم يقدّر النجاح لأى من المشروعين . ذلك أن أندرونيكوس كومنينوس كان أكثر أفراد عائلته الموهوبة اتقادا للذكاء وأكثرهم فتنة ، لولا ما كان فيه من تهور واهمال . فبينما كان فى طريقه لمحاصرة ثوروس فى المصيصة ، هاجمه الأرمن بخروج مفاجئ وأطبقوا عليه على حين غرة ، فهزم جيشه هزيمة منكرة وهرب هو نفسه عائدا إلى القسطنطينية يجر اذيال العار . وفى اختيار زوج للأميرة كونستانس ، أظهر مانويل من البراعة أكثر مما أظهر من التعقل ؛ إذ أرسل زوج أخته القيصر جون روجر ، وهو أرمل أخته المفضلة ماريا . وكان جون روجر نورمانديا بالمولد ، ورغم أنه تآمر مرة ليستأثر بالعرش الامبراطورى ، أصبح الآن صديقا يثق فيه الامبراطور الذى أدرك أن بالامكان الإعتماد على ولائه ، وانما اعتقد أن أصله اللاتينى يرشحه للقبول لدى النبلاء الفرنج ، ولقد نسى التفكير فى كونستانس نفسها . إذ كان جليا أن جون روجر فى أواسط العمر ، وقد فقد سحر شبابه كله ؛ فلا ينتظر من الأميرة الشابة ، التى اشتهر زوجها الأول بوسامته ، أن تقبل هذا القرين الذى يفتقر إلى الرومانتيكية . وهكذا ودعت الأميرة القيصر فى رحلة العودة إلى الامبراطور. كان الأفضل للامبراطور أن يرسل أندرونيكوس إلى أنطاكية ، وجون روجر إلى كيليكيا للقتال(١١).

١١٥٢م : اغتيال ريموند الثانى

كان الملك بلدوين مهيأ لأن يرحب بأى زوج لإبنة خالته ؛ إذ جاءته مؤخرا مسؤولية جديدة . ذلك أن الحياة الزوجية التى عاشها الكونت ريموند الثانى كونت طرابلس وزوجته هوديرنا التى جاءت من القدس لم تكن حياة سعيدة تماما . إذ كانت هوديرنا - كشأن أختيها مليسيند وأليس - عنيدة طروب . ودارت همسات الريبة حول شرعية ابنتها مليسيند ، مما دفع ريموند فى غيرته عليها إلى محاولة حبسها فى عزلة على النمط الشرقى . وبلغت العلاقة بينهما فى أوائل عام ١١٥٢م من السوء ما جعل الملكة مليسيند تشعر أن من واجبها التدخل ؛ فسافرت مع ابنها الملك إلى طرابلس لترقيع مصالحة عاجلة . وانتهز بلدوين الفرصة واستدعى كونستانس إلى طرابلس حيث راحت الخالتان توبخانها على إصرارها العنيد على البقاء مترملة . على أنه ربما لأنهما

---

(١١) Cinnamus, pp.121-4, 178; Matthew of Edessa, cclxiii, pp.334-6, Gregory the Priest, p. 166; Sembat the Constable, p. 619; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 504-6; Michael the Syrian, iii p. 281.

كلتاهما لم تنجحا تماما فى الحياة الزوجية ، ذهبت نصائحهما أدراج الرياح ، وعادت كونستانس إلى أنطاكية دون أن تعد بشئ . غير أن تدخل الملكة كان فعالا بصورة اكبر مع ريموند وهوديرنا اللذين وافقا على تسوية شجارهما ، وارتئى أنه من الأفضل أن تمضى هوديرنا أجازة طويلة للاستجمام فى القدس ، وقرر ريموند البقاء فى طرابلس لفترة نظرا لما أشيع من أن نور الدين سوف يهاجم الكونتية . وانطلقت الملكة والكونتيسة على الطريق الذاهب جنوبا وقد صاحبهما الكونت مسافة ميل أو ميلين . وأثناء عودته ، وبينما كان يعبر البوابة الجنوبية لعاصمته ، وثبت عليه عصبة من الحشاشين وطعنوه إلى أن أسلم الروح . وقد حاول رالف (اوف ميرل) وفارس آخر كانا معه حمايته فلقيا حتفهما كذلك . وقد تم الأمر بسرعة شديدة بحيث لم يتمكن حراسه من الإمساك بالقتلة . وكان الملك يلعب النرد عندما جاءته الصيحات من أسفل المدينة ؛ واندفعت الحامية إلى سلاحها ونزلت كالسيل فى الشوارع تقتل كل مسلم تراه. غير أن الحشاشين تمكنوا من الهرب و لم يعرف قط الدافع الذي دفعهم إلى ذلك(١٢).

وأُرسل من يدعو الملكة والكونتيسة للعودة ، وباشرت هوديرنا الوصاية باسم ابنها ريموند الثالث البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة . لكن الوضع كان يتطلب - كشأن أنطاكية - وجود رجل وصى على الحكومة ؛ واضطر بلدوين إلى تولى الوصاية بصفته أقرب الأقرباء الذكور . وفى الحال شن نور الدين غارة وصلت حتى طرطوس التى احتلها جنوده لفترة ، لكنهم سرعان ما دحروا منها ، وسلمها بلدوين - بموافقة هوديرنا - إلى فرسان المعبد(١٣).

١١٥٢م : الملكة مليسيند ترضخ لإبنها

أسعد الملك أن تمكنه الظروف من العودة إلى القدس . وكانت الملكة مليسيند المدركة لحقها الوراثى عازفة عن تسليم السلطة لإبنها . لكنه تجاوز الآن الثانية والعشرين من عمره ، والرأى العام يطالب بتويجه كحاكم ناضج . ولذلك ، رتبت الملكة مع البطريق فولشر أن يعيد تتويجها إلى جانبه حتى تكون مشاركتها السلطة

(١٢) William of Tyre, xvii, 18-19, pp.789-92.

(١٣) *Ibid., loc. cit.;* Ibn al-Qalanisi, p. 312.

مقبولة بوضوح . وكان من المقرر أن يتم التتويج يوم أحد الفصح ٣٠ مارس ، لكن بلدوين أرجأه . ثم إنه دون أن ترتاب أمه في شئ دخل كنيسة القبر المقدس يوم الثلاثاء مع حرس من الفرسان وأجبر البطريق الغاضب على تتويجه بمفرده . وكان ذلك علامة على صدع بيّن في المملكة . إذ كان للملكة الكثير من الأصدقاء ؛ مناس (اوف هيرج) ، حاميها الذى كان لا يزال المسؤول عن الأمن (كونستابل) ، وكانت لعائلته اتصالات كثيرة من بينها عشيرة إيبلين الكبيرة التى تسيطر على السهل الفلسطينى ، وكان الكثير من نبلاء جنوب فلسطين من شيعته . والجدير بالملاحظة أنه عندما ذهب بلدوين إلى انطاكية عام ١١٤٩م ، لم يصحبه سوى القليل من النبلاء ، إذ انها كانت بعثة لا تهتم بها الملكة . وكان النبلاء الذين صحبوه تحت زعامة همفرى (اوف تورون) ووليم (اوف فالكونبرج) ، وكانت ضياعهما فى الجليل . و لم يغامر الملك باللجوء إلى القوة ، وانما عقد مجلسا كبيرا للمملكة دافع فيه عن مطالبه . وبفضل نفوذ رجال الدين أجبر على قبول حل وسط يقضى بتخصيص الجليل والشمال كمملكة له ، وأن تحتفظ مليسيند بالقدس نفسها ونابلس ، أى يهودا والسامرة ، وأن يوضع الساحل - حيث يحتفظ الأخ الصغير للملك ، أماليك ، بكونتية يافا - تحت سيادتها . وكان حلا مستحيلا . وبعد أشهر قليلة طلب الملك من أمه التنازل له عن القدس التى بدونها - كما قال - لا يستطيع الاضطلاع بحماية المملكة . وبتعاظم قوة نور الدين يوما بعد يوم، قويت الحجة ، وبدأ حتى أهم مؤيدى الملكة يتخلون عن قضيتها . غير انها صمدت بقوة وحصنت القدس ونابلس ضد ابنها ؛ ولسوء حظها باغت جنود الملك حاميها الكونستابل مناس واعتقلوه فى قلعته ميرابيل الواقعة على حافة السهل الساحلى، وأُبقى على حياته فى مقابل الوعد بالرحيل عن الشرق وعدم العودة مطلقا ؛ وعلى الأثر استسلمت نابلس للملك . أما الملكة ، التى هجرها نبلاؤها العوام ، والتى كانت ما تزال تحظى بتأييد البطريق ، فحاولت الصمود فى القدس. بيد أن المواطنين انقلبوا عليها ايضا وأرغموها على الكف عن النزاع ، وبعد أيام قليلة سلمت المدينة لابنها الذى لم يتخذ حيالها اجراء قويا نظرا لأن الرأى القانونى قد ارتأى ذلك مناسبا فيما يبدو . وسمح لها بالاحتفاظ بنابلس وما حولها كبائنة لها ؛ ورغم انها تقاعدت من الحياة السياسية ، فقد احتفظت بحق رعاية الكنيسة . والآن وقد أمسى بلدوين هو الأعلى فى الحكومة العلمانية ، استبدل الكونستابل مناس بصديقه همفرى أمير تبنين[١٤].

---

(١٤) William of Tyre, xvii, 13-14 pp. 779-83. كانت نابلس فى حوزة Philip of Milly الذى كان يؤيد الملكة . وفى ٣١ يولية ١١٦١م وقبل أسابيع قليلة من موت الملكة ، مُنح السيادة على ما وراء الأردن بدلا من نابلس (Rohrich, *Regesta*, p.96). و لم تستشر الملكة مليسيند ، وربما لمرضها

كان نور الدين يراقب تلك الاضرابات فى الأسر الحاكمة الفرنجية بغاية الاستحسان. و لم يجشم نفسه عناء شن هجمات حادة ضد المسيحيين خلال تلك السنوات ؛ إذ كانت أمامه مهمة أكثر الحاحا ، ألا وهى غزو دمشق . ولقد واصل أونر الدمشقى حروبا متقطعة ضد المسيحيين لعدة شهور بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، غير أن خشيته من نور الدين دفعته إلى قبول عروض السلام من القدس بكل سرور ، وفى مايو ١١٤٩م ، أعدت هدنة لمدة سنتين . وبعد ذلك مباشرة مات أونر فى شهر أغسطس ، وتولى الحكومة الأمير مجير الدين ابن بوري، حفيد تغطكين والذي كان أونر يحكم بإسمه(١٥) . وكان ضعيفا ، مما أتاح لنور الدين فرصته ، على أن نور الدين لم يتصرف فى الحال ، إذ مات أخوه سيف الدين فى شهر نوفمبر ، وكان لزاما إعادة ترتيب أراضى الأسرة على الأثر . وورث الأخ الأصغر قطب الدين الموصل والأراضى الواقعة فى العراق ، وقد اعترف بسيادة نور الدين عليه فيما يبدو(١٦). وفى شهر مارس من العام التالى زحف نور الدين على دمشق ، لكن الأمطار الغزيرة أبطأت من تقدمه ، وأتاحت لمجير الدين الوقت الكافى لطلب المساعدة من القدس ؛ ولذا انسحب نور الدين بعد أن تلقى وعدا بأن ينقش إسمه على العملة ويذكر فى الصلوات العامة فى مساجد دمشق بعد اسم الخليفة وسلطان فارس . ومن ثم تأكدت حقوقه فى سيادة عليا غير واضحة.

وفى مايو ١١٥١م ظهر نور الدين مرة اخرى أمام دمشق ، وجاء الفرنج ثانية لإنقاذها . وبعد أن عسكر نور الدين بالقرب من المدينة مدة شهر ، انسحب إلى بعلبك المجاورة التى كان يحكمها قائده أيوب ، أخو شيركوه . وفى تلك الأثناء سار الفرنج بقيادة الملك بلدوين إلى دمشق ، وسمح للكثير منهم بزيارة الأسواق داخل الأسوار ،

الشديد رغم ان ان اختها هوديرنا، كونتيسة طرابلس الأرملة وافقت على الصفقة . ويفترض ان فيليب كان يمتلك اراضيه التى منحتها له مليسيند وليس بلدوين الذى لم يتمكن من تنفيذ التبادل إلا على فراش موتها ، وإلا لحرمت من صديقها وتابعها الرئيسى . وكانت زوجة فيليب ، إيزابيلا أو إليزابث ، ابنة اخت Pagan of Oultrejourdain، والوريثة فى نهاية الأمر لخليفته Maurice الذى انضم الى فرسان المعبد بعد موتها. ويبدو أن زوج اختها ماريا Walter Brisebarre III of Beirut اصبح لورد ما وراء الأردن التى حصل عليها بدلا من اقطاعيته فى بيروت ، ولكن بعد موت زوجته وابنتها الرضيعة يبدو أنه فقد الاقطاعية التى انتقلت الى ابنة فيليب Stephanie. انظر Rey, 'Les Seigneurs de Montréal'andk 'Les Seigneurs de Barut' فى اماكن متفرقة.

(١٥) Ibn al-Qalanisi, p 295. يقول ان اونر مات بمرض الدوستاريا .

(١٦) Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.171-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 295-6. وللاطلاع على مصادر المخطوطات انظر Cahen, *op.cit* p.393 n 12.

بينما قام مجير الدين بزيارة ودية للملك فى المعسكر المسيحى ؛ لكن قوة الحلفاء لم تكن بالقدر الكافى لتعقب نور الدين ، وبدلا من ذلك زحفوا على بصرى التى تمرد أميرها سرخاك على دمشق وقبل المساعدة من نور الدين . ولم تفلح حملة الفرنج ؛ غير انه سرعان ما تصادق سرخاك مع الفرنج ، كما هى عادة صغار امراء المسلمين فى التقلب السريع ، واضطر مجير الدين إلى الاستنجاد بنور الدين لإرغام سرخاك على الطاعة . وعندما اتجه نور الدين شمالا مرة اخرى ، تبعه مجير الدين وقام بزيارته فى حلب حيث وقعت معاهدة صداقة . لكن أمراء دمشق كانوا لا يزالون رافضين التخلى عن التحالف مع الفرنج . وفى ديسمبر ١١٥١م حاولت عصبة من التركمان الإغارة على بانياس ، وربما كان ذلك بأوامر من أيوب ؛ وقامت الحملة بغارة مضادة على أراضى بعلبك دحرها أيوب . وتوخى مجير الدين جانب الحذر واعلن براءته من أية علاقة له بتلك الأعمال الحربية . وشعر بحرج أكبر فى خريف ١١٥٢م عندما جاءه فجأة الأمير الأرتقى تمرتاش صاحب مردين على رأس جيش من التركمان قاده خلال المستنقعات حول حافة الصحراء ، وطلب مساعدته فى شن هجوم مفاجئ على القدس ، وربما سمع بالمشاجرات التى دارت بين بلدوين ومليسيند فظن أن توجيه ضربة قوية قد تفلح . وتصرف نور الدين تصرفا وسطا بأن سمح له بشراء المؤن ، ثم سعى إلى اقناعه بعدم المضى أكثر من ذلك . ثم إن تمرتاش اندفع اندفاعا عنيفا عبر الأردن ، وضرب معسكره أينما اتفق فوق جبل الزيتون ، بينما كان نبلاء الفرنج مجتمعين فى مجلسهم فى نابلس ، للترتيب بلا شك لبائنة مليسيند . غير أن حامية القدس خرجت فى هجوم مفاجئ على التركمان الذين وجدو أن هجومهم المفاجئ قد فشل ، فاضطروا إلى الانسحاب إلى الأردن ، حيث هجم عليهم جيش المملكة وهم على ضفة النهر وفاز بنصر كامل[١٧].

١١٥٠م : مكائد فى مصر

خلال الأشهر التالية تحول انتباه المسيحيين والمسلمين على السواء إلى مصر . إذ بدت الخلافة الفاطمية هناك على وشك التصدع . فمنذ مقتل الوزير الأفضل ومصر تفتقر إلى حاكم مقتدر . وقد حكم الخليفة الآمر حتى اكتوبر ١١٢٩م إلى أن اغتيل هو الآخر ، وتعاقب على تصريف شؤون الحكم سلسلة من الوزراء الضعاف . وأظهر الحافظ – الذى خلف الآمر – شخصية أقوى وحاول التخلص من اصفاد الوزارة بتعيين

---

(١٧) William of Tyre, xvii, 20pp. 792-4.

ابنه هو نفسه ، حسن ، في منصب الوزير . بيد أن حسن لم يكن بالوزير المطيع وقتل بأوامر من أبيه عام ١١٣٥م . وراح الوزير التالى ، فاهرام الأرمينى المولد ، يملأ الادارة بأبناء جلدته ، لا لشئ سوى اثارة رد فعل عام ١١٣٧م عندما جرت فى شوارع القاهرة دماء المسيحيين لعدة ايام . ولم يكن الحافظ أكثر حظا من آخر وزرائه رغم انه تشبث بالعرش إلى أن مات عام ١١٤٩م . وبدأ عهد ابنه الظافر بحرب اهلية صريحة بين أبرز قائديه ، ففاز أمير بن صلاح وأصبح وزيرا ، لكى يُغتال هو نفسه بعد ذلك بثلاث سنوات[١٨]. وتسببت مكائده وما سال من دماء لا نهاية لها فى ارتفاع الآمال لدى أعداء مصر ؛ فبدأ الملك بلدوين عام ١١٥٠م فى ترميم تحصينات غزة ، وكانت عسقلان ماتزال قلعة فاطمية ، وقد دأبت حاميتها على الإغارة على الأراضى المسيحية. فتقرر أن تكون غزة قاعدة للعمليات ضد عسقلان ؛ مما أثار مشاعر الخطر لدى الوزير ابن صلاح . وكان من بين اللاجئين فى البلاط الفاطمى الأمير أسامة بن منقذ ، وكان من قبل فى خدمة زنكى . فأرسله ابن صلاح إلى نور الدين ، الذى كان معسكرا الآن امام دمشق ، طالبا منه القيام بهجوم مضلل فى الجليل ، وسيقوم الأسطول المصرى فى الوقت نفسه بالإغارة على الموانى الفرنجية . ولم تفلح السفارة، اذ كانت هناك مشاغل اخرى تشغل نور الدين . وتوقف اسامة فى طريق عودته فى عسقلان لعامين للقيام بعمليات عسكرية ضد الفرنج المحليين ، ثم عاد إلى مصر فى الوقت المناسب ليشهد المكائد التى تلت مقتل ابن صلاح على يد عباس ، ابن زوجته ، بتستر من الخليفة[١٩].

١١٥٣م : الإستيلاء على عسقلان

وقد حدثت تلك الفواجع فى أعقاب انتصار الملك بلدوين على أمه مباشرة ، فقرر مهاجمة عسقلان وراح يعد لها عدتها بعناية ، وفى ٢٥ يناير ١١٥٣م ظهر أمام أسوارها جيش المملكة كله بكل آلات الحصار التى استطاعت المملكة تعبئتها . وكان مع الملك السيدان العظيمان لنظامى فرسان المستشفى وفرسان المعبد مع نخبة رجالهما ، وعظام لوردات المملكة العلمانيين ، والبطريق ، ورؤساء أساقفة صور وقيسارية والناصرة،

---

(١٨) Ibn al-Athir, pp. 475-7. See Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 190-5 .

(١٩) Usama, ed. Hitti, pp. 40-3; Ibn al-Qalanısi, p. 314. أورد ابن القلانيسى pp. 307-8 الغارة المصرية على الساحل الفرنجى عام ١١٥١م ، كما أورد غارة مصرية انطلقت من عسقلان فى ابريل عام ١١٥٢م (p.312).

وأسقفا بيت لحم وعكا . وكان الصليب الحقيقي بصحبة البطريق . وكانت عسقلان قلعة هائلة ، ممتدة من البحر في شبه دائرة عظيمة ، وتحصيناتها مرممة ترميما رائعا ؛ وكانت الحكومة المصرية تحتفظ فيها دائما بمخزونات الأسلحة والمؤن . وظل الجيش الفرنجي لعدة شهور عاجزا عن التأثير في أسوارها رغم قدرته على حصارها حصارا كاملا . وأضافت سفن الحجاج التي وصلت في وقت عيد الفصح تقريبا قوة إلى صفوف رجال الجيش الفرنجي ، غير أن وصول الاسطور المصرى في شهر يونية وازن الموقف . و لم يغامر الفاطميون بانقاذ عسقلان برا ، وانما ارسلوا اسطولا من سبعين سفينة محملة بالرجال والسلاح والامدادات من كل لون. و لم يجرؤ جيرارد أمير صيدا - الذى كان قائدا للسفن العشرين وهي كل ما تملكه المملكة - على مهاجمة الاسطول المصرى ، وأبحرت السفن المصرية منتصرة إلى داخل الميناء مما أشعل حماس المدافعين، لكن السفن أبحرت بعيدا بعد أن أفرغت حمولتها ، وتواصل الحصار . وكان أروع آلات الحصار لدى الفرنج برج خشبي هائل تجاوز ارتفاعه قمة الأسوار وراح يقذف الأحجار والحزم المشتعلة في شوراع المدينة مباشرة . وفي إحدى الليالي ، في أواخر يولية ، زحف بعض أفراد الحامية خارجين من المدينة وأشعلوا فيه النيران ؛ لكن رياحا هبت ودفعت الكتلة الهائلة المحترقة لترتطم بالسور ، وتسببت الحرارة الشديدة في تفكك بناء السور ، وفي الصباح كانت هناك فجوة في السور . وقرر فرسان المعبد - الذين كانوا يشغلون ذلك القطاع - أن يكون لهم وحدهم شرف النصر . فوقف بعض رجالهم يمنعون أى مسيحى آخر من الاقتراب ، واندفع أربعون فارسا إلى داخل المدينة . وظنت الحامية بادئ الأمر أن كل شئ قد ضاع ، لكنها بعدما رأت ضآلة عدد فرسان المعبد ، أحاطوا بهم وقتلوهم . وأصلحت فجوة السور على عجل ، وعلقت جثث فرسان المعبد خارج الأسوار .

وأثناء الهدنة التى عقدت لتمكين كل جانب من دفن موتاه ، عقد الملك مجلسا في خيمته ، أمام الصليب الحقيقي . وثبطت همة النبلاء العلمانيين مما حدث ، فرغبوا في التخلي عن الحصار ؛ غير أن البطريق ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى - ريموند (اوف لو بوى) حثا الملك على مواصلة الحصار ، وكان لفصاحتهما فعلها في إثارة مشاعر البارونات ، وعاد الهجوم بأعنف مما كان .

وفي ١٩ أغسطس ، وبعد قصف المدينة قصفا شرسا ، قررت الحامية التسليم ، بشرط السماح للمواطنين بالرحيل المأمون مع منقولاتهم . وقبل بلدوين الشرط والتزم به باخلاص . وبينما كانت الجموع الغفيرة من المسلمين تتدفق خارج المدينة برا وبحرا

للعودة إلى مصر ، دخل الفرنج المدينة فى حالة من الإثارة واستولوا على الحصن بما فيه من مخزونات الثروة والأسلحة الهائلة . وعهد بسيادة عسقلان إلى أخى الملك أماليك ، كونت يافا . وتحول المسجد الكبير إلى كتدرائية القديس بول ورسم البطريق أحد قساوستها أسقفا وهو أبسالوم . وفيما بعد حصل أسقف بيت لحم ، جيرارد ، على مرسوم من روما باستقلال المقر الأسقفى(٢٠).

كان الاستيلاء على عسقلان آخر الانتصارات العظيمة لملوك القدس ، ورفعت مكانتهم ارتفاعا كبيرا. ذلك أن الفوز أخيرا بالمدينة التى كانت تعرف بأنها عروس سوريا ، يعتبر انجازا مدويا ؛ بيد أنه في واقع الأمر لم يعد بفائدة حقيقة . وعلى الرغم من أن تلك القلعة كانت قاعدة انطلاق غارات صغيرة فى الأراضى الفرنجية ، لم تعد مصر تمثل تهديدا خطيرا للمسيحيين . لكن الفرنج ، وقد باتت عسقلان فى أيديهم ، أصبحوا هدفا لكمائن المغامرات الخطرة التي تأتيهم من النيل . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل نور الدين ، ببصيرة سياسته ، يحجم عن محاولة التدخل فى الحملة ، فيما عدا ما كان يخطط له من حملة على بانياس اشترك معه فى التخطيط لها مجير الدين صاحب دمشق ، والتى لم تسفر عن شئ نظرا للمشاحرات المتبادلة بينهما . و لم يكن بوسعه التأسى لإضعاف مصر ، ولا لتحول انتباه الفرنج نحو الجنوب . أما مجير الدين صاحب دمشق ، فقد تأثر بسهولة أكبر ، وسارع يؤكد لبلدوين صداقته المخلصة ، ووافق على أن يدفع له إتاوة سنوية. وبينما راح لوردات الفرنج يتجولون ويغيرون على الأراضى الدمشقة كما يحلو لهم ، كان سفراء الفرنج يأتون إلى المدينة لجمع المال لمليكهم(٢١).

١١٥٤م : نور الدين يأخذ دمشق

كان مجير الدين ومستشاروه حريصين على سلامتهم الشخصية ، ولذا فضلوا أن تكون دمشق محمية فرنجية من أجل مصيرهم على أن يصبح نور الدين سيدهم . لكن المواطن العادى فى دمشق كان يشعر بأن غطرسة المسيحيين فوق الإحتمال وأن الأسرة

---

(٢٠) William of Tyre, xvii, 1-5, 27-30, pp.794-802, 804-13: Ibn al-Qalanisi, pp.314-17; Abu Shama, pp.77-8; Ibn al-Athir, p.490.

(٢١) Ibn al-Qalanisi, pp. 315-16 (الذى التزم التحفظ حول النفوذ الفرنجى فى دمشق)؛ Ibn al-Athir, p.496, and *Atabegs*, p.189.

المالكة البورية ما تفتأ تثبت خيانتها للعقيدة ، فانتهز أيوب أمير بعلبك تلك المشاعر ، وأرسل عملاءه يتوغلون فى المدينة يحثون على الازدراء من مجير الدين ، وحدث فى تلك الآونة أن نقص الطعام فى دمشق ؛ فاحتجز نور الدين القوافل التى كانت تجلب الحبوب من الشمال، وراح عملاء أيوب ينشرون الشائعات بأن ذلك خطأ مجير الدين لرفضه التعاون مع رفاقه المسلمين . ثم إن نور الدين أقنع مجير الدين بأن الكثير من وجهاء دمشق يتآمرون ضده ، مما أثار الذعر لدى مجير الدين فنكل بهم . وهكذا خسر مجير الدين كلا من الأغنياء والفقراء ، وعندئذ جاء شيركوه ، أخو أيوب ، أمام دمشق كسفير من نور الدين ، مصطحبا قوة مسلحة كما تجرى عليه عادة البعثات الصديقة ، غير أنه كان يضمر الشر . ولم يسمح له مجير الدين بدخول المدينة ولا خرج لمقابلته ؛ فاعتبر نور الدين ذلك التصرف اهانة لسفيره وزحف على دمشق بجيش كبير . وذهبت رسل مجير الدين تناشد فى يأسها مساعدة الفرنج ، لكنها أرسلت بعد فوات الأوان ؛ إذ ضرب نور الدين معسكره أمام أسوار دمشق يوم ١٨ ابريل ١١٥٤م ؛ وبعد أسبوع واحد بالضبط ، حدثت أثناءه بعض المناوشات خارج السور الشرقى ، ساعدت امرأة يهودية بعض رجاله على دخول الحى اليهودى ، وعلى الفور فتحت الجماهير البوابة الشرقية ليدخل سواد الجيش . وفر مجير الدين إلى القلعة ، لكنه استسلم بعد ساعات قليلة فقط ؛ ووهبت له حياته وامارة حمص . على انه بعد اسابيع قليلة حامت الريب حول تآمره مع أصدقاء قدامى فى دمشق ؛ فطرد من حمص . ورفض مدينة باليس التى عرضت عليه فى الفرات ، وتقاعد فى بغداد .

وفى تلك الأثناء استقبل مواطنو دمشق نور الدين بآيات البهجة البالغة . ومنع جنوده من النهب ، وملأ الأسواق من فوره بالمواد الغذائية ، وألغى الضرائب على الفاكهة والخضروات . وعاد نور الدين إلى حلب بعدما ترك أيوب لتصريف شؤون دمشق . وعهد إلى أحد النبلاء المحليين بمدينة بعلبك ، لكنه تمرد فيما بعد على نور الدين وكان لزاما إخضاعه للطاعة(٢٢).

رجحت كفة الميزان رجحانا شديدا باستيلاء نور الدين على دمشق وفاقت استيلاء بلدوين على عسقلان . إذ امتدت أراضيه الآن جنوبا بطول الحدود الشرقية للدويلات الفرنجية ، من الرها إلى ما وراء الأردن ؛ ولم يبق فى سوريا الاسلامية سوى القليل من

(٢٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 318-21; Ibn al-Athir, pp. 496-7, and *Atabegs*, pp. 190-2; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 527-8.

الامارات الصغيرة التي احتفظت باستقلالها ، مثل شيزر . وعلى الرغم من أن الممتلكات الفرنجية كانت أوسع في مساحتها وأغنى في مواردها ، كان لممتلكات نور الدين ميزة الوحدة في ظل سيد واحد لا يكاد يضايقه أحد من أتباعه كما كان يعاني الفرنج من اتباعهم المتعجرفين . لقد كان نجمه آخذا في الصعود . لكنه كان شديد الحذر من مواصلة انتصاراته بسرعة سريعة ؛ ويبدو انه أعاد تأكيد التحالف بين دمشق والقدس وجدد الهدنة في ١١٥٦م لسنتين أخريين عندما دفع ثمانية آلاف وحدة من عملة الدوقاتية[٢٣] استمرارا للإتاوة التي كان يدفعها مجير الدين . ويعزى صبره أساسا إلى تنافسه مع سلاجقة الأناضول ، إذ كان يرغب في الاستيلاء على نصيبهم من كونتية الرها السابقة[٢٤].

ومات السلطان مسعود عام ١١٥٥م ؛ وعلى الفور تشاجر ولداه قلج أرسلان الثاني وشاهنشاه على الميراث . وفاز الأول بتأييد الأميرين الدانشمنديين ذوالنون صاحب قيسارية وذوالقرنين صاحب ملطية ؛ وفاز الثاني بتأييد أكبر الدانشمنديين ، ياغي سيان صاحب سيواس . وطلب ياغي سيان مساعدة نور الدين الذي استجاب بالهجوم على الحصة السلجوقية من الرها السابقة ، فضم مدن عينتاب ودولوك ، وربما المصيصة . وهزم قلج أرسلان أخيه . ورغم أنه حاول التحالف مع الأرمن والفرنج ضد نور الدين ، إلا أنه أجبر على قبول خسارته لمقاطعته الفراتية[٢٥].

ولما أمن نور الدين على نفسه في الشمال ، عاد إلى الجنوب مرة اخرى . وفي شهر فبراير ١١٥٧م نقض بلدوين هدنته مع نور الدين . ذلك أن أعدادا غفيرة من التركمان ، وقد اعتمدوا على الهدنة ، جاءوا بقطعان أغنامهم وخيولهم لترعى في المراعي الخصيبة بالقرب من الحدود عند بانياس . ولم يستطع الملك بلدوين - المثقل بالديون لحبه للرفاهية لا غير - مقاومة إغراء مهاجمة الرعاة في غير ارتياب منهم واختطاف قطعانهم . وقد أكسبه هذا الخرق المخزي لالتزاماته ، أنفس الغنائم التي غنمتها فلسطين لعقود كثيرة ؛ لكنها أنهضت نور الدين للثأر . ففي الوقت الذي توقف فيه في بعلبك لإخضاع أميرها المتمرد ، كان قائده شيركوه قد هزم بعض

---

(٢٣) (المترجم): نسبة إلى اللفظة الإيطالية *Ducato* أي عملة ذهبية أو فضية تحمل صورة دوق Duke، كانت تستعمل فيما سبق في بعض البلدان الأوروبية.

(٢٤) Ibn al-Qalalnisi, pp. 322, 327.

(٢٥) *Ibid.*pp 324-5; Nicetas Choniates, pp. 152-4; Gregory the Priest, p. 176.

الغارات اللاتينية فى البقاع ؛ واجتث أخوه نصرالدين شأفة جماعة من فرسان المستشفى بالقرب من نابلس . وفى شهر مايو انطلق نور الدين نفسه من دمشق لحصار بانياس ؛ وقهر شيركوه قوة إغاثة صغيرة ثم لحق بسيده أمام اسوار بانياس . وسرعان ما استولى على اسفل المدينة ، لكن القلعة – التى تبعد مسافة ميلين على قمة جبل شديد الانحدار – صمدت بقيادة الكونستابل همفرى (اوف تورون) ، الذى أوشك على الاستسلام لولا أن جاءت الأنباء باقتراب الملك ؛ فأشعل نور الدين النيران فى أسفل المدينة وانسحب تاركا بلدوين يدخل بانياس ويصلح الأسوار . وبينما كان الفرنج فى طريق عودتهم جنوب الأردن ، انقض عليهم نور الدين شمال بحر الجليل مباشرة ونال نصرا مؤزرا. وبشق الأنفس هرب الملك إلى صفد ، وتمكن المسلمون من العودة لمحاصرة بانياس. على انه بعد أيام قليلة جاءت الأنباء من الشمال بتوقع هجوم من قلج أرسلان، الأمر الذى دفع نور الدين إلى التخلى عن محاولة الحصار وأسرع عائدا إلى حلب(٢٦).

١١٥٦م : زلازل في سوريا

وكانت هناك أسباب اخرى تدعو إلى الرغبة فى تجنب حرب صريحة فى تلك الآونة .ففى أوائل خريف عام ١١٥٦م ، حدثت فى سائر أنحاء سوريا سلسة من الزلازل . ولم تحدث في دمشق أضرار جسيمة ، وانما جاءت أنباء الدمار من حلب وحماه ، بينما انهار موقع محصن فى أفاميا . وفى نوفمبر وديسمبر حدثت هزات اخرى عانت منها مدينة شيزر . وفى الربيع التالى حدثت هزات اخرى كان لها تأثيرها على قبرص والمدن الساحلية الواقعة شمالى طرابلس . وفى أغسطس ١١٥٧م عانى وادى نهر العاصى من هزات أكثر جسامة . وسقط ضحايا عديدون فى حمص وحلب . وفى حماة كان الدمار من البشاعة بحيث أطلق المؤرخون على الزلزال زلزال حماة . وفى شيزر كانت عائلة المنقذين قد تجمعت لتحتفل بختان أمير صغير عندما انقضت أسوار القلعة الضخمة على أفرادها ؛ ولم يتبق على قيد الحياة من كل الأسرة الحاكمة سوى أميرة شيزر التى أُخرجت من بين الأنقاض ، وأسامة الذى كان بعيدا فى مهمته الدبلوماسية. وكان المسلمون والمسيحيون سواء بسواء منهمكين تماما في إصلاح القلاع المحطمة ولم يفكروا فى حملات هجومية جادة لبعض الوقت(٢٧).

---

(٢٦) William of Tyre, xviii, ii-i5, pp. 834-45; Ibn al-Qalanisi, pp 325-6, 330-7 .

(٢٧) Robert of Torignz, i, p. 309; Michael the Syrian, iii, pp. 315-16, Armenian version,

وفى اكتوبر ١١٥٧م ، وبعد أن عاد نور الدين من بانياس ، سقط فجأة مريضا فى حالة مرئسة فى سارمين . وظنا منه أن قد حان أجله ، أصر على أن يُنقل على محفة إلى حلب ؛ حيث أوصى بوصيته التى تقضى بأن يخلفه أخوه نصر الدين فى دويلاته ، على أن يحكم شيركوه دمشق تحت سيادته . على انه عندما دخل نصر الدين حلب للاستعداد لتسلم الميراث ، لقى معارضة من حاكمها ، ابن الداية ، وحدثت اضطرابات فى الشوارع لم تهدأ إلى أن استدعى وجهاء حلب إلى فراش أميرهم ، فوجدوه ما يزال على قيد الحياة، وقد مرت الأزمة المرضية الآن وبدأ يستعيد صحته ببطء . لكنه بدا وقد فقد شيئا من مبادرته وطاقتــه ؛ فلم يعد المحارب الذى لا يقهر . لقد كانت هناك قوى اخرى آخذة فى الظهور فى سوريا تهيأ للسيطرة على مسرح الأحداث(٢٨).

-p.356; *Chron. Anon. Syr.*(Syriac edition), p. 302; Ibn al-Qalanisi, pp. 338-41; Ibn al
Athir, p. 503; Kemal ad-Din, ed.Blochet, p. 529.. واستنادا الى ابن القلانيسى ، خشى
نورالدين أن يهاجم الفرنج حصونه العارية من الحماية ولذا ابقى على تجمع الجيش لمنع أية حركة
كهذه . ويرد عند أبى شامة طبعة القاهرة، المجلد الأول ص ١١٢، المرثاة الشعرية لأسامة على دمار
عائلته ، التى كان قد تشاجر معها.

(٢٨) William of Tyre, xviii, 17 pp. 847-8; Ibn al-Qalanisi, p. 341; Kemal ad-Din, ed.Blochet, pp. 531-i; Abu Shama, p. 110 (in R.H.C.Or)

الفصل الثالث:

عـودة الإمبـراطور

عودة الامبراطور

"فَيرجعُ مَلِكُ الشِمَال ويُقيمُ جُمهوراً أكثرَ من الأوّل ويأتى بعدَ
حين بعد سنينَ بجيشٍ عظيمٍ وثروةٍ جَزيلةٍ"
(دانيال ١١ : ١٣)

فى عام ١١٥٣م ، وبينما كان نور الدين يركز انتباهه على دمشق ، وأثناء أن كان الملك بلدوين وجيشه أمام عسقلان ، قررت أميرة انطاكية أن تختط مصيرها بنفسها . ذلك أنه كان هناك فارس من بين الفرسان الذين تبعوا لويس ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثانية يدعى رينالد ، هو الابن الأصغر المفلس لجيوفرى (كونت جين ولورد شاتيلون سير لوان) . وكان المستقبل مظلما أمام رينالد (اوف شاتيلون) فى بلده، ولذا لم ينضم إلى الصليبيين عندما عادوا إلى بلادهم ، وانما مكث فى فلسطين حيث التحق بخدمة الملك بلدوين الصغير ، وصحبه إلى انطاكية عام ١١٥١م ؛ وسرعان ما التقطته عينا الأميرة المترملة . ويبدو انه بقى فى امارتها، بعدما تملك اقطاعية صغيرة طبعا ؛ وربما كان وجوده هو الذى دفعها إلى رفض الأزواج المرشحين من الملك والامبراطور . وفى ربيع عام ١١٥٣ قررت أن تتزوجه . وقبل أن تعلن عن نيتها التمست الاذن من الملك، إذ أنه الوصى على دويلتها والسيد الأعلى لعريسها ، وسارع

رينالد إلى عسقلان حيث معسكر الملك وسلمه رسالة كونستانس . ولم يعترض الملك لمعرفته أن رينالد جندى شجاع ، وقبل كل شئ وجد فيه الخلاص من مسؤوليته عن انطاكية ؛ وما أن عاد رينالد إلى انطاكية حتى انعقد الزواج ونُصِّب رينالد أميرا. على انه لم يكن بالزوج الذى يحظى بالقبول إذ ساد الاعتقاد ، ليس فقط لدى عظام الأسر فى أنطاكية وانما ايضا لدى رعايا الأميرة الأكثر تواضعا ، بأنها قد حطت من قدرها بتسليم نفسها لهذا المغرور بحداثة النعمة(١).

وكان من اللائق والصواب أن تطلب كونستانس الإذن من الامبراطور مانويل كذلك ؛ إذ أن القسطنطينية استقبلت أنباء الزواج استقبالا سيئا ، على أن مانويل كان مشغولا آنذاك فى حملة ضد السلاجقة ؛ ولم يكن بوسعه أن يعرب عن حنقه بصورة عملية ؛ وإدراكا منه لحقوقه الأنطاكية أرسل يعرض الإعتراف بالأمير الجديد إذ حارب فرنج انطاكية إلى جانبه ضد ثوروس الأرمينى . وامتثل رينالد طواعية؛ فالتأييد الامبراطورى سيقوى من مركزه شخصيا ؛ فضلا عن أن الأرمن توغلوا فى مقاطعة الإسكندرونة التى يزعم الفرنج انها جزء من الإمارة الأنطاكية ؛ وتصدى لهم رينالد فى معركة قصيرة بالقرب من الإسكندرونة ودحرهم إلى كيليكيا ، وأهدى البلد الذى استعاده إلى نظام فرسان المعبد الذى راح يعمل على حماية مداخلها بإعادة بناء قلعتى قسطون وبجراس اللتين تتحكمان فى البوابات السورية . وكان رينالد قد قرر تنسيق تعاونه مع نظام فرسان المعبد ، ومن ثم بدأ معه علاقة صداقة قدر لها أن تكون مهلكة للقدس(٢).

وبعد أن ضمن رينالد الأراضى التى أرادها، طلب الإعانة المالية من الامبراطور ، الذى رفض مشيرا إلى أن المهمة الرئيسية لم تُنجز بعد، فما كان من ريموند الا أن غير سياسته. وبتشجيع من فرسان المعبد، توصل إلى سلام مع ثوروس واخوته؛ وفى الوقت الذى كان الأرمن يهاجمون فيه القلاع البيزنطية المتبقية فى كيليكيا، قرر تسيير حملة ضد جزيرة قبرص الغنية. لكنه كان يفتقر إلى المال اللازم لهذه الحملة. وكان بطريق

---

(١) William of Tyre, XVII, 26 p. 802، يقول إنها تزوجت سرا قبل حصولها على إذن الملك . ويطلق عليه Cinnamus, p.178 "واحد اسمه رينالد"؛ Michael the Syrian, Armenian version؛ ويرد أصل منشأه فى Schlumberger (*Renauld de Châtillon*, p.3). وقد تم الزواج قبل شهر مايو، عندم أكد رينالد امتيازات البنادقة فى انطاكية (Rohricht, *Regesta*, p.72)

(٢) William of Tyre, XVIII, 10 pp. 834-5; Michaael the Syrian, III, p. 314 and Armenian version, p. 349 ويورد ميخائيل السورى فى تاريخه ما يزيد ثوروس ؛ Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 283

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انطاكية، إيمرى، على جانب كبير من الثراء، وكان قد جاهر بعدم موافقته على زواج كونستانس، فعقد رينالد العزم على معاقبته على النحو الذى يعود عليه بالنفع. وكان إيمرى قد نال احترام الأنطاكيين بما كان له من شجاعة ونشاط فى الأيام السوداء التى أعقبت موت الأمير ريموند؛ لكن البطريق إيمرى كان أميًا منحلّ الخلق مما نال من سمعته وجعلته معرضا للهجوم. وطلب منه ريناالد المال، ولمّا رفض فقد ريناالد أعصابه وألقى به فى غيابة السجن، حيث ضُرب الأسقف ضربا مبرحا على رأسه، ثم لُطّخت جراحات رأسه بالعسل وترك على سطح القلعة مقيدا بالسلاسل تحت الشمس المحرقة طوال يوم كامل من ايام الصيف ليكون ضحية لكافة الحشرات فى الجوار. وأثمر هذا العقاب؛ إذ أسرع البطريق البائس إلى الدفع بدلا من أن يقضي يوما آخر فى العذاب. وفى تلك الأثناء وصلت القصة إلى القدس، فارتاع الملك بلدوين وأرسل فى الحال مستشاره رالف وأسقف عكا للإصرار على اطلاق سراح البطريق فى الحال. وأطلق ريناالد سراحه بعد أن حصل على المال، وعاد إيمرى بصحبة منقذيه إلى القدس حيث استقبله الملك والملكة مليسيند وأخوه البطريق بأسمى آيات التشريف؛ ورفض العودة إلى انطاكية(٣).

١١٥٦م : ريناالد يُغير على قبرص

صدمت تجربة البطريق الدوائر الفرنجية المسؤولة ، لكن ريناالد لم يخجل ، وبامكانه الآن مهاجمة قبرص . وفى ربيع عام ١١٥٦م ، هبط هو وثوروس على الجزيرة فجأة . وكانت قبرص قد تجنبت الحروب والغزوات التى أشاعت الاضطراب فى القارة الآسيوية خلال القرن المنصرم ، وكانت راضية ومزدهرة فى ظل الحكام البيزنطيين . وقبل نصف قرن ، كانت طرود الطعام القبرصية ذات عون كبير لفرنج الحملة الصليبية الأولى عندما كان أفرادها يتضورون جوعا أمام انطاكية ، وكانت العلاقات بين الفرنج وحكومة الجزيرة تنعم بدفء الود ، باستثناء بعض الخلافات الادارية المؤقتة . وما أن سمع الملك بلدوين بخطة ريناالد حتى أرسل رسالة عاجلة لتحذير الجزيرة ، لكنها وصلت بعد فوات الأوان ؛ وتعذر دفع التعزيزات لتصل فى الوقت المناسب . وكان حاكم الجزيرة هو جون كومنينوس ، ابن أخى الامبراطور، وكان معه فى الجزيرة الجندى البارز ميخائيل براناس. وبوصول أنباء الهبوط الفرنجى على الجزيرة ، اندفع براناس بميليشيات الجزيرة

(٣) William of Tyre, xviii, i, pp. 816-17; Cinnamus, p. 181.

إلى الساحل وانتزع نصرا مبدئيا صغيرا ؛ غير أن الغزاة كانوا بأعداد غفيرة ، وسرعان ما تغلبوا على جنوده واسروه هو نفسه ؛ وعندما خف جون كومنينوس لمساعدته أسير هو الآخر . ثم أن الفرنج والأرمن المتصرين انساحوا فى أرجاء الجزيرة يسلبون وينهبون كل ما تقع عليه أعينهم من المبانى التى تستوي فيها الكنائس والأديرة والحوانيت والمنازل الخاصة . وأحرقت الجثث ، وجمعت قطعان الماشية مع السكان كلهم وسيقوا إلى الساحل . واغتصبت النساء، أما الأطفال والطاعنون فى السن غير القادرين على الحركة، فقد قطعت السيوف حناجرهم . وكان نطاق القتل والسلب من السعة والبشاعة بحيث يثير الحسد لدى المغول والهون[٤]. وتواصل الكابوس نحوا من ثلاثة اسابيع ، وبانتشار شائعة بأن الأسطول الامبراطورى فى الأفق، أصدر رينالد أوامره بالعودة إلى السفن التى كانت مكتظة بالاسلاب . فبيعت القطعان والأسراب لأصحابها بأسعار مرتفعة . وأجبر كل قبرصى على أن يفتدى نفسه، ولم يتبق فى الجزيرة من المال يدفع للفدية. ولذا أخذ الغزاة معهم إلى انطاكية الحاكم وبراناس ، بالإضافة إلى كبار رجال الكنيسة وأبرز الملاك وأهم التجار بعلائلاتهم ، ليمكثوا فى السجن إلى أن تصل اموال الفدية ، فيما عدا البعض ممن مُزقت أوصالهم وارسلوا فى هيئة ساخرة إلى القسطنطينية[٥]. ولم تبرأ جزيرة قبرص قط من الخراب الذى احدثه الفرنسيون وحلفاؤهم الأرمن . واكتمل البؤس بزلازل شديدة ضربت قبرص ضربات قاسية عام ١١٥٧م؛ وفى عام ١١٥٨م أغار الأسطول المصرى - الذى لم يغامر قط بدخول المياه القبرصية - ببعض الغارات العارية من الحماية ، والأرجح أن ذلك قد حدث بدون إذن رسمى من حكومة الخليفة ؛ إذ كان من بين المأسورين أخو حاكم الجزيرة الذى استقبل فى القاهرة استقبالا مشرفا وأعيد فى الحال إلى القسطنطينية[٦].

١١٥٧م : الفرنج يهاجمون شيزر

فى عام ١١٥٧م ، عاد كونت فلاندرز - تيرى - إلى فلسطين مع فصيلة من

(٤) (المترجم) الهون Huns : شعب مغولى احتاح أجزاء كبيرة من اوروبا الشرقية والوسطى تحت زعامة أتيلا عام ٤٥٠م تقريبا.

(٥) William of Tyre, xviii, 10, pp. 834-5; Cinnamus, pp. 78-9; Michael the Syrian, iii, p.315, and Armenian version, p.350, Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 284 ؛ ويقول Gregory the Priest, p.187 إن رينالد قطع أنوف القساوسة اليونانيين الذين أسرهم

(٦) Ibn Moyessar, p. 473.

الفرسان ، وفى الخريف قرر بلدوين انتهاز مجيئه ومرض نور الدين لإعادة ترسيخ الأوضاع الفرنجية فى وسط وادى العاصى ، وشجع رينالد على الانضمام إلى الجيش الملكى فى الهجوم على شيزر . وكانت قلعتها، بعد زلزال أغسطس المدمر ، قد سقطت فى أيدى عصبة من المغامرين الحشاشين . ووصل الجيش إلى هناك فى نهاية العام ؛ وفى الحال استولوا على اسفل المدينة ، وبدا سقوط القلعة المحطمة وشيكا لولا أن ثارت مشاجرة بين المحاصرين ؛ إذ وعد بلدوين بأن يهب المدينة لثيرى لتكون نواة لإمارة يحتفظ بها تحت سيادة التاج ؛ غير أن رينالد ادعى بأن المنقذين من رعايا انطاكية ، ومن ثم طلب من ثيرى أن يقدم له فروض الولاء نظير حصوله عليها . وكان الكونت يرى أنه من المحال التفكير فى تقديم فروض الولاء لمثل هذا الرجل المجهول الأصل. و لم يستطع بلدوين تسوية المشكلة إلا بتخليه عن الأراضى المتنازع عليها ، وتحرك الجيش مبتعدا باتجاه الشمال للإستيلاء على أطلال أفاميا ثم محاصرة حارم. وهذه الأراضى أراض أنطاكية بلا شك ، لكن بلدوين وثيرى كانا على استعداد لمساعدة رينالد على استعادتها نظرا لأهميتها الاستراتيجية . وبعد قصف شديد بالمنجنيقات استسلمت فى فبراير ١١٥٨م ، وبعد وقت قليل عهد بها إلى أحد فرسان ثيرى هو رينالد (اوف سانت فاليرى) الذى احتفظ بها تحت سيادة أمير انطاكية(٧).

لم يرض الملك عن تصرف امير انطاكية وقرر إعادة توجيه سياسته . وكان مدركا لعلاقة رينالد السيئة مع الامبراطور الذى لا يُحتمل أن يغفر الغارة على قبرص ، كما كان مدركا لحقيقة أن الجيش البيزنطى لا يزال أقوى الجيوش فى العالم المسيحى . وفى صيف عام ١١٥٧م أرسل سفارة إلى القسطنطينية ملتمسا اختيار عروس من العائلة الامبراطورية . وكان على رأس السفارة أشار ، رئيس اساقفة الناصرة ، الذى مات أثناء الرحلة ، وهمفرى الثانى أمير تبنين . واستقبل الامبراطور مانويل السفارة استقبالا حسنا ؛ وبعد شئ من المفاوضات عرض ابنة اخته ثيودورا مع بائنة مقدارها مائة ألف قطعة هيبربرى ذهبية بالاضافة إلى عشرة آلاف أخرى لمصروفات الزفاف ، وهدايا تعادل ثلاثين الفا اخرى . ولقاء ذلك يتعين منحها عكا والأراضي التابعة لها كبائنة تحتفظ بها فى حالة موت زوجها دون ذرية . وبعودة السفارة وتأكيد الملك قبوله

---

(٧) William of Tyre, xviii, 17-19, pp. 847-53; Robert of Torigny, i, p.316; Michael the Syrian, Armenian version, pp.351-3; Ibn al-Qalanisi, pp.342, 344؛ وكان رينالد (اوف فاليرى) لا يزال أحد بارونات القدس فى ١١٦٠م (Rohricht, *Regesta*, p.94) لكنه عاد الى الغرب بعد ذلك مباشرة . والمؤرخ الوحيد الذى يخبرنا بأنه مُنح حران هو Robert of Torigny.

الشروط ، أبحرت الأميرة الصغيرة من القسطنطينية ووصلت عكا في سبتمبر ١١٥٨م ، وارتحلت في أبهة إلى القدس ، حيث تزوجت الملك بمراسم زواج قام بها البطريق ايمرى الأنطاكي ، إذ لم يكن البابا قد ثبت بعد بطريق القدس المنتخب . وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ، وانما كانت فارعة القامة وجميلة . وسُرّ بها بلدوين ، وسار سيرة الزوج المخلص بعد أن تخلى عن أيام عزوبته المنحلة(٨).

ويبدو أن مانويل وعد اثناء المفاوضات بالانضمام في تحالف ضد نور الدين ، وان بلدوين وافق على ضرورة اخضاع رينالد . وفي تلك الأثناء أغار الملك على الحدود الدمشقية . وفي مارس ١١٥٨م قام هو وكونت فلاندرز بزحف مفاجئ على دمشق نفسها يوم أول ابريل محاصرا قلعة داريا وضواحيها . بيد أن نور الدين ، بعد أن تماثل للشفاء ، كان في طريقه بالفعل جنوبا ليضع نهاية للمكائد التي أينعت هناك اثناء مرضه ، فوصل دمشق في السابع من ابريل مما أثار مشاعر البهجة البالغة لدى سكانها، ورأى بلدوين الحكمة في أن ينسحب . فقام نور الدين بهجوم مضاد ؛ وبينما كان قائده شيركوه يغير على اراضي صيدا ، كان هو نفسه يهاجم قلعة الحبيس جلدك التي بناها الفرنج كمخفر امامي جنوب شرق بحر الجليل على ضفاف نهر اليرموك . وكان الهجوم شديدا على الحامية بحيث سارعت إلى الموافقة على التسليم في حالة عدم وصول العون في غضون عشرة ايام ؛ ولذا خف بلدوين مع الكونت ثيرى لنجدتها . غير انه بدلا من أن يذهب اليها مباشرة ، سلك الطريق الواقع شمال البحيرة والمؤدى إلى دمشق. وأفلحت الحيلة ؛ إذ خشي نور الدين على خطوط مواصلاته فرفع الحصار . وتقابل الجيشان عند قرة البُطيحة الواقعة شرقي وادى الأردن الأعلى . وما أن لمح الفرنج المسلمين حتى هاجموا وهم يظنونهم مجرد فرقة كشافة . لكنهم سمعوا صهيل جواد كان الملك قد اعطاه لأحد الشيوخ المعروف انه مع نور الدين - وقد تعرف الجواد على رائحة أصدقائه القدامى بين خيول الفرنج - فدلهم ذلك الصهيل على أن القوة المسلمة كلها قد وصلت. ووجد نور الدين، الذى لم يكن بكامل عافيته، من حثه على مغادرة ساحة القتال، وبرحيله استدار الجيش كله منسحبا بشئ من عدم النظام. وكان النصر الفرنجي كافيا لاقناع نور الدين طلب الهدنة. وللسنوات القليلة التالية لم تكن هناك أعمال حربية جادة على الحدود السورية الفلسطينية؛ وبذا تمكن كل من بلدوين ونور

(٨) William of Tyre, xviii, 16, 22, pp. 846, 857-8; Gregory the Priest, pp. 186-9; Matthew of Edessa, cclxxiii, pp. 352-8.

الدين من تحويل انتباهه إلى الشمال(٩).

١١٥٨م : الامبراطور مانويل يدخل كيليكيا

انطلق الامبراطور من القسطنطينية فى خريف عام ١١٥٨م على رأس جيش عظيم ميمما وجهه شطر كيليكيا . وبينما كانت القوة الرئيسية تتبعه بطيئة بطول الطريق الساحلى الوعر شرقا أسرع هو إلى الأمام مع قوة تتألف من مجرد خمسمائة فارس . وكانت استعداداته من السرية وحركته من السرعة بحيث لم يعلم أحد فى كيليكيا بمجيئه . وكان الأمير الأرمينى ثوروس فى طرسوس لا يرتاب فى شيء ، إلى أن حدث فجأة فى يوم ما فى اواخر اكتوبر أن اندفع إلى بلاطه حاج لاتينى كان على سابق معرفة به ، يخبره أنه شاهد جنود الامبراطورية على مسيرة مجرد يوم واحد . فجمع ثوروس عائلته وأصدقاءه المقربين وأمواله وهرب من فوره إلى الجبال . وفى اليوم التالى دخل مانويل سهل كيليكيا . وفى الوقت الذى احتل فيه صهره ثيودور فاتاسيس طرسوس ، واصل هو تقدمه بسرعة ؛ وفى غضون اسبوعين كانت كل مدن كيليكيا حتى عين زربه فى قبضته . على أن ثوروس نفسه كان مايزال يراوغه ؛ فبينما راحت الفصائل تجوب الوديان بحثا عنه ، كان هو يهرب من قمة تل إلى قمة اخرى إلى أن وجد الملاذ أخيرا على قمة صخرة شاهقة يطلق عليها داجيج ، بالقرب من منابع نهر اليردان التى لم يسكن أطلالها أحد لأجيال خلت . ولم يعرف أحد مكان اختبائه سوى خادميه اللذين يثق فيهما ثقة عمياء(١٠).

بات رينالد هلوعا لوصول الامبراطور . وكان يدرك تمام الإدراك أن لا قبل له بمقاومة جيشه الامبراطورى العرمرم ؛ وقد انقذه ادراكه هذا . إذ سارع بالخضوع من فوره وهو يعلم أنه بذلك يستطيع الحصول على شروط أفضل للغاية منها فى حالة هزيمته فى معركة . وأكد له جيرار – أسقف اللاذقية – وهو أكثر مستشاريه فطنة وفراهة ، أن دوافع الامبراطور هى الكبرياء وليس الغزو . فسارع رينالد بارسال من يعرض تسليم قلعة انطاكية لحامية بيزنطية ، وعندما جاءه مبعوثه ليخبره بأن ذلك لا يكفى ، ارتدى هو نفسه رداء التائب وأسرع إلى معسكر الامبراطور خارج اسوار

(٩) William of Tyre, XVIII, 21 pp. 855-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 346-8; Abu Shama, pp. 97-100،(ويقول أبو شامة إن بلدوين طلب المدنة، وربما اعتمد على جملة مبهمة عند ابن القلانيسى).

(١٠) Cinnamus, pp. 179-81; Matthew of Edessa, *loc. cit*; Gregory the Priest.

المصيصة . وكان المبعوثون من كافة الأمراء في الجوار يتوافدون لتحية الامبراطور ، من نور الدين ، ومن الدانشمند ، ومن ملك جورجيا ، وحتى من الخليفة . وأمر مانويل بترك رينالد ينتظر قليلا . ويبدو أن الامبراطور قد تسلم في تلك اللحظة رسالة من البطريق المنفى إيمرى يقترح فيها إحضار رينالد امامه مكبلا بالسلاسل وخلعه . غير أن الامبراطور رأى الأفضل له أن يحتفظ به عميلا وضيعا . وفي جلسة وقورة للامبراطور على عرشه في خيمته العظيمة ، وقد تحلقت حوله جماعات حاشيته والسفراء الأجانب ، واصطفت فصائل بديعة من الجيش على المداخل ، كان خضوع رينالد : فسار هو وأتباعه حفاة الأقدام عاري الرؤوس خلال المدينة ثم خارجها إلى المعسكر ، حيث سجد في التراب أمام منصة الامبراطور ، بينما رفع أتباعه أيديهم في تضرع . ومرت دقائق كثيرة قبل أن يتنازل مانويل ويلاحظ وجوده ، ثم مُنح المغفرة بشروط ثلاثة : أن يسلم القلعة إلى حامية امبراطورية في اى وقت يُطلب منه ذلك ؛ وعليه أن يقدم كتيبة إلى الجيش الامبراطوري ؛ وأن يقبل بطريقا يونانيا لأنطاكية بدلا من البطريق اللاتيني . وأقسم رينالد على أن يلتزم بتلك الشروط ، ثم صرفه الامبراطور وأعيد إلى انطاكية .

لدى وصول أنباء اقتراب مانويل سارع الملك بلدوين ومعه اخوه أماريك والبطريق إيمرى شمالا فوصلوا انطاكية في أعقاب عودة رينالد مباشرة . ولما علم بلدوين بالعفو عن رينالد شعر بشئ من خيبة الأمل وكتب لمانويل في الحال ملتمسا الاجتماع به . وتردد مانويل لأنه ظن على مايبدو أن بلدوين كان يرغب في أن يستأثر بالامارة ؛ وربما كان ذلك جزءا من مقترحات إيمرى ..ولما أصر بلدوين وافق الامبراطور . وركب بلدوين خارجا من انطاكية يودعه مواطنوها متوسلين اليه أن يصالحهم مع الامبراطور . ونجحت المقابلة نجاحا بالغا ؛ إذ افتتن مانويل بالملك الصغير وأبقاه ضيفا لديه لعشرة ايام. وبينما كانا يناقشان خطط التحالف، نجح بلدوين في الحصول على عفو عن ثوروس الذى قام بنفس الخطوات التي قام بها رينالد وسُمح له بالاحتفاظ بأراضيه في الجبال. وربما يُعزى إلى بلدوين عدم اصرار الامبراطور على التنصيب الفوري لبطريق يوناني، واعيد تنصيب إيمرى رسميا في عرشه البطريقي وأجريت مصالحة رسمية بينه وبين رينالد. وعاد بلدوين محملا بالهدايا إلى انطاكية وقد خلف وراءه أخاه مع الامبراطور .

١١٥٩م : الامبراطور فى أنطاكية

وفى أحد الفصح ١٢ ابريل ١١٥٩م جاء مانويل إلى أنطاكية ودخل المدينة فى موكب وقور . وحاولت السلطات اللاتينية أن تبقيه خارج المدينة قائلة إن هناك مؤامرة لاغتياله هناك ؛ لكنه لم يعبأ بالتخويف ، ولم يطلب سوى بعض الرهائن من المواطنين ، وأن يُجرد الأمراء اللاتينيون المشتركون فى الموكب الزياحى من سلاحهم ، وارتدى هو نفسه درعا تحت أرديته ، ولم تحدث حادثة سيئة . وبينما كانت الرايات الامبراطورية ترفرف اعلى القلعة ، كانت حاشيته تعبر الجسر المحصّن داخلة المدينة . وأتى أولا الحرس الامبراطورى الاسكندنافى الفخيم ؛ ثم الامبراطور نفسه على صهوة جواد متشحا برداء أرجوانى وعلى رأسه تاج مرصع بدرر اللؤلؤ ، ورينالد على قدميه ممسكا بلجام جواده، ومشى لوردات فرنج آخرون بجوار الجواد . وتبعه بلدوين على جواده بلا تاج وبلا سلاح . ثم جاء خلفهما كبار مسؤولى الامبراطورية . وفى داخل البوابات مباشرة كان البطريق ايمرى منتظرا ، بكامل ارديته البابوية ومعه رجال كنيسته كلهم ليقود الموكب الزياحى خلال شوارع المدينة، التى فُرشت بالبسط والزهور، إلى كتدرائية القديس بطرس أولا ثم إلى القصر .

ومكث مانويل فى أنطاكية ثمانية ايام قضاها فى حفول من بعدها حفول . ورغم انه كان هو ذاته ذا كبرياء وجلال فى المناسبات الجديرة بالوقار ، إلا أنه أشاع من جاذبيته وتودده ما أسر الجموع ، وزادت البهجة فى مجملها بما كان يغدقه من سخاء هداياه على النبلاء والعوام على السواء . وفى لفته إلى أبناء الغرب نظّم بعض العاب الفروسية وأشرك رفاقه معه فى المثاقفة ؛ وكان فارسا بارعا وأدى دوره بمظاهر الشرف؛ غير أن رفاقه – وكانت الفروسية عندهم وسيلة لا غاية – تركوا انطباعا أقل بالمقارنة بفرسان الغرب . وقويت عرى الود بين الامبراطور وبين ابن اخته بالزواج – الملك . وعندما كُسرت ذراع بلدوين أثناء الصيد ، أصر مانويل على أن يعالجه بنفسه، تماما كما كان يقوم بدور المستشار الطبى لكونراد الألمانى[١١].

---

(١١) William of Tyre, xviii, 23-5 pp. 859-64; Cinnamus, pp. 181-90; Nicetas Choniated, pp. 141-5; Prodromus, in R.H.C.G ii, pp. , 752 , 766 Matthew of Edessa, cclxxiv, pp. 354-5; Gregory the Priest, pp. 188-9; Vaharam, *Rhymed Chronicle*, p. 505; Ibn al-Qalanisi, pp. 349, 353. وانظر أيضا La Monte 'To what extent was the Bzyantine Empire the suyerain of the Crusading States?' in *Byzantion*, vol. vii

١١٥٩م : الهدنة بين مانويل ونور الدين

كان الأسبوع الرائع علامه على انتصار كبرياء الامبراطور ؛ وكان جيرار أسقف اللاذقية على حق عندما قال إن ما يريده الامبرطور هو الكبرياء وليس الغزو . وعندما انتهت الاحتفالات كلها انضم إلى جيشه مرة اخرى خارج الأسوار وانطلق شرقا إلى الحدود الاسلامية ؛ حيث قابله في الحال تقريبا سفراء نور الدين ومعهم كامل السلطة للتفاوض على هدنة ؛ فاستقبل السفراء وبدأت المناقشات مما أشعل حنق اللاتين الذين كانوا يتوقعونه أن يزحف على حلب . وباقتراح نور الدين اطلاق سراح جميع أسراه من المسيحيين البالغ عددهم ستة آلاف أسير فى سجونه ، وتسيير حملة ضد الأتراك السلاجقة ، وافق مانويل على الغاء حملته .

وربما لم يكن فى نية مانويل الاستمرار في حملته قط، وبرغم ما صدر عن الصليبيين والمدافعين عنهم من المؤرخين العصريين من صرخات توصم الامبراطور بالخيانة ، فمن العسير علينا أن نتصور ما كان يستطيع الامبراطور أن يفعله غير ذلك . لقد كانت سوريا بالنسبة للصليبيين تمثل الأهمية كلها ، لكنها كانت بالنسبة لمانويل مجرد واحدة من المناطق الحدودية الكثيرة ، وليست بالمنطقة الحيوية لإمبراطوريته . ولم يكن بوسعه البقاء شهورا طويلة فى نهاية خط مواصلات طويل ومعرض للمخاطر ، ولا أن يغامر بخسائر جسيمة لجيشه - وإن كان عظيما - ثم يتنصل من الملامة . وفضلا عن ذلك ، لم يكن راغبا فى كسر قوة نور الدين ، إذ كان يدرك من التجربة المريرة أن الفرنج لم يرحبوا به إلا عندما خشوا سطوته ، ومن ثم يكون من الحمق أن يقضى على مصدر خوفهم الرئيسى؛ إلى جانب أن التحالف مع نور الدين يعد بمثابة أصل من الأصول النفيسة فى حروبه مع أعداء أخطر علي الامبراطورية بكثير ، ألا وهم أتراك الأناضول . غير أنه يقدم المساعدة ، كما تظهر الأحداث اللاحقة ، ليمنع نور الدين من غزو مصر؛ إذ أن ذلك يقلب الموازين بصورة قاتلة . وربما تسرع فى الهدنة ، إذ كان بوسعه الحصول على شروط أفضل ؛ لولا انه تلقى أنباء تثير القلق بوجود مؤامرة فى القسطنطينية واضطرابات على حدوده الأوروبية . وعلى أية حال ، لم يكن بوسعه البقاء أكثر من ذلك فى سوريا[١٢].

---

(١٢) William of Tyre, xviii,25, p.864 (لا يرحب لوما الى الامبراطور بأى حال) ؛ Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*,p. 229; Cinnamus, pp.188-90; Gregory the Priest, pp.190-1; Matthew of Edessa, cclxxv, pp. 355-8; Ibn al-Qalanisi, pp. 353-5.

ومع ذلك ، كانت هدنته مع نور الدين خطأ نفسيا . إذ كان الفرنج آنذاك على استعداد لقبوله سيدا لهم ؛ لكن الحكيم من ذوى البصيرة يراه وقد أظهر نفسه مهتما بمصير الامبراطورية بصورة اكثر من اهتمامه بمصيرهم . كما أنهم لم يجدوا كثير تعزية فى الإفراج عن الأسرى المسيحيين الذين يضمون بعض أهم المحاربين المحليين ، ومن بينهم السيد الأعظم لفرسان المعبد برتراند (اوف بلانسفورت) ؛ إلا أن أغلبهم كانوا من الألمان الذين وقعوا فى الأسر إبان الحملة الصليبية الثانية ، وفيهم برتراند (اوف تولوز) المطالب بامارة طرابلس ، والذى قد يكون ظهوره مرة اخرى مسببا للحرج لولا أن حال الأسر دون موته(١٣).

بعد أن عقد الامبراطور الهدنه انسحب مع جيشه غربا ، بطيئا أول الأمر، ثم بدأ يسرع بورود أنباء من عاصمته تثير المزيد من الانذار . وحاول بعض اتباع نور الدين مناوشة الجيش على غير رغبة سيدهم . ولإختصار المسافة ، اتجه الجيش من خلال الأراضى السلجوقية ، وحدثت مناوشات مع جنود السلطان ؛ غير أن الجيش وصل سالما إلى القسطنطينية فى اواخر الصيف . وبعد ثلاثة اشهر تقريبا عبر مانويل مرة اخرى إلى آسيا فى حملة ضد السلاجقة ، يجرب فيها معهم شكلا من التكتيكات أكثر حركة، بينما كان مبعوثوه يعملون على تعزيز التحالف ضد السلطان السلجوقى قلج ارسلان الثانى . وشعر نور الدين بالارتياح العميق لرحيل مانويل ، فتوغل فى الأراضى السلجوقية من أواسط الفرات ؛ وهاجم الأمير الدانشمندى يعقوب ارسلان من الشمال الشرقى هجوما بلغ من نجاحه أن اضطر السلطان إلى أن يتنازل له عن الأراضى المحيطة بالبستان فى جبال طوروس المقابلة . وفى تلك الأثناء ، كان القائد البيزنطى جون كونتوستيفانوس يجمع فصائل الجنود التى التزم بتقديمها بموجب المعاهدة كل من رينالد وثوروس ، إلى جانب فصيلة من البنجاك تركها مانويل ماكثة فى كيليكيا ، ثم تحرك بكل هذا الجمع خلال مضايق جبال طوروس ؛ وزحف مانويل مع الجيش الامبراطورى الرئيسى أعلى وادى المياندر ، بعد أن عزز الجيش بجنود أرسلها امير الصرب ، وبالحجاج الفرنج الذين جُندوا عندما رست سفنهم فى جزيرة رودس . وكان على السلطان أن يقسم قواته . وبعدما أحرز كونتوستيفانوس نصرا كاملا على الأتراك الذين تصدوا له ، كف قلج ارسلان عن الحرب ؛ وكتب إلى الامبراطور عارضا السلام لقاء إعادته كل المدن اليونانية التى احتلها المسلمون فى السنوات الحديثة ، والتأكد من

---

(١٣) William of Tyre, *loc. cit*, Cinnamus, p. 188.

احترام الحدود وتوقف الغارات ، وتقديم فصيلة لتحارب فى جيش الامبراطور متى يُطلب منه ذلك . ووافق مانويل على الشروط ؛ لكنه احتفظ لديه احتياطيا بأخى السلطان المتمرد ، شاهنشاه ، الذى جاءه طالبا الحماية . ولذا، وكى يؤكد قلج ارسلان المعاهدة ، أرسل مستشاره المسيحى كريستوفر إلى القسطنطينية مقترحا القيام بزيارة رسمية للبلاط الامبراطورى . وتوقفت الأعمال الحربية فى صيف عام ١١٦١م ، وفى الربيع التالى استقبل قلج ارسلان فى القسطنطينية . وكانت الاحتفالات رائعة ، وعومل السلطان بأسمى آيات التشريف وأمطروه بالهدايا ، لكنه عومل كأمير تابع . وكان للزيارة أثرها فى أمراء الشرق كلهم(١٤).

وعند الحكم على سياسة مانويل الشرقية ، لا بد لنا من أن نحكم فى هذا الضوء العام . فقد فاز بنصر كبريائى نفيس ؛ وأخضع السلاجقة - على الأقل مؤقتا - وهم الذين يمثلون التهديد الرئيسى لامبراطوريته . وقد جلب هذا النجاح على الفرنج بعض المزايا المعينة ؛ فمع أن نور الدين لم يهزم ، إلا انه خاف ، ولن يحاول شن هجوم مباشر على الأراضى المسيحية ؛ وفى الوقت نفسه تسبب السلام مع السلاجقة فى إعادة فتح الطريق البرى للحجاج القادمين من الغرب الذين كانت أعدادهم آخذة فى التزايد ، وأما عن الأعداد الأكثر التى لم تصل ، فذلك يعزى إلى السياسات الغربية ، وإلى الحروب الدائرة بين الهوهينشتافن وبين البابويين(١٥) فى ألمانيا وايطاليا ، وبين الكابشيين والبلانتاجونيت(١٦) فى فرنسا . ومع أنه كان مقدرا أن يبقى لبيزنطة أعظم نفوذ فى شمال سوريا للسنوات العشرين التالية ، كان أصدقاؤها الأصلاء بين الفرنج قليلين .

---

(١٤) Cinnamus, pp. 191-201, 204-8; Nicetas Choniates, pp. 152-64; Gregory the Priest, pp. 193-4, 199; Matthew of Edessa, cclxxxii, p. 364; Michael the Syrian, III, p. 320; *Chron. Anon. Syr* p. 302; Ibn al-Athir, p. 544.

(١٥) (المترجم) الهوهينشتافن Hohenstaufen: إسم الأسرة التى حكمت المانيا (١١٣٨-١٢٠٨م) وصقلية (١١٩٤-١٢٦٨م) . والبابويين Papalists نسبة الى الدول البابوية Papal State فى وسط وشمال وسط ايطاليا والتى حكمتها البابوية من القرن الثامن وحتى عام ١٨٧٠م .

(١٦) (المترجم) الكابيشيون أو الكابيشيان Capetians: نسبة الى الأسرة الحاكمة الفرنسية (٩٨٧-١٣٢٨م) التى أسسها هيو كابت Hugh Capet. والبلانتاجينيت Plantagenets: اسم الأسرة التى حكمت انجلترا (١١٥٤-١٣٩٩م) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١٦٠م : رينالد يقع فى الأسر

أظهرت أحداث عام ١١٦٠م طبيعة السيادة الامبراطورية على انطاكية وقيمتها سواء بسواء . وكان الملك بلدوين قد عاد إلى الجنوب ، وانشغل ببعض الغارات القليلة الضئيلة على الأراضى الدمشقية منتهزا انشغال نور الدين فى الشمال ، إلى أن سمع بأن رينالد قد وقع فى أسر نور الدين . ذلك أن حركة القطعان الموسمية من جبال طوروس المقابلة إلى سهول الفرات ، أغرت الأمير بالإغارة أعلى وادى النهر فى نوفمبر ١١٦٠م. وأثناء عودته البطيئة نظرا لما كان يسوقه من قطعان الماشية والجمال والجياد التى جمعها ، وقع فى كمين نصبه له حاكم حلب مجدالدين ، وهو أخو نور الدين فى الرضاع . وقد حارب بشجاعة ، لكن رجاله كانوا قلة أمام عدوهم ، وأجبر هو نفسه على الترجل واقتيد أسيرا . وأرسل مع رفاقه وهم مقيدين ، على ظهور الجمال إلى حلب حيث قدر له أن يبقى فى السجن ستة عشر عاما . ولم يسارع أحد لإفتدائه ، لا الامبراطور ولاملك القدس ولا حتى أهإلى انطاكية . وفى سجنه وجد جوسلين الصغير (اوف كورتناى) كونت الرها باللقب فقط ، الذى سبق أن أسر فى غارة قبل ذلك بشهور قليلة(١٧).

وأثارت إزاحة رينالد مشكلة دستورية فى انطاكية التى كان يحكم فيها كزوج للأميرة كونستانس، التى طالبت الآن بتحويل السلطة اليها؛ غير أن الرأى العام أيد حقوق ابنها من زواجها الأول ، بوهمند الذى اشتهر باسم "المتلجلج" ، وهو مع ذلك فى الخامسة عشرة من عمره . وكان ذلك الوضع شبيها بوضع الملكة مليسيند وبلدوين الثالث فى القدس قبل ذلك بسنوات قليلة . ولم يكن هناك خطر محدق، إذ أن خشية نور الدين من مانويل صدته عن مهاجمة انطاكية نفسها . على انه يتعين وجود نوع من الحكومة الفعالة . وبصيغة مباشرة ، كان للإمبراطور - المقبول كسيد أعلى لأنطاكية - أن يسوى المسألة . لكن مانويل بعيد ، والأنطاكيون لم يقبلوه بدون تحفظات ؛ وكان نورمانديو انطاكية من الأمراء يعتبرون أنفسهم أمراء ذوى سيادة . غير أن كثرة وجود أمراء من القصّر بين خلفائهم كانت تجبر ملوك القدس على التدخل بصفتهم من الأقارب أكثر من كونهم ملوكا . ومع ذلك ، شبت فى انطاكية عاطفة تعتبر الملك السيد الأعلى ، ولا شك فى أن مانويل أصبح مقبولا بيسر كبير لأن بلدوين كان يوافق

---

(١٧) William of Tyre, xviii, 28 pp.868-9; Matthew of Edessa, cclxxxi, pp. 363-4; *Chron. Anon. Syr* p.302; Gregory the Priest, p.308; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 533; Cahen (*op. cit* p.405 n.1)، ويورد كاهن Cahen مصادر اضافية ويناقش طبوغرافية الأرض.

على هذه الترتيبات . واتجهت أنظار أبناء انطاكيـة الآن إلى بلدويـن لا مـانويل ، لايجـاد حل ؛ وبنـاء علـى دعوتهـم جـاء إلى انطاكيـة ، وأعلـن أن بوهمنـد الثـالث هـو الأمـير الشرعى ، وعهد بالحكومة إلى البطريق إيمرى إلى أن يشب الأمير عـن الطـوق . وكـان قرارا أغضب كونستانس ، وكان أسلوبا أغضب مانويل . وفى الحـال ناشـدت الأمـيرة البلاط الامبراطورى التدخل للانتصاف(١٨).

١١٦١م : مليسيند الطرابلسية

فى نهاية ١١٥٩م تقريبا ، ماتت امبراطورة بيزنطـة إيريـن – المولـودة باسـم بيرثـا (اوف سولزباخ) – تاركة وراءها طفلة وحيدة . وفى عـام ١١٦٠م ، وصلـت القـدس سفارة يرأسها جون كونتوستيفانوس ، يصحبهـا رئيـس مـترجمى البـلاط ، ثيوفيلاكـت الإيطالى ، تلتمس من الملك ترشيح إحدى أميرات الشرق الفرنجى تكون عروسا مناسـبة للإمبراطور البيزنطى الأرمل . وكان هناك اثنتين من المرشحات – ماريا إبنة كونستانس أميرة طرابلس ، ومليسيند ابنة ريموند الثانى أمير طرابلس . وكلتاهما من بنـات خؤولـة بلدوين ، وقد اشتهرتا كلتاهما بالجمال . وارتاب بلدوين فى تحالف عائلى وثيق الصلـة بين الامبراطور وانطاكية ، ولذا رشح مليسيند ؛ وارتحـل السـفراء إلى طرابلـس لإبـلاغ الأميرة التى حياها الشرق الفرنجى كله على انها امبراطورة المستقبل ؛ وانتشـى بالفخـار ريموند أمير طرابلس فقرر منح أخته مهرا يليق بها ، وانفق المبالغ الطائلة على تجهيزهـا . وانهمرت الهدايا من امها هوديرنا وخالتها الملكة مليسيند . وهرول الفرسـان مـن سـائر الأنحاء إلى طرابلس يداعبهم أمل دعوتهم إلى الزفـاف . علـى أن القسـطنطينية لم تبعـث بتأكيدها للزواج . وأرسـل السـفراء إلى مـانويل أوصافـا متلألئـة لشـخصية مليسـيند ، لكنهم سجلوا كذلك شائعة حول مولدها تستند إلى الشجار الشهير بين أمهـا وأبيهـا . ويبدو أن لم تكن هناك ريبة حول شرعيتها فى حقيقة الأمـر ، ويبـدو أن تلـك الشـائعة الباطلة جعلت الامبراطور يتردد . ثم إنه سمع بتدخـل بلدويـن فـى أنطاكيـة، ثـم تسـلم مناشدة كونسـتانس للإنتصـاف. وفـى بـاكورة صيـف ١١٦١م ، نفـذ صبر ريمونـد ، فأرسل أحد فرسانه – أوتو (اوف ريسبيرج) – ليسأل عن التطورات ؛ وعاد أوتـو فـى

---

(١٨) William of Tyre, xviii30, p.874؛ ويقول ميخائيل السورى Michael the Syrian, iii, p.324 إن ثوروس أبعد كونستانس عن حكم انطاكية.

أغسطس تقريبا ينبئ بأن الامبراطور تخلى عن الارتباط[١٩].

فأما مليسيند ، فكانت الصدمة والإهانة فوق احتمالها ، فنال منها الضعف وسرعان ما ذوت مثل "الأميرة بعيدة المنال" *Princesse Lointaine* ، في رومانسية العصور الوسطى الفرنسية . وأما أخوها ريموند فقد احتدم غيظا ، وفي ثورته طلب تعويضه عن المبالغ الطائلة التي أنفقها على جهازها ؛ ولما رُفض طلبه جهز السفن الإثنتي عشرة التي وصلته لتنقل العروس إلى القسطنطينية وحولها إلى سفن حربية مسلحة وقادها للإغارة على سواحل قبرص[٢٠]. وأما الملك بلدوين ، الذي كان ينتظر مع بنات خؤولته يترقب الأنباء ، فقد شعر بالقلق ، خاصة عندما تلقى السفراء البيزنطيون أوامر بالذهاب إلى أنطاكية ؛ فهرول وراءهم ليجد في انطاكية سفارة فخيمة من الامبراطور ، يرأسها الكسيوس برينيوس كومنينوس إبن أنّا كومنينا ، ووالي القسطنطينية ، جون كاماتيروس . وكانوا قد تفاوضوا فعلا على عقد زواج بين سيدهم وبين الأميرة ماريا الأنطاكية ؛ وكان وجودهم كافيا لتثبيت كونستانس حاكمة للإمارة . واضطر بلدوين إلى قبول هذا الوضع . وأما ماريا ، التي كانت أجمل حتى من ابنة خالتها مليسيند ، فقد أبحرت من ميناء السويدية في سبتمبر ، يملأها الفخار أن تصبح امبراطورة ، وتشملها السعادة وقد غاب عنها ما سيكون عليه مصيرها في نهاية مطافها. وعقد زواجها إلى الامبراطور في ديسمبر في كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية بمعرفة ثلاثة بطارقة ، ليوك بطريق القسطنطينية ، وسوفرونيوس بطريق الإسكندرية ، وأثناسيوس الثاني ، صاحب لقب بطريق انطاكية[٢١].

١١٦٢م : موت بلدوين الثالث

أدرك بلدوين قيمة التحالف البيزنطي ؛ لكن نجاح مانويل كان أعظم مما كان يرغبه في الشمال السوري المسيحي وأقل فعالية ضد نور الدين ، رغم أن التحالف

---

(١٩) William of Tyre, xviii, 30, pp. 874-6. ويقول سناموس Cinnamus, pp. 208-10 إن صحة مليسيند لم تكن مرضية ، فضلا عن الشائعات حول عدم شرعيتها. وقد ذكرت مليسيند على أنها "امبراطورة القسطنطينية المقبلة" في ميثاق ٣١ يولية ١١٦١م ، عندما منح شرق الأردن الى فيليب (اوف ميلف) ، ووقتئذ كانت هي وأخوهامع الملك في الناصرة (Rohrich, *Regesta*, p. 96).

(٢٠) William of Tyre, xviii 33, 31, pp. 876-9.

(٢١) *Ibid.* xviii, 31, pp. 875-6; Cinnamus, p. 210-11, ويورد Nicetas Choniates, p.151 تقريظا بالغا لجمال الامبراطورة الجديدة .

جعل المسلمين فى حالة من الهدوء طوال السنتين التاليتين . وعاد الملك بلدوين إلى مملكته بعد هزيمته الدبلوماسية في زواج الامبراطور . وقد سارت حكومته في القدس سيرا سلسا منذ إقصاء والدته عن السلطة . وكانت قد برزت عام ١١٥٧م لترأس مجلسا للوصاية أثناء أن كان بلدوين بعيدا في الحروب ، واحتفظت لنفسها برعاية الكنيسة . وبعد وفاة البطريق فولشر فى نوفمبر من ذلك العام - ١١٥٧م - ضمنت تعيين خليفته أماليريك (اوف نيسيل) ، وهو قس بسيط كانت تعرف عنه تعليمه الجيد ، إلا انه لا يهتم بالحياة الدنيوية وغير عملي . وعارض ترقيته هرنيس رئيس اساقفة قيصرية ، ورالف اسقف بيت لحم ؛ فاضطر البطريق أماليريك إلى ارسال أسقف عكا ، فريدريك، إلى روما لضمان التأييد البابوى . وأفلحت براعة فريدريك ورشاويه - كما أُلمع - في الحصول على تأييد الحكومة البابوية[٢٢]. وجاءت فى المرتبة الثانية بعد مليسيند ابنة زوجها ، سيبيلا (اوف فلاندرز) التي رفضت العودة إلى اوروبا مع زوجها تيرى عام ١١٥٨م وبقيت كراهبة في الدير الذى كانت مليسيند قد أنشأته في بيثاني . وبعد أن ماتت مليسيند في سبتمبر ١١٦١م ، بينما كان الملك في أنطاكية ، خلفتها سيبيل في ممارسة نفوذها في العائلة الملكية وفى الكنيسة إلى أن ماتت بعد ذلك بأربع سنوات[٢٣].

وبينما كان الملك بلدوين مارا خلال طرابلس سقط مريضا . وأرسل كونت طرابلس طبيبه الخاص - باراك السيرياني - لمداواته ، لكن حالة الملك ازدادت سوءا ؛ وانتقل إلى بيروت حيث مات يوم ١٠ فبراير ١١٦٢ . وكان طويل القامة ، قوي البنية، وكانت بشرته النضرة ولحيته الكثة الشقراء توحيان بالصحة والرجولة ؛ فظن العالم كله أن عقاقير باراك قد سمّته . وكان فى ربيعه الثالث والثلاثين ، ولو قدر له أن يعيش أكثر من ذلك ، لأصبح ملكا عظيما لما كان لديه من طاقة وبصيرة نافذة وجاذبية شخصية لا تقاوم . وكان يجيد القراءة والكتابة ، وعلى علم بكل من التاريخ والقانون. وبكاه رعاياه بمرارة ، وجاء حتى الفلاحون المسلمون من التلال للإعراب عن تقديرهم في موكبه الجنائزى الذى تحرك بطيئا إلى القدس . واقترح البعض من اصدقاء نور الدين على الأتابج أن هذا هو الوقت المناسب للهجوم على المسيحيين ، غير أن نور الدين

(٢٢) William of Tyre, xviii, 20p. 854. وترد أمثلة على الأعمال الخيرية الدينية التى قامت بها مليسيند فى عامي ١١٥٩م و١١٦٠م فى Rohricht, *Regesta*, pp. 88, 94.

(٢٣) William of Tyre, *loc. cit*. يذكر اشتراك سيبيلا . ويذكر Ernoul, p.21 رفض سيبيلا مغادرة الأراضى المقدسة.

الذى وصل لتوه من حجه في مكة بعد كثرة التأجيل رفض إزعاج الناس وهم ينتحبـون على فقد مثل هذا الأمير العظيم(٢٤).

(٢٤) William of Tyre, xvi, 2, pp. 705-6، يذكر وصفا تقريبيا لشخصية بلدوين الثالث .

الفصل الرابع:

تربـــص مصـــر

تربّص مصر

"لا ، بل إلى أرض مصرَ نذهبُ"

(إرمياء ٤٢ : ١٤)

مات بلدوين الثالث بلا ذرية ، وترمّلت الملكة اليونانية ثيودورا ولمّا تجاوز ربيعها السادس عشر، وغدا أخوه أماليك كونت يافا وعسقلان وريثا للمملكة وتوجه البطريق أماليك بعد ثمانية أيام من موت بلدوين ، برغم المشكلة التى أثيرت حول استخلافه ؛ إذ لم يكن البارونات راغبين فى التخلى عن حقهم فى الانتخاب ، حتى ولو لم يكن هناك مرشح آخر . وكانت لهم مظلمة مشروعة ؛ إذ كان أماليك قد تزوج قبل ذلك بنحو أربع سنوات من أجنيس (اوف كورتناى) ، إبنة جوسلين الثانى كونت الرها ، وكانت من بنات عمومته من الجيل الثالث وتقع من ثم في الدرجات التى تحرم الكنيسة الزواج منها، وقد رفض البطريق اعتماد الزواج . وكانت هناك أسباب أخرى تدعو إلى النفور من أجنيس ؛ إذ كانت أكبر من أماليك بكثير ، وقد قتل زوجها الأول ، رينالد أمير مرعش ، عام ١١٤٩م عندما كان أماليك فى الثالثة

عشرة من عمره ، ولم تكن عفيفة السمعة . وطالب البطريق والبارونات بالغاء الزواج ، فرضخ أماليك في الحال ، لكنه أصر على الإعتراف بشرعية حقوق ولديه في الميراث، بلدوين وسيبيلا[١].

١١٦٢م : الملك أماليك

بلغ أماليك الآن الخامسة والعشرين من عمره ، وكان طويل القامة وسيما كأخيه، بنفس لون البشرة المتوردة واللحية الكثة الشقراء ، رغم ما يقوله النقاد من أنه مفرط السمنة في صدره . وكان أقل تعليما ، برغم معوماته الجيدة المتصلة بالمسائل القانونية . وعلى غير شاكلة أخيه الذي كان شغوفا بالثرثرة ، كانت لديه بعض اللجلجة ولذا كان سكوتا ، غير أنه كان كثيرا ما تعاوده نوبات من القهقهة الضاحكة، فتحرمه بعضا من وقاره . ولم يكن يتمتع قط بشعبية كأخيه ، إذ كان يفتقر إلى الجاذبية والانفتاح على الغير ؛ فضلا عن أن حياته الخاصة لم تكن خليقة بالثناء[٢]. وفي غضون أشهر قليلة من استخلافه اتضحت نوعيته التي كان عليها كرجل دولة ، عندما أقدم جيرارد - لورد صيدا وشقيق أرنون - بنزع ملكية أحد رعاياه بلا سبب يدعو إلى ذلك، ولجأ التابع إلى التاج شاكيا؛ فأصر أماليك على أن تنظر الدعوى أمام المحكمة العليا للمملكة ، ثم إنه أصدر قانونا assise ، يستند إلى سوابق أخرى مماثلة يخول الأتباع الاستئناف من أسيادهم أمام المحكمة العليا ، وفي حالة عدم حضور السيد أثناء نظر الجلسة في المحكمة يحكم في الدعوى غيابيا ، ويُنصف المدعي باعادة الأمور كما كانت عليه. وهذا القانون، الذي يؤسس علاقة مباشرة بين أتباع كبار مستأجري الأرض والملك الذي ينبغي لهم أن يقدموا له فروض الطاعة المخلصة ، من شأنه أن يضفي سلطات لا

---

(١) William of Tyre, XIX, I, 4, pp 883-90. ويحدد Robert of Torigny, I, p.309 تاريخ زواج أماليك بعام ١١٥٧م . وعن زوج أجنيس الأول أنظر أعلاه ص ٣٢٦. وقد كرهها متبعو وليم الصوري كراهية شديدة لأسباب وجيهة (انظر أدناه ص ٤٠٧) . وربما بالغوا في أخطائها، غير انه من غير المحتمل أن تكون قرابة الدم البعيدة هي التي جعلت البارونات يصرون على طلاقها. واستنادا الى وليم ، أكد علاقة القرابة ستيفاني رئيسة الدير ، وهي ابنة جوسلين الأول ، وماريا (اوف سالرنو) : بيد انه لابد وأن كان معروفا جيدا أن بلدوين الأول وجوسلين الأول كانا أبناء عمومة من الدرجة الأولى ، وقد رفض البطريق فعلا مباركة الزواج . والأرجح أن أجنس قد ولدت عام ١١٣٣م، إذ مات أول زوج لأمها بياتريس عام ١١٣٢م ، وتزوجت جوسلين كونت الرها بعد ذلك مباشرة.

(٢) William of Tyre, XIX, 2-3, pp. 884-8.
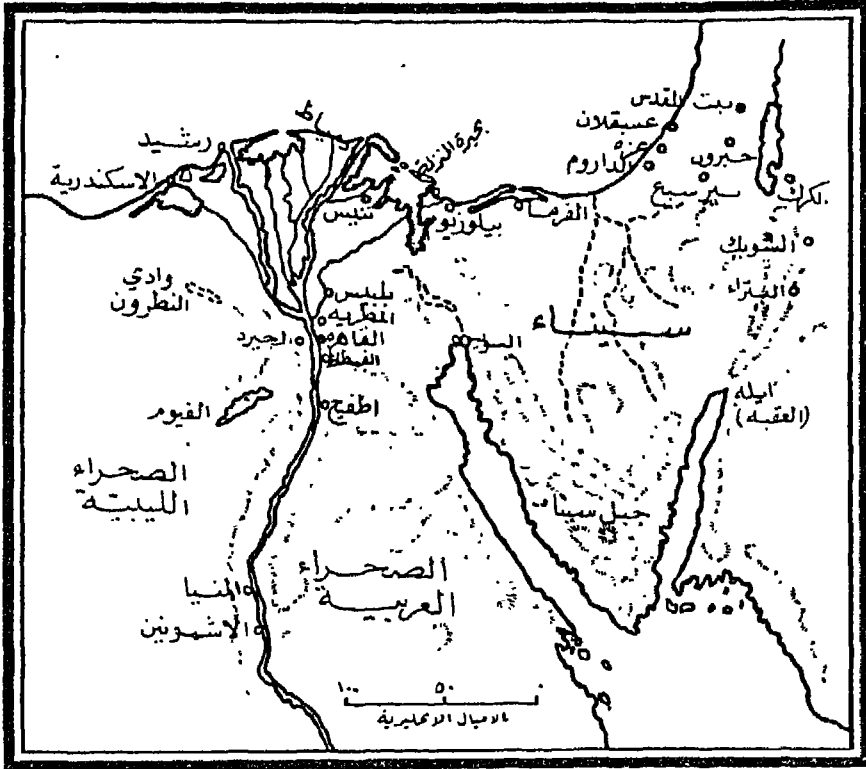
خريطة رقم (٥) مصر فى القرن الثانى عشر

حدود لها على ملك قوى يهيمن على المحكمة العليا . غير أن المحكمة العليا ذاتها كانت تتألف من نفس تلك الطبقة الموجّه ضدها القانون. فإذا كان الملك ضعيفا، يمكن استخدام القانون ضده بتطبيقه على كبار مستأجرى الأراضى الملكية(٣). وأعقب هذا القانون قواعد أخرى تنظم علاقات الملك بأتباعه.

وبعدما وطد أماريك دعائم سلطته الملكية فى الداخل ، أصبح بامكانة الانتباه إلى الشؤون الخارجية . ففى الشمال كان على استعداد للتضحية بأنطاكية للبيزنطيين . وفى أواخر عام ١١٦٢م على وجه التقريب حدثت اضطرابات فى كيليكيا فى أعقاب اغتيال ستيفن أخى ثوروس الذى كان فى طريقه إلى مأدبة دعاه اليها الحاكم الامبراطورى أندرونيكوس . وإن كانت هناك لدى ثوروس أسبابه الخاصة التى تثير لديه الرغبة فى التخلص من ستيفن ، فإنه اتهم أندرونيكوس بالتواطؤ واكتسح طريقه مستوليا على المصيصة وعين زربة وفاهكا ، بمباغتة أفراد حامياتها اليونانيين وقتلهم . وسارع أماريك بعرض المساعدة على الامبراطور الذى استبدل أندرونيكوس بقائد هنجارى المولد ذى اقتدار هو قنسطنطين كرولومان ؛ الذى جاء إلى كيليكيا بالتعزيزات، فانسحب ثوروس عائدا إلى الجبال بعد أن قدم بعض التفسيرات(٤). وأصبح بوهمند أمير انطاكية الآن فى الثامنة عشرة من عمره أي بلغ سن الرشد ليحكم . لكن أمه كونستانس ، كانت راغبة في الاحتفاظ بالسلطة فناشدت كولومان تقديم المساعدة العسكرية . وبانتشار شائعة استنجادها بكولومان ، اندلعت أعمال الشغب فى انطاكية؛ الأمر الذى أدى إلى نفى كونستانس وتنصيب بوهمند الثالث مكانها، وسرعان ما ماتت بعد ذلك مباشرة(٥).

ولم يعترض الامبراطور على تغيير نظام الحكم، ربما لأن أماريك كفل احترام

---

(٣) عن هذا القانون الهام *assise* ، انظر أعلاه ص ٣٠١، 3- La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 22 99, 153; also Grandclaude, "Liste d'Assises de Jérusalem" in *Mélanges Paul Fournier*, p. 329 ff. وهذا الأخير يحدد تاريخ هذا القانون assise بعام ١١٦٦م ويدرج قائمة بالقوانين الأخرى assizes التى يمكن ان تعزى الى أماريك.

(٤) Cinnamus, p.227; Gregory the Priest, p.200; Sembat the Constable, p.621; Michael the Syrian, III, p.319, Armenian version, pp.349,356

(٥) Michael the Syrian, III, p.324، الذى يؤيده تاريخ سوريا المجهول *Chron.Anon.Syr.* ويبدو أن التاريخين يمزجان أحداث ١١٦٠م والفترة ١١٦٢-١١٦٣م . ويقتبس Ughelli, *Italia Sacra*, VII, p.203 من وثيقة فى عام ١١٦٧م يطلق فيها بوهمند الثالث على نفسه "أمير انطاكية ولورد اللاذقية وجبلة ."Prince of Antioch, Lord of Laodicea and Gibel وحيث ان اللاذقية وجبلة كانتا مهرا لأمه ، فيفترض انها قد ماتت آنذاك.

سيادته. وليضمن ذلك، دعا ابن كونستانس الثانى - بلدوين - وفيما بعد أطفالها من رينالد إلى القسطنطينية. وانضم بلدوين إلى الجيش الامبراطورى وقتل فى الحرب[٦].
وفى الوقت الذى كان فيه الملك أماليك يؤيد البيزنطيين علنا كتب إلى الملك لويس السابع ملك فرنسا يسأله إن كان هناك أى أمل فى إرسال المساعدة للاتين فى سوريا[٧].

١١٥٤م : مكائد فى القاهرة

كان ضروريا لأماليك أن يضمن حسن النوايا لبيزنطة كى يمضى مع أهم طموحاته السياسية ألا وهى السيطرة على مصر . وكما يفهم جيدا فإن وجود الدويلات اللاتينية يتوقف على تشتت جيرانها المسلمين وقد اتحدت الآن سوريا المسلمة، بيد أنه طالما بقيت مصر فى حالة عداء مع نور الدين ، فلن يكون الوضع باعثا على اليأس . وكانت الخلافة الفاطمية ، مع ذلك ، فى حالة من الوهن بحيث بدت نهايتها وشيكة ، لكنها لا ينبغى قط أن تقع فى قبضة نور الدين . ومنذ سقوط عسقلان والفوضى آخذة فى التزايد فى بلاط الخليفة ؛ إذ تمكن الوزير عباس من البقاء سنة برغم الكارثة ، وكان ابنه نصر هو المفضل لدى الخليفة الصغير الظافر ؛ وأثار ما بينهما من وداد شائعات فاضحة مما أثار ثائرة عباس ، لا لدوافع أخلاقية ، وانما لأنه ارتاب - بحق - أن الظافر كان ينوى الوقيعة بين الابن والأب . وعلم أسامة الذى كان ما يزال فى البلاط أن نصر وافق فى الواقع على اغتيال عباس ؛ فسارع إلى مصالحتهما وسرعان ما حرض نصر على أنه من الأفضل اغتيال الخليفة بدلا من عباس . ودعا نصر من أنعم عليه إلى حفل ماجن فى منتصف الليل فى منزله حيث طعنه . وتصنع عباس الإعتقاد بأن القتله هم أخوة الخليفة ذاتهم وأعدمهم . وبينما صادر ثروة الخليفة وضع على العرش إبن الظافر - الفائز - وهو صبى فى الخامسة من عمره شاهد موت أعمامه، وفيما بعد عانى من نوبات التشنج المزمنة . وارتابت أميرات العائلة فى حقيقة

---

(٦) عن بلدوين ، انظر أدناه ص ٤١٣ . وفيما بعد تزوجت إبنة كونستانس من رينالد - أجنس - من ألكسيوس المدعى المنجارى أو بيلا الثالث ، الذى أصبح ملك هنجاريا عام ١١٧٣ (Nicetas Choniates, p. 221).

(٧) ترد خطابات اماليك فى Bouquet, R.H.F. vol. xvi, pp. 36-7, 39-40. ويتحدث الخطاب الثانى عن التهديد البيزنطى لأنطاكية. وفى ذات الوقت تقريبا كتب بوهمند الثالث الى الملك لويس. *Ibid.* pp. 27-8

ماحدث ، وسارعن باستدعاء محافظ مصر العليا ابن رزيق الأرميني المولد لإنقاذهن . فزحف على القاهرة واستمال ضباط الحامية إلى جانبه . فحمل عباس ونصر أموالهما وهربا يوم ٢٩ مايو ١١٥٤م من العاصمة ، مصطحبين معهما أسامة الذى بدأ يتآمر مع ابن رزيق . وبينا هم يخرجون من صحارى سيناء ، هبط عليهم جنود الفرنج من حصن مونتريال ، وتمكن أسامة من الهرب سالما ووصل إلى دمشق في نهاية الأمر؛ وقتل عباس وألقى القبض على نصر وصودرت الأموال ، وسُلم نصر إلى فرسان المعبد ، وأعلن على الفور رغبته فى التحول إلى المسيحية ؛ غير أن البلاط فى القاهرة عرض دفع ستين ألف دينار مقابل تسليمه ، ولذا أوقف تعليمه الدين الجديد وأرسل مقيدا بالسلاسل إلى القاهرة حيث قامت أرامل الخليفة الأربع بتمزيق أوصاله بأنفسهن . ثم إنه شنق ، وعلقت جثته على باب زويلة طوال عامين(٨).

وحكم ابن رزيق حتى عام ١١٦١م . وفى ١١٦٠م مات الخليفة الصبى ليخلفه ابن عمه العاضد البالغ من العمر تسع سنوات ، والذى أجبر فى العام التالى على الزواج من ابنة ابن رزيق . على أن عمة الخليفة ، وهى أخت الظافر ارتابت فى طموحات الوزير ، فحرضت أصدقاءها على طعنه فى ساحة القصر . وكان قبل وفاته قد تمكن فى سبتمبر ١١٦١م من استدعاء الأميرة اليه وقتلها بنفسه . وخلفه ابنه العادل فى منصب الوزير وحكم لخمسة عشر شهرا . وجاء دوره فخلعه محافظ مصر العليا - شاور - وقتله ، وحكم ثمانية أشهر حتى أغسطس ١١٦٣م عندما خلعه ياوره العربى ضرغام الذى قتل كل من كان يخشى طموحه حرصا على بقائه في السلطة الأمر الذى جعل الجيش المصرى يكاد أن يكون خاليا من كبار الضباط(٩).

١١٦٣م: هزيمة نور الدين فى الكرك

فى عام ١١٦٠م هدد بلدوين الثالث بغزو مصر التى اشترت سكوته بتعهد بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار ولم تدفع هذه الإتاوة قط . وفى عام ١١٦٣م، اتخذ أماريك ذلك ذريعة وهبط فجأة على مصر عابرا برزخ السويس بلا

---

(٨) (Usama, ed. Hitti, pp. 43-54) وروايته لا تكشف بوضوح خياناته المتقلبة: Ibn al-Athir, pp. 492-3; William of Tyre, XVIII, 9, pp. 832-4. وللاطلاع على تاريخ مصر فى هذه الفترة انظر Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 191 ff..

(٩) Ibn al-Athir, p. 529; Abu Shama, p. 107.

صعوبة وحاصر الفرما . لكن النيل كان فى موسم الفيضان ، وتمكن ضرغام من إرغامه على الانسحاب بأن كسر سدا أو سدين من سدود النيل(١٠). ولم يغب عن نور الدين ما أقدم عليه أماليك من تدخل في مصر ، فانتهز غيابه للهجوم على أضعف الدويلات الصليبية – طرابلس ؛ فقام بغزو البقاع كى يضرب الحصار حول قلعة الكرك التى كانت تسيطر على سهل ضيق . ولحسن حظ الفرنج كان هيو ، كونت لوسينيان، وجيوفرى مارتل ، أخو كونت أنجوليم ، يمران خلال طرابلس بأتباعهما فى طريق عودتهما من الحج فى القدس ، فانضما إلى الكونت ريموند ، وأرسلت استغاثة عاجلة إلى أنطاكية جاء على أثرها من الشمال لا بوهمند الثالث وحسب ، وانما أيضا القائد الامبراطورى قنسطنطين كولومان ؛ وسار الجيش المسيحي المتحد مسرعا خلال التلال وباغت المسلمين فى معسكرهم أسفل قلعة الكرك . وبعد معركة قصيرة أظهر فيها كولومان وجنوده تميزهم بصورة خاصة ، هرب نور الدين بلا نظام إلى حمص ، حيث أعاد تجميع جيشه وتلقى تعزيزات مما دفع المسيحيين إلى التخلى عن المطاردة(١١).

وسرعان ما ظهر بعد ذلك الوزير السابق شاور الهارب من مصر فى بلاط نور الدين ، يعرض عليه أن يرسل جيشا لإعادة تنصيبه فى القاهرة ، وفى هذه الحالة يدفع شاور مصروفات الحملة ، ويتخلى له عن مقاطعات على الحدود ، ويعترف بسيادة نور الدين ، ويدفع له ضريبة سنوية تعادل ثلث ايرادات البلد . وتردد نور الدين خشية المجازفة بجيش يمضى بطول الطرق التى يسيطر عليها الفرنج أو فى طرق ما وراء نهر الأردن . ولم يتخذ قرارا إلا فى ابريل ١١٦٤م ، بعد أن استخار آيات القرآن الذى فتحه كيفما اتفق ، وأمر بأن ينطلق أكثر قواده إخلاصا – شيركوه – بكتيبة ضخمة ويذهب مع شاور عبر الصحراء ، بينما قام هو بهجوم مضلل على بانياس . واصطحب شيركوه معه ابن اخيه صلاح الدين – وهو ابن نجم الدين أيوب – الذى كان شابا فى السابعة والعشرين من عمره ، ولم يكن شديد الشغف بالانضمام إلى الحملة . وارتاع ضرغام ، فأرسل يطلب المساعدة من أماليك ؛ غير أن شيركوه كان قد انطلق بسرعة عبر برزخ السويس قبل أن يتهيأ الفرنج للتدخل . وبالقرب من الفرما هزم أخو ضرغام

(١٠) William of Tyre, XIX, 5, pp. 890-1; letter of Amalric, *R.H.F.* vol. XVI, pp. 59-60، ويؤكد أماليك فى خطابه للملك لويس ان بالامكان هزيمة مصر بقليل من المساعدة الاضافية ؛ Michael the Syrian, III, p. 317.

(١١) William of Tyre, XIX, 8, pp. 894-5; Ibn al-Athir, p.531, and *Atabegs*, pp. 207-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 534. Michael the Syrian, III, p. 324. ويقول ابن الأثير إن البيزنطيين كانوا الأكثر رعبا فى الجيش المسيحي.

مع عدد ضئيل من الجنود الذين تمكن من جمعهم . وشهدت القاهرة فـى الأيـام الأخـيرة من شهر مايو ١١٦٤م إعادة تنصيب شاور وموت ضرغام(١٢).

وما أن استعاد شاور سلطانه حتى تنكر لوعـوده وطلـب مـن شـيركوه العـودة إلى سوريا . فرفض شيركوه واستولى علـى بلبيـس ، فمـا كـان مـن شـاور إلا أن اسـتنجد بالملك أماليك ، وحثه على الإسراع عارضا عليه ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من القدس إلى النيل وعددها سبع وعشرين مرحلة، وواعدا بهدايا أخرى لفرسان المستشفى المصاحبين له ودفع تكاليف أعلاف جيـادهم . فـأعد أمـالريك سـبل الدفـاع الجيد لمملكته ، ثم انطلق بسرعة فـى أوائـل أغسـطس إلى فـاقوس الواقعـة علـى النيـل ، حيث انضم اليه شاور وانطلقا لمحاصرة شيركوه فـى بلبيـس . وصمـدت القلعـة ثلاثـة أشهر، ولاح احتمال سقوطها . لكن أماليك جاءته أنباء من سوريا فقرر رفع الحصـار بشرط أن يجلو شيركوه عن مصر . ووافق شيركوه ، وسار الجيشان الفرنجي والسـوري فى طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء ، وقـد تركـا شـاور مسـيطرا علـى مملكتـه . وكان شيركوه آخر من رحل من أصحابه . وعندما كان يودع الفرنج سأله أحدهم من الوافدين الجدد إلى الشرق : ألا تخشى الخيانة ؟ فأجابه بفخر بأن جيشه كله سيثأر له ، ورد عليه سائله الفرنجي بعبارات الشهامة بأنه يفهم الآن سبب ارتفـاع شـهرة شـيركوه بين الصليبيين(١٣).

١١٦٤م : كارثة في أرتاح

ولقد كانت أنطاكية هي مصدر الأنباء التي دفعت أماليك إلى أن يسرع بـالعودة إلى بلده . ذلك أن نور الدين عندما علم أن أماليك رحـل إلى مصـر ، ضـرب الامـارة الشمالية وحاصر قلعة حارم التي تعتبر القلعة الأساسية ، وكان معه جيـش أخيـه الـذى جاء من الموصل وجنود من أمراء الأراتقة في دياربكر وماردين وديبرت وكـير . وبينمـا كان لورد حران – رينالد (اوف سـانت فالـيرى) يدافـع عـن القلعـة ببسـالة ، اسـتنجد الأمـير بوهمنـد بريمونـد أمـير طرابلـس ، وثـوروس الأرمينـى ، وكولومـان البـيزنطى .

---

(١٢) William of Tyre, XIX, 5, 7, pp. 891-2, 893; Abu Shama, p. 107; Ibn al-Athir, p. 533, and *Atabegs*, pp.215-6; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP. 46-8.

(١٣) William of Tyre, XIX, 7, pp. 893-4; Ibn al-Athir, pp. 534-6 and *Atabegs*, pp. 217-9; Abu Shama, p. 125.

فانطلقوا معا في منتصف أغسطس ، ولمّا جاءت نور الدين اخبار تحركهم رفع الحصار . وقيل لنا إن نور الدين شعر بالخطر بوجه خاص من وجود الكتيبة البيزنطية . وبينما كان بوهموند ينسحب ومعه نحو ستمائة فارس تقريبا قرر مواصلة المطاردة ضاربا عرض الحائط بنصيحة رينالد (اوف سانت فاليرى) الذى كان يرى أن الجيش الإسلامي أكبر بكثير . واصطدم الجيشان يوم ١٠ أغسطس بالقرب من أرتاح . وتجاهل بوهمند ما حذره منه ثوروس ، وهاجم على الفور . وتظاهر المسلمون بالهرب فاندفع بوهمند وراءهم مباشرة ، لا لشئ إلا ليقع فى كمين ويجد نفسه وفرسانه وقد طوقهم جيش الموصل . وتمكن ثوروس وأخوه مليخ – وكانا أكثر حذرا – من الهرب من ساحة القتال ، أما باقى الجيش المسيحى فقد وقع ضحية الأسر أو القتل ؛ وكان من بين الأسرى بوهمند ، وريموند أمير طرابلس ، وقنسطنطين كولومان ، وهيو (اوف لوسينيان) ، وقد اقتيدوا وهم مقيدون معا فى قيد واحد إلى حلب[١٤].

وراح مستشارو نور الدين يحثونه على الزحف على مدينة انطاكية العارية من أى دفاع ؛ لكنه رفض قائلا إنه لو زحف على انطاكية فسوف يسرع اليونانيون بارسال حامية داخل القلعة ، وإنه برغم امكان استيلائه علىالمدينة ، تستطيع القلعة الصمود إلى أن يأتى الامبراطور . كان يعتقد أن وجود دويلة فرنجية ضئيلة الشأن أفضل من أن تصبح جزءا من امبراطورية عظيمة . وكان بالغ الحرص على عدم الإساءة إلى بيزنطة بحيث أطلق سراح قنسطنطين كولومان على الفور تقريبا مقابل مائة وخمسين رداء حريريا . ومرة أخرى أُنقذت أنطاكية للعالم المسيحى بفضل هيبة الامبراطور.

وبينما كان أماليك يغذ السير مسرعا باتجاه الشمال ، انضم اليه ثيرى (اوف فلاندرز) الذى جاء إلى فلسطين فى حجته الرابعة . وبهذا التعزيز توقف أماليك فى طرابلس لترسيخ حقه فى أن يكون الوصى على الكونتية أثناء أسر الكونت ، ثم واصل مسيرته إلى أنطاكية ، حيث دخل فى مفاوضات مع نور الدين الذى وافق على إطلاق سراح بوهمند أمير طرابلس وثوروس لقاء فدية ضخمة ، وانما فقط لأنهما من أتباع الامبراطور ؛ ولم يكن ليطلق سراح ريموند أمير طرابلس ولا سجينه الأقدم – رينالد

---

(١٤) William of Tyre, xix, 9, pp. 895-7، الذى يحدد التاريخ خطأ بعام ١١٦٥م ؛ Robert of Torigny, I, p.355؛ خطابات أماليك الأول وخطابات Gaufred -Fulcher الموجهة الى لويس السابع فى;R.H.F. vol. xvi, pp. 60-2 ؛ ويشير Cinnamus, p.216 اشارة مقتضبة جدا حول أسر كولومان؛ Michael the Syrian, III, p.324; ؛ Chron. Anon. Syr. p.304; Bustan, p.559; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 510; Abu Shama, p. 133; Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.220-3.

(اوف شاتيلون)[١٥] . وانتاب أماليك نفسه القلق عندما جاءه مبعوث امبراطورى يسأله عن سبب وجوده فى انطاكية ؛ فكان رده أن أرسل إلى القسطنطينية رئيس أساقفة قيسارية ، وخازنه – اودو (اوف سانت أماند)، بطلب يد إحدى الأميرات الامبراطوريات ، واقتراح عقد تحالف لغزو مصر[١٦]. واحتجز الامبراطور مانويل السفارة مدة عامين لإعطائها الرد . وفى تلك الأثناء لم يكن لأماليك بد من أن يعود إلى الجنوب إذ أن نور الدين ، بدلا من مهاجمة أنطاكية ، ظهر فجأة فى أكتوبر أمام بانياس التى كان أميرها همفرى الثانى (اوف تورون) مع جيش أماليك . وكان قد أشاع شائعات بأن الهدف هو طبرية ؛ فتركزت الميليشيات الفرنجية المحلية هناك . أما حامية بانياس ، فقد قاومت بشجاعة بادئ الأمر ، وكان المأمول أن يخف لنجدتها تييرى (اوف فلاندرز) ، الذى وصل لتوه إلى فلسطين ، لكن القلعة استسلمت فجأة ، ربما بسبب الخيانة . واحتل نور الدين البلاد المحيطة وهدد بالتوغل فى الجليل فسارع باروناتها بالوعد بدفع إتاوة[١٧] .

١١٦٥م : بطريق يونانى فى أنطاكية

ما أن أطلق سراح بوهمند أمير أنطاكية حتى ذهب إلى القسطنطينية لزيارة أخته ، ولكى يتوسل إلى زوج اخته (الامبراطور) دفع جزء من الفدية التى لا يزال مدينا بها لنور الدين ؛ فأعطاه مانويل المعونة المطلوبة وفى المقابل عاد بوهمند إلى أنطاكية ومعه بطريق يونانى – أثناسيوس الثانى ؛ أما البطريق اللاتينى إيمرى الذى اعترض فقد ذهب إلى منفاه فى قلعة قصير[١٨]. وطوال السنوات الخمس التالية سيطر اليونانيون على الكنيسة الأنطاكية ؛ ولا يبدو أن الأساقفة اللاتينيين قد طردوا ، وإنما كان اليونانيون يشغلون المناصب الشاغرة . وأدى مجئ اليونانيين إلى ارتماء الكنيسة اليعقوبية فى أحضان

---

(١٥) William of Tyre, xix, 10, ii, pp.898, 900-1; *Bustan*, p.561; Michael the Syrian, iii, p. 326، ويقول ميخائيل السيريانى ، فى النسخة الأرمينية ، Armenian version, p. 360، إن ثوروس الذى أطلق سراحه أولا أصر على إطلاق سراح بوهمند.

(١٦) Cinnamus, pp. 237-8; William of Tyre, xx, i, p. 942.

(١٧) William of Tyre, xix, 10, pp. 898-900; Ibn al-Athir, pp. 540-2, and *Atabegs*, p. 234; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 541.

(١٨) William of Tyre, xix, ii, p. 901; Michael the Syrian, iii, p.326. عُين أثناسيوس الثانى بطريقا لأنطاكية عام ١١٥٧م عندما اتهم البطريق المعين Panteugenes Soterichus بالهرطقة.

اللاتينيين ، إذ كانوا على علاقة ودودة منذ عام ١١٥٢م عندما حدثت معجزة عند قبر القديس السيرياني بارسوما أسفرت عن شفاء طفل فرنجى أعرج ؛ وفى عام ١١٥٦م سُمح لليعاقبة ببناء كتدرائية جديدة ساعد فى تخصيص الوقف لها الأميرة كونستانس والأمير الأرمينى ثوروس ، مما أدخل البهجة على بطريقهم - ميخائيل السوري المؤرخ. والآن ذهب البطريق ميخائيل لزيارة إيمرى فى القصير ليؤكد له تعاطفه معه . وبلغت كراهية ميخائيل لليونانيين شأوا بعيدا بحيث رفض عام ١١٦٩م دعوة ودية من الامبراطور للحضور إلى القسطنطينية للاشتراك فى إحدى المناظرات الدينية التى كان الامبراطور مانويل شغوفا بها(١٩).

وأمضى نور الدين عامى ١١٦٥م و١١٦٦م فى القيام بهجمات مفاجئة على القلاع الواقعة شرقى منحدرات لبنان ، بينما راح شيركوه يغير على منطقة الأردن ، ودمر حصنا كان فرسان المعبد قد بنوه فى مغارة جنوب عمان(٢٠). وفى نهاية عام ١١٦٦م حصل شيركوه أخيرا على اذن سيده فى غزو مصر مرة أخرى ؛ وحث الخليفة فى بغداد على المناداة بهذا المشروع كحرب مقدسة ضد هرطقة الخلافة الشيعية الفاطمية ؛ وربما كان لهذا الجدل أثره على نور الدين الذى أصبح عميق التدين منذ مرضه ، وزود شيركوه وجيشه بتعزيزات من حلب . وانطلق شيركوه من دمشق فى يناير ١١٦٧م ، واصطحب معه صلاح الدين مرة أخرى . ولم يخف نواياه ، مما أتاح الوقت لشاور كى يستنجد بالملك أماريك . واستدعى الملك باروناته لمقابلته هناك ؛ وبعد تأكيده للخطر المحدق بفلسطين فى حالة غزو السوريون السنيون لمصر ، وافقت المحكمة العليا على إرسال حملة كاملة لإنقاذ شاور . وكان على قوة المملكة المقاتلة كلها أن تشترك فى الحملة أو أن تبقى على الحدود للحراسة فى غيبة الملك ؛ ولذا كان على كل شخص لا يستطيع الحضور أن يدفع عشر دخله السنوى . وقبل أن يتهيأ الجيش جاءت الأنباء بأن شيركوه يعبر صحراء سيناء ؛ فسارع أماريك بإرسال ما كان

---

(١٩) Michael the Syrian, III, pp. 301-4, 332, 334-6.

(٢٠) William of Tyre, XIX, II, pp.901-2; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p.501، ويحدد بهاء الدين تاريخ الإستيلاء على مونيترا بعد الحملة المصرية عام ١١٦٧م ؛ Ibn al-Athir, pp.545-6 and *Atabegs*, pp.235-6، استولى نورالدين على مونيترا ، على الطريق من جبيل الى بعلبك ، بينما استولى شيركوه على شقيف تيتون ، أو كهف تيرون ، الذى يحدده Rey(*Colonies Franques*,p.513) بأنه قلعة نينها، الواقعة على مسافة ١٥ ميلا تقريبا شرق صيدا . ومكان قلعة فرسان المعبد القريبة من عمان غير معروف . ويطلق عليها بهاء الدين آكاف ، وربما تكون مغارة كاف الواقعة جنوب شرق عمان والتى تضم أطلالا رومانية ، ولكن ليس هناك ما يدل على وجود أطلال من العصور الوسطى.

جاهزا من الجنود لإعتراض طريقه ، لكن السيف كان قد سبق العذل[٢١].

١١٦٧م : السفراء الفرنج فى القاهرة

هبت عاصفة رملية مرعبة كادت أن تسحق جيش شيركوه ؛ لكنه وصل برزخ السويس فى الأيام الأولى من فبراير تقريبا ، وهناك سمع بأن الجيش الفرنجى انطلق يوم ٣٠ يناير ؛ ولذا سار باتجاه الجنوب الغربي ، خلال الصحراء ، ليصل إلى النيل عند أطفيح ، على بعد أربعين ميلا جنوب القاهرة . وعبر النيل وهبط على الضفة الغربية وضرب معسكره فى الجيزة أمام العاصمة . وفى تلك الأثناء اقترب الجيش الفرنجى من القاهرة من الشمال الشرقى ؛ وقابله شاور فى مكان ما خارج المدينة وقاده إلى حيث يعسكر على الضفة الشرقية للنيل ، على مسافة ميل من أسوار المدينة . ورفض شاور اقتراحا من شيركوه بالاتحاد ضد المسيحيين ، وعقد حلفا مع أماليريك يدفع بموجبه للفرنج أربعمائة ألف بيزانت نصفها فى الحال والنصف الآخر بعد وقت قصير ، شريطة أن يقسم أماليريك بعدم مغادرة مصر إلا بعد طرد شيركوه منها . وبعث الملك إثنان هما هيو (لورد قيسارية) وفارس من فرسان المعبد يدعى جيوفرى - ربما كان يتحدث العربية - إلى داخل القاهرة للحصول على تصديق رسمى من الخليفة على الحلف . واستقبلا فى القصر استقبالا فخيما؛ إذ اقتيدا عبر صفوف أشجار وينابيع وحدائق ، حيث ما كان يحتفظ به البلاط من وحوش وأقفاص ضخمة للطيور ، ومن قاعة إلى اخرى تتدلى فى كل منها الستائر الكثيفة المحلاة بخيوط الحرير والذهب وأزرار الجوهرات ، إلى أن رُفعت ستارة ذهبية ضخمة ، لتكشف عن الخليفة الصبى من وراء ستر على عرشه الذهبى . وأقسم المقسمون بالحفاظ على المعاهدة . ثم إن هيو - كنائب عن الملك - رغب فى اتباع الطريقة الغربية للتصديق على التحالف بأن يشد على يد الخليفة العارية . وارتاع رجال الحاشية الملكية ، وأخيرا تم اقناع سيدهم ، وهو يبتسم ابتسامة فيها الإزدراء ، بأن يخلع قفازه. وانسحب السفيران وقد تأثرا تأثراً عميقا - كما كان مقصودا - بما كان للامبراطورية الفاطمية من ثروة هائلة[٢٢].

---

(٢١) William of Tyre, XIX, 13, 16, pp. 902-4, 907-8, Beha ed-Din, *P P.T.S.* p.48، ويقول بهاء الدين إن نورالدين أجبر صلاح الدين على مصاحبة شيركوه؛ Ibn al-Athir, p. 547, and *Atabegs*, p 236.

(٢٢) William of Tyre, XIX, 17-19, pp.908-13; Ernoul, p 19، ويعلق إيرنول بأن بلاط الإمبراطور فى القسطنطينية هو فقط الأكثر ثراء من بلاط القاهرة ؛ Abu Shama, p. 130 ويواصل وليم

ومضى شهر والجيشان يحملق كل منهما في الآخر ، لا يقدر أى منهما على عبور النهر في وجود الآخر قبالته . ثم تمكن أماريك من تنفيذ عبور إلى جزيرة على رأس الدلتا - إلى الشمال قليلا - ومنها إلى الضفة اليسرى ، حيث باغتت إحدى فرق شيركوه . ووجد شيركوه أن جيشه ضئيل العدد أمام الفرنج والمصريين ، فانسحب باتجاه الجنوب أعلا النيل ، وتبعه أماريك وشاور ، متوخين جانب الحذر بترك حامية قوية فى القاهرة تحت قيادة ابن شيركوه، الكامل ، وهيو (اوف إبلين). وتسبب دخول كتيبة هيو إلى القاهرة والسماح للضباط بحرية دخول القصر ، فى إثارة الذعر لدى دوائر المسلمين الأكثر تشددا فى المدينة.

وفى مكان ما لا يبعد كثيرا عن مدينة المنيا في وسط مصر ، تهيأ شيركوه لعبور النيل مرة اخرى وفى ذهنه العودة لغزو الحدود السورية . فعسكر فى أشمونين بين أطلال هرموبوليس القديمة ؛ حيث لحق به الجيش الفرنجى المصرى - الذى كان أكبر من جيشه حتى بدون الحامية التى تخلفت فى القاهرة . غير أن جيش شيركوه كان مؤلفا أساسا من فرسان الأتراك خفيفى الحركة ، بينما كان الجيش المصرى يتألف من المشاة ومع الجيش الفرنجى مجرد بضع مئات من الفرسان ؛ وبخلاف ما أشار عليه أمراء الجيش ، قرر شيركوه الاشتباك فى معركة . وتردد أماريك من ناحيته ، وعندئذ حدثت إحدى تدخلات القديس برنارد التعسة فى التاريخ الصليبى ؛ فقد ظهر للملك فى حلم وراح يوبخه توبيخا مهينا بأنه غير جدير بهذه القطعة الخشبية من الصليب الحقيقى التى يعلقها حول رقبته ، وأنه لن يبارك هذا الأثر إلا عندما يقسم الملك بأن يكون مسيحيا أكثر اخلاصا . وبهذا التشجيع ، شن أماريك فى الصباح التالى ، ١٨ مارس ١١٦٧م ، هجوما على السوريين . واتبع شيركوه التكتيكات التركية المعتادة ؛ فقد تهاوى القلب من جيشه بقيادة صلاح الدين ، وعندما انطلق الملك وفرسانه فى عدوهم يطاردون القلب ، دفع شيركوه ميمنته إلى ميسرة الفرنج والمصريين فانهارت . ووجد أماريك نفسه وقد أحيط به . وإنما يُعزي تمكنه من الهرب على قيد الحياة - كما يُظن - إلى الأثر المبارك المعلق فى رقبته ؛ على أن الكثيرين من أفضل فرسانه قتلوا وأسر آخرون ، من بينهم هيو كونت قيسارية . واندفع أماريك وشاور وبقايا جيشهما منسحبين إلى القاهرة للانضمام إلى قوات الحامية[٢٣].

الصورى بيان الفرق بين الطائفتين السنية والشيعية.

(٢٣) William of Tyre, xix, 22-5, pp. 917-28 (متضمنا وصفا لمصر والنيل) ؛ Ibn al-Athir, pp. 547-9، يحدد تاريخ معركة أشمونين فى ١٨ مارس ، وفى *Atabegs*, p. 23، تحدد تاريخها فى ١٨

١١٦٧م : صلاح الدين محاصَر فى الإسكندرية

لقد انتصر شيركوه ؛ لكن هناك جيشا متحالفا لا يزال فى ساحة القتال . وبدلا من محاولة الهجوم على القاهرة ، عبر النهر مرة اخرى واتجه بسرعة إلى الشمال الغربى من خلال الفيوم ؛ وفى غضون أيام قليلة ظهر امام الإسكندرية . وفتحت له هذه المدينة العظيمة بواباتها لما كان يعرف عن كراهيتها لشاور . وفى تلك الأثناء أعاد أماريك وشاور تشكيل جيشهما خارج القاهرة . وبرغم الخسائر كان لا يزال أكبر من جيش شيركوه ؛ ولذا تبعاه إلى الاسكندرية وضربا حصارا حول المدينة ؛ ووصلت تعزيزات قليلة من فلسطين، وأبحرت سفن فرنجية لتحكم الحصار . وبعد انقضاء شهر تقريبا وجد شيركوه المجاعة تتهدده ، فترك صلاح الدين مع حوالى ألف من رجاله للدفاع عن المدينة ، وتسلل خارجا فى إحدى ليالى شهر مايو مع القسم الأكبر من جيشه ، مارا بمعسكر أماريك ويمم وجهه شطر مصر العليا . وشعر أماريك بالحنق ورغب فى مطاردته ؛ غير أن شاور أخبره بأن الأهم استرجاع الإسكندرية ، ولا مانع لديه من أن ينهب شيركوه مدن مصر العليا إذا شاء . وبنهاية شهر يونية أصبح وضع صلاح الدين داخل المدينة باعثا على اليأس بحيث توسل إلى عمه أن يعودوا .وتحقق شيركوه من أنه ليس هناك ما يمكنه أن يفعله ، فاقترب من الإسكندرية وأرسل أحد أسراه الفرنج ، وهو أرنولف امير تل بشير – بعد أن رفض هيو أمير قيسارية المهمة – إلى معسكر أماريك يقترح عقد السلام على أساس أن يجلو هو والفرنج عن مصر ، وعلى أن يعد شاور بعدم معاقبة رعاياه فى الاسكندرية وغيرها من الذين أيدوا الغزاة . وقبل أماريك بالشروط ، إذ كان فى حالة عصبية لانشغاله بشؤون فلسطين وطرابلس . وفى ٤ أغسطس ، دخل الجيش الفرنجى الاسكندرية وعلى رأسه الملك . وخرج صلاح الدين وجيشه بأسمى آيات الشرف العسكرى تحت الحراسة ، رغم أن السكان تمنوا لو يمزقوه إربا بعدما ألقوا عليه باللائمة لما هم فيه من بؤس . على أن متاعبهم لم تكن قد انتهت بعد ؛ فما أن دخل مسؤولو شاور المدينة حتى اعتقلوا كل من حامت حوله الشكوك فى التعاون مع السوريين ، مما دفع صلاح الدين إلى الشكاية لأماريك الذى أمر شاور باطلاق سراح السجناء . وقدم هو نفسه قوارب لنقل الجرحى من جيش شيركوه بحرا إلى عكا ، ولسوء الحظ أرسل من شفى من جراحاته للعمل فى مزارع السكر إلى أن جاء الملك بنفسه للإفراج عنهم . وأثناء المفاوضات ، صادق صلاح الدين الكثيرين من

Vita S. Bernardi, M.P.L. vol. CLXXXV, cols. 366-7 ابريل، يحدد تاريخ المعركة فى ١٩ مارس.

بين الفرنج ، وساد الاعتقاد فيما بعد بأنه نال درجة الفروسية على يد الكونستابل همفرى (اوف تورون) . وغادر شيركوه وصلاح الدين مصر يوم ١٨ أغسطس تقريبا ووصلا دمشق فى سبتمبر . واتجه أماليك وجيشه إلى القاهرة لإعفاء هيو (اوف إبلين) من مهمته فى الحامية ، غير أنه انتهى مع شاور إلى أن وقع الأخير على معاهدة يعد فيها بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة ألف قطعة ذهبية ، والاحتفاظ بمندوب سام فرنجى وحامية فرنجية صغيرة فى القاهرة تسيطر على بوابات المدينة . وبعد ذلك عاد الملك إلى فلسطين ووصل عسقلان يوم ٢٠ أغسطس(٢٤).

وظن بعض لوردات الفرنج أن كان من الممكن الحصول على صفقة أفضل ، لكن أماليك لم يشأ المجازفة بقواته أكثر من ذلك فى مصر وترك فرنج سوريا بلا حماية من هجمات نور الدين ؛ وحدث عندما كان فى مصر أن أغار نور الدين على أراضى طرابلس ، ولكن دون أن يستولى على أية حصون هامة ؛ فكان من الضرورى إعادة تنظيم الدفاع عن البلاد. على أن مشكلة المشاكل هى دائما الرجال ؛ وكانت أعداد الأسر المقيمة تتناقص بسبب الموت أو الوقوع في الأسر ، وأما الصليبيون الزائرون – مثل ثيرى (اوف فلاندرز) – فليس فى الامكان الاستعانة بهم إلا فى حملات محددة ؛ ومن ثم كان حل اعتماد أماليك على النظامين العسكريين اللذين منحا فى عام ١١٦٧م والأعوام التالية أعدادا كبيرة من القلاع والأراضى المحيطة . وكانت الهبات على جانب من الأهمية بالنسبة لطرابلس خاصة ، إذ كان أميرها ما يزال أسيرا و لم يكن فيها من الأسر النبيلة الكبيرة سوى القليل . وكانت طرطوس وشمال البلاد كله تقريبا تحت سيطرة فرسان المعبد ، أما فرسان المستشفى – الذين ربما كانوا قد استولوا فعلا على الكرك التى يسمونها "حصن الفرسان des Chevaliers" – فقد عهد اليهم بالبقاع. وفى المملكة ، كان فرسان المعبد – الذين وطدوا دعائمهم بالفعل فى غزة – قد منحوا صفد فى الشمال ، بينما حصل فرسان المستشفى على قلعة كوكب التى تتحكم فى مخاضات نهر الاردن الواقعة إلى الجنوب من بحر الجليل . وفى انطاكية حذا بوهمند الثالث حذو أماليك ؛ فزادت حيازات فرسان المعبد من المناطق المحيطة ببجراس ، على البوابات السورية ، وخصص لفرسان المستشفى مساحة ضخمة من الأراضى جنوب الامارة ، كان اغلبها فى الواقع فى أيدى المسلمين . ولو أن الغيرة المتفشية بين النظامين

---

(٢٤) William of Tyre, XIX, 26-32, pp.928-39; Abu Shama, pp. 130-4; Ibn al-Athir, pp. 547-51, and *Atabegs*, pp. 236-46; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 49-51; Imad ed-Din.
وترد قصة فروسية صلاح الدين فى *Itinerarium Regis Ricardi*, p.9 .

كانت أقل والشعور بالمسؤولية كان أكبر ، لاستطاعا الحفاظ على دفاعات المملكة بما لهما من قوة(٢٥).

١١٦٦-١١٦٧م: مغامرات أندرونيكوس كومنينوس

بينما تقرر أن يقود النظامان الدفاع عن المملكة ، سعى أماليك كذلك إلى عقد تحالف اوثق مع بيزنطة . وفي أغسطس ١١٦٧م ، وكان قد عاد لتوه من مصر ، وصلته أنباء بأن سفيريه في القسطنطينية، رئيس أساقفة قيسارية والنادل أودو، قد هبطا في ميناء صور مع إبنة أخي الامبراطور الجميلة الشابة ماريا كومنينا ؛ فسارع إلى مقابلتها ؛ وشهدت كتدرائية صور حفل زواجهما الفاخر الذى عقده البطريق أماليك يوم ٢٩ أغسطس . ومنحت الملكة نابلس والأراضي المحيطة بها مهرا لها . وكان بصحبتها اثنان من كبار المسؤولين في بلاط عمها، وهما ابنا عمومته جورج بالايولوجوس ومانويل كومنينوس، وكانا مزودين بسلطة مناقشة التحالف مع اماليك.

وكانت العلاقات الحسنة بين امراء الفرنج والامبراطور قد تعرضت مؤخرا للخطر بسبب ماكان عليه ابن عم آخر لمانويل ، هو أندرونيكوس كومنينوس من رعونة، وكان أكثر امراء عائلته ذكاء ووسامة ؛ وكان هذا الامير في أحط درجات الخزى لمغازلته إحدى قريباته ، وهى إيوديشيا ابنة اخت االامبراطور ، التى تحدثت الشائعات بأن الامبراطور نفسه كان بالغ الشغف بها . وفضلا عن ذلك ، أتى من التصرفات ما يدل على افتقاره إلى الحكمة عندما كان محافظا في كيليكيا عام ١١٥٢م ؛ غير أنه عُيّن مرة اخرى في هذا المنصب عام ١١٦٦م . وكان سلفه الكسيوس آكسوخ - الذى أوفد مكان كولومان أثناء أسره - قد فشل في تنفيذ أوامر الامبراطور في التوفيق بين الأرمن، وقت أن كانت الآمال معلقة على نجاحه مع ثوروس لما كان يتمتع به أندرونيكوس من جاذبية شخصية ، إلى جانب الكثير من المعونات. بيد أن أندرونيكوس، الذى بلغ من العمر السادسة والأربعين ، كان أكثر اهتماما بالمغامرة منه بالادارة ؛ وسرعان ما اتيحت له الفرصة لزيارة انطاكية حيث أصابته الاميرة الشابة فيليبا - اخت بوهمند - بسهم جمالها . ونسي أو تناسى واجباته الحكومية ومكث في انطاكية يتودد لفيليبا بسلسلة من الأناشيد العاطفية الليلية حتى تملت و لم تملك أن

---

(٢٥) انظر Delaville Le Roulx, *op. cit.* pp.74-6. وترد أمثلة متواترة عن الهبات الممنوحة للنظامين في Rohricht, *Regesta*, pp. 109 ff..

ترفض له طلبا . واغتاظ بوهمند ولجأ في شكواه إلى زوج أخته مانويل، الذي تملكه الغضب فاستدعى أندرونيكوس وأرسل مكانه قنسطنطين كولومان . كما صدرت الأوامر لكولومان بالتوجه إلى انطاكية ومحاولة الفوز بقلب فيليبا؛ لكن الأميرة وجدته بسيطا قصيرا في منتصف عمره بالمقارنة بحبيبها الرائع . ومع هذا ، كانت دوافع أندرونيكوس بدرجة كبيرة مضايقة القيصَرة التي كان يبغضها ، والآن اتخذ سبيل الحصافة فهجر انطاكية ومحظيته ؛ وأخذ معه نصيبا ضخما من الايرادات الامبراطورية من كيليكيا وقبرص ويمم وجهه شطر الجنوب عارضا خدماته على الملك أماليك . وسرعان ما عُثر على زوج للأميرة المهجورة ، الكونستابل همفري الثاني (اوف تورون) الأرمل المسن.

وافتتن أماليك بأندرونيكوس ، وأثرت فيه شجاعته الشخصية ، فوهبه اقطاعية بيروت التي كانت شاغرة آنذاك . وبعد ذلك مباشرة ذهب أندرونيكوس إلى عكا ، وهي مهر ابنة عمه الأرملة الملكة ثيودورا التي كانت وقتئذ في ربيعها الحادي والعشرين وفي رائعة جمالها . وكانت قصة حب من كلا الجانبين؛ والتصق كل منهما بالآخر بحيث لم يكن للزواج بينهما ضرورة ، وانتقلت الملكة بلا خجل إلى بيروت حيث مكثت خليلة له . وعندما سمع مانويل بهذه الصلة الجديدة ، ربما من سفرائه الذين رافقوا الملكة ماريا إلى فلسطين ، تفجرت لديه سورة الغضب . ولذا ، وعندما ذهب سفراؤه بعد ذلك إلى فلسطين طلبوا سرا تسليم الجاني . ووقعت التعليمات المعطاة للسفراء في يد ثيودورا . ولما كان معروفا أن اماليك يسعى إلى الفوز بنوايا الامبراطور الحسنة ، ارتأى اندرونيكوس أن الحكمة تدعوه إلى الرحيل وأعلن عن نيته في العودة إلى وطنه ، وجاءت ثيودورا إلى عكا مرة اخرى لتوديعه . وما أن التقيا حتى تركا كل ممتلكاتهما ولاذا بالفرار دون مرافق عابرين الحدود إلى دمشق . واستقبلهما نور الدين استقبالا طيبا؛ وأمضيا السنوات التالية يتجولان في أرجاء الشرق الإسلامي ، وزارا حتى بغداد ، إلى أن منحهما أحد الأمراء المسلمين حصنا بالقرب من حدود الامبراطورية عند بافلاجونيا ، حيث استقر أندرونيكوس بعدما حكم عليه بالطرد من الكنيسة ، سعيدا بحياة قطاع الطرق . ولم يأس أماليك لرحيلهما ، إذ استعاد مهر اخت زوجته النفيس ـــ عكا[٢٦]

---

(٢٦) illiam of Tyre, xx, 2, pp. 943-4; Cinnamus, pp. 250-1, Nicetas Choniates, pp.180-6.
(وعن تاريخ أندرونيكوس بعد ذلك انظر أدناه الصفحات ٤٨٣-٤٨٥)

١١٦٨م : التحالف مع بيزنطة

ومن الواضح أن اماريك أرسل مع جورج بالايولوجوس إلى مانويل يقترح غزو مصر . وحملت السفارة التالية لمانويل - التى رأسها إيطاليان هما الكسندر (اوف كونفرسانو) كونت جرافينا، وميخائيل (اوف اوترانتو) - شروط الامبراطور التى يبدو أنها كانت تتألف من حصة فى أسلاب مصر وإطلاق يده تماما فى انطاكية ، وربما التنازل عن أراض فرنجية أخرى . كانت الشروط قاسية ؛ ولذا بعث اماريك رئيس شمامسة صور ، وليم - مؤرخ المستقبل - إلى القسطنطينية لإستئناف المناقشات . وعندما وصل وليم هناك علم أن الامبراطور فى حملة فى الصرب فتبعه إلى هناك وقابله فى موناستير حيث استقبله مانويل بما اعتاد عليه من سخاء الكرم وعاد معه إلى عاصمته. وأبرمت المعاهدة التى تقضى بأن يقتسم الامبراطور والملك غزوتهما لمصر . وعاد وليم إلى فلسطين فى أواخر خريف ١١٦٨م[٢٧].

وللحظ التعس ، لم ينتظر البارونات عودته . إذ وردت الأنباء بأن شارر يفتقر إلى الأمان، وأنه متبرّم من الحامية الفرنجية فى القاهرة ، وقد تأخر فى دفع الإتاوة ، إلى جانب انتشار الشائعات بأن ابنه الكامل يتفاوض مع شيركوه ، وطلب يد أخت صلاح الدين . وكان لوصول الكرنت وليم الرابع كونت نفرس إلى فلسطين فى اواخر الصيف ومعه صحبة رائعة من الفرسان ، أن شجع أولائك المتعجلين للعمل . وعقد الملك مجلسا فى القدس راح فيه السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جيلبرت (اوف أسّيلى) يحث بعنف على الانطلاق إلى مصر إذ لم يعد هناك مجال لأى تأخير ؛ وأيده أغلب البارونات العلمانيين ؛ وزاد التأييد بما أضافه كونت نفرس ورجاله ، الذين جاءوا للحرب من اجل الصليب . وعارض فرسان المعبد صراحة ارسال اية حملة وأعلنوا انهم لن يشتركوا فيها. وربما ترجع معارضتهم إلى غيرتهم من فرسان المستشفى ، الذين قرروا بالفعل الحصول على الفرما (بيلوزيوم) باعتبارها نصيبهم فى الحملة ، كمقابل لحصن غزة الذى يحتله فرسان المعبد . على أن لفرسان المعبد أيضا علاقات مالية مع المسلمين ومع المدن التجارية الايطالية التى اصبحت تجارتها الآن مع مصر أكبر من تجارتها مع سوريا المسيحية . ووافق الملك أماريك على أنه من الضرورى القيام بعمل عاجل نظرا لضعف شاور وعدم امكان الاعتماد عليه ، لكنه اعرب عن رغبته فى الانتظار إلى أن تصل مساعدة الامبراطور . لكنهم تغلبوا عليه . وأمام الإصرار المتعنت من فرسان المستشفى

---

(٢٧) William of Tyre, xx, 4, pp. 945-7.

ومن أتباعه هـو نفسـه ، الذين لم يجدوا ما يبرر حصـول اليونـانيين علـى حصـة مـن اسلابهم، رضخ أماليك . وتقرر التخطيط لحملة فى أكتوبر(٢٨) .

١١٦٨م : أماليك يتقدم نحو القاهرة

عاد وليم الصورى بمعاهدته من القسطنطينية ليجد الملـك قـد رحـل فعـلا . وكـان أماليك قد أذاع أنه سيهاجم حمص ردعا لنور الدين عن الإقدام على أى عمل ؛ وفعلا كان نور الدين راغبا فى تجنب أى حرب مع الفرنج نظرا لمتاعبه الخاصة به فـى شمـال شرق سوريا . كما أن شاور لم يتحقق مما كان جاريا إلى أن خرج الجيش الفرنجـى مـن عسقلان يوم ٢٠ اكتوبر ليصل بعد ذلك بعشرة ايام أمام بلبيـس ، الأمـر الـذى أصابـه بالهلع فما كان يظن قط أن يخرق اماليك معاهدته معه على هذا النحو المستهتر . وقابل سفيره الأول - الأمير بدران - الملك فى الـداروم علـى الحـدود ، لكنـه ارتشـى . وأمـا سفيره الثانى - شمس الخلافة - فقابل الملك فى الصحراء بعد مروره على بلبيس بمسـيرة أيام قليلة فراح يؤنبه تأنيبا مريرا على غدره ؛ فكان رد الملك على ذلك أن المبرر لتصرفه ما قام به الكامل - ابن شاور- من مفاوضـات مـع شـيركوه ، وعلـى أيـة حـال ، فـإن الصليبيين الوافدين مؤخرا من الغرب عقدوا العزم على مهاجمة مصـر ، وان وجـوده انمـا ليكبح جماحهم. وأضاف أنه قد ينسحب لو تسلم مليونين آخرين من الدنانير . غـير أن شاور ارتاب الآن فى نوايا الملك . ولدهشة الملك ، قرر شاور المقاومة ورفض ابنه طيئ - وكان آمر الحامية فى بلبيس - فتح بواباته للفرنج . لكن قواته كانت ضئيلة العـدد ، فبعد ثلاثة أيام من القتال اليـائس ، الـذى لم يكـن امـاليك يظـن أن المصريـين قـادرين عليه، دخل الجيش الفرنجى القلعة يوم ٤ نوفمبر ، أعقبه مذبحة مروعة للسـكان . وربمـا كان أبطال المذبحة هم رجال نفرس ، الذين كانوا متقدين حماسا وفوضى كشأن أغلـب الوافدين الجدد من الغرب ، وكان زعيمهم الكونت قد مات فى فلسطين من الحمى قبل بداية الحملة ، ولم يكن هناك من يقدر على السيطرة عليهم . وحاول أمـاليك المحافظـة على النظام ، وعندما أفلح أخيرا اضطر هو نفسه إلى أن يشترى من الجنود من بقى على قيد الحياة ممن أخذهم الجنود رهائن . على أن المحظور كان قد وقـع. وكـان الكثـير مـن

---

(٢٨) (William of Tyre, xx, 5, pp.948-9 يذكر وصول كونت نفرس فى الفصل السابق)؛Michael the Syrian (III, pp 332-3)، وكان المؤرخون العـرب.Ibn al-Athir,pp 553-4, and *Atabegs*, pp. 246-7, and Abu Shama, pp. 112-13 مدركون أن الملك رضخ لمجلسه.

المصريين الكارهين لشاور على استعداد للترحيب بالفرنج كمخلصين ، وكانت الطوائف القبطية وهي بأعداد كبيرة فى مدن الدلتا خاصة ، على استعداد للتعاون مع الرفاق المسيحيين ؛ غير أن الأقباط والمسلمين على السواء قد هلكوا فى المذبحة ، فاتحد الشعب المصرى كله فى بغضه للفرنج . وبعد أيام قليلة وصل اسطول فرنجى صغير محمّل فى أغلبه بالغربيين ، وكان مقررا أن يبحر أعلى مصب النيل فى تانيس ، إلى بحيرة المنزلة وهبط فجأة على مدينة تانيس ؛ وتكررت نفس مشاهد الرعب ، وكان الأقباط هم الذين عانوا أكثر من غيرهم.

وتمهل امالريك لأيام قليلة فى بلبيس ، لإعادة محاولة السيطرة على جيشه بلا شك. وفاتته فرصة مباغتة القاهرة ، وانما ظهر يوم ١٣ نوفمبر امام اسوار الفسطاط ، وهى الضاحية القديمة الواقعة جنوب المدينة العظيمة . وتشكك شاور فى قدرة الفسطاط على الصمود فأشعل فيها النيران ، وأرسل سفيره شمس مرة اخرى إلى الملك ليقول له إنه قبل أن تسقط القاهرة فى أيدى الفرنج سيحرقها هى ايضا إلى أن يسويها بالارض بكل ما فيها من ثروة . وكان الاسطول محجوزا فى أعلى الدلتا بحواجز وضعت فى مجرى النهر، فتحقق امالريك من أن الحملة سلكت مسلكا خاطئا . وأخذا بنصيحة قهرمانه - مايلز (اوف بلانس) - جعل شاور يفهم أن فى الامكان رشوة الملك . فراح شاور يتلاعب كسبا للوقت ؛ فبدأ يساوم على المبلغ الذى يستطيع دفعه ؛ فدفع مائة ألف دينار فدية ابنه طئ ، وراح يتحدث عن مدفوعات اخرى . وفى تلك الأثناء انتقل الجيش الفرنجى بضعة اميال شمالا وعسكر فى المطرية ، حيث شجر الجميز الذى أوقف ظله السيدة العذراء اثناء هروبها فى مصر . وانتظروا هناك ثمانية ايام إلى أن جاءت الأنباء فجأة بأن شيركوه يزحف داخل مصر التى جاءها بدعوة من الخليفة الفاطمى(٢٩).

١١٦٩م : شيركوه يفوز بمصر لنور الدين

لم يكن شاور يرغب فى اتخاذ تلك الخطوة اليائسة ؛ لكن ابنه الكامل فرض عليه رأيه وأرغم سيده الإسمى الأعلى - الخليفة العاضد - على الكتابة إلى حلب عارضا على نور الدين ثلث أرض مصر واقطاعيات لقواده . ولابد أن الخليفة الصغير أدرك خطر

---

(٢٩) William of Tyre, xx, 6-9, pp 949-56; Abu Shama, pp. 114-15, 136-40، يقتبس أبو شامة من عماد الدين؛ Beha ed-Din, *P.P.T.S.* P. 52; Ibn al-Athir, pp. 554-6, and *Atabegs*, pp. 247-50.

التماس الحماية ممن يبدو فى عينيه هرطيقى مدّع ، لكنه كان فاقد الحيلة . وعندما تسلم نور الدين الدعوة أرسل مبعوثا إلى شيركوه فى حمص التى يقيم بها ؛ على أن المبعوث وجد شيركوه فعلا على بوابات حلب . ولم يتردد نور الدين هذه المرة ، فزود شيركوه بثمانية آلاف فارس وخزانة تمويل الحرب تحوى مائتيّ ألف دينار للإنفاق على جيش دمشق لغزو مصر ، وأمر صلاح الدين بمصاحبته . ولم يكن شاور على يقين بعد أين تكمن مصالحه ، فأنذر أماليك الذى تحرك مع جيشه ناحية برزخ السويس أملا أن ينقض على شيركوه عندما يبرز من الصحراء ؛ لكن شيركوه أفلت منه بانحداره جنوبا ، وبذا لم يكن للفرنج الآن بد من الجلاء . وبدأ أماليك انسحابه يوم ٢ يناير ١١٦٩م بعد أن أمر أسطوله بالعودة إلى عكا وبعد أن استدعى الحامية التى تركها فى بلبيس للانضمام اليه[٣٠].

وبعد ستة أيام دخل شيركوه القاهرة تاركا جيشه معسكرا عند باب اللوق ، وذهب إلى القصر حيث منحه الخليفة الهدايا الرسمية ووعد بالمال والطعام لجنوده . وحيّاه شاور بحرارة ؛ ودأب على زيارته يوميا فى الأيام التالية لمناقشة الترتيبات المالية وتقسيم الوزارة . وتلقى شيركوه تلك العروض بكياسة ؛ غير أن ابن أخيه صلاح الدين، الذى كان أهم مستشاريه ، أصر على اتخاذ اجراء اكثر شدة . وأفلح في اقناع الخليفة بالحضور متنكرا إلى مقر شيركوه ؛ وفى ١٨ يناير تلقى شاور دعوة لمرافقة شيركوه فى زيارة دينية لقبر الإمام الشافعى ، وعندما شرع شاور فى الذهاب ، انقض عليه صلاح الدين وامراؤه ، وجردوا حراسه من أسلحتهم والقى القبض عليه . وفى اقل من ساعة صدر امر من الخليفة بضرب عنقه، ووضعت رأسه عند قدمى الخليفة. ولكى يتجنب شيركوه أية محاولة تنال منه أعلن أن بيت الوزير مفتوح لمن يرغب فى نهبه، وبينما كانت الجماهير تتدافع إلى هناك، انتقل هو والخليفة إلى القصر وتولى زمام الحكومة بهدوء. ولقد كان حكم شاور أبعد ما يكون عن الشعب، وكان اعتبار شيركوه للشرعية غاية فى الريبة بحيث لم يلق النظام الجديد معارضة أيّ من حكام المقاطعات. ولم تمض أسابيع قليلة حتى غدا شيركوه سيد مصر كلها؛ وتسلم أمراؤه الاقطاعيات التى كانت لدى شاور وأسرته، وحصل هو نفسه على لقب الوزير

---

(٣٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 52-3; Ibn al-Athir, p 563, and *Atabegs*, p 250; Abu Shama, p. 117 واستادا الى روايه بهاء الدين التى كررها ابن الأثير بمزيد من الإكتمال ، كان صلاح الدين عازفا بشدة عن الانضمام إلى الحملة.

الملك[٣١].

ولم يعش شيركوه طويلا فى رفعته ؛ إذ مات يوم ٢٣ مارس ١١٦٩م بسبب التخمة . ولقد حُجبت شهرته فى التاريخ بظلال سيده نور الدين وابن اخيه صلاح الدين . ومع ذلك ، كان هو الذى أدرك بجلاء يفوق أى مسلم آخر ، أن غزو مصر بما لها من موقع استراتيجى وموارد لا تنضب ، هو المقدمة الضرورية لاسترجاع فلسطين ؛ وبرغم تردد نور الدين ويقظة ضميره، ظل شيركوه يعمل بلا كلل لتحقيق هذه الغاية. وكان لإبن اخيه أن يحصد ما دأب على غرسه. كان ذا مظهر يخلو من أهمية، وكان قصيرا، ربلا، أحمر الوجه، يبصر بعين واحدة، وكانت ملامحه تنم عن وضاعة مولده. غير أنه كان جنديا عبقريا. والقليل من القادة يتفانى جنودهم فى حبهم[٣٢].

ولقد تحقق الفرنج جيدا من الأهمية القاتلة لانتصار شيركوه . وبينما ألقى بعضهم باللائمة على جشع مايلز (اوف بلانسى) ، الذى جعل الملك يقبل المال بدلا من الحرب، بحث آخرون عن كبش فداء فوجدوه فى السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، الذى أجبر على التخلى عن منصبه والعودة إلى بلاده فى الغرب . وأما أماريك نفسه فقد أرسل النداء إلى الغرب لتسيير حملة صليبية جديدة . فانطلقت فى باكورة عام ١١٦٩م سفارة لتحريك العواطف ، يرأسها البطريق اماريك ورئيس اساقفة قيسارية ، تحمل رسائل إلى الامبراطور فريدريك ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك انجلترا ، ومارجريت الملكة الوصية على صقلية ، والى كونتات فلاندرز وبلوا. ويروى أنه بعد مضى يومين فى البحر ، هبت عاصفة هوجاء أعادت سفن السفراء إلى عكا ، ولم يرض أحد من الركاب المجازفة مرة اخرى بأخطار الأعماق . وانطلقت سفارة ثانية يرأسها فريدريك رئيس اساقفة صور ، ومساعده الأسقف ، وجون أسقف بانياس ، وجيبرت مرشد نظام فرسان المستشفى . ووصلوا روما فى يولية ١١٦٩م حيث أعطاهم البابا ألكسندر الثالث خطابات توصية موجهة إلى جميع رجال الدين اتباعه . بيد أن تلك الرسائل جميعها لم تجد فتيل؛ إذ احتجزهم الملك لويس لأشهر

---

(٣١) Behu ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 53-5 (اقتباس من عماد الدين)؛ Ibn al-Athir, pp.558-60 and *Atabegs,* pp.251-3; Abu Shama, pp.118-19, 142-5; William of Tyre, xx,10, pp. 956-8.

(٣٢) Ibn al-Athir, pp. 560-1 ؛Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 55; ويصفه وليم الصورى (xix, 5, p.892) بنفس العبارات كالتى استخدمها الكتاب العرب . ويصف بهاء الدين (pp. 50-1) عزمه المتلهف على ضم مصر الى ملك سيده.

كثيرة فى باريس ، حيث مات أسقف بانياس ، بينما كان الملك يشرح لهم مشاعله مع أسرة البلانتاجينيتس (الحاكمة فى انجلترا) . فواصلوا رحلتهم إلى انجلترا حيث حادثهم الملك هنرى عن متاعبه مع الكابيتيون . ولم يكن هناك معنى لزيارة ألمانيا نظرا للخلاف بين البابا والامبراطور . وبعد عامين من الإستجداء العقيم عادوا إلى فلسطين بقلوب متفطرة(٣٣).

١١٦٩م : حملة تحالف ضد مصر

وأحرزت السفارة المرسلة إلى القسطنطينية نجاحا أكبر . ذلك أن مانويل أدرك جيدا أن ميزان القوى فى الشرق قد انقلب بصورة خطيرة ، فعرض على أماريك تعاون الأسطول الامبراطورى العظيم فى حملته التالية(٣٤)، فوافق الملك مسرورا . وربما أمكن مع ذلك استعادة مصر ، إذ أن نور الدين فى غاية الانشغال فى الشمال على مايبدو . فقد نتج عن موت قرة أرسلان ، أمير دياربكر الأرتقي عام١١٦٨م ، وما تلى ذلك من خلاف حول الميراث ، أن أفسد النظام على نور الدين وعلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ؛ فضلا عن أن غازى بن حسّان ، حاكم منبج ، تمرد بعد ذلك مباشرة ومضت عدة أشهر قبل تسوية أمره . والآن كان قطب الدين يحتضر ، وسرعان ما سوف تثار مسألة الاستخلاف على الموصل(٣٥). وفى مصر انتقلت ألقاب شيركوه وسلطته إلى ابن اخيه صلاح الدين . ولكن صلاح الدين ليس بالحاكم المحنك ، وكان هناك آخرون من أمراء شيركوه يتمنون استخلافهم مكانه ، غير أن الخليفة اختار صلاح الدين وهو على ثقة من أن افتقاره إلى الخبرة ستدفعه إلى الاعتماد على المسؤولين الفاطميين . وفى ذات الوقت كتب كبير الطواشية لدى العاضد – وهو نوبى يدعى المؤتمن – سرا إلى القدس يعد بالمساعدة فى حالة غزو الفرنج لمصر . ولكن لسوء حظه، لاحظ أحد عملاء صلاح الدين شكلا غير طبيعى لخفّين مع أحد سعاة البلاط مما أثار ريبته، فأخذهما وقطع خياطتهما ووجد الرسالة فيهما . وانتظر المؤتمن

(٣٣) William of Tyre, xx,12,pp. 960-1; letters of Amalric in *R.H.F.* vol. xvi, pp. 187-8; Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.258-. فى عام ١١٨٣م مات السيد الأعظم لفرسان المستشفى غرقا وهو يعبر من دييى الى انجلترا. انظر Delaville Le Roulx, *Les Hospitaliers*, pp. 76 ff.

(٣٤) William of Tyre, xx, 13, pp. 961-2.

(٣٥) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* P 52; Abu Shama, pp. 188-9; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 264; Michael the Syrian, iii pp. 339-42; ومات قطب الدين فى العام التالى (١١٧٠م).

ثار صلاح الدين ، غير أن أنباء انعدام الأمن لديه شجعت المسيحيين(٣٦) .

وأرسل أماليك إلى الامبراطور يستعجله ؛ وفى ١٠ يولية ١١٦٩م انطلق الأسطول الامبراطورى الضخم من الدردنيل بقيادة الدوق العظيم أندرونيكوس كونتوستيفانوس . وأبحر الأسطول الرئيسى إلى قبرص مستوليا على سفينتين مصريتين فى طريقه ، وأبحر أسطول أصغر مباشرة إلى عكا يحمل معونات مالية لجنود أماليك . وقيل لأماليك بأن يرسل إلى قبرص مستدعيا الأسطول عندما يرغب فى ذلك . لكن اماليك لم يكن جاهزا ، إذ أن حملة عام ١١٦٨م سببت الاضطراب فى قواته ، وكانت خسائر فرسان المستشفى جسيمة جدا . وأما فرسان المعبد فكانوا لا يزالون يرفضون الاشتراك ، وقد خبت جذوة الحماس عند البارونات عمّا كانت عليه، إذ أن التجربة السابقة أضعفت عزائمهم ، ولم يرسل أماليك إلى قبرص لاستدعاء الأسطول إلى عكا إلا فى سبتمبر ، وقد أثار منظره الرائع مشاعر البهجة لدى السكان ؛ ولم تتهيأ الحملة كلها للمسير إلى مصر إلا فى منتصف اكتوبر . وضاعف التأخير من الحظ التعس ؛ ذلك أن مانويل ، الذى أدخلوا فى روعه التفاؤل ، أعد العدة لحملة تستغرق وقتا قصيرا وزود سفنه بالمؤن التى تكفى ثلاثة أشهر فقط ، وقد قاربت الأشهر الثلاثة على الانقضاء . ولم تستطع قبرص المساعدة فى اعادة تموين الاسطول وهى التى لم تبرأ بعد مما سببه رينالد من خراب ، وليس فى عكا مؤن يمكن الحصول عليها(٣٧) . وفى ذات الوقت تلقى صلاح الدين تحذيرات كثيرة عن الحملة ؛ ولكى يوفر لنفسه الأمان فى القاهرة اعتقل فى ٢٠ اغسطس ١١٦٩م الخصى المؤتمن وضرب عنقه ، وطرد جميع خدم القصر ممن يعرف عنهم الولاء للخليفة واستبدلهم بصنائعه هو نفسه . وطرد بعض المسؤولين الذين شجعهم الخليفة على تحريض حرس القصر النوبيين على الثورة ومهاجمة جنود صلاح الدين . وقام أخو صلاح الدين ، فخر الدين ، بهجوم مضاد لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا إلى أن أشعل صلاح الدين النيران فى ثكنات الحرس فى الفسطاط التى كان بها زوجات وأولاد أفراد الحرس النوبيين ، فما كان من الحرس الا أن هرولوا هربا لإنقاذهم؛ فانقض عليهم فخر الدين وقتلهم جميعا على وجه التقريب . أما الخليفة الذى كان يرقب المعركة ، فقد سارع ليؤكد ولاءه لصلاح الدين . وأدى تخلي الخليفة عن النوبيين إلى القضاء على الحرس كله ؛ إذ أن الحرس الأرمينى ، الذى لم يشترك فى

---

(٣٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 55-6; Ibn al-Athir, pp. 566-8; Abu Shama, p.146. الوثيقة التى اصدرها الخليفة بتعيين صلاح الدين موجودة فى برلين ، ٩٨ folios long .

(٣٧) Nicetas Choniates, pp. 208-9; William of Tyre, *loc. cit.*.

المعركة ، قد حُرق حتى الموت فى الثكنات . وهكذا أفلح صلاح الدين فى إسكات معارضيه[٣٨].

١١٦٩م : حصار دمياط

انطلق الجيش المسيحى أخيرا يوم ١٦ أكتوبر . وعرض أندرونيكوس كونتوستيفانوس ، الذى أغاظه تأخير اماليك ، نقل جُل الجنود بحرا ؛ لكن الفرنج أصروا على الطريق البرى . وفى ٢٥ اكتوبر دخل الجيش مصر عند الفرما بالقرب من بليوزيوم . وكان صلاح الدين يتوقع هجوما على بلبيس ، فركز قواته هناك ؛ لكن السفن البيزنطية كانت قد نقلت الفرنج عبر فروع النيل الشرقية ، وابحرت بمحاذاتهم بطول الشاطئ ، فزحف الفرنج بصورة خاطفة على دمياط ، تلك القلعة الغنية التى تتحكم فى فرع النيل الرئيسى ، ومنها يستطيع الأسطول الإبحار باتجاه القاهرة . وبوغت صلاح الدين . ولم يجرؤ هو نفسه على مغادرة القاهرة خشية أن يتشجع مناصرو الفاطميين للقيام بثورة ؛ لكنه أرسل التعزيزات إلى دمياط ، وكتب بنفسه إلى سوريا يلتمس المساعدة من نور الدين . وكانت الحامية فى دمياط قد ألقت بسلسلة عظيمة بعرض النهر ؛ ولم تتمكن السفن اليونانية - التى أعاقتها ايضا رياح معاكسة - من الابحار مرورا بالمدينة كى تعترض تعزيزات الجنود والمؤن الآتية فى المجرى من القاهرة. وربما استطاع المسيحيون الاستيلاء على القلعة بهجوم مفاجئ ؛ غير أنه برغم الحاح كونتوستيفانوس للقيام بهجوم فورى - وقد شغله تناقص الامدادات - فقد شعر اماليك بالرهبة من التحصينات المروعة ، وأبدى رغبته فى تشييد المزيد من ابراج الحصار . وبقرار خاطئ وضع البرج الأول أمام أقوى جزء فى الأسوار ؛ وأطلق اليونانيون آلات حصارهم تقصف ناحية مقدسة تضم كنيسة صغيرة مكرّسة للسيدة العذراء ، وهى ناحية كانت السيدة العذراء قد توقفت فيها أثناء رحلتها إلى مصر؛ فدب الهلع بين السكان المحليين من المسيحيين والمسلمين على السواء . وفى كل يوم يتدفق جنود جدد إلى داخل المدينة . وفى كل يوم كانت حصص البحارة اليونانيين ورفاقهم على الشاطئ تتناقص ، دون أن يساعدهم حلفاؤهم الفرنج بما لديهم من وفرة فى الامدادات . وفى كل يوم كان كونتوستيفانوس يناشد اماليك المجازفة بهجوم شامل على الأسوار ، ويرد اماليك بأن المجازفة بالغة الخطر ، ويهمس له قواده المرتابون

(٣٨) Abu Shama, pp. 147-8; Ibn al-Athir, p. 568.

فى اليونانيين بأن الذى يحرك حماس كونتوستيفانوس هو رغبته فى الاسيلاء على دمياط كجزء من الغنائم الامبراطورية . وما أن أهل شهر ديسمبر حتى بدا جليا أن الحملة قد فشلت . فبدون طعام لا يستطيع اليونانيون المضى فى الحرب . وأطلق المدافعون قاربا مشتعلا فى وسط الأسطول ، فأنزل باليونانيين خسائر فادحة ، رغم أن تدخل اماريك العاجل قلل من الأضرار . وصارت القلعة الآن مزودة جيدا بالرجال والامدادات ، وقيل إن الجيش الإسلامى الآتى من سوريا يقترب ؛ وعندما هطلت الأمطار هطولا مبكرا وأحالت المعسكر المسيحى إلى مستنقع ، كان الوقت قد حان لرفع الحصار . ولا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان أماريك هو الذى بدأ التفاوض مع العرب أم كونتوستيفانوس ، ولا الشروط التى اتفق عليها . وربما أعطى المسيحيون تعويضا ماليا ؛ وبكل اليقين كان أماريك يأمل فى عزل صلاح الدين عن نور الدين بمظهر من مظاهر الصداقة مع صلاح الدين خاصة وان علاقات اماريك بنور الدين يشوبها البرود على الأرجح.

وفى ١٣ ديسمبر حرق المسيحيون آلات حصارهم كلها حتى لا تقع فى أيدى المسلمين ورحلوا عن دمياط ، ووصل الجيش إلى عسقلان فى الرابع والعشرين . أما الأسطول فكان أقل حظا ؛ فبينما كان مبحرا باتجاه الشمال هبت عاصفة شديدة ، ولم يستطع البحارة الذين كانوا يتضورون جوعا السيطرة على سفنهم التى امتلأ الكثير منها بالماء وغاص فى الأعماق . وكانت مياه البحر تلقى بالجثث اليونانية على شواطئ فلسطين لأيام ؛ وهرب كونتوستيفانوس نفسه وأبحر إلى كيليكيا ومنها ارتحل برا لرفع تقريره إلى الامبراطور. ووصلت بقايا الأسطول العظيم إلى مياه البوسفور فى وقت مبكر من العام التالى(٣٩).

وأدت النتيجة الفاجعة للحملة حتما إلى تبادل السباب والإتهامات . وألقى الفرنج باللائمة على اليونانيين لنقص الامدادات ؛ والقى اليونانيون ، بتعقل أكثر ، باللوم على

---

(٣٩) William of Tyre, xx, 14-17, pp.962-71; Cinnamus, pp. 278-80. ويقول سينّاموس إنه بعد الحملة أرسل صلاح الدين الى مانويل عارضا دفع إتاوة سنوية ، لكن مانويل رفضها؛ ومن الناحية الأخرى، يستنتج Nicetas Choniates, pp. 209-19 ضمنا أن مانويل عقد السلام مع مصر ؛ Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp 56-9; Abu Shama, pp.151-13; Ibn al-Athir, pp. 668-70 and (III, p.335, and Armenian version, pp 369ويفترض ميخائيل السورى *tabegs*, pp. 259-60 (70- أن اليونانيين أخذوا رشوة من صلاح الدين للتخلى عن الحملة . ودليله على ذلك مناهض لليونانيين على نحو ثابت بحيث يفقد قيمته . ويقول وليم الصورى إن كونتوستيفانوس كان هو اول من طلب وقف القتال ، بينما يقول Nicetas إنه كان الملك.

الفرنج للتأخير الذى لم تكن له نهاية . على أن اماليك والامبراطور أدركا أنه لا ينبغى كسر التحالف . إذ أن صلاح الدين الآن سيد مصر بلا منازع.

وكان صلاح الدين من الحكمة بحيث لم يقع فى الشرك الدبلوماسى الذى أعده له أماليك . ولقد كان نور الدين يثق فى شيركوه ، لكنه كان مرتابا فى طموحات حاكم مصر الجديد ؛ ومع ذلك لزم صلاح الدين جانب الاستقامة المثالية . ذلك أن نور الدين بعث فى ابريل ١١٧٠م إلى صلاح الدين والده نجم الدين أيوب مع صحبة من الجنود السوريين ، فى لفتة من لفتات الصداقة من ناحية ، وربما كتلميح من ناحية أخرى ، إذ كان أيوب شديد الولاء لسيده . وصاحب القافلة أعداد كبيرة من التجار السوريين المتلهفين على تبادل التجارة مع القاهرة ، ولكى يساعد نور الدين هذه القافلة الضخمة على العبور بصورة مأمونة عبر أراضى الأردن، قاد استعراضا عسكريا ضد الكرك[٤٠]. وكان ذلك التحرك هو الحركة الوحيدة التى اقدم عليها نور الدين ضد الفرنج ؛ وكان قد تركهم فى سلام أثناء حملتهم على مصر ، بل انهم تمكنوا فى يناير ١١٧٠م من استعادة قلعة عكار جنوب البقيعة ، والتى ربما كانوا قد فقدوها عام ١١٦٥م . وقد سلمها اماليك وكذلك مدينة أرقا - بصفته وصيا على طرابلس - إلى فرسان المستشفى الذين باتوا يسيطرون على الوادى كله الآن[٤١].

١١٧٠م : زلزال يضرب أنطاكية

فى يوم ٢٩ يونية ١١٧٠ رزئت سوريا بزلزال مروع ألحق بها من الدمار نفس القدر الذى سببه زلزال ١١٥٧م ؛ وفى الأشهر القليلة التالية انهمك المسيحيون والمسلمون سواء بسواء فى اصلاح ما أصاب قلاعهم من أضرار . وقد أصيبت حلب وشيزر وحماه وحمص بدمار شديد وكذلك الكرك وطرابلس وجبيل . وفى انطاكية كان الدمار هائلا ، وجد فيه الفرنج عدالة الهية ؛ إذ كان البطريق اليونانى ورجال كنيسته يقيمون قداسا فى كتدرائية القديس بطرس عندما انهار عليهم المبنى . وبينما كان أثناسيو يحتضر تحت الأنقاض أسرع الأمير بوهمند ورجال بلاطه إلى القصير

(٤٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP. 59-60; Abu Shama, pp. 153-4; Ibn al-Athir, *Atabegs,* pp.260-1.

(٤١) Abu Shama, p.149. وحدث اهداء عكار وأرقا الى فرسان المستشفى بعد وقوع الزلزال فى يونية.(Rohricht, *Regesta,* p.125)

يتوسلون إلى غريمه إيمرى (اللاتيني) العودة إلى كرسيه البطريارقي . وهكذا انتهت الفترة القصيرة من الحكم الكنسى اليونانى[٤٢].

و لم يتمكن الامبراطور من التدخل رغم تلقيه الأنباء بمشاعر الغضب . ذلك أن الأمور كانت تسير سيرا سيئا فى كيليكيا ؛ فقد مات الأمير ثوروس عام ١١٦٨م تاركا طفلا ليخلفه – روبين الثاني – تحت وصاية لورد فرنجى يدعى توماس كانت امه أخت ثوروس . لكن أخا ثوروس ، مليح ، أثار نزاعا حول الاستخلاف ؛ وكان فى وقت ما قد أخذ على نفسه العهد كفارس من فرسان المعبد ، وبعد مشاجرته مع ثوروس ومحاولة اغتياله هرب إلى نور الدين وتحول إلى الاسلام . وفى وقت مبكر من عام ١١٧٠م أمده نور الدين بالجنود وتمكن بذلك من خلع ابن اخيه ، ليس هذا وحسب وانما توغل ايضا فى سهل كيليكيا واستولى على المصيصة وأدنه وطرسوس من حامياتها اليونانية . ثم أنه هاجم فرسان المعبد فى باجراس ، مما دفع بوهمند إلى الاستنجاد بأماريك ، الذى توغل داخل كيليكيا ، ويبدو أنه أعاد الحكم الامبراطورى مؤقتا . ومن الجائز أن يكون عمله هذا الودود قد أحدث وفاقا لدى مانويل وتعويضا لخسارة سيطرته الكنسية فى انطاكيه. لكن مليح لم يرتدع . وبعد عام او بعض عام تمكن من أسر قنسطنطين كولومان وأغار مرة اخرى على كيليكيا[٤٣].

وكان نور الدين فى تلك الأثناء مشغولا في الشرق الأبعد . فقد مات أخوه قطب الدين صاحب الموصل فى صيف ١١٧٠م ؛ وتنازع ابناه سيف الدين وعماد الدين على الميراث ، ومرت بضعة اشهر قبل أن يتمكن نور الدين من تسوية المسألة بما يتفق ورغبته[٤٤] . وكانت المهلة ذات فائدة للفرنج . غير أن مشكلة مصر بقيت بلا حل . وبقى اماريك متمسكا بسياسة ذات الشعبتين : التحالف الوثيق مع الامبراطور واستمرار المناشدة للغرب . وفى ربيع ١١٧١م قرر القيام بزيارة شخصية إلى

---

(٤٢) Michael the Syrian, III, p.339; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 262; William of Tyre, XX, 18, pp.971-3.

(٤٣) William of Tyre, XX, 26, pp. 991-2; Nicetas Choniates, p.183; Michael the Syrian, III, pp. 331, 337; Sembat the Constable, pp. 622-5; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-9؛ ومن غير الممكن البت فى التاريخ . إذ أن وليم الصورى يحدد تلك الأحداث بعد زيارة أماريك للقسطنطينية ، وميخائيل السورى قبل زلزال عام ١١٧٠م . وكانت طرسوس ما تزال يونانية عندما عاد هنرى الأسد Henry the Lion من حملته الصليبية عام ١١٧٢م (Arnold of Lübeck, pp.22-3).

(٤٤) أنظر المراجع أعلاه ص (٤٤١) الملحوظة (٣٥)، وأدناه ص (٤٥٠).

القسطنطينية.

وتأخر رحيله بسبب هجوم مفاجئ قام به صلاح الدين على حدوده الجنوبية . ففي وقت مبكر من عام ١١٧٠م ظهر جيش مصرى ضخم أمام الداروم ، وهى آخر قلعة فرنجية جنوبية على البحر المتوسط . وكانت دفاعاتها ضعيفة ، وبرغم عدم توفر آلات حصار لدى صلاح الدين فقد بدا سقوطها وشيكا . فسارع اماليك ، ومعه البطريق وقطعة من اثر الصليب الحقيقى ، إلى عسقلان التى وصلها يوم ١٨ ديسمبر ، وواصل مسيرته إلى قلعة فرسان المعبد فى غزة ، حيث ترك مايلز (اوف بلانسى) لقيادتها إذ رافقه فرسان المعبد فى مسيرته إلى الداروم . وتمكن من اختراق الجيش المصرى ودخل الداروم ، وعلى الأثر رفع صلاح الدين الحصار وسار إلى غزة ؛ فاستولى على أسفل المدينة ، برغم ما أبداه مايلز من مقاومة عنيمة ، وقتل سكانها . على أن القلعة كانت هائلة بحيث لم يغامر صلاح الدين بمهاجمتها . وبنفس النجاءة التى جاء بها صلاح الدين ، اختفى مرة اخرى عائدا إلى الحدود المصرية . ثم إنه أرسل أسطولا صغيرا أعلى خليج العقبة واستولى على المخفر الفرنجى الأمامى المسمى أيلة الواقع على رأس الخليج ، وذلك فى الأيام الأخيرة من السنة[٤٥].

١١٧١م أماليك فى القسطنطينية

غادر اماليك عكا قاصدا القسطنطينية يوم ١٠ مارس ، ومعه حاشية كبيرة تضم اسقف عكا ومارشال البلاط جيرار (اوف بوجى) . وكان سيد فرسان المعبد ، فيليب (اوف ميلى) قد استقال من منصبه ليسبق الملك كسفير . وبعد الرسو فى طرابلس ، واصل الملك ابحاره إلى الشمال . وفى جاليبولى قابله صهره وكانت الرياح المعاكسة قد اضطرته إلى الذهاب برا إلى هرقلة . ومن هناك ركب الملك البحر مرة اخرى كى يدخل العاصمة من بوابة القصر فى ميناء بوكوليون ، وهو شرف لا يناله سوى الملوك المتوجين.

واستُقبل اماليك استقبالا ملأه بهجة هو وحاشيته . وكان مانويل يستلطف الغربيين عموما ، وقد وجد أماليك متعاطفا معه . وأظهر كرمه السخى المعتاد . وشاركت عائلته كلها - خاصة صهره - فى الاحتفاء به . وأقيمت قداسات دينية

(٤٥) William of Tyre, xx,19-20, pp.973-7; Ibn al-Athir, pp. 577-8.

واحتفالات لا نهاية لها . واجرى استعراض راقص فى هيبودروم ، ورحلة بحرية أعلا البسفور وأسفله(٤٦). وفى وسط البسفور ناقش الامبراطور والملك المستقبل . وعقدت معاهدة وتم التوقيع عليها ، لكن بنودها لم تسجل . ويبدو أن الملك اعترف فيها على نحو مبهم بسيادة الأمبراطور على المسيحيين الوطنيين ، وان مانويل وعد بالمساعدة البحرية والمالية وقتما تتهيأ حملة اخرى للهجوم على مصر ، وأنه يتعين القيام بعمل مشترك ضد مليح الأرميني . والأرجح أن كانت هناك بنود بشأن الكنيسة اليونانية فى انطاكية ، بل وربما فى المملكة ، التى تولى فيها مانويل بالفعل فى عام ١١٦٩م مسؤولية إعادة زخرفة كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، التى تحمل نقشا مكتوبا بالفسيفساء يشهد بأن الزخرفة أجراها إيفرايم بناء على اوامر الامبراطور . كما تولى مسؤولية اجراء الاصلاحات فى كنيسة القبر المقدس(٤٧).

وأيا ما كانت عليه تفاصيل المعاهدة ، فقد رضى الفرنج بزيارتهم الرضا كله ، وأعجبوا بمضيفهم أيما إعجاب . وفى ١٥ يونية أبحروا من القسطنطينية عائدين إلى بلدهم تحدوهم الآمال العراض للمستقبل.

وأما مناشدة الغرب إرسال حملة صليبية فكانت أقل نجاحا ؛ ذلك أن فريدريك رئيس أساقفة صور كان ما يزال يتجول تجوالا عقيما بين بلاطى فرنسا وانجلترا . وفى نهاية ١١٧٠م تقريبا كتب له أماريك كى يوجه الدعوة إلى ستيفن (اوف شامباني)، كونت سانسير ، للحضور إلى فلسطين ليتزوج الأميرة سيبيلا(٤٨). كانت هناك مأساة

---

(٤٦) William of Tyre, xx,22-4, pp. 980-7; Cinnamus, p.280، وما أورده سيناموس مقتضب جدا يقول فيه ان اماريك وعد الامبراطور بمنحه قلعة ؛ Michael the Syrian, III, p. 343.

(٤٧) De Bogue, *Les Eglises de la Terre Sainte*, pp. 99-103، الذى يورد وصفا للفسيفساء فى كنيسة بيت لحم . ويشير اليها الرحالة اليونانى فوكاس Phocas ويتحدث عن الاصلاحات فى كنيسة القبر المقدس .(pp.19, 31) ويناقش La Monte فى "الى أى مدى كانت الامبراطورية البيزنطية متسيدة على الدويلات الصليبية؟ To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?" مسألة السيادة الامبراطورية ويقرر انها لم يعترف بها قط . لكن مانويل ، كأسلافه قبل الصليبيين ، ربما اعتبر نفسه مسؤولا عن رفاهية الأرثوذوكس فى فلسطين وان حقه فى التدخل لصالحهم كان معترفا به. أنظر أعلاه ص ٣٦٩ عن بطريق القدس الذى احتفظ به مانويل احتياطيا فى القسطنطينية . وربما يعزى الى مانويل اجراء الإصلاحات حوالى آنذاك فى المنشآت الأرثوذكسية فى فلسطين ، مثل (Lavra of Calamon انظر Vailhé, 'Les Laures de Saint Gérasime et de Calamon' in *Echos d'Orient*, vol. II, p. 117)، وكذلك دير القديس إيوثيميوس .) انظر Johns محاولة الصليبيين استعمار فلسطين وسوريا The Crusaders'attempt to colonize Palestine and Syria فى *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol.XXI, pp.292-3.

(٤٨) William of Tyre, xx, 25 mo, 988. وكان ستيفن حفيد كونت بلوا الصليبى وأصغر ابناء تيبالد،

حدثت في البيت الملكي عجّلت بهذا الاقتراح . فقد أُرسل ابن امالريك - بالدوين - وهو الآن في التاسعة من عمره مع رفاق من سنه لتلقي التعليم لدى وليم رئيس شمامسة صور . وكان صبيا وسيما ذكيا ، وفي يوم ما ، بينما كان التلاميذ يختبرون قوة التحمل لدى كل منهم بغرز أظافرهم في أذرع بعضهم البعض ، لاحظ معلمهم وليم أن الأمير هو فقط الذي لم يجفل قط ؛ فراح يراقبهم بعناية وسرعان ما تحقق من أن الولد عديم الإحساس بالألم لأنه كان مجذوما[٤٩]. كان ذلك من تصاريف الرب بسبب زواج سفاح القربى الذى اقدم عليه والداه ، أمالريك وآجنيس ؛ وكانت الحادثة نذير شؤم للمملكة . وحتى عندما يكبر بلدوين لن تتمكن الأسرة الحاكمة من الاستمرار من خلاله ، وربما تحمل الملكة اليونانية الشابة ابنا بعده ؛ على أنه في تلك الآونة، وتوخيا للسلامة ، رأت حكمة امالريك أن تتزوج ابنته الكبرى سيبيللا من أمير غربي محنك ثرى يستطيع التصرف وقت الضرورة كوصي أو حتى كملك . وقبل ستيفن الدعوة وهبط شاطئ فلسطين في صيف ١١٧١م مع صحبة من الفرسان ، وكان ذلك قبل وصول امالريك من القسطنطينية بأيام قلائل . غير أنه لم يرض عن مظهر فلسطين . وقطع فجأة مفاوضات الزواج بطريقة فظّة ، وبعد تأدية النذر في الأماكن المقدسة رحل مع صحبته إلى الشمال منتريا زيارة القسطنطينية . وأثناء عبوره كيليكيا ترصده مليح الأرميني وسلبه كل ما كان معه[٥٠].

وفي العام التالي جاء إلى فلسطين زائر أكثر أهمية ، هنرى الأسد ، دوق ساكسونيا وبافاريا ، وحفيد الامبراطور لوثر ، وزوج ابنة هنرى الثاني ملك انجلترا . غير أنه رفض هو الآخر أن يحارب من أجل الصليب قائلا إنه جاء كمجرد حاج ، ورحل إلى المانيا بأسرع ما يمكن[٥١].

كونت بلوا وتشارترز وتروى. وقد ولد حوالى ١١٣ م ، وفي عام ١١٥١م فر هاربا بزواجه من ماتيلدا (اوف دوزى). (انظر Anselme, *Hist. Généalogique de la ι rance*, II, p.847.) ولما كانت زوجته تدعى أحيانا أليكس ، وأحيانا اخرى ماريا ، فمن المرجح انه تزوج اكثر من مرة وانه كان أرملا في عام ١١٧٠م.

(٤٩) William of Tyre, XXI, I, pp. 1004-5.

(٥٠) *Ibid.* XX, 25, p. 988

(٥١) ورد Joranson 'The Crusade of Henry the Lion' وصفا مطولا لحملته الصليبية في *Medieval Essays presented to G.W. Thompson* وأهم المراجع هو Arnold of Lubeck.

١١٧١م : انتهاء الخلافة الفاطمية

تسببت لا مبالاة الغرب فى خيبة أمل مريرة . على أنه ربما لم تكن هناك ضرورة عاجلة لتسيير حملة ضد مصر ، إذ بدا أن علاقات صلاح الدين بنور الدين وصلت إلى نقطة القطع . ففى عام ١١٧١م كان نور الدين قد وضع حامية خاصة به فى الموصل ، حيث يحكم ابن اخيه سيف الدين ، وكان قد ضم نصيبين ووادى نهر خابور إلى نطاق سلطته ، ومنح سنجار لإبن اخيه المفضل لديه عماد الدين . وبنوازع التقى لنصرة الإسلام الأصولى ، كتب إلى صلاح الدين طالبا الكف عن ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى المساجد المصرية واستبداله باسم الخليفة فى بغداد . ولم يرغب صلاح الدين فى الامتثال لهذا الطلب ؛ إذ بعد قرنين من الحكم الفاطمى بات النفوذ الشيعى قويا فى مصر . وفضلا عن ذلك ، ورغم أنه قد يعترف بنور الدين سيدا له ، فإن سلطته فى مصر مستمدة من الخليفة الفاطمى . فراح يراوغ ، إلى أن هدد نور الدين فى اغسطس بالحضور شخصيا إلى مصر . وبعد أن اتخذ صلاح الدين احتياطات الشرطة ، أعد العدة للتغيير ؛ بيد أنه لم يجرؤ احد على الإقدام على أول خطوة ، حتى أول يوم جمعة من السنة الإسلامية ٥٦٧ هجرية عندما خطا إلى المسجد برباطة جأش زائر سنى من الموصل واعتلى منبر الجامع الكبير ودعا للخليفة المستضئ . وحذت القاهرة كلها حذوه. وكان الخليفة الفاطمى العاضد راقدا فى القصر يحتضر ، ومنع صلاح الدين الخدم من إخطاره بالنبأ قائلا : "إن يبرأ من مرضه ، فسرعان ما سيعلم ، وإن يمت ، فليمت فى سلام" . على أن الشاب البائس عندما طلب رؤية صلاح الدين قبل وفاته ببضع ساعات ، رفض طلبه خوفا من وجود مكيدة . وندم صلاح الدين على رفضه بعد فوات الأوان ، وكان لا يذكره الا بالخير . وهكذا هلكت الأسرة الحاكمة الفاطمية بموت العاضد . وجمع شمل من تبقى من الأمراء والأميرات ، وأرسلوا حيث عاشوا حياة فاخرة ولكن دون أى اتصال بالعالم(٥٢).

وبعد أيام قليلة انطلق صلاح الدين لمهاجمة قلعة الشوبك جنوب البحر الميت ، وشدد الحصار حولها . وخف اماليك لانقاذها ، لكنه رحل عن القدس متأخرا للغاية بسبب معلومات خاطئة . وعندما كانت الحامية تتهيأ للتسليم ، ظهر نور الدين فجأة على الطريق إلى الكرك ؛ وفى تلك اللحظة رفع صلاح الدين الحصار ، قائلا لنور الدين

---

(٥٢) Ibn al-Athir. pp 575-80, and *Atabegs*, pp. 202-3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.551; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.61-2.

إنه مضطر إلى العودة إلى القاهرة بسبب حروب اخوته فى مصر العليا. وبدا ذلك لنور الدين محض خيانة يتعين المعاقبة عليها بالقوة . وعندما سمع صلاح الدين بغضبه شعر بالخطر واستدعى مجلسا من افراد عائلته وقواده ، ونصح الشباب من افراد الأسرة بالتحدى ؛ غير أن أبا صلاح الدين ، نجم الدين ايوب المسن ، وقف وقال إنه هو نفسه مخلص لسيده وانتهر ابنه لطموحه، وعندما خلا به وبّخه مرة اخرى على أن جعل طموحه بيّنا جليّا . فأخذ صلاح الدين بنصيحته وأرسل باعتذاراته البائسة إلى نور الدين الذى قبلها إلى حين(٥٣).

١١٧٢م : اطلاق سراح ريموند أمير طرابلس

وفى صيف ١١٧١م خطط نور الدين لحملة على الجليل ، لكنه كف عنها . وفى أواخر الخريف ارتكب الفرنج أعمال قرصنة من اللاذقية هاجموا فيها سفينتين تجاريتين مصريتين ، مما أثار سورة غضبه ، فراح يخرب الأراضى الأنطاكية والطرابلسية ، ودمر حصنى صافيتا وأرايما ، مما اضطر الفرنج إلى دفع تعويض باهظ حتى يتوقف(٥٤). غير أنه فى عام ١١٧٢م فضل استمرار السلام ، جزئيا لعدم ثقته فى صلاح الدين من ناحية، ولأنه كان يرغب فى الحصول على مساعدة السلاجقة فى الهجوم على أنطاكية من ناحية أخرى . لكن السلطان السلجوقى ، بعد أن تلقى تحذيرا صارما من القسطنطينية، تخلى عن تقدمه وبدلا من ذلك بدأ حربا ضد الدانشمند استمرت عامين. وبذا أنقذ التحالف البيزنطى انطاكية على الأقل ، رغم أنه لم يحقق شيئا يذكر ، من ائتلاف بين حلب وقونية(٥٥) . وفى الوقت نفسه على وجه التقريب ، وافق نور الدين فى نهاية الأمر على اطلاق سراح ريموند أمير طرابلس لقاء مبلغ ثمانين ألف دينار . واشترك الملك وفرسان المستشفى معا فى جمع أغلب المبلغ ؛ وسُمح لريموند بالعودة إلى

---

(٥٣) William of Tyre, xx, 27, pp. 992-4; Ibn al-Athir, pp. 581-3, and *Atabegs*, pp. 286-8; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.552; Maqrisi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII, p. 506. وأورد بهاء الدين *P.P.T.S.* pp.62-3 سردا ماهرا مبهما ، خالطا الحملات فى عامى ١١٧١م و١١٧٣م . كما أنه يجعل صلاح الدين يقول إنه هو فقط رفض التفكير فى معارضة نورالدين.(p.65) .

(٥٤) Ibn al-Athir, *Atabegs*, p.279; Kemal ed-Din, p. 584; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 62. ويقول بهاء الدين ان نورالدين استولى على أرقا ، وهو اسم خطأ بدلا من أرايما.

(٥٥) Cinnamus, pp. 291-2; Imad ed-Din, pp. 159-60. وكان قلج أرسلان قد استقبل هنرى الأسد استقبالا حسنا أثناء مروره بالأناضول فى طريقه من فلسطين.

بلده . ولكنه لم يدفع أبدا باقى المبلغ المستحق لنور الدين وقدره ثلاثين ألف دينار[٥٦].

وبدأت الحرب عام ١١٧٣م . ذلك أن أماريك بعدما شعر بما يكفى من الأمان اتجه شمالا داخل كيليكيا لمعاقبة مليح على ما ألحقه بستيفن (اوف شامبانى) من إساءة ولكى ينفذ وعده للإمبراطور . و لم تنجز الحملة شيئا سوى الحيلولة دون أن يزيد مليح من التوسع[٥٧]. وانتهز نور الدين الفرصة وغزا منطقة الأردن واستدعى صلاح الدين لمساعدته . وفى اخلاص صلاح الدين لنصيحة أبيه ، اتجه شمالا بجيش من مصر وضرب الحصار حول الكرك ، بينما سار نور الدين جنوبا من دمشق . وباقترابه رفع صلاح الدين الحصار وعاد إلى مصر قائلا - بحق - إن والده يعانى مرضا خطيرا . غير أنه من الواضح أن صلاح الدين لم يكن راغبا فى القضاء على الدويلة الفرنجية الحاجزة الواقعة بينه وبين سيده المتعسف . فعسكر نور الدين بدوره أمام الكرك ، التى كانت عاصمة منطقة الأردن ، وكانت تنتمى إلى وريثة هى ستيفانى (اوف ميلى). وكان زوجها الأول - همفرى - وريث تبنين ، قد مات قبل ذلك بسنوات قليلة ؛ وكان زوجها الثانى ، وهو قهرمان اماريك - مايلز (اوف بلانسى) - بعيدا مع الملك ؛ وكان اول من خف لنجدتها صهرها ، الكونستابل المسن ، همفرى الثانى أمير تبنين . وبتعبئة القوات المتبقية فى المملكة انسحب نور الدين ، وقد ملأه الحنق على صلاح الدين . وعندما سمع فى اغسطس بوفاة نجم الدين ايوب ، أخلص أتباعه فى مصر ، نذر أن يغزو مصر بنفسه فى الربيع التالى[٥٨].

١١٧٣م : اغتيال سفراء الحشاشين

كان فى هذه الفُرقة بين المسلمين تعزية للفرنج . وفى خريف ١١٧٣م تلقوا عروضا من مكان آخر لم يكن متوقعا . و لم يكن يُسمع عن الحشاشين سوى القليل

---

(٥٦) Abu Shama, p. 168; William of Tyre, xx, 28, p. 995. وظروف اطلاق سراح ريموند غامضة . أنظر Baldwin, *Raymond III of Tripoli*, p.11 and n. 23. ويقع التاريخ بين سبتمبر ١١٧٣م وابريل ١١٧٦م.

(٥٧) William of Tyre, xx, 26, pp.991-2؛ (انظر المراجع أعلاه ص ٤٤٩ (الملحوظة ٤٩)) وربما خلط وليم بين حملتى أماريك.

(٥٨) Ibn al-Athir, pp. 587-93, and *Atabegs*, p. 293; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 553, Maqrisi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 509-11. ومات نجم الدين إثر سقوطه من فوق جواده وهو يمارس لعبة الجوكان (البولو).

خلال العقود المنصرمة ، بخلاف اغتيالهم التعسفي لريموند الثاني أمير طرابلس عام ١١٥٢م ، إذ كانوا يوطدون مقارهم بهدوء في جبال النصيري . وعلى الجملة لم يظهروا عداوتهم للفرنج ، وانما كان عدوهم المقيت هو نور الدين الذى تسببت قوته في تقييدهم شرقا . لكنه كان عاجزا عن قمعهم ، وفي احدى الليالي عُثر على خنجر فوق وسادته ، كان بمثابة انذار له كي لا يمضى شأوا بعيدا . ولكون عواطفهم تميل إلى الشيعة وليس السنة ، فقد صدمهم انتهاء الخلافة الفاطمية . وفي عام ١١٦٩م أرسلت قيادة الحشاشين من مقرها في قلعة (ألموت) في فارس محافظا جديدا لمقاطعة النصيري ، هو رشيد الدين سينان من بُصرى . وبدأ هذا الشيخ الرهيب ، الذى كان يعرفه الفرنج باسم عجوز الجبل ، سياسة أكثر نشاطا . إذ أرسل الآن إلى امالريك يقترح انشاء تحالف وثيق ضد نور الدين ، والمح بأنه هو وأتباعه كلهم يفكرون في التحول إلى المسيحية ، وكان جليا أن المقابل لذلك هو إلغاء الإتاوة التي أفلح فرسان المعبد في طرطوس في فرضها على مختلف قرى الحشاشين . وسواء كان امالريك يظن أن الحشاشين سيتحولون إلى المسيحية أم لا ، أقبل على تشجيع صداقتهم في سرور . وعاد مبعوثو الشيخ سينان باتجاه الجبال يحملون وعدا بأن تلحق بهم حالا سفارة فرنجية. وبينا هم في ترحالهم عبر طرابلس ، سقطوا قتلى في كمين نصبه لهم فارس من فرسان المعبد، وولتر (اوف مينسيل) ، بتواطؤ مع سيده الأعظم . وارتاع الملك امالريك ، فقد دمرت سياسته ولطخت سمعته بمجرد أن نظام فرسان المعبد كان بالغ الجشع بحيث يرفض التضحية بجزء صغير من إيراداته. وأمر السيد الأعظم ، أودو (اوف سانت أماند) بتسليم الجاني . ورفض أودو ، وانما عرض مجرد ارسال وولتر كي يحاكمه البابا ، إذ أنه لا يعترف بأية سلطة أخرى عداه . غير أن امالريك كان في قمة الغضب بحيث لم يعبأ بدستور نظام فرسان المعبد . وأسرع مع بعض الجنود إلى صيدا حيث السيد الأعظم وهيئة الكنيسة ، واقتحم عليهم مجلسهم بالقوة وخطف وولتر وعاد به والقاه في غيابة السجن في صور. وأرسل من يؤكد للحشاشين أن العدالة اخذت مجراها ، فقبل الحشاشون اعتذارات الملك . وفي تلك الأثناء عزم أمالريك أن يطلب من روما حل نظام فرسان المعبد العسكري(٥٩).

وكانت فاتحة عام ١١٧٤م فاتحة حسنة للمسيحيين ، إذ أصبح الحشاشون أصدقاء، وأمسى التحالف البيزنطي في أحسن أحواله، ووعد ملك صقلية الصغير ، وليم الثاني ،

---

(٥٩) William of Tyre, xx, 29-30, pp. 995-9.

بتقديم المساعدة البحرية للربيع ، وبلغ الشقاق بين نور الدين وصلاح الدين حد الأزمة. ولم يكن صلاح الدين نفسه آمنا قط فى مصر التى راحت فيها رؤوس الشيعة تحيك ضده المكائد بينما كانت على اتصال بالفرنج . وفى عام ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر ، توران شاه ، لاحتلال السودان كي تكون بمثابة ملاذ للعائلة في حالة الضرورة ، واحتل توران البلد حتى إبريم بالقرب من وادى حلفا ، حيث قتل الأسقف القبطى وأتباعه وجمهوره وخنازيره السبعمائة على السواء . لكنه أبلغ أن الأرض غير ملائمة للملاذ . فأرسله صلاح الدين إلى جنوب شبه الجزيرة العربية فوجدها توران شاه أفضل من سابقتها ، واحتلها باسم اخيه وحكمها نائبا عنه حتى ١١٧٦م[٦٠].

على أنه لم هناك ما يدعو صلاح الدين للهرب من سخط نور الدين . ففى ربيع عام ١١٧٤م ، جاء الأتابج نور الدين إلى دمشق للتخطيط لحملته على مصر . وبينما كان على جواده صباح يوم ما مع اصدقائه يتريضون خلال البساتين ، حدثهم عن انعدام الثقة فى الحياة الإنسانية . وبعد مضى تسعة ايام ، اى فى ١٥ مايو ، مات متأثرا بالتهاب اللوزتين . لقد كان حاكما عظيما ورجلا من كبار الرجالات ، أحب العدل فوق كل ما يُحب . وكان بعد مرضه السابق قبل تسع عشرة سنة قد فقد شيئا من طاقة نشاطه ؛ وزادت الأوقات التي كان يقضيها في الورع والتقى . وقد أكسبه ورعه برغم محدوديته احترام رعيته وأعدائه . كان جادا نادرا ما يبتسم ، وعاش حياة بسيطة وألزم أسرته بها ، مفضلا أن ينفق إيراداته الهائلة فى أعمال الخير . وكان إداريا معتنيا مرتقبا ، وعززت حكومته الحكيمة أراضيه التى انتزعها بسيفه . وسعى خاصة إلى كبح جماح أمرائه الأتراك والكرديين بتوطينهم فى اقطاعيات يدفعون ايجارها على هيئة جنود ، وتمكنت محاكمه القانونية التابعة له من أن تسيطر عليهم . وأسهم هذا الوضع الإقطاعي المخفف اسهاما كبيرا فى ازدهار سوريا بعد ما يقرب من قرن حكمها فيه البدو . وكان طويل القامة أسمر اللون يكاد يكون بلا لحية ، ذا ملامح متناسقة ، وعلى وجهه انطباع حزين هادئ . وكانت لعبة الجوكان (البولو) هى نشاطه الترفيهى الوحيد[٦١].

---

(٦٠) Ibn al-Athir, pp 599, 602-3, and *Atabegs*, p.293; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65-6.

(٦١) Ibn al-Athir, pp. 604-5; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65.

١١٧٤م : موت الملك أماريك

ورث نور الدين ابنه الملك الصالح اسماعيل وهو صبي في الحادية عشرة، وكان معه في دمشق . وهناك استولى على الوصاية الأمير ابـن المقـدم ، تـؤازره ام الصبي ، بينما أعلن جوموشتكين ، حاكم حلب التي كانت العاصمة الرئيسية لنور الدين ، عن نفسه وصيا . وتدخل ابن عم الصبي ، سيف الدين صاحب الموصل ، لضم نصيبين والجزيرة كلها حتى الرها . وكتب صلاح الدين ، كأمير لأغنى مقاطعات نور الدين ، إلى دمشق بأن الوصاية هي وصايته ، لكنه كان في تلك اللحظة فاقـد الحيلة كي يتابع مطالبته[٦٢]. وأتاح انهيار الوحدة الإسلامية لأماريك فرصة سرعان ما اختطفها . ففي يونية زحف على بانياس . وخرج له ابن المقدم لملاقاته وربما حدث ما كان يقصده أماريك، إذ عرض المقدم على الفور أن يشتري أماريك بمبلغ ضخم من المال وعده به، والافراج عن جميع الفرنج الأسرى في دمشق ، وتحالف في المستقبل ضد صلاح الدين[٦٣]. وقبل أماريك العرض ، وكان قد بدأ يعاني من نوبات الدوسنتاريا ؛ وبعد توقيع المعاهدة عاد خلال طبرية ونابلس إلى القدس ، معتليا جواده ورافضا الراحة على المحفة . ووصل القدس وهو في حالة مرضية شديدة . واستدعى الأطباء من اليونانيين والسوريين إلى جانب فراشه ، وطلب منهم أن يفصدوه حتى ينزف دما ثم يعطوه شرابا مسهّلا . لكنهم رفضوا ، إذ كانوا يرون أنه في حالة من الضعف لا يتحمل معها الجهد. ولذا استعان بطبيبه الفرنجي الذي لم تكن لديه تلك الوساوس . ويبدو أن العلاج قد أفاده ، ولكن لمجرد يوم او يومين . وفي ١١ يولية ١١٧٤م ، مات وهو في الثامنة والثلاثين من عمره[٦٤].

وإذا كان التاريخ مجرد التحدى والاستجابة ، يكون نجاح الوحدة الاسلامية تحت زنكي ونور الدين وصلاح الدين رد فعل حتمي إزاء الحملة الصليبية الأولى . على أن صروف القدر لا تكف عن فرض أهواء أحكامها . ففي بداية ١١٧٤م بدا أن نجم صلاح الدين في طريقه للأفول ، ومات اماريك ونور الدين ، دون توقع الموت لأي منهما ، فأنقذه القدر منهما وفتح له طريق انتصاراته المقبلة . وقد رأى فرنج الشرق في

---

(٦٢) Ibn al-Athir, pp. 606-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 558-60.

(٦٣) William of Tyre, xx, 31, p. 1000; Abu Shama, p. 162; Ibn al-Athir, p. 611.

(٦٤) William of Tyre, xx, 31, pp. 1000-1. وربما كان الطبيب السوري هو سليمان بن داود . (انظر أعلاه ص ٣٦٦ الملحوظة (٤٤)).

موت أماليك ، فى هذه اللحظة ، والنوائب التى حلت بأسرته ، نذير سوء بنهاية مملكتهم ؛ إذ كان اماليك آخر ملوك القدس المسيحية الجدير بعرشه . ولقد كانت له أخطاء ، وقد تأرجح بحماس نبلائه عام ١١٦٨م ، وبترددهم عام ١١٦٩م . وكان أكثر استعدادا لقبول عطايا الأموال، التى تحتاجها الحكومة آنيًا، من أن ينفذ سياسة تتسم ببعد النظر. وكانت طاقته وعزيمته بلا حدود. وأثبت أنه لا مجال لأن يتحداه أتباعه ولا النظامين العسكريين دون أن يلحق بهم الضرر . ولو أنه عاش أطول مما عاش، لتحدى حتمية انتصار الاسلام.

الباب الخامس:

إنتصار الإسلام

الفصل الأول:

الوحـدة الإسلامية

الوحـــدة الإســـلامـــية

"الحكماءُ يرثُون مجداً والحمقَى يحمِلون هَوَاناً"
(أمثال ٣ : ٣٥)

مكث صلاح الدين فى القاهرة قلقا يترقب، ورأى فى موت الملك امالريك نعمة وفضل من الله. وكانت مكائد الشيعة قد بلغت ذروتها فى شهر ابريل عندما افتضحت مؤامرة لقتله . فضرب ضربته لم يتردد ، وقضى على زعماء التآمر ؛ لكنه لم يكن على ثقة من عدم وجود آخرين على استعداد للتآمر إذا جاء الجيش المسيحى لمعاونتهم ، بينماسينتقل ميراث نور الدين يقينا إلى غيره[1]. والآن وقد مات أمالريك فقد تبدد خطر الغزو برا . لكن هناك فعلا أسطولا قبرصيا فى الأفق ؛ إذ لم يكن الملك وليم الثانى قد سمع بانهيار المؤامرة ولا بموت أماريك . وفى ٢٥ يولية ١١٧٤م ، ظهر أمام الإسكندرية فجأة مائتان وأربع وثمانين سفينة قبرصية تحمل الرجال والماشية والمؤن ، تحت قيادة تنكريد كونت ليشى . لكنهم لم يجدوا المساعدة التى كانوا يعولون عليها ؛

(١) Ibn al-Athir, p. 600.

وكانوا قد رفضوا قبول أية مساعدة من الامبراطور بعدما تشاجر وليم مع مانويل الـذى عرض عليه يد ابنته ماريـا ثـم سـحب العرض ؛ وعلـى أية حـال ، فقـد رغـب وليـم القبرصي فى أن يظهر أنه أكفأ مما كان عليه البيـزنطيون عـام ١١٦٩م . وبفشـلهـم فـى مباغتة المدينة، وباقتراب صلاح الديـن علـى رأس جيـش ، عـادوا بسـفنهم مـرة اخـرى وابحروا مبتعدين يوم ١ أغسطس . وبذا تحرر صلاح الدين كي يزحف على سوريا[٢].

وشعر ابن المقدم والى دمشق بالخوف ، فناشـد الفرنـج تقديـم المسـاعدة ؛ وزادت خشيته عندما هرب الصالح الصغير بن نور الدين مع امه إلى حلب حيث الوصى الأقوى جوموشتكين . وبعد ذلك استنجد ابن المقدم بسيف الدين صاحب الموصـل كـى يخـف لنجدته ؛ لكن سيف الدين فضل تعزيز ما حصل عليه فـى الجزيـرة. وأصـر الدمشـقيون على أن يرسل واليهم مسـتدعيا صـلاح الديـن . وانطلـق صـلاح الديـن مـن فـوره مـع سبعمائة فارس اختارهم ، وعـبر منطقـة الأردن عبـورا خاطفـا دون أن يتعـرض الفرنـج لإيقافه هناك ، ووصل دمشق يوم ٢٦ نوفمبر ، حيث إستُقبل بمشاعر البهجة . وامضـى الليل فى منزل ابيه القديم . وفى صباح اليوم التالى فتح لـه ابـن المقـدم أبـواب القلعـة . ونصّب صـلاح الديـن أخـاه طغتكـين واليـا علـى دمشـق باسـم الصـالح بعـد أن أمطـر الدمشقيين بالهدايا النفيسة من ثروة الصالح ، ثم زحف شمالا ضد جوموشتكين[٣].

١١٧٤م : ريموند كونت طرابلس وصيّا

بات الفرنج بعد موت أماليك بلا قوة فلا يقدرون علـى التدخـل . وكـان الأمـير الوحيد الباقى فى البيت الملكى هو بلدوين الصبى المجذوم ابـن الثالثـة عشـرة سـنة ؛ ولم تكن اخته سبيللا التى تكبره بعام قد تزوجت بعد . ولم تلد زوجة أبيـه ، الملكـة ماريـا كومنينا ، سوى بنتين ماتت إحداهما والأخرى فى الثانية من عمرها . ووافق البارونـات على قبول بلدوين مليكا لهم دون اعتراض . وبعد أربعة أيـام مـن وفـاة امـالريك، تـوج البطريق بلدوين . ولم يكن هناك وصـى تم تعيينـه . وتـولى الحكومـة القهرمـان مـايلز ، الذى كان أقرب الأصدقاء إلى الملك ، وكان من اللوردات بما تملكه زوجته من اقطاعيـة

(٢) Abu Shama (مقتبسا من عماد الدين)، pp.164-5؛ ويحدد بهاء الدين تاريخ وصول القبارصة يوم ٧ سبتمبر William of Tyre, xxi, 30p. 1007; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 66-7.

(٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.67-70; Ibn al-Athir, pp.614-16; Maqrisi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol.viii, p.517.

منطقة الاردن الضخمة . لكن مايلز لم يكن يتمتع بالشعبية ، ولا سيما بين افراد الأرستقراطية المولودين محليا، والذين ناصروا الكونت ريموند كونت طرابلس فى المطالبة بالوصاية . وكان ريموند هو اقرب الأقرباء للملك - بعد أخواته - من الجانب الملكى للأسرة . فكانت أمه ، هوديرنا الأميرة فى القدس ، خالة اماليك. وعلى الرغم من أن بوهمند أمير انطاكية من ذرية أخت هوديرنا الكبرى - أليس - إلا أنه كان من جيل بعيد عن التاج ، فضلا عن أنه كان يقيم فى مكان بعيد ؛ بينما تزوج ريموند مؤخرا من ثانية أكبر الوريثات فى المملكة ، إيشيفا (اوف بور) ، واميرة الجليل ، وأرملة وولتر (اوف سانت أومير) . ووراح مناصرو ريموند ، يتزعمهم الكونستابل القديم همفرى الثانى أمير تبنين ، وأسرة إيبلين ، ورينالد أمير صيدا ، يلحون على أن تعرض حقوق ريموند على المحكمة العليا . وراوغ مايلز أطول فترة يستطيعها ، لكنه اضطر إلى الرضوخ . وفى وقت متأخر من الخريف نُصّب ريموند وصيا ، وبهذا هوى مايلز من سلطته غير مأسوف عليه . وبعد أسابيع قليلة ، اغتيل مايلز فى ليلة ظلماء فى أحد شوارع عكا(٤).

كان ريموند آنذاك فى الرابعة والثلاثين من عمره ، طويلا ، نحيفا ، أسود الشعر والجلد ، يسيطر على وجهه أنف ضخم ، بارد الشخصية ، ضابطا لنفسه ، يفتقر شيئا ما إلى الكرم . ولم يكن فيه ما يدل على حميّة الفروسية التى كان يتمتع بها الصليبيون الأوائل . وكان خلال سنوات أسره الطوال قد قرأ قراءة متعمقة ، وتعلم اللغة العربية ، وتدارس عادات المسلمين . وكان ينظر إلى الدويلات الفرنجية ومشاكلها بمنظور محلى ؛ وكان مهتما ببقائها، وليس بدورها كرأس حربة للعالم المسيحى العدوانى : وكان ذا اقتدار، وقد سانده أصدقاؤه ، غير أنه لم يكن سوى وصى ، وكان له أعداء(٥).

وكانت وصايته بداية انشقاق فى المملكة . إذ كانت هناك شيع من قبل ولا سيما فى أيام الملكة مليسيند لكنها لم تعش طويلا نظرا لسيطرة التاج ، والآن برزت فرقتان محددتان ، تتألف احداهما من البارونات المحليين وفرسان المستشفى وتسعى بقيادة الكونت ريموند إلى إيجاد تفاهم مع الجيران الأجانب ، وليست مستعدة للمجازفة بمغامرات ؛ وتتألف الثانية من الوافدين الجدد من الغرب وفرسان المعبد . وكانت هذه الفرقة عدوانية تصبغها المسيحية العسكرية ؛ ووجدت قائدها عام ١١٧٥م عندما أفرج

(٤) William of Tyre, XXI, 4-3, pp.1007-9.

(٥) William of Tyre, XXI, 5 pp.1010-12.

أخيرا عن رينالد (اوف شاتيلون) من سجنه لدى المسلمين ، إلى جانب جوسلين كونت الرها - وقد غدا كونتا بلا كونتية - فتحول مصيره إلى أن يصبح مغامرا[٦]. وكانت العداوات الشخصية أعنف حتى من الاختلافات السياسية . وأغلب النبلاء الآن ابناء عمومة بين بعضهم البعض ؛ والمشاجرات العائلية هة الأكثر مرارة. فأما زوجتا أماليك فكانت كل منهما تكره الأخرى . وأما آجنس (اوف كورتناى) ، أخت الكونت جوسلين فكانت قد تزوجت مرتين منذ طلاقها ، وقد مات زوجها التالى ، هيو (اوف إيبلين) بعد الزواج بسنوات قليلة ، وأبهج خليفته - رينالد امير صيدا - أن يكتشف أنه شديد الالتصاق بزوجته من حيث القرابة - كشأن امالريك - فحصل على إبطال الزواج[٧]، وانضمت آجنس إلى جانب أخيها وفرسان المعبد ، بينما انضم هو إلى الفرقة الأخرى ؛ وأما الملكة ماريا كومنينا ، فسرعان ما تزوجت من هيو (اوف باليان - أخى ايبيلين) ، وقد وهبته اقطاعية مهرها نابلس ، وكان زواجا سعيدا ، ولعبت الأرملة الملكة دورا كبيرا فى حزب زوجها[٨]. وبعد اطلاق سراح رينالد (اوف شاتيلون) بأشهر قليلة تزوج وريثة منطقة الأردن ، ستيفانى ، أرملة مايلز (اوف بلانسى) ، التى اعتبرت الكونت ريموند قاتل زوجها[٩]. وقد بدأ شجار ريموند الطويل مع فرسان المعبد على مسألة شخصية ؛ ذلك أن فارسا بلجيكيا نلمنكيا ، جيرار (اوف ريدفورت) ، جاء إلى طرابلس عام ١١٧٣م والتحق بالخدمة تحت إمرة الكونت الذى وعده بتزوجه من أول وريثة ملائمة فى كونتيته . غير انه عندما مات لورد البطرون بعد أشهر قليلة ، تاركا أراضيه لإبنته لوسيا ، تجاهل ريموند وعده لجيرار ، وزوجها لأحد أثرياء بيزا ويدعى بليفانو ، الذى وضع الفتاة - على نحو يفتقر إلى الكياسة - على ميزان ومنح الكونت وزنها ذهبا. وغضب جيرار وتملكته خيبة الأمل ، فانحاز إلى فرسان المعبد ، وسرعان ما غدا أكثرهم نفوذا وأصبح قهرمانهم . ولم يغفر لريموند قط[١٠].

---

(٦) عن اطلاق سراح رينالد وجوسلين ، انظر أدناه ص ٤٦٧.

(٧) مات هيو (اوف إيبلين) عام ١١٦٩م تقريبا، وكان مندوبا لأماريك فى القاهرة عام ١١٦٧م . وكان خطيبا لآجنس قبل أن تتزوج أماريك (William of Tyre, XIX, 40, p.890). كما يتحدث وليم عن طلاق رينالد امير صيدا. ويظهر ابو رينالد وآجنس على علاقة ببعضهما البعض . ولاشك أن هذه العلاقة كانت من خلال أمها بياتريس أرملة وليم (اوف صهيون) ، ولم يسجّل اسمها قبل زواجها .

(٨) William of Tyre, XXI, 180, p. 1035; Ernoul, p.44.

(٩) Ernoul, pp.30-1.

(١٠) Ernoul, p.114; *Estoire d'Eracles*,pp.51-2. دفع بليفانو عشرة آلاف بيزانت لقاء عروسه . ولو

أما الملك الصغير ، الذى كان مدركا فى بكورة نضجة للمكائد التى تدور من حوله ، فقد حاول الحفاظ على التوازن بين الفرق . وبقى ريموند وصيا عليه لثلاث سنوات ، لكن روابط القرابة جعلت علاقة بلدوين بآل كورتناى أوثق . فعين خاله جوسلين قهرمانا عام ١١٧٦م ؛ وعادت أمه - الليدى آجنس - إلى البلاط حيث مارست نفوذا مخربا . كانت شريرة وجشعة ، لا نهاية لشراهتها للرجال ولا للمال ، ولم يسمح لها بتربية اولادها ؛ إذ كان بلدوين قد أرسل إلى وليم الصورى لتربيته ، وسيبيللا إلى جدتها لخالتها الأميرة رئيسة الدير، جوفيتا (اوف بيثانى) . وبدأت الآن تتدخل فى معيشتهم ، وكان بلدوين يأخذ بآرائها المخالفة لآرائه الأفضل ، وسيطرت على سبيللا[١١].

١١٧٤م : صلاح الدين يهاجم حلب

كان أول واجبات ريموند الوصى هو كبح تعاظم قوة صلاح الدين . ولم يكن باستطاعة الفرنج الحيلولة دون اتحاد دمشق والقاهرة ؛ ولكن حلب على الأقل ما تزال منفصلة . وما أن وصلت صلاح الدين التعزيزات من مصر حتى زحف على حلب من دمشق . وفى ٩ ديسمبر ١١٧٤م دخل حمص وترك جنوده يحاصرون قلعتها التى صمدت أمامه ، ومر خلال حماه إلى حلب . ولما أغلق جوموشتكين البوابات فى وجهه، بدأ يحاصر المدينة الحصار المعتاد فى ٣٠ ديسمبر . وكان المواطنون مذبذبين فى الاستسلام له ؛ لكن الصالح الصغير هبط اليهم بنفسه ووقف فى وسطهم وناشدهم الحفاظ عليه من الرجل الذى اختلس ميراثه ؛ فمس كلامه قلوبهم فلم يهنوا أبدا . وفى تلك الأثناء كان جومشتكين قد استغاث بالحشاشين وبالفرنج . وبعد أيام قليلة عُثر على بعض الحشاشين فى قلب معسكر صلاح الدين فى نفس خيمته فقتلوا بعد دفاع يائس . وفى أول فبراير ظهر الكونت ريموند على رأس جيش فرنجى أمام حمص ، وبمساعدة حامية القلعة بدأ مهاجمة أسوار المدينة . وأتى ذلك بثماره ، إذ رفع نور الدين

كان محتواها من الذهب الخالص لكان وزنها ١٠ أحجار. (المترجم): الحجر stone وحدة وزن انجليزية تساوى ٦٫٣٥ كيلوجرامات.

(١١) هناك ما يؤكد أن جوسلين كان قهرمانا من ١١٧٧م قدما (Rohrich, *Regesta,* p.147). وكان دائما يسمى "الكونت جوسلين". وفى الوثائق تسمى آجنس كونتيسة ، لأنها كانت كونتيسة يافا وعسقلان أثناء زواجها من أماليك . ولم تكن ملكة البتة ، ولم يطلق عليها لقب ملكة قط .(وعن تربية سيبللا انظر William of Tyre, xxI, 2, p.1006، وعن تربية بلدوين انظر أعلاه ص ٤٥٠).

الحصار عن حلب وأسرع جنوبا ، ولم ينتظره ريموند . وطوال الشهر التالى كان صلاح الدين مقيدا بحصار قلعة حمص . وبحلول ابريل كان سيد كل سوريا حتى حماه فى الشمال ؛ لكن حلب بقيت مستقلة . واعترافا من جومشتكين بالجميل للفرنج أطلق سراح رينالد (اوف شاتيلون) وجوسلين (اوف كورتناى) وكل السجناء المسيحيين الذين ذبلت أبدانهم فى غيابات سجون حلب(١٢).

وأثار نجاح صلاح الدين ابن أخى نور الدين ، سيف الدين ، صاحب الموصل الذى أرسل أخاه عز الدين مع جيش كبير إلى سوريا للانضمام إلى جومشتكين . وعرض صلاح الدين ، على جومشتكين أن يتنازل له عن حماه وحمص ، آملا ربما فى إثارة المشاكل بين حلب والموصل . ورُفض العرض . لكن صلاح الدين انقض بجنوده المحنكين على جيش الحلفاء أثناء عبوره أخدود بين التلال شمالى حماه ، ومزق الجيش تمزيقاً. ولم يشعر صلاح الدين بأنه قوى بما فيه الكفاية لمتابعة نصره . وعقدت هدنة تسمح لصلاح الدين باحتلال مدن قليلة شمالى حماه ، وبخلاف ذلك بقيت الأمور كما كانت عليه(١٣).

والآن نفض صلاح الدين عن نفسه تبعيته للصالح ، قائلا إنه فعل ما فى وسعه لخدمته باخلاص، لكن الصالح فضّل مستشارين آخرين ورفض مساعدته ، ولذا اتخذ لنفسه لقب ملك مصر وسوريا وسك العملة باسمه فقط . وأيده الخليفة فى بغداد تكرما وأرسل له أردية ملكية وصلته فى حماه فى مايو(١٤).

١١٧٦م : صلاح الدين يهزم سيف الدين صاحب الموصل

لم تعش الهدنة مع آل زنكى طويلا . ففى مارس ١١٧٦م عبر سيف الدين نفسه الفرات مع جيش كبير وانضم اليه جنود جومشتكين خارج حلب ؛ فاتجه اليه صلاح

(١٢) William of Tyre, xxi, 6, pp. 1012-13; Abu Shama, pp. 167-8; Ibn al-Athir, pp. 618-20, Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 562-4.

(١٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.70-1; Ibn al-Athir, pp.621-2، ويطلق ابن الأثير على موقع المعركة قرنى حماه ؛ Kemal ed-Din, ed Blochet, p. 564.

(١٤) يرجع تاريخ اول العملات التى تحمل لقب صلاح الدين الملكى الى عام ٥٧٠ هجرية (١١٧٤-١١٧٥م) . ولم يتخذ لقب سلطان أبدا ، ولكن الكتاب العرب ، وحتى معاصريه ، عادة ما يمنحونه لقب سلطان .(مثلا ابن جبير وبهاء الدين). انظر Wiet, *op.cit.*pp.335-6.

الدين شمالا بعد أن جاءته التعزيزات مرة اخرى من مصر . وفى ١١ ابريل حدث كسوف للشمس ، رأى فيه رجاله نذيرا سيئا أثناء عبورهم وادى العاصى بالقرب من حماه ، وبعد عشرة أيام باغتهم سيف الدين بينما كانوا يسقون جيادهم . غير أن سيف الدين تردد فى الهجوم فى الحال . وفى الصباح التالى ، وعندما جاء سيف الدين بكل قواته لمهاجمة معسكر صلاح الدين على رابية السلطان الواقعة جنوب حلب بعشرين ميلا تقريبا ، اكتشف أنه جاء متأخرا للغاية ؛ إذ كاد هجومهم الأول أن ينجح ، لكن صلاح الدين قام بهجوم مضاد على رأس قواته الإحتياطية وشتت صفوف الأعداء ، وباقتراب المساء كان سيد الساحة . وكان سيف الدين قد ترك ثروته عندما ولى هاربا ، فأعطاها صلاح الدين كلها جائزة لرجاله ، وأحسن معاملة الأسرى وسرعان ما أعادهم إلى بيوتهم . لقد ترك كرمه ورأفته انطباعا رائعا(١٥).

وكانت حلب ما تزال ترفض فتح أبوابها لصلاح الدين ، ولذا هاجمها واحتل القلعة الواقعة بين المدينة ونهر العاصى والتى تتحكم فى الطريق الذاهب شمالا . وهنا كاد أن يهلك مرة اخرى عندما دخل أحد الحشاشين الخيمة التى يستريح فيها ، ولم ينقذه سوى القلنسوة المعدنية التى كان يضعها تحت عمامته الضيقة . واستسلمت عزاز يوم ٢١ يونية . وفى يوم ٢٤ يونية ظهر مرة اخرى أمام حلب ؛ لكنه وافق الآن على المصالحة ؛ إذ أن الصالح وامراء حصن كيفا وماردين الأراتقة الذين كانوا يناصرونه وافقوا على التخلى لصلاح الدين عن كل الأراضى التى غزاها ، وأقسموا هم وصلاح الدين على أن يحافظوا على السلام . وبعد التوقيع على معاهدة السلام يوم ٢٩ يولية ، جاءت اخت الصالح الصغرى لزيارة معسكر صلاح الدين ، وطلب منها بكياسة أن تختار الهدية التى تحبها، فقالت : "قلعة عزاز". فأعادها صلاح الدين إلى أخيها(١٦).

ورغم أن صلاح الدين لم يتمكن بعد من الاستيلاء على حلب ، كان الصالح وبنوعمومته يشعرون بأنه يتهددهم . وباستطاعة صلاح الدين أن يتحول للتعامل مع الحشاشين والفرنج ؛ فدخل جبال النصيرى لمحاصرة مصياف ، وهى المعقل الرئيسى للحشاشين ، وكان الشيخ سينان بعيدا عن المعقل ، وعندما أسرع بالعودة إلى معقله

---

(١٥) Beha ed-Din, *P.P.T.S* PP. 71-4; Ibn al-Athir, pp. 625-6. ويقول بهاء الدين إن المعركة حدثت فى تل السلطان وفى قرني حماه .

(١٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S* ,PP.74-5; Kemal ad-Din, ed. Blochet,pp.146-7; Ibn al-Athir, *loc.cit*.. واستنادا الى كمال الدين ، كان الرأى العام فى حلب مناهضا للمعاهدة ومناصرا للصالح بقوة .

كان باستطاعة صلاح الدين وجنوده القبض عليه لولا أن ثبطتهم قوة غامضة معينة . وشمل الجو نوع من السحر ؛ إذ اضطرب صلاح الدين نفسه بأحلام رهيبة . وفى احدى الليالى هب من نومه فجأة ليجد بعض قطع الكعك الساخنة على فراشه من النوع الذى لا يخبزه سوى الحشاشين ، ومع الكعك خنجر مسموم وورقة مكتوب عليها بيت من الشعر يتهدده ؛ واعتقد صلاح الدين أن شيخ الجبل العجوز كان هو نفسه فى الخيمة . وانهارت أعصابه ؛ فأرسل رسولا إلى الشيخ سينان يلتمس منه العفو عن ذنوبه ويعد ، فى المقابل ، مرورا آمنا منذ ذلك الوقت قدما تاركا الحشاشين دون إزعاج. وعفا عنه الشيخ العجوز ، وتم الوفاء بالمعاهدة[١٧].

و لم يكن إبرام مثل هذه المعاهدة ممكنا بين صلاح الدين والفرنج . إذ كانت هناك هدنة عام ١١٧٥م أطلق بموجبها صلاح الدين ما كان لديه من أسرى مسيحيين كى يتمكن من التعامل مع سيف الدين[١٨] . على أن الفرنج نقضوا الهدنة فى العام التالى . فبينما كان صلاح الدين يحاصر حلب ، أغار ريموند من البقيعة على إقليم البقاع فى الوقت الذى صعد فيه من الجنوب جيش ملكى بقيادة همفرى (اوف تورون) والملك ابن الخامسة عشرة ربيعا . ويبدو أن ابن المقدم ، وهو والى بعلبك الآن ، هزم ريموند هزيمة طفيفة ؛ غير أن المسيحيين أقاموا اتصالا فيما بينهم وهزموا أخا صلاح الدين توران شاه وميليشيات دمشق هزيمة فادحة ، وما أن شعروا باقتراب صلاح الدين من الشمال حتى انسحبوا مرة اخرى على الفور . و لم يطاردهم ، إذ كان يتعجل عودته إلى مصر . وبعد أن ترك توران شاه قائدا لجيش قوى فى سوريا ، تسلل مرة أخرى خلال منطقة الأردن ووصل القاهرة فى نهاية سبتمبر[١٩].

١١٧٦م : زواج سيبيلا الأول

ومضت فترة راحة من القتال طوال عام كامل ، لقيت ترحيبا من كل من الجانبين.

---

(١٧) Abu Firas, ed. Guyard, *Journal Asiatique,* 7 me série, vol. IX, 1877, Arabic text, pp.455-9; Ibn al-Athir (*loc.cit*). ويسجل ابن الأثير خطاب التهديد المرسل من سينان الى خال صلاح الدين ، شهاب الدين .

(١٨) William of Tyre, XXI, 8, pp. 1017-19. وهو يوبّخ همفرى (اوف تورون) ، الذى كان مسؤولا عن الهدنة ، لضياع فرصة المحتوم على صلاح الدين عندما كان فى وضع محرج .

(١٩) William of Tyre, XXI, II, pp. 1021-3; Ibn al-Athir, p 627.

إذ راح صلاح الدين يعيد تنظيم مصر ويعيد بناء القاهرة وتحصينها من جديد ، وفى ذات الوقت كانت حكومة القدس تواجه أهم مشاكلها الداخلية . ففى عام ١١٧٧م شب الملك بلدوين عن الطوق ببلوغه السادسة عْشرة ، وكف ريموند عن الوصاية . بيد أن مرض الجذام الذى يعاني منه الملك ازداد سوءا ، ويقينا لن يعيش سنوات كثيرة . ولكى تتأهل الأميرة سيبيللا للاستخلاف ، كان لابد لها من أن تتزوج . ولذا ، وجه بلدوين الدعوة فى عام ١١٧٥م ، وربما باقتراح من لويس السابع ملك فرنسا، إلى وليم طويل السيف (William Long-Sword) ، وهو أكبر أبناء مركيز مونتفرات ، للحضور إلى فلسطين وقبول يد سبيللا . وكان اختيارا حسنا . إذ كانت لوليم اتصالات جيدة ؛ إذ كان والده أغنى الأمراء فى شمال ايطاليا ، وكان من أبناء عمومة كل من الامبراطور فريدريك بارباروسا والملك لويس . وكان هو نفسه ، رغم أنه لم يعد شابا ، على مايكفى من الشجاعة والوسامة بحيث يرضى الأميرة الطروب . وهبط فى ميناء صيدا فى اكتوبر من عام ١١٧٦م ، وبعد أيام قليلة ، مُنح كونتية عسقلان وكونتية يافا ، فى نفس يوم زواجه من سبيللا ، وكان مقبولا عموما كوريث للعرش . على أن الآمال التى كانت معقودة على شجاعته واتصالاته ذهبت أدراج الرياح . ففى عام ١١٧٧م سقط فريسة مرض الملاريا الذى تواصل بضعة أشهر ، إلى أن مات فى يونية. ووضعت أرملته ابنا فى أواخر الصيف ؛ وريثا للمملكة ، لكنه الوريث الذى جعل الوصاية لا مفر منها. وراح مبعوثو الملك ينقبون فى أوروبا مرة أخرى للعثور على زوج ثان للأميرة[٢٠] .

كما كان مبعوثو الملك ينقبون أوروبا بحثا عن حلفاء ضد صلاح الدين ؛ إذ أن هدوء القتال يقينا لن يستمر طويلا . غير أن أمراء الغرب كانوا غارقين إلى آذانهم فى شؤونهم الخاصة بهم ؛ وحتى القسطنطينية لا تستطيع تقديم نفس العون كما كانت تفعل من قبل . إذ كان عام ١١٧٦م بمثابة نقطة تحول فى تاريخ بيزنطة . ذلك أن السلطان السلجوقى قلج أرسلان الثانى زاد عنادا ضد الامبراطور ؛ بعدما كان مقيد الشكيمة أثناء حياة نور الدين ، الذي تدخل فى الأناضول عام ١١٧٣م للحيلولة دون أن يبتلع السلاجقة أراضى الدانشمند . فقد حافظ أحد قواد نور الدين ، وهو عبد المسيح ، وكان وزيرا سابقا لدى أخيه قطب الدين ، على قيصرية مازاكا لدى النون

---

(٢٠). William of Tyre, xxi, 13, pp. 1025-6؛ كانت أم وليم أختا غير شقيقة للملك كونراد ولأبى فريدريك باربازوسا . وكان أبوه، وأم الملك لويس - أديلايدى (اوف مورين) - أطفالا من زيجتين مختلفتين لـ .Gisela of Burgundy

الدانشمندى ، وبقى هو نفسه مع حامية في سيواس . وفى نفس الوقت ثبت لأخى قلج ارسلان ، شاهنشاه ، امتلاك أنقـرة حيث كـان الامـبراطور قـد نصبه فيها قبل عدة سنوات . على أن موت نور الدين حرر قلج أرسلان من القيود ؛ وفى نهاية عام ١١٧٤م أعيد عبد المسيح إلى الموصل ، وكان ذوالنون وشاهنشاه فى المنفى فـى القسطنطينية ، وبذا تملك قلج ارسلان أراضيهما . ثم إنه تحول ضد بيزنطة ، وفى صيف عام ١١٧٦م ، قرر مانويل أن يتعامل مع الأتراك مرة والى الأبد . وتشجع بما حققه فى الصيف السابق من بعض النجاح الطفيف فكتب إلى البابا ليعلن أن الوقت قد أصبح ملائما لحملة صليبية جديدة . وسوف يؤمن الطريق الآن عبر الأناضول إلى الأبد. وبينما أرسل جيشا بقيادة ابن عمه أندرونيكوس فاتاتسيس خلال بافلاجونيا لصد ذى النون عند حدوده، قاد مانويل نفسه الجيش الامبراطورى العظيم ، الذى تضخم بكل التعزيزات التى امكنه الحصول عليها، وزحف على عاصمة السلطان – قونية . وما أن سمع قلج ارسلان بالحملة حتى أرسل طالبا السلام . لكن مانويل لم يعد يثق فى كلمته.

١١٧٦م : معركة ميريوسيفالوم

فى وقت مبكر من سبتمبر واجهت الحملة البفلاجونية كارثة أمام أسوار نقصار . وقد أرسل تمثال رأس فاتاتسيس إلى السلطان كعلامة على الانتصار ؛ وبعد أيام قلائل تحرك جيش مانويل خارجا من وادى نهر مياندر ، مرورا بحصن كان قد بناه فى سوبالايوم قبل ذلك بعام ، وملتفا حول قمة بحيرة إيجريدير إلى داخل التلال التى تصعد حتى سلسلة الجبال الضخمة واسمها جبال السلطان داغ . وتباطأت العربات الثقيلة التى تحمل آلات الحصار والأعلاف ؛ وكان الأتراك قد خربوا الأراضى التى كان لتلك العربات أن تمر خلالها . وكان الطريق يؤدى إلى ممر يطلق عليه اليونانيون تسيبريتسى ، وتظهر فى الطرف البعيد أطلال قلعة ميريوسيفالوم . وهناك تجمع الجيش التركى على مرأى فوق جانب التل المقفر . وحذر قواد مانويل من ذوى الحنكة من أن يمر جيشه البطئ المتثاقل فى ممر صعب فى مواجهة الأعداء ؛ ولكن الأمراء الأصغر كانوا على ثقة من شجاعتهم وإقدامهم وكانوا من طالبي الأمجاد ؛ فحثوه على المضى . وكان السلطان قد جمع الجنود من حلفائه وأتباعه جميعا ، بحيث أصبح جيشه كبيرا بنفس القدر كجيش مانويل ، وان كان أقل فى جودة التسليح ولكنه أكثر قدرة على الحركة . وفى ١٧ سبتمبر شق حرس الطليعة طريقه خلال الممر ، وتنحّى الأتراك أمامهم ، كى يلتفوا

حول التلال ويندفعوا هابطين المنحدرات إلى الممر حيث كان الجيش الامبراطورى الرئيسى يشق طريقه بطول الطريق الضيّق . وكان زوج أخت الامبراطور - بلدوين أمير انطاكية - على رأس كتيبة للفرسان ، فقام بهجوم مضاد صاعدا التل إلى الأعداء ، لكنه قتل مع رجاله جميعا ، وشاهد الجنود في الوادى الضيق هزيمته ؛ وكانوا مكدسين مع بعضهم البعض بحيث لا يكاد أحدهم أن يكون قادرا على تحريك يديه . وكان لا يزال بإمكان القيادة الشجاعة أن تنقذ اليوم من أن يشهد الهزيمة ، لكن شجاعة مانويل خذلته ؛ إذ كان هو نفسه أول من أصابه الذعر فولى دبره وكر هاربا من الممر . والآن حاول الجيش كله اللحاق به ؛ لكن عربات النقل سدت الطريق فى خضم الفوضى المتلاطمة . ولم يستطع الفرار سوى القليل من الجنود . وراح الأتراك يقتلون كما يحلو لهم ، وهم يلوحون بتمثال رأس فاتاتسيس ، إلى أن هبط الظلام. ثم إن السلطان أرسل رسولا إلى الامبراطور الذى كان يحاول تنظيم صفوف جنوده المرعوبين فى الوادى، عارضا عليه السلام شريطة أن ينسحب فى التو ، ويزيل التحصينات من قلعتى سوبلايوم ودوريليوم . وقبل مانويل الشروط بامتنان . وعاد من الممر حرس الطليعة الذى أفلت من الهزيمة وانضم إلى البقايا المفجعة التى يقودها مانويل الآن باتجاه الوطن ، يتحرش بها الأتراك الذين استعصى على فهمهم ما أبداه قلج أرسلان من رأفة . وربما لم يدرك السلطان قيمة اتمام انتصاره ؛ إذ كان جُل اهتمامه منصباً الآن على الشرق ، ولم يكن يعبأ آنذاك بالتوسع غربا . فكل ما كان ينشده هو الأمان(٢١).

ومع ذلك كان مانويل مدركا لمدى جسامة الكارثة التى قارنها هو نفسه بكارثة منزيكيرت التى وقعت قبل ما يزيد قليلا على قرن من الزمان(٢٢). لقد دُمرت آلة الحرب العظيمة التى دأب جده وأبوه على بنائها ، وسوف تنقضى سنوات كثيرة قبل إعادة بنائها ، وفى واقع الأمر لم يعاد بنائها قط . وخلال السنوات الثلاث التالية

---

(٢١) Chaladnon, انظر Nicetas Choniates, pp. 236-48; Michael the Syrian, III, pp. 369-72 وعن المعركة ذاتها *Les Comnènes*, pp.506-13, and Cahen, *La Syrie du Nord*, p.417 n. 3 انظر Ramsay, 'Preliminary report', in *History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, pp.235-8.

(٢٢) Nicetas Choniated, p. 249 . ومن الناحية الأخرى حاول مانويل التقليل من الكارثة الى أدنى الحدود فى خطابه بشأنها المرسل الى ملك انجلترا هنرى الثانى (مقتبس فى Roger of Hoveden, *Chronica*, II, p. 101). ولاحظ المعركة كثيرون من المؤرخين الغربيين.

S. Rudberti Salisburgensis II, p. 435, and *Liber Pontificalis, Vita Alexandri*, in *Annales* p.777.

كان هناك ما يكفى من الجنود للدفاع عن الحدود ، بل والفوز بانتصارات قليلة بسيطة. على أن الامبراطور لم يعد قادرا أبدا بعد ذلك اليوم على الزحف على سوريا وإملاء إرادته على انطاكية ؛ كما لم يبق لديه شئ من كبريائه العظيم الذى كان فيما مضى يردع نور الدين وهو فى ذروة قوته من زيادة تشديده على العالم المسيحى . وتكاد كارثة ميريوسيفالوم أن تكون قاتله للفرنج بنفس القدر الذي قضت به على بيزنطة ؛ فرغم كل ما كان بينهما من تبادل انعدام الثقة وسوء الفهم ، كان الفرنج يعلمون أن وجود امبراطورية شديدة القوة يعتبر ضمانا أخيرا ضد انتصار الإسلام ؛ ففى لحظتها، وعندما كان الولد الضعيف الصالح يحكم شمال سوريا ، لم يلحظ الفرنج أهمية المعركة. ولكن عندما ذهب وليم الصورى لزيارة القسطنطينية بعد ذلك بثلاث سنوات ، وعلم بما حدث كاملا ، تحقق من الأخطار التى تنتظر الفرنج[٢٣].

١١٧٧م : فيليب كونت فلاندرز فى فلسطين

على الرغم من هلاك جيش مانويل كان أسطوله لا يزال قويا ، وكان على استعداد لاستخدامه ضد صلاح الدين . ومرة أخرى وعد فى عام ١١٧٧م بإرساله للمساعدة فى هجوم فرنجى على مصر . وخلال صيف ذلك العام ، راجت شائعات بحملة صليبية جديدة آتية من الغرب ، وقيل إن كلا من لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا قد أخذ الصليب[٢٤] . ولكن الذي ظهر فى فلسطين كان عاهلا واحدا فقط . ففى سبتمبر، وأثناء أن كان الملك بلدوين فى طريقه إلى الشفاء من نوبة ملاريا حادة ، هبط فى ميناء عكا فيليب كونت فلاندرز ومعه أتباع كثيرون . وهو ابن كونت ثيرى وسيبللا كونتيسة أنجو ؛ وتذكر الفرنج اشتراك ابيه فى أربع حملات صليبية ، وكانوا يعلمون مدى ما تكنه أمه من الحب الورع للأرض المقدسة ، فعلقوا عليه الآمال العِراض . وأسفرت أنباء حضوره عن إرسال الامبراطور أربعة سفراء من أصل عريق يعرضون المال لتسيير حملة ضد مصر ، ووصل فى أعقابهم إلى ميناء عكا أسطول بيزنطى من سبعين سفينة تحمل المحاربين المحنكين . ونظرا لما كان عليه الملك

---

(٢٣) .William of Tyre, xxi, 12, p. 1025

(٢٤) فى معاهدة إيفري Ivry تاريخ ٢١ سبتمبر ١١٧٧م ، اتفق كل من لويس السابع وهنرى الثانى على الذهاب فى حملة صليبية مشتركة (Benedict of Peterborough, 1, pp.191-4). لكن المشروع سرعان ما انهار بعد ذلك .

بلدوين من شدة المرض الذي أقعده عن الذهاب إلى الحرب ، فقد سارع بعرض الوصاية على فيليب إذا قبل الخروج على رأس حملة ضد مصر . لكن فيليب تردد وراوغ قائلا إنه قد حضر أولا لمجرد الحج ، وثانيا لأنه لا يستطيع تحمل مثل تلك المسؤوليات بمفرده؛ وعندما اقترح الملك تعيين رينالد (اوف شاتيلون) قائدا مشاركا معه ، انتقد فيليب شخصية رينالد . وحذبوا انتباهه إلى أن الأسطول البيزنطي موجود هنا وعلى استعداد للتعاون ، فكان رده بمجرد التساؤل لماذا يتعين إلزام اليونانيين . وأخيرا كشف عن أن هدفه الوحيد من حضوره إلى فلسطين هو أن يزوّج ابنتي عمه ، الأميرتين سيبيللا وإيزابيلا من ابني أفضل أتباعه لديه - روبرت أوف بيثون . وكان ذلك فوق ما يتحمله بارونات القدس ؛ فعندما تقدم الكونت بطلبه لدى البلاط ، صرخ في وجهه بلدوين (اوف إيبيلين) قائلا : "كنا نظن أنك قد جئت لتحارب من أجل الصليب ، وأنت لا تتحدث إلا عن الزواج " . وأخذ الكونت فيليب يعد العدة للرحيل ثانية وهو غارق في مشاعر الإحباط والحنق . وكان للمشاحنة وقع الصدمة على سفراء الامبراطور ؛ واتضح بجلاء أنه لن تكون هناك حملة ضد مصر . وانتظروا قرابة شهر ، ثم أبحروا مع الأسطول تصحبهم أحاسيس الغيثان ، كي يحذّروا سيدهم الامبراطور من عبث الفرنج الذى لا دواء له[٢٥].

وغادر كونت فلاندرز القدس قاصدا طرابلس فى نهاية اكتوبر . وربما بدأ ضميره يضايقه الآن ، إذ انه وافق على مصاحبة الكونت ريموند فى حملة ضد حماه ؛ وقدم الملك جنودا من المملكة لتعزيزه . وفى الوقت الذى أغارت فيه كتيبة على أراضى حمص ، فقط لكى تقع فى كمين وتفقد كل ما غنمته من أسلاب ، ضرب الكونت ريموند والكونت فيليب الحصار حول حماه التى كان حاكمها في شدة المرض . غير أنه عندما جاء الجنود من دمشق ، انسحبا دون أن يحققا شيئا . ومن طرابلس ارتحل الكونت فيليب قاصدا أنطاكية حيث وافق على مساعدة الأمير بوهمند فى الهجوم على مدينة حارم ، التى كان يحكمها والى صلاح الدين السابق ، جومشتكين ، الذى تشاجر مع سيده صلاح الدين فقتله ، ولذا تمرد أتباعه فى حارم ضد الصالح ، لكن تمردهم

---

(٢٥) William of Tyre, xxi, 18-14, pp. 1027-35. يفترض أن كلا من ريموند أمير طرابلس وبوهمند أمير انطاكية كان يعارض تسيير حملة ضد مصر وثبّطا من عزيمة فيليب . لكن آل إيبيلين كانوا يشعرون بالغثيان من فيليب ، ونظرا لاعتيادهم التدخل مع ريموند ، فمن الجائز القبول بأن وليم الصورى قد بالغ . إذ كان مسؤولا عن التحالف البيزنطي ، ومن ثم أقلقه التخلى عن هذا التحالف ، وربما كان ما أبداه فيليب لاحقا من استعداد لمساعدة ريموند وبوهمند قد جعله يرتاب فيهما. أنظر أيضا Ernoul, p.33 الذى يذكر سخرية بلدوين (اوف إيبيلين) .

انتهى باقتراب الفرنج . وبعزيمة فاترة حاصر بوهمند وفيليب المدينة ، إذ لم تفلح محاولاتهما نسف أماكن في الأسوار ، وتمكن الصالح من ارسال فصيلة اخترقت صفوفهم لتعزيز الحامية . وعندما أرسل الصالح اليهما مبعوثيه يؤكدون أن العدو الحقيقى لكل من حلب وانطاكية هو صلاح الدين الذى عاد إلى سوريا ، وافقا على رفع الحصار . وعاد فيليب كونت فلاندرز إلى القدس فى عيد الفصح ، ثم أبحر على ظهر سفينة من اللاذقية إلى القسطنطينية(٢٦).

١١٧٧م : هزيمة صلاح الدين فى تل الجزر

كان صلاح الدين قد عبر الحدود من مصر يوم ١٨ نوفمبر . وكان جهاز استخباراته رائعا دائما؛ إذ علم أن التحالف الفرنجى البيزنطى قد انهار وأن كونت فلاندرز غائب فى الشمال ؛ فقرر شن هجوم مضاد مفاجئ أعلى الساحل داخل فلسطين . واستدعى فرسان المعبد كافة فرسان النظام للدفاع عن غزة ؛ بيد أن الجيش المصرى تقدم إلى عسقلان مباشرة . وكان الكونستابل همفرى (اوف تورون) مريضا مرضا شديدا ، وقد نهض الملك لتوه من فراش المرض ، فجمع ما استطاع جمعه من الجنود – ومجموعهم خمسمائة فارس – وأصطحب معه أسقف بيت لحم حاملا الصليب الحقيقى ، وأسرع إلى عسقلان ودخل القلعة قبل وصول الأعداء مباشرة . وكان قد استدعى كل قادر على حمل السلاح ليلحق به هناك ، لكن صلاح الدين اعترض السرايا الأولى وأسرها . وبعد أن ترك صلاح الدين قوة صغيرة لضمان بقاء الملك فى عسقلان، زحف على القدس . ولمرة واحدة فقط كان صلاح الدين مفرط الثقة بالنفس ؛ فلم يعد هناك أعداء بينه وبين العاصمة المسيحية ، ولذا أرخى لجنوده حبل الانضباط وسمح لهم بالتجوال فى انحاء الريف للنهب . وبشجاعة اليائس تدبر بلدوين إرسال رسالة إلى فرسان المعبد يطلب منهم التخلى عن غزة والانضمام إليه ؛ وعندما اقتربوا شق طريقه خارجا من عسقلان وسار بكل رجاله شمال الساحل إلى يبنة ومنها تحول إلى داخل البلاد . وفى يوم ٢٥ نوفمبر كان الجيش المصرى يعبر واديا صغيرا ضيقا بالقرب من قلعة تل الجزر جنوب شرق الرملة بأميال قليلة ، وفجأة هبط عليه فرسان الفرنج قادمين

---

(٢٦) William of Tyre, xxi, 25, 19, pp. 1036, 1047-9; Ernoul, p.34; Michael the Syrian, III, pp. 75-6; Abu Shama, pp. 189-92; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 76-7; Ibn al-Athir, pp. 630 3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 148-53.

من الشمال . ولقد كانت مفاجأة كاملة . وكان البعض من جنود صلاح الدين غائبين يجمعون المرعى ، و لم يكن لديه وقت لإعادة تجميع الباقين الذين هرب الكثير منهم قبل الصدمة الأولى . و لم ينقذ صلاح الدين نفسه سوىٰ حرسه المملوكى ، وأما الفصيلة التى صمدت فقد هلكت كلها أو كادت. وكان بلدوين فى المقدمة بين المسيحيين ؛ وساعد على احراز النصر شجاعة أمراء يبنة ، بلدوين وباليان ، وكذلك شجاعة ابنى زوجة ريموند ، هيو ووليم من امراء الجليل . وشوهد القديس جورج نفسه يحارب إلى جانبهم.

وفى غضون ساعات قليلة كان الجيش المصرى يسابق الريح فرارا إلى مصر ، وقد تخلى عن كل ما استلبه وعن الأسرى الذين اسرهم ؛ بل إن الجنود ألقوا بأسلحتهم ليتسنى لهم الفرار الأسرع . وتمكن صلاح الدين من الحفاظ على بعض معايير النظام ؛ غير أن عبور صحراء سيناء كان مؤلما ، مع مضايقات البدو الرحل للهاربين بلا حماية . وأرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسلا من الهجانة إلى القاهرة يؤكدون لمن تسول لهم أنفسهم التمرد أنه مازال على قيد الحياة ؛ وأعلن عن عودته إلى القاهرة فى سائر أنحاء مصر بالحمام الزاجل . لكن هيبته أصيبت اصابة شديدة[٢٧].

لقد كان نصرا عظيما أنقذ المملكة إلى حين . لكنه على المدى البعيد لم يغير الوضع؛ فموارد مصر لا حدود لها بينما الفرنج لا يزالون يعانون من نقص الرجال . ولو كان ممكنا للملك بلدوين أن يطارد الأعداء داخل مصر ، أو يهاجم دمشق هجوما خاطفا ، لأفلح فى سحق قوة صلاح الدين ، لكنه لا يستطيع المجازفة بجيشه هذا الصغير بهجوم فى غيبة المساعدة الخارجية ؛ وبدلا من ذلك قرر تشييد حصون قوية بطول الحدود الدمشقية ، إذ أن فقد بانياس قد أحدث الاضطراب فى النظام الدفاعى للمملكة. فبينما راح همفرى أمير تبنين يحصن منطقة تل هونين على الطريق من بانياس إلى طورون، شرع الملك فى بناء قلعة فى منطقة الأردن الأعلى بين بحيرة حولة وبحر الجليل ، لكى تسيطر على المخاضة التى شهدت المصارعة بين يعقوب والملاك[٢٨] ، وهى المخاضة التى تعرف أيضا بمخاضة الأحزان ؛ وكانت الأراضى الواقعة على جانبيها يقطنها المسلمون من الفلاحين والرعاة ، البعض يدين بالولاء لدمشق ، والبعض الآخر

---

(٢٧) William of Tyre, xxi, 24-20, pp. 1037-47; Ernoul, pp. 41-5; Michael the Syrian, iii, p. 375; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 75-6; Abu Shama, pp.184-7; Ibn al-Athir, pp. 627-35.

(٢٨) (المترجم): أنظر سفر التكوين، الإصحاح الثانى والثلاثين، الآيات ٢٤ وما بعدها.

للمسيحيين ، وكانوا يتمتعون بحرية الذهاب والإياب عبر الحدود التى كانت علامتها الوحيدة شجرة بلوط ضخمة ، وكان الفرنج قد تعهدوا بعدم تحصين مناطق العبور قط. وقد رغب بلدوين فى الإلتزام بالمعاهدة وتشييد القلعة فى مكان آخر ، لكن فرسان المعبد فرضوا عليه رأيهم . وشكى المسلمون المحليون نقض العهد لصلاح لدين ، الذى عرض على بلدوين أولا ستين ألف قطعة ذهبية ، ثم مائة ألف قطعة ذهبية للتخلى عن البناء . ولما رفض الملك ، أقسم صلاح الدين أن يتخذ احراء هو نفسه(٢٩).

وبعد الكارثة التى نزلت بصلاح الدين فى تل الجزر مكث فى مصر بضعة أشهر إلى أن أيقن أن كل شئ على مايرام تحت سيطرته . وفى نهاية ربيع عام ١١٧٨م عاد إلى سوريا وأمضى ما تبقى من العام فى دمشق . وكانت الأعمال الحربية الوحيدة فى ذلك العام تتألف من غارات قليلة وغارات مضادة(٣٠) . وأما فى المناطق الأبعد إلى الشمال فكان هناك سلام بين انطاكية وحلب ، وتحالف بين انطاكية وأرمينيا، التى أطيح بأميرها الخائن ، مليح ، بعد موت نور الدين مباشرة على يد ابن اخيه روبين الثالث . وكان روبين صديقا للفرنج الذين ساعدهم فى حصار حارم العقيم(٣١). كما سعى بوهمند الثالث إلى مصادقة الامبراطور ، وفى عام ١١٧٧م تزوج إحدى قريبات مانويل وتدعى ثيودورا ، كزوجته الثانية(٣٢).

---

(٢٩) William of Tyre, xxi, 26, pp. 1050-1; Ernoul, pp. 51-2; Abu Shama, pp.194-7; Ibn al-Athir, p. 634.. وكان صلاح الدين مشغولا آنذاك بتمرد محلى فى بعلبك . ويعبر مخاضة يعقوب الآن جسر يعرف باسم "جسر بنات يعقوب".

(٣٠) Ibn al-Arhir, p. 633.

(٣١) Sembat the Constable, p. 624; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p.509. وعن زواج روبين انظر ادناه ص ٤٨٠.

(٣٢) William of Tyre, xxii, 5, p.1069. تاريخ هذا الزواج ، وحتى اسم العروس ، محل خلاف . إذ أن *Lignages v*, p.446 يسميها إيرين Irene، ويجعل لها ابنة تسمى كونستانس ، ليست معروفة مع ذلك .وليس معروفا ما إذا كانت من آل كومنينوس أم انها على صلة قرابة بالامبراطور عن طريق امها. ويعتقد Rey ، فى Histoire des Princes d'Antioche', *Revue de l'Orient Latin*, 1896 m ii, pp. 379 82، أنها زوجة بوهمند الأولى . والارجح ان زوجته الأولى هى Orgillosa of Harenc، التى تظهر فى الوثائق (Rohricht, *Regesta*, pp.125, 1399, 5-1170).ويقول وليم يقبنا: "إن بوهمند ترك ثيودورا ليعيش مع سيبيلا".

١١٧٩م : موت همفرى أمير تبنين

وفي ربيع ١١٧٩م ، عندما بدأت الحركة الموسمية للقطعان ، انطلق الملك بلدوين لجمع الأغنام التى سوف تمر باتجاه بانياس من السهول الدمشقية ، وأرسل صلاح الدين ابن أخيه فاروق شاه ليرى ما يحدث هناك . وكان مقررا أن يخبر عمه عن طريق الحمام الزاجل بالاتجاه الذى يسلكه الفرنج . وفي يوم ١٠ ابريل انقض فاروق شاه فجأة على الأعداء في واد ضيق في غابة بانياس ، وبوغت الملك الذى لم يستطع تخليص جيشه الا بما أبداه الكونستابل القديم ، همفرى أمير تبنين من بطولة ، إذ صمد للمسلمين مع حرسه الشخصى إلى أن هرب الجيش الملكى . وجرح همفرى جرحا مميتا ، وقضى نحبه في حصنه الجديد في هونين يوم ٢٢ ابريل . وأعرب الجميع ، بل والمسلمون ، عن تقديرهم لشخصيته . لقد كان موته ضربة رهيبة للمملكة، إذ كان هو وحيدها من السياسيين الكبار الذى حظى باحترام الجميع .

وتابع صلاح الدين الانتصار بمحاصرة قلعة مخاضة يعقوب ، لكن الدفاعات كانت من القوة بحيث انسحب بعد ايام قليلة كى يعسكر أمام بانياس ، ومنها راح يرسل المغيرين إلى داخل الجليل وخلال لبنان لتدمير حصاد المحاصيل بين صيدا وبيروت . وجمع الملك بلدوين قوات المملكة واستدعى ريموند امير طرابلس للانضمام اليه ، وساروا أعلى طبرية وصفد إلى تبنين . وهناك علموا أن فاروق شاه وفرقة من المغيرين في طريق عودتهم من الساحل وهم محملين بالغنائم ، فانتقلوا إلى الشمال لمهاجمتهم في وادى مرج عيون الواقع بين نهر الليطاني والأردن الأعلى . غير أن صلاح الدين لاحظ من مرقب فوق تل شمال بانياس أن القطعان في الجهة المقابلة من الاردن تجرى مبعثرة في فزع ، فتحقق من أن الجيش الفرنجى يمر بها، فانطلق يطارده . وفي يوم ١٠ يونية ١١٧٩م ، وبينما كان الجيش الملكى يهزم فاروق شاه في مرج عيون ، انتقل الكونت ريموند وفرسان المعبد متقدمين قليلا باتجاه الأردن . وفي مدخل الوادى هبطوا على جيش صلاح الدين ، وشارك فرسان المعبد في المعركة على الفور ؛ بيد أن هجوم صلاح الدين المضاد دحرهم إلى الخلف منكبين على جنود بلدوين ، الذين كانوا يندحرون هم كذلك ؛ و لم يمض وقت طويل حتى كان الجيش الفرنجى كله موليا الأدبار . وتمكن الملك والكونت ريموند ، مع بعض رجالهما ، من عبور نهر الليطانى واللجوء إلى حصن الشقيف أرنون الواقع على مكان مرتفع على الضفة الغربية للنهر . وقتل من تبقى عبر النهر من الرجال جميعا، او جُمعوا فيما بعد . و لم يتوقف بعض الهاربين في قلعة الشقيف ، وانما انطلقوا مباشرة إلى الساحل ؛ حيث قابلوا في طريقهم

رينالد أمير صيدا مع جنوده المحليين ، وأخبروه أنه جاء بعد أن سبق السيف العذل ، ولذا عاد أدراجه رغم أنه لو تقدم إلى الليطاني لأنقذ الكثير من الهاربين الآخرين .

وكان من بين أسرى صلاح الدين أودو (اوف سانت أماند) ، السيد الأعظم لفرسان المعبد ، الذى كان تهوره السبب الرئيسى للهزيمة النكراء ، وبلدوين امير يبنة ، وهيو امير الجليل . وسرعان ما افتدى هيو بعد أن دفعت أمه ، كونتيسة طرابلس ، خمسة وخمسين الف دينار من دينارات صور . وأما بلدوين امير يبنة فقد طلب صلاح الدين مائة وخمسين الف دينار ، وهي فدية ملك ، وكذلك كان صلاح الدين يقيس اهمية بلدوين . وبعد أشهر قليلة أفرج عن بلدوين لقاء الافراج عن ألف أسير مسلم وبالوعد بأن يبحث عن المال . واقترح مبادلة أودو بأسير مسلم هام ؛ لكن السيد الأعظم كان بالغ الغرور بحيث لم يوافق على أن هناك من يعادله فى اهميته . فبقى فى غيابة الجب فى دمشق إلى أن مات فى العام التالى .

١١٨٠م : هدنة عامين

لم يتابع صلاح الدين نصره بغزو فلسطين ، ربما لأنه سمع بوصول جماعة كبيرة من الفرسان القادمين اليها من فرنسا بقيادة هنرى الثانى (اوف شامباني) ، وبطرس (اوف كورتناى) ، وفيليب أسقف بوفيه ؛ وبدلا من ذلك هاجم قلعة بلدوين فى مخاضة يعقوب ، وبعد أن حاصرها لخمسة ايام ، من ٢٤ إلى ٢٩ أغسطس ، أفلح فى نسف جزء من الاسوار واقتحمها وقتل المدافعين عنها ودمرها إلى أن سواها بالارض . ولم يخرج الزائرون الفرنسيون لمحاولة انقاذ القلعة وإنما سارعوا بالعودة إلى بلدهم . ومرة أخرى أثبت صليبيو الغرب أنهم بلا فائدة البتة[٣٣].

وبعد أن قام الأسطول المصرى بغارة ناجحة فى اكتوبر على حركة السفن فى نفس ميناء عكا، وبعد غارة اسلامية ضخمة داخل الجليل فى وقت مبكر من العام الجديد ، أرسل الملك بلدوين يطلب الهدنة من صلاح الدين . فوافق صلاح الدين . وقد

---

(٣٣) William of Tyre, xxi, 30-27, pp. 1052-9; Ernoul, pp. 53-4; Abu Shama, pp.194-202; Ibn al-Athir, pp. 635-6; Maqrisi, *Revue de l'Orient Latin*, vol. viii, pp. 530-1. تدور بعض الشكوك حول ماإذا كان أودو (اوف سانت أماند) قد قتل ، لكن كتابا بابويا مرصوصا بالرصاص أرسله البابا ألكسندر الثالث يفترض أنه عاش كأسير . انظر d'Agbon, 'La Mort d'Odon de Saint'Amand' in *Revue de l'Orient Latin*, vol. xii, pp. 279-82.

حدث جفاف شديد طوال الشتاء وباكورة الربيع وأحدقت المجاعة بسوريا كلها ، وليس هناك من يرغب في غارة تدمر المحاصيل الهزيلة ، وربما قرر صلاح الدين ضرورة أن يسبق غزو حلب غزو القدس . وفي مايو من عام ١١٨٠م وقع ممثلو بلدوين وصلاح الدين على هدنة لمدة سنتين ، واستبعدت طرابلس من الهدنة . على انه بعدما أغارت البحرية المصرية على ميناء طرطوس ، وبعد صد صلاح الدين من غارته على البقاع ، عقد معاهدة مماثلة مع ريموند(٣٤) . وفي الخريف سار شمالا إلى الفرات حيث تشاجر الأمير الأرتقي نور الدين صاحب حصن كيفا - والذى أصبح حليفه - مع قلج ارسلان السلجوقي . ذلك أن نور الدين كان قد تزوج ابنة السلطان ، لكنه أهملها بسبب إحدى الراقصات . وفي ٢ اكتوبر ١١٨٠م عقد صلاح الدين مؤتمرا بالقرب من المصيصة، حضره امراء الاراتقة ومبعوثون من قلج ارسلان ، ومن سيف الدين صاحب الموصل ، ومن روبين الأرميني . وأقسموا على أن يظلوا جميعا في سلام طوال السنتين التاليتين(٣٥).

وأما الملك بلدوين فقد أمضى فترة الهدنة في محاولة بناء جبهة مسيحية ضد الاسلام فذهب وليم الصوري ، وهو رئيس أساقفة منذ عام ١١٧٥م ، إلى روما عام ١١٧٩م لحضور مجلس لاتيراني(٣٦) . وفي طريق عودته قام بزيارة إلى القسطنطينية في الأيام الأخيرة من السنة ، وكان الامبراطور مانويل على ما اعتاد عليه من إظهار الكياسة والود ، لكن عين وليم النافذة استطاعت أن ترى فيه رجلا ميتا . لم يبرأ مانويل قط من صدمة معركة ميزيوسيفالوم مع أنه أظهر اهتماما كبيرا بسوريا ، ومكث وليم هناك سبعة أشهر ، وحضر الاحتفالات العظيمة التي اقيمت بمناسبة زواج ابنة مانويل ماريا، وكانت عانسا في الثامنة والعشرين من عمرها ، على رينيه (اوف مونتفرات)، أخي زوج سبيللا ؛ وزواج ابن مانويل ، وهو ابن عشر سنوات على الأميرة آجنس الفرنسية وعمرها تسع سنين . وعاد برفقة مبعوثين امبراطوريين رافقوه حتى انطاكية(٣٧). وكان

(٣٤) .William of Tyre, xxII, 3-1, pp. 1053-6; Abu Shama, p. 211; Ibn al-Athir, p. 642.

(٣٥) Ibn al-Athir, pp. 639-40.

(٣٦) (المترجم): المجلس اللاتيراني Lateran Council. تنسب التسمية الى القديس جون لاتيران St John Lateran، او الى كنيسته المساة باسمه ، وهي كنيسة البابا الكاتدرائية على موقع قصر Plautius Lateranus البازيليكي الرائع في روما . والمجالس اللاتيرانية Lateran Councils هي خمسة مجالس عامة للكنيسة الغربية عقدت في Lateran basilica، (١١٢٣م و١١٣٩م و١١٧٩م و١٢١٥م و١٥١٢-١٥١٧م) ويعتبرها الكاثوليك على أنها مجالس مسكونية او عالمية.

(٣٧) . William of Tyre, xxII, 4, pp. 1066-8.

الأمير الأرمينى روبين متلهفا على تقوية تحالفه مع الفرنج ، ففى باكورة عام ١١٨١م جاء حاجا إلى القدس ، وهناك تزوج الليدى ايزابيلا أميرة تبنين ، بنت ستيفانى اميرة منطقة الاردن[٣٨]. وأعلن حتى اليعاقبة السيريان ولاءهم للقضية المسيحية المتحدة ، عندما زار بطريقهم - ميخائيل المؤرخ - القدس وقابل الملك مقابلة طويلة[٣٩].

كما كانت هناك آمال معلقة على حليف من الشرق الأبعد . ذلك أنه منذ عام ١١٥٠م ، ذاعت رسالة فى أنحاء اوروبا الغربية تدل على أن الذى كتبها ذلك العاهل العظيم بريستر جون[٤٠] إلى الامبراطور مانويل . وبرغم أنها من تزييف أسقف ألمانى بصورة شبه يقينية ، فإن محتواها الذى يتحدث عن ثروة وورع ذلك القس الملك فائق الروعة بحيث يمتنع تصديقه . وفى عام ١١٧٧م أرسل البابا طبيبه فيليب برسالة يطلب فيها معلومات ومساعدة ، ويبدو أن فيليب أنهى رحلته فى الحبشة ، ولم يكن لها نتائج حقيقية[٤١].

١١٨٠م : سبيلا وبلدوين أمير ابيلين

ومع ذلك لم يأت فارس قوى من الغرب ، ولا حتى للزواج من الأميرة سبيلا وخلافة العرش . وعندما كان فريدريك رئيس أساقفة صور فى روما ، أرسل إلى هيو الثالث البرجندى ، وهو من سلالة البيت الملكي كأبيه ، يرجاه أن يقبل الترشيح ؛ فوافق هيو بادئ الرأى ، لكنه فضل البقاء فى فرنسا . وفى تلك الأثناء وقعت سبيلا نفسها فى حب بلدوين أمير ابيلين . وكانت أسرة إبيلين الآن ، برغم أصلها المتواضع ، فى مقدمة نبلاء فلسطين . وبموت باليان العجوز الذي أسس الأسرة ، مُنحت إقطاعية إبيلين نفسها لفرسان المستشفى ، لكن الرملة كانت من نصيب ابنه الأكبر هيو ، وبموت هيو مرت إلى أخيه بلدوين الذى كان قد تزوج وريثة بيسان ، ولكن نبذها

---

(٣٨) Sembat the Constable, p. 627. ويشير Ernoul, p.31 الى الزواج ، ويطلق على روبين ابن ثوروس . كما أورد (pp.25-30) زيارة ثوروس الى القدس ، وهى غير مسجلة فى أى مكان آخر ، وربما كانت وهمية .

(٣٩) Michael the Syrian, III, p.379.

(٤٠) (المترجم) بريستر جون Prester John: ملك مسيحى أسطوري فى العصور الوسطى وقسيس ، يقال إنه كان يحكم إما فى الشرق الأقصى أو فى اثيوبيا.

(٤١) Rohricht, *Regesta*, pp.67, 145 . وعن اسطورة بريستر جون انظر Marinescu, 'Le Prêtre Jean' in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. x.

بذريعة قرابة الدم الشديدة التي تحرم الزواج . والآن كان الابن الأصغر باليان زوج الملكة ماريا كومنينا ، ولورد مدينة نابلس التي كانت مهرها ؛ وكان بلدوين وباليان الأكثر نفوذا من كل النبلاء المحليين ؛ وبرغم ما كان عليه بلدوين من نسب غير متميز ، كان لزواجه من سبيلا أن يحظى بشعبية في سائر انحاء البلاد . وقبل إعداد ترتيبات الخطوبة ، وقع بلدوين في الأسر في مرج عيون ؛ وكتبت له سبيلا وهو في سجنه تؤكد له حبها ؛ لكنها بعد أن اطلق سراحه قالت له ببرود إنها لا تستطيع أن تتخيل الزواج بينما هو ما يزال مدينا بفدية ضخمة . وكان جدلها معقولا ، وان كان مثبطا ؛ ولم يعرف بلدوين كيف يدبر المال ، فرحل إلى القسطنطينية وتسولها من الامبراطور ، الذي دفع الفدية كلها لما يعرف عنه من شغف باللفتات الكريمة. وعاد بلدوين منتصرا إلى فلسطين في وقت مبكر من ربيع ١١٨٠م ، لا لشئ إلا ليجد سبيلا مخطوبة لرجل آخر[٤٢].

ولم تكن الليدى آجنس تستلطف قط أقارب أزواجها على اختلافهم وكانت تستهجن آل إيبيلين . وقبل بضع سنين جاء إلى فلسطين فارس من بواتو ، هو أماليك الإبن الثاني لكونت لوسينان . وكان جنديا جيدا ، وبموت همفرى أمير تبنين عُيّن كونستابلا. وفي نفس الوقت تقريبا تزوج إيشيفا ، إبنة بلدوين (اوف إيبيلين) ؛ وكان أيضا عشيقا لآجنس . وكان له أخ أصغر في فرنسا ، يدعى جوى . وبتشجيع من آجنس ، بدأ يخبر سبيلا عما كان يتحلى به هذا الشاب من وسامة غير عادية وفتنة إلى أن ترجّته أخيرا في إحضاره إلى فلسطين . وفي الوقت الذى كان فيه بلدوين في القسطنطينية ، أسرع اماليك إلى فرنسا لإحضار جوى ولإعداده للدور الذى كان مقررا أن يعلبه . ووجدته سبيلا على نفس قدر الوسامة التى قيلت لها ، فأعلنت أنها تنتوى الزواج منه . واعترض أخوها الملك ولكن دون جدوى ؛ إذ كان جوى - كما اتضح للجميع - صبيا ضعيفا أحمقا . واغتاظ بارونات فلسطين لاحتمال أن يصبح مليكهم المقبل هذا الابن الأصغر لنبيل فرنسى تافه ، وكل ما يميزه هى أنه من ذرية ميلوسين الأشبه بجنيات الماء ؛ غير أن آجنس وسبيلا راحتا تضايقان الملك المرهق المريض إلى أن وافق . وفي عيد الفصح من عام ١١٨٠م تزوج جوى من سبيلا ومنح اقطاعيتى يافا وعسقلان[٤٣].

---

(٤٢) لم يذكر أحد قصة حب بلدوين (اوف ايبلين) سوى Ernoul, pp.48, 56-9 . وإرنول كان فى خدمة أخي بالدوين ، باليان ، ولذلك كان على علم جيد بشؤون الأسرة .

(٤٣) William of Tyre, xxII, I, pp. 1064-5; Ernoul, pp. 59-60 ؛ ويقول Benedict of

١١٨٠ م : البطريق هيراكليوس

لأسباب سياسية، وكذلك شخصية، كان آل إيبلين في غاية الحنق ، وتفاقم الشقاق بينهم وبين آل كورتناى ، يساندهم فى ذلك رينالد (اوف شاتيلون) . وفى اكتوبر ١١٨٠م حاول الملك التوفيق بينهما بأن خطب أخته غير الشقيقة إيزابيلا إلى همفرى الرابع أمير تبنين . وكانت ايزابيلا ابنة زوجة باليان (اوف ابيلين)، وهمفرى ابن زوجة رينالد (اوف شاتيلون) . وفضلا عن ذلك كان همفرى ، حفيدا ووريثا للكونستابل الكبير ووريثا شرعيا عن طريق أمه لاقطاعية منطقة الأردن ، ولذلك كان أكثر النبلاء المحليين حدارة ، ومن شأن الزواج أن يضفى رونقا على جدارته . ونظرا لصغر سن الأميرة ، التى كانت فى الثامنة ، تقرر تأجيل الزواج الفعلى لثلاث سنوات(٤٤) . على أن الخطوبة لم تصلح شيئا . إذ بعد أيام قلائل استعرض آل كورتناى قوتهم بتعيين بطريق جديد . ذلك أن البطريق اماليك مات يوم ٦ أكتوبر ؛ وفى ١٦ أكتوبر ، وبضغط من الليدى آجنس ، انتخبت هيئة الكنيسة فى القدس كخليفة له هيراكليوس ، رئيس أساقفة قيسارية . وكان قسيسا لا يكاد يعرف القراءة والكتابة أتى من أوفرن Auvergne ، وكانت له وسامة لا قِبل لآجنس بمقاومتها ، وارتقى فى المناصب بما كان لها من حظوة . وكانت محظيته الحالية زوجة أحد تجار الجوخ فى نابلس ، تدعى باشيا دى ريفيرى ، وسرعان ما اشتهرت فى سائر أنحاء المملكة بأنها السيدة البطريقة Madame la Patriarchesse. وجاء وليم الصورى من أسقفيته صاخبا فى محاولة لمنع الإنتخاب ولكن دون طائل . وسمّاه الناخبون على أنه اختيارهم الثانى ، لكن الملك صدّق على تعيينه بأمر من أمه(٤٥).

وباتت القوة الآن راسخة فى قبضة آل كورتناى ولوسينان وحلفائهم رينالد (اوف

Peterborough,1,p.343 إن سيبلا كانت قد اتخذت بالفعل جوى عشيقا لها. وعندما اكتشف الملك ذلك ، أراد أن يقتل جوى ، ولكن بناء على طلب فرسان المعبد أبقى على حياته وسمح له بالزواج .

(٤٤) William of Tyre, xxii, 5, pp. 1068-9; Ernoul, pp. 81-2. واستنادا الى وليم ، تخلى همفرى عن أراضيه فى الجليل للملك مقابل الارتباط وأعطى بلدوين تورون لأمه . ويقول ابن جبير Ibn Jubayr, ed.Wright, p. 304 إنها ملك "الخنزيرة بنت الخنزير لورد عكا" ، وإن حنين ملك عمه جوسلين .

(٤٥) William of Tyre, xxii, 4, p.1068، أورد ملحوظة مقتضبة توخى فيها حذف أى أمر يتعلق بترشيحه . ويقول Ernoul, pp.82-4 بالتحديد إن آجنس أصرت على انتخاب هيراكليوس "لأن جماله محبوب" (pour sa biauté l'ama)؛ وسبق ان جعلته رئيس أساقفة قيصرية . ويضيف أن وليم حذر الكهنة من انتخابه . ويذكر *Estoire d'Eracles,* ii, pp.57-9 أن وليم الصورى تنبأ بأن الصليب الذى وجده هيراكليوس ، سوف يضيعه هيراكليوس .

شاتيلون) والبطريق الجديد. وفى شهر ابريل ١١٨١م وجهوا ضربتهم إلى وليم الصورى الذى اعتبروه خطرا عليهم لأنه كان مدرس الملك سابقا. وبذريعة تافهة حكم عليه هيراكليوس بالطرد من الكنيسة . وبعد محاولات عقيمة لرأب الصدع رحل وليم الصورى عام ١١٨٢م أو ١١٨٣م إلى روما للدفاع عن قضيته لدى البلاط البابوى ، ومكث هناك حيث مات ، ويقال إن البطريق أرسل وراءه جاسوسا دس له السم(٤٦). وكان ريموند امير طرابلس ثانى المستهدفين للهجوم . فعندما كان يتهيأ في وقت مبكر من عام ١١٨٢م للانتقال من كونتيته إلى أراضى زوجته فى الجليل ، منعه ضباط الملك من دخول المملكة ؛ إذ أن آجنس وأخاها جوسلين ألقيا فى روع الملك أنه يتآمر ضد التاج . ولم يرضخ الملك بلدوين إلا بعد الاحتجاجات الغاضبة من بارونات المملكة ؛ وعلى مضض رضى بمقابلة ريموند الذى أقنعه ببراءته(٤٧).

١١٨٠–١١٨٢م : عهد ألكسيوس الثانى

ربما كانت المكائد التى تحاك حول الملك المجذوم الميت أقل خطورة لو لم يكن الوضع الخارجى حساسا. ففى ٢٤ سبتمبر فقد الفرنج أهم حلفائهم بموت الامبراطور مانويل فى القسطنطينية. وكان يحبهم حبا أصيلا ، كما كان يعمل لمصلحتهم بصورة أصيلة ، إلا عندما كان الأمر يصطدم بمصالح الامبراطورية. كان رجلا مؤثرا حاد الذكاء ، ولكنه لم يكن امبراطورا عظيما ؛ إذ أن طموحه للهيمنة على العالم المسيحى أدى به إلى مغامرات لا تقدر الامبراطورية على خوضها . وأرسل جنوده إلى ايطاليا والى داخل هنجاريا فى الوقت الذى كان وجودهم مطلوبا على حدود الأناضول أو فى البلقان . وتعامل مع صندوق ثروته كما لو كان لا ينفد أبدا . وكانت كارثة

---

(٤٦) Ernoul, pp. 84-6: *Estoire d'Eracles*, II, pp. 57-9، الذى يقول إن الذى دس السم لوليم هو طبيب أرسله هيراكليوس الى روما، وأن هيراكليوس نفسه زار روما بعد ذلك . وتاريخا رحيل وليم وموته مجهولان . ويتوقف تأريخه فى عام ١١٨٣م. وقد زار هيراكليوس روما عام ١١٨٤ (انظر ادناه، ص ٤٤٤). ومن الناحية الأخرى جاء ذكر وليم فى وثيقة للبابا ايربان الثالث مؤرخة فى ١٧ أكتوبر ١١٨٦م على انه القاضى فى الدعوى القانونية المتخاصم فيها نظام فرسان المستشفى و أسقف بولونياس (Rohricht, *Regesta, Addiamenta*, p.44). ولذلك يفترض Rohricht أنه عاد الى الأراضى المقدسة (*Kreuzzugen*, p.491, n.5 *Geschichte der*) . والأكثر ترجيحا أن المحفوظات البابوية وقعت فى خطأ بشأن الإسم . وكان Josias رئيسا لأساقفة صور فى ٢١ اكتوبر ١١٨٦م (Rohricht, *Regesta*, p. 173).

(٤٧) William of Tyre, XXII, 9, pp. 1077-9.

ميريوسيفالوم ضربة مميته لجيشه الذى كان لديه من المسؤوليات ما يثقل كاهله . وفى سلسلة طويلة من التنازلات التجارية التى منحها للمدن الايطالية نظير مميزات دبلوماسية عاجلة ، أضعف ما كان عليه رعاياه من رفاهية اقتصادية ، ومن ثمّ لم تملأ الخزانة الامبراطورية مرة اخرى قط . وبهرت روعة بلاطه العالم بحيث ساد الاعتقاد أن الامبراطورية أعظم مما هى عليه بالفعل ؛ ولو أنه عاش أطول مما عاش فربما كان أسطوله وذهبه ، مع ذلك ، شيئا ذا قيمة للفرنج . وكانت شخصيته هى التى حافظت على تماسك الامبراطورية ؛ ولكن موته كشف عن انهيارها . ولقد صارع الموت متشبثا فى عناد بنبوءات منحته أربعة عشر عاما أخرى يعيشها ، فلم يعبأ بالترتيب للوصاية التى سوف يحتاجها ابنه(٤٨).

كان الامبراطور الجديد ، ألكسيوس الثانى ، فى الحادية عشرة من عمره . وجريا على ما اعتادت عليه بيزنطة من سوابق راسخة منذ القدم تولت الامبراطورة الأم الوصاية . لكن الامبراطورة ماريا لاتينية من انطاكية ، وهى أول لاتينى يحكم الامبراطورية ، ولكونها لاتينية لم تكن محبوبة من أبناء القسطنطينية ؛ كما أن حب مانويل للاتين كان محل ازدراء لفترة طويلة ، وقد أضافت المنازعات الكنسية التى دبت فى انطاكية مرارة على مرارة لدى البيزنطيين ؛ إذ لم ينس أحد البتة مرور الصليبيين الصاخب فى أراضى الامبراطورية ، وكانت ذكريات المذابح فى قبرص ، والمجازر التى اقترفها البنادقة وأبناء بيزا وجنوا لا تزال عالقة بالأذهان . وأبغضهم جميعا التجار الايطاليون الذين كانوا يتبخترون زهوا فى القسطنطينية ، مغتبطين بتحكمهم فى تجارة الامبراطورية التى كانوا دائماً يحصلون عليها باعتدائهم على المواطنين المسالمين فى المقاطعات . واتخذت الامبراطورة مستشارا لها ، وكما كان يُظن ، عشيقا ، ابن أخ لزوجها ، بروتوسيباستوس ألكسيوس كومنينوس ، عم الملكة ماريا من القدس . وكان أحمقا لا يحظى بشعبية . وجنحا معا إلى العنصر اللاتينى ولا سيما إلى التجار الايطاليين. وقامت المعارضة فى وجه الأمبراطورة تقودها ابنة زوجها، بورفيروجينت ماريا ، وزوجها رينيه (اوف مونتفرات) . وفشلت مؤامرتهما فى قتل المحبوب ؛ لكنهما عندما لاذا بكنيسة القديسة صوفيا ، مضى شأوا أبعد فى الاساءة إلى الجماهير عندما دنّس الكنيسة . وأرغمت الامبراطورة على العفو عن المتآمرين ، لكنها فى وضعها هذا غير المأمون توسلت إلى أخى زوجها، بيلا الثالث ملك هنجاريا كى يأتى لإنقاذها . وكان

(٤٨) أنظر Chalandon, *op. cit* pp. 605-8. ويذكر William of Tyre, xxII, 5, p.1069 موته .

ابن عم زوجها ، أندرونيكوس كومنينوس ، الذى غُفِر له ما قضاه فى الشرق من حياة الغواية ، يعيش الآن متقاعدا فى بونتوس[٤٩]، وقد تذكر رفاقه شجاعته وفتنته، وعندما قدموه عليهم ليكون زعيما وطنيا كانت استجابته سريعة ؛ وفى اغسطس ١١٨٢م سار عبر الأناضول، وبسهولة هزم الجنود القلائل الذين لم ينضموا إلى صفوفه . وأما الامبراطورة فسرعان ما وجدت نفسها بمفردها ومعها مجرد اللاتينيين لمساعدتها. وباقتراب اندرونيكوس من البوسفور ، انقض ابناء القسطنطينية فجأة على كل اللاتين فى المدينة ، وقد أثارت الغطرسة اللاتينية المذبحة ؛ على أن مسارها المرعب صدم الكثير من أكثر البيزنطيين وطنية ، ولم ينج سوى القليل من التجار الايطاليين الذين هرعوا إلى سفنهم وابحروا غربا مغيرين على الشواطئ التى مروا بها. وبذا أصبح الطريق إلى القسطنطينية مفتوحا لأندرونيكوس .

وأول ما بدأ به هو القضاء على خصومه ؛ فألقى بروتوسيباستوس في السجن وفقأ عينيه بقسوة . وماتت بروفيروجينيت ماريا وزوجها ميتة غامضة . وأما الامبراطورة الأم فقد حُكم عليها بالإعدام خنقا وأُجبر ابنها نفسه على التوقيع على الحكم . وأصبح أندرونيكوس امبراطورا مشاركا ، وبعد ذلك بشهرين ، فى نوفمبر ١١٨٢م ، اغتيل الامبراطور الصبى الكسيوس الثانى نفسه ، وتزوج أندرونيكوس الذى كان في عامه الثاني والستين من أرملته آجنس الفرنسية البالغة من العمر الثانية عشرة سنة .

وبخلاف حالات القتل هذه ، بدأ اندرونيكوس عهده بداية طيبة ؛ فطهّر الخدمة المدنية من موظفيها الفاسدين والزائدين عن الحاجة ، وأصر على سيادة العدالة وصرامة القانون ، وأرغم الأثرياء على دفع ضرائبهم، ووفر الحماية للفقراء من الاستغلال . ولم يحدث لقرون أن كانت المقاطعات محكومة بمثل هذا الحكم الجيد. بيد أن اندرونيكوس كان خائفا وله العذر . ذلك أن الغيرة راحت تنهش الكثيرين من أقربائه، بينما كانت الطبقة الأرستقراطية تزدرى سياسته ، وكانت الشؤون الخارجية تتوعد بالأخطار . وتحقق من الإنطباع الرهيب الذى تركته مذبحة ١١٨٢م فى الغرب ، فسارع ليس فقط إلى ابرام معاهدة مع البندقية يعد فيها بتعويض سنوى عن خسائرها ، وانما سعى كذلك إلى تهدئة البابا بتشييد كنيسة فى العاصمة لإقامة الطقوس اللاتينية ، وشجع تجار الغرب على العودة . بيد أن ألد أعداء بيزنطة كانا امبراطور هوهينشتوفن (الألمانى) وملك صقلية، وفى عام ١١٨٤م حدث زواج مشؤوم بين ابن الامبراطور فريدريك، هنرى،

(٤٩) (المترجم) بونتوس Pontus: مملكة قديمة شمال شرق آسيا الصغرى على البحر الأسود.

وأخت وليم الثانى والوريثة، كونستانس . ولعلمه بأن صقلية سرعان ما ستهاجمه، فقد أحب اندرونيكوس أن يستوثق من حدوده الشرقية؛ ووجد أن نجم صلاح الدين فى ارتفاع هناك، ولذا قلب سياسة مانويل رأسا على عقب بعقد معاهدة مع صلاح الدين يطلق فيها يده ضد الفرنج فى مقابل تحالفه معه ضد السلاجقة ، ويبدو انهما اتفقا كذلك على تفاصيل تقاسم الغزوات المقبلة ومجالات النفوذ.

١١٨٥م : سقوط اندرونيكوس كومنينوس

على أن المعاهدة كانت عقيمة . إذ أن خشية اندرونيكوس على نفسه فى القسطنطينية دفعته إلى الشروع فى اتخاذ اجراءات قمعية تزايدت فى وحشيتها حتى لم يعد أحد فى العاصمة يشعر بالأمان . و لم يوجه ضربته إلى الارستقراطيين فحسب ، وانما اعتقلت شرطته حتى التجار والعمال البسطاء لأوهى اشتباه فى التآمر ، فكانت عيونهم تُفقأ أو كانوا يرسلون إلى حيث تُقصَل رؤوسهم . وعندما هبط إلى البر فى عام ١١٨٥م جيش صقلى فى إيبيروس وزحف على ثيسالونيكا، تملك الذعر أندرونيكوس. وأسفر ما أقدم عليه من اعتقالات بالجملة ، وما ارتكبه من اعدامات ، إلى أن دفعت بالشعب كله إلى الثورة التى تفجرت عندما افلح أحد أبناء عمومة الامبراطور ، هو ايزاك أنجيلوس ، من الهرب من سجانيه إلى مذبح القديسة صوفيا والتمس العون من هناك ، وكان يتصف بكراهيته للإساءة . بل أن الحرس الشخصى المحيط بأندرونيكوس تخلوا عنه ؛ فحاول عبثا الهرب عبر آسيا ، لكنهم امسكوا به وطافوا به فى انحاء المدينة على جمل أجرب ، ثم عذبته الجماهير الهائجة ومزقته إربا حتى الموت . وأعلن عن تنصيب ايزاك انجيلوس امبراطورا ، فتمكن من الحفاظ على نوع من النظام وعقد سلاما مهينا مع ملك صقلية ، لكنه لم تكن له أية فعالية كحاكم . لقد غدت الامبراطورية القديمة قوة من الدرجة الثالثة بنفوذ طفيف فى السياسة العالمية(٥٠).

وأدى اضمحلال بيزنطة إلى قلب موازين القوة فى الشرق . وقد ابتهج لذلك امراء أرمينيا وانطاكية ، واحتفلوا بخلاصهم من بيزنطة بأن تشاجروا مع بعضهم البعض . فما أن سمع بوهمند الثالث بنبأ وفاة مانويل حتى نبذ زوجته اليونانية كى يتزوج سيدة انطاكية منحلّة تدعى سيبيلا ؛ و لم يكن البطريق ايمرى قد استحسن الزواج اليونانى ،

(٥٠) عن عهد اندرونيكوس انظر Nicetas Choniates, pp. 356-463. ويورد William of Tyre, xxII, 13-10 pp. 1079-86 عرضا مفيدا بما فيه الكفاية عن استخلاف اندرونيكوس .

ولكن الزنا صدمه ، فأصدر مرسوما بطرد بوهمند من الكنيسة ، وفرض على المدينة الحرمان الدينى ، وانسحب مرة اخرى إلى القصير . وكان نبلاء انطاكية على حق فى بغضهم لسيبيلا ، إذ كانت جاسوسة تتلقى الأموال من صلاح الدين لقاء معلومات تتصل بقوة الجيوش الفرنجية وتحركاتها . فساند النبلاء البطريق ايمرى ، وأطلت الحرب الأهلية برأسها لولا أن أرسل الملك بلدوين وفدا كنسيا برئاسة البطريق هيراكليوس للتحكيم . ووافق البطريق ايمرى على رفع الحرمان المفروض على المدينة ، ولكن ليس الطرد لبوهمند ، لقاء تعويض مالى ، وتم الإعتراف بسبيلا اميرة . ولم يرض الكثير من النبلاء بالتسوية فهربوا إلى بلاط روبين . وفى نهاية عام ١١٨٢م زادت العلاقات بين الأميرين تعقيدا عندما تمرد محافظ كيليكيا البيزنطى ، ايزاك كومنينوس ، على اندرونيكوس وطلب المساعدة من برهمند ضد روبين ، وقبل مجئ جنوده فى طرسوس . وعلى الفور غير بوهمند من رأيه وباع طرسوس والمحافظ لروبين ، ثم ندم على ذلك . وطلب فرسان المعبد فدية عن ايزاك على فهم أن القبارصة المتعاطفين معه سيدفعونها لاحقا ، وعلى الأثر انسحب ايزاك إلى قبرص حيث نصب نفسه امبراطورا مستقلا وتناسى الدين . ثم إن روبين ابتلع إمارة هيثوميانز الارمينية الصغيرة التى بقيت فى لامبرون شمال غرب كيليكيا تحت حماية القسطنطينية ، وكان ذلك بمثابة الانذار لجيرانه. وهكذا ادى توسيعه لسلطته إلى أن شعر بوهمند بالخطر ، فدعاه عام ١١٨٥م إلى مأدبة مصالحة فى انطاكية واعتقله لدى وصوله . غير أن أخا روبين ، ليو ، أنهى غزو هيثوميانز ، وهاجم انطاكية . وأفرج عن روبين بعدما تنازل لبوهمند عن المصيصة وأدنا، لكنه سرعان ما استردهما لدى عودته إلى كيليكيا وأعلن عن نفسه سيدا للمقاطعة كلها . وأغار بوهمند بغارات عقيمة لم تحقق شيئا(٥١).

١١٨١م : رينالد (اوف شاتيلون) ينقض المعاهدة

كانت النزاعات الدائرة بين أقزام الزعماء المسيحيين ملائمة للغاية لصلاح الدين . فلا بيزنطة ولا حتى فرنج شمال سوريا سيعرقلون تقدمه ، كما ولن يرسلوا العون إلى

(٥١) William of Tyre, xxii, 7-6, pp. 1071-4; William of Tyre, *Latin Continuation*, p. 208; Ernoul, p. 9; Nicetas Choniates, pp. 376-7; Neophytus, *De Calamitatibus Cypri*, clxxxvii; Michael the Syrian, iii, pp. 389-94; Sembat the Constable, p.628; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-10. وللاطلاع على جاسوسية سيبلا انظر Ibn al-Athir, pp. 729-30; Abu Shama, p. 374.

مملكة القدس . وكانت الدولة الوحيدة في الشرق التي حظت بالاحترام فيما بين المسلمين هي مملكة جورجيا النائية ، والتي كانت تتضخم على حساب أمراء ايران السلاجقة المنهمكين في مصاعبهم التي كانت ملائمة تماما للسلطان(٥٢). أما والحالة هكذا ، كان من اللازم للمملكة أن تحافظ على هدنة ١١٨٠م . لكن رينالد (اوف شاتيلون) ، وهو الآن لورد منطقة الأردن ، استعصى على فهمه سياسة تسير بما لا يتفق مع رغباته ؛ إذ بمقتضى الهدنة يستطيع التجار من المسيحيين والمسلمين على السواء أن يرتحلوا في أمان في أراضي كل من الجانبين ، وأضنى رينالد أن يرى القوافل الاسلامية الثرية في المتناول تمر دون أن يلحقها أذى . وفي صيف ١١٨١م ، ضعف أمام الإغراء فقاد جنوده المحليين شرقا إلى داخل الجزيرة العربية إلى تيماء بالقرب من الطريق المتجه من دمشق إلى مكة ؛ وبالقرب من الواحة انقض على قافلة كانت مرتحلة في أمان إلى مكة وانسل هاربا بكل بضائعها، بل يبدو انه كان يتأمل فكرة السير جنوبا لمهاجمة المدينة المنورة، لكن صلاح الدين ، الذي كان في مصر، أرسل حملة سريعة بقيادة ابن اخيه فاروق شاه من دمشق إلى داخل منطقة الأردن جعلت رينالد يسرع بالعودة . واشتكى صلاح الدين إلى الملك من خرق المعاهدة وطلب تعويضا ؛ واعترف بلدوين بعدالة المطلب ؛ وأرسل المبعوثين على جناح السرعة إلى رينالد الذي رفض دفع أية تعويضات رغم ذلك . وقد أيده أصدقاؤه في المحكمة العليا إلى أن ترك الملك الضعيف الموضوع بلا حل . لكن صلاح الدين تابعه ؛ فبعد أشهر قليلة ، اضطر الجو العاصف أن يهبط ألف وخمسماءة حاج إلى البر في مصر بالقرب من دمياط وهم لا يعلمون بأن الهدنة قد انتهكت . فقيدهم صلاح الدين جميعا بالسلاسل ، وأرسل إلى بلدوين يعرض اطلاق سراحهم فور عودة البضائع التي استلبها رينالد . ومرة اخرى رفض رينالد إعادة اى شئ . وباتت الحرب الآن أمرا حتميا(٥٣).

حث رينالد واصدقاؤه الملك على تركيز الجيش الملكي في منطقة الأردن للإمساك بصلاح الدين عندما يأتي صاعدا من مصر . وأكد آل إيلين وريموند أن ذلك سوف يكشف فلسطين له عندما يمر بها، ولكن دون جدوى . وفي ١١ مايو ١١٨٢م غادر

---

(٥٢) للاطلاع على تاريخ جورجيا في ظل الملك جورج الثالث (١١٥٦-١١٨٤م) انظر *Georgian Chronicle*, pp. 231-7. وقد خلفته ابنته الملكة العظيمة تمار Thamar. انظر Allen, *History of the Georgian People*, pp. 102-4.

(٥٣) William of Tyre, xxII, 14, p. 1087، حذف السبب الذى دفع صلاح الدين الى اعتقال الحجاج؛ Ernoul, pp. 54-6; Abu Shama, pp. 214-18; Ibn al-Athir, pp.647-50.

صلاح الدين مصر ؛ وبينما كان يودع ووراءه فـي حفـل وداع، عـلا صـوت مـن بـين الحشد يردد بيتا من الشـعر فحـواه أنـه لـن يرجـع إلى مصـر ثانيـة قـط . وتصـادف أن صدقت النبوءة . وقاد جيشه عبر صحراء سـيناء إلى العقبـة ، وسـار شمـالا بـلا صعوبـة شرق الجيش الفرنجي تماما، يدمر المحاصيل في طريقه . ولّما وصل دمشق وجد أن فاروق شاه قد أغار فعلا على الجليـل وخـرب القـرى الواقعـة علـى منحـدرات جبـل الطـور ، واستولى على عشرين الف رأس مـن الماشـية والـف أسـير ، وفـي طريـق العـودة هـاجم فاروق قلعة حبيس جلدك المقوسة فى نتـوء خـارج الصخـور أعلـى نهـر اليرمـوك عـبر الأردن ؛ وحفر خندقا اليها عبر الصخور جعلهـا تحـت رحمتـه ، وعلـى الفـور استسـلم المسيحيون السيريان العازفين عن التضحية بأنفسهم من أجل الفرنج . وأمضـى صـلاح الدين ثلاثة اسابيع فى دمشق، ثم رحل مع فاروق شـاه وجيـش ضخـم يـوم ١١ يوليـة وعبر إلى داخـل فلسـطين حـول جنـوب بحـر الجليـل. وأدرك الملـك حماقـة استراتيجيته السابقة فعاد من منطقـة الأردن وسـار أعلـى الضفـة الغربيـة للنهـر ، وقـد أحضـر معـه البطريق والصليب الحقيقى كى تحل البركات على فرق الجيش . والتقى الجيشان أسـفل قلعة فرسان المستشفي المسماه 'كوكـب الهوى' (بلفوار) . وفـى وطيـس المعركـة صمـد الفرنج لهجمات صلاح الديـن ، لكـن هجمـاتهم المتـادة لم تفلـح فـى كسـر صفـوف المسلمين . وفى آخر النهار انسحب كل جانب زاعما احراز النصر(٥٤).

كانت المعركة بمثابة صدمة لصلاح الدين باعتباره الغـازى ، ولكنهـا مجـرد صدمـة مؤقتة . وفى أغسطس عبر الحدود مرة اخرى فى مسيرة خاطفة خلال جبـال بـيروت ، وفى ذات الوقت ظهر اسطوله على السـاحل ، وكـان قـد استدعاه مـن مصـر بالحمام الزاجل بين القاهرة ودمشق . لكن بيروت كانت محصنـة جيدا . ومـا أن سمع بلدوين بالأنباء حتى دفع بجيشه إلى الشمال من الجليل ، ولم يتوقف الا ليجمع سفنه الراسية فى مينائي عكا وصور . ولم يفلح هجوم صلاح الدين علـى المدينـة قبـل وصـول الفرنـج ،

---

(٥٤) William of Tyre, xxii, 16-14 pp. 1087-95; Abu Shama, pp. 218-22; Ibn al-Athir, pp. 651-3. وبيت الشعر الذى قيل لصلاح الدين أثناء توديعه قبل مغادرته القاهرة هو :

تمتع من شميم عَرَار نجد ∴ فما بعد العشية من عَرَار

-(Enjoy the perfume of the ox-eyes of Nejd. After tonight there will be no more ox eyes.)

فانسحب[٥٥] . لقد حان الوقت لكي ينصرف إلى أعمال اخرى أكثر الحاحا .

١١٨١م : وفاة الصالح اسماعيل

في ٢٩ يونية ١١٨٠م مات سيف الدين صاحب الموصل تاركا مجرد أطفال صغار. ودعا أمراء الموصل أخاه عز الدين ليخلفه . وبعد ذلك بثمانية عشر شهرا ، في ٤ ديسمبر ١١٨١م ، مات الصالح صاحب حلب فجأة في نوبة مغص قولوني ، رأى فيه الجميع السم . وكان شابا في الثامنة عشرة من عمره ، نبيها، ذكيا، حريا بأن يصبح حاكما عظيما . وبينما كان على فراش الموت توسل إلى أمرائه أن يستخلفوا ابن عمه صاحب الموصل كي تتحد أراضي العائلة ضد صلاح الدين . ووصل عز الدين إلى حلب في نهاية العام ولقي ترحيبا حماسيا حارا . وجاءه رسل أمير حماه يعرضون عليه ولاءهم ؛ غير أن هدنة السنتين مع صلاح الدين لم تنته بعد ، ورفض عز الدين عرضهم، بدافع التراخي أكثر من كونه بوازع الشرف ، وكان لديه الكثير مما يقلقه ؛ إذ أن أخاه عماد الدين صاحب سنجار ادعى في فبراير ١١٨٢م أن له نصيبا في الميراث ، وراح يحيك المكائد مع قائد جيش حلب ، قوقبوري . وعاد عز الدين إلى الموصل في مايو بعد أن أعطاه عماد الدين سنجار بدلا من حلب ، وكوفئ قوقبوري بامارة حارم حيث راح يتآمر مع جيرانه الأراتقة ، امير حصن كيفا وأمير البيرة ، ضد امراء حلب والموصل وقطب الدين الأرتقي صاحب ماردين ، ودعا المتآمرون صلاح الدين لمساعدتهم . وانتهت في سبتمبر الهدنة المعقودة فيما بين الأمراء المسلمين ؛ وفي يوم انتهائها عبر صلاح الدين الحدود ، وبعد هجوم مضلل على حلب ، عبر الفرات عند البيرة ، وسقطت امامه مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى ، الرها ، وسروج ، ونصيبين. فواصل زحفه على الموصل وبدأ حصارها يوم ١٠ نوفمبر . ومرة أخرى شعر بالاحباط إذ وجد أن التحصينات من القوة بحيث لا تنال منها الراجمات . وشعر سيده الروحي - الخليفة الناصر - بالصدمة من هذه الحرب الدائرة بين المسلمين ، فحاول التفاوض على السلام . وأخذ حاكم شاة أرمن السلجوقي وأمير ماردين يعدان العدة لإرسال قوات لمساعدة الموصل ، فانسحب صلاح الدين إلى سنجار التي استولى عليها بهجوم شامل بعد حصارها لمدة اسبوعين . وفي هذه المرة فقط لم يستطع كبح جنوده من نهب

---

(٥٥) William of Tyre, xxii, 18-17 pp. 1096-1101; Abu Shama, p. 223; Ibn al-Athir, pp. 653.

المدينة، لكنه اطلق واليها وأرسله إلى الموصل معززا مكرما . وخرج عز الدين وحلفاؤه للاقاته فى ماردين ، ولكنه أرسل من يتقدمه عارضًا الهدنة ؛ وعندما رد صلاح الدين بفظاظة أنه سيقابلهم فى ميدان المعركة ، تفرقوا هاربين إلى بلادهم . ولم يطاردهم ، وانما اتجه شمالا لإخضاع ديار بكر ، وهى أغنى وأقوى قلاع الجزيرة ، وبها المكتبة الأرفع شأنا فى الاسلام . وأعطى المدينة لأمير حصن كيفا . وبعد أن أعاد تنظيم الجزيرة ، بأن عهد بكل مدينة إلى من يثق فيه من الأمراء كإقطاعية ، ظهر مرة يوم ٢١ مايو أمام حلب(٥٦).

١١٨٣م : صلاح الدين يمتلك حلب

عندما انطلق صلاح الدين للهجوم على عماد الدين وعز الدين ، استنجد كلاهما بالفرنج . وذهبت اليهم سفارة تعدهم بإعانة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، مع التنازل عن بانياس وحبيس قلدك ، والإفراج عن الكثير من الأسرى المسيحيين ممن قد يتضح وجودهم لدى صلاح الدين ، وذلك فى حالة قيامهم بهجوم مضلل على دمشق. وكانت لحظة زاخرة بالآمال ؛ فبعد أيام قلائل من غزو صلاح الدين للجزيرة مات فجأة ابن اخيه فاروق شاه والى دمشق . وعلى الأثر أغار الملك بلدوين - ومعه البطريق والصليب الحقيقى - على أراضى حوران ، ونهب عزير ووصل إلى بُصرى ، بينما استعاد ريموند كونت طرابلس حبيس قلداك . وفى وقت مبكر من ديسمبر ١١٨٢م ، قاد ريموند مجموعة مغيرة من الفرسان توغلت مرة اخرى فى بصرى ، وبعد أيام قلائل انطلق الجيش الملكى يريد دمشق ، وضرب معسكره فى ضاحية الدارية التى كان بها مسجد شهير ، أبقى عليه بلدوين بعد أن استقبل وفدا من مسيحيى دمشق يحذرونه من المساس به وإلا سينتقم المسلمون بالهجوم على الكنائس . ولم يحاول الملك مهاجمة المدينة ذاتها ، وسرعان ما انسحب محملا بالغنائم لتمضية عيد الميلاد فى صور . وخطط لحملة أخرى فى الربيع، غير انه فى وقت مبكر من العام الجديد سقط مريضا بالحمى فى الناصرة وهو فى حالة ميئوس منها . وأمضى بضعة اسابيع بين الحياة والموت ، وتسبب مرضه فى أن أصبح جيشه فى حالة سكون(٥٧). وأبعد إلى الشمال كان بوهمند الثالث

---

(٥٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.79-86; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 159-60; Ibn al-Athir, pp. 656-7.

(٥٧) William of Tyre, xxɪɪ 22-20, 25, pp. 1102-16; Ibn al-Arhir, pp. 155-9.

فاقد الحيلة بلا قوة تمكنه من الإقدام على اى عمل ضد صلاح الدين . وأرسل إلى معسكره امام حلب وابرم معاهدة هدنة لأربع سنوات ، مكّنته من اصلاح دفاعات عاصمته[٥٨].

وفى حلب ، لم يبذل عماد الدين جهدا يذكر للتصدى لصلاح الدين ؛ إذ لم يكن يحظى بشعبية هناك ، وقبل بسرور ما عرضه عليه صلاح الدين من منحه بلده القديم الذى يضم سنجار بالاضافة إلى نصيبين وسروج والرقة . وفى ١٢ يونية ١١٨٣م تملك صلاح الدين حلب ، وبعد خمسة أيام رحل عماد الدين إلى سنجار تحيطه مظاهر التشريف ، ولكن الجماهير سخرت من تخليه على هذا النحو المستهتر. وفى ١٨ يونية دخل صلاح الدين المدينة دخوله الرسمى واتجه بفرسه إلى القلعة[٥٩].

وفى ٢٤ أغسطس عاد السلطان إلى دمشق التى تقرر أن تكون عاصمته[٦٠]. والآن امتدت امبراطوريته من سيرانيكا[٦١] إلى نهر دجلة . وطوال قرنين مضيا ، لم يكن هناك أمير مسلم بهذه القوة . كان لديه ثراء مصر حائطا يحمى ظهره ، والمدينتان العظيمتان دمشق وحلب تخضعان لحكومته المباشرة ، وحولهما اقطاعيات يضع ثقته فى حكامها تمتد شمالا وشرقا حتى أسوار الموصل ، وكان الخليفة في بغداد يسانده ؛ وعز الدين فى الموصل يخشى بأسه ؛ والسلطان السلجوقى فى الأناضول يسعى إلى التقرب منه للفوز بصداقته ، وأمراء الشرق السلاجقة بلا قوة ليعارضوه . ولم يبق الآن سوى قمع الدخلاء الأجانب الذين كان امتلاكهم لفلسطين وساحل سوريا مهانة باقية للاسلام .

---

(٥٨) Ibn al-Athir, p. 662.

(٥٩) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 86-8; Ibn al-Athir, pp.662; Abu Shama, pp. 225-8; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 167; William of Tyre, xxii, 24, pp. 1113-14، ويتضح أن وليم الصورى فهم جيدا مغزى فتح صلاح الدين لحلب .

(٦٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S* p. 89.

(٦١) (المترجم) Cyrenaica: التسمية القديمة لإقليم برقة الواقع شرق ليبيا حاليا.

الفصل الثانى:

قرنـــا حطيـــن

قرنا حطين

"قربت نهايتنا . كملت أيامنا لأن نهايتنا قد أتت"

(مراثي إرميا ٤ : ١٨)

عندما نهض الملك بلدوين من فراش مرضه في الناصرة ، بات جليا أنه لم يعد قادرا على حكم البلاد . إذ أن الحمى فاقمت مما يعانيه من الجذام ، ففقد القدرة على استخدام ذراعيه وقدميه ، وقد بدأ الأربعة في التآكل ؛ وكاد يفقد البصر . وقام على خدمته وحراسته أمه واخته سبيلا والبطريق هيراكليوس ، وراحوا يحثونه على تسليم الوصاية لزوج سبيلا ، جوى (اوف لوسينان) . وتقرر أن يسيطر جوى سيطرة كاملة على المملكة ، فيما عدا مدينة القدس التي احتفظ بها الملك لنفسه ، بايراداتها البالغة عشرة آلاف بيزانت . وقبل بارونات المملكة قرار الملك على مضض[١].

(١) William of Tyre, xxII, 25, pp. 1116-17.

١١٨٢م : حملة رينالد فى البحر الأحمر

ولم يكن رينالد (اوف شاتيلون) حاضرا تلك المداولات . وعندما علم برحيل صلاح الدين إلى الشمال فى خريف عام ١١٨٢م ، بدأ فى تنفيذ مشروع كثيرا ما كان يداعب خياله ؛ وهو اطلاق اسطول صغير إلى البحر الأحمر للإغارة على قوافل البحر الثرية الذاهبة إلى مكة ، ومهاجمة حتى مدينة الاسلام المقدسة ذاتها . وعندما اقتربت السنة من نهايتها سار جنوبا إلى أيلة على رأس خليج العقبة ، وقد أحضر معه السفن التى بناها من أخشاب غابات مؤاب وجربها فى مياه البحر الميت . واستولى على ميناء ايلات الذى كان بحوزة المسلمين منذ عام ١١٧٠م ، لكن القلعة المشيدة على الجزيرة القريبة التي أطلق عليها مؤرخو الفرنج "جزيرة جراى Ile de Graye" ظلت صامدة؛ وبقى رينالد مع سفينتين من سفنه لمحاصرتها ، وأبحر باقى اسطوله بعيدا عن الجزيرة فى مرح وطرب ، يرشده القراصنة المحليون . وأبحروا جنوبا على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، يغيرون على المدن الساحلية الصغيرة التى كانوا يمرون بها ، وأخيرا هاجموا عيذاب ، الميناء النوبى العظيم المواجه لمكة . وهناك استولوا على سفن تجارية غنية محملة بالبضائع من عدن ومن الهند ؛ وهاجمت فرقة ارضية قافلة ضخمة بلا حراسة جاءت عبر الصحراء من وادى النيل . ومن عيذاب عبر القراصنة إلى ساحل الجزيرة العربية ؛ وحرقوا السفن الراسية فى مينائى المدينة ، الحوراء وينبع ، وتوغلوا حتى الرغيب ، وهو أحد موانئ مكة ذاتها ، وعلى مقربة أغرقوا باخرة حجاج كانت قاصدة ميناء جدة . وارتاع العالم الإسلامى كله . بل أن امراء حلب والموصل ، الذين طلبوا مساعدة الفرنج ، شعروابالخزى لإقدام حلفائهم على هذا الانتهاك لحرمة العقيدة. وتحرك أخو صلاح الدين ، الملك العادل والى مصر فأرسل أمير البحارالمصرى حسام الدين لؤلؤ بأسطول يحمل ملاحين مغاربة من شمال افريقية لمطاردة الفرنج . وبدأ لؤلؤ بتخليص جزيرة جراى واستعاد ميناء ايلات الذى كان رينالد نفسه قد انسحب منه ؛ ثم إنه لحق بأسطول القراصنة خارج ميناء الحوراء فدمّره وأسر جميع الرجال الذين كانوا على ظهره تقريبا . وأرسل عددا قليلا منهم إلى مكة لكى تجرى عليهم شعيرة الأضحية فى مكان الذبح فى منى أثناء الحج التالى . وأخذ الباقون إلى القاهرة حيث ضربت
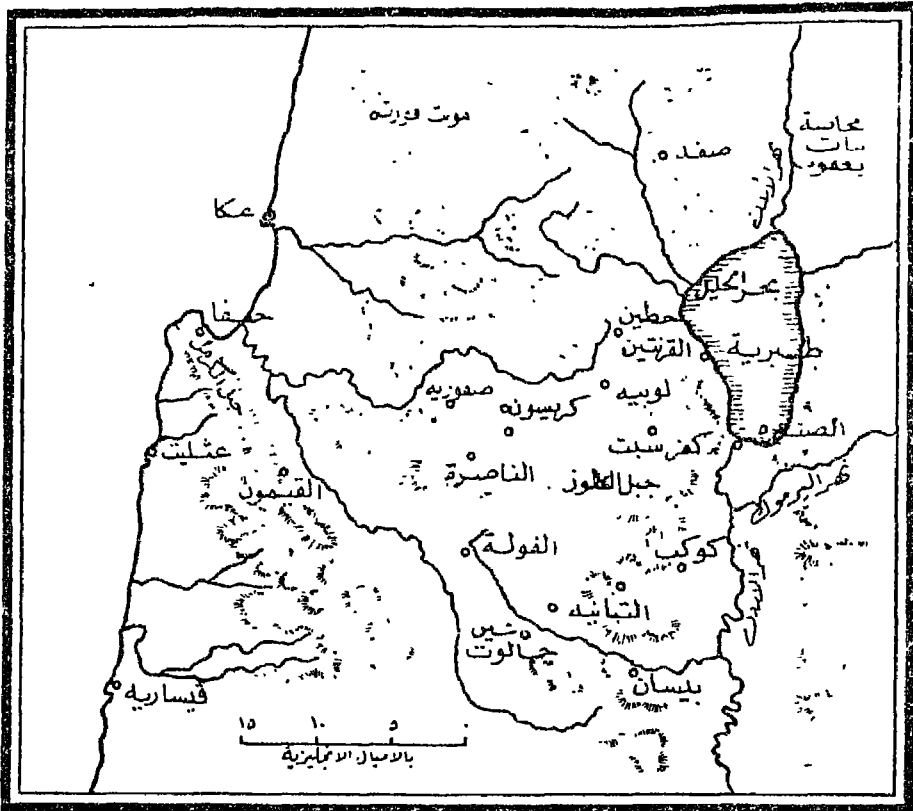
خريطة رقم (٦) الجَــليـــل

أعناقهم . وأقسم صلاح الدين أغلظ الايمان بالانتقام من رينالد لمحاولته المشينة[٢].

وغادر صلاح الدين دمشق يوم ١٧ سبتمبر ١١٨٣م بجيش ضخم لفتح فلسطين . وفى التاسع والعشرين عبر الأردن ، جنوب بحر الجليل تماما ودخل بيسان التى هرب اهلها حيث الأمان وراء أسوار طبرية . ولما سمع جوى (اوف لوسينان) بمجيئه استدعى كامل قوة المملكة وقد تعززت بزائرين صليبيين اثنين من الأثرياء ، جودفرى الثالث ، دوق برابانت، ورالف الأكيتاني (اوف موليون) ورجالهما . وكان مع جوى ريموند أمير طرابلس ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى ، ورينالد (أوف شاتيلون) ، والأخوان إيبلين ، رينالد امير صيدا ووالتر أمير قيسارية ؛ وانضم اليهم همفرى الرابع الصغير امير تبنين مع قوات زوج أمه من منطقة الأردن ، لكن المسلمين نصبوا له كمينا على منحدرات جبل جلبوع ، حيث قتل أغلب رجاله . ثم أرسل صلاح الدين فصائل لانتزاع حصون الجوار وتدميرها، بينما راح آخرون يخربون الدير اليونانى على جبل الطور ، لكنهم أخفقوا فى اختراق الأسوار المنيعة للمنشأة اللاتينية على قمة التل . وعسكر هو نفسه مع جيشه الرئيسى بجوار عيون التبانية فى موقع مدينة بزرعيل القديمة.

١١٨٣م : جوى يتشاجر مع الملك

تجمع الفرنج يوم أول ديسمبر فى صفورية وساروا إلى داخل سهل بزرعيل . وهاجم المسلمون فى الجال حرس المقدمة ، الذي كان يقوده الكونستابل أماليك ، ولم ينقذه منهم سوى وصول الأخوين إيبلين مع جنودهما فى الوقت المناسب . وعسكر المسيحيون عند عيون جالوت فى مواجهة صلاح الدين الذى أفسح جناحيه بحيث كاد أن يطوقهم . وظل الجيشان ساكنين لخمسة ايام ، ولم يكن من اليسير أن تصل الامدادات إلى المسيحيين ، وبعد يوم أو يومين اشتكى المرتزقة الإيطاليون من الجوع، وجاء اكتشاف الأسماك فى عيون جالوت في وقته المناسب لإنقاذ الجيش من التضور جوعا . وكان أغلب الجنود ، بمن فيهم الفرسان الفرنسيين ورينالد الذي استهان

---

(٢) Abu Shama, pp.231-5; Ibn al-Athir, p.658: Maqrisi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 550-1. ولم يذكر احد من المؤرخين الفرنج تلك الغارة سوى Ernoul pp.69-70، يتحدث عنها على انها حملة علمية . وشاهد ابن جبير Ibn Jubayr (طبعة Wright, p.49) الأسرى الفرنج في القاهرة .

بالمسلمين ، يرغبون في الهجوم على المسلمين ؛ ولكن جوى تردد وارتجف، وأصر ريموند وأميرا إبيلين على أن استثارة هذه الأعداد الغفيرة فيه الموت المحقق ، ولا بد للجيش من أن يبقى في حالة الدفاع ، وكانوا على حق . وحاول صلاح الدين عدة مرات أن يتصيدهم للخروج ، ولما فشل في ذلك هدم معسكره وعاد يوم ٨ أكتوبر عبر الأردن .

صدم تصرف جوى كلا من الجنود الذين عرفوا فيه جبن الخوف ، والفرسان الذين يعلمون عنه صفة الضعف . ولدى عودته إلى القدس تشاجر مع الملك . ذلك أن بلدوين شعر أن هواء صور يناسبه على نحو افضل من مرتفعات القدس ذات الرياح . فسأل زوج اخته أن يتبادلا المدينتين ، لكن جوى تلقى الطلب بقلة أدب ، فتملكت بلدوين نوبة غضب أثارت معها دفعة من الحيوية ، فاستدعى أهم أتباعه ، وأخذا بنصيحتهم خلع جوى من الوصاية ، وبدلا من ذلك أعان يوم ٢٣ مارس ١١٨٣م عن أن وريثه هو بلدوين ابن اخته سبيلا من زواجها الأول ، وهو طفل في السادسة ، وحرض أخته على السعي لإبطال زواجها . وفي ذات الوقت ، وبرغم عدم قدرته على الحركة دون مساعدة ، وبرغم عجزه عن التوقيع باسمه ، تولى الحكومة بنفسه . وإزاء ذلك عاد جوى إلى كونتيته في عسقلان ويافا ، ونفض عن نفسه ولاءه للتاج . فاستولى بلدوين على يافا ووضعها تحت السيطرة المباشرة للتاج ، لكن جوى تحداه في عسقلان . وبلا طائل تشفع البطريق هيراكليوس والسيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى من اجل المتمرد . وفقد الملك صبره معهم ، فطردهم من المحكمة العليا ؛ وكان قد استدعاهم ليأمرهم للتبشير بالرحيل إلى الغرب بحملة صليبية ، ولكن شهور عديدة انقضت قبل أن يرضوا بالرحيل[٣] .

١١٨٣م : الزواج في قلعة الكرك

كان مجلس البارونات الذى نصح الملك بخلع جوى يتألف من بوهمند أمير انطاكية، وريموند امير طرابلس ، ولورد قيصرية ، والأخوين ابيلين . ولم يكن لورد منطقة الأردن حاضرا . ولقد حان الوقت كي يتم الزواج بين الاميرة ايزابيلا، وهي الآن في الحادية عشرة ، وهمفرى أمير تبنين الذى اصبح في السابعة عشرة من عمره .

(٣) William of Tyre, xxii, 29, pp. 1127-8، يقول إن بلدوين الخامس تُوّج في هذه المناسبة .

وكان رينالد قد عقد العزم على اتمام حفل الزواج بكل مظاهر الفخامة التى يستطيعها فى قلعته فى الكرك التى سيرثها العريس .وخلال شهر نوفمبر بدأ الضيوف يتوافدون على القلعة ؛ وكان البعض منهم ، مثل أم العروس - الملكة ماريا كومنينا - من الذين يكنون عداوة شخصية لرينالد ، لكنهم جاءوا فى محاولة لرأب الصدع بين الفرق المتشاحنة . وجاء مع الضيوف مسامرون وراقصون ومشعوذون وموسيقيون من سائر انحاء الشرق المسيحى . وفجأة توقفت الاحتفالات لوصول انباء مرعبة بأن صلاح الدين يقترب بجيشه .

كان تدمير قلعة الكرك واميرها الكافر من بين الآمال المحلّقة لطموحات صلاح الدين . فطالما يسيطر رينالد على هذه القلعة العظيمة يستطيع اعتراض أى محاولة للمرور بين سوريا ومصر ؛ وأظهرت التجربة أن المعاهدات لا تقيده . ولذا عسكر صلاح الدين يوم ٢٠ نوفمبر امام الأسوار بجيشه الذى وصلته تعزيزات من مصر . ولاذ المزارعون والرعاة السيريان المسيحيين مع قطعانهم بالمدينة حيث المأمن ، ولجأ الكثير منهم إلى فناء القلعة . وعلى الفور هاجم صلاح الدين أسفل المدينة وشق له طريقا إلى داخلها . ولم يستطع رينالد أن يفعل شيئا سوى أن يهرب إلى القلعة بفضل بطولة أحد فرسانه الذى راح يدافع وحيدا عن الجسر الذى يعلو الخندق بين المدينة والقلعة إلى أن تهدم خلفه . وفى استعراض رائع لبيان الثقة بالنفس تواصلت الاحتفالات فى القلعة بينما كانت الصخور تندفع لتدق اسوارها . واستمر الغناء والرقص بالداخل ، وأعدت الليدى ستيفانى ، ام العريس ، بنفسها أطباقا من حفل العرس أرسلتها خارج القلعة إلى صلاح الدين الذي سأل فى المقابل عن البرج الذى يسكنه العروسان ، وأصدر اوامره بعدم قصفه بآلات حصاره ، ولكن بخلاف ذلك لم تتراخى ضرباته . وواصلت منجنيقاته التسعة الضخمة العمل بلا انقطاع ، وأوشك رجاله على سد الخندق.

وكانت الرسل قد سارعت إلى القدس تستنجد بالملك ، الذى استدعى الجيش الملكى ووضعه تحت أمرة الكونت ريموند ، لكنه أصر على مرافقة رجاله بنفسه على محفته . وأسرعوا جنوبا مرورا بأريحا ثم أعلى طريق جبل نيبو . ولم تحدث آلات حصار صلاح الدين سوى أثر طفيف فى أسوار القلعة القوية ، وباقتراب الجيش الملكى رفع صلاح الدين الحصار ورحل باتجاه دمشق يوم ٤ ديسمبر . وفى نشوة النصر حُمل الملك إلى داخل الكرك ، وشرع ضيوف الزواج فى العودة إلى بلادهم[٤]. ولم يكن للتجربة

---

(٤) William of Tyre, xxii, 28-30, pp. 1124-7, 1129-30; Ernoul, pp.102-6، والمؤرخ الوحيد الذى ذكر حفل الزواج هو Ernoul الذى ربما كان حاضرا الحفل لأنه كان تبيع بلدوين. وهو يظن

من أثر فى إنهاء ماكانوا عليه من خلافات عانت منها العروس الصغيرة أكثر المعاناة؛ إذ أن حماتها منعتها من رؤية أمها ، كطلب رينالد بلا شك ؛ وكانت أمها غارقة فى حبها لكيد المكائد بين مختلف التحزبات نظرا لدمائها اليونانية ، ولذا كانت تعتبرها نصف خائنة ؛ ولم يكن أحد يعاملها معاملة طيبة سوى زوجها . أما همفرى امير تبنين فكان شابا ذا جمال خارق وعلى جانب كبير من التعليم ، وميوله أنسب لأن يكون بنتا أكثر منه رجلا . وكان رقيق الحاشية يعامل زوجته الطفلة معاملة حكيمة ، وكانت تحبه(٥).

وفى الخريف التالى زحف صلاح الدين مرة أخرى على قلعة الكرك بجيش انضمت إليه كتائب مرسلة من أتباعه الأراتقة . ومرة اخرى كانت التحصينات الهائلة فوق طاقته ؛ ولم يستطع تصيد المدافعين للخروج للقتال على المنحدرات اسفل المدينة ، ومرة أخرى انسحب إلى أراضيه عندما اقترب جيش من القدس ، تاركا مجرد فصيلة للإغارة على الجليل وتخريب البلاد جنوبا حتى نابلس . وعاد صلاح الدين نفسه إلى دمشق ، فهناك الكثير مما ينبغي انجازه لإعادة تنظيم امبراطوريته . إن الوقت لم يحن تماما لإزالة المسيحيين(٦).

وفى القدس كانت بدا الملك المجذوم المتآكلتان تمسكان بعنان الحكومة ، وجوى ما يزال يتحفظ بعسقلان رافضا دخول المسؤولين الملكيين إلى داخل المدينة ؛ وكان أصدقاؤه البطريق والسيدان الأعظمان فى اوروبا يحاولون عبثا التأثير على الامبراطور فريدريك والملك لويس والملك هنرى بما ينتظر مسيحيى الشرق من أخطار . وكان عواهل الغرب يستقبلونهم بآيات الشرف البالغ ، ويناقشون معهم الخطط لحملة صليبية

أن صلاح الدين - فى صباه - كان رهينة فى قلعة كيراك حيث كانت الليدى ستيفانى تلاعبه على ركبتيها. ولا يوجد مرجع آخر يذكر أسر صلاح الدين . وقد ولد صلاح الدين عام ١١٣٧م ، وربما لم تكن ستيفانى قد ولدت قبل ١١٤٥م - تزوجت زوجها الأول حوالى ١١٦٢/١١٦٣م وكانت البنات يتزوجن صغار السن فى فلسطين - فتكون القصة بعيدة الإحتمال ؛ Abu Shama, p. 248; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.91-2; Maqrisi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. IX, pp. 13-14.

(٥) (أنظر أدناه ص ٥٠٨) . وأما التاريخ اللاحق لزواجه فيرد فى قصة الحملة الصليبية الثالثة . ويصف مؤلف *Itinerarium Regis Ricardi* (p.120) همفرى على أنه 'Vir feminae quam viro proprior, gestu mollis, sermone fructus'. ويذكر Behad ed-Din (*P.P.T.S.* p.288) جماله ويقول انه كان يتحدث العربية بصورة جيدة . ويذكر تاريخ هرقل *Estoire d'Eracles*, II, p. 152 منع ايزابيلا من رؤية امها.

(٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 95-8; Abu-Shama, pp. 249-56; letter of Baldwin IV to Heraclius, in Radulph of Diceto, II, pp. 27-8.

ضخمة ، لكنهم يسوقون الذرائع التى تحول بين اشتراكهم هم شخصيا فى الحملة الصليبية . وكان كل ما أتى به المبعوثون هو أن عددا ضئيلا من الفرسان أخذوا الصليب(٧).

وفى خريف ١١٨٤م عاود جوى إثارة سخط الملك أخي زوجته . ذلك أنه منذ استيلاء المسيحيين على عسقلان ، كان مسموحا لبدو المنطقة التحرك كما يحلو لهم لرعى قطعانهم لقاء إتاوة صغيرة يدفعونها للملك . والآن اغتاظ جوى لعدم حصوله على الإتاوة وذهابها إلى الملك ، فانقض على الرعاة فى أحد الأيام وقتلهم واستولى على قطعانهم(٨).

١١٨٥م : وصية الملك بلدوين الرابع

بات بلدوين الآن طريح الفراش لا يستطيع النهوض منه قط . وأدرك مدى النفوذ المميت الذى تمارسه أمه وأصدقاؤها ، فأرسل إلى ابن خالته ريموند أمير طرابلس لمباشرة ادارة الحكومة، وفى ذات الوقت أعد العدة لرحيله الأخير ، فأعلن عن وصيته قبل اجتماع للبارونات فى وقت مبكر من عام ١١٨٥م . فأوصى بأن يخلفه على العرش ابن اخته الصغير ؛ ونزولا على رغبة المجلس الصريحة لا يتولى جوى الوصاية ، وانما يتولاها ريموند امير طرابلس ، على أن يحتفظ ببيروت ثمنا لخدماته . بيد أن ريموند رفض تحمل الوصاية الشخصية للملك الصغير خشية أن يموت الصغير صغيرا – إذ بدت عليه رقة الهزال – وفى هذه الحالة تشير اليه اصابع الإتهام بأنه عجّل بموته . ونظرا لما كان عليه الصبى من صحة هزيلة ، يقسم البارونات ايضا بأنه فى حالة وفاة الصبى قبل بلوغه العاشرة ، يحتفظ ريموند بالوصاية إلى أن يصدر من الحكام الأربعة الكبار فى الغرب – البابا والامبراطور الغربى وملكى فرنسا وانجلترا – قرار التحكيم فيما تطالب به الأميرتان سبيلا وايزابيلا . وفى الوقت ذاته ، وفى محاولة أخيرة للتقريب بين الفرق المتشاحنة ، مُنحت الوصاية الشخصية على الصبى لخال أمه ، جوسلين (اوف كورتناى) ، الذى بدأ الآن يظهر صداقته الودودة لريموند(٩).

---

(٧) عن هذه البعثة انظر Benedict of Peterborough, 1, p.338; Radulph of Diceto, II, pp. 32- 3. وقد استشار هنرى الثانى مجلسه الذى طلب منه عدم الذهاب فى حملة صليبية .

(٨) *Estoire d'Eracles,* II, p. 3.

(٩) *Estoire d'Eracles,* II, p.7, Ernoul, pp.115-19، يورد أكثر التواريخ اكتمالا. ويضع تاريخ تلك

وأقسم البارونات المؤتمرون كلهم على انفاذ رغبات الملك . وكان من بينهم البطريق هيراكليوس الذى عاد لتوه من الغرب ، مع السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، روجر (اوف ليه مولان) ؛ اما السيد الأعظم لفرسان المعبد ، أرنولد (اوف توروجا) فقد مات اثناء الرحلة . وبعد مناقشة عاصفة انتخب النظام خليفة له جيرار (اوف ريدفورت) ، العدو القديم لريموند . وأيد جيرار هو الآخر وصية الملك . وأخذ الطفل إلى كنيسة القبر المقدس - محمولا بين ذراعى باليان اسير ابيلين - حيث توّجه البطريق(١٠).

وبعد أسابيع قليلة ، فى مارس ١١٨٥م ، أراح الموت الملك بلدوين الرابع من آلام مرضه الطويل الموجعة ولمّا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . كان الوحيد من بين ملوك القدس أجمعين الأكثر تعاسة ، ولا محل للارتياب فى قدراته ، كما كانت شجاعته فائقه ؛ لكنه وهو على فراش مرضه كان فاقد الحيلة في السيطرة على المكائد التى تحاك من حوله ، وغالبا جدا ما كان يرضخ لما كانت أمه الشريرة تمارسه عليه من نفوذ نكد ، ويرضخ كذلك لأخته الحمقاء . وعلى الأقل جنبته الأقدرا المهانة الأخيرة التى سوف تلحق بالمملكة(١١).

الأحداث بعد حصار صلاح الدين الثانى لقلعة كيراك (سبتمبر ١١٨٤م)، ويقول إن بلدوين الرابع مات بعد ذلك مباشرة . غير ان وليم الصورى William of Tyre يذكر (انظر اعلاه ص ٤٤٠ ,n.1) تتويج بلدوين الخامس فى التاريخ ٢٠ نوفمبر ١١٨٣م. ونظرا الى أن وليم ربما مات قبل نهاية ١١٨٤م ، وكتب صفحاته الأخيرة في روما، فمن الجائز أنه قد علم بقرار بلدوين بتتويج ابن اخته منذ أن اخزي جوى عام ١١٨٣م ، لكن وليم أخطأ فىالظن بأن التتويج قد حدث . وأما الحقوق القانونية لسيبلا وايزابيلا فقد أثارت مشكلة ؛ إذ أن أماليك كان قد أصد قاعدة assize فى عام ١١٧١م تسمح للأختين بالمشاركة فى الاقطاعيات سويا على التقاليد الاقطاعية المعتادة فى اوروبا الغربية . ويعتقد Grandclaude, op.cit. p. 340 أنها تتعلق باستخلاف العرش . وربما ولدت الملكة ماريا آنذاك مباشرة بنتها الكبرى . ومن الناحية الأخرى فإن الأطفال من الزواج الأول ، ذكورا وإناثا، مُنحوا الأسبقية على الأطفال من الزواج الثانى . (انظر La Monte, *Feudal Monarchy*, p.36) ولكن هل هناك اسبقية لمسألة زواج آجنس الباطل على الزواج الامبراطورى من ماريا؟ يتضح من احداث عام ١١٨٦م أن الرأى العام يساند مطالب سيبلا (انظر ادناه ص ٤٤٧) . على ان الحالة غامضة بما فيه الكفاية بحيث تتطلب التفكير .

(١٠) *Estoire d'Eracles*, II, pp.7-9; Ernoul, pp.114, 118.

(١١) - Ernoul, pp. 118-19; *Estoire d'Eracles*, II, p.9. ويسجل عماد الدين (ابو شامة) Imad ed-Din (Abu Shama, p. 258) تقديره لذكرى بلدوين الرابع .

١١٨٥م : مرض صلاح الدين

بعدما دفنت جثة الملك فى كنيسة القبر المقدس بمظاهر الأسى ، استدعى ريموند الوصى البارونات مرة اخرى ليسألهم عن السياسة التى يتعين عليه اتباعها . لقد خانتهم امطار الشتاء وأطلت المجاعة تتهددهم . وكان الصليبى الوحيد الذى جاء إلى الشرق هو المركيز العجوز وليم (اوف منوتفرات) ، جد الملك الطفل ؛ فبعد أن اطمأن على أن كل شئ على مايرام فيما يتصل بحفيده ، استقر فى هدوء فى اقطاعية فى الجليل . وانطلق ابنه كونراد - عم الملك - ليتبعه ، ولكنه توقف فى طريقه فى القسطنطينية حيث كان اخوه قد هلك قبل ذلك بسنوات قليلة . وهناك عرض مساعدته على من انتقم لربنيه ، الامبراطور ايزاك أنجيلوس ، الذى زوجه اخته . ونسى ابن اخيه وفلسطين. وكان واضحا لجميع البارونات المتجمعين فى القدس أن البلاد التى تتضور جوعا لا تستطيع أن تواجه حربا إلى أن تصل حملة صليبية جديدة ، فوافقوا على اقتراح ريموند بالسعى لدى صلاح الدين للموافقة على فترة هدنة تستمر أربع سنوات .

وكان صلاح الدين على استعداد للقبول ؛ إذ كانت هناك مشاجرة بين اقاربه فى مصر فى حاجة إلى تسوية ؛ وكان قد سمع أن عز الدين صاحب الموصل أصبح مشاكسا مرة اخرى . ووقعت المعاهدة وعادت إلى التجارة حيويتها بين الدويلات الفرنجية وجيرانها، وتدفقت الحبوب من الشرق لتنقذ المسيحيين من المجاعة[١٢].

وفى ابريل ١١٨٥م سار صلاح الدين باتجاه الشمال ، عابرا نهر الفرات عند البيرة فى الخامس عشر من الشهر . وهناك انضم اليه قوقبورى والى حران ومبعوثون من أتباع عز الدين ، واليا الجزيرة وإربيل ، وارسل عز الدين سفارات إلى الحكام السلاجقة فى قونية وشاه أرمن ، وأرسل الأخير بعض الجند لمساعدته ، وأرسل الأول رسالة تهديد لصلاح الدين ولكنه لم يُقدم على شيئ . وفى يونية كان صلاح الدين امام الموصل ، رافضا عروض عز الدين للسلام ، حتى عندما جاءته ام الأمير العجوز بنفسها لكى تحاججه . ولكن الموصل كانت ما تزال قلعة هائلة ؛ وبدأ جنود صلاح الدين يمرضون من حرارة الصيف . وعندما مات فجأة سلطان برسارمينيا السلجوقى ، سقمان الثانى ، زحف صلاح الدين شمالا للاستيلاء على المدن التابعة للسلطان ، دياربكر ومايافرقين ، ولكى يتيح لجنوده الراحة فى المناخ الأكثر برودة فى الأراضى المرتفعة . وهناك أصابه المرض هو نفسه واتجه على فرسه وهو يكاد يحتضر إلى قلعة

(١٢) Ernoul, pp.121-8; *Estoire d'Eracles*, II, pp.12-13; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp. 104-5.

صديقه قوقبورى فى حران . وأسرع اخوه العادل ، وهو الآن والى حلب ، باحضار أمهر أطباء الشرق، لكنهم لم يقدروا على شئ . ولما شعر بأن نهايته قد حانت ، ولعلمه بأن أقاربه يتآمرون على الميراث ، جعل امراءه يقسمون على الولاء لأبنائه. ثم بدأ يشفى دون توقع ، ولم يحل شهر يناير إلا وكان خطر المرض قد زال عنه . وفى نهاية فبراير استقبل سفارة من عز الدين ووافق على السلام . وفى ٣ مارس وقع السفراء على معاهدة أصبح عز الدين بموجبها تابعا لصلاح الدين وتم تثبيته فيما لديه من املاك ؛ أما الأراضى الواقعة عبر دجلة إلى الجنوب من الموصل ، بما فيها إربيل وشيزر فتقرر أن يحكمها أمراء يعينهم صلاح الدين ويدينون له بالولاء المباشر . وكان وجودهم بمثابة الضمان لولاء عز الدين[(١٣)] . ثم ذهب صلاح الدين نفسه إلى حمص ، حيث كان واليها ناصرالدين ، ابن شيركوه ، وصهر صلاح الدين ، قد تآمر على عرش سوريا أثناء مرض صلاح الدين ، ولذلك لم يفاجأ أحد عندما عثر عليه ميتا فى فراشه يوم ٥ مارس بعد الاحتفال بعيد الأضحى . ومنح ابن الضحية ، شيركوه الثانى ، وكان صبيا فى الثانية عشرة من عمره ولاية حمص . وصادر صلاح الدين الكثير من أمواله ، لكن الصبى تلى بلباقة آيات من القرآن الكريم تتوعد من يأكل أموال اليتامى بعذاب شديد ، وبذا استعادها . وفى ابريل عاد صلاح الدين إلى دمشق . الآن امتدت امبراطوريته امتدادا مأمونا حتى تخوم فارس[(١٤)].

كان من شأن الهدنة بين المسيحيين والمسلمين أن جلبت معها الازدهار إلى فلسطين، فتجددت حركة التجارة بنشاط بين داخل البلاد ومينائى عكا وصور ، مما عاد بالمزايا على التجار فى كل من الديانتين . وإذا ما أمكن الحفاظ على السلام إلى أن تأتى حملة صليبية كبيرة من الغرب ، إذن قد يكون للمملكة مستقبل . لكن الأقدار كانت قاسية على المسيحيين مرة اخرى . ففى حوالى نهاية اغسطس ١١٨٦م مات الملك بلدوين الخامس فى عكا ولما يبلغ التاسعة من عمره[(١٥)].

---

(١٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.98-103; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp.123-6; Abu Shama, .p.288; *Bustan*, p.581.

(١٤) Abu'l Feda, p.55. Lane Poole, *Saladin*, pp.194-5 تلى شيركوه الثانى الآية :"إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا"؛ Beha ed-Din, *P.P.T.S* PP .103-4

(١٥) .Ernoul, p. 129; *Estoire d'Eracles*, II, p. 25.

١١٨٦م : الإعلان عن سبيلا ملكة

كان الوصى ريموند والقهرمان جوسلين حاضرين إلى جانب فراش الموت . وأعرب جوسلين عن رغبتـه فـى التعـاون مـع ريمونـد ، وحثـه علـى الذهـاب إلى طبرية لدعـوة بارونات المملكة لمقابلته هناك حيث المأمن من مؤامـرات البطريـق ، كـى يستمر تنفيذ شروط وصية بلدوين الرابع ؛ وسوف ينقل هو نفسه الجثـة الصغيرة إلى القـدس لدفنهـا هناك . ووقع ريموند فى المصيدة وسافر بحسن نية . وما أن رحل حتى أرسـل جوسـلين من يثق بهم من الجنود لاحتلال صور وبيروت ، وبقى هو نفسه فى عكاحيث أعلن عن سبيلا ملكة ، وبعث بالجثة الملكية إلى القدس فى رعاية فرسان المعبد . واستدعى رسله سبيلا وجوى من عسقلان لحضور الجنازة ؛ وأسرع رينالد من الكرك للانضمام اليهما.

واكتشف ريمونـد أنـه انخـدع ، فهبـط إلى نـابلس ، إلى قلعـة باليـان امير ابيلـين ، واستدعى المحكمة العليـا للبارونـات بصفتـه الوصى الشرعى . وسـارع كـل مناصريه للانضمام اليه ؛ فكان مع باليان وزوجته الملكة ماريا وابنتهـا ايزابيـلا مـع همفـرى امير تبنين ، وبلدوين امير الرملة ، وولتر امير قيسارية ، ورينـالد امـير صيـدا ، وجميـع كبـار مستأجرى الأرض فى المملكة ، باستثناء رينالد (اوف شـاتيلون) . وهنـاك تلقـوا دعـوة من سبيلا لحضور حفل تتويجها . فكان ردهم أن أرسلوا راهبين بندكتيين كمبعوثين إلى القدس لتذكير المتآمرين بقسمهم للملك بلدويـن الرابـع ، ولمنـع اتخـاذ أى اجـراء إلى أن تعقد المحكمة مداولاتها .

لكـن القـدس والموانـى البحريـة تحـت سـيطرة سـبيلا . وكـان إلى جانبهـا جنـود القهرمان جوسلين والكونستابل أماليك – وهو اخو جوى – وقد أتـى رينـالد بجنـوده من منطقة الأردن . وأكّد لها البطريق هيراكليوس – وهو عشيق امها القديم – مسـاندة المؤسسة الكنسية . وأبدى السيد الأعظـم لفرسـان المعبـد ، جيرارد (اوف ريدفـورت) استعداده لأن يفعل أى شئ نكاية فى عدوه القديم ريمونـد . و لم يكـن فـى القـدس مـن بقى على اخلاصه للقسم سوى السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان جمهور القدس يحمل الكثير من التعاطف مع سبيلا ؛ إذ كانت تمثـل الحـق الوراثـى ، ورغـم أن العـرش كان مايزال بالانتخاب ، فليس من اليسير تجاهل المطالبـة بالوراثـة خاصـة وأن حقوقهـا كانت مؤكدة وقت طلاق امها ، وكان أخوها ملكـا وكذلـك ابنهـا. ونقطـة الضعـف الوحيدة لديها أن زوجها كان مكروها فى موضع الإزدراء .

أغلق البطريق وفرسان المعبد بوابات القدس ووضعوا الحراس لمنع أى هجـوم يشـنه

البارونات من نابلس ، ثم أعدوا العدة للتتويج . وكانت الشارة الملكية محفوظة فى خزانة لها ثلاثة أقفال يحتفظ بمفاتيحها البطريق والسيدان الأعظمان للنظامين العسكريين، مع كل واحد منهم مفتاح . ورفض روجر السيد الأعظم لفرسان المستشفى تسليم مفتاحه لما كان يعتبره متعارضا مع القسم الذى أقسمه، وفى نهاية الأمر ، وفى لفتة منه تدل على الغثيان ، ألقى بمفتاحه من النافذة . ورفض أن يشترك هو أو أى فارس من فرسانه فى حفل التتويج ، الذى أقيم حالما كان كل شئ جاهزا . ونظرا لانعدام شعبية جوى ، توج البطريق سبيلا فقط ، ولكنه وضع تاجا ثانيا إلى جانبها . وبعد أن وضع هيراكليوس التاج على رأسها ، دعاها لأن تستخدم التاج الثانى لتتويج الرجل الذى تظنه جديرا بحكم المملكة . فأشارت إلى جوى كي يقترب منها وينحنى أمامها ووضعت التاج على رأسه . ثم إن أفراد الصحبة المجتمعة أدوا فروض الولاء لمليكهم ومليكتهم الجديدين . وبينما كان جيرارد (اوف ريدفورت) يخطو خارجا، صاح بصوت مرتفع قائلا إن هذا التاج ما هو إلا انتقام من الزواج الذي تم في البطرون.

وإزاء حقيقة هذا التتويج ، لم تستطع المحكمة العليا فى نابلس أن تفعل شيئا . وفى الاجتماع نهض بلدوين أمير ابيلين قائلا إنه عن نفسه لن يمكث فى بلد يحكمه مثل هذا الملك ، ونصح البارونات كلهم بأن يحذوا حذوه ؛ لكن ريموند رد قائلا إنهم لم يفقدوا كل شئ بعد ، وقال إن الأميرة ايزابيلا وزوجها همفرى امير تبنين فى جانبهم ، فليتوّجا وليذهبا إلى القدس ؛ فلا يستطيع أندادهم الصمود أمام الجيوش المتحدة للبارونات جميعا، فيما عدا رينالد (اوف شاتيلون) وتعاطف فرسان المستشفى ، ليس إلا . وأضاف ريموند أنه طالما كان الوصي فإنه يضمن احترام صلاح الدين للهدنة . فوافقه البارونات وأقسموا على نصرته حتى وان كان ذلك يعنى الحرب الأهلية . على أنهم لم يدخلوا فى حسابهم واحدا من أهم الفاعلين من بينهم ؛ ذلك أن همفرى أصابه الرعب من المصير الذى ينتظره ، فهو لا يرغب فى أن يكون ملكا ؛ فتسلل من نابلس فى الحال قاصدا القدس حيث طلب مقابلة سبيلا . فرفضته بازدراء أول الأمر ، لكنه عندما وقف مرتبكا أمامها، يهرش رأسه ، لانت له ودعته إلى أن يفرغ قصته . وأصغت اليه

في حنان ثم أخذته بنفسها لمقابلة جوى ، الذى تلقى منه الولاء(١٦).

١١٨٦م : أول مجلس للملك جوى

تسبب فرار همفرى في هزيمة البارونات ، وأعفاهم ريموند من أيمانهم ، وذهبوا الواحد تلو الآخر إلى القدس لإعلان خضوعهم لجوى . حتى باليان أمير ابيلين وأكثرهم احتراما جميعا ، رأى أنه لا شئ يمكن عمله . لكن أخاه بلدوين أعاد ماقرره بأنه يفضل الرحيل عن المملكة على أن يقبل جوى ملكا لـه ؛ وانسحب ريموند امير طرابلس إلى أراضى زوجته في الجليل ، مقسما على أنه هو الآخر لن يقدم ولاءه للملك الجديد . لقد كان حريا أن يقبل ايزابيلا قبول الولاء كملكة ، غير أن ما أبداه همفرى من جبن أقنعه بأنه هو نفسه المرشح الوحيد الجدير بالعرش(١٧).

وسرعان ما عقد الملك جوى مجلس باروناته الأول في عكا . ولم يظهر ريموند ، وأعلن جوى أن بيروت التى كانت تحت اشراف ريموند باعتباره وصيا قد انتزعت منه ، وأرسل من يطلب منه تقديم حسابات الأموال العامة التى أنفقها أثناء وصايته . أما بلدوين أمير إبيلين ، الذى كان حاضرا ، فقد استدعاه رينالد (اوف شاتيلون) الذى كان واقفا بجانب الملك لكى يقدم ولاءه للملك . وبالكاد حيا الملك تحية رسمية وقال له إنه وهب أراضيه في الرملة لإبنه توماس الذى سوف يقدم ولاءه عندما يبلغ سن الرشد، وأنه هو نفسه لن يفعل ذلك قط . وغادر المملكة بعد أيام قلائل ، والتحق بالخدمة لدى بوهمند امير انطاكية الذى رحب به بسرور ومنحه اقطاعية اكبر من التى تركها ،

---

(١٦) Ernoul, pp.129-36، اكمل الروايات وأكثرها تصويرا؛ *Estoire d'Eracles*, II, pp.25-31; Radulph of Diceto, II, p.47; Arnold of Lübeck, pp. 116-17. المرجعان الأولان (الأكثر موثوقية) يحددان تاريخ التتويج في سبتمبر، ويحدده Ralph في أغسطس ، وArnoul في ٢٠ يولية. والوثيقة الأولى لـ جوى، مؤرخة في اكتوبر، .Rohricht, *Regesta*,p.873.

(١٧) من الواضح أن ريموند اعتبر نفسه مرشحا للعرش . ويذكر ابن جبير شائعات عن طموحاته في وقت مبكر يرجع الى ١١٨٣م (Ibn Jubayr, p.304). ويقتبس أبو شامة (ص ٢٥٧-٨) من تقرير عماد الدين أنه كان على استعداد للتحول الى الاسلام لتحقيق طموحه ، ويقول ابن الأثير (ص ٦٧٤) إنه كان يعوّل على مساعدة صلاح الدين . ويرد في *Historia Regni Hierosolymitani* (pp.51-2) المتأخرة، أنه طالب بالعرش لأن أمه (تسمى هنا Dolcis) ولدت بعد تتويج والده ، بينما ولدت مليسيند قبل التتويج . ولأن صغرى بنات بلدوين الثانى ، الديّارة Joveta، هى الوحيدة التى ولدت في الكاردينالية ، فلم يكن ليستطيع استخدام هذه الحجة . وربما أدلى في نابلس بحجة مماثلة لكى يبرر للبارونات اختيار ايزابيلا وليس سبيلا ، والمؤرخ خلط القصة .

و-لحق به هناك لوردات أقل ، إذ أن بوهمند لم يخف تعاطفه مع ريموند وحزبه[١٨].

وبينما كانت المملكة تتمزق هكذا إلى شيع مريرة من بعضها البعض، كانت الهدنة مع العرب تتزايد تماسكا وصمودا . وكان باستطاعة جوى رأب الصدع ، لكنه كان يفتقر إلى صديقه رينالد (اوف شاتيلون). وبفضل الهدنة عادت القوافل الضخمة بين دمشق ومصر إلى سابق عهدها دونما عائق فى الأراضى الفرنجية .وفى نهاية عام ١١٨٦م ارتحلت قافلة هائلة من القاهرة ومعها فرقة صغيرة من الجنود المصريين لحمايتها من البدو المغيرين ؛ وبينما كانت تعبر مؤاب انقض عليها رينالد فجأة ، فقتل الجنود وأخذ التجار وعائلاتهم بكل ممتلكاتهم معه إلى قلعة الكرك ؛ وكانت الغنيمة أكبر من كل ما سبق أن سلبه فى حياته . وسرعان ما وصلت صلاح الدين انباء العدوان ؛ واحتراما منه للمعاهدة أرسل إلى رينالد يطلب منه اطلاق سراح السجناء وتعويضهم عن خسائرهم . ورفض رينالد استقبال المبعوثين ، فذهبوا إلى القدس شاكين للملك جوى الذى أنصت اليهم بعين العطف وأمر رينالد بالانصياع . غير أن رينالد ، الذى يعلم أن جوى مدين له بالمساعدة فى الوصول إلى العرش والمحافظة عليه ، لم يعبأ بأوامره؛ و لم يستطع جوى، أو لم يشأ ، أن يفرض عليه الطاعة[١٩].

١١٨٧م : خيانة ريموند

ومع انتهاك الهدنة على تلك الصورة الوقحة لم يكن هناك بد من الحرب التى لا يستطيع بلد منقسم على امره مواجهتها . وسارع بوهمند امير انطاكية إلى تجديد معاهدته مع صلاح الدين[٢٠] . وعقد ريموند امير طرابلس معاهدة هدنة لبلده ووسعها بحيث تشمل إمارة زوجته فى الجليل ، حتى وان كان السيد الأعلى للمملكة فى حالة حرب مع المسلمين . وفى ذات الوقت ضمن تعاطف صلاح الدين الذي وعده بمساندته في مسعاه لأن يصبح ملكا للفرنج . وأيّا ماكانت تبدو عليه سياسة ريموند من الحكمة فقد كانت خيانة بلا ريب . وبتشجيع من جيرار السيد الأعظم لفرسان المعبد ،

---

(١٨) Ernoul, pp.137-9; *Estoire d'Eracles*, II, p.33, *Les Gestes des Chiprois* (p.659) يقول إن جوى أوشك أن يضرب بلدوين لولا عراقة مولده .

(١٩) *Estoire d'Eracles*, II, p. 34. يقول إن أخت صلاح الدين أسرت فى القافلة . والواقع أنها كانت عائدة من مكة مع قافلة تالية (انظر أدناه ص ٥١٢) ؛ Abu Shama, pp. 259-II.

(٢٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S* p. 109.

استدعى جوى أتباعه المخلصين وسار شمالا إلى الناصرة لإخضاع الجليل قبل أن يبدأ المسلمون هجومهم . على أن تدخل باليان امير إيبيلين هو فقط الذى جنب الفرنج الحرب الأهلية ؛ ذلك أنه عندما وصل إلى المعسكر سأل الملك بفظاظة : ماذا تفعل ؟ وعندما رد جوى بأنه سيحاصر طبرية ، أكد له باليان حماقة الخطة ، إذ أن ريموند ستكون له قوات اقوى من قوات الملك بما يستطيع الاعتماد عليه من مساعدة العرب ، وطلب باليان ، بدلا من الحرب ، أن يرسله الملك ليتحدث مع ريموند . على أن مناشدته للوحدة لم يكن لها أثر على الكونت ريموند الذى اشترط استرجاع بيروت ليخضع للملك . واعتبر جوى أن ذلك ثمنا فادحا[٢١] . على أنه بوصول أنباء استعدادات صلاح الدين للحرب الوشيكة ، ناشد باليان الملك مرة اخرى كى يتصالح مع ريموند . وذكّره بأخيه وهو فخور به قائلا : "لقد خسرت أفضل فارس فى شخص بلدوين امير الرملة ، فإذا ما خسرت مساعدة ومشورة الكونت ريموند أيضا ، فيكون فى ذلك نهايتك". ودائما ما كان جوى مهيأ للانصياع لمن يحادثه بصرامة ، فسمح لباليان بالذهاب فى سفارة جديدة إلى طبرية ، ومعه جوسياس رئيس أساقفة صور ، والسيدان الأعظمان لفرسان المستشفى والمعبد . وكان ضروريا لهذا الأخير ، وهو ألد أعداء ريموند ، أن يشترك فى أية تسوية[٢٢].

وانطلق المندوبون من القدس يوم ٢٩ ابريل ١١٨٧م ، يصاحبهم عشرة من فرسان المستشفى . وأمضوا تلك الليلة لدى باليان فى قلعة نابلس ، حيث كان باليان مشغولا ببعض الأعمال ، ولذ طلب من السيدين الأعظمين ورئيس الأساقفة أن يسبقوه ، إذ سيتخلف عنهم ذلك اليوم ويلحق بهم فى اليوم التالى فى قلعة الفولة La Fève ، فى سهل بزرعيل . وفى وقت متأخر من مساء ٣٠ ابريل ، غادر باليان نابلس مع حفنة من توابعه منتويا الانطلاق على الخيل طوال الليل ؛ لكنه تذكر فجأة أن الليلة هى ليلة القديس فيليب والقديس جيمس ، ولذا تنحى عن الطريق فى سبسطية ، التى تعتبر 'سامرة' القدماء ، وطرق باب قصر الأسقف . واستيقظ الأسقف واستقبلهم ، ومكثوا يتسامرون طوال الليل إلى أن انبلج الفجر وحان موعد القداس ، فقال لمضيفه إلى اللقاء ثم انصرف .

---

(٢١) Ernoul, pp.141-2; *Estoire d'Eracles*, II, pp.31-5. ويقول إيرنول إن ريموند تلقى بالفعل تعزيزات من صلاح الدين .

(٢٢) Ernoul, pp. 142-3. كان مقررا أن ينضم رينالد امير صيدا الى الوفد ، لكنه انطلق بمفرده .

وفى ٣٠ ابريل ، وبينما كان باليان يناقش بعض الأعمال مع توابعه ، وكان السيدان الأعظمان على جواديهما فوق التل فى طريقهما إلى الفولة ، تلقى الكونت ريموند مبعوثا من المسلمين فى بانياس ؛ ذلك أن ابن صلاح الدين الأصغر ، الذى كان قائدا للمعسكر هناك ، تلقى من أبيه تعليمات بارسال استطلاع فى فلسطين ، وفى تصرف سليم جدا طلب الإذن من ريموند كى يعبر رجاله أراضى الكونت فى الجليل . ولما كان ريموند ملتزما بمعاهدته الخاصة مع صلاح الدين فلم يستطع رفض هذا الطلب المحرج . وانما اشترط أن يعبر المسلمون الحدود بعد فجر اليوم التالى ويعودوا قبل حلول الظلام ، وألا يلحقوا الأذى بأية مدينة أو قرية في اراضيه ، ثم أنه أرسل رسله فى انحاء اقطاعياته كلها يطلب من الناس البقاء مع قطعانهم وراء الأسوار طوال اليوم ولا يخشوا شيئا . وفى تلك اللحظة سمع بمجئ الوفد من القدس ؛ فخرج رسول آخر ليخطر الوفد بنفس الإنذار . وفى باكورة أول مايو شاهد ريموند من قلعته الأمير قوقبورى وسبعة آلاف مملوك يتجولون على جيادهم فى مرح .

وفى نحو ضحى ذلك اليوم وصل باليان وصحبه إلى الفولة . وكانوا قد شاهدوا عن بعد خيام فرسان المعبد منصوبة أسفل الأسوار ؛ لكنهم عندما اقتربوا منها وجدوها خالية ؛ وقد خيم الصمت على القلعة نفسها. ودخل تابع باليان - إرنول - المبنى وانتقل من حجرة إلى اخرى ، ولم يجد أحدا سوى جنديين مستلقيين فى إحدى الشرفات العليا ، وهما فى حالة مرضية مميته ولا يقدران على الكلام . واحتار باليان وتملكه القلق . فانتظر ساعة أو ساعتين ، لا يستقر له قرار فيما يفعله ، ثم أنه انطلق مرة اخرى بطول الطريق الذاهب إلى الناصرة . وفجأة ظهر فارس من فرسان المعبد آتيا ينهب الأرض ركضا، أشعث الرأس تنزف منه الدماء وهو يصيح بكارثة مروعة .

١١٨٧م : عيون كريسون

وفى ذات الساعة كان ريموند فى طبرية يراقب المماليك وهم فى طريق عودتهم إلى وطنهم . لقد التزموا بما اشترطه عليهم . وكانت عودتهم قبل هبوط الظلام بوقت طويل ، ولم يعتدوا على أى مبنى فى المقاطعة. غير أن حرس الطليعة كان يحمل على أسنة رماحه رؤوس فرسان المعبد .

وصلت رسالة ريموند إلى السيدين الأعظمين فى الفولة مساء يوم ٣٠ من الشهر . وعلى الفور استدعى جيرار فرسان المعبد من الجوار للإنضمام اليه هناك ، على الرغم

من معارضة روجر فارس المستشفى . وكان قيّم فرسان المعبد - جيمس (اوف ميلى) - فى قرية كاكون التى تبعد مسافة خمسة أميال ، ومعه تسعون فارسا ، فجاء وامضى الليلة أمام القلعة . وفى الصباح التالى انطلق الخيّالة إلى الناصرة ، حيث انضم اليهم أربعون فارسا علمانيا، وبقى رئيس اساقفة صور هناك ؛ لكن جيرارد توقف لمجرد الصياح فى أهل المدينة بأن هناك معركة ستنشب حالا وأن عليهم المجئ لأخذ الغنائم . وبينا الفرسان يعبرون التل خلف الناصرة ، وجدوا المسلمين يسقون خيولهم من عيون كريسون أسفل الوادى. ومع تلك الأعداد الكبيرة نصح كل من روجر وجيمس (اوف ميلى) - القيّم - بالانسحاب ؛ فاهتاج جيرارد غيظا ، وتحول عن رفيقه السيد الأعظم وزجر قيّمه فى ازدراء قائلا : "إنك شديد الإعجاب برأسك الأشقر بحيث تكره أن تفقده"، فرد عليه جيمس فى كبرياء : "سأموت فى المعركة ميتة الشجعان ، وانما أنت الذى سيلوذ بفرار الخائنين" . وأشتعل الفرسان غيظا من هذه الإهانة ، فاندفعوا نحو المماليك . ولقد كانت مذبحة لا معركة ، وكان رأس جيمس الأشقر أحد الرؤوس الأخيرة التى سقطت ، وسقط بجانبها السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وفى لمح البصر قُتل كل فارس من فرسان المعبد فيما عدا ثلاثة كان جيرارد واحدا منهم ، وسابقوا الريح مع جراحاتهم عائدين إلى الناصرة ، وكان أحدهم هو الذى قابل باليان . وأما الفرسان العلمانيون فقد أسروا أحياء . وكان البعض من مواطني الناصرة الجشعين قد خرجوا إلى ساحة القتال لجمع الغنائم التى وعد بها جيرارد ، فأحيط بهم وأخذوا أسرى .

وبعد أن أرسل باليان إلى زوجته يحثها على جمع فرسانها ، لحق بجيرار فى الناصرة وحاول اقناعه بالذهاب إلى طبرية ، لكن جيرار تذرع بجراحاته الجسيمة ، ولذا واصل باليان رحلته مع رئيس الأساقفة ؛ فوجدا ريموند فى حالة من الرعب من المأساة التى جعلته يشعر أن سياسته هى التى يقع عليها اللوم . وقبل بسرور وساطة باليان ، فألغى معاهدته مع صلاح الدين ، وانطلق جنوبا إلى القدس حيث قدم فروض الطاعة للملك، الذى لم يكن حقودا برغم كل اخطائه واستقبل ريموند استقبالا ودودا بل واعتذر له عن الطريقة التى توّج بها . وأخيرا ، بدا أن المملكة قد اتحدت مرة اخرى[٢٣].

---

(٢٣) أورد Ernoul القصة بالكامل ، إذ كان مع باليان بصفته تبيعه *Estoire d'Eracles* pp.143-54 ؛II, pp. 37-44; Imad ed-Din, in Abu Shama, p. 262 ويقول ابن الأثير (p.678) إن الأفضل أرسل قرقبورى قائدا للحملة ويحدد عدد الفرسان بأنهم سبعة آلاف . ويرد فى *De Expugnatione* (pp. 21-11) نفس العدد ، لكن الرواية القصيرة تنكر أن ريموند أصر على عدم الاضرار بالملكية وتحاول تبييض زلات فرسان المعبد . وأما La Fève ، فهى قرية الفولة العربية (وكلا

١١٨٧م : صلاح الدين يعبر الأردن

وكذلك بدا صلاح الدين يوحد جيوشه . إذ كان معروفا أن صلاح الدين يجمع جيشا جرارا عبر الحدود فى حوران . وفى شهر مايو ، وبينما كان الحشد يتجمع من سائر انحاء الامبراطورية ، ذهب صلاح الدين فى رحلة هابطا الطريق المتجه إلى مكة ليرافق قافلة حج كانت فيها اخته وابنها عائدين من المدينة المقدسة، وذلك ليستوثق من أن رينالد لن يقدم على محاولة اخرى من غاراته فى قطع الطرق . وفى تلك الأثناء توافد الجنود من حلب والموصل وماردين ، إلى أن غدا جيشه أضخم الجيوش التى قادها قاطبة. وعبر الأردن استدعى جوى كبار مستأجرى الأرض ومستأجريهم جميعا لمقابلته مع رجالهم فى عكا . وكان النظامان العسكريان فى لهفة على الإنتقام لمذبحة كريسون، فجاءوا بكل ما كان لديهما من الفرسان ، ولم يتركوا سوى حاميات صغيرة للدفاع عن قلاعهم التى يسيطرون عليها . بل زاد فرسان المعبد من مساعدتهم بتسليم الملك نصيبهم من الأموال التى أرسلها مؤخرا الملك هنرى الثانى كفارة عن اغتيال توماس بيكيت[٢٤] . وقيل لهم أن يودعوها فى أحد المصارف لحساب الحملة الصليبية التى أقسم هنرى على الخروج بها ، لكن الاحتياج إلى المال الآن كان ملحّا ، وحمل الجنود الذين جهزتهم تلك الأموال راية معهم تدل على جيش هنرى . أما بوهمند أمير انطاكية ، فقد نال منه التأثر بعدما ناشده ريموند وباليان ، فوعد بارسال كتيبة تحت إمرة بلدوين امير إبيلين ، وأرسل ابنه ريموند لينضم إلى كونت طرابلس الذى كان بمثابة الأب الروحى له . وفى نهاية يونية تجمع فى معسكر أمام عكا ألف ومائتان فارس بكامل أسلحتهم وعدد اكبر من الخيالة الوطنية خفيفة الحركة من طبقة أنصاف الأتراك (Turcopoles) ، ونحوا من عشرة آلاف من المشاة . وطُلب من البطريق هيراكليوس أن يأتى ومعه الصليب الحقيقى ، لكنه رد بأنه يمر بوعكة وعهد بالصليب الحقيقى إلى رئيس دير رهبان القبر المقدس كى يعطيه لأسقف عكا . لقد فضّل - كما قال أعداؤه - البقاء مع محبوبته باشيا .

وفى يوم الجمعة ٢٦ يونية استعرض صلاح الدين جنوده فى عشترا فى حوران ؛ وقاد هو نفسه القلب وابن اخيه تقى الدين الميمنة وقوقبورى الميسرة . وسار الجيش فى

-الإسمين يعنى الحبة) وتقع فى منتصف المسافة بين حنين والناصرة .

(٢٤) (المترجم) القديس توماس أ بيكيت Saint Thomas à Becket (حوالى ١١١٨-١١٧٠م) : حبر انجليزى ، رئيس أساقفة كانتربرى، اغتيل بعد معارضته لهنرى الثانى . يوم احياء ذكراه ٢٩ ديسمبر .

تشكيلات قتال إلى خيسفين ومنها إلى الطرف الجنوبي لبحر الجليل ، حيث مكث خمسة أيام قامت فيها كشافته بجمع المعلومات عن القوات المسيحية . وفي أول يولية عبر الأردن إلى سن النبرة ، وفي الثاني من يولية عسكر بنصف جيشه في كفر سبت ، على التلال الواقعة على بعد خمسة أميال إلى الغرب من البحيرة ، بينما هاجم جنود أخيه طبرية التي سقطت في أيديهم بعد ساعة من القتال . وكان ريموند وأبناء زوجته مع جيش الملك، فلاذت الكونتيسة إشيفا ، بعد أن أرسلت رسولا ليخبر زوجها بما يحدث ، إلى القلعة حيث صمدت مع حاميتها الصغيرة .

ولما علم الملك جوى بأن صلاح الدين عبر الأردن ، عقد مجلسا مع باروناته في عكا. وتكلم الكونت ريموند أولا ، فأشار إلى أن حمّارة قيظ الصيف تعد من المساوئ للجيش الذى لا يبادر بالهجوم ، ولذا ينبغى أن ترتكز استراتيجيتهم على الهجوم الخالص، وسوف يتعذر على صلاح الدين الحفاظ على قواته الضخمة طويلا فى بلاد لافحة من الحر الشديد مع وجود الجيش المسيحى بلا هزيمة ، ولسوف يُجبر على الانسحاب بعد برهة ، وفى ذات الوقت سوف تأتى تعزيزات انطاكية . ومال أغلب الفرسان إلى الأخذ بنصيحته ؛ غير أن كلا من رينالد (اوف شاتيلون) وجيرارد السيد الأعظم اتهم ريموند بأنه جبان وأن العرب اشتروه . ودائما ما كان الملك جوى يقتنع بآخر المتكلمين ، وأصدر أوامره بأن يتحرك الجيش باتجاه طبرية .

وبعد ظهر الثانى من يولية عسكر المسيحيون عند صفورية ، فى موقع رائع لإقامة المعسكر توجد فيه المياه الوفيرة والمراعى الجيدة للخيل . ولو أنهم مكثوا هناك ، كما فعلوا قبل أربع سنوات عند عيون جولياث ، لم يكن صلاح الدين ليجازف بمهاجمتهم قط ، إذ كان جيشهم بنفس حجم جيشه وكانت لديهم ميزة الموقع ؛ غير أن مبعوث كونتيسة طرابلس جاءهم فى ذلك المساء ، فعقد جوى مرة اخرى مجلسا فى خيمته ، وتحركت مشاعر الفروسية لدى الفرسان بتفكيرهم فى تلك السيدة الشجاعة الصامدة صمود اليأس بجانب البحيرة ، وانهمرت عبرات أولادها وهم يتوسلون العمل على إنقاذ أمهم ، وتبعهم آخرون يؤيدون ضراعتهم . ثم نهض ريموند خطيبا ، فأعاد خطبته التى ألقاها فى عكا وانما بمزيد من التركيز اليائس ، وأوضح مدى حماقة التخلي عن هذا الموضع القوى والمجازفة بالسير المحفوف بالمخاطر فى حرارة يولية على جوانب التلال الوعرة . وقال إن طبرية هى مدينته والمدافع عنها هى زوجته ، بيد أنه يرى أن تضيع طبرية بكل ما فيها بدلا من أن تضيع المملكة . وحملت كلماته فى طياتها الحجة المقنعة. وانفض المجلس فى منتصف الليل وقد عزم على البقاء فى صفورية.

وبعد أن عاد البارونات إلى أقسامهم ، زحف السيد الأعظم لفرسان المعبد عائدا إلى الخيمة الملكية وقال : "سيدى، أتراك تثق فى خائن ؟" من العار أن تضيع مدينة لا تبعد سوى ستة فراسخ ؛ وأعلن أن فرسان المعبد خليقون بأن يتخلوا عن نظامهم العسكرى عن أن يتخلوا عن ثأرهم من الكفرة . وكان جوى مخلصا فى اقتناعه بما قاله ريموند قبل ساعة ، لكنه تذبذب وترك جيرار يفرط فى اقناعه . وأرسل المنادين فى انحاء المعسكر يعلنون أن الجيش سوف يتحرك فجرا باتجاه طبرية .

١١٨٧م : الفرنج يعسكرون فى لوبيًا

كان أفضل طريق من صفورية إلى طبرية يمضى منحرفا شمالا انحرافا طفيفا عن الشرق عبر تلال الجليل ثم يهبط إلى البحيرة على بعد ميل إلى الشمال من المدينة . وكان الطريق البديل يمضى إلى الجسر فى سن النبرة حيث يمضى أحد روافد النهر شمالا بمحاذاة شاطئ البحيرة . وكان معسكر صلاح الدين فى كفر سبت يقع عبر طريق سن النبرة الذى سلكه آتيامن أعلى النهر . ومن الجائز أن ذهب بعض الخونة من معسكر المسيحيين وأخبروه بأن جوى سيخرج من صفورية بطول الطريق الشمالى ، ولذلك قاد جيشه نحوا من خمسة أميال عبر تلال حطّين حيث يبدأ الطريق فى الهبوط باتجاه البحيرة، وكانت حطّين عبارة عن قرية ذات مراع واسعة ومياه وفيرة ؛ وانضم اليه هناك أغلب جنوده الذين كانوا فى طبرية تاركين مجرد العدد المطلوب لحصار القلعة .

وكان صباح يوم الجمعة ٣ يولية صباحا حارا انعدم فيه الهواء ، وقد شهد ذلك الصباح خروج الجيش المسيحى من حدائق صفورية الخضراء للسير على التلال العارية من الأشجار . وجريا على التقاليد الإقطاعية ، كان ريموند أمير طرابلس قائدا للطليعة بصفته لورد الإقطاعية ، وقاد الملك الوسط ، وأما المؤخرة فكانت تحت قيادة رينالد والنظامين العسكريين وباليان ابيلين . وكان الطريق بطوله خاليا من المياه ، وسرعان ما بدأت المعاناة المريرة من الظمأ لدى الرجال والجياد سواء بسواء ، وأبطأت معاناتهم من سيرهم ، ودأب المناوشون المسلمون على مهاجمة حرس الطليعة وحرس المؤخرة ، يطلقون السهام فتنهمر فى وسطهم ثم ينسحبون بعيدا قبل أى هجوم مضاد . وبحلول عصر ذلك اليوم وصل الفرنج إلى الهضبة التى تعلو حطّين مباشرة ، وبدا أمامهم تل صخرى بقمتين مرتفعتين نحوا من مائة قدم ، ووراءه تنحدر الأرض انحدارا شديدا نحو القرية ثم إلى البحيرة . وكان التل يسمى "قرنا حطّين" . وأرسل فرسان المعبد يخبرون

الملك بأنهم لا يستطيعون اليوم المضى أكثر من ذلك ، وترجاه بعض البارونات أن يأمر الجيش بالاندفاع وشق طريقه حربا إلى البحيرة ؛ غير أن جوى تأثر بمعاناة رجاله فقرر التوقف تلك الليلة . وما أن سمع ريمونـد بذلـك حتى عـاد مـن المقدمـة على جواده صائحا: "آه أيها الرب الإله ، لقد انتهت الحرب ، انما نحن رجـال موتـى ، لقـد انتهت المملكة ." وأخذا بنصيحته ضرب جوى معسكره بعد لوبيّة مباشرة ، باتجاه منحدر القرنين حيث يوجد بئر تحلّق حوله الجيش كله . على أنهم أساءوا اختيار الموقع ، إذ كان البئر جافا .

ولم يملك صلاح الدين ضبط مشاعر غبطته وهو ينتظر فى الوادى المخضوضر بأسفل . لقد جاءته فرصته أخيرا .

وأمضى المسيحيون ليلة بائسة يستمعون إلى صلوات المسلمين وتلاواتهم الآتية اليهم من أسفل. وانطلق جنود قليلون من المعسكر فى بحث عقيم عن الماء ، فقط ليقتلهم الأعداء . وكى يفاقم المسلمون من معاناة الفرنج أشعلوا النيران فى الأعشاب الجافة التى تغطى التل ، واندفع الدخان الحار ليملأ المعسكر. وتحت غطاء الظلام حرك صلاح الدين رجاله أعلى التل . وعند انبلاج فجر يوم السبت ٤ يولية ، أصبح الجيش الملكى ليجد نفسه محاصرا . ويقول المؤرخ إنه لم يكن باستطاعة أحد التسلل من شبكة الحصار حتى وان كانت قطة .

١١٨٧م : معركة حطّين

وسرعان ما بدأ هجوم المسلمين بعد الفجر . فأما جنود المشاة المسيحيون فلم يكن يسيطر على ذهنهم سوى شئ واحد ، الماء . فاندفعوا فى خضم عارم محاولين شق طريقهم أسفل المنحدر باتجاه البحيرة التى كانت مياهها تبدو أسفلهم لامعة جاذبة ، فدُفعوا أعلى رابية طوقتها النيران والأعداء ، وقتل خلق كثير منهم لتوهم ، وأسر آخرون ؛ وكان مشهدهم وهم رقود فى جراحاتهم وبأفواههم المتورمة تشير فائق الألم بحيث ذهب خمسة من فرسان ريموند إلى قادة المسلمين يتوسلون اليهم كى يقتلوهم جميعا رحمة بهم وبما هم فيه من بؤس . وأما الخيالة على التل ، فقد حاربوا بشجاعة فائقة يائسة وصدوا هجمات الخيالة المسلمين ، التى كانت تجبر الهجمة تلو الأخرى على العودة وبها خسائر ؛ غير أن أعدادهم كانت آخذة فى التضاؤل ، ووهنت عزائمهم من العطش ، وبدأت قوتهم تخذلهم . وقبل أن يسبق السيف العذل، ونزولا

على طلب الملك ، قاد ريموند فرسانه فى محاولة لإختراق صفوف المسلمين ؛ وانقض بكل ثقل رجاله على الكتائب التى يقودها تقى الدين ، لكن تقى الدين فتح لـه صفوفه ليمر من بينها، ثم أطبق عليه مرة اخرى من خلفه ، فلم يتمكن ريموند وفرسانه من شق طريق العودة إلى رفاقهم ، فارتحلوا فى بؤسهم بعيدا عن ميدان القتال ويمموا وجوههم شطر طرابلس . وبعد قليل تمكن باليان أمير ابلين ورينالد امير صيدا من شق طريقهم خارجين من ساحة القتال . وكانا آخر الهاربين .

تبدد أمل المسيحيين الآن ، لكنهم واصلوا القتال وقد تراجعوا إلى أعلى التل ، إلى القرنين . ونقلت خيمة الملك الحمراء إلى القمة وأحاط به فرسانه . وكان الأفضل، ابن صلاح الدين الصغير بجانب أبيه يشهد أول معاركه . وبعد المعركة بسنوات كثيرة أعرب عن تقديره لشجاعة الفرنج وقال : "عندما انسحب الملك الفرنجى إلى قمة التل ، حمل فرسانه بشجاعة على المسلمين ودحروهم منكبين إلى أبى . وراقبت فزعه . تغير لون وجهه وشد على لحيته ، ثم اندفع إلى الأمام صائحا : "كذّبوا الشيطان" ، فانقض رجالنا على الأعداء الذين تراجعوا أعلى التل . وعندما شاهدت الفرنج يهربون صرخت مسرورا : "هزمناهم" لكنهم هجموا ثانية ودحروا رجالنا إلى حيث كان يقف أبى . فعاود حث رجاله للتقدم إلى الأمام ، فدحروا الأعداء مرة أخرى إلى اعلى التل . ومرة اخرى صرخت "هزمناهم" . فالتفت أبى الي وقال : "اسكت . إننا لم نهزمهم طالما بقيت تلك الخيمة هناك." . وفى تلك اللحظة انقلبت الخيمة ، فترجل والدى وخر ساجدا على الأرض شكرا لله وهو يذرف دموع الفرح".

١١٨٧م : فى خيمة صلاح الدين

قتل أسقف عكا . وانتقل الصليب الحقيقى الذى حمله فى المعركة إلى أيدى الكفرة. وأخطأ الموت القليل من جياد الفرسان . وعندما وصل المنتصرون إلى قمة التل وجدوا الفرسان انفسهم وبينهم الملك ممددين على الأرض ، وقد أنهكوا حتى لم يقوالفارس منهم على مواصلة القتال ، وتبقت لديهم بالكاد القوة كى يسلموا سيوفهم استسلاما . واقتيد زعماؤهم إلى خيمة صلاح الدين التى نصبت فى ساحة المعركة[٢٥].

استقبل صلاح الدين الملك جوى وأخاه الكونستابل أمالريك ، ورينالد (اوف

---

(٢٥) للإطلاع على الوقائع المعقدة المتناقضة حول حملة حطين ، انظر أدناه المرفق الثانى .

شاتيلون) وابن زوجته همفرى امير تبنين ، والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، والمركيز العجوز امير مونتفرات ، ولوردات جبيل والبطرون ، والكثير من البارونات الأقل في المملكة . وحيّاهم تكرما ، وأجلس الملك إلى جانبه . ولما لاحظ عطشه ناوله قدحا من ماء الورد ، مبردا بثلوج جبل هرمون . وشرب منها الملك جرعة ثم ناولها لرينالد الذى كان إلى جانبه . وتقاليد الضيافة العربية تقضى بأن إعطاء الطعام أو الشراب لأسير يعنى أن حياته مأمونة، ولذا سارع صلاح الدين قائلا للمترجم : "قل للملك إنه هو الذى أعطى ذلك الرجل شرابا وليس أنا." ثم تحول إلى رينالد الذى لم يستطع أن يغفر له زندقة لصوصيته ، فذكره بجرائمه ، وخيانته ، وتجديفه في الدين ، وجشعه . وعندما رد رينالد بغلظة ، تناول صلاح الدين نفسه سيفا وأطاح برأسه . وارتجف جوى ظنا منه أن دوره سيأتى بعده ؛ لكن صلاح الدين هدأ من روعه قائلا : "الملك لا يقتل ملكا. لكن غدر ذلك الرجل بلغ شأوا بعيدا" . ثم أصدر أوامره بألا يؤذى أحد من البارونات العلمانيين وأن يعامل الجميع بكياسة واحترام أثناء أسرهم . على أنه لم يبق على أرواح فرسان النظامين العسكريين، فيما عدا السيد الأعظم لفرسان المعبد . وكانت جماعة من متعصبى المسلمين من الصوفية قد انضمت إلى جنوده، فعهد اليهم بمهمة قتل الأسرى من فرسان المعبد والمستشفى، فأنجزوا بقابلية ما عهد به اليهم. ثم رحل بجيشه عن حطين، أما الجثث التى ملأت ساحة المعركة فتركت للذئاب والضباع.

وأرسل الأسرى إلى دمشق حيث أودع البارونات في اماكن مريحة ، وبيع الأسرى من الأفقر في سوق العبيد . وكانت أعدادهم كبيرة بحيث هبط ثمن الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير ، وإنك لتستطيع أن تشترى أسرة في صحة جيدة بكاملها تتألف من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتيه بثمانين دينارا ؛ بل إن أحد المسلمين فكر في صفقة رابحة بأن يستبدل سجينا بزوج صندل[٢٦].

سبق لمسيحيي الشرق أن عانوا من الكوارث قبل ذلك . وسبق أن أسر ملوكهم وأمراؤهم ، غير أن آسريهم آنذاك كانوا من صغار الأمراء الذين كانوا يخرجون سعيا لكسب زهيد . أما على قرني حطين فقد هلك أضخم جيش جمعته المملكة في تاريخها، وضاع الصليب الحقيقى ، وكان المنتصر عاهل العالم الإسلامى كله .

(٢٦) Beha ed-Din, *P P T.S* pp. 114-15, Kemal ed-Din (ed. Blochet, pp.180-1) ، يورد كمال الدين رواية تختلف اختلافا طفيفا لكنها تحمل نفس المعنى؛ ويورد Ernoul (pp 172-4) نفس القصة تقريبا.

١١٨٧م : فلسطين تستسلم لصلاح الدين

لم يبق أمام صلاح الدين بعد أن قضى على أعدائه سوى احتلال قلاع الأراضي المقدسة . أما كونتيسة طرابلس ، فقد سلّمت له طبرية بعد أن تلاشت امكانية وصول مساعدة لها ، وقد عاملها بما تستحقه من التشريف وسمح لها بالذهاب إلى طرابلس مع كل أفراد اسرتها ثم أنه نقل سواد جيشه جنوبا إلى عكا. ولم يكن القهرمان جوسلين (اوف كورتناي) يفكر إلا في سلامته الشخصية . فأرسل مواطنا يدعى بطرس بريس لمقابلة صلاح الدين عندما جاء امام الأسوار يوم ٨ ابريل ، يعرض الاستسلام إذا ضمن أرواح وممتلكات السكان . وبدا للكثيرين في المدينة أن من العار أن تستسلم المدينة هذا الاستسلام الذليل ، فحدثت أعمال شغب لفترة قصيرة أحرقت فيها عدة منازل ؛ لكن النظام استتب قبل استيلاء صلاح الدين على المدينة رسميا في العاشر من الشهر . وكان يعلق الآمال على اقناع اغلب التجار المسيحيين بالبقاء هناك ، لكنهم كانوا يخشون المستقبل فهاجروا ومعهم كل منقولاتهم ، ووجد المنتصرون مخزونات هائلة من البضائع، والحرير، والادوات المعدنية ، والمجوهرات ، والأسلحة ، تخلى عنها التجار فراحوا يوزعونها ، بإشراف ابن صلاح الدين الأفضل الذى أعطيت له المدينة ، على الجنود والرفاق . واما مصنع السكر الضخم فقد انتهبه تقى الدين مما ضايق صلاح الدين[٢٧] . وبينما مكث صلاح الدين فى عكا، كانت كتائب من جيشه تتسلم المدن والقلاع التى تستسلم في الجليل والسامرة . وفى نابلس صمدت حامية باليان لأيام قلائل وحصلت على شروط مشرفة عندما استسلمت ؛ وقاومت قلعة تبنين لأسبوعين قبل أن تستسلم حاميتها . كان هناك القليل من المقاومة فى اماكن اخرى[٢٨] . وفى تلك الأثناء جاء أخو صلاح الدين ، العادل ، من مصر وحاصر يافا . ولم تستسلم له المدينة ، لذا استولى عليها عنوة وأسر كل السكان من الرجال والنساء والأطفال . ووجد أكثرهم الطريق إلى اسواق العبيد والحريم في حلب[٢٩].

بعد استيلاء صلاح الدين على الجليل اتجه إلى الساحل الفينيقى . وكان أغلب

(٢٧) Ernoul, *loc. cit.; Estoire d'Eracles,* II, oo, 70-1; Abu Shama, pp.295-7; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*P. 116; Ibn al-Athir, pp.688-90.

(٢٨) *Estoire d'Eracles,* II, p.68, *De Expugnatione,* pp.31-4؛ ولم يذكر بهاء الدين ، سوى طورون ؛ Abu Shama, pp.300-6; Ibn al-Athir, *loc. cit*..

(٢٩) Ibn al-Athir, pp.690-1. وقد اشترى هو نفسه أمة فى سوق حلب ، بنتا صغيرة فقدت زوجا وستة أطفال (ص ٦٩١)؛ *De Expugnatione,* p.229.

الباقين على قيد الحياة في حطين قد هربوا مع باليان إلى مدينة صور ، التي كانت حاميتها قوية وكانت أسوارها الضخمة التي تحرسها من جهة الأرض شديدة المناعة ؛ وبفشل هجومه الأول ، تركها وانطلق إلى صيدا التي استسلمت من فورها يوم ٢٩ يولية . وهرب أميرها ، رينالد ، إلى قلعته المنيعة شقيف أرنون في داخل البلاد . وحاولت بيروت الدفاع عن نفسها ، لكنها استسلمت يوم ٦ أغسطس ؛ واستسلمت جبيل بعدها بأيام قلائل بأوامر من اميرها هيو إبرياكو الذى اطلق صلاح الدين سراحه بهذا الشرط . وبحلول نهاية اغسطس لم يبق للمسيحيين جنوب طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة ، وبعض الحصون القليلة المبعثرة ، ومدينة القدس المقدسة(٣٠).

وفى سبتمبر ظهر صلاح الدين امام عسقلان وقد أحضر معه أهم أسيرين لديه ، الملك جوى والسيد الأعظم جيرارد . وقد قيل لجوى إن ثمن حريته استسلام عسقلان ؛ ولدى وصوله أمام الأسوار ألقى خطبة للمواطنين طالبا منهم التخلى عن الكفاح ، وكذلك فعل جيرارد ؛ لكن المواطنين ردوا عليهما بتوجيه الإهانات إليهما . وكان الدفاع عن عسقلان دفاعا شجاعا ، وخسر صلاح الدين في الحصار اثنين من امرائه . على أن الحامية أرغمت على الاستسلام يوم ٤ سبتمبر ، وسمح للمواطنين بالرحيل مع كل منقولاتهم . ورافقهم حراس صلاح الدين إلى مصر حيث نزلوا فى اماكن مريحة فى الاسكندرية ، إلى أن يُرحّلوا إلى أراض مسيحية(٣١) . أما في غزة ، حيث تقضى قوانين نظام فرسان المعبد بطاعة سيدها الأعظم ، فقد أجبرت الحامية على الإذعان لأمر جيرارد بالاستسلام على الفور ، وحصل بدلا من القلعة على حريته(٣٢). لكن الملك جوى مكث فى السجن لعدة أشهر ، أولا فى نابلس ، ولاحقا فى اللاذقية ؛ وسمح للملكة سبيلا بالحضور من القدس للإنضمام اليه . وكما توقع صلاح الدين دون شك، كان لإطلاق سراحهما في الربيع التالى أن زاد المسيحيين حرجا على حرج(٣٣).

---

(٣٠) Beha ed-Din *P.P.T.S* pp.116-17; Abu Shama, pp.306-10; Ibn al-Athir, pp.692-3; *De Expugnatione*, p.236.

(٣١) Ernoul, p.184; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 78-9, *De Expugnatione*, pp.236-8; Beha ed-Din, *P.P.T.S*.P.117; Ibn al-Athir, pp.696-7.

(٣٢) Abu Shama, pp.312-13; Beha ed-Din, *loc.cit;* Ibn al-Athir, p. 697.

(٣٣) استنادا الى Ernoul (pp.175, 185)، كانت سبيلا فى القدس حتى عشية الحصار وسمح لها وقتئذ بالذهاب الى نابلس (p.185). Ibn al-Athir, p.703; *Estoire d'Eracles*, II, p.79؛ ويقول pp.21-3, *Itinerarium Regis Ricardi* إن سبيلا كانت في القدس طوال الحصار ثم ذهبت الى نابلس لمجرد مقابلة قصيرة . ويقول بهاء الدين (*P.P.T.S*.P.143) إن صلاح الدين أخذ جوى الى طرطوس وأطلق سراحه هناك أثناء أن كان صلاح الدين يحاصر كيراك دى شيفالييه. وكان ذلك فى يولية ١١٨٨م ،

١١٨٧م : الدفاع عن القدس

فى ذات اليوم الذى دخل فيه جنود صلاح الدين عسقلان خسفت الشمس ؛ واستقبل صلاح الدين فى الخفاء وفدا من مواطنى القدس كان قد استدعاه لمناقشة شروط استسلام المدينة المقدسة. على أنه لم تكن هناك مناقشة ؛ إذ رفض الوفد تسليم المدينة التى مات فيها ربّهم من أجلهم ، وعادوا بكبريائهم إلى القدس ، وأقسم صلاح الدين أن يأخذها بالسيف . وجاء إلى القدس من أغانها دون توقع ؛ ذلك أن إبيلين باليان ، الذى كان مع اللاجئين الفرنج فى صور ، أرسل إلى صلاح الدين ملتمسا مرورا مأمونا إلى القدس ، إذ كانت زوجته ، الملكة ماريا ، قد لجأت اليها من نابلس حيث مكثت هناك مع أطفالها وقد أبدى رغبته فى احضارهم إلى صور . ولبّى صلاح الدين طلبه شريطة أن يمضى بالقدس ليلة واحدة وألا يحمل سلاحا . وعندما وصلها وجد البطريق هيراكليوس ومسؤولى النظامين العسكريين يحاولون تهيئة المدينة للدفاع ، ولكن لم يكن هناك قائد يثق فيه الناس . وتصايحوا جميعا بأنه ينبغى لباليان البقاء لقيادتهم ، وانهم لن يدعوه يرحل . وفى حرجه العميق ، كتب باليان إلى صلاح الدين يشرح له حنثه بيمينه . وكان صلاح الدين دائما كيّسا مع عدو يحترمه . فلم يغفر لباليان وحسب ، بل أرسل هو نفسه حرسا لنقل الملكة ماريا ، وأطفالها ، وعائلتها ، وجميع ممتلكاتها جنوبا إلى صور[٣٤] . ورحل معها ابن أخى باليان الصغير توماس (اوف ابيلين) وابن هيو (اوف جبيل) الصغير . وبكى صلاح الدين لرؤية هؤلاء الأطفال ، ورثة المهابة التى ولت ، وهم يمرون خلال معسكره إلى المنفى .

وفى القدس بذل باليان مافى وسعه . وتضخم عدد السكان باللاجئين من كافة المقاطعات المجاورة ، والقليل منهم يصلح للقتال . فكان لكل رجل خمسين امرأة وطفل. ولا يوجد سوى فارسين اثنين فى المدينة ؛ ولذا منح باليان الفروسية لكل صبى تجاوز السادسة عشرة وولد فى اسرة نبيلة ، ولثلاثين رجلا من البورجوازيين . وبعث بالفرق تجمع كل ما تجده من طعام قبل أن تأتى الجيوش الإسلامية لتحكم حصار المدينة

قبل استيلاء صلاح الدين على طرطوس بأيام قلائل . وربما أخطأ صلاح الدين فى ذكر اسم طرطوس بدلا من طرابلس ، لكن تاريخ الافراج كان بالقطع فى يولية ١١٨٨. ومع ذلك يقول Ernoul (p.185) ان جوى أطلق سراحه فى مارس ١١٨٨م ، لكنه يذكر التاريخ (فى ص ٢٥٢) عندما كان صلاح الدين يحاصر طرابلس (يولية ١١٨٨م). ويقول *Itinerarium* إن جوى أطلق سراحه فى طرطوس حيث انضمت اليه سبيلا أخيرا (p.25).

(٣٤) .Ernoul, pp. 174-5, 185-7; *Estoire d'Eracles,* II, pp.81-4; *De Expugnatione,* p.238.

وتولى مسؤولية الخزانة الملكية والأموال التى أرسلها هنرى الثانى إلى فرسان المستشفى . بل أنه نزع الفضة من سقف القبر المقدس ، ووزع السلاح على كل رجل يستطيع حمله.

وفى ٢٠ سبتمبر عسكر صلاح الدين امام المدينة وبدأ مهاجمة الأسوار الشمالية والشمالية الغربية ، لكن الشمس كانت فى مواجهة أعين جنوده والدفاعات قوية . وبعد خمسة أيام نقل معسكره. وللحظة قصيرة ظن المدافعون أنه رفع الحصار ؛ ولكنه اقام جيشه فى صباح ٢٦ سبتمبر فوق جبل الزيتون ، وراح بعض المتسللين من جيشه تحت حماية فرسانه يزرعون الألغام فى السور بالقرب من بوابة العمود ، غير بعيد من الموضع الذى اقتحم فيه المدينة جودفرى (اوف لورين) قبل ذلك بثمانية وثمانين عاما. وبحلول يوم ٢٩ سبتمبر كانت هناك فجوة كبيرة فى السور ؛ وتجمع المدافعون حولها بقدر استطاعتهم ، وحاربوا باهتياج ، لكن عددهم كان ضئيلا بحيث استحال عليهم الصمود طويلا أمام جحافل أعدائهم . وود جنود الفرنج أن يقوموا بخروج رائع ولو أدى ذلك إلى موتهم ، لكن البطريق هيراكليوس لم يكن يفكر فى أن يصبح شهيدا ، وقال لهم إنهم إن يفعلوا ذلك ، فسوف يتركون نساءهم واطفالهم للرق المحتم ، ولن يمنح بركته لمثل هذا التصرف العارى من الورع . وآزره باليان الذى ارتأى الحماقة فى خسارة المزيد من الأرواح . وفى ٣٠ سبتمبر ذهب هو نفسه إلى معسكر الأعداء يلتمس من صلاح الدين وضع شروطه .

١١٨٧م : استسلام القدس

كانت المدينة تحت رحمة صلاح الدين الذى يستطيع قصفها وقتما يحلو له ، فضلا عن أن له بداخلها الكثير من الأصدقاء المحتملين . ذلك أن كبرياء الكنيسة اللاتينية كان دائما موضع ازدراء المسيحيين الأرثوذوكس الذين كانوا يؤلفون أغلب سكان المدينة الأكثر فقرا . ولم يكن هناك صدع قاطع بينهما ؛ إذ كانت العائلة الملكية والنبلاء العوام، إلا فى انطاكية ، يظهرون مشاعر الود والاحترام لرجال الدين الأرثوذوكس . غير أن قمة الهرمية كانت قاصرة على اللاتينيين . وفى مكان عبادتهم المقدس الكبير كان المسيحيون المحليون يضطرون إلى حضور الصلوات بلغة وطقوس غريبة عنهم . وكانت الذكريات ترجع بهم إلى أيام الحكام المسلمين عندما كانوا يمارسون عبادتهم كما يحلو لهم ؛ وكان المستشار الخصوصى لصلاح الدين لشؤون الأمراء المسيحيين

علاّمة ارثوذوكسيا من القدس يدعى يوسف باتيت وقد أجرى الآن اتصالاته مع الطوائف الأرثوذوكسية فى المدينة ، ووعدوا بفتح البوابات لصلاح الدين .

على أنه لم تكن هناك حاجة إلى تدخلهم . ذلك أنه عندما جاء باليان أمام خيمة صلاح الدين ، أعلن صلاح الدين أنه أقسم أن يستولى على المدينة بالسيف ، ولا يحله من هذا القسم سوى الاستسلام غير المشروط . وذكّر باليان بالمذابح التى ارتكبها المسيحيون عام ١٠٩٩م ، فهل يكون تصرفه غير ذلك؟ وتأججت المعركة أثناء المناقشة، وأشار صلاح الدين إلى رايته التي ترفرف الآن على أسوار المدينة . على أنه فى اللحظة التالية اندحر رجاله إلى الخلف ؛ وحذر باليان صلاح الدين أنه مالم يحصل على شروط مشرفة فإن المدافعين عن المدينة سوف يدمرون فى يأسهم قبل أن يموتوا كل شئ فى المدينة بما في ذلك المبانى التى يقدسها المسلمون فى منطقة المعبد ، وسيقتلون الأسرى المسلمين لديهم . وكان صلاح الدين على استعداد لإظهار الكرم طالما سلطته معترف بها ، وكان يرغب فى أن تعانى القدس قليلا بقدر الإمكان . فوافق على وضع شروط ، عارضا أن يفتدى المسيحيون جميعا أنفسهم بعشرة دنانير للرجل، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينار واحد للطفل . فأشار باليان إلى وجود عشرين ألف من الفقراء فى المدينة ليس بامكانهم أبدا دفع هذا المبلغ . فهل يقبل مبلغا اجماليا تدفعه السلطات المسيحية نظير حريتهم جميعا ؟ وكان صلاح الدين على استعداد لقبول مائة الف دينار عن الفقراء كلهم وعددهم عشرين الف شخص ، لكن باليان يعلم عدم امكان جمع هذا المبلغ ، فاتفقا على تحرير سبعة آلاف شخص نظير مبلغ ثلاثين ألف دينار . وبناء على اوامر باليان ألقت الحامية سلاحها؛ ودخل صلاح الدين القدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر الذى يوافق ٢٧ رجب ، وهو ذكرى اسراء النبى إلى القدس ومعراجه إلى السماء .

١١٨٧م : اللاجئون

كان المنتصرون أهل استقامة وإحسان . وحيث كان الفرنج قبل ثمانية وثمانين عاما يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم يُنتهب الآن مبنى واحد ، ولم يُصب شخص واحد . وبأوامر صلاح الدين طاف الحراس فى الشوارع والأبواب للحيلولة دون أى اعتداء على المسيحيين . وراح كل مسيحيى يجاهد ليجد المال اللازم لفديته ، وأفرغ باليان الخزانة لجمع ما وعد به وهو ثلاثين الف دينار . وكان من العسير اجبار نظامى المستشفى والمعبد على أن يتقيّآ كل منهم ثروته ؛ ولم يكن البطريق وهيئة الكنيسة

يهتمون إلا بأنفسهم فقط . وصُدم المسلمون لرؤية هيراكليوس وهو يفتدى نفسه بدنانيره العشرة تاركا المدينة ترزح تحت ثقل الذهب الذى كان يحمله معه ، تتبعه العربات المحملة بالسجاجيد والصحاف . وبفضل ما تبقى من منحة هنرى الثانى ، أمكن تحرير فقراء المدينة العشرين الف ؛ وكان ممكنا تلافى الرق لآلاف كثيرة لو كان النظامان العسكريان والكنيسة اكثر كرما . وسرعان ما توافد المسيحيون فى صفين طويلين خارجين من البوابات ، أحد الصفين يضم من دفعوا فديتهم بأنفسهم أو دفعها عنهم باليان ، والصف الآخر لغير القادرين على أن يفتدوا أنفسهم ولذا كانوا ذاهبين إلى الرق . وكان المشهد غاية فى الأسى بحيث التفت العادل إلى اخيه صلاح الدين ملتمسا منحه ألفا منهم جائزة له على خدماته ، فلبى صلاح الدين طلبه ، فأعتقهم العادل لتوه . وانبسطت أسارير البطريق هيراكليوس إذ عثر على وسيلة رخيصة لفعل الخير ، فالتمس منحه بعض العبيد ليعتقهم ، فمُنح سبعمائة ، ومنح باليان خمسمائة . ثم أعلن صلاح الدين نفسه أنه سيعتق كل رجل مسن وامرأة عجوز . وجاءته السيدات الفرنجيات اللاتى افتدين انفسهن باكيات يتساءلن إلى أين يذهبن بعد أسر أو قتل آبائهن أو أزواجهن ! فوعدهن صلاح الدين بعتق الأزواج ومنح الأرامل واليتامى هبات من ماله الخاص بحسب حالة كل منهن . لقد كانت رحمته وشفقته ناصعة البياض على نحو غريب إزاء ما ارتكبه الغزاة المسيحيون فى الحملة الصليبية الأولى .

وكان البعض من أمرائه وجنوده أقل شفقة ؛ إذ كانت هناك حكايات عن ابتزاز بعض المسلمين لبعض المسيحيين لتهريبهم سرا بعد الاستيلاء على كل ما يملكونه . واعترف امراء مسلمون آخرون بهروب عبيد بعد تسديد رسوم مرتفعة سرا . غير أن صلاح الدين كان ينزل أشد العقوبة فى كل مرة يعلم فيها بتلك الممارسات(٣٥) .

وسار صف اللاجئين الطويل بطيئا باتجاه الساحل دون أن يتحرش به المسلمون . وكانوا يرتحلون فى ثلاث قوافل ، يقود الأولى نظام فرسان المعبد ، والثانية نظام فرسان المستشفى ، والثالثة باليان والبطريق . وفى صور ، التى اكتظت بلاجئين آخرين ، لم

---

(٣٥) أورد إيرنول أكثر الروايات اكتمالا وأصالة، إذ كان مع باليان فى القدس Ernoul, pp.174-5, 211-30 Estoire d'Eracles, II, 81-99؛ ويرد فى De Expugnatione, pp.241-51 رواية شاهد عيان جرح أثناء الحصار وكان يعارض الاستسلام ؛ Abu Shama, pp.320-40; Beha ed-Din, P.P.T.S pp.118-20; Ibn al-Athir, pp.699-703. وترد قصة يوسف باتيت فى "تاريخ بطارقة الاسكندرية The History of the Patriarchs of Alexandria, p.207، وهو مرجع قبطى عدوانى؛ إذ يضيف المؤرخ أن المسيحيين الأرثوذكس كانوا فى شدة الحزن من الاستسلام، لأنهم كانوا يفضلون قتل الفرنج .

يسمح بدخول المدينة أحد سوى الرجال القادرين على القتال . وبالقرب من مدينة البطرون، هاجمهم بارون محلى - ريموند (اوف نيفين) - وسلبهم الكثير من بضائعهم . وواصلوا ارتحالهم إلى طرابلس المكتظة هي الأخرى باللاجئين ، ورفضت السلطات دخولهم لنقص الطعام وأغلقت البوابات في وجوههم . ولم يجدوا ملاذا يأويهم قبل وصولهم إلى انطاكية. وحتى في انطاكية لم يسمح لهم طواعية بالدخول إذ كان لاجئو عسقلان أكثر حظا . وعندما رفض قباطنة السفن التجارية الإيطاليون اصطحابهم إلى الموانى المسيحية إلا برسوم باهظة ، منعت الحكومة المصرية السفن من الإبحار إلى أن أخذوهم بلا رسوم(٣٦) .

وبقى المسيحيون الأرثوذوكس واليعاقبة في القدس . ومن الناحية الرسمية كان على كل فرد منهم أن يدفع الجزية إلى جانب فديته ، وقد أعفى الكثير من الطبقات الفقيرة من الدفع . واشترى الأغنياء منهم الكثير من الممتلكات التي تركها الفرنج بعد رحيلهم، وما بقى اشتراه المسلمون واليهود الذين شجعهم صلاح الدين على الاستقرار في المدينة. وعندما وصلت القسطنطينية أنباء انتصار صلاح الدين ، أرسل الامبراطور إيزاك أنجيلوس سفارة إلى صلاح الدين لتهنئته وإعادة الأماكن المسيحية المقدسة إلى الكنيسة الأرثوذوكسية ، فلبى صلاح الدين طلبه بعد قليل من التأخير . وراح الكثير من اصدقاء صلاح الدين يحثونه على تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكنه أكد لهم أن المسيحيين يبجلون الموقع وليس المبنى وأنهم لايزالون يرغبون في الحج إلى هناك ، ولا رغبة لديه في تثبيطهم عن ذلك . وفي واقع الأمر أغلقت الكنيسة لثلاثة أيام فقط ، وسمح لحجاج الفرنج بزيارتها بعد دفع رسم معين(٣٧) .

وباستعادة صلاح الدين للقدس يكون قد أنجز أهم واجباته الدينية . ولكن هناك بعض القلاع الفرنجية التي لا يزال يتعين اخضاعها . وكانت الليدى ستيفن ، سيدة منطقة الأردن ، من بين الأسيرات اللاتي دفعن الفدية في القدس ، وكانت قد التمست من صلاح الدين اطلاق سراح ابنها همفرى (اوف تبنين) ، فوافق شريطة استسلام حصنيها الكبيرين الكرك والشوبك ؛ وأرسل ابنها همفرى من سجنه كي ينضم اليها .

---

(٣٦) .Ernoul, pp. 320-4; *Estoire d'Eracles,* II, pp. 100-3;

(٣٧) .عن مصير المسيحيين الوطنيين انظر Bar-Hebraeus, trans. Budge, pp.326-7؛ ويورد Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.198-201 تبادل السفارات بين صلاح الدين والإمبراطور. ويرد الإغلاق المؤقت لكنيسة القبر المقدس في Maqrisi, ed.Blochet, *Revue de l'Orient Latin,* vol IX, p.33. وعن اليهود انظر Schwab, 'Al-Harizi', in *Archives de l'Orient Latin,* I p. 236.

لكن الحاميتين رفضتا كلتاهمـا الانصيـاع لأوامرهـا بالاستسـلام . ولفشـلها فـى تنفيـذ شرطها أعادت ابنها إلى الأسر ثانية ؛ وهو تصـرف أدخـل السـرور علـى قلـب صـلاح الدين ، فأعتق همفرى بعد ذلك بأشهر قليلة . وفى تلك الأثناء ضرب العـادل والجيـش المصرى الحصار حول الكرك . واستمر الحصـار مـا يربـو علـى سنة كاملة ؛ ولشـهور كثيرة أشرف المدافعون على التضور جوعا ، وأخرجوا نساءهم واولادهم لإعالة انفسهم بأنفسهم ، بل انهم باعوا فى حقيقة الأمر البعض منهم للدو نظير الحصول على الطعام. ولم تستسلم القلعة إلا فى نهاية عام ١١٨٨م ، عندما أكلت الحامية آخر حصان فيها . وصمدت الشوبك بضعة أشهر بعدها إذ لم يكن الحصار محكما كسابقتها(٣٨).

١١٨٧م : دبلوماسية رينالد أمير صيدا

وفى الشمال استسلم فرسان المعبد فى قلعة صفد يوم ٦ ديسمبر ١١٨٨م بعد شهر من القصف الشديد ، وبعد ذلك حذا فرسان المستشـفى حذوهـم فـى قلعـة كوكـب ، الواقعة فى مكان مرتفع من وادى الأردن. وكانت قلعة هونين قد احتلـت قبـل ذلـك . أما شقيف أرنون الذى لجأ اليه رينالد امـير صيـدا ، فقـد أنقـذ بفضـل دبلوماسـيته . إذ كان رينالد رجلا متعلما ، شغوفا بالأدب العربى ، فجاء إلى خيمة صلاح الدين معترفـا بأنه على استعداد لتسليم حصنه والتقاعد فـى دمشـق إذا منـح ثلاثـة أشـهر يتدبـر فيهـا شؤونه ؛ بل إنه ألمع إلى أنه قد يعتنق الإسلام . وكان اسلوبه فى المناقشة فاتنـا حتـى أن صلاح الدين اقتنع بحسن نواياه ، لا لشئ سوى أن يكتشف بعد فوات الأوان أن المدنـة التى منحها له استغلها فى تعزيز دفاعات الحصن . وفى ذات الوقت كان صلاح الديـن قد انتقل إلى منطقة طرابلس وانطاكية(٣٩).

كان ريموند أمير طرابلس ، بعد فراره من حطين مباشرة ، قد مات فـى نهايـة عـام ١١٨٧م تقريبا متأثرا بمرض ذات الجنب(٤٠)، رغم الظن بأن مرضه يرجع إلى الإكتئاب

---

(٣٨) Ernoul, p.187; *Estoire d'Eracles*, II, p. 122; Abu Shama, p. 382; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.139, 143.

(٣٩) تقابل المؤرخ بهاء الدين مـع رينـالد وروحـه Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.122-3, 138-41, 142-3. جذابا؛ Abu Shama, pp.395-400; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 191.

(٤٠) (المترجم): التهاب الغشاء البلورى المحيط بالرئتين ، ويتصف بصعوبـة وآلام التنفـس ، غالبـا مايصحبـه ارتشاح سائل فى فراغ الصدر.

(الملانخوليا) والعار ؛ وقد اعتبره كثيرون من معاصريه خائنا ساهمت أنانيته فى دمار المملكة ؛ لكن المؤرخ وليم الصورى وباليان ابيلين كانا من أصدقائه ودافع عنه كلاهما. لقد كانت مأساته الحقيقة هى مأساة كل المستعمرين الفرنج من الجيلين الثانى والثالث الذين كانوا على استعداد ، بنزوعهم الطبيعى ومن منطلق السياسية ، لأن يصبحوا جزءا من العالم الشرقى ، لكن تعصب أبناء عمومتهم من الوافدين الجدد من الغرب أجبرهم على التحزب ، ولم يكن يسعهم فى نهاية الأمر إلا أن يتحزبوا لرفاقهم المسيحيين . ولم يترك ذرية ، ولذا أوصى بتوريث كونتيته لابنه الروحى ريموند ، ابن أقرب أقربائه الذكور بوهموند أمير انطاكية ، لكنه اشترط أنه فى حالة مجئ أحد من أفراد آل تولوز إلى الشرق تكون الكونتية من نصيبه . وقبل بوهمند الميراث لإبنه ، ثم استعوضه لأخيه الأصغر ، بوهمند ، خشية أن تصبح انطاكية وطرابلس معا تحت امرة رجل واحد لا يستطيع الدفاع عنهما(٤١).

بيد أنه سرعان ما أصبح هناك القليل من الميراث ؛ ففى أول يولية ١١٨٨م زحف صلاح الدين مخترقا البقاع ، مارا بقلعة فرسان المستشفى فى الكرك التى ظن أنها شديدة القوة بحيث لا يقدر على مهاجمتها ، ويمم وجهه شطر طرابلس ؛ لكن وصول اسطول ملك صقلية اليها صرفه عن مهاجمتها، وتحول شمالا . وقصف مدينة طرطوس ، لكن قلعة فرسان المعبد صمدت له . فتابع زحفه أسفل أسوار مرقب حيث حاول فرسان المستشفى التصدى له أثناء مروره . واستسلمت جبيل يوم الجمعة ١٥ يولية واللاذقية يوم ٢٢ من الشهر ؛ وكانت اللاذقية مدينة جميلة ، يرجع تاريخ كنائسها وقصورها إلى العصور البيزنطية ، وبكى المؤرخ المسلم عماد الدين لرؤيتها منهوبة شخربة. ومن اللاذقية تحول صلاح الدين إلى داخل البلاد نحو صهيون ، حيث كان يعتقد أن قلعة فرسان المستشفى لا تقهر ؛ غيرانه بعد ايام قلائل من القتال العنيف استولى عليها بهجوم عام يوم الجمعة ٢٩ يولية . وفى يوم الجمعة ١٢ اغسطس استسلمت حامية قلعة بكّاس الشغر ، وكانت ذات حماية جيدة رغم وجود الحصن بجوار أخدود هائل ومجارى كبيرة من أثر المياه ؛ وجاء استسلامها لعدم وجود مساعدة آتية من انطاكية . وفى يوم الجمعة ١٩ سقطت مدينة سرمين . وبعد أيام قلائل ، استسلمت

---

(٤١) يرد موت ريموند بدون تاريخ محدد فى *Estoire d'Eracles*, p.72، حيث ترد ترتيبات الإستخلاف، وأوردها أيضا عماد الدين (فى ابى شامة p.284) وبهاء الدين *P.P.T.S.*p.114. ويقول الكتاب العرب إنه مات بمرض ذات الجنب . وعن تصرفه فى حطين انظر أدناه ، المرفق الثانى . ويقول Benedict of Peterborough إنه وجد ميتا فى فراشه (II, p. 21).

قلعة برزية الواقعة فى أقصى جنوب وادى العاصى . وكان قائدها زوجا لأخت المخبر السرى لصلاح الدين وهى أميرة من أنطاكية ومنح حريته هو وزوجته . وفى ١٦ سبتمبر استسلمت قلعة فرسان المعبد فى درب ساك الواقعة فى جبال الأمانوس ، وفى يوم ٢٦ سقطت قلعة بجراس التى تسيطر على الطريق من انطاكية إلى كيليكيا(٤٢). بيد أن جيش صلاح الدين بات مرهقا الآن ، ورغب جنود سنجار فى الذهاب إلى أوطانهم. ولذا ، وعندما توسل الأمير برهمند لعقد هدنه تعترف بكل فتوحات المسلمين، منحها له صلاح الدين. وظن أن بإمكانه أن يفرغ من مهمته وقتما يحب. وكان كل ما تبقى لبوهمند وأولاده عاصمتاه أنطاكية وطرابلس وميناء السويدية، بينما احتفظ فرسان المستشفى بحصني المرقب والكرك، وفرسان المعبد بطرطوس(٤٣).

١١٨٧م : الدفاع عن صور

على أنه كانت فى الجنوب مدينة لم تسقط بعد لصلاح الدين ، وهنا ارتكب خطأه الكبير . ذلك أن بارونات فلسطين اللاجئين احتشدوا الآن فى صور ، اقوى مدن الساحل ، التى لم يكن يصلها بالبلاد سوى شبه جزيرة ضيقة رملية بنى عبرها سور ضخم . ولو أن صلاح الدين عجّل بهجومه على صور حالما استولى على عكا ، لما أوقفه شئ حتى هذا السور ؛ لكنه تأخر إلى ما بعد فوات الأوان . وكان رينالد امير صيدا ، الذى كان وقتئذ يسيطر على المدينة ، يتفاوض من اجل التسليم ، بل إن صلاح الدين أرسل رايتين من راياته ليرتفعا فوق القلعة ، لولا أن حدث يوم ١٤ يولية - بعد حطين بعشرة ايام - أن دخلت سفينة إلى الميناء . وكان على ظهرها كونراد ، ابن مركيز مونتفرات المسن وشقيق الزوج الأول للملكة سبيلا . وكانت معيشته فى القسطنطينية ، وكان متورطا فى جريمة قتل هناك ، ولذا أبحر سرا مع مجموعة من فرسان الفرنج للحج فى الأماكن المقدسة . وكان خالى الذهن عن الكوارث التى حلت بفلسطين ، فاتجه إلى عكا . وعندما وصلت الباخرة خارج مياه الميناء اندهش القبطان لعدم سماعه صوت الجرس الذى كان عادة يدق عند رؤية سفينة . وحدثته نفسه بأن

(٤٢) -Ernoul, pp.252-3; *Estoire d'Eracles,* II, p. 122; Abu Shama, pp. 356-76; Beha ed -Din, *P.P.T.S.*pp.125-38; Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 187-90; Ibn al-Athir, pp.726 :9 ويقتبس أبو شامة pp.361-2 وصف عماد الدين للاذقية وتخريبها .

(٤٣) Ibn al-Athir, pp.732-3; Beha ed-Din, *P.P.T.S* p.137. كان من المقرر ان تستمر المدنة سبعة أشهر .

هناك شيئا غير طبيعي ولذا لم يدخل إلى المرسى . وسرعان ما جاءت بمحاذاة سفينته مركب شراعى بسارية واحدة وعليها مسؤول الميناء المسلم ؛ فتظاهر كونراد بأن السفينة سفينة تجارية وسأل ماذا هناك ، واجابه المسؤول بأن صلاح الدين استولى على المدينة قبل أربعة أيام . وتسبب الرعب الذى تملكه فى اثارة الريبة لدى المسؤول المسلم؛ ولكن كونراد تمكن ، قبل أن يطلق المسؤول سبل الإنذار ، من الإسراع بالإبحار إلى صور ، حيث لقى ترحيبا باعتباره المخلّص وعهد اليه بمهمة الدفاع عن المدينة . والغيت شروط صلاح الدين للسلام وألقى برايتيه فى الخندق المائى . وكان كونراد عفيّا ، قاسيا ، شجاعا ؛ رأى أن المدينة تستطيع الصمود إلى أن تأتى المساعدة من الغرب ، وكان على ثقة من أن أخبار سقوط القدس سوف تجعل المساعدة تأتى لا محالة. وعندما ظهر صلاح الدين امام صور بعد أيام قليلة ، كانت قوة دفاعاتها تفوق قوته ، فأحضر مركيز مونتفرات من دمشق ، وأظهره امام الأسوار مهددا بقتله إن لم تستسلم له المدينة؛ غير أن ورع البنوة لدى كونراد لم يكن قويا بمايكفى لكى يميل عن واجبه كمحارب مسيحى ؛ فلم يحرك ساكنا ، وبالطيبة المعتادة أبقى صلاح الدين على حياة الرجل العجوز . ورفع الحصار ليتجه إلى عسقلان . وعندما ظهر مرة اخرى امام صور فى نوفمبر ١١٨٧م وجدها قد عززت من تحصيناتها ، ووصلتها بعض التعزيزات البحرية والعسكرية ، وحال الشريط الأرضى الضيّق دون أن يستخدم رجاله ومنجنيقاته . وجاء بعشر سفن اسلامية من عكا ؛ لكن المسيحيين استولوا على خمس منها يوم ٢٩ ديسمبر ، واندحر هجوم متزامن على الأسوار . وفى مجلس حرب أنصت صلاح الدين لأمرائه الذين أشاروا إلى أن الجنود فى حاجة إلى الراحة ؛ وكان الشتاء مطيرا وباردا ، وظهرت الأمراض فى المعسكر . وفى أول أيام العام الجديد ١١٨٨م أمر صلاح الدين بتسريح نصف جيشه وانسحب للاستيلاء على الحصون فى داخل البلاد . وأنقذت المدينة بفضل حيوية كونراد وثقته ، وأنقذ معها بقاء المملكة المسيحية(٤٤).

١١٨٧م : تشريف صلاح الدين

وفيما بعد أسف صلاح الدين أسفا مريرا على فشله فى الاستيلاء على صور . غير أن ما أنجزه كان هائلا بلا أدنى ريب . وسواء جاءت انتصاراته نتيجة لاستجابة

---

(٤٤) Ernoul, pp. 179-83; *Estoire d'Eracles,* II, pp.74-8, 104-10; *Itinerarium Regis Ricardi*, pp.18-19; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 120-2; Ibn al-Athir, pp. 694-6, 707-12.

الإسلام الحتمية لتحدى الفرنج الدخلاء ، أو نتيجة لسياسة أسلافه العظام ذوي البصيرة النافذة ، أو نتيجة لنزاعـات وحماقـات الفرنـج أنفسـهم ، أو نبعـت مـن شـخصيته هـو نفسه، فقد جاء بالبيّنة التي تدل على قوة الشرق وروحه . وفـى قرنـى حطـين ، وعلـى بوابات القدس ، انتقم لإهانة الحملـة الصليبيـة الأولى ، وأظهـر كيـف يحتفـل الشريف بانتصاره .

المرفقات:

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتينى

المرفق الثانى: معركة حطين

المرفق الثالث: شجرات الأنساب

المرفق الأول

المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني
١١٠٠-١١٨٧م

١- المصادر اليونانية

لا تتناول المصادر اليونانية اللاتينيين فى الشرق إلا عند وجود اتصال مباشر مع بيزنطة . وحتى عام ١١١٨م ، يظل التاريخ المسمى أليكسياد Alexiad الذى كتبته أنا كومنينا Anna Comnena أهم المصادر اليونانية ، برغم وجود نوع من الإضطراب فيما كتبته من تتابع احداث الشؤون الفرنجية[١]. وفيما يتصل بعهدى حنون ومانويل كومنينوس ، يعتبر تاريخى حنون سيناموس John Cinnamus ونيكتاس أكوميناتوس، أو خونياتيس Acominatus, or Choniates Nicetas المصدرين الأساسيين . إذ كان الأول كاتم سر الامبراطور مانويل كومنينوس وكتب تاريخه بعد موت مانويل مباشرة . ويفتقر تاريخ عهد الامبراطور حنون إلى المهارة ؛ غير أنه يتناول تاريخ مانويل نفسه بعناية ويعتبر جديرا بالثقة . وبغض النظر عن بعض التحيزات الوطنية الطفيفة ، فهو مؤرخ ذو رصانة ، يمكن الإعتماد عليه[٢]. أما نيكتاسNicetas ، فكتب تاريخه فى باكورة القرن الثالث عشر ، ويغطى الفترة من عهد الامبراطور حنون إلى ما بعد استيلاء اللاتين على القسطنطينية . وتاريخه مستقل تماما عن تاريخ سيناموس Cinnamus وبدءا من النصف الأخير من حكم مانويل قُدُما ، يصف الأحداث التى

---

(١) -انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر.

(٢) نشر فى مجموعة Bonn *Corpus* .

يعرفها معرفة شخصية، وعلى الرغم من الأسلوب البلاغي السائد والميل إلى الأخلاقيات ، فإنه تاريخ دقيق يمكن الإعتماد عليه[٣]. ولا يوجد مصدر يونانى آخر له أهمية رئيسية[٤]، فيما عدا رواية مثيرة وان كانت غامضة حول رحلة حج قام بها إلى فلسطين عام ١١٧٨م من يدعى جون فوكاس[٥] John Phocas .

٢- المصادر اللاتينية .

أهم مصادرنا للتاريخ المبكر للدويلات الصليبية هم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، وبصورة ملحوظة فولشر اوف تشارترز Fulcher of Chartres وألبرت اوف آيكس Albert of Aix، وبدرجة أقل رادولف اوف كاين Radulph of Caen ، وإيكار اوف أورا Ekkehard of Aura وكافارو Caffaro وقد ناقشت تلك المصادر في الجزء الأول من هذا التاريخ. ويتعين اضافة أنه بالنسبة للفترة ١١٠٠ إلى ١١١٩م ، وعندما تصل إلى نهايتها يمكن ان يعتبر تاريخ ألبرت المصدر الذى يعتمد عليه بصورة شاملة. وليس معروفاً مصدر حصوله على المعلومات، بيد أنه بمطابقته على المصادر السورية فإنها تؤيده.

ويغطى التاريخ الأنطاكى للفترة ١١١٥م إلى ١١٢٢م عمل قصير يسمى De Bello Antiochene كتبه المستشار وولتر Walter the Chancellor ، الذى ربما كان مستشارا للأمير روجر . وهو عمل يتصف بالأصالة وزاخر بالمعلومات المفيدة حول تاريخ مؤسسات انطاكية آنذاك[٦].

ومن عام ١١٢٧م ، عندما ينهى فولشر عمله ، وحتى العقد الأخير السابق على استيلاء صلاح الدين على القدس، فإن مصدرنا الهام الوحيد هو تاريخ وليم الصورى William of Tyre's Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum،

---

(٣) نشر في مجموعة *Corpus* Bonn .

(٤) لا يزال زوناراس Zonaras مفيدا للسنوات الأولى من القرن . انظر الجزء الأول، مرفق المصادر. وما كتبه Manasses من تاريخ منظوم لا يقدم سوى مادة ضئيلة قليلة الأهمية (نشر فى مجموعة Bonn *Corpus*) ونشرت القصائد ذات الصلة التى كتبها برودروموس Prodromus فى (مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil des Historiens des Croisades*).

(٥) Translated in the *Palestine Pilgrims' Text Society*, vol. v.

(٦) نشر في مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil*.

الذى يغطى الفترة من ١٠٩٥م إلى ١١٨٤م[٧]. وقد ولد وليم فى الشرق بعد عام ١١٣٠م بفترة قصيرة . وربما تعلم اللغة العربية واليونانية فى طفولته ، ثم ذهب إلى فرنسا لإتمام دراسته . وبعد عودته إلى فلسطين مباشرة اصبح رئيس شمامسة صور ومستشارا للمملكة من ١١٧٠م إلى ١١٧٤م . كما كان معلما لبلدوين الرابع فى صغره . وفى عام ١١٧٥م اصبح رئيس اساقفة صور ، وفى عام ١١٨٣م ، وبعد فشله فى الحفاظ على البطريارقية ، تقاعد فى روما حيث مات قبل عام ١١٨٧م . وبدأ كتابة تارخه عام ١١٦٩م ، وأنهى الكتب الثلاثة عشر الأولى بحلول عام ١١٧٣م . وقد اخذ معه العمل كله إلى روما وكان ما يزال يعمل فيه وقت موته واعتمد وليم فى روايته عن الحملة الصليبية الأولى اعتمادا رئيسيا على ألبرت Albert، وبدرجة اقل على ريموند اوف اجيلير Raymond of Aguilers وعلى نسخة Baudri من Gesta ، وعلى فولشر Fulcher من عام ١١٠٠م إلى عام ١١٢٧م ، وفولشر مصدره الرئيسى ، رغم أنه استعان ايضا بالمستشار وولتر . وإضافاته الوحيدة اليهم حكايات شخصية حول الملوك ومعلومات عن الكنائس الشرقية وعن صور . وخلال الفترة من ١١٢٧م وحتى عودته إلى الشرق كان يعتمد على محفوظات المملكة وعلى هيكل تاريخى للملوك ، مفقود الآن. وترتيبا على ذلك فإن معلوماته عن شمال سوريا لايعول عليها . ومن ستينات القرن الثانى عشر قُدُما كانت لديه معرفة وثيقة ومتبصّرة عما كان يصفه من احداث وشخصيات فاعلة . ويغلب الاضطرابُ على تواريخه وأحيانا يتوفر البرهان على أنها خاطئة . وربما يرجع ذلك إلى أنها أضيفت إلى مخطوطاته عن طريق ناسخ لمخطوطاته فى وقت مبكر . ويعتبر وليم واحدا من أعظم مؤرخى العصور الوسيطة . وكانت له تحاملاته ، مثل كراهيته للسيطرة العلمانية على الكنيسة ، غير أنه معتدل فى كلماته إزاء أعدائه هو شخصيا ، مثل البطريق هيراكليوس، وآجنس اوف كورتناى ، وكانا كلاهما يستحقان ملامته . وكان يرتكب الأخطاء حيثما تكون معلوماته غير كاملة. بيد أنه كان ذا بصيرة نافذة؛ إذ وعى مغزى الأحداث العظام التى حدثت فى عصره ، وتعاقب المسببات والنتائج فى التاريخ . وأسلوبه مباشر ولا يخلو من خفة الظل. ويترك عمله الإنطباع بأنه كان هو نفسه حكيما، شريفا، محبوبا.ولسوء الحظ ، فقد عمله الآخر – تاريخ الشرق - History of the East الذى اعتمد فيه اساسا على التاريخ العربى

---

(٧) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Receuil.* انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر. وعن تأريخ وليم انظر Steven فى مؤلفه Crusaders in the East, pp. 361-71 ، وهو عمل موثق ويشتمل على مناقشة كاملة.

الذى كتبه سعيد بن البطريق ، رغم اعتماد مؤرخى القرن التالى عليه ، من مثل جاك أوف فيترى Jacques of Vitry .

ولتاريخ وليم الصورى استطراد Continuation لاتينيّ كُتب فى الغرب عام ١١٩٤، باضافات لاحقة[٨]، وهو عمل يتصف بالرصانة والموضوعية ، وربما استند إلى عمل مفقود يعتبر ايضا أساسا للكتاب الأول من خط سير الملك ريتشارد Itinerariusm Regis Ricardi، الذى يغطى السنوات من ١١٨٤م إلى الحملة الصليبية الثالثة[٩]. ومن المشاكل الجسيمة مداومة الكتابة باللغة الفرنسية القديمة ؛ وقد حدث فى نحو منتصف القرن الثالث عشر أن ترجم احد أتباع الملك الفرنسى تاريخ وليم ، فشرح بعض النصوص وأدخل تعليقات مشكوك فى قيمتها ، وأضاف إلى ذلك التاريخ اضافات تاريخية امتدت لفترة طويلة فى القرن الثالث عشر . ومن كلماته الافتتاحية ، يعرف هذا العمل عادة بأنه تاريخ هرقل Estoire d'Eracles وفى نفس الوقت تقريبا ظهر فى الشرق لمن يدعى برنارد الخازن Bernard the Treasurer استطرادا لعام ١١٢٩م تعزى إلى إرنول Ernoul الذى كان متبوعا لبلدوين اوف إبيلين. وترتبط هاتان الترجمتان ارتباطا وثيقا ، وهما موجودتان فى عدد كبير من المخطوطات التى تضم ، مع ذلك ، اختلافات يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات للفترة من ١١٨٤م إلى ١١٩٨م . ولا يمكن الحكم على أيّ من المجموعات الثلاث بأنها المخطوطة الاصلية ، إذ أن كل مجموعة تضم أحداثا غير موجودة فى أيّ من الأخريين. وأكثر الحلول احتمالا هو أنها كلها تعتمد على عمل مفقود كتبه إرنول نفسه عن هذه الفترة . ويقينا كتب إرنول أصلا أحداث يوم أول مايو ١١٨٧م ، وهى واردة فيما كتبه برنارد عن إرنول ؛ وتظهر المجموعة كلها اهتماما بآل إبيلين وتشتمل على الكثير مما وصفه شهود العيان مما يتلاءم مع أصالة أحد افراد آل إبيلين . وعلى الجملة تعتبر تلك الاستطرادات مصادر يعتمد عليها برغم كونها غير موضوعية . ويبدو أن إرنول كان يسجّل بعناية بقدر ما يسمح به تحيزه لصالح آل إبيلين. ويأتى الترتيب التاريخى للفقرات الأولى عشوائيا ؛ ويبدو أنها تتألف من ملاحظات وذكريات غير متصلة ببعضها البعض[١٠].

---

(٨) نشره M. Salloch .

(٩) نشر خط سير الملك ريتشارد *Itinerarium* فى سلسلة Rolls التى يحررها Stubbs. .

(١٠) يرد نشر *Estoire d'Eracles* فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* ونُشر Ernoul عن طريق Mas Latrie وللإطلاع على مناقشة المشكلة برمتها انظر مقدمة Mas Latrie لإرنول وكاهن *La Syrie du Nord*, pp.21-4.

كمـا يـرد وصـف موجـز لفتـح صـلاح الديـن لفلسـطين فـي Libellus de Expugnatione Terrae Sanctae Saladinum ، ويعزى أحيانا إلى رالـف اوف كوجشـال Ralph of Coggeshall ويكاد يكون من اليقين انْ الذى كتبه رجل انجليزى بعد سنوات قليلة من الحادثة التى يصفها . ويظهر الكاتب اعجابا بالنظـامين العسـكريين ، وخاصـة نظام المعبد ، وقد سكت بمهارة عن سيئاته ، لكنه أظهر فى الوقت ذاتـه مودتـه لريمونـد امير طرابلس . ويدرج رواية لأحد شهود العيان فـى حصـار القـدس قالهـا هـى نفسـها جندى جرح هناك[١١].

وهناك تواريخ متأخرة عن المملكة تضيـف معلومـات اخـرى ، وخاصـة Historia Regni Hierosolymitani، وهو استطراد لكفّـارو Caffaro ، وحوليـات الأرض المقدسـة Annales de la Terre Sainte، وموجـز للتـاريخ المسـمى Historia Regum Hierosolymitanorum[١٢] وترد معالجة كاملة للحملة الصليبية الثانيـة فيمـا كتبـه أودو اوف دويل De Ludovici VII profectione in Orientum of Odo of Deuil ، وهـى روايـة حية ومتحاملة للغاية لأحد المشتركين فى رحلة لويس وصـل فيهـا حتـى اضاليـا، وتـرد بإيجاز اكثر فى Gesta Friderici التى كتبها Otto of Freisingen وكان هو نفســه مشـترك فى الرحلة ايضا ؛ وحياة لويس السـابع التـى كتبهـا سـوجر[١٣] Life of Louis VII by Suger وأما قصيدة أمبرواز Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte, ، وكذلـك خـط سير الملك ريتشارد Itinerarium Regis Ricardi ، وبرغـم معالجتهمـا للحملـة الصليبيـة الثالثة ، فلا تعرضـان سـوى معلومـات استعادية[١٤].

ويورد مؤرخون غربيون كثيرون فقرات تتصل بالشرق اللاتينـى ، مثـل الإنجليـزى William of Malmesbury و Benedict of Peterborough ، وكذلـك المهتمـون بالحملـة الصليبية الثالثة ؛ والفرنسى Sigebert of Gembloux ومكمّلوه، وRobert of Torigny؛

---

(١١) نشرها J. Stevenson فى سلسلة Rolls .

(١٢) نشرت *Historia Regni Hier.* فى *M.G.H.Ss*، ونشرت *Annales de la Terre Sainte* عن طريق Rohricht فى *Archives de l'Orient Latin* وفى Kohler, in. *Historia Regum* *Mélanges*.

(١٣) Odo, or Eudes, Of Deuil's book has recently been edited by Waquet, and Otto of Freisingen's *Gesta* by Hofmeister in *M.G.H.Ss.*, new series ولا توجد طبعة جيدة لعمل سوجر Suger

(١٤) نُشر Ambroise عن طريق G. Paris وتوجد ترجمة انجليزية بملاحظات مفيدة قام بها Hubert and La Monte.

والإيطاليان Romuald and Sicard of Cremona وغيرهم[١٥]. ويعتبر Norman Orderic Vitalis، أهمهم إذ أن تاريخه الذى ينتهى عام ١١٣٨م زاخر بالمعلومات المتصلة بالشرق الفرنجى Outremer ، ولا سيما ما يتصل بشمال سوريا، ويحتمل أن كان له أصدقاء أو أقارب بين نورمانديي انطاكية . ويتضح ان الكثير من القصص التى رواها ليست سوى اساطير ، ولكن الكثير من المادة التى كتبها مقنعة ولا توجد فى اماكن اخرى[١٦].

وفيما يتصل بالرسائل المعاصرة ذات الصلة ، فإن أهم مجموعة رسائل هى الواردة فى المراسلات البابوية . والمراسلة بين لويس السابع وكونراد الثالث تلقى الضوء على الحملة الصليبية الثانية[١٧] وبقيت من الضياع رسائل قليلة كتبها لاتينيون بارزون فى الشرق[١٨] وبقيت من الضياع مخفوظات ثلاث منشآت كنسية فى الشرق ، وهى مخفوظات كنيسة القبر المقدس ، ومخفوظات دير القديسة مارى حوزافات Saint Mary Josaphat ومخفوظات دير القديس لازاروس Saint Lazarus وتكاد مخفوظات نظام فرسان المستشفى أن تكون كاملة ، ولكن مخفوظات نظام فرسان المعبد فلا تعرف إلا بمراجع نادرة وغير مباشرة . كما يوجد عدد معين من السجلات العلمانية التى تتناول نقل الأرض فى الدويلات الفرنجية[١٩] ، وتعطى المخفوظات البابوية بعض المعلومات الإضافية ؛ وأما المعلومات المتصلة بالشؤون التجارية فيمكن استخلاصها من مخفوظات بيزا والبندقية وجنوا[٢٠]. وأما قوانين القدس Assises ، التى كتبت فيما بعد ، فتضم قوانين assises محددة يرجع تاريخها ابتداء من القرن الثانى عشر[٢١].

---

(١٥) للإطلاع على ما نشره هؤلاء المؤرخون ، انظر قائمة المصادر والمراجع.

(١٦) لا تزال أفضل طبعة لتاريخ Orderic هى طبعة Le Prévost .

(١٧) نشرت فى *R.H.F.* and in *Wibaldi Epistolae* (Jaffé, *Bibliotheca*), respectively .

(١٨) أغلبها نشر فى *R.H.F.* ويوجد غيرها فى شتى التواريخ.

(١٩) انظر قائمة المصادر والمراجع عن السجلات *Cartulaires* وأغلبها مختصر فى Rohricht's *Regesta*.

(٢٠) ترد الرسائل البابوية فى *M.P.L.* ولم تُنشر المخفوظات الايطالية كاملة . وأورد Cahen, موجزا لما صدر منها *op. cit*, pp.3-4.

(٢١) نُشرت القوانين *Assises* فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية the *Recueil*. وللإطلاع على مناقشتها انظر La Monte, فى مؤلفه *Feudal Monarchy*, pp.97-100 , و Grandclaude, op.cit فى اماكن متفرقة.

ومن السجلات المثيرة للإهتمام ما تركه مسافران سافرا إلى فلسطين خلال القرن الثانى عشر ، هما Saewulf ، الذى ربما كان انجليزيا وزار البلد عام ١١٠١م ، والألمانى John of Wurzburg، الذى زار البلد حوالى ١١٧٥م(٢٢).

٣- المصادر العربية

بتقدم القرن الثانى عشر أخذ عدد المصادر العربية المعاصرة فى التزايد . وبالنسبة للجزء الأول من القرن نعتمد على ابن القلانيس Ibn al-Qalanisi في الشؤون الدمشقية، وعلى العظيمى al-Azimi فيما يتصل بشمال سوريا، وعلى التاريخ الذى يبدو مشوشا شيئا ما الذى كتبه ابن الأزرق(٢٣) Ibn al-Azraq فيما يتعلق بالجزيرة بخلاف ما ورد من استشهاد من تواريخ مفقودة اقتبسها مؤرخون متأخرون . ومع ذلك ، لدينا المذكرات القيّمة التى كتبها أسامة ابن منقذ(٢٤) Usama ibn Munqidh وكان أسامة من امراء شيزر، وقد ولد عام ١٠٩٥م. وبعد ثلاثين سنة ، نُفى نتيجة لمكائد عائلية ، وأمضى مابقى من عمره الذى بلغ ثلاثا وتسعين سنة فى دمشق أساسا ، مع فترات اقامة فى مصر وديار بكر . وبرغم كونه من مدبرى المكائد الماهرين ، وكان الولاء الشخصى بالنسبة له لا يعنى شيئا ، فقد كان رجلا ذا فتنة ساحرة وذكاء ، وكان جنديا ، مولعا بالألعاب الرياضية، وأديبا . وليس فى مذكراته التى تسمى الإعتبار Instruction by Examples، ترتيب تاريخى ، وقد جمعها شيخ مسن دون تحقيق ، لكنها تعطى صورة حيّة غير عادية للحياة فيما بين الأرستقراطية العربية والفرنجية فى عصره. وتضارعها حيوية رحلات ابن جبير الأندلسى Spaniard Ibn Jubayr ، وقد مر ابن جبير فى مملكة القدس عام ١١٨١م(٢٥).

---

(٢٢) نشرت وترجمت الى الإنجليزية فى *P.P.T.S.* vols.IV AND V .

(٢٣) لم ينشر كاملا . والإقتباسات ذات الصلة حللها Cahen فى *Journal Asiatique, 1935* .

(٢٤) بالنسبة لأسامة ، أستخدم أنا ترجمة فيليب حتّى Hitti بعنوان *An Arab-Syrian Gentleman* التى تستند الى دراسة معتنية بالنص الأصلى بصورة أكثر من نص Derenbourg ، الذى نشر عام ١٨٩٥ . والترجمة الإنجليزية التى ترجمها Potter تستند الى نص Derenbourg .

(٢٥) نشر Wright النص الكامل لإبن جبير منذ قرابة مائة عام فى Leyden. ويجرى نشر ترجمة الى الفرنسية يقوم بها Gaudefroy-Demonbynes، وسوف تصدر قريبا ترجمة Broadhurst الى اللغة الإنجليزية. ويرد فى *Recueil* بعض الإقتبسات.

أما سيرة حياة صلاح الدين فقد ألهمت جمعا غفيرا من الكتاب ، أهمهم عماد الدين الأصفهانى[٢٦] Imad ed-Din of Isfahan ، وبهاء الدين بن شداد[٢٧] Beha ed Din ibn Shedad، والمؤرخ المجهول الذى كتب (البستان)[٢٨] the General Garden of all the Histories of the Ages وكان عماد الدين يعمل موظفا سلجوقيا فى العراق ، والتحق بخدمة نورالدين ، ثم أصبح كاتم سر صلاح الدين من عام ١١٧٣م قدُما . وكتب عددا من الأعمال ، بما فيها تاريخ السلاجقة وروى حروب صلاح الدين . وهذه الأخيرة تكاد تكون برمتها مستنسخة عند أبى شامة ، وتعد أكثر المصادر ثقة حول ترجمة صلاح الدين . وأسلوبه مزخرف على نحو غريب ومعقد ولا يخلو من صعوبة . كما كان بهاء الدين من حاشية صلاح الدين منذ عام ١١٨٨م . وأما ما كتبه عن حياة صلاح الدين ، فيأتى فى اسلوب بسيط ودقيق ، يعتمد أساسا على السماع وبعض ذكريات صلاح الدين نفسه حتى ذلك التاريخ . ومنذآنذاك ، اتصف بالدقة التى يتصف بها عماد الدين . وقد كتب البستان فى حلب فى ١١٩٦/١١٩٧م، وهو على نحو ما تاريخ أجوف وموجز للإسلام ، يتناول أساسا حلب ومصر ، لكنه يضم معلومات لا توجد إلا فى فيما كتبه ابن ابى طي من تاريخ لاحق اكثر اكتمالا وربما اعتمد كلاهما على مصدر شيعى مفقود . وأما المؤرخان الآخران الفاضل الشيبانى وابن الدهان ، فليسا معروفين إلاّ من الإقتباسات[٢٩] .

ويعتبر ابن الأثير الموصلى ، المولود فى ١١٦٠م والمتوفى فى ١٢٣٣م ، أعظم كتاب التاريخ فى القرن الثالث عشر . ومؤلفه "كامل التواريخ" عبارة عن تاريخ العالم الإسلامى ، دأب فيه على توخى العناية فى اختيار ما يعد حساسا من الكتاب السابقين عليه والمعاصرين له . وبالنسبة للحملة الصليبية الأولى وبداية القرن الثانى عشر ، تعتبر مقدماته مقتضبة نوعا ما . وبالنسبة لنهاية القرن يستند أساسا على مؤرخين كانوا فى حاشية صلاح الدين ، رغم ما يضيفه من ذكريات شخصية قليلة . وبالنسبة لمنتصف القرن ، الذى لم يكتب فيه مؤرخ اسلامى على قدر من الأهمية ، يبدو أنه استخدم

---

(٢٦) للإطلاع على أعمال عماد الدين انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 50-2، ويورد أبو شامة Abu Shama (أنظر أدناه ص ٤٨٢) ، اقتباسات طويلة من أعماله.

(٢٧) نشر النص العربى عن طريق Schultens, and in *Recueil* وأنا أشير فى الحواشى المذكورة اعلاه الى النص المنشور فى *P.P.T.S.* والذى جمع من علاقة مختلطة من النشرتين.

(٢٨) نشره Cahen فى *Bulletin de l'Institut Oriental à Damas* .

(٢٩) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 52-4.

مادة اصيلة . ولا يخلو تاريخه من عيوب ؛ فهو لا يسمّى مصادره وغالبا ما يغير الروايات لكى تتناسب خاصة مع تحيزه لزنكى . بيد أنه - كشأن وليم الصورى - يعد مؤرخا حقيقيا حاول ان يفهم المغزى الواسع للأحداث التى يصفها . وأما عمله الثانى "تاريخ اتابكة الموصل" فيعتبر من الكتابات ذات المستوى المنخفض ، وتتصف نوعا ما بالتقريظ الخالى من النقد ، والتى مع ذلك تشتمل على بعض المعلومات التى لا توجد فى غيره(٣٠)..

أما كتاب كنوز الذهب لإبن أبى طي الحلبى Mines of Gold of Ibn abi Tayyi of Aleppo، وهو وحده أعظم مؤرخى الشيعة ، والمولود فى ١١٨٠م ، فلا نعرفه إلا من غزارة استخدم مؤرخى السنة لإعماله ، وكانوا مدركين لهذه الحقيقة . ومن الواضح أنه عمل يتصف بأهمية عظمى ، يغطى التاريخ الإسلامى كله ، مع اشارة خاصة لحلب ؛ ومن الاقتباسات المتبقية ، لا بد وأن هذا العمل استفاد فى تفصيلاته من نفس المصدر الذى أفاد منه البستان(٣١).

أما كمال الدين الحلبى Kemal ad-Din of Aleppo ، الذى عاش من ١١٩١م إلى ١٢٦٢م ، ومؤلف موسوعة تراجمية ربما لم يتمها ، فقد كتب قبل ١٢٤٣م تاريخ حلب، وهو تاريخ طويل واضح وسهل الأسلوب ، يعتمد بصورة كبيرة على العظيمى وابن القلانيسى ومعاصرى صلاح الدين ، وكذلك على التقاليد والأخبار المتواترة. ولا يتوخى كمال الدين الدقة فى ايراد العلاقة بمصادره ، وهو متحامل على الشيعة(٣٢). وأما سبط بن الجوزى Sibt Ibn al-Djauzi ، المولود فى بغداد عام ١١٨٦م ، فكتب أحد أطول التواريخ الإسلامية ، مرآة الزمان ؛ على أنه فيما يتعلق بالقرن الثانى عشر لم يفعل سوى ان استنسخ معلومات أوردها كتاب سابقون(٣٣). وفى ١٢٥١م أكمل أبو شامة Abu Shama ، المولود فى دمشق عام ١٢٠٣م ، تاريخا لعهدى نورالدين وصلاح الدين يسمى "كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين"(٣٤) ويتألف بدرجة كبيرة من نسخ

---

(٣٠) عن الإصدارات ، انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع.

(٣١) انظر Cahen, *op. cit.* pp.55-7.

(٣٢) انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع . وترجم Blochet فصوله التى تغطى الفترة الأخيرة من القرن الثانى عشر وهى منشورة فى *Revue* de l'Orient Latin .

(٣٣) يرد فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* اقتباسات قليلة . ونشر Jewett (Chicago, 1907) طبعة مصورة أخرى من المخطوطة التى تعتبر مختلفة نوعا ما.

(٣٤) نشر فى بولاق عام ١٨٧١م وعام ١٨٧٥م . والمراجع التى أستند اليها هى اقتباسات نشرت فى

مطابقة من ابن القلانيسى ، وبهـاء الدين ، وابـن الأثير (الأتـابج) ، وابـن ابى طي ، والفاضل ، وقبلهم جميعا عماد الدين الذى كان حريصا فى شغف على تشذيب أسلوبه مع ذلك.

ومن بين المؤرخين المتأخرين كتب أبو الفـدا ، الـذى كـان أميرا لحمـاه فـى بداية القرن الرابع عشر، تاريخا ليس فيه أكثر من موجز مفيد للمؤرخين الأبكر ، ولكنه حـاز على شعبية هائلة ودائما ما يُقتبس(٣٥).

أما ابن خلدون Ibn Khaldun ، الذى كتـب فـى نهايـة القـرن الرابـع عشـر ، فقـد لخص ابن الأثير فيما يتصل بالشؤون السورية ، لكنه بالنسبة للتـاريخ المصرى استخدم تاريخ ابن الطوير ، وهو تاريخ مفقود كتب فى عصر صلاح الدين(٣٦). ويشتمل تاريخ المقريزى Maqrisi ، الذى كتب فى بداية القرن الخـامس عشـر ، علـى معلومـات حـول مصر لا توجد فى سواه(٣٧).

أما قاموس التراجم (وفيات الأعيان) الذى جمعه ابـن خلكـان Ibn Khallikan فـى القرن الثالـث عشر ، فيضم شذرات قليلة فريدة من المعلومات التاريخية(٣٨).

ولا توجد مصادر تتناول أتراك الأناضول مباشرة . وفى واقع الأمر ، يخبرنا مـؤرخ القرن الثالث عشر ابن بيبـى Ibn Bibi أنـه لم يستطع الشـروع فـى كتابـة تاريخـه عـن السلاجقة قبل عام ١١٩٢م ، وهو العام الـذى مـات فيـه قلـج ارسـلان الثـانى ، نظـرا لإفتقاره إلى المادة التاريخية(٣٩) كما لا توجد أية مصادر فارسية ذات صلة.

مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٥) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٦) طبع فى بولاق عام ١٨٦٨م فى سبعة مجلدات.

(٣٧) ترجم Blochet اقتباسات منه نشرت فى *Revue de l'Orient Latin* .

(٣٨) ترجمه de Slane الى الفرنسية.

(٣٩) ترد تعليقات ابن بيبى فى بداية المجلد الثالث من مؤلف هوتسما Houtsma المعنون "النصـوص المتعلقـة بتـاريخ السـلاجقة" (وهـو ترجمـة تركيـة قديمـة لإبـن بيبـى *Textes Relatifs à l'Histoire des Seldjoukides*.)

٤- المصادر الأرمينية

أهم مصدر أرميني للعقود الأولى من القرن الثاني عشر، كشأن الحملة الصليبية الأولى ، هو ماثيو الأورفي Matthew of Edessa ، المتوفى عام ١١٣٦م وأكمل عمله، بنفس الروح الوطنية المعادية لبيزنطة ، جريجورى القسيس الكيسونى Gregory the Priest, of Kaisun، حتى عام ١١٦٢م(٤٠) . أما معاصره ، القديس نورسيس شنورهال الأول Saint Nerses Shnorhal I ، بطريق الكنيسة الأرمينية (كاثوليكوس) من عام ١١٦٦م إلى عام ١١٧٢م ، فقد كتب قصيدة طويلة عن سقوط الرها ، تفتقر نوعا ما إلى الاهتمام الشعرى والتاريخى(٤١) ، لا ولا كانت القصيدة الطويلة التى كتبها خليفته، بطريق الكنيسة الأرمينية (كاثوليكوس) جريجورى الرابع دغا Catholicus Gregory IV Dgha مؤثرة هى الأخرى(٤٢) . والأحسن من الناحية الشعرية المرثاة التى كتبها قسيس يدعى بازل العالِم الدينى Basil the Doctor، لبلدوين امير مرعش ، وكان واعظه الكنسي(٤٣) والأكثر اهمية حوليات صموئيل أوف آنى Annals of Samuel of Ani، التى كتبت فى أرمينيا الكبرى ووصلت عام ١١٧٧م(٤٤) وهى تعتمد جزئيا على متى Matthew وجزئيا على التواريخ المفقودة التى كتبها جون الشماس John the Deacon وآخر يدعى ساركافاج .Sarcavag وأما المجموعة التالية من المؤرخين الأرمن ، مثل ميخيتاز اوف ايرافانك Mekhitar of Airavank ، وفارتان Vartan ، وكيراكوس Kirakos، فلا يعتمد عليهم كثيرا عندما يتناولون الشؤون الفرنجية ، رغم انهم على جانب من الأهمية للخلفية الإسلامية(٤٥). ويبدأ مؤرخو أرمينيا الصغرى (كيليكيا) بكاتب مجهول ترجم فى حوالى عام ١٢٣٠م تاريخ ميخائيل السورى ، وعدل فيه كما

---

(٤٠) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية (*Recueil* والتى أشير أنا اليها فى الحواشى) . كما ترجمها Dulaurier فى نهاية إصداره لمتى الأورفى. Matthew of Edessa .

(٤١) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

(٤٢) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

(٤٣) توجد مقتبسات فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

(٤٤) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

(٤٥) توجد اقتباسات فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

يحلو له بحيث يتفق مع وطنيته المشبوبة(٤٦). وفى حوالى عام ١٢٧٥م ، كتب الكونستابل سيمباط Sembat ، وهو مترجم قوانين Assises انطاكية، تاريخا يعتمد على متى Matthew و جريجورى Gregory بالنسبة للقرن الثانى عشر ، ولكنه يضيف معلومات قليلة مشتقة من محفوظات الدولة(٤٧). وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب من يسمى "المؤرخ الملكى" Royal Historian تاريخا لم ينشر بعد مطلقا(٤٨). وفى وقت مبكر من القرن الرابع عشر كتب المفوض فاهرام الأورفى Vahram of Edessa التاريخ المقفى Rhymed Chronicle، الذى يستند بدرجة كبيرة إلى متى Matthew ، غير أنه يضم معلومات غير معروف مصدرها(٤٩).

٥- المصادر السيريانية

يعتبر "تاريخ العالم" الذى كتبه ميخائيل السورى Michael the Syrian أهم المصادر السيريانية(٥٠). وكان مؤرخا معتنيا حي الضمير ، والذى كان تحامله الوحيد مناهضته لبيزنطة . وهو يذكر المصادر السيريانية التى استخدمها ، وكلها مفقود الآن ؛ كما أنه عرف مصدرا عربيا مجهولا للسنوات من ١١٠٧م إلى ١١١٩م ، والذى يبدو أنه كان معروفا كذلك لإبن الأثير.

ويوجد تاريخ سيريانى مجهول ، كتبه قس مغمور فى الرها حوالى عام ١٢٤٠م ، يضم معلومات قيّمة حول الرها ، بخلاف معلومات مشتقة بوضوح من ميخائيل(٥١). وقرب نهاية القرن الثالث عشر كتب جريجورى أبو الفرج ، ويعرف بصورة أفضل باسم ابن العبرى Bar-Hebraeus ، تاريخا للعالم ، يعتمد بالنسبة إلى القرن الثانى عشر

---

(٤٦) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٤٧) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٤٨) المخطوط اليدوى موجود فى البندقية فى المكتبة الميختارية Mekhitarist Library .

(٤٩) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٥٠) نشره Chabot وترجمه الى الفرنسية.

(٥١) نشر القسم الأول من هذا التاريخ بترجمة انجليزية قام بها Tritton (*Journal of the Royal Asiatic Society;*)؛ انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع . ونشر Chabot النص الكامل باللغة السيريانية فى *Corpus Scriptorum Orientalium* .

بصورة رئيسية على ميخائيل وابن الأثير ، ولكن بقدر معين من المعلومات المشتقة من مصادر فارسية أو غيرها(٥٢).

٦- مصادر أخرى

تعتبر رحلة بنيامين التطيلى Voyage of Benjamin of Tudela المصدر اليهودى الوحيد الهام لهذه الفترة، وهو يورد رواية معتنية عن المستعمرات اليهودية فى سوريا فى وقت رحلته حول البحر المتوسط فى الفترة من ١١٦٦م إلى ١١٧٠م(٥٣).

أما المصادر الجورجية ، وهى ذات قيمة فقط بالنسبة لتاريخ جورجيا والأراضى المجاورة ، فقد جُمعت مع بعضها البعض فى تاريخ واحد "تاريخ جورجيا" Georgian Chronicle، ونشر فى القرن الثامن عشر(٥٤).

ويوجد باللغة السلوفية القديمة Old Slovanic رحلة حج دانيال هيجومين Pilgrimage of Daniel the Higumene وقد زار فلسطين عام ١١٠٤م(٥٥).

وتوجد قصص نرويجية معينة ، ولاسيما التى تتناول الحملة الصليبية للملك سيجورد Sigurd ، تشتمل على قطع من المعلومات التاريخية المثيرة للإهتمام فى وسط التفصيلات الأسطورية(٥٦).

---

(٥٢) نشرها Wallis Budge وترجمها الى الإنجليزية.

(٥٣) نشرها Adler .

(٥٤) نشره Brosset .

(٥٥) ترجمتها الى الفرنسية Mme de Khitrowo و لم أتمكن من رؤية النص السلوفاكى . كما أنها ترجمت من السلوفية المختصر رحلة حج الديّارة إيوفروسين *Pilgrimage of the Abbess Euphrosyne* .

(٥٦) يرد موجزها فى Riant, *Les Expéditions des Scandinaves* .

المرفق الثانى

معركة حطين

تصف المصادر العربية واللاتينية معركة حطين بشئ من الإسهاب ، غير أن ما يرد فى تلك المصادر يفتقر دائما إلى التنسيق . وقد حاولت فى الصفحات ٤٥٥-٦٠ أعلاه أن أذكر رواية متناسقة بقدر الإمكان عن المعركة ، على أنه لا بد من تسجيل الاختلافات . ومن سوء الطالع أن مؤرخين اثنين فقط يبدو أنهما قد حضرا المعركة هما إيرنول ، الذى يفترض أنه ، بصفته تبيعا لباليان (اوف ابيلين) ، قد صحب سيده وهرب معه ، وعماد الدين الأصفهانى الذى كان فى حاشية صلاح الدين ، هذا بخلاف تيرينس أو تيريكوس Terence (or Terricus) ، وهو من فرسان المعبد كتب رسالة مقتضبة حول المعركة ، وبعض المسلمين الذين اقتبس أبو شامة رسائلهم . بيد أن الرواية الأصلية التى كتبها إيرنول تلاعب فيها برنارد الخازنBernard teh Treasurer وغيره من المؤرخين التابعين على وليم الصورى ، وأما رواية عماد الدين، وبرغم أنها تنبض بالحياة أحيانا فإنها خليقة بأن توصف بالبلاغة أكثر من كونها تتصف بالدقة . وأما ما نقله الأفضل ، ابن صلاح الدين ، إلى ابن الأثير عن أزمة المعركة ففيه نبض الحياة ولكنه شديد الاقتضاب.

ويعتبر تاريخ هرقل Estoire d'Eracles المصدر الوحيد الذى أوضح أن حوى عقد مجلسين منفصلين قبل المعركة ، أحدهما فى عكا وربما يوم أول يولية ، والثانى فى صفورية مساء اليوم الثانى من يولية. وتحدث ريموند امير طرابلس في المناسبتين ، ولا شك أن الحديثين المذكورين فى تاريخ هرقل يعكسان جوهر كلماته التى قالها فعلا . غير أنه لابد وأن أخطأ تاريخ هرقل فى قوله بمجلس عكا عقد بعد أن أرسلت كونتيسة طرابلس لتعلن استيلاء صلاح الدين على مدينة طبرية ، إذ أن صلاح الدين دخل طبرية

صباح الثاني من يولية ؛ ولا يذكر ريموند طبرية في حديثه في عكا ، وإنما نصح فقط باتباع استراتيجية دفاعية . أما إيرنول ، وكما نشر تاريخه برنارد الخازن ، يتجاهل المجلس الأول . وربما اعتبر برنارد أن ريموند تحدث مرتين في نفس المناسبة . كما أن تاريخ De Expugnatione لا يذكر سوى المجلس الثاني . وخطبة ريموند الثانية معروفة لدى ابن الأثير الذى يكاد يسجلها بنفس الكلمات الواردة في تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول وتاريخ De Expugnatione ولذا تكون نصيحة ريموند يقينية رغم أن عماد الدين يعتقد أنه كان يحث على الهجوم ، أما المؤرخون المتأخرون، من بين حاشية ريتشارد قلب الأسد، المنحازون إلى جانب جوى (اوف لوسينان) فقد اتهموا ريموند بالخيانة . ويفترض Ambroise و Itinerarium Reicardi Regis كلاهما أن ريموند استدرج الجيش لوجود اتفاق بينه وبين صلاح الدين ، وترد نفس التهمة في رسالة من أهل جنوا إلى البابا ، وفيما بعد أوردها ابن العبرى السيرياني.

ويقول عماد الدين إن كونتيسة طرابلس أبقت أولادها معها في طبرية . ولكن إيرنول يقول إن ريموند هرب من المعركة ومعه أبناء زوجته الأربعة ، وثابت في رسالة (المواطن الجنوى) تلهفهم على انقاذ أمهم في المجلس قبل المعركة .

وقرر الملك جوى التحرك من صفورية بناء على طلب جيرارد سيد فرسان المعبد . وذلك مذكور بوضوح في تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول ، لكن مؤلف De Expugnatione، الذى لم يكن يرغب أبدا لسبب أو لآخر توجيه اللوم إلى فرسان المعبد، ألقى على ذلك الطلب من جيرارد التمويه والغموض، ذلك إذا حكمنا مما يبدو عليه أحيانا من تحفظات. ولأن ريموند هو سيد المنطقة ، فقد طلبت نصيحته فيما يتصل بالطريق الذى يتبع ، فاختار الطريق الذى يخترق حطين . وكانت نصيحته تلك ، التى سببت الكارثة ، هى الذريعة التى اتخذها أعداؤه لاتهامه بالخيانة . وتخبرنا رسالة الجنوي والرسالة المتداولة بين فرسان المستشفى عن المعركة ، بوجود ستة من الخونة ، من الواضح أنهم من فرسان ريموند - يدعى أحدهم لاوديسيوس أو ليوسيوس الطبرى Laodiccus or Leucius of Tiberias وهم الذين أخبروا صلاح الدين بحالة الجيش المسيحى. ومن المحتمل ، فى اعتقادى ، أن خيانتهم حدثت فى هذا المنعطف ، وأنها تكمن في اخطار صلاح الدين بالطريق الذى اختاره المسيحيون . ومن الصعب أن نفهم ماهى المعلومات المفيدة التى يعطونها له بعد ذلك. ويلقى كل من تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول باللائمة على ريموند لاختياره مكان المعسكر أمام حطين ؛ إذ كان يظن بوجود مياه هناك ، لكن نبع الماء كان جافا . ويروى صاحب تاريخ De Expugnatione قصة

أكثر اكتمالا؛ فيقول إن ريموند ، الـذى كـان فـى المقدمـة ، أوصـى بسـرعة المسـير إلى البحيرة ، لكن فرسان المعبد فى المؤخرة لم يقدروا علـى المضى أكـثر مـن ذلـك . وقـد ارتاع ريموند من قرار الملك بضرب المعسكر وصرخ " لقد ضعنا! " ؛ على أنه طالما اتخذ القرار ، فيفترض انه اختار موضع المعسكر ترتيبا على الإعتقاد الخاطئ بوجود مياه فيه . ويذكر عماد الدين ما أبداه صلاح الدين من اغتباط بتحركات الجيش المسيحى.

والموقع الفعلى للمعسكر ليس يقينيا . إذ أن تـاريخ De Expugnatione ، وتـاريخ حملة ريتشارد Itinerarium ، وتاريخ Ambroise ، يطلقـون عليـه قريـة ماريسـكالكيا أو ماريسكاليا - Marescalcia or Marescallia وربما يكون الاسم هو خان المسكينه المعروف الآن ؟ - بينما يطلق عليه عماد الديـن قريـة لوبيـة ، الواقعـة علـى الطريـق الحـالى علـى مسافة ميلين جنوب غرب قرنى حطين . ويطلق المؤرخون العرب على المعركـة معركـة حَطّين (أو حِطّين) ويوضحون بجلاء أن المشاهد النهائية قـد تمت فـوق قرنـى حطـين . وتطلـق حوليات الأرض المقدسة Annales de la Terre Sainte علـى المعركـة قرنيتـين Karneatin أى Qarnei Hattin - (قرنى حطين)(١). ويقول إيرنـول إن المعركـة حوربـت على مسافة فرسخين من طبرية . والقرنان فى الواقع على مسافة خمسة أميال من طبريـة فى خط مستقيم ، وحوالى تسعة أميال على الطريق.

ويقول عماد الدين إن رماة العرب بدأوا يطلقـون سـهامهم علـى المسـيحيين أثنـاء سيرهم ، ويعقّد القصة بقوله أن ذلك كان يوم الخميس لأنه أراد أن تنشب المعركة فـى يوم جمعة . ويشير إرنـول وتـاريخ هرقـل إلى خسـائر فادحـة تكبدهـا المسـيحيون أثنـاء سيرهم . وليس أكيدا الوقت الذى أشـعلت فيـه النـيران . ويقـول ابـن الأثـير ضمنـا إن النيران بدأت مصادفة على يد متطوع من المسلمين ، ويوضح بجلاء هو وعماد الدين أن النيران كانت متأججة عندما بدأت المعركة صباح يوم ٤ يوليـو . ويرسـم عمـاد الديـن صورة حية للصلوات والتلاوات فى معسكر العرب خلال الليل.

واستنادا إلى ابن الأثير ، حاولت قوات مشاة الفرنج صبيحة يوم المعركـة الاندفـاع نحو المياه . ويقول عماد الدين إنهم لم يتمكنـوا مـن التقـدم نحـو الميـاه بسـبب النـيران . ويقول تاريخ De Expugnatione إن أفراد قوات المشاة هربـوا فـى الحـال وهـم فـى جمـع واحد اعلى التل بعيدا عن الفرسان ورفضوا تنفيد أوامر الملك بالعودة قائلين إنهم يموتون عطشـا ، وقـد قتلـوا عـن آخرهـم هنـاك . ومـن الناحيـة الأخـرى يقـول إيرنـول إنهـم

(١) Qarnei هى مثنى Qarn أى Horn - قرن.

استسلموا ، رغم ذهاب خمسة من فرسان ريموند إلى صلاح الدين يتوسلون اليه أن يجهز عليهم جميعا . وربما اعتبر تصرفهم هذا خيانة اشار اليها فرسان المستشفى (انظر اعلاه) رغم أن إيرنول ، كما قال حرفيا ، يقول إنها ربما كانت ايضا استعطافا لموت سريع من احل الرحمة . أما بهاء الدين فلا يذكر سوى أن جيش المسيحيين انفصل إلى جزأين ، أحدهما - ويفترض المشاة - أحاطت به النيران فماتوا جميعا ، بينما وقع في الأسر الجزء الآخر أى المؤلف من الفرسان المحيطين بالملك . وتقول كافة المصادر الإسلامية إنه قبل بدء الهجوم على فرسان الفرنج كان هناك نزال بين مملوك وفارس مسيحى قتل فيه الأول الذى ظنه المسيحيون خطأ أنه ابن السلطان.

واستنادا إلى إيرنول ، فإن الملك عندما شاهد قتل المشاة طلب من ريموند شن هجوم على العرب . وريموند هو الشخص المناسب لشن هذا الهجوم باعتباره سيد المنطقة ، وهو هجوم الفرصة الوحيدة لكى يخلّص الجيش نفسه . ولذلك لا يبدو أن هناك أساسا لاتهام ريموند بالخيانة من قبل الكتاب المسيحيين ، والجنوي ، وأصدقاء الملك ، ولا لاتهامه بالجبن من قبل المسلمين . على أن المناورة الذكية التى نفذها تقى الدين بفتح صفوفه لكى يمر ريموند ، يبدو انها تؤيد الإتهامات الأولى رغم أن عماد الدين يقول إن رجال ريموند تكبدوا خسائر فادحة . ويقول إيرنول إن ريموند لم يهرب من ميدان القتال إلاّ عندما رأى أن وضع الملك ميئوسا منه وليست هناك أية فرصة لإنقاذه . ويقول تاريخ De Expugnatione إن باليان ورينالد امير صيدا قد هربا مع ريموند دون ذكر تفاصيل كما فعل عماد الدين. غير أن إيرنول يقول ضمنا إنهما هربا كل على حده ، وهو الأمر الأكثر احتمالا لأنهما كانا فى مكانين مختلفين فى الجيش. ولابد أنهما قد شقا طريقهما مع القليل من فرسان المعبد الذين يذكر تيرينس Terence هروبهم . وأما الرواية المفصلة عن المعركة الواردة فى تاريخ De Expugnatione فتتوقف عند فرار ريموند . وربما كان المؤرخ قد حصل على معلوماته من أحد رجال ريموند.

ويقول عماد الدين إنه بعد فرار ريموند بدأ الملك وفرسانه الانسحاب صعودا أعلى تل حطين تاركين جيادهم (التى يفترض انها كانت جريحة ولا فائدة منها على التل) . كما يلاحظ عماد الدين كم كان الفرسان المسيحيون يفتقرون إلى القوة فى غيبة جيادهم . ويقول ابن الأثير إنهم حاولوا نصب خيامهم على القمة ولكن الوقت لم يساعدهم إلا فى نصب خيمة الملك . وكان الفرسان مترجلين ومنهكين عندما أُسروا . ويقول كلاهما إن تقى الدين استولى على الصليب . وتروى رواية الأفضل اللحظات الأخيرة للجيش المسيحى ؛ بينما يفصّل ابن القادسى أن ريحا شديدة هبت فى منتصف

النهار عندما شن المسلمون هجومهم الأخير.

وتكاد الاحداث التى حدثت فى خيمة صلاح الدين بعد المعركة أن ترد بنفس الأسلوب لدى إيرنول وتاريخ هرقل وعماد الدين وابن الأثير . وليست هناك ضرورة للارتياب فى قصة الشراب الذى أعطى للملك جوى ، ولا فى مقتل رينالد (اوف شاتيلون) على يد صلاح الدين نفسه.

ويرد فى تاريخ Historia Regni Hierosolymitani أن قوام الجيش المسيحى كان ألف فارس من فرسان المملكة و ألف ومائتى فارس آخرين دفع نفقاتهم الملك هنرى الثانى ، و٤ آلاف من أنصاف الأتراك ، و٣٢ ألف من المشاة ، منهم ٧ آلاف دفع هنرى نفقاتهم . ومن الواضح أن هذا العدد مبالغ فيه . ويتحدث تاريخ حملة ريتشارد Itinerarium عن عدد اجمالى قدر ٢٠ ألف جندى ، وهو عدد لا يزال يحتمل أن يكون مرتفعا بصورة فائقة . وربما كان العدد الحقيقى للفرسان هو ألف فارس ، إلى جانب ٢٠٠ آخرين جهّزهم هنرى ، فيكون المجموع ١٢٠٠ فارس . وفى إحدى مخطوطات تاريخ هرقل يرد عدد الجيش كله على انه ٩ آلاف جندى ، وفى مخطوطة اخرى ٤٠ ألف جندى . وتتحدث رسالة فرسان المستشفى عن سقوط ألف فارس فى المعركة بين قتيل وجريح ، وفرار ٢٠٠ فارس . ويقول إيرنول إن ريموند امير انطاكية أحضر ٥٠ أو ٦٠ فارسا (تختلف قراءات المخطوطات). ويقول Terence إن ٢٦٠ فارسا من فرسان المستشفى قتلوا فى المعركة ويكاد أن لم يهرب احد – وهو يقول "nos" التى قد تعنى نفسه فقط . ويرد فى رسالة فرسان المستشفى أن الذين بقوا على قيد الحياة ٢٠٠ فقط. وليس من الممكن أن يزيد عدد المشاة على عدد الفرسان بنسبة تصل إلى عشرة إلى واحد ، وربما كان عددهم يقل كثيرا عن ١٠ آلاف جندى . وربما كان عدد خيالة أنصاف الأتراك الخفيفة ٤ آلاف خيال ، على انه لا يبدو انهم لعبوا دورا خاصا فى المعركة وربما كانوا أقل من ذلك . وقد يكون جيش صلاح الدين اكبر بصورة طفيفة ، ولكن ليست هناك أرقام يعتد بها . أما ما أورده عماد الدين من أن العدد كان ١٢ ألف خيال وأعداد غفيرة من المتطوعين ، فهو يقينا مبالغ فيه ، رغم انه ليس بنفس المبالغة التى أورد بها عدد الجيش المسيحى وهو٥ آلاف جندى . (ومع ذلك يمضى بهاء الدين أبعد من ذلك قائلا إن ٣٠ ألف قتلوا و ٣٠ ألف أسروا). وقد يجوز لنا أن نفترض أن مجموع جيش صلاح الدين النظامى بلغ حوالى ١٢ ألف جندى، وتضخم بالمتطوعين والفصائل الآتية من الحلفاء ليصل إلى ١٨ ألف تقريبا . ويبدو أن الجيشين كانا من أضخم الجيوش التى القى بها فى ساحة القتال حتى آنذاك سواء من

جانب المسيحيين او من جانب اعدائهم ؛ على انه ينبغى اعتبار أن ١٥ ألف جندى فى الجانب المسيحى و ١٨ ألف جندى فى الجانب الإسلامى ، على أنها الأعداد القصوى. وكان فرسان المسيحيين أفضل تسليحا من الجنود المسلمين أيا كانوا ، غير أن الخيالة الخفيفة الإسلامية ربما كانت أفضل تسليحا من أنصاف الأتراك والمشاة ايضا، أو افضل من المسيحيين.

ملاحظـــات

أهم مصادر المعركة هى كما يلى:

الفرنجيـة

Ernoul, pp. 155-74; Estoire d'Eracles, ii, pp. 46-49; De Expugnatione, pp. 218-28; Itinerarium Regis Ricardi, pp. 12-17; Benedict of Peterborough, ii, pp.10 14، ويوجد بنيديكت رسالة ابناء جنوا إلى البابا ورسالة المعبـدى Terence Ambroise,؛ ed. Paris, cols. 67-70; Ansbert, Gesta Frederici, containing letter of the Hospitallers to Archimbald; Historia Regni Hierosolymitani, pp.52-3; Annales de la Terre Sainte, p. 218.

العربيـة

Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 110-16 ؛ Ibn al-Athir, pp.679-88 ، بما فى ذلك وصف الأفضل للمعركة ؛ Abu Shama, pp. 262-89 مشتملا على رواية عماد الدين الكاملة عن المعركة واقتباسات من بهاء الدين ومحمد بن القادسى.

ويرد فى تاريخ ميخائيل السورى (iii, p.404) وصف مقتضب للمعركة ، كما يرد وصف أطول وغير دقيق فى ترجمة ابن العبرى Bar-Hebraeus Budge, pp. 322-4 ، يخلط فيه الملكة ايزابيلا بالكونتيسة إيشيفا كونتيسة طرابلس . ويرد وصف غير دقيق فى النسخة الأرمينية لميخائيل السورى (pp.396-8) و Kirakos of Gantzag (pp. 420-1) والروايات السيريانية والأرمينية كلها تصف ريموند على انه خائن. وتوجد مناقشة قيمة للمصادر ودور ريموند فى Baldwin, Reymond III of Tripolis, pp.151-60 .

المرفق الثالث

شجرات الأنساب

APPENDIX III: GENEALOGICAL TREES

1. ROYAL HOUSE OF JERUSALEM: COUNTS OF EDESSA: LORDS OF SIDON AND CAESAREA

2. PRINCES OF ANTIOCH AND KINGS OF SICILY

3. COUNTS OF TRIPOLI AND PRINCES OF GALILEE

Elvira of Aragon m. RAYMOND I, Count of Toulouse, Marquis of Provence, Count of Saint Gilles

Alfonso-Jordan, Count of Toulouse

Helen of Burgundy m. BERTRAND, Count of Tripoli (illegitimate ?)

Bertrand (illegitimate)

Cecilia of France m. PONS widow of Tancred of Antioch

Hugh Falconberg of Saint-Omer, Prince of Galilee

Agnes m. William I of Bures, m. ? (2) Eschiva of Prince of Galilee | Saint-Omer

Agnes m. Reynald II Mazoir of Marqab

RAYMOND II m Hodierna of Jerusalem

William II, Prince of Galilee

? Elinand of Bures, m. ? Ermengarde Prince of Galilee of Ibelin

Agnes m. Gerard of Sidon

Melisende

RAYMOND III (2) m. Eschiva of Bures, Princess of Galilee, lady of Tiberias m. (1) Walter Falconberg of Saint-Omer, probably grandson of Hugh of Saint-Omer, Prince of Galilee

Margaret of Ibelin m. Hugh

Maria of Beirut, m. William widow of Baldwin of Ibelin

Otto m Euphemia of Sidon

Ralph m. Agnes of Sidon

Note. The genealogy of the Princes of Galilee is very uncertain. *See* Ducange, *Familles d'Outremer*, ed. Rey, pp. 447–55, and Grousset, *Histoire des Croisades*, II, pp. 840–50.

4. LORDS OF TORON, OULTREJOURDAIN, NABLUS AND RAMLEH (HOUSE OF IBELIN)
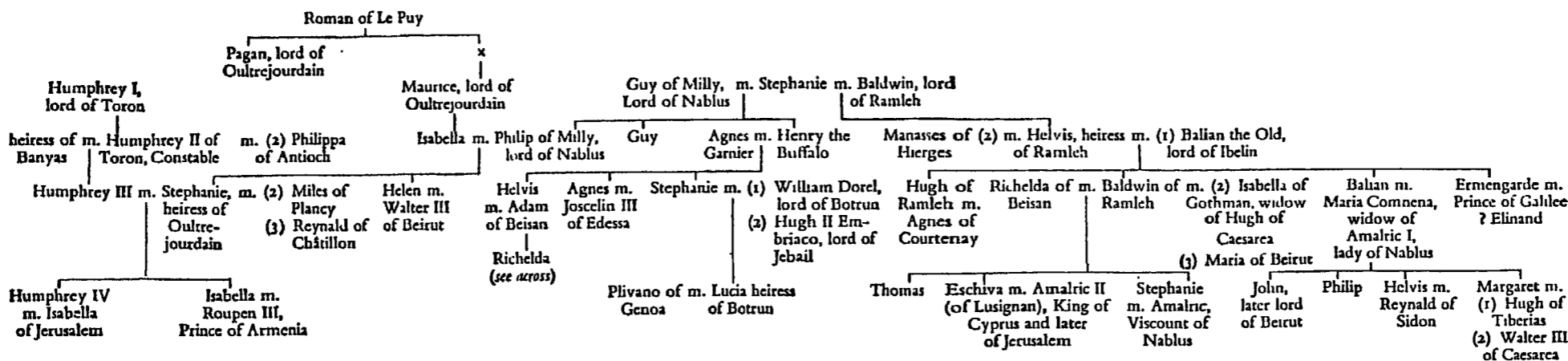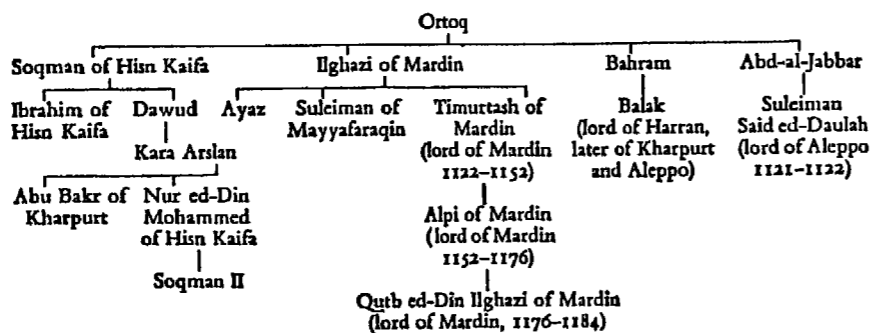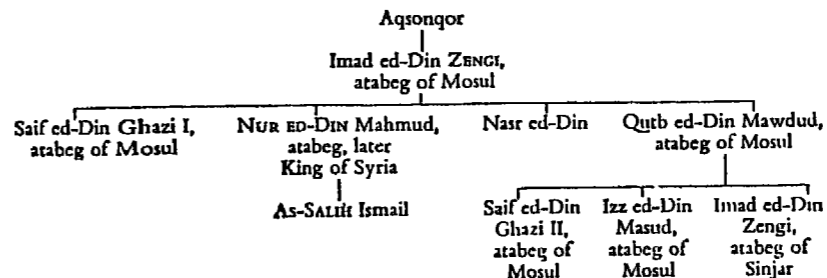
BIBLIOGRAPHY

[NOTE. This bibliography is supplementary to the bibliography in vol. I of this *History*, and does not include works already mentioned there. The same abbreviations are employed.]

I. ORIGINAL SOURCES

1. COLLECTIONS OF SOURCES

BORGO, F. DAL. *Diplomata Pisana*. Pisa, 1765.

DEMETRACOPOULOS, A. K. *Bibliotheca Ecclesiastica*. Leipzig, 1866.

Fornmanna Sögur, 12 vols. Copenhagen, 1825–37.

HALPHEN, L. and POUPARDIN, R. *Chroniques des Comtes d'Anjou*. Paris, 1913.

Liber Jurium Reipublicae Genuensis (ed. Ricotti), 3 vols., in *Monumenta Historiae Patriae*. Turin, 1854–7.

MARCHEGAY, P. and MABILLE, E. *Chronique des Eglises d'Anjou*. Paris, 1869.

MURATORI, L. A. *Antiquitates Italicae*, 6 vols. Milan, 1738–42.

Recueil des Historiens des Croisades, Lois, 2 vols. Paris 1841–3, including the *Assises* and *Lignages* of Jerusalem (*R.H.C. Lois*).

REINAUD, M. *Extraits des Historiens Arabes*, in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*, vol. II. Paris, 1829.

TAFEL, G. L. F. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur ältern Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856–7.

2. LATIN AND OLD FRENCH SOURCES

Ambroise. *L'Estoire de la Guerre Sainte* (ed. Paris). Paris, 1897.

Annales Barenses, in *M.G.H.Ss.* vol. V.

Annales Beneventani, in *M.G.H.Ss.* vol. III.

Annales Herbipolenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.

Annales Palidenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.

Annales Romani, in *M.G.H.Ss.* vol. V.

Annales S. Rudberti Salisburgensis, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.

Annales de Terre Sainte (ed. Röhricht), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.

Ansbert. *Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra*, in *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1892.

Arnold of Lübeck. *Chronica Slavorum*, *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1868.

Benedict of Peterborough. *Gesta Regis Henrici II* (ed. Stubbs), 2 vols., Rolls Series. London, 1867.

Bernard, St, Abbot of Clairvaux. *Epistolae*, *M.P.L.*, vol. CLXXXII.

Burchard of Mount Sion. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XII. London, 1896.

Caesarius of Heisterbach. *Dialogus Miraculorum* (ed. Strange), 2 vols. Cologne, 1851.

Cartulaire de Notre Dame de Chartres (ed. L'Epinois and Merlet), 3 vols. Chartres, 1852–5.

Cartulaire de Sainte Marie Josaphat (ed. Kohler). *Revue de l'Orient Latin*, vol. VII. Geneva, 1899.

Cartulaire du Saint Sépulcre (ed. Rozière). Paris, 1849.

Cartulaire Général de l'Ordre des Hospitaliers (ed. Delaville Le Roulx), 4 vols. Paris, 1894–1904.

Cartulaire Général de l'Ordre du Temple (ed. D'Albon). Paris, 1913.

Chronicon Mauriniacense, in *R.H.F.* vol. XII.

Chronicon Sancti Maxentii, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*

Chronicon Vindocinense, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*

Dandolo. *Chronicon Venetum*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. XII.

De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1875.

Ernoul. *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier* (ed. Mas Latrie). Paris, 1871.

Estoire d'Eracles, *R.H.C.Occ.* vols. I and II.

Eudes, *see* Odo.

Gesta Ambaziencium Dominorum, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*

Gesta Consulum Andegavorum, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*

Gestes des Chiprois, *R.H.C.Arm.* vol. II.

Historia Ducum Veneticorum, in *M.G.H.Ss.* vol. XIV.

Historia Regni Hierosolymitani, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.

Historia Regum Hierusalem Latinorum, ed. in Kohler, *Mélanges pour servir à l'histoire de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1906.

Historia Welforum Weingartensis, in *M.G.H.Ss.* vol. XXI.

Ibelin. *Le Livre de Jean d'Ibelin*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.

Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864.

John of Salisbury. *Historiae Pontificalis quae Supersunt* (ed. Lane Poole). Oxford, 1927.

John of Wurzburg. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. V. London, 1896.

Landolph Junior. *Historia Mediolanensis*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. V.

Letters of King Amalric, Masters of the Temple, officials of the Temple and other officials of Outremer, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.

Lignages d'Outremer, in *R.H.C. Lois*, vol. II.

Louis VII, King of France, letters, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.

Miracula Sancti Leonardi, *Aa. Ss.* (Nov.), vol. III.

Necrologia Panormitana (ed. Winkelmann), in *Forschungen zur deutschen Geschichte*, vol. XVIII. Göttingen, 1878.

Odo (Eudes) of Deuil. *De Profectione Ludovici VII in Orientem* (ed. Waquet). Paris, 1949.

Osborn. *De Expugnatione Lyxbonensi*, in Stubbs, *Memorials of the Reign of Richard I*, Rolls Series. London, 1864.

Otto, Bishop of Freisingen. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss.*, *in usum scholarum*, 1912.

Otto, Bishop of Freisingen. *Gesta Friderici Imperatoris* (ed. Simson), *M.G.H.Ss.*, *in usum scholarum*, 1912.

Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss.*, *in usum scholarum*, 1912.

Paschal II, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. CLXIII.

Passiones Sancti Thiemonis, in *R.H.C.Occ.* vol. V.

Peter Diaconus. *Chronica* (ed. Wattenbach), *M.G.H.Ss.* vol. VII.

Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem (trans. Bishop of Clifton), *P.P.T.S.* vol. IV. London, 1896.

Radulph of Diceto. *Opera Historica* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1876.

Ralph of Coggeshall. *Chronicon Anglicanum* (ed. Stevenson), Rolls Series. London, 1875.

Robert of Torigny. *Chronique* (ed. Delisle), 2 vols. Rouen, 1872–3.

Roger of Hoveden. *Chronica* (ed. Stubbs), 4 vols., Rolls Series. London, 1868–71.

Romuald of Salerno. *Chronicon* (ed. Arndt). *M.G.H.Ss.* vol. XIX.

Suger, Abbot of Saint-Denis. *Gesta Ludovici cognomine Grossi* and *Historia gloriosi regis Ludovici VII* (ed. Molinier). Paris, 1887.

Suger, Abbot of Saint-Denis. *Opera* (ed. de la Marche). Paris, 1867.

Vita Alexandri III, in *Liber Pontificalis*, vol. II.

Vita Sancti Bernardi, in *M.P.L.* vol. CLXXXV.

Walter the Chancellor, *Bella Antiochena* in *R.H.C.Occ.* vol. V.

Wibald, *Wibaldi Epistolae*, in Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. I.

William the Monk. *Dialogus Apologeticus* (ed. Wilmart), in *Revue Mabillon*. Paris, 1942.

William the Monk. *Vita Sugerii*, in Suger, *Opera* (*see* above).

William of Nangis. *Gesta Ludovici VII*, in *R.H.F.* vol. XX.

William of Tyre. *Die lateinische Fortsetzung* (*Latin Continuation*) (ed. Salloch). Leipzig, 1934.

3. Greek Sources

Chrysolan, Peter, Archbishop of Milan. *De Sancto Spiritu* in *M.P.G.* vol. CXXVII.

Cinnamus, John. *Epitome Historiarum*, *C.S.H.B.* Bonn, 1836.

Eustratius, Archbishop of Nicaea. *On the Holy Ghost*, in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. I.

Nicetas Choniates (Acominatus). *Historia*, *C.S.H.B.* Bonn, 1835.
Neophytus. *De Calamitatibus Cypri* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864. (In preface to *Itinerarium Regis Ricardi*.)
Phocas, John. *A Brief Description* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. v. London, 1896.
Prodromus, Theodore. *Poemata*, selections in *M.P.G.* vol. cxxxiii and *R.H.C.G.* vol. ii.

4. Arabic Sources[1]

Abu Firas. *Noble Word*, ed. in Guyard, 'Un Grand Maître des Assassins' in *Journal Asiatique*, 7me série, vol. ix, Paris, 1877.
Abu'l Mahâsin. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. iii.
Abu Shama. *Book of the Two Gardens*. Extracts in *R.H.C.Or.* vols. iv and v; full edition. Cairo, 1870–1. (Except when otherwise stated references are to the *R.H.C.* edition.)
Al-Azimi. *Abrégé* (ed. Cahen), in *Journal Asiatique*, vol. ccxxxii. Paris, 1940.
Beha ed-Din ibn Shedad. *Life of Saladin* (trans. Conder), in *P.P.T.S.* vol. xiii. London, 1897.
Bustan al-Djami li Djami Tawarikhi z-Zaman (ed. Cahen), in *Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut de Damas*, vols. vii and viii. Damascus, 1938.
Ibn Jubayr. *Voyage* (Arabic text ed. Wright). Leyden, 1852.
Ibn Moyessar. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. iii.
Ibn at-Tiqtaqa. *Al-Fakhri* (*History of Musulman Dynasties*); trad. Amar. Paris, 1910.
Imad ed-Din. *Al Fath al Qussi fi'l Fath al Qudsi* (ed. de Landsberg). Leyden, 1888. Extracts quoted by Abu Shama, *op. cit.*
Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (later portions trans. Blochet) in *Revue de l'Orient Latin*, vols. iii and vi. Paris, 1895–8.
Maqrisi. *History of Egypt* (trans. Blochet). *Revue de l'Orient Latin*, vols. viii–x. Paris, 1900–2.
Sibt ibn al-Djauzi. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. iii.
Usama ibn Munqidh. *Autobiography* (ed. Hitti). *An Arab-Syrian Gentleman of the Crusades*. New York, 1929.
Zettersteen Chronicle. Anonymous chronicle (ed. K.V. Zettersteen). Leyden, 1919.

5. Armenian, Syriac, Georgian and Hebrew Sources

Basil the Doctor. *Funeral Elegy of Baldwin of Marash*, *R.H.C.Arm.* vol. i.
Gregory the Priest. *Continuation of Matthew of Edessa's Chronicle*, *R.H.C.Arm.* vol. i.
Gregory IV Dgha, Catholicus. *Elegy on the Fall of Jerusalem*, *R.H.C.Arm.* vol. i.
Nerses Shnorhali, Catholicus. *Elegy on the Fall of Edessa*, *R.H.C.Arm.* vol. i.

[1] References to Ibn al-Athir are to his *Sum of World History* (*Kamil at-Tawarikh*), except when otherwise stated.

Anonymous Syriac Chronicle (full text ed. Chabot). *C.S.C.O.* vol. III. (Quoted as *Chron. Anon. Syr.*) References are to Tritton's translation—see above, vol. I, Bibliography, p. 349—except where otherwise stated.

Georgian Chronicle, in Brosset, *Histoire de la Géorgie*.

Benjamin of Tudela. *Voyages* (ed. Adler). London, 1907.

Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicle* (trans. Biellablotzky), 2 vols. London, 1835.

6. Slavonic and Norse Sources

Daniel the Higumene. *Vie et Pèlerinage de Daniel, Hégoumène Russe* (trans. de Khitrowo). *Itinér. Russes en Orient, Société de l'Orient Latin*. Geneva, 1889.

'Pèlerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne, Princesse de Polotsk' (trans. de Khitrowo), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1896.

Agrip of Noregs Konungasögum (ed. Munch), in *Samlinger til det Norske Folks Sprog og Historie*, vol. II. Oslo, 1834.

Sigurdar Saga Jorsalafara ok brœdra hans in Fornmanna Sögur, vol. VII.

II. MODERN WORKS

Abel, F. M. *Géographie de la Palestine*, 2 vols. Paris, 1933–8.

Allen, W. E. D. *History of the Georgian People*. London, 1932.

Almeida, F. de. *Historia de Portugal*, 4 vols. Coimbra, 1922–6.

Anselme de la Vierge Marie (P. de Guibours). *Histoire Généalogique et Chronologique de la France*, 9 vols. Paris, 1726–33.

Baldwin, M. W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem*. Princeton, 1936.

Bel, A. Article 'Almohads', in *Encyclopaedia of Islam*.

Bernhardi, W. von. *Konrad III*. Leipzig, 1883.

Brosset, M. F. *Histoire de la Géorgie*. St Petersburg, 1849.

Browne, E. G. *Literary History of Persia*, 4 vols. London, 1906–30.

Cahen, C. 'Indigènes et Croisés', in *Syria*, vol. XV. Paris, 1934.

Cahen, C. 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 1951.

Caspar, E. 'Die Kreuzzugsbullen Eugens III', in *Neues Archiv der Gesellschaft*, vol. XLV. Hanover, 1924.

Cate, J. L. 'A Gay Crusader', in *Byzantion*, vol. XVI, 2. New York, 1943.

Codera, F. *Decadencia y Desaparición de los Almoravides en España*. Saragossa, 1899.

Cosack, H. 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug', in *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, vol. XXXV. Vienna, 1914.

Cuissard, C. *Les Seigneurs du Puiset*. Orleans, 1881.

CURZON, H. DE. *La Règle du Temple.* Paris, 1886.

D'ALBON, G. A. M. J. A. 'La Mort d'Odon de Saint-Amand', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. XII. Paris, 1904.

DELAVILLE LE ROULX, G. *Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre.* Paris, 1904.

DELISLE, L. *Mémoire sur les Opérations Financières des Templiers.* Paris, 1889.

DIB, P. Article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique.*

DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem.* Paris, 1894.

DOSITHEUS, Patriarch of Jerusalem. 'Ιστορία περὶ τῶν ἐν 'Ιεροσολύμοις Πατριαρχευσάντων. Bucharest, 1715.

ERDMANN, K. 'Der Kreuzzugsgedankes in Portugal', in *Historische Zeitschrift*, vol. CXLI. Munich, 1930.

GERULLI, E. *Etiopi in Palestina.* Rome, 1943.

GLEBER, H. *Papst Eugen III.* Jena, 1936.

GRANDCLAUDE, M. 'Liste d'Assises remontant au premier Royaume de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier.* Paris, 1929.

HAGENMEYER, H. *Chronologie du Royaume de Jérusalem.* Paris, 1901.

HAMMER, J. VON. *Histoire de l'Ordre des Assassins* (French trans.). Paris, 1833.

HERTZOG, E. *Die Frauen auf den Fürstentronen der Kreuzfahrerstaaten.* Zürich, 1915.

JOHNS, C. N. 'The Crusaders' attempt to colonize Palestine and Syria', *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. XXI. London, 1934.

JOHANSON, E. 'The Crusade of Henry the Lion', in *Medieval Essays presented to G. W. Thompson.* Chicago, 1938.

KOHLER, C. 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.

KÜGLER, B. *Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges.* Stuttgart, 1866.

LA MONTE, J. L. 'The Lords of Caesarea in the period of the Crusades', in *Speculum*, vol. XXII. Cambridge, Mass., 1947.

LA MONTE, J. L. 'The Lord of Le Puiset on the Crusades', in *Speculum*, vol. XVII. Cambridge, Mass., 1942.

LA MONTE, J. L. 'The Lords of Sidon', in *Byzantion*, vol. XVII. New York, 1944.

LA MONTE, J. L. 'To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?' *Byzantion*, vol. VII. Brussels, 1932.

LANE POOLE, S. *Saladin.* London, 1898.

LE QUIEN, M. *Oriens Christianus*, 3 vols. Paris, 1740.

LUCHAIRE, A. *Louis VI le Gros.* Paris, 1890.

MARINESCU, C. 'Le Prêtre Jean', in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. X. Bucharest, 1923.

MARTIN, ABBÉ. 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacobites de Jérusalem', in *Journal Asiatique* (8me série), vols. XII and XIII. Paris, 1888–9.

MELVILLE, M. *La Vie des Templiers.* Paris, 1951.

MUSIL, A. Article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam.*

NAU, F. 'Le croisé lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique* (9me série), vol. XIV. Paris, 1899.

NEUMANN, C. *Bernhard von Clairvaux und die Anfänge des zweiten Kreuzzuges.* Heidelberg, 1882.

RAMSAY, W. M. 'Preliminary report on exploration in Phrygia and Lycaonia' and 'War of Moslem and Christian for the posession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire.* Aberdeen, 1906.

REY, E. G. 'Les Seigneurs de Giblet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1895.

REY, E. G. 'Les Seigneurs de Barut' and 'Les Seigneurs de Montréal et la Terre d'Oultrejourdain', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.

REY, E. G. 'Résumé de l'Histoire des Princes d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.

RICHARD, J. *Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine.* Paris, 1945.

SCHLUMBERGER, G. *Campagnes du roi Amaury de Jérusalem en Egypte.* Paris, 1906.

SCHLUMBERGER, G. *La Numismatique de l'Orient Latin.* Paris, 1878.

SCHLUMBERGER, G. *Les Principautés Franques du Levant.* Paris, 1877.

SCHLUMBERGER, G. *Renaud de Châtillon.* Paris, 1923.

SCHWAB, M. 'Al-Harizi et ses pérégrinations en Terre Sainte', in *Archives de l'Orient Latin.* vol. I. Paris, 1881.

VACANDARD, E. *Vie de Saint Bernard, Abbé de Clairvaux*, 2 vols. Paris, 1895.

VAILHÉ, S. 'Les Laures de Saint Gérasime et de Calamon', in *Echos d'Orient*, vol. II. Paris, 1899.

VOGUE, C. J. M. DE. *Les Eglises de la Terre Sainte.* Paris, 1860.

WALKER, C. H. 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain', in *American Historical Review*, vol. LV. New York, 1950.

تم بحمد اللہ تعالی